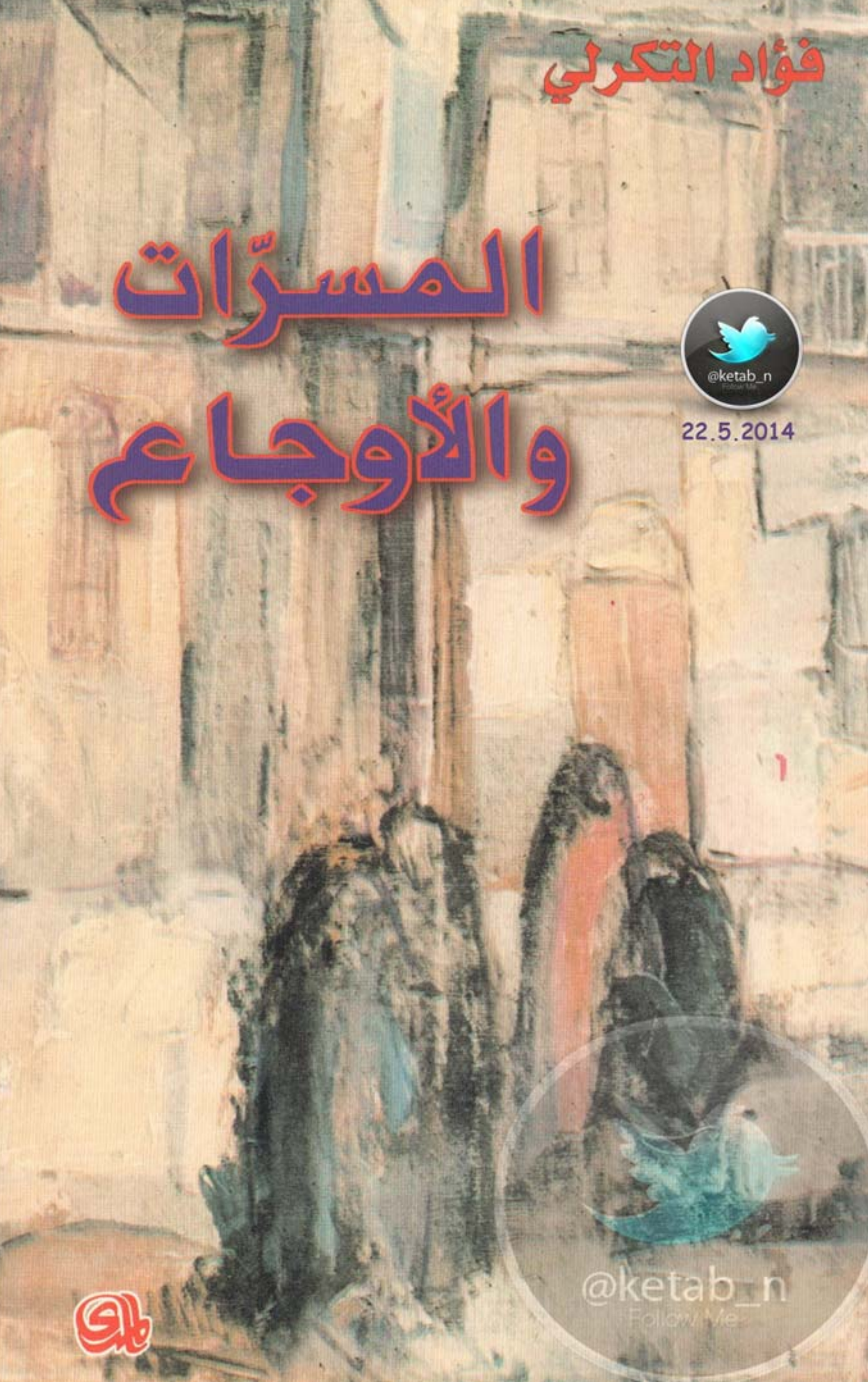

فؤاد التكرلي
المسرّات والأوجاع
@ketab_n
22.5.2014
@ketab_n

فؤاد التكرلي

المسرّات والأوجاع

المدى

المسرّات والأوجاع

منشورات





اسم المؤلف : فؤاد التكرلي
عنوان الكتاب : المسرات والأوجاع
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

Author : Fuad Al-Takarli
Title: Gladnesses and Pains
Al Mada : Publishing Company
First Edition 1998
Copyright © Al mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

١

لم يخطر ببال أحد من أهالي خانقين أن يثبّت التاريخ الذي وُجدت فيه (دربونة الشوادي) ، ولا لماذا لم يخطر له ذلك على بال . كانت موجودة منذ الأزل تقريباً ، في تلك الزاوية الشرقية من المدينة ، التي يقل فيها الزحام ؛ وكان ارتباط وصف الشوادي بها كارتباط (آل عبد المولى) بمدينتهم وبمظهرهم الشاذ ، فهم كلهم يعملون في النجارة ، كبيرهم وصغيرهم ، وهم كلهم يعيشون في بيوت متلاصقة مفتوحة على بعضها ، في ذلك الزقاق المليء بقطع الخشب والنشارة الذي سماه أهل خانقين (دربونة الشوادي) لسبب خاص جداً . فمنذ سنوات وسنوات كان الجد عبد المولى يسكن بمفرده كوخاً منعزلاً بجوار الأحراش ، في طرف ناءٍ من المدينة ؛ ويعمل في تقطيع ما يتيسر له من خشب الأشجار ، ثم ينقله الى المدينة ليبيعه بأبخس الأثمان . كان معروفاً بجسده القصير المتين وبخلقته الغريبة ؛ فهو أقرب الى القرد منه الى الإنسان . ولما كان أهل خانقين خليطاً عجيباً من الأجناس تشترك ، بالصدفة ، في الدين ، فقد اتفقوا ، وهم يعلمون أن عبد المولى مجهول الأصل ، على ترديد القول المأثور (ولله في خلقه شؤون) . كان قصيراً طويل الذراعين بأنف أفطس وعينين واسعتين جاحظتين ؛ وكان فمه مشقوقاً بغير براعة ، بحيث تبرز أسنانه الكبيرة الصفراء عند أول محاولة منه لتحريك شفتيه ، لذلك كان صموتاً ؛ وكان أبناؤه من بعده وأبناء أبنائه صوراً مشوهة أو محسّنة قليلاً من هذا النموذج الباهر .

لم يعلم أحد من أي مكان قدم الى تلك المنطقة الحدودية المفتوحة ، من الشمال أو الشرق أو من تحت الأرض ؛ غير أنه كان يتكلم العربية بلكنة أقرب الى لكنة الهنود . وبعد ما مرت عليه بضع سنين ، يعمل بجدٍ مثل جرذ كبير ، بنى له كوخاً آخر جوار كوخه ، وصار يستخدمه كمخزن لحفظ الخشب قبل نقله الى المدينة . ومع انتهائه من بناء الكوخ الثاني أخذ يفكر بالزواج ويبحث عمن ترضى به بعلاً . ثم انه ابتنى بيتاً صغيراً محاذياً كوخيه ، استعداداً لاستقبال ابنة الحلال . ولم يطل الزمن به طويلاً حتى عثر عليها . كانت ابنةً لنجار ، لا علاقة متينة لها بالجمال ، لكنها كانت انثى ولوداً . وتضاربت الآراء مع الاشاعات عن سبب قبول هذه الفتاة ابنة النجار التي لا علاقة لها بالجمال ، بقاطع الخشب القادم من المجهول والذي لا علاقة له هو الآخر بالشكل البشري . قيل إنه والدها ، أراد التخلص من هذه المصيبة ، وقيل إنها ثروة عبد المولى التي ظنت الفتاة أنه يخفيها عن الناس ، وقيل بل سَحَرَها ؛ ثم أشيع ، أخيراً أنها رأت فيه شيئاً أضاع صوابها فوافقت . وهكذا ، بعد عام أو حوالي ذلك ، تعالى في البيت الصغير صراخ الطفل الأول . سماه والده (سمر الدين) وكان ميلاده صدمةً عاطفية لأمه ولجده والدها ؛ فهو لا يشبه أمه قط ولا أباها ولا أي فرد من أفراد عائلتها ؛ بل كان نسخة غير محسنة من أبيه . وبسبب خشية والدته وجده من سخرية أهالي خانقين المستقبلية ، فقد رفضا باصرار اقتراح الأب تسميته (جمال الدين) . ثم ولد الابن الثاني (منصف الدين) ، الذي اقتنع والده بسرعة بأن من المستحسن الابتعاد عن تسميته (قمر الدين) . وكان (منصف الدين) منصفاً في اختياره ، باستقامة ، شكل والده . مع ولادة (منصف الدين) بنى عبد المولى كوخاً آخر ، وقرر دون سابق إنذار ، أن يشتغل بالنجارة وأن يفتتح له دكاناً يعمل فيه ، وفعل بالضبط ما أراد . وكانت ولادة الابن الثالث (راية الدين) متوافقة مع أول يوم يبدأ فيه عبد المولى تعامله مع الزبائن ، وأول مرة يسأل فيها الجد ابنته عما إذا كان المولود الجديد على نفس مقاييس أبيه .

كان امتهان عبد المولى النجارة فاتحة خير عليه ، فزاد ماله وشبع هو وعائلته واقتنع ، مؤقتاً ، بما لديه ولم يكترث لشؤون الناس الأخرى . كان يميل بطبعه ، وبطبيعة الأمور ، الى الانعزال عن أهل المدينة . فالأشغال كثيرة والحمد لله والاولاد يكبرون والهموم لا تزول . رُزق بعد ذلك بـ(كمال الدين) و(لطف الدين) و(ممتاز الدين) ، وكان مؤمناً مخلصاً في حياته وعمله ، لا يهمه أن يرى الآخرين مهمومين ولا يسأل عن الأسباب . ولم يكن يرى سوءاً في خلقته ولا في خلقة أولاده الستة ؛ لذلك لم يفهم ؛ قولة جدهم لابنته أمهم بأن خلقتها تنقلب من ولد الى ولد لتصير مثلهم ؛ ولم يفهم أكثر ، كل ذلك البكاء والعويل الذي مارسته الأم لساعات بعد انصراف أبيها .

كانت قبيلة (آل عبد المولى) في طريقها للتأسيس ، ولقد شارك كل أفراد العائلة في هذه المهمة الشاقة ؛ فلم يكد (سمر الدين) يبلغ الثامنة من عمره حتى فتح له والده سبيل الأحراش ، غير مكترث بهشاشة سنه ولا بما يمكن أن يتعرض له من مخاطر مرئية أو غير مرئية في ذهابه الى الغاب وفي عودته ، محملاً بالخشب . كانت في تصرف عبد المولى عزيمة صلبة وقاسية تلائم مظهره ؛ ويبدو أنه ، في دخيلته ، كان معتمداً على هذا المظهر الذي نقله الى ابنه ، ليخيف به من تسوّل له نفسه التعرض للطفل .

وحينما جاوز سمر الدين العاشرة لحق به أخوه منصف الدين الى الأحراش ، وكانت العائلة قد ازدادت عدداً بولادة (سيف الدين) و(سور الدين) ، الذي ارتبطت ولادته بوفاة جده المفاجئة . ومع أستغراب المشيعين لمنظر عبد المولى وتابعيه الصغار ، إلا أن أحداً لم يعبر عن أفكاره علناً ، فقد كسب هذا الرجل احترامهم باخلاصه وبما صار يملك ، رغم ماكان يُشاع عن مساعدته واشتراكه مع المهربين المتكاثرين تلك الأيام .

كانت دربونة الشوادي في بداية القرن العشرين قد امتدتْ واخذت أبعادها النهائية تقريباً ؛ فقد تعددت الزيجات في العائلة . تزوج سمر الدين

بيسر ودون تعقيد . فالأوضاع اختلفت عما كانت عليه حينما رغب أبوه بالاستقرار ؛ ولم تستطع فتاته ولا عائلتها أن تقاوم إغراء المنزل الجديد وتجهيزاته الكاملة والثياب والمخشلات .

بعد سمر الدين تزوج ، بنفس الأسلوب ، منصف الدين وراية الدين وكمال الدين ؛ وتم تشييد الدور ، كما تعهد الأب ، قبل الزواج . كانت دوراً بسيطة متشابهة ، مبنية بالطين والخشب والحجارة الصغيرة ؛ ولم تكن تختلف في مظهرها الخارجي عن دور خانقين كثيراً ، إلا بتلك الأنفاق والمداخل الجانبية التي تصل داراً بأخرى ؛ بحيث يمكن لمن يسكن دار كمال الدين الواقعة في الطرف القريب من المدينة ، أن يسلك طريقاً غير منظور ، عبر دور الأشقاء ، ليصل الدار الوسيعة التي شيّدها عبد المولى لنفسه ، دون أن يلحظه المارة في دربونة الشوادي . ومن أجل الاستقرار النهائي ، جرى بناء دكاكين النجارة قبالة الدور بالضبط ؛ فأمام بيت سمر الدين وزوجته وأولاده الصغار ، يقع دكانه أيضاً . ولم يكن عليه إلا السير ثلاثة أمتار ليجد نفسه في دكانه... بين معداته وأخشابه ومتاعبه التي لن نتحدث عنها .

وكذا كان الأمر مع الأبناء الذين لم يتزوجوا بعد ، فقد كان لكل ولد من عائلة عبد المولى ، حينما يشتد عوده ، الحق بأن يطالب بالاستقلال في دكانٍ يخصه مع كافة لوازم النجارة . ولم يشترط الأب عمراً معيناً ، بل جسداً قوياً قادراً على العمل بكفاءة ، وكان على حق ؛ فلطف الدين استلم دكانه ولم يجاوز السادسة عشرة وأبدى مهارة تلفت النظر في إدارة شؤونه .

قبيل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ ، بقي من الأبناء اثنان لم يتزوجا هما سيف الدين وسور الدين . وكان عدد أطفال العائلة قد بلغ ستة وثلاثين طفلاً ، عشرين ذكراً وست عشرة انثى ، فاذا أضفنا الى هذا العدد الآباء والامهات وعبد المولى نفسه وزوجته لبلغ العدد الكلي للعائلة خمسين فرداً ، عدا سيف الدين وسور الدين ، اللذين كانا يخفيان أكثر من مشكلة

تحت ثيابهما ، لن نتعرض لها الآن ، إذ أن من الأهمية بمكان أن نذكر حقيقة مريرة عادية في عائلة عبد المولى ، هي أن هذا العدد الغفير من الأطفال لم يشذ عن القاعدة العظمى التي حكمت شكل وتقاطيع العائلة . فالأولاد والبنات هم على السواء في القبح وشذوذ المظهر الموروث ؛ ولولا ميزة الشعر الطويل أو القصير لما أمكن معرفة الذكر من الأنثى . وكان من حسنات دربونة الشوادي هذه ، أن أطفالها لم يكونوا يحسون باختلال في شكلهم إلا عندما يغادرون الى المدينة أو يأتيهم زائر أو زبون .

انتظر سور الدين أن يتزوج شقيقه الأكبر منه سيف الدين ، ليشرع هو الآخر بسلوك هذا الطريق الملتوي ؛ غير أن سيف الدين تجنب كل حديث عن هذه القضية ؛ ولم يكن هنالك ، بالأصل ، كثيرون يهمهم السؤال عن سبب النكوص هذا . وكان عبد المولى آخر من يكترث بزواج جديد في العائلة ، فقد أتعبه تشييد الدور والدكاكين لهذه العصبة الغريبة من الأبناء ، فترك سيف الدين على هواه ولم يهمه أن يتحقق مما كان يُشاع عن شذوذه الجنسي . إلا أن سور الدين لم يجد ذلك عدلاً ، فصمم على الزواج قبل أخيه ؛ ووقع اختياره على فتاة رآها صدفة تمرَ مع والدها أمام دكانه ، فسأل عنها وعلم حالاً بأن بعض المعضلات تنتظره... كانت ابنة مأمور كمرك متقاعد من أهالي خانقين ؛ وكان هذا ، عدا كونه من عائلة معروفة ، يتصرف كأنه مدير الكمارك العام الحالي ، وليس مأموراً متقاعداً . ومع ذلك ، فحين تقدم لخطبتها حسب الأصول المرعية ، لم تشتط الآنسة المتكبرة ، وحيدة أبيها ، شططاً جسيماً ؛ أرادت أن يُشاد بيتها ، حسب تقاليد آل عبد المولى ، قريباً من قصر والدها وسط مدينة خانقين ، وكان ذلك مشكلة كبرى بالطبع ؛ فعبد المولى ، الذي كان مسيطراً على كل واردات دكاكين أبنائه ، لم يجد من الحكمة أن يبني بيتاً خارج دائرة مراقبته . ثم إنه كان يقيم دوره على أرض تحت تصرفه منذ زمن طويل ، لايدفع ثمناً ولا يقدم حساباً لأحد . أما بناء دار وسط المدينة ، فهذا شأن آخر يجب إمعان

التفكير فيه . من وجهة نظر سور الدين ، فبسبب أن الفتاة تستطيع القراءة والكتابة وأن والدها كان موظفاً حكومياً مرموقاً ، لم يشأ أن يترك هذه الفرصة النادرة تفلت منه ؛ ففي زواجه منها رفع واضح لاعتبار أسرة عبد المولى كلها . قال ذلك لوالده بحرقة ، فأنصت هذا اليه باهتمام وطلب أن يُمهل بضعة أيام ليبحث الموضوع من جميع جوانبه . ثم تقرر أن يأخذوا رأي والدة سور الدين العجوز . كانت هذه ، بعد تلك السلسلة اللعينة اللامنقطعة من الولادات ، قد ضعفت جسماً وعقلاً ؛ وحين جاء عبد المولى وولده لشرح الأمور لها والاستعانة برأيها السديد لبناء مستقبل ابْنهما ، فتحت عينيها المظلمتين وبقيت ، ممددة في فراشها ، تنظر إليهما نظرات فارغة ؛ ثم رفعت ذراعها الهزيلة قليلاً وأخرجت من فمها صوتاً كالحشرجة ، فسَّره ولدها السعيد بأنه إشارة موافقة ومباركة لزواجه . تظاهر الوالد بالاقتناع لكنه اشترط أن يشتري سور الدين الأرض من ماله الخاص ليبنيها هو له ، وبقي مصراً على رأيه هذا . ثم إنه ، بعد حين ، عرض على ابنه أن يقرضه ثمن الأرض على أن يتعهد له باعادته ، فوافق ذلك الشاب الجسور ، وكان قد بلغ الثالثة والعشرين وهو لا يملك شروى نقير سوى ما يهبه له والده من بعض أرباح عمله في النجارة .

ورغم اتفاق سور الدين ووالده فقد تعثر مشروع الزواج وقتاً طويلاً . قبل كل شيء ، بدأت الوالدة ، بعد الخطبة الرسمية بأسابيع ، برمي الحجر الأول حين توفيت فجأة . كانت مريضة ، وكلهم يعرفون ذلك ، لكنها لم تكن على وشك الرحيل . شيّعتها العائلة كلها ، على كل حال ، وكان منظر الوالد يسير بأبهة وحزن خلف التابوت ، يحف به أولاده وأحفاده القادرون على السير ، منظراً عجيباً لم ترَ مثله خانقين طوال تاريخها . خيل للكثيرين أنهم يشهدون مسيرة مجموعة من ممثلي السيرك! وكان على الجميع بعد ذلك أن يحزنوا لشهور طويلة .

إلا أن الدار شيّدت أخيراً كما أحبت العروس ؛ وحفلة الزواج تمت

حسب الأصول ؛ وكان ذلك في سنة ١٩١٧ ، والعالم مايزال مضطرباً من حرب كبرى لم تنته ويلاتها بعد .

لم يكن سور الدين طموحاً ولا كان يعتقد أنه صار بطلاً بمجرد زواجه من فتاة تعرف القراءة والكتابة ، لكنه كان يريد طفلاً بأسرع وقت ممكن ، فلم يتحقق له ذلك دون أن يعرف الأسباب . ومضت سنوات وهو يبذل جهده عبثاً مع الزوجة الحنون ، حتى تكاملت ثمانية أعوام ونيّف . آنذاك ، وفي يوم ما ، بعد تأسيس المملكة العراقية الجديدة ، أقبل عيد الاضحى الكبير ، وكان أطفال العائلة ، ذكوراً وأناثاً ، قد ازدادوا ازدياداً ملحوظاً ذلك الوقت ، فتقرر أن يقصد قسم منهم دار عمهم البعيد في المدينة سور الدين ، لتقديم التهاني وتقبيل الأيادي . كانت رحلة مثيرة ؛ فهناك ، في المدينة ، الشوارع العريضة والعربات وأماكن اللهو والناس المختلفون ؛ وهناك ، في آخر المطاف ، أمل غامض «بعيدية» من العم المحترم . وكان كل شيء طبيعياً ، سوى أن عدد الأطفال القادمين السعداء لأداء الواجب العائلي كان مرتفعاً الى حد ما ، فقد تجاوز الخمسة عشر طفلاً ، يرتدون ثياباً متشابهة براقة بصورة غير مألوفة ويتراصون بانتظام في سيرهم وسكونهم ؛ يضاف الى ذلك ، لسوء الحظ ، شكلهم المتماثل الذي لا يبعث على السرور . من جهة أخرى ، حين قُرعت البوابة بلطف شديد ، صادف أن السيدة الصغيرة زوجة العم سور الدين كانت أقرب إليها من قرينها فتقدمت ببراءة وفتحتها فوقع بصرها حالاً على الشلة السعيدة من الأطفال أولاد الأخوة ، يحيطون بها على حين غرة . جعلتها العيون الجاحظة المجتمعة حولها تشعر بأنها سقطت في بركة مليئة بالضفادع . حيّوها بنقيق طفولي جميل ، فأطلقت صرخة رعب وتهاوت موشكة على السقوط لولا تشبثها بحافة الباب الكبيرة . كانت مفاجأة وصدمة في نفس الوقت ، لايمكن تحليلها أو معرفة نتائجها اللاحقة بسهولة . سارع سور الدين لنجدة زوجته ، واستطاع بصبره وحكمته أن يعيدها الى حالها الطبيعية وأن يدخل الجمع الى بيته ويتقبل تهانيهم الحارة .

كانت هذه الحادثة ، كما قيل واشيع على نطاق واسع في خانقين ، مقدمة ضرورية وغير مفهومة لميلاد ابن سور الدين البكر بعد ذلك بتسعة أشهر وبضعة أيام . سموه على اسم جده لأمه (عبد الباري) ، الأمر الذي لم يرتح له كثيراً جده لأبيه ، الذي ما انفك ، وقد جاوز السبعين ، يبحث باصرار عن اسم جديد يضيفه الى الدين . كان ذلك في بداية خريف سنة ١٩٢٥ ، وكل شيء على مايرام .

سعدت ام عبد الباري بوليدها البكر سعادة كبرى شبه عمياء ، فهي لاترى في هذه الدنيا الفانية من يستحق البقاء غيره ؛ وكانت في عالمها المقصور عليه ، ومنذ البداية ، تبحث بلهفة عما يثبت لها اختلاف خلقته عن أولاد عمومته الكثر . ومع مضي الأيام والأشهر ، لم تجد ، لتعاستها ، أي دليل في هذا الشأن ، سوى شامة سوداء كبيرة على ردفه الأيسر ؛ فتعزّت بما لحظته من هدوئه وطاعته وهو ينمو تحت ظل رعايتها ورعاية والدها جده . كان مأمور الكمرك السابق فخوراً بحفيده ، يقضي معه جلّ وقته ، يحدثه ويدلله ويداعبه ، ذاكراً له كم هو قبيح قبحاً يملك شغاف القلب في الحال . ولم يكن ، هذا الجد الحساس بماضيه الوظيفي ، يقبل بأن يندس حفيده في تلك العشيرة الغريبة التي تحتل دربونة الشوادي ، فمنع ابنته من التردد على ذلك المكان ، وبذل محاولات لم تكن عقيمة لابعادها وحفيده عن ذلك الجمع التعيس . ولم تكن في حوزة سور الدين أية قابلية لمعارضة زوجه أو أبيها ، فاكتفى بزيارة الدربونة خفية من أجل شؤون عمله أولاً ولتسديد دين أبيه عليه . كان صموتاً ، يعمل كثيراً ولا يحب التدخل في شؤون الغير ؛ وكان جسده القصير المشوه ، قوياً متين العضلات ، لم يخنه يوماً ، أو ليلة ، في أي شأن يتطلب جهداً غير عادي . ورغم أنه لم يكن شغوفاً بأخوته وبأبنائهم وبناتهم ، إلا أن تلك الزيارات السرية التي كان يقوم بها في غفلة عن أم عبد الباري وأبيها ، كانت تمنحه الأمان وترضي حنينه المبهم لذلك الماضي المليء بالقذارات والطعام السيء والوجوه القبيحة . كان

يعتقد بأن الاخلاص للعائلة هو دلالة على النبل ورفعة الأصل ؛ لذلك كان يتشبث بأهله تشبث الأعمى ، عسى أن تجعله هذه العاطفة ، يوماً ما ، نبيلاً أو ذا أصل رفيع . واستناداً لاعتقاده البالي هذا أيضاً ، فقد اعتبر والد زوجته مأمور الكمرك السابق ذا أصل نبيل لأنه سافر الى بغداد لزيارة شقيقته التي مات عنها زوجها منذ سنوات عشر وتركها وحيدة بلا معين .

كان عبد الباري ، في هذه الأثناء ، يكبر ويشتد عوده علانية ، ويزداد قبحه وشبهه بأولاد عمومته البعيدين ؛ ولم يكن هذا الوضع ليزعج أمه ، فلقد اعتادت على رؤية تلك العينين الجاحظين والذراعين الطويلتين وتراكيب العضلات الغريبة في جسم ابنها . ولم يكن خافياً حب هذا المخلوق الصغير لها وعاطفته الحارة نحو شخصها ، فمهما كان شكل العينين ودرجة ابتعادهما عن الجمال ، فإن فيض الدموع منهما حين رؤيته لأمه ، لابد أن يكون علامة توله هذا الطفل العزيز بمن جاءت به الى الدنيا .

كان سور الدين يملك بالتأكيد بعض المزايا الخفية ، لكن فهمه بسهولة ما يقال له ، لم يكن من تلك المزايا ؛ فكان يتلبث قليلاً ثم يطلب بصوت خافت وبأدب أن يُعاد القول عليه مرة اخرى . أما حين رجع جد عبد الباري ، مأمور الكمرك السابق ، من سفرته الى بغداد ، وهتف بابنته وزوجها أن يعدّا نفسيهما للرحيل الى العاصمة والاقامة مع شقيقته في بيتها الواسع الفارغ في (الحيدر خانة) ، فقد طلب سور الدين بأدب جم أربع مرات ان تُعاد عليه هذه الأقوال العجيبة! كان أكثر من مضطرب واكثر بكثير من مشوش أو مقلوب باطنه على ظاهره ؛ ولقد زاد الانفعال من حدة دمامته ، بحيث ساور زوجته ، فجأة ، سؤال وهي تتطلع اليه : أي قدر اخطبوطي لعين جعل حياتها تشتبك مع فزاعة الطيور هذه ؟

حكى الأب لهما بأن شقيقته لا علاقة لها في الدنيا بأحد وأنها في دارها الكبيرة ، كالعصفور في قفص ، لا تدري ما تعمل بكل تلك الغرف الفارغة في الطابق الأول الذي لا تستطيع حتى ارتقاء السلم إليه ؛ وهي لم تطلب غير

وجود ابنة أخيها وزوجها معها . قال إنها انخرطت في البكاء انفعالاً حين أخبرها بزواج ابنته وبميلاد عبد الباري ؛ لكنها لم تخفِ رغبتها ، مع ذلك ، في استيفاء روبية واحدة كل شهر أجرةً عن الطابق الأول بأكمله . وأضاف بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي ذكّره بأخته هذه الأيام ومنحه القوة والعزم ؛ وإلا فكيف تسنى له أن يتحمل مشاق السفر الطويل دون أن يمرض ؟

ثم إنه سبحانه وتعالى رتّب أمور الدكان على أحسن مايرام ، فعلى مبعدة عشرة أمتار من دار الشقيقة عثر على محل كبير فارغ للأيجار ، يصلح كدكان ومخزن في آن واحد . أليست هذه الأمور مجتمعة تشير الى إرادته تعالى بوجوب الانتقال سريعاً الى بغداد وترك نتانة خانقين وسكانها ؟

ثم إنه فجّر ، بعد هذا الحديث البليغ ، قنبلته المذهلة ، فأخبرهما بأن هناك أملاً قوياً جداً في أن يتوسط لدى أحد أصدقائه في وزارة المعارف بتعيين أم عبد الباري معلمة في مدرسة ابتدائية قريبة .

أصيب سور الدين بنوبة صمت بعد أن فهم فحوى حديث جد عبد الباري الذي استمر ، دون انقطاع ، ساعتين . كان ينقّل عينيه من زوجته الى أبيها ، ومنه إليها ، وقلبه طوال الوقت يخفق بشدة بين ضلوعه . لم يمر بمشاعر عنيفة قدر هذه التي يعانيها الآن وهو يسمع اسم بغداد يضرب طبلة أذنه كل لحظة . أن يتفوق على اخوته جميعاً ويصير نجاراً بغدادياً بارعاً! أمر يدير الرأس حقاً . وسار علانية الى دربونة الشوادي ينقل لأبيه وإخوته هذه الأنباء الخارقة للعادة ؛ ورجع دون طائل . ثم إنه شدَّ الرحال ، متصابراً ، مرة اخرى وجلس وسطهم ، بين تلك الهيئات القردية المندهشة ، وهو لا يعلم أيقوم حقاً بما يتوجب عليه أم أنه يطرق الباب الخطأ ؟ ولما لم يتفوه أحد منهم بكلام مفيد غير والده الشيخ الذي طالبه بوفاء دينه قبل السفر ، فقد انقطع عن الاتصال بهم واستمهل أباه فترة زمنية قصيرة لايفاء الدين ؛ وكان يكظم غيظه بصعوبة . بدا كأنهم لا يحبون أن يسمعوا بأمر هذا التغيير للأحسن الذي يأمله أخوهم الصغير ، وأحس سور الدين بأن هؤلاء التعساء يشعرون بغيرة منه لا يحسنون إخفاءها .

كان من باب التعقل بعد ذلك ، وحسن التدبير زيارة العمة المحترمة والاطلاع على صحة ما أفاد به والد أم عبد الباري . وهكذا فعلوا .

لم يبالغ الجد كثيراً ؛ فالدار واسعة حقاً ، لكنها قديمة ؛ تأكلها الرطوبة من كل جانب ، ويشتمل طابقها الأول على ثلاث غرف كبيرة ، فارغة . بدت العمة لسور الدين جشعة ، ثرثارة ، كثيرة الادعاء ؛ أما الدكان فقد كان في نهاية الشارع ، وهو معروض للبيع لا للايجار . خيل لسور الدين أن هذا الدكان يشكّل صفقة مربحة وفرصة نادرة .

كانت الزيارة الأولى موفقة ومتعبة ، فتحت للزوجين آفاقاً رحبة مشرقة ، غير أنها أدخلتهما في مأزق تدبير الأمور المادية . وقصد سور الدين أهله مرة أخرى يطلب عونهم في الرأي والتدبير ، ولم يمنحوه أياً منهما . لا رأي لديهم ولا مال . اذهب أنت وزوجك فحاربا ؛ نحن هنا ، في دربونة الشوادي ، قاعدون . وما أن فهم سور الدين مضمون الرسالة بشكلٍ واضح حتى تملكته الراحة ودخل قلبه الاطمئنان . الآن ، صار الرحيل مشروعاً ومشرّفاً في آن واحد ؛ وكنا على مشارف العشرية الثالثة من القرن العشرين المبارك ، وجَدّ عبد الباري ، مأمور الكمرك المتقاعد ، يراقب الأمور عن كثب وينتظر اللحظة المواتية ليتدخل ويحل كافة العقد والمشاكل بضربة سحرية واحدة أو بضربتين لا أكثر .

اجتمع بهما ذات مساء ، وكان قد عاد لتوه من سفرة ثالثة الى بغداد ، وطلب منهما أن يستعدا لجدول مضبوط من المواعيد والاعمال . كان يملك كل المعلومات والأرقام ، ولم يكن من السهل مناقشته في أي رأي يطرحه ؛ لذلك كان يقرر الأمور بدلاً عنهما كنتائج منتهية . قال إنهما لن يحتاجا بعد الآن الى بيتهما في خانقين ؛ يُباع إذن . ثمنه سيغطي بدل شراء الدكان في بغداد ويتبقى منه ما يكفي لسداد دين الوالد ويزيد ؛ بهذه الزيادة يشتري سور الدين خشباً يخزنه ويضمن مستقبل عمله في بغداد لسنوات قادمة .

هيا .

وفي تلك السنوات الخالية من المعجزات ، بدا لسور الدين ، البعيد عن الفطنة ، أن من الغرابة بمكان كبير أن تتسارع الأمور هكذا وتنقضي ويتحقق كل شيء قال به جَدُّ عبد الباري ، خلال أقل من سنة . ولم تشرق شمس أول نهار من سنة ١٩٣١ حتى كانوا قد استقروا في تلك الدار القديمة المنزوية في محلة الحيدر خانة ، وفي الطابق الأول منها على وجه التحديد ، وحتى كان سور الدين يملك دكاناً للنجارة سماه (معمل نجارة خانقين الحديثة) ، وكان ذلك بوحي من أم عبد الباري ، التي كانت على جهل تام فيما إذا كانت مدينة خانقين تملك عبر تاريخها ، اسلوباً قديماً وآخر حديثاً في النجارة ، أم لا . ولقد تظهر كلمة معمل زائدة في التسمية ، لكن سعة الدكان وكمية الخشب الكبيرة التي خُزنت فيه ، جعلت من الصعب تحاشي هذه الصفة . ثم بدأت الحياة دورتها المعتادة في الحيدر خانة ، وتكشفت الخبايا المحيطة بالعائلة الصغيرة . العمة العزيزة ، مثلاً ، أصرت على أن يدفعوا لها مسبقاً أجرة ستة أشهر ؛ ثم أعلمت ابنة أخيها ، بعد أسابيع ، بأنها لا تستطيع أن تطبخ لنفسها يومياً ، ورجتها أن تساعدها إما في المطبخ أو بجعلها تشترك معهم في الأكل . ثم انضاف الى ذلك ، أن خلو الطابق الأول من مرحاض أجبر العائلة وصغيرها على النزول الى بيت الراحة في الطابق الأرضي ، الذي كانوا يجدونه ، غالباً ، مقفلاً عليه لغرض في نفس العمة الكريمة . صبرت أم (عبد الباري) وحدثتْ أباها بما تعمله شقيقته بهم ، فصبّرها وأقنعها بما يتداوله الخلق بأن الصبر طيب . كان عبد الباري قد جاوز السادسة من عمره وصار قادراً على السير والكلام والخدمة اليسيرة ، وكان هادئاً بطبعه ، بليداً مثل الجميع ، يفهم من الأمور والأحاديث أقلها شأناً ؛ لكنه كان صبوراً أيضاً ، متين الجسم ، وفي نفسه كرم لا يخفى . اعتاد أن يشارك والده في ذهابه المبكر الى المعمل ، ليبقى هناك يتجول بلذة بين الأخشاب والآلات محدّثاً والده بحكايات لا تنتهي . ثم تبين أنّ عليه أنْ يتعلم ، فسجلته والدته في المدرسة الابتدائية ، وكانت على

مبعدة شوارع منهم ، إلا أنه لم يستمر طويلاً . أنهى الصف الرابع بمشقة عظمى من جهته ومن جهة معلميه ، فقرر والداه أن يتركاه وشأنه ؛ فعاود مسيرته مع أبيه الى المعمل ، حيث كان يجد سعادة كبيرة في المساعدة والتعلم .

إلا أن تاريخ أسرة سور الدين عبد المولى يبقى ناقصاً نقصاً مخلاً لو استمر الحديث عن عبد الباري حسب . ذلك أن انتقال الزوجين الى الطابق الأول وتغيّر الجو والمكان والمزاج أحياناً ، أعقبه بشهور قليلة إعلان السيدة ام عبد الباري لزوجها بأنها حامل في شهرها الثاني فتملكه انفعال حاد ودمعت عيناه ثم انحنى وأخفى وجهه بين يديه وراح يبكي بصمت .

ولد (توفيق) إذن في الساعة الخامسة من فجر يوم الأحد الخامس عشر من حزيران ١٩٣٢ ، وسُمي على اسم والد جده لأمه . ولما أسرع مأمور الكمرك بالحضور في اليوم الثالث من ولادة حفيده الثاني ، لم تبادره ابنته بأي قول حين دخل عليها الغرفة يلهث من صعود السلم ، بل اكتفت برفع وليدها توفيق عاليا لأبيها ، فتلقاه بصرخة عجب وذهول أيقظت الصغير وأبكته .

ـ سبحان الله ، سبحان الله .

واحتضنه وضمه الى صدره وأخذ في تقبيله عديد القبل .

كان (توفيق) طفلاً نادرا في جماله ، فشعره الأسود الناعم ، منثور على جبينه ، وعيناه واسعتان طويلتان وتقاطيعه دقيقة مرسومة باتقان على صفحة وجهه الصافي البياض .

بعد أيام ، حضر من هناك الجد الآخر الكبير عبد المولى ، وكان قد اقترب من الثمانين فانحنى ظهره وكادت ذراعاه تصلان الأرض . جَمَدَ طويلاً أمام الوليد ، لا يمسه ولا يأخذه من أمه ؛ ثم التفت الى سور الدين وطلب منه إبريق ماء ليتوضأ ويصلي . عاد بخشوع من صلاته فانحنى على حفيده وقبّله في رأسه قبلتين وتمتم :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم... وجوهٌ يومئذٍ ناضرة الى ربها ناظرة . صدق الله العظيم .

ثم أخرج من جيب زبونه الطويل ليرة ذهبية براقة ، وضعها بعناية في حجر توفيق الصغير ؛ وتلبّث بعد ذلك ، يتأمل بسكون وجه حفيده الجميل . استدار بعد لحظات الى ابنه وأعلمه بأنه ينوي السفر للحج الى بيت الله الحرام هذه السنة ، فاذا رجع حياً بإذن الله ، فإن بعض الأمور تقتضي من سور الدين أن يأتي الى خانقين للتحدث معه .

لم يزر عبد المولى الديار المقدسة تلك السنة ، بل في السنة التي أعقبتها . رافقه ابنه البكر سمر الدين ، وكما تهجس فإنه لم يعد من رحلته تلك ودُفن في المدينة المنورة ، وكان سعيداً . حزنت عليه العائلة كما يجب وأقيمت له الفاتحة في جامع خانقين ؛ أُطعم ، في اليوم الثالث منها ، خلق كثير ؛ واعتبر الفقيد ، بين الناس ، من المؤمنين المرضي عنهم عند الله . وحين عاد سور الدين بعد أسبوع أخبر زوجته بان أحداً لن يرث أي شيء من المتوفي ، فالأرض ملك للدولة ، والبيوت والدكاكين شُيّدت فضولاً وللعائلة حق التصرف فيها فقط ؛ والموجودات النقدية غير موجودة وأثاث دار الوالد متهرئ ممزق ، لا يسوى فلساً ؛ وهذا هو كل شيء . كان توفيق الصغير يملأ البيت بصراخه ولعبه ودلاله ، وعبد الباري ووالده يشتغلان بهمة وحيوية في معمل خانقين للنجارة الحديثة ؛ وكانت أم عبد الباري راضية فخورة بأبنيها وزوجها وبمعملهم الجديد وبآفاق المستقبل التي يزيّنها لها والدها . أسرَّ لها بأنه التقى الصديق الذي يعمل في وزارة المعارف وحدثه عنها وعن قابلياتها العلمية ؛ فوعده هذا خيراً . هنالك فكرة لفتح معهد لإعداد المعلمين والمعلمات ، ستكون الدراسة فيه لمدة سنتين ، وسيخبره حالما تنضج الفكرة ويبدأ التسجيل .

كان المستقبل يبدو ، إذن ، باسماً مسحوراً ، وتوفيق في سنته الثالثة يتراكض متدحرجاً من هنا الى هناك ويلثغ بكلامه الحلو ويزداد وسامة وعناداً

ومشاكسة . كان مدار اهتمام ورعاية العائلة كلها ، وفي المقدمة العمة العجوز التي شُغفت به حباً غير معقول تفوقت به أو كادت على حب والدته له ؛ وبسبب توفيق عادت الى المطبخ ، وصارت تتسامح في استلام اجرة الطابق الأول ؛ وتغيرت عاداتها وطريقة صرفها للنقود ، فهي تغرق توفيق بالهدايا وتشتري له ولعائلته من الأطعمة والفواكه والحلويات ما لم تكن تحلم بأنها ستفعله يوماً ما في حياتها . ومن أجله أيضاً ، من أجل ضحكته المبهجة وحلاوة عينيه ، رضيتْ أن تبيع نصف الدار لأبنة أخيها... أم توفيق .

غير أن هذا الحادث لا يدخل الآن ضمن الترتيب الطبيعي للزمن ، فهو قد حدث بعد وفاة والد أم عبد الباري المفاجئة وبعد انقضاء أوقات الحزن العظيم التي سبّبها رحيل مأمور الكمرك السابق وقرار ابنته الرزين ببيع دارهم في خانقين . كان ذلك سنة ١٩٣٩ ، غبَّ مقتل الملك غازي الأول وقبيل الحرب العالمية الثانية . كان الجميع سعداء بهذه الصفقة ؛ خاصة سور الدين ، الذي أدرك بفهمه البطيء أن طالعه حسن جداً فيما يتعلق الأمر بزوجته أم عبد الباري ؛ فقد اثبتت هذه السيدة أنها تملك نظراً بعيداً وتضع نقودها دائماً في الموضع الصحيح ؛ ففيما تبقى من ثمن القصر في خانقين بعد دفع بدل شراء نصف البيت في الحيدر خانة وبقية المصاريف ، طلبتْ من بعلها شراء مكائن جديدة للنجارة وكمية من الخشب يملأ بها مخزن المعمل . وهكذا كان ؛ وهكذا ضمنوا ، برأيهم ، المستقبل وهكذا صاروا أغنياء .

حينما بلغ توفيق العاشرة من عمره وبدأ يخط الكلمات الأولى في دفتره ويقرأ ما سطره بافتخار ، جاءهم نبأ صاعق من خانقين ، تختلط فيه المأساة بسوء الفهم . قيل لهم إن سيف الدين أُصيب بحادث . أي نوع من الحوادث يمكن أن يواجهه عم عبد الباري ؟ لا أحد يعرف . ماذا حصل إذن ؟ وكيف تسنى لهذا الذي حصل أن يحصل ؟ والنتيجة ؟ قُتل سيف الدين .

كان السرد بهذه الطريقة مروعاً وغير مقبول ، مما دفع بسور الدين ،

بعد تردد ، الى السفر الى خانقين لاستجلاء حقيقة الموقف إن أمكن . وبدلاً من ثلاثة أيام للذهاب والعودة (فالوقت لا يسمح بغيابه طويلاً عن المعمل والطلبات تنهال كالمطر ومعها مئات الدنانير) بقي أسبوعاً كاملاً ويوماً إضافياً ؛ وحين آب أخيراً كان مضطرباً مشوشاً مثل جرو ضُرب بمائة حذاء على رأسه . كان لديه أمر خطير يريد أن يفضي به ، إلا أن الكلمات اللعينة كانت تحرن في بلعومه . حممته زوجته ـ فهي امرأة المواقف الصعبة ـ ثم سقته كأسين (آنسون) وأرقدته في فراشه ليغفو قليلاً . كان ذلك في أواخر نيسان ١٩٤٢ والربيع على الأبواب .

حدَّث سور الدين زوجته...

قيل ، والله أعلم ، إن تلك المجندة البولندية الحسناء ، المتبرجة كالشمس كانت تتمشى بمفردها ، في لباسها العسكري الضيق ، قريباً من الأحراش حيث كانت الصدفة الشيطانية قد زرعت العم سيف الدين ، ذلك الأعزب الأبدي ، منهمكاً في عملية قطع الأخشاب المعتادة . كانت شقراء ، بيضاء ، يتناثر شعرها الذهبي الطويل على كتفيها متلاعباً مع الريح ؛ وكانت قد نزعت عنها سترتها وبقيت في الثوب الحريري المنتفخ وهي ترفع وجهها بين الحين والآخر ، تستنشق عميقاً الهواء ذا الرائحة الخاصة . كانت هي السعادة كاملة . ولم نعرف ما اختلج في نفس سيف الدين ولا أية عواطف عنيفة ماجت في صدره وهو يراقب هذه المخلوقة السرابية تتهادى على مبعدة منه . إلا أن الثابت ، للأسف ، هو أنه أسرع نحوها ، وقيل هجم عليها ، واحتواها بين ذراعيه القويتين ثم شرع في تقبيلها بشغف شديد ، في وجهها وفمها وعينيها وخديها ورقبتها ، وقيل في شعرها أيضاً . كان أقصر منها بالطبع ، ولكنه كان الأقوى والأعتى ، جسداً وعاطفة ، فلم تستطع المقاومة واكتفت باطلاق صرخات هلع عالية وهي تراه يرميها أرضاً وينزع عنها ، بوحشية تتناسب طردياً مع غريزته الفائضة ، ملابسها الداخلية الرقيقة . مرة أخرى ، لايمكن الجزم بمستوى الحالة النفسية والعاطفية والشعورية التي

كان سيف الدين يمرّ بها آنذاك أو يعانيها على الأصح ؛ فالمظهر الخارجي يعطي اليد العليا لصفة الجنون ، أما بواطن الأمور المخفية فلا تتطرق لهذا ، بل تستعمل قاموس العقد النفسية والغريزة الحيوانية الكامنة وحب البقاء وتثبيت الذات . ولقد كان من الممكن ، ربما ، أن تُحسم القضية بصورة علمية وبدون أضرار ، لو جرى تحقيق نزيه محايد يزن شدة النوازع ومدى قابلية السيطرة عليها لدى طرف ، وحالة الرعب والأذى الجسدي والروحي والمهانة ، في الطرف الاخر ؛ إلا أن الأمور كانت تتدهور بسرعة مذهلة ، فما هي إلا دقائق حتى كان سيف الدين قد عرّى ضحيته كما يجب ونضا عنه دشداشته الملطخة بالصمغ ونشارة الخشب ثم باشر بالفعل الحيواني الآلي وقد أعماه ذلك الشعور الالهي الغامض المتأتي من تماس جسمه ببشرة أنثى خمرية ناعمة حارة . بعدئذٍ ، قيل إن النجدة جاءت من لا مكان ، فانشقت الأرض فجأة ، عن خمسة جنود بولونيين يركضون كالأبالسة نحو موقع الحادث . وما كان لهم أن يتوهوا في الأحراش طويلاً ، فالصرخات تتوالى حادة معذبة ، لا تترك مجالاً للضياع ؛ ووصلوا أخيراً وسيف الدين ، ضائع العقل والروح ، ينام فوق تلك المرأة ، يمسكها كمن يمسك حياته ويلتف حولها . ضربوه أول الأمر بأيديهم وأحذيتهم العسكرية الثقيلة ، ثم قيل إنهم استعملوا أخامص المسدسات والعصي الغليظة التي يحملونها ؛ وسيف الدين متشبث بانثاه الضحية . سحلوه ، بعد ذلك ، مغمىً عليه ، بعيداً الى حيث يعسكرون دون أن يتوقفوا عن ضربه . هناك ، وضعوا الحبل حول رقبته وعلّقوه مشنوقاً بأعلى عامود خشبي أمام مدخل مقرهم ، عبرةً لمن يستطيع أن يعتبر .

ما أن بلغ توفيق الثانية عشرة من عمره حتى تساوى في الطول مع شقيقه عبد الباري الذي يكبره ، كما نعلم ، بسبع سنوات والذي تجاوز سن المراهقة دون تغيير في هيئته التي لاتسر . ولم يذق توفيق من الحرمان ما ذاقه أغلب العراقيين باستمرار الحرب العالمية الثانية وباحتلال البلد من قبل

جيوش الحلفاء وغلاء الأسعار ؛ فالأشغال في معمل نجارة خانقين الحديثة ، مزدهرة دائماً تحت إشراف سور الدين وولده . وخلال الشهر ، كانت أم عبد الباري فخورة حقاً بذهابها وإيابها الى فرع (مصرف الرافدين) في الحيدر خانة ، حيث تودع في حسابها ما يتجمع من أرباح المعمل ؛ لذلك ، حينما أسرَّ لها سور الدين في إحدى الليالي بأن ابنهم البكر يلاحق بنظره فتيات المحلة وهن يمررن أو يتسكعن أمام المعمل وأنه يبدو مشغول النفس بهموم الفحولة المعروفة ، شعرت ، بثقة ، أن بمقدورها ، بما يملكون ، تزويجه بأجمل بنات العاصمة .

تلك الأيام ، مرضت عمتها مرضاً شديداً أقعدها الفراش ، فدخلت أم عبد الباري في أزمة داخلية أبهظتها قليلاً ؛ فهي مضطرة للعناية بهذه العمة الوفية التي لم تعد تستوفي أجرة منهم والتي صرفت ما صرفت على توفيق وهداياه ؛ وهي ، من جهة اخرى ، مثقلة بمسؤوليات البيت والولدين وحسابات المعمل وتكاثر المال ؛ ومع أن الله سبحانه وتعالى منحها الصحة والقوة الجسدية للقيام بكل هذه المهام على أحسن وجه ، إلا أنها في خضم انشغالاتها هذه ، نسيت فحولة عبد الباري وما يعانيه منها هذا الابن البار .

كان توفيق ، إذ بلغ السادسة عشرة ، طويلاً نحيفاً بأنف مستقيم بارز بعض الشيء وبمظهر جذاب يملأ العين ؛ وبقد ما كان لعوباً في طفولته ، مشاكساً متمرداً ، صار يميل الى عزلة غير مفهومة ، هادئاً متعقلاً ساخراً . ومرت أحداث تقسيم فلسطين والمظاهرات الشعبية ضد معاهدة (بورتسموث) أواخر ١٩٤٧ وبداية ١٩٤٨ ، دون أن تمس العائلة بسوء ؛ فعبد الباري ووالده منكبان على العمل طيلة النهار ، وتوفيق بدا لوالدته أكثر إدراكاً من تعريض نفسه لمخاطر مجانية . إلا أن الحقيقة هي أن هذا الأخير لم يكن بهذه الرزانة التي توسمتها فيه أمه ؛ فقد خرج مع الطلاب الخارجين في المظاهرات الى الشارع عدة مرات ، وهتف مع الهاتفين وشاهد الجواهري يلقي قصيدته محمولا على الأعناق .

أتعلم أنت أم لا تعلم   بأن جراح الشهيد فم

وتناوشته عصي الشرطة بلسعاتها وانهزم مع المنهزمين حين توجب ذلك . ولم يكن مثار المشاعر دائماً ، لكن رؤيته لجموع الشعب على جسر الشهداء تهاجم قوات الشرطة وتتقدم رغم الرصاص المنهمر بشدة ، أذهله حماسة وأشعل في قلبه ناراً لم تخمد . ومع الأيام الملتهبة هذه من بداية سنة ١٩٤٨ ، انتشر في المحلة الضيقة بأن عائلة (سلمان آل قصابي) الثرية ستنتقل قريباً الى الدار الكبيرة في ركن المحلة الجنوبي ، بعد أن بقي عمال البناء يشتغلون فيها تصليحاً واضافة وصبغاً عدة شهور مضت . كانت تتكون من الوالدين وبنتيهما... ثريا وكميلة : الأولى في الحادية والعشرين من العمر ، معلمة في إحدى المدارس الابتدائية ، والثانية لاتزال طفلة في التاسعة .

كان اهتمام آل سور الدين بآل قصابي مؤسساً على كونهم من أثرياء الحرب بالدرجة الأولى وكون العائلة الجديدة من سكنة (الهويدر) في لواء ديالي ، الذي يشمل خاتقين ايضاً ، وكون ابنتهم ثريا على وشك الزواج من أحد أقاربها وهي تتهيأ لتجهيز أثاث منزل المستقبل .

عملت أم عبد الباري بنصيحة عمتها المريضة التي لاتموت ، فرحبت بقدوم العائلة الجديدة وهيأت لهم ، من طبخها ، غداء فاخراً في أول يوم انتقلوا فيه الى بغداد ؛ فكان رد فعلهم أنهم زاروا المعمل واطلعوا على تفاصيل وشكل الموبيليات التي يمكن أن تصنع فيه .

كانت ثريا وخطيبها بصحبة الوالدين في زيارتهم للمعمل ، وكان عبد الباري حاضراً بالضرورة ، فأسعده أن يعرض عليهم الموديلات الأخيرة التي وصلتهم . كان يشعر بدفء غامض يلفه وهو يقف بتواضع جوار الفتاة المتزينة بإسراف التي ستتزوج عن قريب . ورغم ما أبدوه من اعجاب بمنتوجات المعمل وبالخشب الذي يُستعمل فقد عصروا سور الدين عصراً شديداً حين جاء أوان حساب الأسعار . ولم يدر ، هذا الأخير ، لماذا راعاهم

كثيراً رغم إحساسه بأنهم لا يستحقون ذلك ؛ فالقصابي هذا ليس قصاباً بل جزاراً ، كما قال لزوجته أم عبد الباري . وزاد من نقمته كثرة التعديلات المكلفة التي طالبوه بعملها بعدئذٍ .

وكان العرس جميلاً ، دُعيت اليه أم عبد الباري بالطبع . جلبوا مطربة وراقصات غجريات ، وأزعجوا سكّان المحلة بالضجة التي عملوها تلك الليلة ؛ وكان عبد الباري وأمه يحلمان بعرس من هذا النوع ؛ وبتحقيق الأمنية الدفينة في نفسيهما ؛ فشرعت الأم بالاستفسار من معارفها وصديقاتها عن فتاة مناسبة لابنها البكر . وتدخلت العمة ونصحتها بألاّ تشتط في الطلب ، فالفتيات الجميلات في بغداد ، هذه الأيام ، هن اللواتي يضعن الشروط ، وأولها حسن الخلقة في الرجل ؛ إلا أن الأم المشروخة القلب من هذه الناحية ، تصاممت وأصرت ؛ وكان عبد الباري وقد تجاوز الرابعة والعشرين ، يحس بعرفان بالجميل تجاه والدته التي تواصل رعايتها له هكذا وتقف جنبه . وقيل لعبد الباري إن العروس ثريا سافرت برفقة زوجها الى الشمال لقضاء شهر العسل في أحد الفنادق الفخمة في الموصل ، فأخفى بصعوبة آهة حرى .

في الأثناء ، استمر توفيق على إخفاء سر يزعجه ، فهذه الطفلة كميلة لاتني تهتف باسمه كلما مرّ تحت شباك دارهم الخشبي المصبوغ حديثاً . كان قد اختار الفرع الأدبي في الأعدادية المركزية بعد أن اجتاز بتفوق امتحان البكالوريا للصف الثالث . اعتاد أن يذاكر بهدوء في زاوية من غرفة نومه حيث المنضدة الصغيرة وكرسي الخيزران اللذان أهدتهما له عمة والدته في إحدى المناسبات ، إصراراً منها على حبه . كان يتمتع باحترام أبيه ، الذي لم ينسَ أن والده عبد المولى قرأ بخشوع آية من القرآن الكريم على رأس هذا الابن وهو مازال وليداً ؛ مما يعني أنه سيكون رجلاً ذا شأن وصيت في المستقبل .

وبسبب توفر المال لدى توفيق وعدم شكواه من العوز يوماً ، فقد

تعرف وهو يدخل عامه السابع عشر ، على بعض الأمور التي ماكانت لتسر والدته كثيراً . كانت عواطف الغريزة ، مع انتفاضة المراهقة ، شديدة لديه وفوّارة بشكل لايطاق ؛ وكان الأصدقاء يفاخرون دوما بغزواتهم الجنسية في بيوت الرذيلة ، وهو متردد لا يستجيب لنداءاتهم ، لا عن خجل بل لتهجسه وخشيته مما لايعرف . ومع شعوره بالرضا لنظرات الإعجاب التي تُوجه اليه من قبل فتيات المدارس ، إلا أنه لم يفكر بشيء آخر . غير أن تلك السمراء النحيلة ذات النهدين الممتلئين بشكل عجيب ، لم تدع له أن يفكر طويلاً . كان راجعاً الى البيت بُعيد الظهر ، بعد ستة دروس مضنية ، فساورته رغبة غيّرت من وجهة طريقه المعتاد وجعلته يسلك ذلك الزقاق ذا الشبهات المغرية . كانت روائح الطعام تفوح من كل جانب والأبواب مغلقة والجو بادي الرطوبة . أراحه ذلك فتابع مسيرته خانقاً رغبته المفاجئة ومريحاً قلبه ؛ ثم إذا بها تخرج له من عطفة في الطريق وتمسك بذراعه . أفزعته . كانت جريئة ، متبرجة ، سوداء العينين ؛ تتلامع ليس عينيها حسب ، بل فمها المكتنز الأحمر وشعرها الكث ورقبتها وصدرها ؛ وكانت في فستان أسود قصير . حيته بأدب دهش له وسحبته نحو باب دارها القريب :

ـ أنت لي يا جميل المحيا . أعلمتني ملكة الورق أني سأقابل اليوم حبيبي . أتراك جئت تبحث عني كما أبحث عنك ؟

كانت شابة لم تتجاوز العشرين ، تغطي وجهها الشهواني الملامح ، غلالة غير مرئية من البراءة والمجون والخيال . ابتسم لها مضطرباً خجولاً ، فأعجبها ذلك ودعته للدخول قائلة إنهما بمفردهما في الدار .

كان في حالة انتعاش مريحة وهو يدخل دارهم الأليفة ويحيي والدته ثم يسعى لرؤية العمة المريضة والسلام عليها . تغلب على شعور النفور الذي انتابه عقب اتصاله بتلك المرأة خلال سيره البطيء وتفكيره بأن تجربته الأولى كانت رائعة من كل الجوانب . أذهله جمال نهديها المبهجين وسمرتها الغامقة ونعومة بشرتها واستداراتها اللحمية المضنية والاتساق المدهش لهذا

الجسد الدافئ ، وروعة العملية ذاتها وتلك اللحظات التي لا توصف . هنأ نفسه عدة مرات لأن كل شيء مرّ بسلام ولأنه بمفرده ، دون معونة اصدقائه ، استطاع أن يدبر أمره .

ولم يجد الوقت ، بعد أن اغتسل وفرّك فمه بشدة ، ليتغذى ويستريح قليلاً ، حتى طُرق الباب . بدأتْ منذ ذاك ولأجل طويل سلسلة وفيات الأعمام . هبطتْ عليهم أولاً ، شلة من أبناء الأعمام تثير الدهشة والقلق كالعادة ، لتعلن نبأ وفاة العم الحاج سمر الدين ، فأرسلته أمه الى المعمل ليطلب من أبيه وأخيه العودة للبيت .

لم يجد سور الدين بداً من السفر الى خانقين للاشتراك في دفن أخيه الكبير ، وشجعته زوجته على الذهاب لتتخلص من ثقل أبناء الأعمام المقيمين كالذباب في المنزل منذ يومين . بقي عبد الباري يدير المعمل بجدارته المعروفة وهو يخفي تأزمه الجنسي الذي يزداد يوماً بعد يوم . ثم إن العم كمال الدين شاء أن يلاقي ربه قبل الربيع بأسبوعين ، فشدّ سور الدين الرحال مرة اخرى الى خانقين . كانت عطلة المدارس الربيعية قد بدأت منذ أيام وتوفيق متعطل لايدري كيف ينفق وقته ؛ فسافر مع أبيه وعرّض حياته للخطر . كانا قد وصلا خانقين قبيل الظهر ، فأخذ سور الدين يتسكع ببلاهة من هنا الى هناك ، مسلماً على هذا ، متقبلاً التعزية من ذاك سائلاً الثالث عن أسعار الخشب وعن أحوال من لم يمت بعد من معارفه ، وتوفيق يرافقه ضجراً ، حتى انتبه الوالد وأومأ اليه أن يقصد قبله (الدربونة) وسيلحق به بعد قليل . قال له :

ـ لن تضيع

فانصرف توفيق ببسالة وعثر دون كبير صعوبة على مقام القردة ذاك . أخذ يمشي الهوينا مندهشاً من هذا العالم الذي انتقل اليه . الدكاكين ، في نسق طويل لا ينتهي ؛ والمنازل ، ذات الطراز المقلوب ؛ تتواجه مصطفة بملل ؛ والناس يتحركون دون ضجيج . أدرك بالفطرة أن هذا هو موطن

العشيرة العتيد ، فخطر له ، بقصر نظر غير مسبوق ، أن يدخل إحدى دور أعمامه . طرق ، لا على التعيين باباً ، وأعاد الطرق مرات ، فلم يجبه أحد . كان الدكان المقابل مغلقاً ، والشمس حارة وبعض المارة يسرعون نحو المدينة . دفع الباب ودخل ينادي محيياً أهل الدار بصوت مرتفع . لم يعرف عن يقين ، من أين جاء كل اولئك البشر ذوي الخلقة الملتوية . من الخارج ، أحاط به عدة أفراد ومن الداخل هاجمه أفراد آخرون . كانوا ينوون الفتك به لاشك ؛ فلم يسبق لأي غريب أن دنسَ أعتاب دورهم ؛ وتوفيق ، بمحياه الوضاء لم يكن يحمل شارة «الدربونة» على وجهه ، فهو إذن عدو أكيد معتد لابد من مواجهته . وكانوا بالفعل على وشك القيام بذلك على أحسن وجه ، لولا حضور سور الدين . نهرهم بشدة دفاعاً عن ابنه وصرخ بهم يبدي استغرابه من جهلهم بهوية توفيق بالذات ، هذا الذي قرأ جدهم على رأسه القرآن . وهكذا جرى تلافي فجيعة أخرى لا داعي لها .

شكا له صديقه عبد القادر يوماً ، وهما يدرسان قبيل الامتحان ، بأن أباه هدده بحرق كل كتبه الروائية إن استمر في إهمال دروسه ورسب في امتحان البكالوريا ، ثم رجا منه أن يحفظ هذه الكتب لديه حتى نتائج الامتحان لأنه يخشى عدم قدرته على اجتيازه هذه السنة . رحّب توفيق بالفكرة فشكره صديقه بحرارة وجاءه بعد ظهر اليوم التالي محملاً بحقيبة ثقيلة جداً تعاونا على نقلها الى غرفة توفيق دون مشكلة ؛ وانصرف الصديق مغتبطاً بعد أن شرب الشاي وأكل لفة الجبن والنعناع التي قدمتها له أم عبد الباري . وبهذه الحادثة البسيطة بدأ تاريخ طويل وغريب من القراءة الروائية . مارسها توفيق أولاً لقضاء الوقت ثم تغلغلت في نفسه وعقله حتى صارت تتماشى مع فعل الحياة .

في شهر حزيران ، حين كانت تتجمع هموم الامتحان المقبل وبدايات الحر ، قرأ ، بالصدفة ، رواية ضخمة مترجمة عن الأدب الروسي ، وجد عنوانها مكتوباً بقلم الرصاص على صفحة البداية (سانين أو ابن الطبيعة) ولم

يعرف اسم مؤلفها أو مترجمها بسبب تمزق غلافيها الخارجي والداخلي . استحوذت عليه النهار كله . أنهاها والليل في بدايته وأهله نيام والدار ساكنة . شعر ، جالساً بذهول في فراشه ، أن أمراً ما ، مجهولاً وعظيماً ومرعباً ، تكشف له عبر هذه الصفحات التي تبعث على الجنون والهياج والتمرد والرغبة الصادقة بضرب الرأس بالحائط . كأن ناراً مقدسة تناوشت روحه فألهبتها وأهاجت فيه العواطف والغرائز . لم يعد يحتمل جدران غرفته حوله ؛ وتذكر ، آنذاك ، تلك المرأة التي دعته حبيبها . خرج كاللص متخفياً من دارهم وسار مسرع الخطى يبحث عنها . لم يجد الدار إلا بعد لأي ؛ وكانت هناك ، منطفئة العينين ، باهته الوجه والجسم والحركات . لم تتعرف عليه ولم تبدِ رغبة في عمل أي شيء معه ، لكنها لم تستطع أن ترفض . استاء قليلاً ، فقد ظنَّ أنه ، مرة اخرى سيعانق الوهج والانعتاق ، لا الجسد البارد حسب . لبث ، محبطاً ، دقائق ؛ قام بعدها واعتذر ثم خرج . كان بكيانه كله ، يتقد بما قرأ قبل ساعات ، فأراد ، لسبب غامض ، أن يصل بنفسه هو أيضاً الى ذروة من نوع ما! ياللغفلة!

ذهب ، غداة الغد ، يجتمع بصديقه عبد القادر ، فوجده مندفناً كما توقع ، بين الكتب ، موجوع الرأس ضجِراً . حدثه عن (سانين) فتملك صديقه الفزع وصرخ به ألا يذكر هذا الاسم أمامه ، فقد جننه منذ أشهر ولم يسترح منه إلا قبل فترة قصيرة . لبثا يهذيان متحدثين في نفس الوقت تقريباً عن مشاعرهما وافكارهما . ثم قررا أن يخرجا للترويح عن النفس . شربا كأسين من البيرة في أحد البارات ، فتملكتهما نشوة خاصة ، لا من المشروب فقط ، بل من الكلام المحموم المتبادل بينهما .

اجتاز توفيق امتحان البكالوريا للصف الخامس الأدبي بصعوبة وفشل صديقه عبد القادر في ذلك ؛ وبلغ والدا توفيق قمة الفرح والفخر والارتياح لهذا النجاح ، وكذلك العمة العجوز التي لم تطل بها الحياة . ماتت بهدوء خلال الليل ، فحزنوا عليها جميعاً وقاموا بواجب الدفن والفاتحة كما يجب ؛

وكانت أم عبد الباري قد سبق أن أخبرت زوجها بأن العمة خولتها التصرف ، بعد رحيلها ، بكل شيء . وجدوا لديها أشياء ثمينة متعددة ، وعثروا ، كما قيل ، على مبلغ كبير من المال خُبئ في زاوية من صندوقها الخشبي العتيق .

وهكذا صار واضحاً بأن عائلة سور الدين آل عبد المولى تغتني من جهات مختلفة وعلى عدة مستويات ؛ فالدار الكبيرة أمست ملكاً خالصاً لأم عبد الباري بعد أن ورثت حصة من عمتها ودبرت بسهولة شراء حصة الدولة بثمن معقول .

بعد وفاة العمة وقبل انقضاء الأربعين ، ظهر في المحلة وجه معروف كان قد فارقها منذ أكثر من سنتين ؛ فقد فوجئت أم عبد الباري بثريا ووالدتها تدخلان عليها البيت للتعزية ، ففهمت أن في الأمر سراً . طلقها زوجها منذ أسابيع بعد سنتين من المخاصمات وسوء التفاهم المستمر ، وهي الآن في فترة العدة ، لا يملكها الحزن ولا الحسرة ، بل الأسف الشديد وحب العزلة . وعندما عاد عبد الباري وأبوه ذلك المساء ، متعبين وسخين ، كانت السيدة ام عبد الباري تطبخ في ذهنها أفكاراً ذات اتجاه خاص ، ولا تخلو من الانتهازية والمكر . وبصدفة غير عادية ، حدث منذ أيام ، أن أسرَّ سور الدين لها بأن ابنهما يوشك أن تميل به غريزته الى المرض أو الى القيام بحماقة كبرى ليست غريبة عن العائلة ؛ لذا فقد فكر أن يأخذه الى خانقين لرؤية بنات أعمامه هناك ، لعل الله سبحانه وتعالى يرأف بحاله فيلقى واحدة تنحرف بشكلها عن نموذج أسرة آل عبد المولى المشؤوم . فزعت الأم فزعاً عظيماً وأدركت أن ساعة العمل السريع قد دقت .

بدأت خطتها بعيدة المدى بابنها عبد الباري . صحبته الى خياط معروف من أهالي خانقين طبعاً ويَقرَبُ لها من بعيد ، وطلبت منه بحزم أن يبذل كل جهوده ومايملك من تجارب خياطية وفنية ليجهز بدلتين أو ثلاثاً لابنها هذا الذي يراه أمامه بسترته الحائلة وثوبه الأبيض المتسخ . ظهرت الحيرة على وجه الخياط وهو يتطلع بنظر الخبير الى هيئة عبد الباري المتناقضة ؛ ثم إنه

بسمل وتعوذ من الشيطان واستل شريط القياس البالي وصار يملي على مساعده أرقاماً بدت عجيبة على مسامع هذا الأخير فطلب تكرارها للتأكد مما سمع . بعد ذلك ، التفت الخياط الى قريبته الحاجة ، كما سماها ، وعلى وجهه علامات ألم نفسي فطمأنها بأنه سيبذل ما في وسعه لعل الله سبحانه وتعالى يجعلها ترضى عن شغله ؛ وكان عبد الباري جالساً ببعض الاضطراب قرب والدته ، واثقاً أنها تعمل كل شيء من أجل إنقاذه ؛ وكانت ، في الواقع ، تحارب بصلابة في سبيل أن تشقَّ له طريقاً ينتهي بفتاة تقبل به زوجاً .

كانت كلية الحقوق العراقية سنة ١٩٥١ وما حول هذا الزمان ، كلية الطلاب المترفين والطالبات الأنيقات الجميلات والسيارات المتراصة ؛ ولم يغب ذلك عن ملاحظة توفيق منذ بداية دراسته فيها ، فأسعدته هذه الحال واندمج في تيارها . كان أغلب أصدقائه قد اختاروا هذه الكلية للدراسة فيها ، فتشكلت منهم شلة كانت تجتمع في المقهى أو ساحة الكلية للحديث والثرثرة ؛ وكانت الحوادث الملتهبة التي صارت من جملة الماضي القريب ، تبعث فيهم شعوراً غامضاً بأن المستقبل القادم لن يكون مختلفاً عما مضى ، وكانوا ينتظرون .

حدست أم عبد الباري عن طريق حاسة خفية لعلها الحاسة العاشرة ، أن تحقيق أمنيتها بتزويج ابنها البكر من المطلقة ثريا لابد أن يَمرّ بعدة مراحل ، عليها أن تصبر على تطبيقها بدقة وصرامة ؛ فاندفعت بحماس لتمتين العلاقات بين العائلتين الثريتين ، الشرهتين باستمرار الى تكويم المال بكل الوسائل . أخذت ، دون كلل ، تملأ أفواه وبطون آل قصابي ، بمناسبة وبغير مناسبة ، بطيب طعامها الذي كانت تعنى بطبخه ؛ بحيث وصل الأمر ، مرة ، بالأب القصابي ، المحروم عادة من الأكل الرفيع ، أن يتشهى ، أحد أيام رمضان المبارك ، فطوراً يحتوي على شوربة عدس وشيخ محشي مما تصنعه ببراعة أيادي السيدة المحترمة أم عبد الباري . نُقل خبر

هذه الشهوة ، النابعة من المعدة دون تعقل ، الى الجارة الكريمة التي لم تتأخر ، مع اللعنات الصامتة ، عن تلبية الطلب ؛ فنال عملها الإعجاب العظيم . ثم كان بعد هذا التمتين البدائي للعلاقات ، أن بدأت بالتلويح المبطن بما يحمله المستقبل مع عبد الباري من رفاه وسعادة وخدمة ممتازة وإخلاص وضمان . وكانت فترة العدة قد انتهت ، وثريا جاوزت الرابعة والعشرين من عمرها وأثاث زواجها الأول يذكرها بماضٍ مؤلم ، والوحدة لا تطاق لفتاة مطلقة ، والأحاديث تدور وتدور .

أصرت أم عبد الباري ، سامحها الله ، أن يجرب ابنها / المشكلة ، احدى البدلات الثلاث التي خاطها له ذلك الخياط قريبها من خانقين . ورغم خجل عبد الباري فقد انصاع لقرار الوالدة ونزع زبونه ثم ارتدى البدلة الناجزة بصعوبة ؛ وحينما خرج من وراء الستار مضطرباً كطائر بطريق مقصوص الجناحين ، لم تتمالك الأم الصبورة من الابتسام بمرارة ؛ لكن ذلك لم يمنعها من الغضب ومن رفع صوتها طالبة من الخياط أن يتقيْ الله وأن يعيد خياطة البدلة أو يصلحها على الأقل بحيث لا تظهر ولدها بهذا الشكل الغريب . أعاد الخياط تصليح البدلات ، مرتين .

مرت سنة ١٩٥٢ ، بمظاهراتها وانتخاباتها النيابية المباشرة وثورتها المصرية ، كهبة ريح باردة على العائلتين ، لا ميزة فيها سوى أن عائلة القصابي اشترت قطعة أرض في منطقة نائية في صوب الكرخ تقع بين بساتين دراغ وماسُمي بعدئذٍ بالحي العربي ، فلم تتوان أم عبد الباري عن الالتحاق بهم ، فاشترت هي الأخرى قطعة أرض مقابلة لهم تبلغ مساحتها ثمانمائة متر مربع ، الأمر الذي ضمن للأسرتين جيرة مستقبلية مستمرة .

كانت المحادثات بين قطبي القرار في العائلتين ، أم عبد الباري وأم ثريا تجري على الدوام في الخفاء ، فتمّ التراضي والتفاهم المبدئيان على فكرة الزواج أولا ثم جرى التخطيط لمستقبل العروسين بعد ذلك ؛ فحصل الاتفاق على أن تشيّد عائلة آل عبد المولى داراً على قطعة الأرض تلك بأسرع وقت

ممكن ، وان يخصص جزء مستقل للزوجين السعيدين ؛ ولا ضرر أن يكون المنزل باسم أم عبد الباري وأن يبقى باسمها . ثم وُجدَ ، بعدئذٍ ، أن من المقتضي ، وتمشياً مع التقدم الاجتماعي والحضاري وما يدور حول ذلك من مسميات مبهمة ، أن تطلع السيدة ثريا على حال عبد الباري ، موضوعاً في بدلة لم يكترث صانعها لتحقيق الانسجام . كان الاجتماع مناسبةً عائلية جميله حقاً ؛ انتهزتْ فيها تلك السيدة الفرصةَ لتبدي ، بكل لطف ، ملاحظات خفق لها قلب عبد الباري . من الواضح جداً أن الخياط لم يكن موفقاً في عمله ؛ وبمقدورها هي ، عن طريق زميلاتها في المدرسة ، أن ترشد السيد عبد الباري الى خياط أمهر وأكثر اطلاعاً على الموديلات الحديثة . ثم اقترحت ، بخجل ، على أم عبد الباري أن يستعمل الابن العزيز نظارات سوداء تحمي العين من أشعة الشمس المؤذية ، لأنها مناسبة له كما تعتقد ، وسوف تقوم بشراء واحدة جيدة وتقدمها له اذا سمحت الوالدة بذلك .

كان ظاهراً ، حتى لمن لايملك بصراً أو بصيرة ، أن إتمام مشروع الزواج هو في طريقه الصحيح ، وأن الفتاة رضيت ، آخر الأمر ، بقسمتها وهيأت دفاعها ، منذ الآن ، عن مظهر زوجها القادم . لكن أعمام عبد الباري لا يتركونه بسلام كالعادة ، فها هو العم المسكين راية الدين يقضي نحبه والخطبة الرسمية لم تقع بعد .

وصلهم الخبر بعد ظهر يوم ١٩٥٢/١٢/٣١ ، وكان توفيق وأصدقاؤه يستعدون لسهرة رأس السنة التي يقيمها صديق للصديق عبد القادر ، صاحب الكتب الروائية التي لاتزال محفوظة في الغرفة . كان توفيق في الحادية والعشرين ، طويلاً ، رشيقاً ، بوجه صبوح يبعث على الارتياح ؛ ولم يكن معوزاً ، كما سبق وقلنا ؛ فالوالدة خصصت له عشرين ديناراً شهرياً كمصروف جيب ، إضافة لتسديد حاجاته المادية الأخرى . ورغم شعوره بالرضا عن حياته ، إلا أن بعض الانقلابات في مزاجه كانت تسوّد عيشه لفترة طويلة .

كان بيت الصديق يقع خلف بارك السعدون ، في نهاية شارع تحتضنه أشجار اليوكالبتوس السامقة من الجانبين ويبدو كأنه خالٍ من السكان . استقبلهم بودٍ كبير وأدخلهم الى قاعة واسعة تقوم في جهة منها شجرة عيد الميلاد ، تزيّنها الفوانيس وقطع الورق الملونة والمصابيح الصغيرة . جلسوا الى إحدى الموائد في زاوية من القاعة . كانت هنالك موائد اخرى مرتبة بنظام ، والأنوار مخفية بمهارة بحيث يسود جو من الاسترخاء الضوئي يريح النفس والبصر . أدهشهم وسرَّهم أن يلاحظوا الفتيات الجميلات ، يجلسن ، كما يبدو ، مع عوائلهن أو أصدقاء لهن ، والبسمات تعلو الوجوه .

كان صديق صديقهم مسيحياً ودوداً ، رائق المزاج دائماً وعلى استعداد للفهم والاستجابة لأي طلب . بدأوا يشربون بهدوء ؛ وكانوا جميعاً طلاباً في الجامعة ومن عوائل غير معوزة . نسي توفيق بسرعة وفاة عمه راية الدين واندمج في الجو الأنيس المبهج الذي أحاطه برفق . قام البعض ، رجالاً ونساءً ، واخذوا يرقصون باتزان في الساحة الصغيرة وسط القاعة ؛ وكان هذا مدعاة لاعجاب الأصدقاء . خلال ذلك ، ومع موجات الدخان والعطور المتلاينة فوق رؤوسهم ، لم يشأ توفيق أن يصدق أن إحدى الفتيات ، على مائدة قريبة منهم ، كانت تلح ، منذ زمن ، في تطلعها المستديم اليه ، حتى نبهه صديقه عبد القادر . كانت شقراء باهرة الحسن ، متزينة بمقدار ، ترتدي فستاناً أخضر يكشف عن كتفيها وذراعيها والكثير من صدرها الناهد . ولأنه ، في دخيلته ، خجول يتملكه الحياء والحرج حين يجد نفسه موضع اهتمام من هذا النوع ، فضَّل أن يبقى متجاهلاً ما يرى ؛ إلا أن الأمر ، أحياناً ، لا يقف عند حدود لدى بعضهن . فما هي إلا دقائق معدودة حتى كان فوق رؤوسهم المهتزة ووجوههم الضاحكة ، ذلك الصديق المسيحي الودود صاحب الدعوة . شاركهم مرحهم المتصاعد واستغرب ألا يقوموا للرقص ، في هذه الليلة الرائعة والسنة الجديدة على الأبواب . تضاحكوا وسخروا من الرقص ومن أنفسهم ومن السنوات القادمة ؛ ثم اعترفوا له بأنهم ، جميعاً ، يجهلون الرقص وخاصة

وهم في هذه الحال . قهقه بسرور وكان يقف جوار توفيق فانحنى عليه وهمس بكلمة في أذنه ثم سحبه فقام توفيق ببعض التثاقل وسار معه مشيراً الى عبد القادر كي يملأ له كأسه . قدّمه إليها بغتة . كانا يمشيان بين الموائد بحذر ، الصديق يسبقه ويمسك بذراعه ، وهو يتبعه مستسلماً ، حينما توقفا أمامها . رفعت رأسها فأشار الصديق الطيب اليه فابتسمت فانحنى انحناءة بسيطة ذاكراً اسمه ، فأخذت الأمر على أنه دعوة لها للرقص فقامت وهي ماتزال تبتسم بفتنة زائدة وتقدمت نحو الساحة الصغيرة ، جنب الشجرة ذات الأنوار الغبشية . كان دائخاً ، متضرج الوجه ، مسحوراً . وقفتْ واستدارت اليه في الظلمة الخفيفة ثم رفعت ذراعيها ببطء وهمست بأنها تعلم أنه لا يعرف الرقص ولكن المهم أن يتعارفا ؛ فاحتضنها عند ذاك بحرج أقل . كانت تدعى (آديل) وكانت ناعمة الملمس ، ذات عطر كالشذا ، حارة الوجود . أبعدته قليلاً عنها وطلبتْ منه ، محدقة في عينيه ، أن يتصل بها تلفونياً خلال الأيام القادمة ، ثم عادت لتلتصق به وترجوه أن يحلف لها بأنه سيتصل . طمأنها وأكد لها وأقسم بالله عدة مرات ؛ ولما توقفت الموسيقى وتوجب عليهما أن يرجعا ، همست له ترجوه أن يأتي إليها قبيل انتصاف الليل ليرقصا ويتبادلا التهاني ، ثم ضغطت على يده بأصابعها الدافئة .

تملكته نشوة عارمة أخذت تموج في صدره وتدفعه الى الابتسام الدائم ؛ وحينما واجه والدته وسط الدار ، حوالي الفجر ، أدرك أنه لايزال مبتسماً . أنّبته بمرارة على تصرفه واستهتاره بمصائب العائلة . واخبرته بأن والده سيسافر هذا الصباح الى خانقين ، لتشييع جنازة عمه ، ومن الخير ألا يراه في هذه الحال ، يبتسم هكذا عائداً من أماكن الرذيلة والروائح تفوح منه . لم يجبها ، فقد كان يعلم أن عواطفها نحوه تتغير من يوم لآخر ، وتضاحك بهدوء ثم مضى صاعداً الى غرفته . كانت ليلة تستحق أن تكون نهاية سنة رتيبة في حياته ؛ ولا شك أن تلك الحورية كانت مرسلة من السماء اليه ، وإلا فكيف يمكن تفسير الأمور ؟

لم تكن قبلتها ، عند انطفاء الأنوار ، مما يمكن اعتباره من أغراض هذه الدنيا الرخيصة ؛ كانت شيئاً خارج دائرة الشؤون الاعتيادية وفوق ما يُسمح للعقل بأن يفهمه ؛ وكانت غياباً أكيداً للتفاهات وللشقاء والموت . إنها إحساس متألق ونور وإشراق وحنان مطلق . هي تمسك به من جوانبه ، في زاوية ، وتضغط بصدرها اللين على صدره وتكهرب شفتيه بشفتيها الناعمتين وبأنفاسها الحارة وتتمنى له بصوت خفيض متكسر ، عاماً جديداً كله خير وسعادة . ماذا يكون كل هذا إذن سوى مالا يُسمى ؟

أراد سور الدين من سفره المبكر هذا الى خانقين أن يستطيع العودة في نفس اليوم الى بغداد ؛ إلا أن ذلك ، كما توقعت أم عبد الباري ، لم يكن ممكناً . رجع ، بمشقة ، بعد يومين ، منهكاً حانقاً . شعر لأول مرة ربما ، بأن تلك الحارة العجيبة التي تستعمرها عائلته ، صارت مثل غابة يسكنها الجن أو قبيلة من الهنود الحمر . لم يتعرف على أحد من تلك المخلوقات التي كانت تدب حواليه ؛ وقال لها إنهم يتزاوجون فيما بينهم دون أن يخبروا أحداً ، فذلك أرخص ثمناً وأدعى الى زيادة النسل والثروة ، فاشمأزت أم عبد الباري اشمئزازاً شديداً من ذلك . وحين أخبرها أنه فكر أن يطلع أخاه منصف الدين على مشروع تزويج عبد الباري ، فزعت وصرخت محذرة ، فطمأنها زوجها اللبيب وأكد بأنه لم يفعل ذلك .

عادت مساعي الزواج الى سيرها الحثيث بعد انقضاء أجل الأربعين وتوزيع الطعام على الفقراء في جامع الحيدر خانة حيث كان يصلي ، عادة عبد الباري ووالده الوقور . اتفقوا أن تجري الخطبة وأن تبدأ العائلتان بالبناء صيف هذا العام ١٩٥٣ . ثم غيروا رأيهم وخططوا لزواج سريع خاطف بعد الخطبة بأسابيع ، وربما كان للهفة عبد الباري الفحولية دخل في الأمر .

كان توفيق حاضراً مجلس الخطبة الذي انعقد في بيت العروس . جلس الرجال وحدهم في غرفة الاستقبال... سور الدين وولداه وبالطبع عميد أسرة آل قصابي والد ثريا . ولم يجرؤ سور الدين أن يستدعي ، أو حتى أن يخبر ،

أحد أخوته ليحضر المجلس ؛ ذلك أن قطبي القرار وجدا أن هذا العدد من الرجال يكفي . وانتهى الموضوع ، مثل مشهد مسرحي ، بسهولة ويسر ودخلت البنت الصغرى كميلة حاملة صينية المشروبات وهي تهتز في سيرها . استغرب توفيق نموها السريع وظهور الاستدارات في صدرها وردفيها . نظرت اليه خلسة وهي تنحني لتقدم له الكأس ، فشكرها بلطف فاحْمر وجهها . وكان عبد الباري ملتماً على نفسه في بدلة رمادية غامقة ، والبسمة المتحرجة تلوي قسمات وجهه . ثم إن نساء العائلة وجدن ، بعد طول انتظار ، ألا داعي للتظاهر ، فهجمن على غرفة الاستقبال وتمَّ التعارف الرسمي وارتفعت الكلفة .

كان توفيق محط الأنظار ؛ حتى الخطيبة ثريا انشغلتْ فترةً بالتطلع اليه ؛ إلى أن بدأ وقت تقديم الهدايا فدعت أم عبد الباري ابنها المختبئ قربها ، للقيام بواجبه ، فوقف متعثراً بملابسه فتوجهت الأنظار اليه .

اعتاد توفيق ، حين يحضر مناسبات ذات صبغة خاصة ، أن يرتدي بدلة زرقاء وأن يضع رباطاً أحمر « بوردو » على قميصه الأبيض ، فيضفي عليه هذا الملبس مظهراً سامياً يجذب البصر حقاً . وكانت كميلة ، في فستان وردي فاتح لايتلاءم وبشرتها السمراء ، قد وقعت في شباك وسامة هذا الشاب ، فهي في حركة دائبة مستمرة من الغرفة وإليها ؛ تسير غير مخفية بداية التكورات في ردفيها وصدرها ، مما جعله يتساءل عما تريده حقاً هذه الصبية ؛ فهو لا يزال يتذكر نداءاتها من شباك غرفتها العالية . كان فعلاً صبيانياً لا جدوى منه ، ولكنها ، ها هي ذي تواصل النداء باسلوب آخر .

كان الوقت بداية شهر آذار والبرد غير قارس ، والكل في سعادة غامرة تزداد شدة مع مرور الساعات وتوثيق الصلات ؛ وكان عبد الباري في تهامس دائم مع ثريا وهو يفرك يديه ويضع النظارات السوداء الثمينة التي تلطفت خطيبته فأهدتها اليه ، في جيب سترته الصغير بحيث يبرز قسم منها للعيان . ولأن الحال هكذا والكل مشغولون بأسبابهم ، فقد تخففت كميلة من

واجباتها ببراعة وانسلتْ لتجلس قريباً من توفيق وتسأله عن الصحة والأحوال وعما إذا كان وقته يسمح بمساعدتها في دروس الحساب والتاريخ والأدب ، فهي تعلم بأنه كان متفوقاً في هذه الدروس . اعتذر برقة لها ، فبدا عليها الاعجاب لهذا الاعتذار! ثم أبدى رغبته بالانصراف متعللاً بوجوب مراجعة بعض الدروس ، لأن الأمر في كلية الحقوق جدي ويختلف عن الدراسات الأخرى . نظروا اليه جميعاً بوجل وتركوه يمضي بسلام .

كان ، في الواقع ، مضطرب النفس قليلاً ، ففي زاوية من جيب سترته عثر ، بالصدفة ، على قصاصة ورق مطوية باحكام تحمل اسماً ورقماً ، فتذكر بأنه كان يرتدي نفس هذه البدلة ليلة رأس السنة قبل أشهر . كم مضى الوقت سريعاً! وكان قد خطر له عدة مرات ، أن آديل ، تلك المشوقة الرائعة ، لن تتركه يجهل رقم هاتفها بعد أن ألحت عليه وحلّفته كي يتصل بها ؛ وهاهي تصدّق خواطره وتكشف له ، متأخراً مع الأسف ، لعبتها . يا لتلك الشقراء الفاتنة ، كم أسعدته! تفحصت أم عبد الباري الأثاث المستعمل ، المرتّب والمغطى بعناية في غرفة مغلقة في الطابق الأول من دار آل قصابي ، فوجدته جيداً جداً ؛ فقد تمَ صنعه في معملهم بكل إخلاص ؛ فعرضت على أم ثريا أن يقيموا العرس في موعد قريب وأن يستقر العروسان في الطابق الفوقاني عند آل قصابي لفترة قصيرة ريثما يكمل البناء ، فينتقلون عند ذاك جميعاً الى بيتهم الجديد مع جهاز جديد . وافقت أم الخطيبة والخطيبة نفسها وعبد الباري . كانت السرعة ديدنهم في إنجاز كل شيء إلا أن العم منصف الدين كان أسرع منهم هذه المرة ، فاستعجل الموت في ١٧/٣/١٩٥٣ وتوجب على فحولة عبد الباري أن تحافظ على رباطة الجأش وتنتظر .

تمَ زواج عبد الباري وثريا في حفل أُقيم في بيت آل قصابي وشمل العائلتين وبعض الأصدقاء الخلص القليلين جداً ؛ وكان شهر أيار على وشك الانتهاء ومعه بقايا الربيع الذي مرَ على بغداد سريعاً كالعادة ؛ ولم يشأ

توفيق أن يقطع دراسته طويلاً ، فبقي ساعة وبعض الساعة ثم استأذن وانصرف بعد أن قبّل أخاه وتمنى له أياماً سعيدة وزواجاً موفقاً . عاد أبواه بعده بزمن قصير نسبياً وهما منفعلان وفرحان بما أنجزا ، ومكث عبد الباري ، تلك الليلة ، في دار آل قصابي ، بين أحضان زوجته وعلى سرير قرانها الأول .

في اليوم التالي أو الذي بعده سمعوا بأن الاستملاك سيشمل دارهم ودار آل قصابي ، وأن معمل خانقين للنجارة الحديثة سيطل على الشارع العام بعد إكمال الاستملاكات . اتفقوا على اعتبار ذلك بشارة خير وبركة ؛ وكانت الأعمال التحضيرية لبناء داريهما تجري على قدمين وساقين إن صح القول .

تداخلت العائلتان الصغيرتان ببعضهما بعد هذا بشكل طبيعي ، بحيث صار غريباً عليهم إن لم يجتمعوا في اليوم عدة مرات ؛ باستثناء توفيق الذي بدا مشغولاً بامتحاناته المستمرة طوال شهر حزيران . كان في غاية الجد حين يعرض لأمر يتعلق بدراسته ، وكان القلق من الفشل يتنازعه بين الآن والآخر . فينكب يكرر القراءة ويعاود مراجعة دروسه ويوحي لنفسه بالثقة والنجاح . وغالباً ، حين يضايقه الحر مساءً ، ما كان يصعد الى سطح الدار ويمكث متمشياً فترة طويلة ، مستنشقاً الهواء البارد ومهدئاً أعصابه بمنظر السماء . تذكر ، مرات ، تلك الفتاة آديل ، واستحوذ عليه الندم لأنه لم يأخذ أقوالها جدياً . كانت رفقتها المبهجة سترفع من معنوياته الملعونة الهابطة هذه . اتصل مراراً بالرقم الذي عثر عليه فلم يتلق جواباً . ظل يحاول عدة أيام وفي أوقات مختلفة ، عبثاً . لعلها حددت له ساعة معينة لم يعد بإمكانه أن يتذكرها .

كانت تلك الصبية كميلة تبث في نفسه الاضطراب بوجودها الدائم حوله ؛ فهي من المقيمين في بيتهم بعد أن أنهت امتحانها المدرسي وتبطلت من كل عمل عدا التفكير برؤيته والحديث معه ؛ وأزعجه أن يلقى أنها تثير لديه نوازع جنسية لايجدها ملائمة ، ويبدو كأن هذه الصبية تعلم بها!

ثم أقلقه ، بعد ذلك ، أن يلاحظ والدته تتعاون معها لقطع سلسلة دراسته ؛ فتبعثها إليه محملة بشاي العصر تارة والماء البارد أو الفواكه تارة أخرى . هذا المساء ، اقتضى الأمر منه ساعتين أو أكثر لكي يستطيع التحرر من صور جسدها الفتي ، الواضح القسمات تحت الفستان الصيفي القصير ، ونهديها وما خيل إليه أنه صفحة بطنها وسرتها ولباسها الصغير ، تتراءى وتتخافى ثم تعود تتراءى . كانت فتنة وعذاباً غير مبررين . وعندما تجاوزه منتصف الليل والكل نيام والسكون يخنق الدنيا ، تملكته ارتجافات متصلة غريبة لم يألفها من قبل قط . كان جسمه بأكمله ملتهباً ، يهتز اهتزازاً شهوانياً وأسنانه تصطك . فزع من ذاته ودواخلها وأخذ يتساءل... ما العمل ؟

كان في أزمة واقعية لاشك فيها ؛ فلا دراسة ممكنة والحال هكذا ، ولا يفيد في شيء أن يلعن آباء تلك الصبية وأجدادها الأولين ؛ وما عليه إلا أن يعترف بأنه إنسان عادي لا إرادة له على غرائزه في هذا العمر . خرج ، إذن ، متخفياً عن الأنظار ، قاصداً ذلك البيت القريب الذي يعرفه . أراحه أن يجد الضجة والأنوار والسكارى في كل مكان . فتش عن امرأته الأولى ، فلم يرها . كان مختبئاً في عنق السلم العتيق ، وكانت في الهواء وفي أضواء المصابيح القوية وعلى الجدران الكئيبة وما يبين من أثاث في الغرف المشرعة الأبواب وما يتظاهر له من وجوه العملاء والنساء ، نفحة من قذارة تبعث على التقزز لغير سبب ظاهر . ثم... إذا بها فجأة قدامه . خرجتْ من غرفة مجاورة ، ثائرة الشعر ثائرة العينين ، شبه عارية ، سكرى منفلتة اللسان والاشارات . صدمه منظرها وأغراه ؛ ولم يتهيأ له أن يتصور نفسه معها . وتهادت قربه تهز لباسها الأحمر فوق رأسها وتغني ، فحدث لها أن تعرفت عليه وارتمت على صدره .

ـ يا حبيبي ، أين كنت يا حبيبي ؟

وقبلته رغم أنفه وقبلته ، ثم طلبت منه أن ينتظرها في غرفة أشارت اليها وأفهمته بأنها ستعود له بعد أن تغتسل ؛ وكان ذلك أقصى ما يمكن أن

يتحمله ، فتراكض نازلاً السلم بسرعة وهو يمسح فمه ويعاود مسحه ويتساءل مع نفسه : أكان خائفاً أم مشمئزاً فقط ؟

في أواسط شهر آب من تلك السنة أعلنت ثريا لأمها بانها حامل ، وكذا فعل عبد الباري لوالديه ؛ فلما سارعت أم عبد الباري لزيارة ثريا وإبداء سعادتها لهذا الخبر المدهش ، تمنت عليها زوجة ابنها العزيزة أن يولد طفلها الأول وهم مستقرون في بيتهم الجديد ؛ فأخذ سور الدين على نفسه عهداً بأن يبذل أقصى جهوده لإكمال البيت قبل الموعد الميمون .

ونجح توفيق الى الصف الرابع بدرجة متوسط واستطاع أن يتنفس الصعداء ويفكر بالسفر الى لبنان للترويح عن النفس . لكن البناء هو الذي له الأولوية ، كما قالت له والدته ، ونقودهم لا تكاد تكفي إلا بمشقة ، فلينتظر الاستملاك لعل الأجواء تتسع والله على كل شيء قدير .

أراد توفيق ، مادام السفر مستعصياً ، أن ينقل لبنان اليه ، فسعى مع عبد القادر واثنين من أصدقائه الى قضاء أماسي الصيف الحارة على شاطئ أبي نؤاس ، في كازينو گاردينيا ، حيث كان الشراب والطعام يقدمان بأسعار مناسبة . كانوا يجتمعون كلما واتتهم الفرصة وتوفر لديهم المال ، وكان السكر والهذيان الكلامي الذي يصاحبه والأفكار المتحررة التي لا أساس لها والانتقادات اللاذعة للحكم الملكي ولأنفسهم ولحياتهم ، تجعل ، بشكل غير منطقي ولا مفهوم ، فكرة ممارسة الجنس ضرورة قصوى . تعرّف على نماذج أخرى من النساء ، يمكن اعتبارهن ضمن موازين القذارة واللطف والتصرف ، أكثر رقياً مما سبق وجربه ؛ وكان في حسرة دائمة على تلك الشقراء الجميلة التي لايجيب هاتفها . ومع هذا التصرف الذي يُعدَ ، بالنسبة لمدخوله ، بذخاً حقيقياً ، صار توفيق يضايق والدته بطلب النقود ، بعد أيام من تسلمه الراتب الذي خصصته له وزادته عشرة دنانير بعد نجاحه الى الصف الرابع . كان موقعه في العائلة يسمح له بتجاوز الحدود بحدود ؛ فوالدته تمنحه قروضاً لاسداد لها ، وهي تعلم بذلك ، إلا أنها ، مع ازدياد خروجه عن

المألوف وسهراته وإفراطه في التمتع بفراغه وشبابه ، أمست تميل بنفسها وبعواطفها عنه ، وتشعر دون إرادتها ، بأنه لم يعد ذلك الابن الوسيم اللصيق بالقلب . وكان عبد الباري ، على الضد ، خنوعاً لجميع أفراد العائلتين ، يهمه أن يخدم الكل بنفس الحماس ، على الترتيب التالي . ثريا ، والدته ، والدتها ، أباه ، أباها ، كميلة ، توفيق ؛ وكان التفكر بأن زوجته ثريا تعمل كمعلمة وتحمل في بطنها طفله الأول ، يكاد يذهب بعقله ، فيتوقف عن العمل بغتة ويروح في غيبوبة يقظة لا يخرجه منها إلا نداء أبيه الحاد . ومع هذه الطيبة المنغرسة فيه وحبه للآخرين واستعداده للخدمة الدائمة ، مال قلب ثريا اليه يوماً بعد يوم وهي تحيا حياتها الزوجية معه وتتعرف فيه على أشياء لايمكن لغيرها أن يراها .

انتهى الصيف وتبعه الخريف وبدأت بوادر الشتاء بالظهور ، فتعيّن على الاصدقاء أن يشاوروا عقولهم وان يتوقفوا عن السهرات والسكر ، فقد اقتربت أيام الدراسة ؛ وكان توفيق أول الناجين .

استيقظ ذات صباح ليكتشف انه واقعياً ، في الصف النهائي من كلية الحقوق العراقية وأنه غير بعيد عن التخرج الا ببضعة شهور ؛ فسعى الى التملص من لقاء أصدقائه وتلك الصبية كميلة ، بالجلوس عصراً في مقهى حسن عجمي القريبة والانهماك في قراءات متنوعة ما كان ألذها على نفسه وفكره . كانت الصفحات تأخذه معها بعملية سحرية ، فيشعر كأنه يدخل مطهراً من نوع خاص ينقي في أعماقه شوائب لا يمكنه تحديد اسمها أو ماهيتها . أعاد قراءة رواية سانين ؛ ولما علم من صديقه بأن مترجمها هو المازني ، أدرك خطورة هذا العمل ورفعته الأدبية وبأنه محكوم بألا ينتشر . خيل اليه ، بعد القراءة الثانية ، أنه تخلص ، الى حد ما ، من تأثير هذه الرواية المدمر عليه ؛ لكنه لاحظ في نفسه ابتعاداً عن عائلته وعن مجتمعه وعن الطموحات الصغيرة المتفق عليها . تملكته روح مبهمة من اللامبالاة واللاأدرية والاستهتار الكامل بالقيم ، وشعر بغموض ، في نهاية ذلك الخريف

الحزين في مقهى حسن عجمي ، أن تفاهة الحياة التي تتبدى له هذه الأيام ، قد تدفعه ، في مستقبل قريب أو بعيد ، الى الاتيان بأمور خطيرة حمقاء أو تغريه بالقضاء على حياته .

وخلال أسابيع ثلاثة ، استمرت هذه الروح تنهشه على مهل ؛ وهو بلذة ماسوشية ، مستسلم لها ، يكاد يرعاها لئلا تفارقه! وفي خلال تلك الأيام الرمادية ، وصلهم إعلام من محكمة بداءة بغداد بقرار استملاك دارهم ودار آل قصابي ، فهاجت عواطف العائلتين سروراً وكاد انفعالهم يتحول الى حفلة صخب غير معلنة . من جهة أخرى ، كان البناء مستمراً بجهود سور الدين الحثيثة ، فارتفعت أعمدة الدار وجدرانها مثلما ارتفع بطن الزوجة ثريا ؛ ومن أجل الاقتصاد في النفقات وتكريس كل ما يملكون لإكمال مقرهم الجديد ، صرفوا النظر عن صنع أثاث الزوجين واتفقوا على الاكتفاء بتجهيز أثاث للطفل فقط .

ولعلة لم يعرفها أحد ، جاءت تلك الصبية كميلة في إحدى الأمسيات ، لمقابلة توفيق والدار خالية إلا منه . طلبتْ منه كتاباً لم يسمع به ، فبقي ساكتاً غير مهتم بإجابتها لحظات . كانت تلك الروح الماورائية ماتزال قابعة فوق رأسه . سألها ماذا تريد حقاً ؟ وكانت ، كالعادة ، في فستان لصيق بجسدها ، متفتق من الأعلى والأسفل بشكل غريب ؛ ويبدو أنها فهمت شيئاً مخصوصاً خفياً من سؤاله ، فبادرت تخبره بأن والديها سيبنيان لها مشتملاً على جهة من أرضهم جوار الدار ، ثم انها عضت على شفتها السفلى وأنزلت بصرها الى الأرض . شعر توفيق بنفسه ممثلاً في ملهاة بليدة ، فتملكته رغبة شديدة بالضحك ، وانفجر فعلاً يضحك بشكل أفزعها فقفزت مسرعة بالانصراف . راقب بجمود اضطراب ردفيها . كانت تشكيلة عامية ، تلائم أفراد البشرية ها هنا .

بدأت السنة الدراسية لعام ١٩٥٣/ ١٩٥٤ في كلية الحقوق العراقية منتصف شهر تشرين الأول ، وسار كل شيء جميلاً ، ساحراً وعلى مايرام ؛

وكان توفيق من البشر السعداء القلائل الذين يعون سعادتهم حين يعيشونها . كان يحس ، بعد أسابيع الخريف الكابية تلك ، بالبهجة تتملكه لأقل الأسباب . لكأنه استيقظ تواً من سبات عميق طويل كالموت ، فوجد الحياة فوّارة حوله ، تتوثب جمالاً وخفة ، ووجد نفسه شاباً في الثانية والعشرين ، وسيماً يملك على النساء مخيلتهن ، ولا تهمه المادة ، والأفق أمامه مفتوح على اتساعه . وحينما اقتربت السنة من نهايتها شغله واصدقاؤه موضوع الاحتفال بعيد رأس السنة وكيف يدبرون حالهم مثلما فعلوا في السنة الماضية . لم يجدوا ذلك الصديق الودود الذي أتعب نفسه ، في العام الفائت ، لاسعادهم ، وقيل انه رحل الى خارج القطر . أخذوا يبحثون عن حل آخر ، إلا أن الوقت كان اسرع منهم ، فانقضت السنة وأقبلت أخرى وهم لم يحتفلوا ولا سهروا .

أنهك سور الدين جسمه دون أن يدري ، لا هو ولا زوجته ، محاولاً أن يفي بالوعد الذي قطعه على نفسه لأم ثريا وثريا زوجة عبد الباري بأن تلد في الدار الجديدة ؛ وكان جهاز الطفل قد اكتمل ولم تتبق إلا بعض المشاغل البسيطة .

في الأثناء اقترب موعد الكشف الذي تجريه المحكمة عادة لتقدير ثمن الدار مقابل الاستملاك ، وكان آل سور الدين قد استنفدوا مخزونهم المالي فاستدانوا حوالي الألف دينار من آل قصابي ، على أمل تسديدها من بدل الاستملاك . وكانت أم عبد الباري تشعر بانزعاج خاص وهي تلاحظ ، على مضض ، أن آل قصابي قد أوشكوا فعلاً على إكمال دارهم على أحسن وجه ، مما يولّد مشكلة لا داعي لها . فأين يستقر عبد الباري وزوجته إذا انتقل آل قصابي الى هناك ؟ وهكذا كان على سور الدين أن يزيد من نشاطه وأن يثقل جسده بمتاعب ومهمات إضافية .

إلا أن كل شيء ، مع ذلك ، انتهى بخير ؛ فقد جرى الكشف على الدار في موعده وقُدرت بأضعاف ثمنها الحقيقي ، مما أثلج قلوب آل سور الدين . وكذا كانت الحال مع دار آل قصابي .

انتقلت العائلتان ، إذن ، خلال أسبوع واحد إلى داريهما المتقابلتين في نهاية شهر شباط ١٩٥٤ ؛ وولدت نجية ابنة عبد الباري البكر في ٢ نيسان من تلك السنة ؛ وكانت ولادتها في المستشفى الملكي ببغداد ، ولادة سهلة وطبيعية .

أصر آل قصابي على إكمال بناء المشتمل الغامض على الجهة اليسرى من دارهم ، الأمر الذي أثار شكوك أم عبد الباري وتساؤلاتها ، خاصة وأنهم أبقوه شاغراً . من جهة أخرى ، وجد توفيق نفسه محشوراً في غرفة ضيقة في الطابق الأول ، لا تدخلها الشمس إلا في آخر النهار . لم يعترض بالطبع وانشغل بترتيب كتبه في الفسحة الصغيرة التي وجدها خالية في جانب من الغرفة قرب النافذة . كان ، منذ الخريف ، يحس بنفسه بعيداً عمن يعايش من الأهل ؛ ولم يعد يستغرب أو يكترث لما يوجه إليه من إساءات أو تجاهل أو نسيان غير مقصود . حَسَبَ ، في مخيلته ، أن كل هذه الأمور الزائلة لن تضره ، لذلك تحملها بيسر وبروح عالية .

جددوا واجهة المعمل الذي تبيّن أنه سيطل ، حقيقة ، على الشارع العام ، واشتروا بعض المعدات الجديدة ؛ وعندما وصلهم خبر وفاة العم ممتاز الدين ، اكتفى سور الدين بالترحم عليه ولم يخطر له ، هذه المرة ، أن يحضر مراسيم التشييع والدفن ، مع أن أم عبد الباري لم تمانع في سفره الى خانقين ، بشرط أن يجلب معه ذخيرة من الخشب . كان متعباً منهوك القوى رغم سعادته بولادة حفيدته التي تبين بعد الفحص والتمعن الزائد أنها تشبه أهل أمها .

تخرّج توفيق من كلية الحقوق العراقية وقد تجاوز الثانية والعشرين من عمره بشهر وعشرة أيام ؛ فتقدم بطلب للتعيين في إحدى الوزارات فوُفق في ذلك وصدر أمر تعيينه ملاحظاً براتب مقداره (٢١) ديناراً عدا مخصصات غلاء المعيشة ؛ ولما قبض أول راتب له من الدولة ، تبين أنه أقل مما كان يقبضه ، دون عمل ، من والدته . تبسمت هذه حين أخبرها ولم تقل له شيئاً ، لكنها استمرت على مساعدته مالياً .

وقع سور الدين مريضاً في بداية تشرين الثاني ١٩٥٤ ، ولم يكتشف الأطباء حقيقة علته إلا بعد حوالي الشهرين ، حين ظهر من خامس فحص يجرونه بالأشعة ومن تحليل الدم ، أن البنكرياس مصاب بداء خبيث لا شفاء منه ؛ وانتظروا معه النهاية ، وكان الأمر محزناً . توفي سور الدين أواخر شهر نيسان ١٩٥٥ وكان في الخامسة والستين . شيعوه الى مقبرة الشيخ معروف وأقاموا له الفاتحة في دارهم ، وكان عبد الباري يضع نظاراته السوداء وبجانبه يجلس توفيق وعميد آل قصابي وهم يتلقون التعازي من بعض المعارف الذين سمعوا بالخبر . لم يأت أحد من خانقين ، ولعلهم لم يسمعوا بالنبأ إلا متأخراً ، حين تصير المواساة أمراً خارجاً عن التقاليد .

فوجئ توفيق بأن أباه كان فقيراً وأن المعمل مسجل باسم أخيه عبد الباري ، فأدرك أن مستقبل الأيام لن يحمل له أية وعود بالراحة أو الطمأنينة . احتمى بكبريائه ولم يقل شيئاً كثيراً لوالدته . سألها بعض الأسئلة الواضحة فأجابت إجابات غامضة وغير منطقية ، فاختار ألا يستمر . كان ، في تكوينه ، خلقة الاشمئزاز من اعوجاج النفوس ، فهو ، منذ سنين ، يحس بأن عدم اكتراث والدته به يزداد يوماً بعد يوم ، حتى أنها لم تبدِ من الفرح لتخرجه مثلما أبدت حين ولدت حفيدتها . كل ذلك دفعه الى الاستنكاف عن المشاركة عاطفياً في شؤون العائلة . كانت تملكه أفكار توحي باحتقار هؤلاء البشر العمي الذين لا يخطر لهم الموت ولا الضياع على بال .

حملت ثريا مرة أخرى وولدت ، في أواخر سنة ١٩٥٥ ، صبياً صحيح البنية اختلفوا قليلاً على تسميته ، فقد أراد والده ، بحياء ، أن يطلق عليه اسماً مضافاً الى الدين مثل أسماء والده وأعمامه ، فجُوبه بسخرية من كل الجهات جعلته يتراجع بسرعة . سُمّي المولود الجديد (سلوان) دون أن يدري أحد لماذا ، وكانت هنالك ، كالعادة ، شكوك تحوّم حول حقيقة شكله ، فبعض المظاهر كانت تبشر بأنه من عائلة آل عبد المولى ؛ إلا أن

تفسيرات مضادة كانت تؤكد شبهه لأخته نجية ؛ وبقي على سلوان المسكين هذا أن يثبت في سنواته القادمة مدى ارتباطه بأحد أبويه .

في الحي الجديد ، كان الجو ، لاشك ، أصفى هواءً مما هو في المدينة ، وفي الحيدر خانة على وجه الخصوص ؛ والسماء تبدو أكثر اتساعاً ولعلها أنقى زرقة . وحالما استقرت العائلتان في داريهما المتقابلتين في ذلك الحي ، أدركوا معنى أن يعيش الإنسان بعيداً عن محل عمله بعشرة كيلومترات ، فبرزت آنذاك فكرة الحاجة الى سيارة خاصة أو سيارتين ، وكان آل قصابي السبّاقين لمواجهة هذه الفكرة وحلها بطريقة باهرة . اشترى والد ثريا سيارة « شفرولية » مستعملة كأنها جديدة ؛ وبقيتْ أم عبد الباري تحترق داخلياً وتطبخ نفسها على نار أفكارها الهادئة ، لأنها وابنها لا يملكان القابلية النفسية لشراء سيارة ، فهذه المرأة وابنها مملوكان للمال الذي هو نظرياً ، تحت تصرفهما ؛ وهما يفزعان من فكرة أن يصرفا دفعة واحدة مبلغاً كبيراً من المال لشراء سيارة . لذلك ، كان على عبد الباري أن ينتظر ، بخنوعه وبنظارتيه السوداوين ، عميد أسرة آل قصابي حتى ينهي ، برفاهية ، فطوره ويشرب قدح شايه الأخير ثم يخرج سائراً ببطء نحو سيارته « الشفرولية » المستعملة منادياً أبا سلوان كي يتفضل بمرافقته .

أما توفيق ، الذي يختلف وقت دوامه المبكر عن وقت الأثرياء المترفين ، فقد حلّ مشكلة المواصلات بطريقة ثانية عرجاء ؛ فاتفق مع صديق ، يمتاز بملكية سيارة ، ويعمل مثله في الوزارة ويسكن في مدينة البياع ، أن ينتظره في الشارع العام عند موقف باص الأمانة مقابل جامع دراغ ، فاذا لم يره فليمض في طريقه بالسلامة . إلا أنه ، من جهة أخرى ، وبالرغم من صبره وذكائه وحسن تصرفه ، لم يستطع أن يحل مشاكل كثيرة نغصت عليه حياته . كان يسكن في غرفة صغيرة لا تليق به في الطابق الأول ، ضيقة ، شبه جرداء ، وراتبه لا يكفي لشراء كل حاجاته ؛ وعيشته يابسة لا لون لها رغم صداقاته وجلسات الشراب والقمار ؛ وكان الجنس

يضغط عليه باستمرار وبشكل يكاد يصل درجة العذاب ، وهو ، في مقاومته له ، يجد نفسه أمام إغراء هذه الصبية كميلة التي زادت من تحويمها حوله بصورة تثير الأعصاب . إلا أنه ، إذ يحكّم عقله ، يلقى مسكنه ومأكله مجانيين ، وهذه نعمة بحد ذاتها ، لا يجب أن يجحدها ، فهو غير مسؤول عن أي شيء ؛ وهو ، على الدوام تقريباً خفيف القلب خفيف الروح ، إلا من شؤون ملتبسة ، تمرق في سمائه مثل طيور سوداء دون سابق انذار . يتذكر جيداً تلك الحادثة البسيطة التي التصقت بقلبه دون سبب . كان والده على فراش الموت ، قبل رحيله بيومين ، يملك وعيه تماماً ويتذكر كل شيء ؛ وكانوا حوله هو وأخوه وأمه وثريا وابنتها ، والوقت مساءً وأشعة الشمس الحمراء مرتمية بتعب على الحائط ، وفي الجو رائحة عطنة . لم يكن بينهم حوار ، وكانوا يتحاشون المواضيع ، لكن أباه بقي يتكلم بين الفينة والاخرى ، كلاماً مربوطاً عن أمور غير مرتبطة . أراد أن يدفنوه قريباً من محل سكناهم . ثم ، بعد دقائق ، التفت الى زوجته أم عبد الباري وطلب منها ألا تنس إعادة أموال توفيق إليه . بعد ذلك اقترح على ابنه البكر أن يشغَل أولاد عمه في المعمل إن كانوا محتاجين ، فالأقرباء أولى بالمعروف . ثم كرر عليهم رغبته في أن يرقد غير بعيد عن المنزل . سأل توفيق والدته ، بعد الأربعين ، عما كان يعنيه والده بإشارته الى أموال تخصه ويجب أن تُعاد اليه ، فأجابته بحنق :

ـ إنها سكرة الموت ياولدي ؛ ومن يُحتضر ، لا يدري عن أي شيء يتكلم .

وكان جوابها ذا مظهر صحيح .

في سنة ١٩٥٦ ، حين كان العالم يشتعل في قناة السويس والمؤامرات تحاك في الشرق الأوسط على كل الأصعدة ، اتخذ توفيق وأصدقاؤه وكلهم موظفون محترمون لا يتدخلون في السياسة ، قراراً باتباع منهج ثابت ليلة الخميس على الجمعة ، يتضمن الاجتماع للعب البوكر في أحد نوادي

الكرادة . كانت جلسات جميلة حقاً ، تتخللها المداعبات والنكات وتبادل اخر الأخبار والاشاعات ، وكان ثمن الشراب والطعام يوفر مما يؤخذ من مبالغ خلال دورات اللعب . ولم تخلُ بعض الجلسات من مشاكسات وردود أفعال غير مستحبة ، كان أغلبها متأتياً من حضور أصدقاء الأصدقاء كمتفرجين أو كلاعبين . أحضر خالد مرة صديقاً له تبدو عليه امارات الثراء ، فصار يبعثر النقود يميناً وشمالاً . قدموه له بأنه الأستاذ توفيق ، فلما سأله هذا الصديق الثري : توفيق ماذا ؟ أجابه ، دون سبب واضح ، أنه توفيق لام... وكفى ، ثم أطلق قهقهة عالية . كانوا سكارى .

ووجدت الشلة بعد فترة وخلال سنة ١٩٥٧ ، أن النادي يكلفهم مالاً لا داعي للتفريط به ، فاتفقوا على عقد جلساتهم اليوكرية في دار أحدهم بالتناوب . هذا الترتيب أدخل بعض الرزانة في تصرفاتهم ؛ لأن أهل الصديق المضيف يتواجدون معهم في الدار ، وليس من المناسب إسماعهم تلك الألفاظ النابية التي يتبادلونها أحياناً وهم في النادي . ثم كان يحدث في بعض المرات أن يدخل عليهم أطفال العائلة أو أهل الصديق المضيف للسلام والسؤال عن موعد العشاء .

جاءت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وما حدث بعد ذلك من أحداث غريبة عظمى ، فانقطع الأصدقاء عن خميسهم العذب الجميل ، وفضلوا التأني ففيه السلامة .

كان عبد الباري قد صار أباً لثلاثة أولاد : نجية وسلوان ثم نريمان ؛ وكانوا يملأون البيت ضجيجاً ويدخلون السرور على قلوب العائلتين . في الأثناء ، بلغت كميلة العشرين من عمرها وكانت قد تخرجت من معهد المعلمين منذ سنة وصارت ، مثل أختها ، معلمة في إحدى المدارس الابتدائية في جهة بعيدة من بغداد . وبسبب هذا البعد تعلمت السياقة واستحصلت على إجازة السوق ثم اشترى لها والدها سيارة مستعملة جيدة من نوع « أوبل » بيضاء ؛ وكان توفيق يراها تقف بسيارتها أمام باب الحديقة

وتتطلع باتجاه دارهم . لاحظ أنها تغيرت بالفعل خلقةً ولباساً وتصرفاً ؛ فهي أكثر أناقة هذه الأيام وهي تعمل العجائب في وجهها بحيث تبدو جذابة حقاً ؛ وحين كانت تأتي لزيارتهم ، يومياً ، تتصرف بتهذيب شديد وتتحدث بصوت خافت ولا تثار أعصابها لتصرفات أبناء اختها معها الشاذة أحياناً ؛ وكان توفيق ينتظر عاقبة كل ذلك ، خاصة بعد أن ترقّع وصار مسؤولاً عن قلم التحرير في الوزارة . سألته يوماً بماذا ينصحها أن تبدأ قراءاتها الأدبية والفكرية ؟ فسألها هل لديها وقت تريد أن تقتله ؟ أجابت بغنج... كلا لأنها لاتحب القتل ، فردّ عليها... إذن ، لاداعي للتعب والقراءة ، فليس فيها غير المرارة والشكوك وأنت امرأة جميلة لها رسالة انسانية معينة يجب أن تتفرغ لها ، فتظاهرت بالغضب وشكت لوالدته بأن توفيق لايأخذها مأخذاً جدياً .

كانت شابة شهية ، وكانت في عينيها ، وهي دائمة التحديق في عينيه ، دعوات غريبة وغير محتشمة ، أراد أن يتجاهلها دون جدوى .

مساء الخميس المصادف ١٩٥٩/١٢/٤ عاد توفيق وأصدقاؤه لسيرتهم السابقة ، وقرروا الاجتماع في دار الصديق خالد لقضاء سهر پوكرية عالمية . كان المساء جميلاً لابرد فيه ، وبيت الصديق يقع في منطقة بعيدة وهادئة من بغداد ، على شاطئ النهر . هيأوا المائدة في شرفة واسعة مغطاة ، تطل على دجلة كأنها وسط مياهه . اشترك معهم في اللعب ذلك الصديق الذي سأل يوماً عن اسمه ، وكان مرحاً مؤدباً . تبين أنه يشتغل في تجارة الاستيراد والتصدير مثل صاحبهم خالد وكان يدعى سليم مروان ، وقد بدا ، أثناء اللعب ، كأنه مازال على عادته في بعثرة ماله ، وكان ذلك أمراً مسلياً للجميع . وخلال الساعات التي سبقت العشاء ، لعب الحظ مع توفيق لعبة سيئة ، فلا هو رابح ولا هو خاسر ، بل شبه متفرج محايد ، وخطر له أنه يجب ألا يتذمر من هذه الحال ، فالبعض ، على المائدة ، كان يذبح البعض الاخر بكل صداقة ومحبة . ثم إنه خلال ثوان ، إذ ساد على رؤوس اللاعبين سكون الانتظار ، خيل اليه ، وهو يتطلع الى ماوراء النهر ، الى الأفق المظلم ،

انه يسمع همس المياه الخجول يلامس أذنيه بلطف . سحره ذلك ، وحين فُتح باب الشرفة الموصل الى البيت وارتفعت ضجة إعداد العشاء ، التفت يتطلع الى القادم دون اكتراث . كانت واقفة تستند بظهرها الى الباب وتنظر الى الجمع المنشغل ، عداه ، بالورق والنقود . رآها قبلهم ورأته ؛ ومكثا يتأملان بعضهما لحظات . كانت ماتزال شقراء بالطبع ، فاتنة المظهر ، مشرقة رغم النحول البسيط في وجهها . لم تبد أية دهشة أو استغراب . كانت مستغرقة في تأمله كأنها تحلم . لم يحوّل هو عينيه عنها ، ولاحظ أنها ترتدي فستاناً أنيقاً أسود بخطوط حمراء على جانبه ؛ ثم رآها تبتسم بغموض وتسلّم محيية الأصدقاء . أجابوها بضجيج مفتعل ، وكانت تقترب من صديق خالد ، ذاك المدعو سليم مروان وتضع يديها على كتفيه بحميمة واضحة وهي تنظر الى توفيق . قدموه لها ، إذ كان الوحيد الذي يفترض أنها لاتعرفه . هتف سليم مروان بانشراح وهو يجمع بذراعيه النقود ليكوّمها أمامه :

ـ إنه الأخ لام... توفيق لام ، يقول .

ورفع رأسه ضاحكاً :

ـ هذه أم زينة ، زوجتي آديل .

تصافحا . أحس ، أم كان وهماً! كأنها تضغط على كفه بأصابعها الناعمة الحارة تلك ، مثلما فعلت منذ سبع سنوات . سألتهم ألم يجوعوا بعد فالعشاء قد أُعد . كان شعرها الجزل قد غمق بعض الشيء وفارقتها خفة الشباب ، إلا أن عينيها الصفراوين الفاتنتين ظلتا على مقدرتهما في النفاذ الى أعماق النفس . لم يظهر عليها أنها لم تعرفه ، ولم تبدِ لحظة انها تعرفه وأنها تمنت عليه ذات يوم أمراً فخذلها . كانت ذات مقدرة فائقة في السيطرة على عواطفها وانفعالاتها الآنية .

عاد توفيق الى البيت والفجر ينبثق رويداً رويداً . لعبوا كاريه ثانية لم ينتهوا منها إلا حوالي الخامسة والنصف . ربح مبلغاً متواضعاً وكان رأسه

فارغاً ، يرن ويدور دون توقف . أوصله صديق الى المنزل . كانت موظفة في مصرف الرافدين وقد تزوجت منذ سنتين ولها طفلة واحدة وهم يسكنون الكرادة الشرقية/ داخل . علم كل هذا من صديقه خالد . أما هي فقد جاءته أثناء ضجة العشاء ، إذ رأته منزوياً في ركن ، خالي اليدين ، فقدمت له برقة صحناً وشوكة ثم دست قصاصة الورق في يده الاخرى ومضت عنه . ملكه الاضطراب وكاد يسقط الصحن ؛ وهاهو في حديقة دارهم ، يتمشى على العشب الأخضر الندي والسماء تتفتح ورائحة الورد تملأ صدره ، ولايزال مضطرباً مأخوذاً بسحر غامض تملكه فجأة وهو يقابل تلك المرأة/ اللغز بعد هذه السنين الطويلة .

سحب انبوب الماء البلاستيكي وأخذ يسقي العشب والأشجار ، منتظراً بزوغ النهار ، ليشتري للعائلتين كاهياً وقيمراً لافطار الصباح .

باشر آل قصابي بتأثيث المشتمل ، على حين غرة ، في نهاية شباط ١٩٦٠ وكانت أم عبد الباري أكثر الناس قلقاً وانشغالاً ، إذ لم تتصور أن من الممكن لعائلة قصابي أن تتصرف في أمر كهذا بمفردها ودون سابق انذار أو تلميح على الأقل ؛ فذهبت ، بعد أيام ، لتجتمع بأم ثريا اجتماعاً سرياً استمر أكثر من ساعتين ، ظهرت ، بعده ، وعلى وجهها علامات الارتياح . بذل عبد الباري جهداً جهيداً لانهاء الأعمال الخشبية التي أوصى عليها آل قصابي بأسرع وقت ممكن ، وأسرَّ لوالدته بأن كميلة هي التي اختارت الموديلات وهي التي كان لها القرار الأخير في ألوان ونوع الخشب ؛ فهزت الأم رأسها دلالة على أنها تعلم ما لايعلم . كان سلمان آل قصابي ، عميد الأسرة دون منازع ، قد اختار منذ فترة الاشتغال في المقاولات العامة إضافة لأعماله في السوق ؛ وكان همه الأساسي أن يستحوذ على أضخم الأرباح ؛ فاذا تحقق له ذلك ، وهو غالباً ما يتحقق ، انقلب همه الى كيفية استغلال هذه الأرباح الضخمة التي تتجمع لكي يجني منها أرباحاً اخرى . وكان همه الاخر أن تتزوج ابنته كميلة وتستقر مثل اختها الكبرى ، لذلك سعى الى تلبية كل

طلباتها ظناً منه أنها أدرى بشؤونها ، وهي المعلمة المثقفة ، وأعلم منه بنوع الوسيلة التي يجب أن تتخذها كي تؤسس حياتها الزوجية . ويبدو أن هذا القصاب الأمي من الهويدر كان يحس بأن ابنته كميلة تملك ، مثله ، حدساً خاصاً قوياً يجعلها تعرف مصلحتها أكثر من بقية الناس ؛ لذلك استجاب لكل نزواتها وطلباتها المتكاثرة ، دون احتجاج . وهكذا لم يقبل الصيف ذلك العام ، حتى انتقلت كميلة الى المشتمل المؤثث على أجمل ما يكون والمجهز بجهازي تبريد علامة «وستنكهاوس» .

ولم يخطر لتوفيق أن يرفع رأسه ليتساءل عن معنى كل هذا ؛ فهو ، في اعتقاده ، على جهة بعيدة مما يجري حوله . إضافة لذلك ، فقد كان بمعزل عن عالمه المألوف ، يعيش حياةً سريةً تماثل الأحلام ، انفتحتْ عليه بابها حين حدث له أن اتصل ، ذات صباح مشرق من أواخر شهر كانون الأول ١٩٥٩ ، بفرع مصرف الرافدين حيث تشتغل . كانت ، هذه المرة ، اكثر دقة في تدوين أرقام الهواتف التي يمكن مخابرتها عليها ، مع ذكر الأوقات المفضلة للنداء ؛ لهذا جرى كل شيء على أحسن مايرام . تغيّر صوتها حالما عرفته ؛ فاستحالت نبرة الدهشة فيه الى نغمة ناعمة متلاينة . حددا موعداً للقاء قصير في (اورزدي باك) قبيل انتهاء الدوام الرسمي . رآها تقف قرب زاوية مبيع الكريستال ؛ وكانت تتلألأ مثل تلك الزجاجات البراقة .

تبادلا حديثاً قصيراً وهما يتجولان بين المعروضات . اعتذر لها عن تأخره في الاتصال بها وزعم بأن أحداً لم يرد على نداءاته منذ سبع سنوات ؛ ابتسمت ابتسامة عريضة وسألته هل فكر بها وهل أدهشته رؤيتها وهل تغيرت . كانت سعيدة بانفعال وهي تكلمه ، وتقاطيع وجهها الجميل المحمَر قليلاً ، تفيض وداً وانجذاباً . صعدا الى مقهى في الطابق العلوي فاستطاعا أن ينفردا جالسين دون رقابة من أحد . ربطهما تفاهم سريع ؛ كانا ذوي مزاج متقارب ، تهمهما اللحظة الآنية بشكل معقول ، ويسعيان ، دون تعقيدات أخلاقية أو دينية ، للتمتع الحر بما منحتهما الطبيعة الأم من

امتياز ؛ ولم يكونا مشغولين بالأفكار . كانا ، هي خاصة ، مندفعين ، عن رغبة عميقة ، أحدهما نحو الآخر . لم تقل له لِمَ تتطلع اليه هكذا ، ولم يسلها ، من جانبه ، عن سبب ذلك . افتتن بانجذابها نحوه ، نحوه هو بالذات ؛ وتذكرا بشجنٍ تلك الليلة الأخيرة من عام ١٩٥٢ ، حين التقيا لقاءهما السحري الأول .

ثم إنهما ، بالرغم من ارتباطاتها هي كزوجة وأم وربة بيت ومن خلال مشابكات وضعهما كموظفين يملكهما الدوام الرسمي ، استطاعا أن يلتقيا وينعما بالسلام ، في دار تقع في محلة الزوية ، ذات مدخلين منفصلين ، كل على شارع ، تملكها صديقة لها . وحين جاء الى الموعد ، أوائل آذار حوالي الخامسة مساءً ، كانت نفحات من ربيع مستتر تخالط النسمات الباردة ، فخيل اليه أنه أخطأ العنوان . كان المدخل قديماً كأنه لايفضي الى أي مكان ، والبيت تخفيه أشجار النارنج باغصانها الكثيفة . فتحت له بنفسها الباب الصغير ، وكانت تتألق ، مبتسمةً ، في فستان أزرق مشجر بورود حمراء . بدا له أنه يراها ، هذه المرة ، ممتلئة الجسم بشكل مثير . دخلا الى غرفة الاستقبال بعد أن اخترقا صالة فارغة . أخبرته ألا أحد هناك . كانت تتصرف بتلقائية محببة الى النفس أراحته . لاحظ على المائدة صحن مكرزات وآخر مليئاً بالفاكهة ، ثم انتبه الى زجاجة ويسكي مركونة في زاوية بعيدة . دعته للجلوس وجلست قربه على أريكة ذات طنافس وسألته أيفضل مشروباً قوياً أم يحب قدح شاي أو قهوة . اختار القهوة فقالت إنها ستصنعها له بعد حين ، ثم أردفت أنها تريد أن تتمعن فيه قليلاً وضحكت ضحكة قصيرة . استغرب أن يتلقى بعض الأمور العجيبة منها بشكل طبيعي . كانت ، في الواقع . تتأمله بجدٍ ، وفي عينيها المتلألئتين ، نظرة تحدٍ وابتهاج . شعر بوجهه حاراً ، وضحكت هي مرة أخرى ثم قامت لتصنع له القهوة كما أراد . كان مبعث الحيرة في داخله ، تساؤله عن أساس يستند إليه لتفسير هذه العلاقة ولمعرفة أية امرأة هي بين النساء . وكأنها حزرت مايدور في ذهنه ،

لكنها لم تجبه حالاً ودعته الى شرب قدحه من القهوة لأنها ستقرأه له بعد ذلك ، فهي مشهورة بصدق قراءتها . أبدى سروره علناً واستفهم منها مداعباً عما إذا كانت الفناجين هي كل ما تقرأ . رنّت ضحكتها المرحة في أرجاء الغرفة وفي أرجاء قلبه ، وتورّد خداها واخضلت العينان الجميلتان . أجابته بأنها تقرأ ، عادة ، بالعربية والفرنسية ، كتباً في الاقتصاد وروايات خفيفة وجرائد وحسابات الزبائن في المصرف وما يقع تحت يديها من مجلات نسائية .

ثم ، كمن يجيب على تساؤل خفي ، قالت :

ـ لن يكفي الكلام لتفسير النفوس ، فهو فارغ أحياناً ؛ هنالك أفعال القلب ورؤيا العقل .

كانت ممسكة بقدحه بين أصابعها الشفافة الملونة الأظافر :

ـ وهناك القراءات الفنجانية بالطبع ، لا تستهن بها فهي الأهم .

أنت مسروق منذ زمن بعيد ياسيدي ، مسروق وغافل عمن سرقك غريب أمر هذه الدنيا ، كيف يسرقون من له وجه مثل وجهك ياسيدي ؟ تعال ، انظر لي هنا ، كم هي واضحة هذه الاشارة وذلك السهم المريّش . وأنت أيضاً يا سيدي غير محظوظ تماماً... كيف يمكن هذا ؟

أجابها أن ذلك يعني بأن الفنجان يغش . كانت ماتزال تتأمل ، بجمود ، رسوم الفنجان السرية . ثم ابتسمت بعد لحظات وآمنت على صدق ما قال ، وأكدت له بأن الفنجان يغشّ بالفعل في بعض الأوقات .

تبادلا ، دون تفسيرات أو ايضاحات ، حديثاً طويلاً مسلياً ، حمل لهما الارتياح وصفاء النفس . أمسك بيدها وسألها عما إذا كانت قد رأت شيئاً غير مسرٍ في فنجانه ؟

فضغطت على كفه مداعبة وسألته لِمَ لم يتزوج ، فأجابها بسؤال : لِمَ تزوجتِ ؟

قدمت له صحن المكرزات وتناولت بعده حبة فستق ، فتحتها ووضعت

الثمرة بين شفتيها ، ثم تلبثت هكذا تتطلع إليه . كانت الفستقة الخضراء محاطة بشفتيها الطريتين . نصفها مغمور باللون الأحمر القاني والنصف الآخر معروض من أجله لالتقاطه . اقترب منها ببطء وتناول الفستقة بفمه من بين الشفتين ثم عاد يقبلها بنعومة .

توفي العم لطف الدين آخر الأحياء من أبناء عبد المولى ، عن خمسة وسبعين عاماً ؛ وكان ذلك في بداية خريف سنة ١٩٦٠ ، فتوجب ، دون أساس معقول ، على عبد الباري أن يقصد خانقين لحضور التشييع والاشتراك في الفاتحة . لم يكن متردداً ، بل خائفاً ؛ وراح يحكي للجميع عن خوفه هذا ويتذرع أمامهم بأن ثريا حامل ولايمكن له أن يتركها عدة أيام ؛ وبين الجد والهزل أشفقوا عليه ، فتبرع عميد آل قصابي أن يصحبه هو بسيارته الى خانقين ويعود به سالماً آمناً ؛ عند ذاك علت الابتسامة وجه عبد الباري وتقدم بسرعة فقبّل يد عمه والد زوجته . سافرا صباحاً في ساعة مبكرة ، واستطاع توفيق أن يشاهد أخاه مرتدياً بدلته المتهدلة وواضعاً النظارات السوداء ، وهو يدخل الى السيارة الشوفرلية المستعملة ويلوح لزوجته مودعاً . وفي مساء ذلك اليوم نفسه ونسمات الخريف الندية تبعث في النفس أحاسيس غامضة ، سألت أم عبد الباري ابنها توفيق عما إذا لم يحن وقت زواجه ، وقد جاوز الثامنة والعشرين من عمره ؟ كان يتمشى في الحديقة ، قبيل الغروب ، متوحداً يعيش مع خيالاته ، حينما خاطبته والدته وهي تقف في الشرفة الصغيرة قبالة الباب الرئيسي . كان ، في ذلك الوقت بالذات ، أبعد ما يكون بمراحل كثيرة ، عن التفكير في مشروع جنوني كهذا ، وحالما توقف عن السير أمامها ورفع وجهه متسائلاً عما قالت ، حتى أدركت أم عبد الباري مما بدا على ملامحه ، الا حياة لمن تنادي ، ومكثت ساكتة لا تريم ولا ترد على طلبه بتوضيح ما تريد . خطر لها أن الإشارات والتلميحات التي تسمعها من كميلة وأمها ، تبدو بعيدة عن التحقيق ؛ فهذا الشاب الذي حباه الله سبحانه وتعالى بخلقة حسنة من دون أفراد عائلته ، قد بخل عليه بالاتزان

وحب الاستقرار وإطاعة الوالدين . فها هو منذ أشهر ، يزداد انعزالاً ولا ينفك يسهر ويتأخر ليلاً في العودة الى البيت ويصرف الراتب خلال الأسبوع الأول من الشهر ويلح في طلب النقود منها وهي لا تستطيع أن ترده خائباً ، مع أن مصروف البيت مرتفع لايكاد يبقي شيئاً من أرباح المعمل . ثم إنها لا تقدر على إزعاجه اكثر مما فعلت بسؤاله متى سيتزوج أو على الأصح متى سيتزوج كميلة ويريح الجميع . والغريب أن هذه الفتاة تعتقد بأنها ما إن تستعد وتهيئ كل شيء ، حتى تجد العريس راكعاً تحت قدمها! حسناً ، لقد جهزتْ كل شيء كما تقول ؛ من الفاتحة حتى (لام ألف لا) والسلام . ولكن لا أحد يبدو على استعداد للركوع حتى الآن . وهذا أمر غريب لو بحثنا عن الحق . فماذا يروم هذا الولد المحظوظ توفيق أكثر من ذلك ؟ لا شيء مطلوباً منه غير أن ينتقل الى المشتمل الجديد المجهز بأحدث التجهيزات والمؤثث على آخر وأجمل موديلات الأثاث مع سيارة أمام الباب تحت الطلب وزوجة شابة مطيعة! وهو ، مع هذا كله ، لا يجيب ، كأنه في عالم آخر ؛ وهذه البنت كميلة ، فارقها عقلها ؛ فهي لا تفكر إلا بالزواج منه ولا أحد سواه . سبحانك اللهم ، كيف أردت لعقول النساء أن تكون!

عاد عبد الباري وعمه أبو ثريا من خانقين ، في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم . كانا متعبين مستنزفين ، وأخطر سلمان آل قصابي زوجته حالما اختلى بها مدى ندمه وتورطه في هذه السفرة المشؤومة . كادت السيارة ، أولاً ، تنقلب بهما قرب بعقوبة لولا انتباهه ولطف الله ؛ ثم إنهما أوشكا على الموت جوعاً واولئك القرود ، سماهم هكذا علناً ، مشغولون بالبكاء والنحيب والصراخ . وفي طريق العودة ، بعد أن اشتد الظلام وصارت الرؤية صعبة ، داهمهما «لوري» كالشيطان الرجيم وغشّى على أبصارهم بضوء المصابيح القوي وقارب أن يصطدم بهم . يا لها من رحلة ملعونة!

حاول توفيق ، بعد ذلك المساء الفريد الذي قضاه بصحبة آديل ، أن يتزن ويهدئ من حميّا انفعالاته ، وأن يجعل من هذا اللقاء النادر مع امرأة من

طراز خاص ، تجربة قمينة بأن تسمو به . كان حريصاً الا يخيّب أملها فيه وألا يفتش عن أمور قد تخيّب أمله فيها ؛ ولقد اقتنع بعد أن تفارقا أنها كانت ، بشكل من الأشكال ، على صواب حين رجته أن يتوقف في مداعباته الجسدية عند حد معين . سحرته قبلتها الأولى ونظراتها اليه ولمسات يديها الرقيقة واحتضانها له والشغف الحار في تجاوبها ؛ ولما سمحت باندساس يده المرتجفة بين نهديها البضين وباندفاعه في تقبيل رقبتها وأعلى صدرها ، نسي نفسه ووقته ومكانه . لكنها ، أخيرا وبلطف زائد ، وضعت أناملها المعطرة على فمه ثم مرت بها على عينيه وخديه وجبهته وشعره وهمست :

ـ ليس الآن ، ليس الآن .

ثم قبلته ، فأدرك حالاً أن عليه أن يفهمها .

ولما حان موعد الانصراف سارت معه الى الباب الصغير ، عبر حديقة مهملة سادها الظلام واتفقا أن يتخابرا .

ـ لا تتسرع وأرح أعصابك .

أمسك بها تحت شجرة نارنج وارفة الأغصان ، فاحتضنها بقوة وقبّلها قبلة لا تنتهي . كان مشوقاً إليها بجنون شبابه وحرارته . ضمته هي الأخرى اليها وضغطت جسده بجسدها . ثم انفصلا بتثاقل ، ففتحت له الباب ، فلما أراد أن يمرّ جوارها انحنت عليه فترامى شعرها المضيء في الظلام على وجهه وقبّلته في خده . سمعها :

ـ نم جيداً... يا حبيبي .

فكر ؛ بأن الأمر المهم ، حين تنمو للروح أجنحة ، ألا يطير المرء عالياً بحيث يفقد توازنه بسبب ارتفاعه أو عدم درايته ، فيسقط سقوطاً مميتاً ؛ والمغزى من ذلك في حالته هو ألا يجن من فرط سعادته ، هذا هو كل شيء .

أراد أن يتصل بها يومياً...

ـ كلا ، البتة ، في يوم واحد أسبوعياً وفي ساعة معينة مضبوطة تتغير من اسبوع لآخر .

وكان مفترساً بالشوق إليها .

في أواخر آذار ذاك والربيع يفتح أبوابه ، اتفق الأصدقاء على لعبة پوكر عالمية ، كما اعتادوا وصفها ، في بيت الصديق الجديد سليم مروان .كان المساء مشحوناً بغموض عاطفي ؛ وحالما دخل توفيق برفقة عبد القادر ، البيت الفخم المشيّد حديثاً والمفروش بأجمل الاثاث حتى بدا له واضحاً بأن وراء هذه المظاهر الباذخة غنى فاحشاً ؛ الأمر الذي لم يكن مستغرباً أيامئذٍ ، سوى أن سليم مروان هذا لم يكن قد جاوز الثلاثين من عمره بعد ، ولم يسبق له أن ورث عن أبيه غير اسم رث غير معروف . جلسوا يتبادلون الأحاديث في غرفة استقبال محتشدة بأثاث مذهب ستيل أحد اللويسات ، وكان قلبه موزعاً مع نظراته الباحثة عنها . وحين اكتمل الجمع اقترح رب البيت عليهم الانتقال الى غرفة المكتبة المجاورة ، فهي أكثر حميمية وأروح للجلوس ؛ وكانت بالفعل كذلك ؛ ففي وسطها افترشت مائدة مدورة ذات غطاء أخضر المكان ، محاطة بكراسٍ حمراء من القطيفة ؛ والضوء الكهربائي القوي يعلوها محاطاً بموانع خشبية تحمي عيون اللاعبين . داعبهم توفيق ، شاعراً بسعادة تغمره :

ـ إن هذا المكان يجب أن يجعلنا نربح جميعاً .

ضحكوا ، وعلّق سليم مروان :

ـ وهذا ما لن يحدث بالتأكيد .

ثم إنهم انغمسوا مع تلك الوريقات الساحرة المسحورة ونسوا أنفسهم ضمن قواعد اللعب والمناورات ، عدا توفيق . بقي ، خفية ، ينصت إلى الأصوات خارج الغرفة ، محاولاً أن يتبين وقع أقدام أنثوية يعلن حضورها . كان شوقه لرؤيتها ، حالة مستعصية لاتوصف ؛ فمنذ التقاها قبل عشرين يوماً وهي تعيش في خياله باستمرار وتملك عليه تفكيره . لايستيقظ صباحاً ، إلا ويجد نفسه مستحضراً صورتها ، ولا ينام ، بعد تقلب في الفراش طويل ، قبل أن يسترجع التفاصيل والحركات والإيماءات العزيزة . ولم يدر ما العمل وكان ينتظر .

كانوا يشربون اكثر ما يمكنهم من الويسكي ويأكلون المزة بشكل مقزز أحياناً ؛ ولم يشاركهم توفيق في ذلك ، ولبث يرفع كأسه ويعيدها دون أن يشرب إلا أقل ما يمكن . كان ينتظر ، كان ينتظرها . ثم إنها طرقت الباب وأطلت عليهم بهيئتها الجميلة وهتفت تحييهم . ضجوا يجيبونها ، ورأى العينين الصفراوين الكحيلتين تبحثان عنه وتريانه ، والبسمة الخفيفة ترتسم على فمها . دعتهم للعشاء بعد ربع ساعة ، فوافقوا . كان زوجها ، بعد أن كرع نصف قنينة ويسكي ، محمرّ الوجه ملوث أطراف الفم بزيت المزة . لم يعجب توفيق أن يشترك في اللعب بعد ذهابها . أحس اضطراباً في نفسه لم يتوقعه ؛ فأخذ يرمي ورقه باعتباره سيئاً ويتراجع منعزلا عن اللاعبين . بعد دقائق ، تعالت موسيقى احدى الأغاني المألوفة له ، وارتفع صوت صافٍ ملائكي يغني :

I love you with all my heart

عرف فيه صوت المغنية (بتولا كلارك) . كانت تغني له . كانت آديل تغني له تلك الأغنية التي يحبها . أحبك من كل قلبي ، كانت تحبه وكانت بتولا كلارك تعلن له ذلك بأجمل لحن سمعه .

تعشوا بمساعدة خادم ، ولما أرادوا لعب كاريه ثانية ، انسحب هو وصديق اخر . كان مكتئباً ، معتصر النفس ؛ لم ينم إلا قبيل الفجر بقليل .

شكا لها ، برقة ، سوء حاله على التلفون . سمعها تتنهد ، واتفقا على اللقاء في موعد قريب . كان الجو ، ذلك اليوم من نيسان متقلباً هائجاً لا يستقر على قرار . كانت في فستان برتقالي ربيعي بدون أكمام ، ووجهها مشرق وذراعاها بلون خمري . استند بظهره على الباب ، لا يتقدم . كانت تقف مبتسمة ، قربه . بادرت الى احتضانه كأنها تعتذر عما عمل به شوقه اليها .

جرى الاحتفال بعيد ميلاد (توفيق) الثامن والعشرين في ١٥/٦/١٩٦٠ وكان احتفالاً مفروضاً عليه وعلى عائلته . فكميلة هي التي أرادته وهي التي

وسَطت والديها كي ترضى أم عبد الباري بإقناع ، أو إجبار ، توفيق على ضرورة المشاركة فيه . ولم يخطر لهذا الأخير أن يقاوم ، لأنه ، في الأساس ، غير مكترث بأي شيء يخططون له أو يفعلونه . كان ، بكامل وجوده ، في مكان آخر من العالم ؛ لذلك جلس معهم كالشمعة التاسعة والعشرين التي لم تشعل ؛ يراقبهم ويكتشف باستمرار مدى قبحهم وعاميتهم وغبائهم . وجاء وقت تقديم الهدايا ، وقدموا له هداياهم وأحرجته تلك الشابة كميلة حين أخرجت خاتماً ذهبياً ذا فص كبير أحمر ، فقدمته له بخجل وبكل السخف الممكن أن يوجد لدى امرأة . تردد قليلاً ثم قال لها إنه لا يستطيع بأسف أن يقبله ، لأنه لا يضع مثل هذه الخواتم في يده ولأن الخاتم كما يبدو غالي الثمن أكثر مما يجب . حدثتْ إثر ذلك ، أزمة في العلاقات معه ، لم ينسوها لمدة طويلة ، في حين أنه نسي كل شيء في مساء اليوم التالي ؛ وكان على حق في نسيانه ، فقد كان على موعد معها .

ـ... وأنا نصفك الثاني ، أنا زوجتك لأني اخترتك أنت ولم اختره هو . هذا ما أراه ، ولايهمني في شيء ألا يصدقني أحد ، فلديَ أفكار مجنونة أحترمها .

وكان هذا يعني ارتباطاً أزلياً يفوق الارتباط الجسدي بكثير .

ولدت ثريا في شهر أيلول ولداً ثانياً سموه « علياً » ، فصار مجموع أبناء عبد الباري أربعة ، وكانوا يسكنون جميعاً ثلاث غرف في الطابق الأول ، جوار غرفة توفيق ، مما جعل الشتاء تلك السنة عسيراً عليه وعلى راحته الشخصية .

خلال سنة ١٩٦١ تشارك سلمان آل قصابي وعبد الباري في تقديم عرض للحصول على مقاولة حكومية لتشييد بناية في احدى نواحي بغداد ، فرست عليهما فجيّراها الى شركة اخرى بربح كبير تقاسماه . كانت عملية سهلة لم يتوصل عقل عبد الباري الى استيعابها ولا الى فهم أسبابها أو كيف تمت ولماذا ؛ سوى أن عميد آل قصابي أخذ يتدخل بعدها في شؤون

المعمل وفي كل صغيرة وكبيرة تحدث للعائلة . ورغم أن الإشراف على حسابات المعمل وأرباحه هو من اختصاص أم عبد الباري بامتياز ، إلا أنها صارت تشعر بالتوجس والقلق . ثم تبين أن نوايا سلمان آل قصابي حسنة عموماً ولاسوء فيها . فهو لا يريد شيئاً غير أن يسجل عبد الباري نصف المعمل باسم زوجته ثريا . وحينما أسرع عبد الباري الى أمه ينقل اليها ذلك الطلب العجيب . كان يتلفت وراءه بهلع كأن وحشاً يطارده . لم تجب والدته ، لا بالموافقة ولا بالرفض ، بل هزت رأسها عدة مرات دون كلام ، وميّعت القضية مع مرور الأيام والشهور . ولم يلحّ سلمان آل قصابي أو يعاود الطلب ، لكن شراكته مع عبد الباري انقطعت ، وصارت الأرباح السهلة تدخل جيبه الخاص فقط .

لم تشُب علاقة توفيق بآديل أية شائبة طيلة العام الذي مرّ على إعادة تعارفهما ، وكان مستنداً الى سعادته معها ، يحس توازناً في حياته لم يألفه من قبل . كانا أكثر من متفاهمين ، وأشبه بنصفين متكاملين ، ولم يكن اتصالهما الجسدي عادياً . أول مرة ، في غبش الغرفة الفاتر ، على فراش واسع نظيف ، تحاضنا ، عاريين ، بصمت لوقت طويل ، طويل . كانت أنفاسها الدافئة متسارعة قليلاً وكان يحس بنفسه يتلظى بحرارة شهوته . عرف من تشنج جسمها الناعم أنها تخوض معركة داخل ذاتها ؛ فتصابر ليبقى ملتصقاً بها دون حراك ، ممسكاً بامرأته الفاتنة تلك حتى تنتهي الى قرار . ثم ، بعد لأي ، سحبت وجهها من رقبته وشعر بفمها ينساب بخفة على بشرته ليجد شفتيه المتعطشتين فيلتقطهما بسكون ويمنحهما ذلك الرحيق العذب . وانقلبا على بعضهما وامتلكا أحدهما الآخر ، وتشابك وجوداهما عبر تكوينات مادية هي ، بالصدفة ، معجزة الطبيعة الفذة . ولم يدرك ، محاطاً بلهاثها المعطر وليونة شفتيها وبطنها وفخذيها ، أكان على وشك الهلاك أم دخول جنة لم يحلم بها البشر قط ؟

بعد ذلك ، خيل إليه كأن كل شيء تغير في رفيقة نشوته العظمى ،

فالعينان اتسعتا وعمقتا والشفتان احترقتا بشهوة ظاهرة والجسد استضاء أمام بصره المبهور . شعر أنه مملوك بحب هذه المخلوقة الى الأبد ، وأن لقاءهما المتكامل هذا ما هو إلا منحة إلهية قدراها حق قدرها فحافظا على توازنهما في هذه العلاقة الرائعة كيلا يختل أساس مكين فيها فتنقلب .

وبسبب شعوره بأنه مملوك لها وبأنها ، بشكل من الأشكال وفي الوقت نفسه ، داخلة في ذاته ، قويت حياته الباطنية على حساب اهتماماته ومشاغله المعيشية المعتادة ، فازداد عدم اكتراثه بالقيَم التي يحيا عليها مساكنوه ورفاق حياته الوظيفية ؛ وكان الزمن يمضي بالنسبة إليه ، مقاساً بنداءاته التلفونية إليها ولقاءاته بها وتصوراته عنها . حتى اجتماعات اليوكر ، صار يحضرها من أجل أن يرى سليم مروان! ففي غيابها عنه ومع شوقه الذي لادواء له ، كان يجد عزاءً بأن يرى من يعلم أنه رآها وعاش معها! وهكذا تداخلت أموره في مداخل قضايا العشاق المولهين ، البالغة الخفاء والتعقيد .

وفي حال كهذه ، لم يكن لكميلة أي أمل في إحراز نجاحات متألقة بشأن الاقتراب من هذا الرجل أو من قلبه ؛ فبعد أن رفض هديتها علناً وأمام الجميع دون أن يهمه سواء زعلت أم لم تزعل ، تعيّن عليها أن تفكر وتسلك مسلكاً آخر . كانت تسكن مع عائلتها عادة ، وتقصد المشتمل المريح مساءً لتنام فيه أحياناً ؛ وكانت أمورها مستعصية بسبب ذلك الإحساس الغامض الذي يتملكها بأنه إنسان يعيش في عالم آخر . ولم تعلم عن يقين أساس هذا الأحساس ، فهو ، مثل بقية الشباب ، يسهر ويشرب باعتدال ويلعب القمار مع اصدقائه ويقرأ الكتب ويذهب الى دور السينما ؛ ومع ذلك ، ينتابها هذا الشعور النحس بأنه ، في حقيقته ، بعيد عنها ، في كوكب قصي لايُنال .

كان العمران ، بداية الستينات ، يمتد بسرعة الى تلك المنطقة الشاسعة التي أقامت عليها العائلتان بيتيهما منذ أعوام قليلة ، فهي منطقة هادئة نقية الهواء ، قريبة نسبياً من مركز المدينة وتتوفر فيها كل حاجيات

السكان ، ماعدا الاتصالات الهاتفية ؛ فقد كان مدُ الأسلاك التلفونية صعباً في تلك الأيام ، مما أشقى توفيق بعض الشيء ، إذ كانت تلك الآلة الصغيرة قد احتلت مكاناً تاريخياً في حياته العاطفية ، لذلك أسعده حين ترفَع وظيفياً ، أن يوضع تحت تصرفه تليفون خارجي خاص . عُيّن ملاحظاً للتحرير ، وكانت أعماله روتينية بحتة لا رونق فيها . فهو المشرف على طبع المراسلات التي تصدر من أقسام الوزارة المختلفة ، تُقدم اليه فيلقي عليها نظرة ثم يحيلها الى كتّاب الطابعة التابعين له لطبعها ؛ وتعاد له بعد الطبع فيلقي عليها نظرة ثانية للتأكد من صحة الطبع وعدم وجود أخطاء فيها قبل إرسالها للسيد المدير العام لتوقيعها . مشكلته الشخصية الكبرى كانت الوصول الى الدائرة قبل الدوام الرسمي أو بعده بقليل . فهو ، بدءاً ، لا يستطيع النوم مبكراً لأسباب عديدة . أولها حبه واعتياده على القراءة لساعات قبل النوم وثانيها آديل... آديل ؛ فكان ينتزع نفسه انتزاعاً من الفراش المليء بأحلامه وصورها . ثم يتراكض ليلحق بالباص أو بسيارة صديقه ؛ وغالباً ما كان يضطر لركوب سيارة أجرة كيلا يبالغ في التأخير .

وعلى هامش أزمة النقل هذه ، تبرز سيارة الآنسة كميلة كنوع فذ من أنواع الحلول التي لم يفكر فيها ، أو التي ، في الواقع ، فكر فيها ثم رفضها عن تصميم .

في الأثناء ، وإذ وجد عبد الباري ووالدته أن الأعمال توسعت وأنه على أبواب الدخول في السوق مثل عمه سلمان آل قصابي ، فقد خطر لهما أن يفكرا في اتخاذ قرار بشأن شراء سيارة للاستخدام الشخصي! كانا مترددين كالعادة ، تخنقهما تلك العقدة النفسية اللعينة التي تقف بصرامة ضد صرف النقود وضد الترف والتمتع بالمال ، فكان على عميد آل قصابي أن يتدخل أخيراً ويحل المعضلة بطريقة مستحبة للغاية ؛ فقد عاد إلى إشراك عبد الباري معه في مقاولة مهمة واشترط مقابل ذلك على أم عبد الباري أن تذهب حصة عبد الباري من الربح المتوقع لشراء سيارة يختارها هو لهما ، فوافقت

بالطبع ، فكان أن وجد عبد الباري نفسه ، بعد أقل من شهرين ، يسوق سيارة شفرولية مستعملة كأنها جديدة .

ولم يستفد توفيق من هذا الوضع الجديد ، ولم تُحلّ أزمة النقل عنده ؛ فعبد الباري ينام بعد العشاء مباشرة دون قراءة أو وجع رأس أو أحلام ، ويستيقظ نشيطاً قبيل الفجر فيتوضأ ويصلي ثم يتناول فطوره ويشرب قدحه الثاني من الشاي ويتوكل على الله فيستقل سيارته وينطلق بها وتوفيق مايزال في فراش الأحلام والصور الجميلة المستعادة .

في صيف ١٩٦٢ ، يتذكر جيداً ، أنه كان يوماً حاراً حرارة غير معقولة ، خابر آديل صباحاً ، كما اتفقا ، فقيل له بجفاء إنها مريضة ولم تداوم اليوم في المصرف . أخذه قلق شديد لم يتوقعه ، فجلس يهديء من نفسه ويحاول ان يسلك مسلك العقل والاتزان ؛ ولما كانت قد حذرته من الاتصال بها على هاتف البيت إلا لضرورة قصوى ، فقد مكث يحاور ذاته عما إذا كان هذا الوضع يمثل ضرورة قصوى أم لا . ثم رأى أن ليس بمقدوره ، في حال القلق المزعج هذه ، أن يبتّ بموضوع معقد كهذا ، فأدار رقم هاتفها في الدار ، جاءته امرأة لعلها الخادمة ، فادعى أنه أحد موظفي المصرف وطلب مكالمتها . كان صوتها خافتاً متكسراً خدش قلبه . أخبرته بأنها استبردت ذات ليلة وانها مريضة حقاً وكانت في سبيلها للاتصال به . أثّر فيه صوتها تأثيراً كبيراً أدمع عينيه . تمنى لها الشفاء العاجل ورجاها أن تعتني بنفسها ثم سألها أيمكنه الاتصال بها ثانية ، فحذرته من ذلك . ملكه بعدئذٍ اطمئنان مؤقت . كان فرحاً مرتاحاً لسماع صوتها وحزيناً لمرضها ولتأجيل موعد لقائهما .

حين رجع الى البيت ظهراً صادف كميلة تشاركهم الغداء فجلس معهم بعد أن اغتسل وغيّر ثيابه . حدثوه بهلع عن زوجة الرسام عبد الاله كمال أحد جيرانهم ، كيف أنها هربت مع عشيقها الغني وتركت زوجها وابنها منه غسان ذا السنوات الست . كنَّ ، أمه وكميلة وثريا ، يتحدثن في وقت واحد عن هذا السقوط الأخلاقي المروِّع وعن قسوة القلب والاستهتار والفجور

وقرب قيام الساعة ؛ وكان هو مأخوذاً بفكرة سرية تسللت الى حنايا عقله : ماذا لو هرب مع آديل... الى آخر الدنيا .

كان يعتقد أنهما يتخذان من الاحتياطات ما يجنبهما عيون الفضوليين وكلامهم ، ولم يكن مخطئاً ، غير أنه ، في ليلة نهاية ذلك الصيف حين كانوا على المائدة الخضراء في الشرفة الجميلة تلك المطلة على النهر ، سمع قبل مجيء سليم مروان من يتحدث بابهام عن حكايات تدور حول تصرفات آديل المشبوهة وسخط زوجها عليها وإساءته معاملتها خلال الأشهر الأخيرة . شعر بقلبه يسقط من بين ضلوعه الى الأرض . حافظ بصعوبة على هدوئه وصمته ؛ ولم يستطع أن يغالب نفسه ، فأخذ يتفحص هيئة زوجها حين أقبل أخيراً . كان على طبيعته الفوضوية البسيطة الحمقاء ، لاتبدو عليه أية علامة بأنه يعاني من شكوك وخيانات . خسر توفيق كل ما يحمل من نقود ، وحين أراد الاستدانة تبرع سليم بإقراضه فخسر ما استدانه منه فاقترض منه مرة أخرى فخسر أيضاً فانسحب من اللعب .

عاد تحت ستائر الظلام الدامس ودخل البيت مثل لص صغير لايريد أن يتوب . لبث في الحديقة ، جالساً على كرسي وسط العشب الندي . كان يفكر بها وبحياته ، وكان يحس بنفسه مقهوراً ، ملوي الذراعين ، مقسراً على الانحناء . إنها أفضل منه بكثير وأقوى روحاً .

أغاظه أن يخسر وأن يضطر للاستدانة وأن يكون دائنه هو سليم مروان ؛ كانت مشاعر لا معقولة ، تنخر الروح بإصرار . أراد أن يعيد دين سليم مروان عليه قبل كل شيء ، فقصد والدته وطلب منها أن تقرضه المبلغ فرفضت بخشونة دهش لها . أخبرها أنه بحاجة ماسة لهذا المبلغ لأنه استدانه من شخص لا علاقة قوية له معه ولا يريد أن يبقى مديناً له ؛ ففاجأته بأن ديون القمار لا يتوجب ردها وهي غير مشروعة ، وأن عليه أن يعلم أن مالهم ، الذي يكسبه أخوه بالحلال وبعرق الجبين ، لايجب أن تُسدد به ديون مشبوهة وقذرة .

كان ذلك في أمسية رطبة هادن الحر فيها بغداد ، فهبت نسمات خفيفة أنعشت النفوس . لم يستطع أن يجيب والدته ؛ آلمته نبرة الحقد التي ترددت في حديثها ، واعتبر نفسه مسؤولاً عما صار إليه . كانت هذه أزمة وجود عسيرة تباغته للمرة الثانية في حياته . بذل مساع مزعجة ليدبّر اقتراض النقود من أحد موظفي الدائرة ، ساعده في ذلك فراشه أبو فتحية وأوصلها الى سليم مروان مع الشكر الجزيل . تجنب حضور جلسات اليوكر بعد ذلك . كان يحس بهبوط غير مبرر في قواه الجسدية والذهنية فأخذ إجازة قصيرة التقى فيها بآديل . كان ، كعادته ، محترقاً بالشوق إليها وكانت تعرف كل أخباره . أعلمته بأن خلافاتها مع زوجها مستمرة منذ زمن ، بسبب ما تشعر به ، دون أن تستطيع إثباته ، بأن اتصالاته الشخصية والمالية ، تعرّض مستقبل العائلة لخطر شديد . لم تفصح عن نوع هذه الاتصالات لكنها أضافت بأنها لم تقدر على الرد رداً مقنعاً ، على مقولته بأن الثروات لا تُجمع ، في أيامنا ، إلا عن هذا الطريق .

كانا حزينين ، هي وهو ، فاستمات كل واحد منهما في منح الآخر ذاته وحبه . قبّلها ، بعد الانتشاء ؛ فيما بين نهديها المتعرقين وأبقى فمه لصيق البضاضة والشذا ثم فاضت الدموع من عينيه المغمضتين . حدستْ نوع موقفه من الحياة ومن الآخرين ؛ وكانت ، بعد هذا الوقت من معاشرته ، على علم بعمق حساسيته واعتزازه الخفي بنفسه . نصحته بالتوقف عن لعب القمار مؤقتاً ، لأن دخله محدود وهي لا تجرؤ على عرض النقود عليه ، وقالت ضاحكة ـــ ثم إنك مسروق ولا تفتش عمن سرقك ولا عن مالك ، فأنت خسران مع الجميع ، إلا معي... يا حبيبي .

أثرت فيه كلماتها وزادت من احتراق تكوينات وجوده .

عاد ذات مساء الى غرفته ، فوجد على المائدة مظروفاً مغلقاً يحتوي على المبلغ الذي سبق أن طلبه من والدته . احتفظ به وقرر أن يتصرف بتعقل بعيداً عن عواطف الكبرياء الحمقاء التي لا مكان لها ؛ إلا أنه بقي حبيس

شعور طاغ بالانزعاج والعزلة وكراهية أقربائه ؛ وقضى إجازته يقرأ ويفكر غير مختلط بأحد . لم يهمه أن تمضي الأيام هكذا الى الأبد . حتى آديل ، ابتعدت صورتها عنه ؛ أبعدها عن قصد وارتاح قلبه . أدهشه بعد ذلك ان يجد اطمئناناً غير مألوف في الجلوس أمام نافذة غرفته والتطلع الى الفضاء الممتد نحو الأفق ؛ والغرق عميقاً في الفراغ الأصم ؛ دون علاقات ، دون مسؤوليات ، دون آمال . هكذا يبدأ الطريق الى الحرية المطلقة ، الطريق الى العدم ؛ وليس الفرق بينهما واضحاً . وخيل إليه أنه يسير نحو المرض والانهيار . بداية تشرين الثاني ١٩٦٢ أقبل ، دون سابق إنذار ، عمال التلفونات لنصب الهاتف في بيتهم وبيت آل قصابي ، ففرح الجميع وهللوا لهذا الحدث السعيد .

عاتبته عتاب العشاق الرقيق لاختبائه هكذا عنها طوال شهر مضى ، فالتقيا . وجدته قد هزل وغامت عيناه فاحتضنته وشدّته الى جسمها كأنها تحميه من شرٍّ يلاحقه . كم شعر بأمانٍ غريب ، محاطاً بحرارتها الأنثوية ورائحتها التي يحبها . ثم قدمت له رباطاً جميلاً ماركة «لانفان» ، هدية عودته من غياب الفكر الذي كان فيه . قبلها شاكراً ثم أعاد تقبيلها . وراح ينظر بتمعن الى الرباط الثمين الساحر الألوان خلال لحظات . وضعت ذراعيها حول كتفيه ، من الخلف ، وانحنت تتطلع مثله الى هديتها ، فتساكبت جدائل شعرها الذهبي حول وجهه . كان مهتز العواطف ، يريد أن يخفي ذلك عنها ، فكشفته . تحاضنا مرة اخرى واشتد أوار الرغبة فيهما فارتميا على الفراش . تلك أوقات لا يكون للحياة معنى بدونها .

كان الشتاء ونسماته الباردة وذكراها ، ترافقه وهو في طريقه صباحاً الى الدائرة ، وتجعله باسماً بادي الانتعاش ، يتقبل الأخبار السيئة بروح رياضية لا مكترثة . وكان يومه يبدأ بهدوء المكتب وسكونه وبالشاي الذي يعده له فراشه أبو فتحية ، ذلك الكهل القصير المنحني الظهر ؛ واثناء شرب الشاي يستمع الى ثرثرة ابي فتحية ذي اللسان السليط ، الذي يقدم له موجزاً

عن كل مايدور من إشاعات ومشاريع ومؤامرات في نطاق الدائرة . كان هذا قد نزح مع عائلته ، زوجته وابنته ، من الصويرة الى بغداد سنة ١٩٥٩ وسكن مؤقتاً في محلة الشاكرية ، ثم انتقل الى حي العامل البعيد ، ليسكن في غرفة واحدة مع عائلته . قال لتوفيق إنه ليس من أية طبقة معروفة ، فلا هو فلاح ولا سركال ولا مالك أرض ولا أي شيء آخر في الدنيا ، بحيث لا يعلم كيف ولد وكيف تربى وكيف عاش ، ومن أطعمه من جوع وآمنه من خوف . كان يكذب بالطبع ، مدافعاً بطريقته الخاصة عن هجرته من بلده الأصلي الى العاصمة .

سرى ، في نهاية سنة ١٩٦٢ ، همس في العائلة بأن ثريا حامل بولدها الخامس . كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها بينما تعدى عبد الباري السابعة والثلاثين ؛ وكان الاتفاق تاماً بأن هذه هي السن المثالية لآخر الأبناء . سمن عبد الباري خلال السنوات الخمس المنصرمة وبرز كرشه وتكوم اللحم فوق كتفيه وصدره ؛ فاختفى قبحه وراء تجاعيد وجهه وصارت حركته أثقل من المعتاد . إلا أن هذا التشوه من التراكم الشحمي كان يخفي نفساً طيبة ساذجة ، غير قادرة على السوء ، وكان في تصرفاته وأقواله ما يوحي بأنه يجد الدنيا قد أغدقت عليه مالا يستحقه . اتفق الأصدقاء على لعبة پوكر عالمية تختم عام ١٩٦٢ بمسكها ، وذلك في مساء الخميس الذي يسبق أعياد رأس السنة ؛ كما اتفقوا على الاحتفال بهذه الأعياد في دار سليم مروان الذي أعلن موافقته بضجيج سروره المعتاد واشترط الا يأتي الأصدقاء إلا ومع كل واحد منهم أنثى محترمة وإلا... فلا . تصاخبوا محتجين وموافقين وضاحكين .

اكتشف توفيق أنه لا يملك إلا دنانير معدودة تعيسة لا تكفي مصاريف المشروع الذي عزم عليه ولا تسمح باشتراكه في لعبة الپوكر العالمية ؛ ولما كان موعد الراتب لايزال بعيداً ، فقد قصد ، بتردد ، أخاه عبد الباري وطلب إقراضه مائة دينار لحاجته الماسة اليها . احمر وجه عبد الباري وتلعثم قليلاً

وهو يستمهله لتدبير المبلغ الى اليوم الثاني . روى له أن النقود تحت سيطرة الوالدة المحكمة ولا يمكنه أن يطلب منها هذا المبلغ دون أن تحقق معه وتعرف أو تشك بأنه له ، وقد تستاء أو... أو ترفض . كان توفيق منزعجاً ومجبراً على الاستدانة ؛ فقد هفا قلبه الى تقديم هدية لآديل خلال الأيام التي تسبق رأس السنة أو في ليلة رأس السنة بالذات إن أمكن ، وخصص لذلك خمسين ديناراً لايملكها . كما أنه لم يرد أن تفوته لعبة الخميس التي ستجري في بيت سليم... بيتها ؛ إذ قد يراها ، ورؤيتها لا يعادلها ذهب العالم كله ؛ لكن هيئة أخيه جعلته يشفق عليه ويكاد يلغي خططه وطلباته منه . إلا أنه تماسك حين أحس بغموض إن أخاه يريد أن يساعده ويريد أن يعطيه ما طلب ويريد له أن يتمتع بالحياة . أسعده حقاً أن يجد لها في مخزن اوروزدي باك قطعة من كريستال بوهيميا ، تمثل قلباً صغيراً شفافاً يقف عليه عصفور ناشراً جناحيه ومنحنياً بمنقاره يلتقط شيئاً ما غير منظور . غلّفوها له بورق أزرق وشدّوها بشريط فضي فصارت لفافة أنيقة تليق بها .

لم تتأخر ، مساء الخميس ، في الدخول عليهم وهم يلعبون في غرفة المكتبة ، كأنها استجابت لحرارة أشواقه . كانت في فستان أخضر ، يشابه ذاك الذي كانت ترتديه منذ عشر سنوات . سلّمت عليهم مبتسمة فقاموا جميعاً يحيونها ؛ وحينما وصلته صافحته وحرّكت شفتيها الحمراوين الممتلئتين حركة خفيفة ذات معنى أشعلت ناراً في صدره . كانت سعيدة ، فاتنة في سعادتها ؛ وكان الأصدقاء يراقبونها بعيون لامعة ويتسابقون لتوجيه أظرف مالديهم من كلام إليها . سألتهم عن موعد العشاء المحبذ لديهم ، ثم وقفت في الباب تنتظر ردهم . تبادلا النظر ، لحظات . كانت هيئتها المشرقة الفذة تبعث فيه الاضطراب . استطاعا خلال ضجة العشاء أن يتبادلا بضع كلمات . أرادت أن يلتقيا وأن يخابرها بعد غدٍ .

فتحتْ له همستها باب الحظ على مصراعيه ، فاكتسح أصدقاءه على المائدة وكوّم أمامه الفيشات والنقود . كان الورق الجيد يسعى اليه سعياً

وفي الوقت المناسب ؛ وكان ، في جنون اعتماده على الحظ السعيد هذا ، يخاطر بشكل لم يعهدوه منه . ثم أرادوا أن يلعبوا كارية ثانية ، ولم يكن باستطاعته أن يرفض ، فهو يستحوذ على نقودهم كلها تقريباً ، فاشترك مرة أخرى في اللعب حتى انبثاق الفجر ؛ ولم يفارقه الحظ ، وكسب مبلغاً من المال يفوق راتبه عدة مرات .

جلس في شرفة بيتهم ينتظر بزوغ النهار ، دون اكتراث بالبرد . كان قد جاوز الثلاثين من عمره ، وسيماً في مظهره وداخله ؛ ولقد أحبته آديل لأنها كشفت بحدسها ، من خلال هيئته ، حقيقة أعماقه . تصورها مرة أخرى ، واقفة بزهو أمام الباب كأنها شمس خضراء ، وابتسامتها تزيدها جمالاً . كان يعلم أنها تبتسم له ، وأنه هو الذي اختارته ، وأنها ، تلك الحسناء المتألقة ، تحبه وتحب أن تمنحه ذاتها... وجوداً وجسداً ؛ ولقد فعلت ذلك بشكل لامثيل له .

التقيا بعد أربعة أيام لقاء قصيراً . أبهجته فرحتها الطفولية بالهدية . شكرته بحرارة وقبّلته عدة مرات ، ثم بقيت تتأمل الطائر الصغير وهي مضطجعة جنبه عارية . وضعتْ قطعة الكريستال بين نهديها البضين المنفرشين . كأن ذلك البلور المشعَ سحرها! تلامعت عيناها الصافيتان ، وهي تطيل من تأملها لذلك التشكيل الرومانسي من الزجاج . وكان توفيق السعيد مندساً بها ، يضع ذراعه على صفحة بطنها الناعم ويعبث بسرتها .

سألها عن احتفال رأس السنة ، فلم تبدِ اكتراثاً به :

ـ كرهتُ تلك الحفلات حين لم تخابرني .

وضحكت تداعبه ثم انقلبت على بطنها هازة رأسها بدلال . لم ترد أن يروهما في اجتماعات عامة صاخبة ؛ فقد تبدر منهما ، دون قصد ، حركة أو إيماءة بسيطة تُفسر بعد ذلك وتجلب لهما المتاعب . اقتنع برأيها :

ـ احتفلي أنتِ بدلاً مني إذن ، احتفلي مرتين .

فاحتضنته :

ـ لا تحزن هكذا يا حبيبي ، فالشمس ، كما يقولون ، تعاود الشروق دائما من جديد .

ومضت الشمس ، بالفعل ، لا تمل من معاودة الشروق ؛ ولم يتسن لهما أن يلتقيا رغم الشوق الذي لا يرحم واللهفة العظمى . مرضت ابنتها زينة ، مرة ، ثم مرض سليم زوجها وجاء دور أمها بعدهما ، فانتهى شهر كانون الثاني من سنة ١٩٦٣ ، وكان شهر رمضان المبارك قد بدأ في ٢٦ منه .

ولسبب غامض ـ لعله سحر الجو الشتائي في بغداد أو الشمس ودفؤها ، أو الشوق وحرارة الدماء الشابة ، أو لعله الحدس الخفي الذي يقود أبناء الطبيعة ، دون أن يدركوا ، لاستنفاد مسرات الحياة قبل فواتها ، أو لعله سبب مبهم آخر يتعلق بمسيرة الكون وانتظامه ، وما أبعد ذلك عن فهم البشر ـ تخابرا وعملا المستحيل ، كل من جانبه ، كي يلتقيا ؛ وكان ذلك مساء الثلاثاء ٥ شباط ١٩٦٣ .

تبادلا الحب بجنون ، كأنها المرة الأولى والأخيرة ؛ وبكت رغبةً فيه وحباً في منحه ذاتها وهي تهصره بين ساقيها وتشدّه الى صدرها العالي . تملكه ارتباك لا محل له وكان خائفاً عليها ، قلقاً . مسح آثار الدموع عن طرف عينيها وقبّلهما ؛ وبقيا ، متشابكي الأجساد ، ساكنين صامتين ناسيين الوقت والعالم . كانا ممتلئين بالسعادة القصوى التي مرتّ عليهما قبل هنيهات ، ولم يهمهما أن يتبقى لهما العدم بعد ذلك .

صباح الجمعة ٨ شباط/ ١٤ رمضان من تلك السنة ، استيقظ حوالي التاسعة والنصف خافق القلب مضطرباً . كانت السماء زرقاء ، رائعة الزرقة ، والشمس الوضاءة تملؤها بوهج ساطع . لبث يتصنت لحظات ، فسمع انفجاراً بعيداً تلاه آخر فقفز من فراشه وأسرع يستعلم عن الخبر .

نجحت الثورة ضد عبد الكريم قاسم نجاحاً ساحقاً وجرى إعدامه وترأس عبد السلام عارف الجمهورية العراقية وتبدلت الوجوه والسير وانقلبت صفحة من تاريخ العراق الحديث .

انشغلت العائلتان بما يجري حولهما ، واخذوا يركضون لاهثين وراء الأخبار والاشاعات ، يتسقطون أسماء مَنْ هوى ومن قُتل ومن نجا ومن اختفى ومن تصاعدت به الزوبعة الى أعلى . أراد عبد الباري ، بقصر نظره المعهود ، أن يزور أولاد عمومته في خانقين ، فزجرته أمه وأقعدته الدار بعد أن أمرته بغلق المعمل احتفالاً بالثورة ؛ من جانبها أوشكت ثريا ، لشدة الانفعال وكثرة الحركة ، أن تجهض طفلها لولا نصيحة والدتها لها بالإخلاد الى الهدوء لئلا تصاب بمكروه لا داعي له ؛ وكان آل قصابي من المحظوظين ، فقد ارتفعت مكانة بعض الأقربين لهم وقفزوا الى حواشي السلطة . أما توفيق فقد بقي مسكوناً بقلق عميق غامض الأبعاد رغم عدم وجود أية علاقة له بالجهات السياسية أو بأحد الشيوعيين . تخابر الأصدقاء فيما بينهم وكان الجميع بخير . ثم حصل أن رنَ الهاتف في الصباح الباكر جداً من أواخر شباط وكانت آديل على الخط . أخبرته ، بصوت متكسر مخنوق ، بأن زوجها سليم قد أُخذ فجر أحد الأيام منذ اسبوع الى جهة مجهولة وهي لا تعلم عنه شيئاً حتى الآن ، ورجته أن يتصل بمن يعرف من الأصدقاء ليسأل عن مصيره ومكان توقيفه ومدى قابلية إطلاق سراحه . اضطرب أكثر منها ، لكنه تماسك وقسر نفسه على تشجيعها وتطمينها . كان متألماً بشدة لألمها وقلقاً لقلقها ، فاتصل بكل الأصدقاء وأعلمهم بالخبر ورجاهم المساعدة . بدا له من سير الأمور ومن ملاحظة المظاهر بأن الصدفة وحدها هي التي ستقرر مصير سليم مروان .

أراد أن يراها بعد أيام ، فاتصل بها على هاتف البيت فوجد الخط مقطوعاً ، فزاد ذلك من كربه وحيرته . اتصل بها في المصرف فقيل له بأنها مجازة . أحب أن يخفف عنها في محنتها وأن يشعرها بأنه معها في سعادتها وشقائها . فذهب ، بعد تردد ، الى بيتهم . لم يجب أحد على رنين الجرس ولا على طرقات الباب ، فرجع موجوع القلب . كانت الإشاعات عن سليم مروان والأخبار اللاموثوقة تتواتر على مسمعه كل يوم تقريباً ، وكلها تنبع

وتصب حول اتصالاته الخارجية المشبوهة وثروته الضخمة . ثم إنها خابرته ذات مساء كئيب أواخر نيسان . يا لله! كم هزّه صوتها الواهن الرخيم!

تشاكيا لبعضهما بمرارة وأخبرته بازدياد يأسها وخيبتها وكيف أنها تخشى أن تراجع أحداً للسؤال عن زوجها كيلا تتورط هي الأخرى فيما تجهله وفيما لا تحمد عقباه ، وأعلمته بأنها تركت منزلها هلعاً من المجهول أيضاً ، وذهبت مع أمها وابنتها لتسكن في بيت قريبة لها ، ثم أعطته رقم تلفونها الجديد . أبدى لها شوقه لرؤيتها ، فتحسرت وتمنت ذلك فهي أكثر شوقاً منه بكثير للقاء ، إلا أن ظروفها من السوء بحيث لاتسمح بذلك .

بقيا ، دون أمل ، يتهاتفان من وقت لآخر ؛ وكانت نغمات صوتها تهدأ من سورات لهفته اليها . وانتهى الصيف دون خبر أكيد عن سليم مروان ؛ تلاه الخريف حين ولدت ثريا ولداً آخر سمّاه أبوه عبد المولى رغم كل احتجاجات عائلة قصابي .

ثم جاء أخيراً ، شهر تشرين الأول من سنة ١٩٦٣ وانقلاب عبد السلام على رفاق الثورة وسقوط أسماء وارتفاع أخرى ، ولم ينته تشرين الثاني حتى تيقنت آديل من وفاة زوجها سليم مروان أثناء وجوده في السجن للتحقيق ، فأخذت تسعى بنفسها لاستحصال الوثائق القانونية اللازمة من أجل إصدار القسام الشرعي ، هذه الورقة القانونية ذات الأهمية البالغة لمستقبل العائلة .

التقيا بعد لأي في دار قريبتها ، بحضور أمها وابنتها الصغيرة . كانت ترتدي فستاناً أسود مغلقاً ؛ ووجهها الشاحب يحيطه الشعر الذهبي المضطرب ، بدا كوجه ملاك حزين . قدمته لأمها كأحد أصدقاء المرحوم سليم الذين يساعدونها . لبثوا يتحدثون بعض الوقت في شؤون مختلفة . كان يراها ، نحيلة ومرهقة ؛ تتكلم ببطء وتفتقد حيويتها السابقة ، فشعر أنه يحبها أكثر من أي وقت مضى . قالت له إنهم سيسافرون الى فرنسا حالما يستكملون بعض الأمور القانونية وطلبت مساعدته في إنجاز مشاغلها الرسمية . شعر بقلبه يتوقف لحظة عن الخفقان وهو يسمع كلمة السفر ؛ إلا أنه أبدى ، في الحال ،

استعداده لعمل أي شيء تحتاجه ؛ ثم رجا منها أن تقبل نصيحته بالعودة الى دارها والاستقرار فيها ونسيان ما مضى والعيش بشكل طبيعي مراعاة لابنتها ولصحتها هي ، فالشمس ، كما يقولون ، تعاود دائماً الشروق من جديد .

ـ أليس كذلك ؟

كانت تتطلع اليه بانتباه وهو يتكلم ، فتبدلت ملامحها حين سألها ذلك السؤال ذا المعنى المبطن . اغرورقت عيناها بالدموع وعضت على شفتها السفلى ثم استدارت بوجهها الجميل عنه هنيهات ، قامت بعدها تخرج من الغرفة دون كلام . لم يفت على ملاحظته ، حين عادت ، الاحمرار البسيط في عينيها الصفراوين .

أخبرته بأشياء مروعة لم يتخيلها قط وتمنت عليه أن يلحق بها الى فرنسا . كانا يتكلمان بصوت خفيض ، جالسين على أريكة ، فتحايل في جلسته وأمسك بأصابعها الرقيقة ، خفية عن والدتها . ابتسمت ابتسامة خفيفة وضغطت على كفه بمودة .

وفّى بوعده لها فأنجز كل مشاغلها الرسمية ، مستعيناً بفراشه أبي فتحية ؛ وكانت الحيرة تنخر في نفسه عن سبب اختيارها الحاسم هذا للسفر الى فرنسا ، خاصة بعد أن أخبرته باستقالتها من المصرف . وخلال الشهور التي مرت ، لم يجرؤ على طلب الاختلاء بها رغم نار اللهفة ، ولا بدا عليها أنها مستعدة نفسياً لذلك . ومع أن الأوراق الرسمية التي احتاجت إليها لم تكن بالكثرة المتوقعة ، إلا أن التباطؤ في إنجازها ومحاولتها إظهار نفسها بمظهر المستقرة ، غير العازمة على ترك البلد ، جعلها تجرجر في الوقت من شهر الى شهر ، حتى انقضى صيف ١٩٦٤ ؛ وأرادت أن يلتقيا عصر أحد الأيام ، بداية أيلول ، فجاءها الى البيت .

كانت بكامل زينتها ، في فستان أزرق ذي قطعتين ؛ ساورته وهو يحييها مأخوذاً بجمالها ، رغبة في تقبيلها ، لكنه تردد . كانت على سجيتها الماضية . أدخلته غرفة المكتبة تلك التي عاش فيها وقتاً مرحاً ، فوجد أثاثها

قد استبدل بآخر أبسط وأقل فخامة . جلسا متجاورين على أريكة عريضة غير مريحة . كانت ثيابها مشدودة الى جسدها ، تظهر تقاطيعه وتكويناته المنسجمة ؛ وكان عطرها المدوخ يعيد اليه زمن سعادته الماضية . أخبرته أنها وابنتها زينة وأمها سيسافرن فجر يوم ١٨ إيلول الى باريس لأسباب اضطرارية لا تستطيع أن تشرحها له الآن ، وأنهم سيمكثون هناك فترة قد تطول قليلاً إلا أنهم سيعودون بالتأكيد لأرض الوطن أخيراً .

كانت تتحدث بحمية واندفاع ، بادياً عليها كأنها تعتذر منه ؛ ثم خفت صوتها :

ـ لا تلمني ، توفيق . لم أواجه مثل هذه الكوارث من قبل ؛ وستعلم يوماً أني لا أستطيع أن أشفى من حبك .

قامت اليه فالتصقت به واحتضنته وتلاقى فماهما . كانا في لهفة لا توصف لبعضهما . أحس برأسه يدور وهو ، يرتجف لاهثاً ، يشدّها اليه ويمتص الشفتين الناعمتين بشغف وجنون . ونسيا ، دقائق ، نفسيهما والزمان وعالمهما المضطرب ؛ وحين ارتفعت أجفانه ، كانت عيناها ، حذو عينيه ، صفراوين مغبشتين لذةً واستسلاماً . ساءل عينيها بنظراته... أيتحابان ؟ فابتسمت العينان الكحيلتان ابتسامة الرضا ، وهمهمت تجيبه ، فاندفعت الأنفاس من فمها الى فمه . تعريا ، بصمت ، ورقدا متشابكي الجسد على الأريكة العريضة . ضمته الى صدرها بحنو غريب ، ومنحته نهدها ذا الحلمة الوردية كأنها توصله بقلبها .

وهمّ بالانصراف ، بعد ساعة وبعض الساعة ، فخرجت معه ترافقه تحت ستر الظلام ، الى باب الحديقة الكبير . أوقفته تحت شجرة برتقال :

ـ سأكتب لك وستأتي الى فرنسا . قل لي... ستأتي الى فرنسا ؟

كانت تتكلم كأنها على وشك البكاء ، وهي تلصق جسدها بجسده وتحتضنه . هزّ رأسه . تبادلا قبلة طويلة . كانت سعادتهما حزينة ذلك المساء .

وحضر لوداعها ؛ لن ينسى فجر ١٨ أيلول هذا التعيس . نهض من النوم حوالي الثالثة والنصف ومضى الى معسكر الرشيد حيث ستقوم طائرة «البان أميركان» بالإقلاع قاصدة باريس . كان مدرج مطار بغداد قد تضرر قبل أسابيع بسبب هبوط طائرة ضخمة عليه ، فاستبدل مؤقتاً بمطار معسكر الرشيد .

أثّر في نفسها مجيئه لتوديعهم . أعطاها عنوان البيت والدائرة . وسافرت آديل ؛ بقي يراقب ظلها بين المسافرين القليلين ، حتى اختفت عن نظره . ثم انتظر يتطلع الى الطائرة التي تحركت وتراكضت على المدرج الطويل ثم ارتفع جسمها بقوة يشق فضاء الفجر المنبلج . كان بمفرده ، مشعث الروح ، على حافة البكاء ، يتأمل دخان الطائرة تتصاعد في خضم السماء الشاحبة الزرقة ، حاملة معها مخلوقة عزيزة ، فريدة في جمالها وأفكارها وما تستطيع أن تمنحه ، وآخذة ، بقسوة ، قطعة من حياته لاتُعوض .

كانت أجواء بغداد ، ذلك الخريف ، تصدح بأغنية أم كلثوم الجديدة (أنت عمري) ، وكانت الألحان الشجية تصلهم وهم جالسون حول المائدة الخضراء في تلك الشرفة ذات الذكريات ، المطلة على نهر دجلة في بيت الصديق خالد . أراد توفيق أن يتغلب على لواعج قلبه المحترق فجاء يجتمع الى من كانوا يعرفون آديل وزوجها ، لعله يسمع شيئاً ، مهما تفه ، عنها ، يساعده على الصبر . وتحدثوا بالفعل عنها وعن سفرها وعن المرحوم ووفاته تحت وطأة التعذيب . وكيف أنه لم يكن خالي الوفاض ولا قصير النظر ، فوضع العمولات التي كان يتقاضاها وكل ما يملك في بنوك فرنسا ؛ فذهبت الأرملة الجميلة لقطف الثمرة واستلام الأموال .

كان الحديث عنها هكذا ، مع الأغنية العذبة ، يثير فيه الشجون حد البكاء . لم يكن لديها أي خيار آخر ، إذا صحَ هذا الكلام ؛ ولا يجب أن ينتظر منها عودة سريعة الى الوطن ؛ وتبادر الى ذهنه الموقف السخيف

المضحك الذي كان سينشأ لو عرض عليها الزواج منه والبقاء في بغداد . توفيق... الخفيف جداً مادياً في كفة ، والثروة الثقيلة جداً في الكفة الأخرى!

وألفى نفسه بعد ذلك يتألم من حديث الأصدقاء الملغوم عن صديقهم الراحل وزوجته الحسناء . لم يكونوا قادرين على إخفاء مشاعر الحسد والضغينة تجاه ذلك الغائب ذي الحظ السيء ؛ فقرر أن ينسحب من اجتماعاتهم هذه بهدوء ؛ الأمر الذي زاد في تعميق أوجاعه وعزلته .

كانت كميلة ، في تلك الأثناء ، قد وصلت الحدود القصوى في تحملها مما تلاقيه من صدود توفيق وعدم اكتراثه بها ، فقررت القيام بمبادرات ذات مظهر مختلف . دعت في بداية سنة ١٩٦٥ العائلتين وجمعاً من الأصدقاء لحفلة عيد ميلادها السادس والعشرين ، فاضطر توفيق للمشاركة في الحفل كاسراً وحدته التي لم يمض عليها وقت طويل ولكنها كانت مريرة بما فيه الكفاية . حمل لكميلة هدية غير ذات معنى ؛ وكانت الجلسة مملة والحضور غرباء عن مزاجه . التقى بعبد الاله كمال ، الرسام الذي تركته زوجته ، والتي طلقها بعد ذلك ، وهربت مع عشيق غني . كان بصحبة زوجته الثانية سندس التي لفتت نظره . كانت في الثامنة والعشرين ، تعمل كأستاذة للغة الانكليزية في ثانوية البنات القريبة من دارهم . أعجبته فيها رزانتها وسماحة نفسها الظاهرة ، وذكّره جسمها المتناسق الممتلئ بآديل ، ثم قيل له بعد ذلك إنها حامل في شهرها الرابع . سألها عن الصبي غسان ، ابن الرسام ، الذي كان يراه ذاهباً راجعاً من السوق وعليه علامات الوحشة ، فأجاب أبوه إجابة مبهمة مبتسرة ، بينما أفاضت هي في مدحه وتعداد صفاته الجيدة :

ـ غسان صبي محبوب . إنه مطيع ومجتهد وينتظره مستقبل زاهر .

كانت فوق رأس الرسام غيمة سوداء جراء فعلة زوجته الأولى أم غسان ، التي ، إن غفر لها هو ما فعلت ، فلن يغفر لها المجتمع ذلك ، ولن يغفر له ، من جهة أخرى ، أنه تزوج امرأة تملك القدرة على القيام بمثل هذا العمل الشائن .

وبقي المساء مملاً ، لا شيء فيه يثير أو يلفت النظر سوى الرسام المنكمش وزوجته الرضية الحبلى وبادرة كميلة المفاجئة . أخذته ، في خضم ضجة العشاء ، الى زاوية وهمست بأن لديها ما تقوله له . لم يكن في الأمر سر من الأسرار ، لكنها اندست به مع ذلك وكادت تحتضنه ، وأحس بفخذها يلاصق جسمه . أهاجه هذا الاقتراب اللجوج وانتبه الى جمال ثناياها وانتفاخ صدرها . تصور أنها على وشك أن تبوح له بمكنونات نفسها الغامضة ، إلا أنها اكتفت بأسدال جفنيها لحظة :

ـ ليس الآن على كل حال . سآتيك أنا ، سآتيك يوماً ما .

فمطَ شفتيه ، غير دارٍ ما يجب عليه أن يقوله ثم مضى يكمل عشاءه . لم ينفر منها هذه المرة ؛ فقد كانت علاقته وذكرياته الطيبة مع العزيزة آديل قد خلفت فيه حاجة قاتلة للمرأة ولممارسة الجنس الجميل الصحي . أراد يوماً ، بعد تقاعس وتردد ، أن يستجيب لمتطلبات جسده ويجرب حظه مع أنواع معينة من الفتيات أمكنه التعرف عليهن بوساطة أحد الأصدقاء . كان المطلوب مبلغاً محترماً من المال دبّره بعسر ، ثم اختير وقت أكثر عسراً لإتمام اللقاء... بين الثانية عشرة ظهراً والثانية . وحين تمَ هذا اللقاء غير السعيد ، تركه مثقلاً بذنوب الروح ؛ فبالرغم من تجاربه في الحياة مع النساء ، لم يتخيل أن خلو الشريكة الأنثى من معاني الشوق والرغبة ، يحيلها ، هكذا ، الى دمية كريهة لا تُطاق إلا بشق الأنفس .

وكانت الأيام تمضي بشكل حسن على عبد الباري ومعمله ، فالإقبال على الخشب وما يُصنع من الخشب في تزايد مستمر والأعمال تتوسع ، وأبو سلوان أضحى شبيهاً بعمه سلمان آل قصابي وجاهةً وشكلاً منفراً وخالياً من أية ملامح إنسانية ؛ ولقد ازداد هذا الشبه خاصة بعد أن اتفقا أوائل صيف ١٩٦٥ على الجلوس الى مائدة الشراب مساء كل يوم ، في حديقة آل قصابي المعتنى بها ، لينكبا على ازدراد الطعام واطلاق القهقهات العالية طوال ساعات .

جلس معهما توفيق في بعض الأماسي ، ولم يستطع إلا أن يأسى لمثل هذا التواجد الكئيب .

ولم تصله رسالة آديل المنتظرة سوى في الخيال... خياله ؛ وكان ، كل صباح ، ينتظر ساعي البريد قبل أن يترك البيت ؛ وحالما يصل المكتب يسأل من أبي فتحية أول ما يسأل عما إذا وصلته رسالة من الخارج . وأقبل الربيع واقبلت عليه ذكرياته معها ؛ يعيدها على نفسه دون جدوى ، فقد مضت مثل كل ربيع دون رجعة . ولم تلبث المرارة أن ترسبت في أعماقه واتخذت لها أساساً هناك ، أضفى على أيامه كلها بعد ذلك طعماً لايمكن وصفه بالحلاوة .

في منتصف حزيران ، كان عليه أن يعاني من الاحتفال بعيد ميلاده الثالث والثلاثين ؛ وبمساعدة أولاد أخيه الصغار المتولعين به ، شارك في التحضيرات غير المعتادة للحفلة ؛ وكانت كميلة ، تلك الخالة المتولهة به منذ الأزل ، على رأس النشطين لتهيئة جو أفضل وطعام أطيب وكعكة أجمل وأكبر ؛ وكان مسلياً هرج الأطفال ومرجهم وانشغال كميلة وأمها وثريا وتبطر أم عبد الباري ومسكنة هذا الأخير .

تمّ كل شيء حسب الأصول وأطفأ توفيق شموع حياته بحسرة ، متخيلاً نفسه مع آديل! واستلم هداياه بسعادة مصطنعة وأكل وشرب وتقبل التهاني . بعد ذلك ، أراد أن يخلو بنفسه متعللاً بصداع في الرأس فاجأه ، فاحتج الجميع ، لكن عميد آل قصابي وزميله عبد الباري انبريا لمساعدته واقنعا المحتجين بوجوب تركه يستريح ، ثم أسرعا الى الحديقة ليمارسا طقوس الشراب الذي تعودا عليه أخيراً .

جلس في غرفته أمام النافذة ، شاعراً بانطفاء غير إرادي في حميته واندفاعه للحياة ، وخطر له أن ذلك لايجب أن يكون ؛ إذ لايزال في بداية عمره وبداية سلسلة تجاربه الحياتية ، الجيدة منها والسيئة ، ولا حق له في كسر هذه السلسلة بالموت أو الجمود . ثم ، من يدري ، فقد تدور الكرَة

وتتبدل تصاريف القدر ويبتسم له الزمان ويعيد له سالف سعاداته الخفية والعلنية ، وقد تصدق آديل ، تلك الحبيبة البعيدة ، في فألها ويعثر على ماله المسروق يغتني وتزول الغمة . لكنّ قلبه لم يصدق مثل هذه الأماني ، وبقي ساهماً ، لا تساوره إلا أحاسيس غامضة وأفكار أشد غموضاً .

سافر أبو فتحية بعد أن طاب الجو قليلاً ، الى بلدته الصويرة بضجة مفتعلة وبإجازة أمدها اسبوع واحد ، منحها له توفيق على مسؤوليته ؛ إلا أنه لم يغب إلا ثلاثة أيام ، آب بعدها يكاد يطير فرحاً مع الهواء . أخبره بأن ابنته فتحية ستتزوج سركالاً يملك علوة في الصويرة ويعتبر بنظر الكثيرين شيخاً لعشيرة صغيرة تسكن في القرى القريبة . سأله توفيق عن عمر فتحية فأخذ يتلوى في وقفته ثم أجاب بأنها دخلت السادسة عشرة من عمرها وان هذه السن هي السن القانونية للزواج بعد موافقة الوالد . ثم علم منه بعد أيام بأن الزوج يقترب من السبعين وقد سبق له أن تزوج أربع مرات وطلّق مرتين وله أولاد كبار من زوجاته السابقات ، وأنه ثري بافراط ، وقد وعدهم بالسكن مع فتحية في دار مستقلة جديدة ابتناها قبل سنتين فقط . ولم يكشف ذلك المراوغ أبو فتحية عن مقدار المبلغ الذي سيقبضه لقاء تزويج ابنته الصبية لهذا الشيخ . إلا أنه ، بعد هذه المقدمة الطويلة وسلسلة الاخبار المشوشة ، طلب إجازة اخرى لاتمام القضية على وجهها الأكمل ؛ ولم يكن بالامكان رفض طلبه فمُنح إجازة لمدة خمسة أيام . وقبل أن ينفك بيوم واحد ، جلب قبيل الظهر وبسعادة بالغة ، الرسالة التي ظنّ أن رئيسه المحبط توفيق ينتظرها بشوق منذ حين .

كانت من تلك الملحاحة كميلة ؛ أرادت أن تظهر له مقدرتها في كتابة الرسائل فاختارت ذلك الوقت للكتابة اليه . كتبت تقول بان لديها الكثير لتحدثه به ، ولكن الظروف لم تعد تسمح لها بالاختلاء به بعد أن رفض هديتها التي قدمتها له بكل براءة . أراد أن يرمي الرسالة بعيداً عند هذا الحد ، فقد أتعبته سطور قليلة ، لا تخلو من أخطاء نحوية ، وبعثت فيه

الملل . كان متلهفاً الى أريج منعش من الجنة ، فجاءته حكايات محلية ملفقة ومغثية .

ثم إنه توقف يتأمل وضعه ويتعمق في التفكير بما يحيطه وما يمكن أن يكون عليه مستقبله . كان الوحيد في عائلته الذي لايبدو أن بالمستطاع ، ولو بأدنى حد ، ضمان مصيره أو ضمان ألا يكون سيء المصير . وما كان ذلك لسوء تصرف منه يزيد عن المعتاد ، فهو لم يخرج عن السبيل القويم علانية ؛ ولكن في الأمر اعوجاجاً خفياً لا يدرك كنهه . لذلك ، وتجنباً للأسوأ ، خطر له أن يتخذ الحيطة وأن يكون على حذر في تصرفاته ، وألا يدع العنجهية الفارغة تأخذه فيحتقر من يرغب فيه أو من يحبه دون شروط .

أعاد ما قرأ من رسالة كميلة بعيون اخرى ، وأكملها هذه المرة ، مستأنساً بعبارات الغزل المخفي باتقان وبالمواعيد المبهمة التي تعده بها هذه الشابة ذات القلب الحار .

لم يبق أبو فتحية على وجاهته إلا أسبوعاً وبضعة أيام ، بعد رجوعه من الصويرة حيث ترك ابنته المتزوجة حديثاً . روى لتوفيق وهو في ثيابه الرثة القديمة ، ما شاهدوه وعاشوه طيلة أيام العرس الذي أقيم هناك . البذخ في كل شيء . الذبائح والطعام المتنوع والفواكه والحلويات التي قدمت للمدعويين أولاد الحرام ، كما وصفهم ، الذين لا يشبعون ، والقصر الذي أسكن الشيخ فيه زوجته الجديدة فتحية ، حيث أستقروا هم أيضاً طوال فترة بقائهم في الصويرة ، وكيف خدمهم الخدم وجرى احترامهم من جميع أهالي الصويرة بدون استثناء .

وبسبب الملل والمرارة المستقرة في أعماقه ، اتصل توفيق بأصدقائه عبد القادر وخالد والآخرين وسأل عن الأخبار واللعبات العالمية التي لعبوها بغيابه ؛ ففرحوا بندائه ودعوه للمشاركة في لعبتهم العالمية القادمة مساء الخميس التي سيعقدونها في بيت صديق يقطن حي المنصور قريباً من محل سكناه .

كان تشرين الثاني على وشك الانتهاء والبرد أقبل وأمسيات بغداد ، على الدوام ، ساحرة جميلة . ضحك كثيراً وشرب أكثر ، وشاقه أن يوجد بين أصدقائه المتهكمين على كل شيء . سمع من خالد ، خلال ضجيج اللعب والدخان الكثيف ، بأن أم زينة آديل باعت دارهم وهرّبت ثمنها الى الخارج ، ومن المستغرب والمستبعد أن تؤوب الى بغداد ثانية :

ـ ماذا لديها تفعله هنا يا جماعة ؟ قولوا لي . زوجها... قُتل ، صديقها... مات ؛ ماذا تعمل إذن... قولوا لي ؟

فتعالى ضحكهم ، وسأله هو... أكان لها صديق هي الأخرى ؟

ـ الله أعلم . الله أعلم ؛ ولكنه بالتأكيد مات مقتولاً .

هذه المرة كان الدور دوره في القهقهة بمرارة ؛ ولم يعرف ، بعدئذ ، أي منطق كان يقرن أسم آديل وذكراها بالرغبة في دلق الويسكي في جوفه ، فشرب أكثر من طاقته وشعر بتوعك بسيط بعد العشاء . نام صبيحة الجمعة التالية كلها حتى الظهر . كان النهار متألقاً ورأسه مضروباً بألف مطرقة ، وكانت ضجة الأهل تصله من بعيد . أراد أن يقوم فمنعه ألم رأسه ، فعاد يستلقي على الفراش . سمع حوالي الظهر باب غرفته يُطرق ثم يفتح بعد لحظة وتقف كميلة ، بكامل زينتها وأطيب عطورها ، في المدخل دون كلام . كانت شابة جذابة ، متولهة ومشغوفة به ، وفائرة الدماء ؛ فماذا يريد ، اللعنة ، أكثر من ذلك ؟

اعتذرت بغنج لهذا الازعاج ، فقد ظنته جالساً يقرأ . حرّك رأسه موجوعاً ، فاقترحت عليه أن تفتح منفذاً للتهوية ، فالهواء النقي ينعشه والحياة والشمس تدعوانه للقيام . أيدها وأخذ يراقبها تسير بخفة نحو النافذة ثم تنحني ببعض المبالغة تظهر أكثر ما يمكن من ساقيها وتكورات ردفيها وخصرها . طاب له ذلك ، فدعاها لزيادة التهوية وفتح الشباك الآخر ، إلا أنها رفضت بدلال ، خوفاً عليه من البرد حين يترك الفراش . أخبرته بأن العائلتين ستجتمعان للغداء في دارهم بعد حوالي الساعة ، فليقم إذن ويهيئ نفسه خلال هذا الوقت .

ـ الرجاء عدم التماهل .

وانصرفت .

قعد في فراشه ، مملوكاً برغبة جنسية طاحنة ، فلبث يحك رأسه وأطرافه منتظراً أن تعود أموره الى وضعها العادي . استعاد كلام خالد عن آديل . هنالك ، في أقواله ، شائعات تختلط بحوادث مادية ثابتة بحيث تصير هذه الحوادث موضع شك . بيعها الدار وتهريب الثمن ، مثلاً . أهي إشاعة أم حادثة يمكن إثباتها ؟ والفرق بين الاثنين شاسع ، رهيب في دلالاته . ثم إنه لا يدري ، في الواقع ، بأي حق يطالبها بأن ترتب حياتها حسب مزاجه ؟

قام متردداً ؛ فأحصى ربح الأمس فوجده أكثر مما توقعه . سره ذلك ؛ وخطر له بأنه لو وضع قاعدة لمراقبة الأرباح والخسائر والسيطرة عليهما حسب الإمكان ، لاغتنى أكثر من آل قصابي وأسرع .

أنعشته الحلاقة والشاي والهواء البارد وسكون البيت ، فأخذ يتباطأ ما شاء له التباطؤ متمتعاً بهذا الوضع النادر ، حتى قاربت الساعة على الواحدة فطرق أذنيه جرس الباب الخارجي يرن بشدة . لبس سترته ونزل . وجد كميلة تقف أمام الباب ، نافدة الصبر . كلمته بغضب مفتعل . كانت ترتدي ، هذه المرة ، بلوزاً صوفياً أزرق يبرز بشكل فاضح تكور نهديها العاليين . اعتذر لها ضاحكاً ، ثم أراد أن يخرج بعدها ، فتقدم خطوة . كانت تقف جوار الباب فلم تتحرك كما كان يتوقع ، فاقتربا من بعضهما كثيراً وصار أحدهما حذو الاخر . لم يفكر بأي مشروع غير عادي تجاهها . استدارت نحوه ببطء ، فوجدا ، فجأة ، أنهما متقاربان وعلى وشك الالتصاق . رآها تنظر اليه منفرجة الشفتين كأنها تود الكلام . بدت له عيناها جميلتين بلون العسل الغامق وبأهداب طويلة سوداء . طال تبادلهما النظر ، ثم اندفعا بليونة نحو بعضهما . قبّلها في فمها ذي الشفاه الملونة فشعر بها تبادله القبلة بحرارة وتلفَ إحدى ذراعيها حوله وتغلق الباب بالذراع الأخرى . كانت لحظات مدوخة ، ذات حرارة جنسية عالية . ضغطت بنهديها الطريين على

صدره وشعر بفخذيها ، تحت قماش الفستان الرقيق ، يلمسان فخذيه . كان ذلك أمراً غير مألوف ؛ ثم أحس بوسطه يشتعل إثر التصاقه الشديد بوسطها الدافئ . أمسك بخصرها وجذبها اليه فاستجابت له فأخذ يمرر يده على ظهرها بنعومة ؛ وجدها حينذاك تزداد التصاقاً به وهي تقبله بنهم وتلتقط شفتيه بشفتيها . لم يكن الأمر قابلاً للاستمرار ، فاستفاق قبلها وابتعد بوجهه فألفاها مغلقة العينية تعيش في عالم آخر . همس في أذنها فانتبهت وتلوّت برأسها ضاحكة وفتحت عينيها لحظة ثم اندفعت تقبله ثانية .

قضوا فترة غداء مرحة في بيت آل قصابي ، ظهر الجمعة ذاك ، مع تضاحك الأمهات وتعليقات عبد الباري وعميد أسرة آل قصابي الغبية ؛ كان توفيق لاهياً عن كل هذا ، يفكر بما حدث له مع كميلة ؛ فهذه الشابة ، المترامية عليه حتى النهاية ، لن تدع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي ، بل ستصر ، بالتأكيد ، على حرق المراحل بما يمكنها من سرعة ، وهو ما يعني بكلمة واحدة... الزواج . ولم يكن لديه ، الآن ، اعتراض قوي ضد ذلك ، فالفتاة ينبوع دائم من اللذة والشهوات الجنسية النارية ، ولا أجمل من الاحتراق في جحيم كهذا . إلا أن واقعه المادي ضعيف ومتهافت رغم كل المظاهر ، ويجب عليها أن تدرك ذلك ، هي وأهلها ، وأن تصبر قليلاً ؛ وكان أمر وضعه المالي يثير ضحك كميلة ، فهي تعتبره أمراً لا أهمية له على الاطلاق . لذلك ، وخلال يومين أو ثلاثة ، صار الجميع ينظرون اليهما كخطيبين رسميين في طريقهما للزواج ، وصارت كميلة نزيلة بيتهم ، وغرفته على وجه الخصوص . كانت تدخل عليه ، في أي وقت ، بعد طرقة خفيفة لا تسمع أحياناً ؛ ولا يهمها أن تلقاه في ملابسه الداخلية أو نصف عارٍ ؛ بل بدا عليها كأنها تفضله ، فعلاً ، وهو في هذه الحالات . جاءته ، مرة ، حوالي الغروب ، وكان مايزال في فراشه يكمل نومة ما بعد الظهر ، فأخبرها بأن رأسه ثقيل ودواؤه شاي قوي ، فأجابته بالنفي جالسة على طرف السرير :

ـ المساج الصحيح في الموضع الصحيح هو الدواء الحقيقي .

واخذت تمسح ، بغاية الرفق ، جبهته وصدغيه وما حولهما وهو مغمض العينين . ثم وضعت فمها على فمه في قبلة شهوانية طويلة الأمد . سألها عن أهل الدار ، فطمأنته . عادت للمساج ثم للقبل وهكذا بالتتابع . لم يكن قادراً على السيطرة على حركاته حين تلتصق به ؛ فذراعاه يمتدان آلياً الى جسمها يتحسسانه ويجوسان في ثناياه حالما تبدأ سلسلة القبل هذه . يمسك بالصدر والنهدين الناعمين ثم يدخل بين جسمها والقماش وينزل الى الأسفل ، يطوف في الجهات الأخرى . هذا المساء ، كانت في سترة خضراء وتنورة رمادية واسعة ؛ وبينما كان ، كعادته ، يداعب برفق أحد نهديها بعد أن أخرجه من مخبه ويتلمس باليد الثانية جنبها وظهرها وأعلى ردفيها ، فاجأته برمي الغطاء عنه والقفز الى سريره بعد أن شالت تنورتها الى الأعلى فلمح لحظة لباسها الأسود الصغير . نامت عليه . كان مرتبكاً ، فهو لا يكره هذه المشابكات الجسدية اللذيذة ، غير أنها تبالغ في عدم الاكتراث بمن حولهم كأنها تروم لفت الانتباه اليهما ، ثم إنه ، مع تكرارها دون أن يرتاح بشكل طبيعي ، صار يتشنج عصبياً ويشعر بعدها بتعب وإنهاك . همس :

ـ على راحتك . بهدوء ياكميلة .

وكانت مندفعة نحوه ، تحتضنه بين ساقيها وتقبّله في فمه وخديه وجبهته وتحاول ، باضطراب ، نزع ثيابه عنه . صمم أن يفيد من حالة الهياج الغريبة هذه التي تنتابها لكي تهدأ أعصابه على الأقل ؛ فعصرها بين ذراعيه ثم أمال جسمها الى جهة ورقد ، بمساعدتها ، فوقها ودخل بين ساقيها . كانت تلهث دون كلام وتقبّله باستمرار . أراد أن يعرف المدى الذي يمكنها أن تصله ؛ فأنزل سروال منامته والقى بنفسه ، عاري الوسط ، على بطنها وفخذيها ومكمن انوثتها المغطى بقماش الحرير . ثم سحب لباسها الصغير الى الأسفل ، فرفعت ردفيها لتسهّل له تلك العملية ، فأدرك أنها تريد وصالاً يربطها به بشكل لا محيد عنه . لكن الوقت لا يبدو ملائماً ؛ وما تريده النساء أحياناً ، بجنون ، قد ينذر بكوارث لاداعي لها . بقي ساكناً ، يحس

بنعومة بطنها تحته ، وبمنابت الشعر أسفله تمس أعلى فخذيه ؛ وكان يحتضنها ويقبّل فمها ووجنتيها ويمتص حلمة نهدها الأيسر الغامقة ، وهو يحرك جسمه حركات بطيئة مثيرة لم تستمر الا دقائق ، وانساح منه بعدها ذلك السائل العجيب بدفقات غزيرة ، فشدّها اليه شداً وأطلق آهة ارتياح طويلة . كانت مغمضة العينين ففتحتهما حالما غطى بطنها دفء ماقذفه عليه .

ـ نعيماً .

همست ، تبتسم ابتسامة عريضة سعيدة . لم يقل شيئاً ، وكان يخفي انزعاجاً لاإرادياً من كل ما حصل له معها ؛ وأخذ يحاول أن يقوم عنها ويلمَّ شتات نفسه وثيابه بما يمكن من مظهر كريم غير مضحك . تمت الخطوبة في شباط ١٩٦٦ بعد أن تفاهم الجميع على قضايا المادة... الجهاز والصداق المتقدم والمتأخر وغير ذلك من أمور لم يفكر بها ؛ وكانت رغبة الأهل واضحة في وجوب التعجيل بالزواج والانتقال بسرعة الى المشتمل والاستقرار هناك .

أخذا يخرجان سوياً بعد الخطوبة ، ويسهران في المحلات العامة أحياناً ؛ وكانت هي ماتزال على خبالها في أن تعيش معه بأشد مايمكن من الهياج أيام حبها العظيم ؛ لذلك لم تترك له متنفساً كي يرتب أموره الخاصة قبل أن ينتقل الى دار الزوجية السعيدة ؛ فما أن تسنح الفرصة ، وكثيراً ما كانت تسنح لسوء الحظ ، حتى ترتمي عليه وتبدأ بممارسة العناق الحار والمداعبات الجنسية دون اكتراث بأية نتائج . ولم تترك له شيئاً يكتشفه في جسمها بعد الزفاف . كانت تعتقد أنها متفوقة في هذا على بنات جنسها العراقيات . كانت سمراء سمرة خفيفة محببة ، بتقاطيع جذابة غير منسجمة تماماً ؛ وكان شعرها الأسود كثيفاً مضطرباً وجسمها متناسقاً في مجمله ، غير أن بعض التفاصيل فيه كانت تزعجه رغم أنفه ؛ فالنهدان متهدلان قليلاً والحلمتان غامقتان جداً . كان يقارن لون الحلمتين الداكن هذا ، بذلك اللون الوردي الزاهي لحلمتي آديل .

عُقد العقد في بداية تموز من تلك السنة وجرت حفلة الزفاف في نادي المنصور والسفر الى انكلترة بعد ذلك لقضاء شهر العسل والهروب من حر بغداد . لم ترد أن يسافرا الى باريس رغم إلحاحه ؛ قالت إنها لا تتكلم الفرنسية ولا تحب الفرنسيين وما عملوه في الجزائر . خيل إليه كأن لها علماً مبهماً بعلاقاته العاطفية السابقة ؛ ولم يرد أن يتذكر بأن من يدفع نفقات السفر هو الذي يقرر وجهته ، لذلك أيدها بأن أعمال الفرنسيين في الجزائر لم تكن مشرفة . ثم أنه استسخف نفسه بعد ذلك لإصراره على زيارة فرنسا ؛ فماذا سيجد في باريس ، آخر الأمر ؟ ذلك الحلم الذهبي الجميل ، حلم حياته ، طواه النسيان واندثر ؛ حتى تلك العزيزة الصادقة آديل ، لم ترد أن تتذكره ؛ شغلتها حياتها الجديدة والركض وراء ثروة زوجها ، فلم تكتب له كلمة واحدة ؛ ولا كلمة واحدة . والآن ، بعد كل هذا الوقت ، يريد أن يتنسم هواء باريس ويشمه ، لأنه ذات الهواء الذي تتنفسه مخلوقة غالية على القلب!

حين عاد العروسان من سفرتهما الطويلة المتعبة ، كانا بهيئة مختلفة عما ألفته العائلتان فيهما ؛ فقد صارا أكثر أناقة ووسامة وتهذيباً! لكنهما لم يكونا سعيدين بمستوى مظهرهما الشيّق ، فقد جاءت كميلة العادة الشهرية قبل عودتهما وقضت على آمالها بالحمل ؛ وكان هذا الحدث هو الخطوة الأولى في رحلتها الشقية ذات الألف ميل .

اندهش توفيق ، بغير ارتياح ، حين وجد ، بعد استقراره في المشتمل ، بأن غرفته في دارهم قد احتلت بالكامل من قبل أولاد عبد الباري ، وبدا له هذا العبور البسيط للشارع ، يعني ، ضمن ما يعني ، احتراق السفن خلفه . من جهة أخرى ، انتظم دوامه بعد الزواج انتظام الساعة ؛ فهو يدخل مكتبه في تمام الساعة الثامنة بعد أن يركن سيارة الأوبل البيضاء الصغيرة في المحل المخصص له في موقف سيارات الوزارة ؛ ويكون قبل هذا قد اوصل كميلة الى مدرستها القريبة . لم تعد تسوق سيارتها أبداً ، فهي

تتوقع باستمرار أن تكون حاملاً ، الأمر الذي يجعل السياقة عملاً ذا عواقب غير محمودة ، مما أسعد توفيق كثيراً ؛ وكان يسعد أيضاً في الاستماع الى حكايات أبي فتحية عن زوج ابنته الشيخ ذي السبعين وما يجري له مع تلك الصبية ذات الأعوام الستة عشر وردود أفعال زوجاته السابقات وأولاده المتزوجين الكبار ، وكان كل شيء يجري على مايرام ، مما كان يبعث على الريبة والشك .

اشتاق توفيق ، قبل نهاية سنة ١٩٦٦ ، الى معاودة سيرته السابقة في لعب القمار ، وأراد الاتصال بأصدقائه أو حتى دعوتهم ، ذات خميس ، عنده في المشتمل ؛ إلا أن كميلة لم تبد حماساً لهذه الآراء ، فقد كانت متدينة ، تصلي وتصوم وتدعي أنها تخاف عاقبة الآخرة . ومع ذلك ، فقد دبّر أن يشارك في لعبة بوكر عالمية مع الأصدقاء ، وتلقى بصدر رحب عتابهم لعدم دعوتهم لحفلة زفافه ثم اعتذر . ضحك كثيراً من أعماق روحه المتضجرة من الحياة ؛ وكان ينتظر ، خفية ، من الأصدقاء أن يفتح أحدهم سيرة المرحوم سليم مروان لينتقل بعدها الى سيرة آديل وأخبارها الأخيرة ، فلم يفعل أحد ذلك ، مما دفعه ، قانطاً ملولاً . الى الشراب أكثر وأكثر .

وأبهج كميلة للغاية أن يعود لها حوالي الفجر وان يوقظها من النوم ويدس بين ثدييها العاريين خمسين ديناراً من جملة أرباحه تلك الليلة ، ثم ينضو ثيابها وثيابه ويدخلان في مضاجعة حارة جميلة ذات نكهة خاصة ، بقيت تتذكرها طويلاً وجعلتها تعيد النظر في مسألة مشاركة توفيق في سهرات القمار العالمية مساء كل خميس .

في صباحات ذهابه الى الدائرة بداية سنة ١٩٦٧ ، اعتاد توفيق أن يلاحظ ابن الرسام عبد الاله كمال المدعو غسان ، وقد نما جسمه وكبر ، وهو يسرع في طريقه الى المدرسة الابتدائية في نهاية الشارع . قيل إن زوجة الرسام الثانية ولدت ابنة ثانية قبل أسابيع . فصار له منها ابنتان .

وقعت أم عبد الباري مريضة على حين غرة ، ولزمت الفراش ذلك الشتاء

لمدة طويلة بحيث ينس منها ابناها ، مع أن الأمر لم يكن يتعدى إصابتها بزكام شديد ضرب صدرها . أوصاهم الطبيب بالعناية بها كيلا تنتكس أثناء فترة النقاهة . كانت قد جاوزت السبعين ، ولكنها بقيت صلبة الروح ، صابرة ومعاندة .

قبيل نكسة حزيران ١٩٦٧ ، دخل عليه في مكتبه شاب في مثل عمره تقريباً ، فوقف أمامه مرتبكاً يحمل محفظة سوداء أنيقة . خيل لتوفيق كأن أباه سور الدين بُعث حياً وتنكر في زيّ هذا الشاب ثم جاء لزيارته!

تبين أن السيد المرتبك هو حفيد عمه منصف الدين وأنه يشتغل محامياً ، منذ سنوات ، في خانقين . أجلسه وأصر على دعوته للغداء معهم ، ثم اتصل بأخيه وأمه وزوجته . كان يدعى ممتاز اللامي ؛ ولما رأى شبح ابتسامة على محيا توفيق سارع يقول بأنه حوّر في اسمه قليلاً ليناسب الوقت الحاضر ، إلا أنه تبين بعد البحث والاستقصاء أنهم بالفعل من عشيرة بني لام . سُرَّ توفيق لذلك بالطبع ، وتذكر أنه سمى نفسه يوماً توفيق لام . شعوراً منه بهذه الحقيقة الخفية! كانت لدى المحامي ممتاز اللامي قضية قانونية في الوزارة جاء ليتعقبها فعرف من أبي فتحية هوية نوفيق وعائلته ، فأحب أن يتعرف عليه . اعتذر بأسف شديد لعدم استطاعته تلبية دعوة الغداء لوجوب عودته الى خانقين ، ووعد بتلبيتها في وقت آخر . دعا توفيق وعائلته لزيارة مدينتهم القديمة والتعرف على أفراد عائلة آل عبد المولى المعاصرين ، وقد انتشروا في كل مكان وترك أغلبهم مهنة النجارة واتجهوا الى الدراسة وممارسة الأعمال الحرة . أثاره هذا القريب المؤدب بما حكاه له عن أفراد عائلته المجدين ، المتفوقين . رآه يقوم بعد فترة فسأله عن قضيته فأجابه القريب بأنها قد أُنهيت وصدر كتابها ووقعه هو قبل قليل دون أن ينتبه ، ثم شكره وسلّم عليه بحرارة ؛ وقبل أن يغادر الغرفة توقف قرب الباب وهتف :

ـ أنا سعيد يا أستاذ توفيق ، لأن فرداً واحداً على الأقل من آل عبد المولى ، يملك مثل هذه المكانة والطلعة الكريمة .

شعر توفيق بالخجل ينتابه وابتسم يحيّي قريبه دون كلام .

وأقبلت عاصفة النكسة في ٥ حزيران من ذلك العام ، ومضت وصارت تاريخاً مزوراً مكتوباً على الورق ، وتاريخاً محرقاً منقوشاً في خفايا النفوس ؛ ولم تتوقف الحياة رغم ذلك ولبثتْ الأيام تمر سراعاً وتوفيق لا يحس بها ولا بما حوله تماماً ، حتى أخبرته كميلة ذات مساء بأن العادة الشهرية جاءتها مرة أخرى ، وأن عليها القيام بفحوص طبية لمعرفة سبب عدم الحمل . طمأنها بأن كل شيء على ما يرام ، سوى أن عليهما أن يمنحا نفسيهما وقتاً أطول ، وأن مستقبل الأيام سيجعلها تتضجر من الأولاد والولادات ، وأن... وأن... الخ وقبلتْ الوضع على مضض . أزعجه أن يفكر بأنها تعتقد ، على الأغلب ، بأن سبب عدم حملها يعود اليه ، فقرر ، بينه وبين نفسه ، أن يعمل ما أرادت أن يعملاه تخلصاً من هذه الأفكار .

كان توفيق ، كبقية البشر ، يحمل بذرة شقائه في صميم وجوده ؛ إلا أنه كان يتفادى ، بذكاء وبعدة طرق ، نمو هذه البذرة وتدميرها لحياته ؛ فواظب ، مثلاً على الخروج مساء الخميس ، ليس بالضرورة للعب القمار ، بل للاجتماع الى الأصدقاء ومشاركتهم الشراب والثرثرة الذكورية المنفلتة عن كل قواعد التهذيب . كانت تلك الساعات تريحهم نفسياً كما يبدو ، ولكل واحد منهم أسبابه الخاصة ؛ وكان يروق للبعض منهم أن يمارس الخيانة الزوجية من أجل أن يروي ذلك ، بافتخار للرفاق . وكانت كميلة تنتظره ، نائمة أو مستيقظة ، ولكنها في الحالتين شبه عارية ومتهيئة للمضاجعة ؛ ولم يخيّب أملها إلا في مرات قليلة . كانت العائلتان تنتظران بقلق أن تحمل كميلة من توفيق لتشتد الأواصر فيما بينهم ، إلا أن الانتظار طال واستطال... والشهور تمضي .

كان يتفادى أيضاً نمو بذرة الشقاء بالقراءة وبالتفكير جدياً فيما يقرأ وأحياناً بكتابة ملاحظات حول بعض النصوص التي تؤثر فيه ؛ وقد لاحظ ، وثبّت تلك الملاحظة كتابةً ، أن الابتعاد ـ أو الاختفاء ، ربما ـ عن المجرى

الرئيس في الحياة يكسب الإنسان جلداً سميكاً وقابلية على التحمل ؛ والابتعاد هنا ، أو الاختفاء ، يأتي على المستوى النظري أو الافتراضي ، وهو ما يعني العمل على جعل المشاكل المستعصية أو الأحداث الكارثية تمر فوق رؤوسنا ولا تصيب القلب مباشرة . قال ذلك لعمه سلمان آل قصابي الذي أشرف على الإصابة بسكتة قلبية أو ما يشبهها حين أفلتت من بين يديه صفقة تجارية قدرت أرباحها بأكثر من عشرة آلاف دينار . لم يفهم بالطبع شيئاً مما قاله توفيق ، ولازم الفراش أسبوعاً كاملاً ، فريسة حمى شديدة وغريبة لم يعرف لها الطبيب اسماً ولا سبباً ؛ فاقترح عليه توفيق ، إذا كان لابد من ذلك ، أن يطلقوا عليها اسم حمى الجشع المجهض ، وفسَّر المسألة المعقدة بأن دماء الأنسان ، كالسيد القصابي مثلاً ، عبر دخوله في عمليات تجارية طوال سنوات واعتياده على الربح السهل والنهب اللامحدود ، هذه الدماء تتشبع بخاصية نادرة هي رفض الخسارة وفوات الربح بصورة مطلقة ، بحيث تفور وترتد على نفسها ، فتحاول أن تقضي على ذاتها وعلى الجسم الذي تعيش فيه ، حين تقع في مأزق إفلات الربح منها . قضية غريبة وغير معروفة ، ولكن لها حظاً وفيراً من الصحة لو جرى تتبعها علمياً . فلو كان السيد قصابي ، في وقت مبكر من حياته ، قد راقب ردود فعل دمه على عملياته المالية ، لما كاد يشرف على ميتة لا داعي لها .

بداية سنة ١٩٦٨ راجع توفيق وكميلة طبيباً اخصائياً في الولادة والأمراض النسائية دون أن يخبرا الأهل بذلك . فحصها بدقة وطلب إجراء تحليلات معينة للدم وأخذ صورٍ شعاعية للرحم وما حوله ؛ كما أوجب على توفيق فحص مادته المنوية ، ثم رجاهما أن يتما بجلب ما طلب منهما في أقرب موعد ممكن ، وأضاف :

- لا شيء فيكما ، حسب الظاهر ، غير اعتيادي ؛ وجسداكما جيدان ويعملان بانتظام . أنتما شابان وأمامكما وقت طويل . حاولا ، حاولا .

كان هذا الموقف غير المسر ، من جملة المواقف التي سعى توفيق

ليجعلها تمرُّ فوق رأسه دون أن تصيبه بازعاج أو حرج . إلا أن بعض المؤثرات غير المنظورة ، مثل أمواج الأشعة ، كانت تنطلق من نقطة في الأفق لا تُرى ، وتمسُّ ناحية حساسة في نفس توفيق دون أن يخطر له أن ذلك ممكن . غير أن مضاجعة كميلة بقيت ملذة لم يتغير طعمها ، خاصة بعد أن راحت تكتشف وتطبق أوضاعاً تحقق دخولاً فيها أعمق وأعمق ؛ وكان السر ، سر الميلاد ، أمامهما مغلقاً وخطيراً ، لايُحل باوضاع منتقاة أو بزيادة الإفرازات ؛ إنه سرُّ الخلق العظيم وما يحيطه من ظلام دامس لايمكن اختراقه .

ألمّت عاصفة مزيفة بجو العائلتين ، أنست توفيق وكميلة بأنهما كانا يتجهان نحو آلية مقيتة في ممارستهما لعملية الحب الزوجي المشروع ، ففي زيارة غير متوقعة من أم عبد الباري ، العجوز التي استعادت قوتها بسرعة ، الى معمل النجارة ، اكتشفت بأن الابن العزيز يشغّل سكرتيرة في مكتبه ويدفع لها مرتباً من جيبه الخاص ويستلم ، كما قيل ، مقابل ذلك خدمات شخصية لم تكن تليق لا بأخلاقه ولا بخلقته . لم ترد أن تفضح ابنها ، لكن الأمر خرج من بين يديها فعلمت به زوجته ثريا وأمها ووالدها وأختها كميلة وتوفيق ؛ وحوصر عبد الباري بين خمس كلاّبات أو أكثر وجرى استنطاقه بإلحاح وبأكثر جدية ممكنة ، إلا أنه لم ينطق بحرف واحد وأغلق عليه رعباً وخجلاً لدقائق ، ولما استرد لسانه صار يحلف بأغلظ الأيمان ويكرر الحلف بأنه لم يمس الفتاة ولم يتعرض لها . وكان يتكلم والعرق يسيل من كافة نواحي وجهه ورأسه ، وعيناه الجاحظتان تدوران دون توقف ، مما جعل المستمعين يشفقون على هذا المهرج الذي أضاع دوره . ثم اقتنعوا بعد ذلك بسخف ما حصل وبخفة عقل عبد الباري وأمه ، ونُسي الموضوع والفتاة بعد أسابيع .

ترفّع توفيق وظيفياً في مايس ١٩٦٨ فصار مديراً لقسم التحرير في الوزارة ؛ غير أنه لم ينتقل من غرفته ، بل غيّروا له القطعة الخشبية الملصقة

جنب الباب فقط ؛ كما لم يزد راتبه ، لأنه لم يكمل المدة القانونية المطلوبة ، فبقيت مشكلته المالية بغير حل . ورغم أن تسمية مشكلة لا ينطبق تماماً على وضعه المالي ؛ فهو لم يكن مسؤولاً عن الصرف على أمور معيشة عائلته الصغيرة ، لأن زوجته وأهلها يتكفلون بذلك دون تذمر ، ومصاريفه الشخصية لم تكن ذات بال ، فهو لا يدخن بانتظام والكتب لا تكلفه كثيراً والمشروبات تأتيه من عمه سلمان القصابي ؛ إلا أنه كان يحس بحاجة للنقود على الدوام . ذلك أن ما كان يعصف براتبه عصفاً شديداً هو مساء الخميس حين تكتمل حلقة البوكر في لعبة عالمية ويدير له الحظ باصرار ظهره ؛ آنذاك يجري ذبح راتبه عدة مرات وبدون هوادة أو رحمة ؛ فاذا تملكته حماقة العناد ، ، فإن ما كان يقترضه في تلك الحال يعادل عدة رواتب قادمة .

وكان الإياب الى البيت وهو بهذا المستوى المعنوي المنخفض ، يمثل أقسى أنواع الكوارث ؛ فعدا أن كميلة تستيقظ من تلقاء نفسها رغم كل محاولاته لتخفيف وطء أقدامه ، وعدا أنها تسأله عن نتائج اللعب وعليه أن يجيب ويعطيها الأرقام الرهيبة ، فإن تلك العملية الأخرى التي تنتظرها منه كانت معضلة حقيقية في أغلب الأحيان . ما كان يجدي معها عذر التعب أو الإحباط الناتج عن الخسارة أو كثرة الشراب والطعام أو امتناع المزاج أو ابتعاد الرغبة لسببٍ ما ، فإما أن تضاجع وإلا فإنك قد ضاجعت قبل أن تعود ، وعليك أن تفسر ذلك وتدافع عن نفسك ؛ وكان هذا أحد الأسباب القوية لامتناعه عن المشاركة في أمسيات الخميس المبهجة ؛ يضاف اليه تراكم الديون ، بحيث أخذت تشكّل رقماً مخيفاً بالنسبة له .

مضت الشهور إذن والسنوات ، والحياة تتراوح بين تدنٍ وارتفاع ، ورغد في العيش وشظف ، وملل كثير وسعادات قصار ، فانقضت سنة ١٩٦٨ وما حدث فيها ، تبعها سنة ١٩٦٩ ومثيلتها سنة ١٩٧٠ ؛ وكان أبو فتحية يزداد ثرثرة ونقمة ؛ فهو لا يرتاح ، باطنياً ، لأي تغيير لا يجده منطقياً ولا

مناسباً ، ولكنه ، في الظاهر ، يمتدح كل ما يجري ترتيبه . بداية سنة ١٩٧١ ، دخل عليه ببعض الهياج فأخبره بأن سليمان فتح الله الملقب بالأعرج قد عُين ، وهو فراش ، مسؤول الاستعلامات وأنه سيجلس مثل الموظفين ، في مكتب في مدخل الوزارة ، يسأل كل من يروم الدخول عمن يريد مقابلته وماذا يريد منه .

- قل لي بصراحة يا سيدي ، أليست الدنيا في طريقها لتنقلب أم ماذا ؟

هوّن عليه ، ضاحكاً ؛ واستغرب في قرارة نفسه هذا التعيين ؛ فسليمان لا يستطيع القراءة والكتابة إلا بصعوبة ، إذ لم يكمل دراسته الابتدائية ، فكيف يمكن اعتبار تعيينه قانونياً ؟

وجاء لزيارته ، فلم يجلس في المرة الأولى وبقي واقفاً متضاحكاً . بدا عليه أنه لم ينسَ بعد بأنه كان يقوم على خدمة توفيق منذ وقت غير طويل . وجاء بعد أسبوع لزيارة ثانية ، فاتجه بعد السلام نحو كرسي وثير ورمى بنفسه عليه . لم يعر توفيق أهمية ما لتصرفات سليمان الأعرج ، فهو ، مثل الجميع هذه الأيام ، متعطش بشكل أعمى ، ليس للشعور بذاته ، بل للشعور بشعور الاخرين بها ، وهذا هو قمة الضياع وفقدان الثقة .

ولم يفهم من سليمان ما يريد من وراء زياراته ، فلبث غير مكترث به ؛ وكان ، في الحقيقة ، مشغول الفكر ببوادر الحمل لدى كميلة ، التي وقفت فوق المئذنة لتعلنها للجميع . لم تصدق أنها حامل وأن موعد العادة الشهرية قد فات ، واحتضنته ودموع الفرح تسيل من عينيها وهي تخبره بذلك . فرح معها بالطبع وصار بعدئذٍ يسألها عن حالها وبما تشعر وبما لاتشعر ، وكان قد مَرَّ شهران على هذه الحال . واثناء ما كان سليمان يمارس زيارته الميمونة ، خطر لتوفيق أن يخابر زوجته ليسألها عن صحتها وعما إذا كانت تريد أن يمرَّ عليها في طريق عودته . صارت تتكلم بغنج مبالغ فيه ، كأنها كانت في الفراش عارية معه! قالت إن الغثيان خفَّ عليها اليوم وأنها تشتاق اليه كثيراً كثيراً ، فأدرك أن خبالها السابق عن حبهما العظيم عاد لها بعد أن

حملت منه . أطال قليلاً في حديثه معها فلاحظ بانزعاج ودهشة ، أن سليمان الأعرج أخذ يبدي علامات تدل على تضايقه من الوضع . أنهى المخابرة بعد دقائق وعاد الى عمله ، ولم يرفع رأسه حتى ليرد تحية سليمان وهو ينصرف . استثيرت أعصابه وأحس بأن حريته الشخصية خُدشت لغير سبب مفهوم .

نصحوهما بمراجعة طبيب مختص لمعاينة كميلة طيلة فترة الحمل ولمراقبة تطور حالتها وليجري لها الولادة بعد ذلك . كان أول سؤال للطبيب هو حول إجرائها الفحص المعتاد للتأكد علمياً من الحمل ، فأجابته بالنفي وأشارت الى بطنها المرتفع ؛ فابتسم الطبيب وأخبرها بأن هذا الفحص هو عمل روتيني لابد من عمله منذ البداية ؛ وكان ذلك موعداً مع المزعجات وانهيار الأعصاب وليالي البكاء الطويلة ؛ فقد تبين من فحص بول كميلة أنها غير حامل وأن كل هذه العلامات المستحبة كانت مزيفة . وعادت ، بعد حين ، الى انتظامها السخيف عادتها الشهرية ، وعادا بجنون متعب الى ممارسة الحب وحساب الأيام المحبذة لذلك من أجل الحمل ؛ وكان توفيق يعاند ذاته كي يقنعها بأنه لايقوم بواجب مقدس ثقيل من أجل البقاء ، بل هو ، أيضاً ، يمتّع نفسه ويمنح جسده التوازن المطلوب . إلا أن أفكاره الصائبة هذه ، كانت مثل دخان تجرفه بعتوٍ رياح الإنكار الدائم لذلك والرفض المتخفي لرغبات زوجته المشروعة ؛ وبين هذا وذاك ، بين التعقل الواضح وبين ظلامية رغبات الروح ، بين تكويم الأسباب من أجل اتباع سلوك اجتماعي سويّ نافع وبين اندفاعات الدماء المبهمة نحو التحرر المنفلت والارتماء في بحر المجهول المثير ، تشابك مصير توفيق وشخصه وصار في نقطة تساحب قوى ظاهرة وأخرى غامضة ؛ وكان ذلك إيذاناً مشؤوماً بما يجب ألا يحدث .

سقطت أم عبد الباري مريضة في أواخر شهر شباط حينما كانت أزمة كميلة في أوجها ، بحيث مضت أيام قبل أن يحسوا بأنها لا تفارق الفراش ؛

وبعدما انتبهوا إليها كانت حالتها قد ساءت كثيراً ؛ وانزعج الطبيب ، وهو صديق العائلة ، لإهمال امرأة عجوز مريضة بهذا الشكل . كانت حرارتها مرتفعة بتأثير التهاب حاد في بلاعيمها زاد من خطورته الاهمال غير المتعمد الذي عانته . وفي العادة لم تكن حالتها من الحالات الخطيرة ، غير أن إنساناً جاوز الخامسة والسبعين من عمره يمكن أن ينهار لأهون الأسباب ؛ ولذلك اعتقدت أم عبد الباري أنها ستموت عن قريب . لم تجزع كثيراً وجمعت العائلة حول فراشها وأخذت ، بما بقي لديها من قوة ، تلقي عليهم بالنصائح والإرشادات الطويلة بشكل بعث فيهم الملل . ثم إنها أشارت اليهم بالانصراف وأبقت ولديها معها . كان عبد الباري خائفاً ، على حافة البكاء ؛ لم يحلق لحيته منذ يومين فزاد الشيّب من قبح وجهه ؛ ولبث توفيق غير مصدق أن أمه ستموت . جلسا قربها ، فتطلعت بنظرات حادة الى توفيق ، استغرب لها . قالت له إن عمتها ، التي كانت متحيزة في حبها له ، قد تركت له حين وفاتها ميراثاً مقداره ثلاثة آلاف دينار ، وأنها استلمت المبلغ ولم تسلمه له في حينه لأنه كان صغيراً ، وأخذت تعطيه له على دفعات دون أن تخبره بأن هذا هو ماله حتى وفت ما بذمتها إليه ، وأنها تصرح بهذا له لأنها ستلاقي ربها بعد حين وترغب أن ترفع عن كاهلها هذا العبء . بقي توفيق ساكتاً ، ينظر اليها بجمود . لم تؤثر فيه كلماتها ولا الحقائق الغريبة التي كشفت عنها ، بل هزت قلبه ، فجأة ، ذكرى أحاديث آديل ؛ تداعبه بقراءة فنجانه ، وابتساماتها وألق عينيها وهي تخبره بأنه قد سُرق وأنه مسروق منذ زمن بعيد وغافل . كان حزيناً لتذكر آديل وفقدانها أكثر من حزنه لاعتراف هذه العجوز المخرفة .

لم تمت أم عبد الباري ، مع ذلك ، وزادت نظراتها حدة نحو ابنها توفيق مع مرور الأيام لأسباب تتعلق بالطبيعة البشرية المعوجّة .

خلال سنة ١٩٧١ كلها ، زادت مضايقات سليمان فتح الله لتوفيق وكثرت زياراته وأسئلته الفضولية . وفي بداية سنة ١٩٧٢ ، حينما طلب أبو

فتحية إجازة قصيرة للذهاب الى الصويرة بمناسبة وفاة زوج ابنته ، اعترض سليمان فاستغرب توفيق هذه الصفاقة منه ووجّه إليه كلاماً شديداً يطالبه فيه بعدم التدخل في شؤون لاتعنيه . وتمتع أبو فتحية باجازته القصيرة ورجع من الصويرة منكس الرأس يتظاهر بالحزن لوفاة صهره ؛ لكنه ، كما أسرّ لتوفيق ، كان في غاية السرور لما ورثت ابنته من زوجها ولعودتها ، مع مالها ، للسكنى معهم .

أصرت كميلة ، يوماً ، على وجوب إعادة الفحص الطبي ولكن خارج العراق هذه المرة ، وبالتحديد في لندن . لم يعارض توفيق ، فسافرا أواخر تموز ١٩٧٢ ؛ وحين عادا بداية أيلول كانت بجعبة كميلة من المعلومات ما جعلها تكنّ عواطف غير طيبة نحو بعلها . أخبرهما الطبيب ، بعد إجراء الفحوص ، بأن أحوالهما الصحية جيدة وليس هنالك أي عامل جسدي يمنع السيدة الشابة من الحمل ، سوى أن الحيوانات المنوية للسيد الزوج يعتورها الضعف بعض الشيء وتحتاج لما يقوي من فعاليتها ؛ شعر توفيق بأن هذه هي الثغرة التي كانت تبحث عنها زوجته منذ سنوات . تبدّل موقفها تجاهه علناً ولم تعد تمتنع عن انتقاده وإظهار تبرمها منه وندمها لزواجها الفاشل هذا ؛ فصارت حياتهما جحيماً مغلفاً وزالت حدود اللياقة والاحترام بينهما بالتدريج .

هجس في نفس توفيق أن يفهم السر في ذلك ، أو على الأصح أن يفهم السر في سرعة اندلاع نيران زوجته هكذا . أمسك بدلالة ضعيفة ؛ ففي أيامهما الأخيرة في لندن ، أثناء ما كانت كميلة منفلتة الأعصاب ، عرض عليها أن يمرا بباريس في طريق عودتهما لقضاء أسبوع فيها ترويحاً للنفس ، فانفجرت في وجهه :

ـ بلاد القحاب . كلكم يا رجال يا عراقيين تريدون زيارتها . كلكم ، وعلى نفقة الزوجات أيضاً .

صُدم قليلاً ولم يجبها . ساورته ظنون عديدة أبقاها لنفسه . كان

محاصراً بأمور سخيفة تافهة لا يفهمها جيداً . فضّل أن يحافظ على رزانته . لم يجبها .

أمست الأيام ، أواخر سنة ١٩٧٢ ، تتباطأ في مسيرتها الأبدية ، وصار توفيق حين يستيقظ صباحاً ، يود أن يعاود غلق أجفانه والاستغراق في النوم ثانية تلافياً لمواجهة دنياه ؛ وكانت كميلة بين شقّي رحى خاص بها ، وكانت تريد أن تدخله معها . أول شق من رحاها كان غريزتها المتجهة بعماء نحو الحمل بكل ثمن ، وثانيهما انحسار حبها لتوفيق وتبدّل عاطفتها نحوه بحيث لم تعد تتحمل التصاق جسديهما الذي كان يبعث فيها ، سابقاً ، الدوار اللذيذ . كانت في الحقيقة ، تكرهه خفية منذ زمن ، منذ أن اعتاد أن يهزأ بشخصها وبأنوثتها المتفتحة ؛ والآن ، بعد كل هذه السنوات وبعد انكشاف الخبايا ، عاد اليها حقدها القديم ووجد تبريره اللامعقول في عدم حملها وفي ضعف حيواناته المنوية .

وارتأى توفيق ، تلك الأيام ، وقد تجاوز عمره الأربعين أن يسكن الى قوقعة تحميه مؤقتاً من الأذى ، فلجأ الى عزلة لا يقدر عليها كل البشر ، في زاوية من صالة المشتمل مهملة على الدوام ؛ ومع الكتب والراديو والمسجل هناك وصورة آديل تأتيه بين وقت وآخر ، كان يجد العزاء وبعض السلوى . ترك السهر مع الأصدقاء ، وكان نادراً ما يخرج ليعبر الشارع الى دار والدته . تذكّر أنه عاش زماناً مثل هذا منذ سنوات ، حين كان في الثانية والعشرين . وأعاد قراءة رواية سانين للمرة الثالثة . كانت ما تزال بحوزته ، مجلدة بعناية . فهم ، هذه المرة ، عمق شقاء هذه الشخصية الروسية المنطلقة من عقالها . لم تكن علاقة سانين بالنساء ، عموماً ، علاقة سعيدة ، لأن دودة اللاجدوى كانت قد نخرت أساس نفسه ؛ وكان ، ذلك البطل ذو المستوى الخاص جداً ، يحاول أن ينسى فقط ، وكل تصرفاته كانت بهذا الاتجاه .

في يوم ممطر من شباط ١٩٧٣ ، دخلت عليه في المكتب فتاة تلتف

بعباءة سوداء وتكشف عن وجه أسمر جميل منسجم التقاطيع تتلامع فيه عينان طويلتان يميل لونهما الى خضرة غريبة . كانت محرجة وجريئة في نفس الوقت . قالت إنها فتحية ابنة أبي فتحية ، وأن أباها سقط مريضاً أمس مساءً وأرسلها لتقديم التقرير الطبي الذي استحصل عليه من طبيب الحي .

بقيت تتأمل توفيق وهي تكلمه بليونة وبصوت رقيق . كانت في ثياب سوداء ، لا تضع أية زينة في وجهها . دعاها للجلوس فتقدمت ، وبحركة انثوية خاصة أظهرت له لحظة شعرها الأسود الكثيف ذا الإشعاع الأحمر وقسماً من صدرها الناهض ، قبل أن تجلس . سألها عن أبيها وعزاها بزوجها فشكرته برزانة أعجبته دون أن يدري لماذا . ظنها ، ربما ، لا تملك أن تتكلم بوضوح هكذا ، هي القروية الجاهلة!

أخبره أبوها بعد أيام أنها أنهت الصف السادس الابتدائي لكنها لم تحصل على شهادة البكالوريا ، وأن أمورها القانونية في الصويرة تتعرقل بسبب طمع الموظفين وعدم خوفهم من الله . سأله أيخاف هو الله ؟ ففزع أبو فتحية :

ـ أخاف ؟! أخافه أكثر بكثير من المدير العام ، يا سيدي .

في عزلته ، فكر بفتحية مرة بعد أخرى ، وفي ناحية من شخصها جذبته . كانت أرملة في الثالثة والعشرين ، بصحة جيدة تظهر في لون بشرتها المتفتحة السمرَّة وفي التماع عينيها .

كان الصفاء بين توفيق وكميلة يترجرج صعوداً وهبوطاً ، وكانت علاقتهما الزوجية تتجه نحو اليبوسة بالتدريج . كانا في تنافر دائم تقريباً ؛ ولم تكن هي تدرك بأن ذلك مضاد صراحة لغريزتها الأساسية التي تقودها الى الإنجاب ، غير أن صحوة منطقية مؤقتة كانت تدفعها لأحضانه في أحيان لا يتوقعها . تلك الليلة ، يتذكر منها تفصيلاً أو تفصيلين . لمسته بعد وقت وجيز من إطفاء النور ، فاستدار إليها . قرَبت وجهها منه ثم قبَلته وهمست شيئاً ما في أذنه . لم يكونا قد اقتربا من بعضهما منذ أسبوع ، وكانت

مشتعلة الجسم والشفاه ، وبدا له كأنها تروم أن تبتلعه كلياً . كانت تلهث وتكاد تختنق وهو فوقها يعصرها بين ذراعيه ويجوس فيها بشدة . نسيا ، في تلك اللحظات ، الكثير من مشابكات حياتهما المتعبة والعناصر المؤسية التي تبعد بينهما ، وانحصر وجودهما ، المادي والروحي ، في تلك الارتعاشات المذهلة ؛ المتأتية عن تداخلات عضوية بالغة التفاهة . ثم انفجر في جوفها كما لم يفعل من قبل إلا نادراً ؛ وأحست هي بالسائل الدافئ يطفئ شوق أحشائها ويهزّها هزاً لذيذاً لا مثيل له .

أراحتها هذه العملية الجنسية الناجحة وقرّبت بينهما أسابيع ثلاثة ، عاشا فيها حياة زوجية بمعنى الكلمة... محبة واستلطاف وجنس . إلا أن العادة الشهرية اللعينة لم تترك لهما الاستمرار على ذلك النسق المحبب ، وانقلبت ألوان الدنيا بعيون كميلة ، وكان المذنب الوحيد شخصاً تعرفه جيداً ولا تجد مناصاً من مشاركته العيش ومن إعادة التجربة المشكوك بنتائجها معه ، مما زاد في سوداوية تعاستها . وبقدر ما كانت كميلة تنفر من كتمان آلامها الشخصية ، كان توفيق يتصابر على مشاق حياته ويتحملها بتعقل ويجادل ، مع نفسه ، كل اندفاعات أعماقه للانفجار والتحرر تحرراً مطلقاً ونهائياً .

أوائل السنة الدراسية ١٩٧٣ ، في بداية تشرين الثاني ، لاحظ عدة مرات ، ذلك الشاب غسان ابن الرسام عبد الإله كمال ، يتواجد صباحاً بحالة المستعجل في رأس الشارع . أوقف سيارته ، ذات صباح حينما كان بمفرده وفتح له الباب ودعاه للدخول . كان المطر ينزل بخفة منذ الليلة السابقة ، وكان مبلل الشعر والوجه والملابس . جلس جنبه بخجل بعد أن سلّم بصوت خافت . ثم أخبره بأنه في السنة الأخيرة في ثانوية الكرخ ، وأن أباه لا يستطيع توصيله لأنه لا يستيقظ مبكراً ؛ ثم راح يراقب الشارع بصمت ويمسح الماء عن وجهه . أوصله الى المدرسة في الوقت المناسب . مال قلبه ، بود وشفقة ، نحو ذلك الشاب ؛ وانتبه الى رثاثة ثيابه وعدم ملاءمتها

لبرد الخريف . في المرة الثانية ، رآه يركض زائغ البصر . يتلفت من هنا الى هناك كأنه كان يبحث عنه . كانت زوجته معه ؛ أخبرها بأمر غسان بكلام مختصر ، ثم أوقف السيارة رغم مسحة الانزعاج اللامبرر التي بانت على وجهها .

كان أبو فتحية يتغيب عن الدائرة بشكل غير اعتيادي غيابات ذات صبغة خاصة ؛ فهو لا يجرؤ على طلب إجازة رسمية ، بل يتحين فرصة ما لطلب اذن بالانصراف ساعة أو ساعتين قبل نهاية الدوام ؛ وكان توفيق يتذكر فتحية ويسأله عنها ثم يسمح له بالذهاب . وفي أوقات أخرى ، كان يجد أبا فتحية كمن أصيب بألم في أمعاءه ، يتلوى دون صوت ويدخل الغرفة ثم يخرج منها ، عدة مرات ، بلا كلام . هتف به يوماً وأمره أن يقف أمامه ، فجمد أبو فتحية مفتوح الفم والعينين . سأله :

ـ ما بك كالمجنون أو كالطير الجريح ، تتقلب دون غاية من هنا الى هنا ؛ ماذا دهاك ؟ قل لي الآن . هيا تكلم .

فقصَّ عليه الخبر . كانت فتحية ، في حياة زوجها ، قد اشترت قطعة أرض في حي العامل قريباً من محل سكناهم ، وهي الآن ، بعد أن قبضت قسماً من ميراثها بدأت ببناء سوق وشقة فوقه لسكناهم . لم يستغرب توفيق ذلك ، ففي ملامحها ونظراتها ما ينبئ عن عزيمة غير عادية لتنفيذ أمور كبرى ؛ وهي تستخدم الجميع لمساعدتها ؛ أباها وأمها وجيرانهم ومعارفهم وما تبقى من أقربائهم ؛ وأبو فتحية ، كما قال ، ينتهز فرص غياب سليمان فتح الله لكي يذهب ليساعد في شؤون البناء المعقدة . ضحك توفيق على سجيته وسأله عن علاقة سليمان بالأمر ، فأجابه أبو فتحية بأن هذا سيُعين عن قريب مسؤول أمن الدائرة . استغرب ذلك . لم يعد سليمان هذا الى زيارته منذ اليوم الذي أبدى له فيه احتقاراً وعدم اكتراث به ؛ وكان يسمع عنه من الحكايات ما يجعله يزداد اقتناعاً بعقم التفكير في أية محاولة لإصلاح أشخاص من هذا الطراز . كان توفيق محاصراً ، عاطفياً ومادياً ؛

ولأنه كان يريد أن يجد علاجاً ، ليس لمستقبل حياته حسب ، بل لحاضره الكئيب المهدد ، فقد تجنب التدخل في شؤون لا تخصه .

أرادت كميلة أن تسعد بعلها وأن تعيد الحياة لرابطتهما الزوجية ، بنصيحة من شخص يريد لها الخير ، ربما ، فاقترحت عليه أن يسهرا ليلة رأس السنة ١٩٧٤ في دار إحدى صديقاتها التي قررت أن تقيم احتفالاً تشترك فيه شلة من الأصدقاء ، يتعاونون بالنفقات وتقدم لهم هي المكان وتنظيم الحفل . لم يبد اهتماماً بالموضوع . كان توفيق آنذاك يعيش مع زوجته على وقع مزاجها المرتبط بمجيء العادة الشهرية أو بسماعها حكاية مزعجة ، أو مسرة ، من إحدى صديقاتها أو من واحد من أفراد عائلتها ؛ فاذا اختل هذا المزاج لأي سبب كان ، فانها حينذاك ، وبدون مقدمات أو حساب لما سيتبع ، تقلب حياة المشتمل الى جحيم صغير بصراخها وشتائمها وبأعمالها المزعجة الأخرى . أمسى توفيق بالنسبة لها زوجاً لا جدوى منه ، فهو لايملك شيئاً من الدنيا سوى راتبه الضنيل ، وهو مطعون في قابليته للإنجاب . نسيتْ ملاحقتها الطويلة له منذ سنوات قليلة ، وانقلب ذلك الشاب الوسيم الى إنسان ثقيل منعزل لا يمكن حتى الاعتزاز بتقديمه الى الصديقات وأزواجهن ؛ وهو ، لزيادة البلوى ، لايشاركها الجنس الا ببرود ، كأنه يخشى أن تحمل منه!

وكان توفيق على إدراك تام بموقف زوجته المتغير منه وبفقدانه للهالة التي كانت تراها تحيط برأسه ؛ وفوق ذلك ، فقد كان يعي بعمق أن هذه المرأة وعائلتها كانت ستبدل من نظرتها إليه حالما تنتفخ جيوبه . وعلى هذا ، فإن بشراً مثلها معروضين للبيع ، لايجب أن يؤخذوا مأخذ الجد دائماً ، ولا أن يوضعوا موضع الاهتمام بنفس مستوى المخلوقات الإنسانية الحقة . كل ما في الأمر هو أن تتعامل مع هذه الحقائق بشكل صحيح وأن تكون على حذر .

سأل أبا فتحية يوماً عن البناء فوقف ذلك المهرج القصير وانحنى محركاً

ذراعيه ببطء من أسفل الى أعلى وهو يلوي فمه ويغمض عينيه دلالة الخشوع . كان البناء يرتفع إذن ، وتوفيق لا يني يسأل عن فتحية ويتذكر صورتها الملغزة وصوتها الصافي النبرات ونظراتها ؛ ولأن أبا فتحية كان ينقل لها تحياته وأسئلته ، فقد جاءت تزوره صباح أحد أيام الربيع وهي متزينة بأقصى ما تستطيعه امرأة ، فزال عنها ذلك السحر الاستثنائي المبهم الذي لفَها في زيارتها الأولى . كان أبوها يدور حولها ويخدمها كأنها زبونة ممتازة ؛ ولم تكن تعيره اهتماما كبيراً . طلبت مساعدة توفيق كي يتوسط لها في المصرف العقاري ليعجلوا بدفع القسط المستحق ، فقد توقف البناء عند التسقيف . وعدها خيراً ، وهو يتمعن فيها . كانت سمراء سمرة خفيفة محببة ، وفمها بشفتين حمراوين مكتنزتين ، مرسومتين بدقة ؛ وفي حنكها بروز بسيط ؛ ثم تنفرد عيناها بألق غريب ينعكس من لونهما الأخضر المختلط بصفرة مشعة ، وتنتثر خصلات شعرها الأسود المتموج بموجات حمراء على صدغها وأذنيها ووجهها .

أعادت ، في جلستها باحتشام ، حركتها الأنثوية مع العباءة ، فكشفت لعينيه لحظة صدرها وضخامة نهديها . أحس إحساساً غامضاً بوجود خلل في تركيبتها النفسية وفي نظرتها الى الحياة والبشر والمادة والعلاقات الانسانية . بدت له كأنها قادرة على الإتيان بأعمال تقترب من الجريمة في سبيل تحقيق غاياتها . كانت لحوحاً ، ببعض الحياء ، في تأكيد رجائها منه بالتوسط ، هذا الرجاء الذي انقلب بعد حين الى مطالبة شديدة . أخفى توفيق عدم ارتياحه وكرر عليها وعده بالخير . دعته لزيارتهم والاطلاع على المرحلة التي بلغها البناء وكيف أنها محرجة لأن هذه المرحلة هي نقطة فاصلة تسبق عرض الدكاكين للإيجار . شعر بأن لديها غرضاً بعيداً وراء هذه الدعوة ، وقرر أن يلبيها وأن يكتشف ماوراء الأستار ؛ وتصارحا بنظراتهما عن ذلك أمام والدها .

في المرة الأخيرة التي أوصل فيها غسان الى مدرسته أخبره هذا بأنه

سيشترك في امتحان البكالوريا للصف السادس الإعدادي ، بعد أسبوع وأنه يدرس بجد ويحضّر كي ينال معدلاً يسمح له بالالتحاق بإحدى الكليات العلمية . قال توفيق بأنه واثق من نجاحه وتفوقه وأن عليه أن يتأكد هو أيضاً من ذلك .

لم تعد كميلة تتذكر عيد ميلاد زوجها ، مما أراحه من تعقيدات كان يتجنبها دائماً ؛ وكان اهتمام العائلتين منصباً على الاحتفال ، بأكثر مايمكن من الضجة والفوضى ، بميلاد أبناء عبد الباري وبناته ؛ ورغم اعتزاز هؤلاء بعمهم الأنيق ، إلا أنه كان ، بقرار خفي ، مستبعداً من تلك الاجتماعات . ثم صار عبد الباري يبدي نفوره من أخيه ، متبعاً في ذلك سنّة والدته التي ابتدعتها بعد اعترافها لتوفيق بدينه عليها وانزعاجها إثر ذلك من هذا الاعتراف ، لأنها لم تمت كما توقعت .

ومع اجتماع نفور كميلة وأم عبد الباري وعبد الباري من توفيق وشعوره بذلك ، فقد توجب عليه أن يتوقف قليلاً ليتأمل فيما عمل وما لم يعمل ليستحق ذلك ؛ إذ أن بوادر المشاكل والمزعجات بُذرت ونمت وأخذت تلتف حول عنق حياته لتخنقها ، وهو في غفلة لا يعلم . إذن...

هذه الصفحات ، السابقة والتالية ، هي من أجل محاولة اكتشاف أخطائنا الشخصية التي اقترفناها فكبّلتنا ، وتلك الأخطاء التي لم نقترفها فزادت من تكبيلنا .

٢

٦ شباط ١٩٧٥

أشعر أحياناً بانتصاف الليل من خلال إشارات الصمت أو على الأصح من خلال غياب الأصوات وحضور الصمت . الآن ، مثلاً ، مضى على انتصاف الليل بعض الوقت ، ليس وقتاً طويلاً ، ولكنه ليس قصيراً أيضاً ، وعمق السكون في هذه المنطقة المنعزلة حيث نسكن . أحس ضعفاً في ساقيّ وفي أصابع يدي اليمنى هذه . كان علينا الليلة أن نتضاجع أنا وكميلة ؛ فبموجب حساباتها العلمية ، كما تقول ، يكون جسدها خلال هذه الأيام ، والليالي بالطبع ، أكثر قدرة على تقبل الإخصاب . وكنت ، كالعادة ، غير شاعر بأية رغبة جنسية نحوها ، غير أني كنت معتمداً على ردود فعل جسدي حين تبدأ المناوشات وما يسمى بالمداعبات التحضيرية . كانت غرفة نومنا دافئة وكذلك الفراش الكبير . تماسكنا ، عاريين ، تحت اللحاف دون كلام ولا قُبل ؛ ثم إنها انقلبت عليّ ، كما فعلت في ذلك الزمان الغابر قبل الزواج ، وأخذت تقبلني وتتحرك حركات موحية بالإثارة . كانت رائحتها طيبة وطعم فمها كذلك ولسانها . حين شعرتْ بانتصابي قلبتني معها وصارت تحتي ؛ وقبل أن أبحث عن وضع الدخول ، أقعت أمامي وحشرتْ ردفيها بين أحضاني . كانت قد قرأت لا أدري أين ، بأن هذا الوضع لإكمال العملية الجنسية هو الأمثل للإيلاج العميق وهو الأضمن للتلقيح والحمل . ولم يكن

أمامي مجال للمناقشة أو إبداء رأي آخر ، فقد كان الموقف مثيراً جداً بالنسبة لي ؛ فعلى ضوء مصباح الطريق الباهت برزت نواحي الجمال في جسمها الأنثوي واختفت العيوب ، مما سهل عليَّ المهمة كثيراً ، والحق يقال . وبسبب استنادي على ساقيّ وإمساكي بخصرها أثناء العملية ، أحس الآن بهذا الضعف في الساقين والأصابع .

تركتها تنام وقمت فنزلت إلى الطابق الأرضي حيث الركن الذي أحتله من الصالة وجلستُ منتظراً أن أحس ، من خلال الصمت ، بحلول منتصف الليل . لم أكن مجهداً ، لكني كنت سأنام ، مع ذلك ، لو كنتُ بمفردي ؛ غير أن حاجة غامضة للجلوس ، في الظلام ، والانغمار بلا شيء ، دفعتني برفق إلى هذا المكان . كانت الصالة باردة برداً خفيفاً فنهضتُ وأشعلت المدفأة الزيتية والمصباح ثم لففت نفسي جيداً بمعطفي البيتي السميك . كنتُ أملك دفتراً ذا ورق أبيض صقيل اشتريته ، قبل مدة ، من مكتبة في شارع الرشيد قرب المقهى البرازيلية ؛ سحبته ووضعته مفتوحاً فوق رقعة الشطرنج ، فقد كنت من هواة هذه اللعبة ، وأمسكت بقلم الحبر وبدا عليَّ كأني أتهيأ للكتابة . لكني لم أكن ناوياً أن أكتب أي شيء! أيمكن هذا... أن نعمل أعمالاً دون هدف... سوى التظاهر ، ربما ؟ غير أني لم أكن متظاهراً ، بل متردداً ؛ فهذه هي المرة الأولى في حياتي ، على ما أذكر ، أفكر فيها بكتابة من هذا النوع ؛ أعني أن أكتب عن نفسي وما يدور حولي ، من أجل غاية مبهمة قد تكون الفهم العميق للحياة أو تسهيل الوعي . ولعلها أفكار هوائية أو دخانية لا سند لها من أي شيء ؛ إلا أن دافعاً نفسياً أكيداً كان يتملكني وأنا أحدق في الصفحة البيضاء أمامي ، يحضني على اختراق هذا الجدار الصقيل لرؤية ما وراءه .

كان غسان أصفر الوجه بشكل غير اعتيادي حين فتح باب السيارة ودخل ليجلس جنبي ويحييني بصوت منحرف . سألته عن صحته فأجاب بأنه بخير ، غير أن مظاهر سوء التغذية والقلق وعدم الاستقرار . كانت أكثر من

بادية عليه ؛ وثيابه ، كالعادة ، مهلهلة خفيفة لا يمكن ، بأية حال ، أن تحمي جسمه من البرد . أردت أن أفهم منه الأمور المستعصية التي تضغط على حياته ، فلم يشجعني على ذلك ، وبقي على تحفظه وخجله ؛ ولما سألته عن دروسه ، أبدى شكواه من صعوبتها وعدم فهمه لأغلب ما يلقى عليهم من محاضرات في الكلية . كان اعترافه مثيراً للدهشة . ظننت أنه كان يقصد عدم استيعابه تماماً للمواضيع العلمية التي يواجهها لأول مرة ؛ إلا أنه كرر عليّ بأنه لا يفهم ما يلقى عليهم لأنه صعب ومعقد ، ولم يزد على ذلك .

أن نضع مرآة أمام الذات... هي الكتابة . ما يهم حقاً ، أن تكون المرآة صادقة ومصنوعة بمهارة ودقة ، لكي تعكس الأمور كما هي ، بدون تشويه .

دخل عليّ صباح أمس وأنا في خضم العمل ، وسلّم بتجهم ثم جلس . كانت هي الزيارة الأولى التي يقوم بها ملاحظ الإدارة الجديد... سليمان فتح الله لي بعد صدور أمره . بدا لي مزهواً بملابسه وبتورد خدوده وبحذائه اللامع . لبثتُ أشتغل فسألني أما زلتُ مغضباً منه فلما أجبته بالنفي تساءل مداعباً لماذا لا آمر له بقدح شاي إذن ؟

وهكذا بدأت صفحة غير سوداء من علاقة متوترة بيننا ، تخفي ، من جانبه ، الكثير من النفاق والدهاء والأخلاق الميكيافيلية .

أرادت الليلة ، بإشارات وحركات أفهمها ، أن نتضاجع . كنا عملناها قبل يومين كما أتذكر جيداً ؛ إلا أنها لا تكترث لمثل هذه الأمور كما أبدت لي بصراحة :

- يومين ، ثلاثة ، أربعة ؛ لا أدري ، المهم...

ولم تكمل ولذلك لم أعلم ما هو المهم ، بالضبط ، في نظرها .

على كل حال ، كانت عملية متعبة ، لا تترك ، بعد أن تمضي ، غير طعم فاتر في النفس ؛ إلا أنني نمت بعدها ، تلك الليلة ، نوماً عميقاً وهنيئاً

لحسن الحظ . وفي العادة ، فإن كميلة تستيقظ نشيطة متوقدة الحيوية بعد أن تنال رغبتها في الليل ، وتكون مقبولة بلطفها الواضح التزييف . هذا الصباح ، فاجأتني والأهل ، حين ذهبت بسيارتها ، دون أن تخبر أحداً ، فجلبت لنا الكاهي مع القيمر اللذيذ ووزعت ، ضاحكة ، الحصص في صحون أنيقة ، على الجميع .

أعدتُ قراءة ما كتبتُ خلال الأيام الماضية وفكرتُ فيه . ليس صحيحاً أننا نقول كل شيء . هنالك خفايا لا نصل إليها ، وعلاقات أكثر خفاءً تفوتنا على الدوام ؛ غير أن الكتابة لها أهمية تحديد المعيش ؛ وهذه العملية هي الخطوة الأولى للتفكير في هذا الأمر ولإعادة التفكير فيه . ولعل من الغرابة أن تثيرني نواحٍ في المعيش أهملتُ ذكرها ربما عن عمد ، أو على الأصح تغافلتُ عن إدخالها في مجرى الكتابة هذا . رائحة السيكاير في ثياب غسان وهو يدخل ليجلس قربي في السيارة ؛ كأني لا أريد أن أعترف لنفسي بأن هذا الشاب الذي أوده ، تشوبه بعض الشوائب . ونظرة الحقد في عينيّ سليمان التي رمى بها أبا فتحية إذ دخل يحمل له قدح الشاي . وأنا... أنا العاري المتعرق الجسد... أرهز لاهثاً خلف زوجتي وأبتهل بصمت كي ينتهي الأمر الشاق هذا بسلام . وأخي عبد الباري وأمي ، اللذان لم أرهما منذ شهر أو أكثر .

إنها ليست الكتابة المكتوبة فقط ، ما يهم ؛ بل يتوجب قراءة الكتابة غير المكتوبة أيضاً ، وهي غير القراءة ما بين السطور ، كما يقولون . أنا أكره ، أولاً ، ما يقولون ؛ وأظن ، ثانياً ، أن قراءة الكتابة غير المكتوبة تعني قراءة كتابة أخرى لا توجد ، وليس قراءة ما بين السطور .

أحس أني متعب ، لأن هناك أشياء أفهمها بأعمق مما يجب .

٢٨ شباط ١٩٧٥

... رأى يده الممسكة بالقلم ، تتوقف عن الكتابة في منتصف السطر . رفع نظره وأخذ يتطلع برعب في نواحي الغرفة . كان السكون مطبقاً شديد الوطء ، في تلك الساعة المتأخرة من الليل الشتوي . مرت عيناه على صفوف الكتب والكراسي الخالية والسجادة . ترك القلم يسقط من بين أنامله وقام ، مرتجف الأوصال ، خارجاً من الغرفة الدافئة . كان بملابس نوم صوفية . قصد المطبخ وتناول من زاوية فيه ، صفيحة مليئة بالنفط الأبيض . بهدوء... بهدوء ؛ وأخذ من درج قريب ولاعة ثم اتجه نحو سلم السطح . كانت عيناه تتحركان بقلق ، والعرق يتحبب على جبهته ، وذراعه الممسكة بالصفيحة تهتز فينسكب السائل ويترك أثراً وراءه . صعد السلم ؛ ببطء... ببطء ؛ وفتح باب السطح فهبّ عليه هواء كالثلج . اختض جسده من لسعة البرد الشديد فلفّ ذراعه حول بطنه . كانت السماء عالية سوداء ، والنجوم تتلامع دون اكتراث . انتحى زاوية مظلمة واندس قاعداً فيها على الأرض . مازال يرتجف وأنفاسه تتلاحق . لمّ أعضاء جسمه على بعضها ثم رفع الصفيحة وصبّ النفط على قمة رأسه . تهاطل السائل البارد فبلل ملابسه كلها . تناول الولاعة . مذعوراً... مذعوراً . أشعلها وأدناها من نهاية ثيابه . هبت النيران كعملاق مجنون . صرخ بألم وحرقة وارتياع... تلامعت ألسنة اللهيب وسط الظلام وارتفع خيط دخان أبيض سريع إلى الأعلى...

كان د . عبد الجواد محمود يكتب بحثاً عن الأفكار الفلسفية التي استنبطها «بياجيه» من بحوثه العلمية في الجينات ، حين هاجمه الوحش . هكذا تخيلتُ حادثة انتحار الأستاذ في كلية العلوم بإحراق نفسه ؛ وكنتُ أستعيدها في ذهني وأنا في مجلس الفاتحة ، إذ أن المنتحر من جيراننا ، وبجواري الرسام عبد الإله كمال . أخبرني بأن المتوفى هو أستاذ ابنه غسان ، وأن هذا قد بكى بكاء مرّاً حينما سمع النبأ . كان النبأ مروعاً ،

حين نسمعه وحين نتخيله ؛ وكنتُ ، بغباء ، أضع نفسي ، مرة بعد أخرى ، بدل الأستاذ وأستعيد مشاعر الرعب التي عاشها . قيل إن في عائلتهم عدة حوادث انتحار من هذا النوع . كان عمره سبعاً وأربعين سنة وله ثلاثة أولاد ولا تشغله ، حسب الظاهر ، مشاكل مادية . من أين هبط ، أو قام ، ذلك الوحش الرهيب الذي قضى على حياة خصبة مليئة بالنشاط الإنساني العالي ؟ كنتُ متشائماً منذ أمس ، حين أيقظتني كميلة بُعيد الفجر وهي تبكي بكاءً متقطعاً وتكاد تصرخ أثناء وجودها في المرحاض . فهمتُ السبب حالاً ؛ فالأمر يتكرر بانتظام كل أربعة أسابيع ؛ وبقيت في فراشي أفكر فيما إذا كان من سوء الحظ ، أو حسنه ، أن الطبيعة لا تصغي إلى ندائي ونداء زوجتي بمنحنا مخلوقاً يرمم حياتنا هذه ؟

واتصلتْ بمديرة المدرسة لتمنحها إجازة مرضية . ثم انتقلتْ ، وهي تتجنب النظر في وجهي ، إلى دار أبيها حيث صدر الأم الحنون . وعادة ما يطول هذا الارتماء على الصدر الحنون خمسة أيام أو حوالي ذلك ؛ أتردد فيها على بيت القصابي للاطمئنان على صحة الزوجة التي انقلبت إلى طفلة مدللة . كنت أشعر ببعض الارتياح وأنا بمفردي ، دون مهاترات أو طلبات جنسية في غير وقتها . ولقد أسعدني ، خلال غيابها ، أن أتصل بالأصدقاء وأن نرتب جلسة بوكر عالمية في بيت عبد القادر القريب من محل سكنانا . كنتُ أسعد بوقتي ، فعلاً ، في تلك الجلسات ، بسبب ما يعمله جو اللعب في عواطفي ؛ فمع دخان السكائر وضجة اللاعبين والأحاديث والقهقهات وطعم الويسكي في الفم ، تنتصب أمام مخيلتي صورة آديل وهي تقف على مبعدة مني مشرقة مبتسمة ، تتطلع إليّ... تتطلّع إليّ . وتحرك قلبي هذه الذكرى دائماً ، فألبث أتساءل عن المقاصد والدلالات وما تبقى لي . تلك الليلة حدث الشيء نفسه ، وكنتُ شربت كأسين مترعين من الويسكي فضغطتْ ذكرى آديل على أعصابي وأثر بي أن أتذكر أنها أهملت الاتصال بي كأني خرجت للأبد من حياتها . لم يبدُ عليها أنها قادرة على القسوة هكذا ، ولا

كانت في أخلاقها بوادر النفاق أو الزلفى أو الاصطناع . وكنتُ ، في أوقات كهذه ، أحتاج لمن أتحدث معه ولمن أشكو له .

كاد غسان يبكي ، مرة أخرى ، حين ذكرتُ اسم أستاذه المنتحر ، إلا أنه تماسك وهزّ رأسه مبتعداً بنظره عني . ثم قال إنه كان إنساناً فريداً في إخلاصه للدرس واهتمامه بالطلاب ، وأنه الوحيد الذي كان يحترم تلاميذه ويجيب إجابات مفهومة على أسئلتهم .

هدأته وكان بودي أن أسأله عن حياته وعن والدته التي هجرته صغيراً ، غير أني تراجعت حين رأيت ظلمة عينيه وكآبته الثقيلة .

١٩٧٥/٣/٣١

دخل عليّ وأنا أشتغل ، بعد أن طرق الباب . رفعتُ نظري إليه . حسناً ، إنه يرتدي ملابس جيدة منذ حين وأمارات الصحة تبدو جلية على وجهه ، إلا إنه لايزال مخبولاً تثيره أمور تافهة لا أفهمها جيداً . كان يرتجف تقريباً ، وهو يتحدث عن غياب أبي فتحية عن الدائرة منذ أكثر من ساعة ، فأجبته بأني أنا الذي منحته إذناً بإجازة مؤقتة هذا الصباح ، يقضي فيها عملاً شخصياً ، مهماً وطارئاً ؛ فازداد ارتجافه وصارت أجفانه ترفّ بسرعة وهو يهتف بصوت أعلى من المعتاد ، بأنه هو لم يعطه إجازة ولا يسمح لأحد ، باعتباره الوحيد المسؤول عن الإدارة ، بأن يتجاوزه ويمنح المستخدمين إجازات مؤقتة أو غير مؤقتة . كانت الأعمال كثيرة ذلك اليوم ، ولم أكن أملك القدرة على الغضب ، فعدتُ أشتغل دون أن أجيبه ، وكان ذلك آخر ما يتحمله . سمعته يخرج ويصفق الباب وراءه ببعض الشدة ؛ ومنذ ذلك الوقت أُعلنت بيننا حرب خفية وعلنية . وبعد أن عاد أبو فتحية من مشواره القصير أعلمني باستخذاء أن مسؤول الإدارة سليمان فتح الله قدم للمدير العام تقريراً عنه فغُرِّم راتب يومين . بيّنت له أن هذا هو أقل ما يستحق من عقاب ، لأنه يستغل صبري على تصرفاته استغلالاً سيئاً ؛ فكاد يخر على

الأرض متباكياً وهو يحلف بأغلظ الأيمان أنه سارع كالبرق لاستلام مواد البناء بدلاً من فتحية لأنها سافرت إلى الصويرة لقبض مبالغ عن إرثها وأنه... وأنه ؛ فطلبت منه الخروج فقد صدّع رأسي .

كانت كميلة في بيت أهلها ، مرة أخرى ، منذ يومين ؛ وكنت أتمتع بوحدتي على أحسن وجه . أطعم نفسي وأقرأ وأستلقي أينما أشاء وأستمع إلى الموسيقى والأغاني التي أحب وأتأمل بهدوء تام . نوّه أبو فتحية بوجوب زيارتهم ورؤية البناء ، وللتأكد بنفسي بأنه لا يكذب ولا يبالغ أبداً ؛ لكنه استمهلني حتى تعود فتحية . أغراني ، في كلامه المبطن ، تلميح لعين غامض ؛ وقررت ، آنذاك ، أن أنتهز فرصة غياب زوجتي عن البيت كي أزورهم ؛ إلا أني لم أفعل .

ما هو الفراغ وما هو الامتلاء في الحياة ؟

يحيرني ، دون إثارة ، هذا السؤال ؛ فأنا ، مثلاً ، موظف مقتول الوقت منذ السابعة صباحاً حتى الثالثة ظهراً ؛ وأنا مهموم بأموري المالية وبأمور زوجتي التي لا تحمل مني ، وبعلاقاتي العرجاء مع أخي وأمي ووالديّ زوجتي ، ولي أصدقاء وأنا أبحث ، بحرقة ، عن الحب والحنان ؛ لكنني ، أغلب الأحيان ، أشعر وأنا أضع رأسي على المخدة لأنام أخيراً ، بأني إنسان فارغ الحياة وأدور في خلاء مطلق .

١٩٧٥/٤/١٥

خابرتني كميلة لتعلن لي عدم حضورها إلى البيت للغداء معي . قالت إن إحدى زميلاتها دعت المعلمات إلى أكلة تبولة في المدرسة . طلبتُ من أبي فتحية أن يجلب لي صحن دجاج على تمن من المطعم القريب ؛ ووعدته أن أصحبه معي إلى بيتهم في « حي العامل » وأن أطّلع على البناء والمرحلة التي وصل إليها . كنت بشوق ، غير معترف به ، لرؤية تلك الأرملة الشابة الطموح .

خرجنا بعد الثالثة مساءً وكان الجو ، لحسن الحظ ، ربيعياً ساحراً والطريق إلى حي العامل بدا لي جميلاً متنوع المناظر . كانوا يسكنون داراً صغيرة تحتوي على غرفتين . أجلسوني في غرفة فتحية وكانت حسنة الترتيب معطرة الجو . دخلتْ عليّ فتحية بعد ذلك وهي ترتدي فستاناً واسعاً يخفي كل شيء فيها . شربتُ الشاي معهم بحبور حقيقي لم أعرف مأتاه ، ثم خرجنا نتمشى قاصدين الاطلاع على البناء الذي لا يبعد إلا عشرات الأمتار عن الدار . لم تتوقف فتحية عن الكلام منذ تبادلنا التحية . شرحتْ لي كل الظروف التي أحاطت بالبناء ، منذ شرائها الأرض ونشوء الفكرة لديها عن بناء سوق وغرف فوقه وحاجة المنطقة لذلك ، حتى المتاعب التي لاقتها في سبيل استحصال إجازة البناء ثم القرض ومشاكله... الخ . كان شعرها الأسود المحنى طويلاً جزلاً ، تصل خصلاته إلى ما تحت نهديها ويلتف حول كتفيها ووجهها ؛ وكانت عيناها تتحركان بنظرات سريعة تلقيها على ما حولها . لبستْ عباءتها قبل أن نخرج ، وبقيت تفتحها ، بطريقتها الخاصة ، لتكشف لي عن صدرها العالي بين الحين والآخر .

كان البناء عبارة عن أعمدة قائمة ، هي أساس الدكاكين التي ستشكل في المستقبل (أسواق الأفراح) . وقفنا نتأمل بإعجاب هذه الاسطوانات الإسمنتية الصماء ؛ كانت حلماً لأولئك الناس ، على وشك التحقق . قالت إنها ستبني فوق الدكاكين شقة لوالديها ولها ، فإذا أسعفها الحظ فستضيف غرفة أو شقة أخرى تعرضهما للإيجار . كان صوتها مليئاً بنغمة غنج لا أدري من أين جاءته ؛ وكانت ملامحها دقيقة جداً تلفت النظر ؛ ففمها ، رغم صغره ، ذو شفتين مكتنزتين وأنفها رفيع قصير ؛ أما عيناها فكانتا تملآن الوجه الأسمر وتمنحانه نوراً وعزماً وبهجة .

عدت حوالي الخامسة مساءً ولم تكن كميلة في البيت . استحممتُ ثم خطر لي أن أزور والدتي . كانت ترتاح في فراشها . تجلى عليها التشنج حالما رأتني . آلمني ذلك . سألتها عن صحتها وصحة عبد الباري وأحواله في

المعمل ، فكانت إجاباتها مقتضبة لا تعني شيئاً . زاد ذاك من إزعاجي ، وندمتُ لقيامي بالزيارة ؛ ثم فكرت أن هذه المخلوقة الغريبة الأطوار يجب أن تُنبه إلى غرابة أطوارها مهما تكن صفتها العائلية . سألتها بهدوء مبالغ فيه... هل تعتقد بأني لستُ ابنها ؟ بهتت ونظرتْ إليّ لأول مرة ، فأعدت عليها السؤال مضيفاً بأن تصرفاتها اللامعقولة توحي بأنها تعتقد هذا الاعتقاد الشاذ...

ـ... ولا أدري هل أن سبب ذلك هو أن الله سبحانه وتعالى أراد لي أن أكون بخلقة تختلف عن خلقة أبي وأخي وأولاد أعمامي ، أم أن ضميرك لايزال يعذبك لأنك تصرفتِ بأموال لي وضعت أمانة بيدك وأنكِ تنزعجين من رؤيتي لأني أذكرك بذلك ؟

اصفرّ وجهها فارتحت لذلك وأردت أن أستمر في تأنيبها لولا دخول ثريا تحمل صينية الشاي والكعك والماء . قمتُ حالاً وخرجتُ ؛ كنتُ بين المنزعج والنادم . ما جدوى تقريع عجوز على حافة الحياة ؟

لم ترجع كميلة إلا بعد أن جاوزت الساعة الثامنة والنصف ؛ فلما رأت التذمر على قسماتي ثارت ثائرتها وأخذت تهتف بأنها المرة الأولى التي تخرج ترفه فيها عن نفسها منذ سنوات ، فإذا تأخرت قليلاً ثار الأفندي في وجهها واستنكر تصرفها كأنها أجرمت بحقه . لم أكن قد فُهت بكلمة بل كنت أراقبها في كلامها وصراخها وألاحظ كيف تتحرك العضلات في وجهها وطريقتها في تلفظ بعض الكلمات .

وإذ جلستُ بمفردي أستمع إلى بعض الأغاني الشجية من الراديو ، والوقت متأخر من الليل ، خطر لي أن هنالك سراً يحيطني ويجعل الأقربين إليّ ينفرون مني ، وأن في داخلي ، تتكون وتنمو ، بذرة شعور بغيض بأني مرفوض وغير مقبول .

أحس خطراً يتهددني ، ولا يمكن أن أحدد الجهة التي قد يهاجمني منها . وحين اندسستُ في السرير ، تكومتُ على جانب ، متصلب الجسم

متوتر العضلات والأعصاب ، أخشى أن تمسني هذه المخلوقة التي ترقد ، دون سبب ، على فراش نومي .

١٩٧٥/٥/٢١

أي عضو من أعضاء الجسم في الإنسان ، يشعره باقتراب الكارثة ؟ أهو العقل... أم القلب... أم الأعصاب... أم العينان ؟

إنها ، كلها ، تكوينات من اللحم والغضاريف والأقنية والشرايين ، تجري فيها الدماء باستمرار طبعاً ، ولكن... لم يقل أحد إنها تحتوي على رادار أو شعيرات حساسة تنبئ بالخطر . ما هذا الأمر إذن ؟

قال لي غسان ، دون أن يوجه نظره إليّ ، إنه سيرسب بالتأكيد في الامتحان النهائي هذه السنة ولا يدري لماذا سيشترك فيه . أوصلته ، دون تعليق أو تشجيع ؛ شعرتُ معه أنا أيضاً ، أن لا مناص من ذلك . وحين قطع عليّ سليمان فتح الله ، مرة أخرى ، عملي وأخذ يناقشني بوجوب توقيعه على المراسلات الصادرة من الوزارة باعتباره مدير الإدارة ومسؤول الأمن فيها ، تملكني إحساس بأن هنالك زوبعة في الأفق ، لا علم لي بنوعها أو حجمها ، لكن غبارها يبين من بعيد .

ثم إني هذا المساء ، عندما بدا على تصرفات زوجتي أنها تروم أن تحاول التلقيح مرة أخرى وليست الأخيرة لم أقلق ولم أتطير ؛ فالأمر مألوف ونحن نمارسه رغم الملاسنات والمعارك والاعتداءات على الحقوق . وكنا تركنا ، منذ مدة ، مقدمة المضاجعة الحبية المثالية وتمسكنا بالضروري من العملية . ركّزنا علي الإثارة ومقتضياتها ، وعلى الإدخال العميق واختيار المواعيد بدقة ؛ وهكذا كان ، فالموعد مضبوط والإثارة بدأتها كميلة بالتعري ثم الارتماء على الفراش والتطلع إليّ بحذر . أطفأتُ الضوء ، وكان الشباك مفتوحاً ، فالجو يميل إلى الحرارة ؛ ثم رميتُ أخر ما تبقى عليّ من ملابس والتحقت بها . لم أكن مثاراً ، لم يؤثر فيّ منظر جسدها العاري ، فقد

اعتدت عليه ولم تبعث نظراتها المتيقظة فيّ غير التوجس ، فالتصقتُ بها عسى أن تأتي الإثارة من تماس جسدينا . أخذتُ أقبّل نهديها وأداعبها بخفة ، ثم بدا لها ، بعد فترة ، فلامست عضوي بأصابعها ملامسة خفيفة مثيرة سرت فيه إثرها الحرارة ، فانقلبتُ عليها ففتحت ساقيها على سعتهما . كانت مبللة كما يجب فاتحدنا ببعضنا ورحنا نتساعد على الإيلاج العميق . كان العمل جميلاً ، يدغدغ كل ما في الجسد من مسامات وأوتار ، وخطر لي أن الطبيعة أبدعت حقاً في تدبير هذا الاتحاد المشوق ، بين الذكر والأنثى ، من عملية بسيطة تصل في بساطتها إلى حد البلادة . ووجب بعد حين أن ننتهي ، فقد كادت النهاية عندها أن تبدأ ، غير أني لم أكترث لها ، فقد توقف في ركن من أركاني العضوية ، عامل مساعد أجهل ماهيته ، فبقيتُ معلقاً ومكبوساً بين بداية بدأتْ ونهاية لا تأتي . صارت تتنهد أول الأمر ، ثم أخذ تنهدها يرتفع ، ويزداد ارتفاعه ؛ بعد ذلك راحت تهذي بكلام غير مفهوم وتدفع بحوضها وتديره بحركات عجيبة ؛ وأنا أريد أن أنهي هذه القضية المستعصية دون جدوى . تسايل العرق سيلاناً من جسدينا المشتبكين الهائجين المتحركين بعنف ، وساورني تعب في قلبي وفخذيَ وعضلات ظهري . كانت قد وصلتْ مرحلة الصراخ ، وكان ذلك أمراً جديداً خشيت أن يتطور ويحدث لنا ما لا تحمد عقباه ، فأخذت أعصرها بين فخذيَ وأسحب نحوي ردفيها وألتصق بها التصاقاً شديداً وأنا أدفع نفسي فيها بقوة ويأس . آنذاك ، في تلك الثواني العسيرة ، تملكني شعور مبهم باقتراب الكارثة . لم يكن لي الحق في ذلك ، فقد كنت في قمة اللذة الجسدية وأنا على وشك إكمال عملية التخصيب ، إلا أن ذلك الشعور اللعين ركبني كالمطية وسيطر على ذهني فانطفأ وبدأ التلاشي والانهيار ؛ ولم يعد أمامي ، بعد دقيقة أو دقيقتين ، سوى أن أجد نفسي ، متعرقاً لاهثاً ، وأنا أنسحب منها . كان فعلاً لاإرادياً صرفاً ، فليس هناك غبي أحمق يمكن أن يخطر له القيام بهذه الفعلة ؛ ولأن الأمر كان على هذا المنوال ، فقد تهجست ، ليس

بدون خوف ، ألا مردّ للكارثة المقبلة . كنتُ في حالة مزرية ، لم يخفف منها سوى أن كميلة ، ببلوغها نشوة غير معتادة ، لم تنتبه لما حصل إلا بعد حين ؛ وكانت ثورتها جانبية وبدون حماس .

قرأت رواية «دكتور جيڤاكو» للمرة الثانية منذ أيام وتذكرت مشاعري أثناء القراءة وبعد الانتهاء منها . تذكرتها الآن وأنا جالس في الصالة بمفردي أكتب هذه الصفحات .

هزتني علاقة جيڤاكو مع لارا ، وأبكتني لقاءاتهما السعيدة ، ثم صرت أشعر شعوراً حقيقياً بنذر الشر تدور حول الحبيبين وحول حياتي أنا بالذات . كنت مفزوعاً وأنا أقرأ الصفحات الأخيرة . يا للأمر الغريب!

كانت الأحداث المشؤومة ، كنتُ أشعر ، تنتظرني أنا ، وهي تنقض على ذينك البائسين... جيڤاكو ولارا .

١٩٧٥/٦/١٥

اليوم أكملت الثالثة والأربعين من عمري . مرّ اليوم هادئاً على غير العادة . لم أرَ أحداً في طريقي إلى الدائرة . لم يدخل عليَ أحد أثناء عملي في المكتب غير أبي فتحية بوجهه غير الصبوح . لم نلتقِ أنا وزوجتي إلا عصراً ، وكانت مشغولة بتوعك والدها فذهبتْ تعوده ومكثت هناك حتى العاشرة مساءً . لم تبالِ بأن تسألني ، هل أطعمتُ نفسي وأين وكيف . لا ظهراً ولا مساءً ؛ اهتمام يلفت النظر! ولاحظتُ أننا نتبادل الكلام دن أن ينظر أحدنا إلى الآخر .

جلستُ ، بعد أن رقدتْ ، أستمع إلى الأخبار وبعض الأغاني . النوم لا يأتيني بسهولة ولا في وقت مبكر ، لذلك أسلي نفسي بكتابة هذا الهذر الذي أحس ، دون قابلية على البرهنة ، بأنه يجعلني ، مع طول الممارسة ، قادراً على الرؤية أوضح ومن زاوية أصح . غير أني أتساءل ؛ بعد هذا ، وما الفائدة... آخر الأمر ؟

١٩٧٥/٧/٢٣

الحر شديد بدرجة لابد معها أن يثير الأعصاب ؛ وخاصة الضعيفة منها ، والأشد ضعفاً بالطبع ، ومنها أعصاب سليمان فتح الله . جننه ، مرة أخرى ، أبو فتحية بخروجه من الدائرة دون إذنه ، ذاهباً لتعقّب أشغال البناء ؛ وبدأتُ أسائل نفسي عما إذا كان هذا الأعرج يهجل وراء فتحية أم أبيها ؟

لم أتدخل لإيقاف احتجاجاته المتكررة ، فمسؤول الأمن هذا يقصد إثارتي من أجل هدف خفي يسعى إليه منذ زمن . هدأته بشكل من الأشكال وأنا منزعج ، فجلس ينفث دخان سيكارته وينظر إلى الشارع من خلال الشباك ، مما زاد في انزعاجي . بدا عليه كأنه يتنازل بكرم عن حقوقه نحوي!

١٩٧٥/٨/٣٠

لا شيء جديداً ؛ كل شيء حسن إذن .

صادفت غسان صباحاً ؛ كان يسير بتثاقل قرب بيتهم . ناديته . وقف قرب السيارة يبتسم بحزن . قال إنه رسب في درسين وسيعيد الامتحان في نهاية أيلول . شجعته وأردت أن أستوضح منه عن أموره الخاصة ، لكنه كان بعيداً عن الاستجابة لمثل هذه الأسئلة .

خابرني عبد القادر ليحثني على الاشتراك في لعبة بوكر بعد يومين . رفضت العرض . كنتُ خالي الوفاض منذ زمن بعيد . أصر فكررت رفضي ، ولم يهزني توسله وحديثه عن الضجر والروتين في حياتنا . كنت أخشى مهانة الإفلاس في عائلة لا رحمة فيها لمن يكون في هذه الحال . اتصل بعد ذلك خالد وأعاد عليَّ الدعوة . سألته... هل وقعوا في مرض البوكر ؟ ضحك وألح أن آتي ووعد أن يقرضني ما أشاء إذا احتجت إلى قرض . أجبته سأفكر . انتبهت إلى أمر مستتر هو أني كنت أخشى السهر خارج البيت

والتأخر في العودة تجنباً لغضب كميلة زوجتي! وكنت أخفي عن نفسي ذلك! ثم بدهني أنها تخرج وتدخل وتتأخر وتأتي أو لا تأتي إلى البيت ، على هواها تماماً . أغلب الأحيان ، لم تعد تخبرني مقدماً عن أي شيء . لكنني ، مع كل هذا ، لن أذهب لأقامر ، فالمفلسون لا يقامرون .

١٩٧٥/١٠/١٣

قررت كميلة ، بمفردها ، أن تشتري تلفزيوناً ملوناً سعة ٢٧ ، تضعه في الصالة وتتفرج ، بمفردها أيضاً ، على ما يعرض من برامج . لم أعارض بالطبع وانتقلتُ إلى زاوية مهملة أخرى في الطابق الأعلى من المشتمل ، أضع فيها حاجياتي التي لا تهم أحداً وأنزوي حين لا أعود أهتم بأحد إلا بنفسي . وهكذا كان .

سرني أن أعلم من غسان أنه نجح إلى الصف الثاني وأن الدروس صارت مألوفة بالنسبة إليه ومفهومة إلى حد ما . أوصلته هو وزوجة أبيه سندس التي سمنت كثيراً بعد ولادتين ، إلا أن وجهها بقي مريحاً أنيساً . لاحظتُ اهتمام غسان بها اهتماماً يفوق العادة ، يمتزج بما بدا لي عاطفة حارة نحوها . لعلها تجاوزت تقاليد الكراهية ، فَرَعتْه وساعدته ، بمحبة ، في طفولته كما تفعل الأم الحقيقية .

أقرأ كتباً متفرقة لا يجمعها جامع ، في البيت وفي المكتب . قرأت مؤخراً رواية «الغريب» لألبير كامو . يقال إنها تعتبر علامة لامعة في الأدب الفرنسي المعاصر ، وربما العالمي . كانت ممتعة وكئيبة . كدت أرميها جانباً حين كان البطل يناقش القس في قضاياه ، فقد بلغت كآبتها حداً عالياً . أعتقد أني أنهيتها أول أمس في المكتب وأن أبا فتحية دخل عليَّ ، ليستأذن بالانصراف ربما ، فطردته وطلبت منه أن يتركني أرتاح منه ومن أمثاله . كنتُ متوتراً ، أحاول أن أفهم سر توتري العصبي والفكري هذا . كان سببه أمراً ما في رواية «الغريب» لم يرحني ولم أعرف ما هو . إن هنالك

عنصراً يجمع بين سانين ، الساكن في روحي ، وبين ميرسو ؛ غير أن الأول أكثر حيوية وإنسانية وأقدر على الإقناع من الثاني ؛ إلا أن الاثنين ناقصان ، فنياً ، نقصاً معيباً لا يطاق ؛ فلا الكاتب الروسي ولا الفرنسي بيّنا كيف ولا بأية طريقة وعبر أي نوع من التجارب الشخصية وردود الفعل ، تشكلت ونُحتت دواخل هذين البطلين الباهرين ، ولا كيف تسنى لهما الوصول إلى هذا المستوى الإنساني الخاص جداً ؛ ففي اعتقادي ، أن القضية المركزية في هذه الشؤون ، هي السبيل والكيفية السلوكية ، لا النتائج وما بعدها .

ظهر اليوم عملناها دون مقدمات . كنتُ أضطجع مسترخياً في الصالة بعد الغداء والجو كان دافئاً نسبياً ، حينما خرجتْ كميلة من الحمام على حين غرة ، عارية إلا من لباسها الصغير . كانت قد امتلأت قليلاً وصارت مكوراتها أكثر حركة وإثارة للغريزة ؛ كما كبر صدرها ونهداها وعلا بطنها بعض الشيء . وقفتْ أمامي كأنها لا تراني ، تتطلع إلى ما وراء الشباك وهي تنشّف شعرها المبلل . سحبتها نحوي فصرخت صرخة دهشة مفتعلة زادت في رغبتي فيها .

أدركتُ أني لا يجب ، هذه الأيام ، وفي مناسبات كهذه ، أن أتوقف لأحلل وأفكر وأتصبب عرقاً أمام جسد أنثى تشتهي الحركة والإدخال ، وإلا فسد كل شيء .

١٩٧٥/١١/١٧

جلب لي أبو فتحية لفافة حلويات متنوعة أرسلتها ابنته لي . قال إنها بمناسبة فرحتها بإكمال بناء الأسواق وتأجير أول دكان فيه ؛ وأضاف أنها أحبت أن تأتي بنفسها لتقديم الحلوى لكنها خجلت وهي تريد أن أفرح معهم في هذا اليوم وفي الأيام المقبلة . شكرته .

كنتُ مكتئباً في هذا الصباح الممطر المدلهم . رأيت حلماً أسود تبدّى لي فيه وجه آديل مغطى بالدموع وشخص مجهول يمسح عليه فتختفي ملامح

الوجه وأهتز عاطفياً وأصرخ وأتوسل متضرعاً كي لا يستمر ذلك المجهول القاسي في محو الوجه الجميل . استيقظتُ ولبثتُ راقداً مبلل العينين . كان الضوء رمادياً وكميلة نائمة بسكون . لم أقم ورحتُ أستعيد صورة وجه آديل مرة بعد أخرى . خطر لي أنها كانت حادثاً فريداً في حياتي لا أعتقد أنه سيتكرر . غمني ذلك ، وتساءلت عن سبب عدم تفاهمنا ، آنذاك ، على الزواج ؛ ولم أجد جواباً ، فهذه أمور لا جواب عليها .

بقيتُ على كآبتي طوال النهار ؛ وزاد منها سوء تصرفات كميلة معي . لا أدري كيف أصف هذه التصرفات بالضبط ؛ ولكنها ، في الأغلب ، غير ودية وذات مظهر عدائي مهين . فحين لاحظتُ ، أثناء ما كنا في السيارة في طريقنا إلى الدائرة ، أن الوقود قلّ فيها ومن المستحسن التزود به قبل أن نقع في ورطة ، أجابت بانزعاج لا مبرر له بأن عليَ أن أهتم بذلك مادمتُ أستعملها ليل نهار . أجبتها بأنها على صواب ، ولم أزد . كنتُ ، في الحقيقة ، أخفي غضبي وحقدي وكآبتي وتعاستي في مكان ما من ذاتي ؛ وكنتُ علي يقين بأني أملأ هذا المكان بمكونات مدمرة ، لابد أن تنطلق في زمان قادم .

سمعت قبل قليل في الراديو قطعة موسيقية كلاسيكية لم أعرف اسم مؤلفها ؛ تجاوبتْ معي وحدثتني عن قصتي وحياتي وأحلامي ، ياالله... كدتُ أبكي وأنا ملتم على نفسي في الكرسي الغليظ ، أضع في حضني قطعة الخشب وعليها هذه الورقة البيضاء . ما علاقة دواخلي وأفكاري وماضيَ بهذه الأنغام ؟ وكيف تسنى لمؤلف موسيقي ، لا أعرفه ولا يعرفني ، أن يلمس أوتاراً خفية مني هكذا ، وأن يكون لي صديقاً مخلصاً ، يبكيني بحديثه عني ؟

أردت أن أقوم وأنام ، لكني مكثتُ جالساً ، ضائع النظرات . هل يمكننا التساؤل... إلى أي حد يستطيع الإنسان أن يتحمل معاناة ذاته الحقيقية وشعوره بالانسحاق التدريجي ؟

أم أن هذا التساؤل غير مسموح به ؛ ويجب أن يُصاغ بطريقة أخرى...

هل في الإنسان مادة غير مادية يمكن أن تُسحق أو تُداس ، وإلى أية درجة من الضعف وتقبل المهانة باستطاعة هذا الإنسان أن يصل ؟

ثم يأتي السؤال الأكبر بعدئذ... وبعد ذلك ؟

١٩٧٥/١٢/٢٣

لم أعد إلى البيت اليوم بعد الظهر . تغديت بما جلبه لي أبو فتحية من المطعم القريب ثم انصرفتُ بعد انتهاء الدوام لأقوم بجولة طويلة في شوارع بغداد . كنتُ منشغل الخاطر ؛ داخلاً ، منذ مساء أمس ، في دوامة من الذهول المستطيل . استقر بي المقام في كازينو بلقيس على شاطئ النهر ، فجلستُ في زاوية أتملى من منظر الشمس تغيب . لم أنسَ ما حدث أمس ؛ بذلتُ جهدي لكي أعتبره حدثاً تافهاً وسخيفاً لا يمكن أن يمسني ، إلا أن عضواً في جسمي غير مرئي ، رفض كل هذه المرافعات ؛ ولبثتُ ، مرمياً على طرف الحياة المعيشة ، أتحرك وأتصرف مثل دمية تقلد البشر . كانت ، أمس قبل الغداء ، قد أخبرتني بأن لديها موعداً مع طبيب مختص بالأمراض النسائية والولادة . وذلك في الساعة السابعة والنصف مساءً وأن عليَ أن أرافقها . كانت تتكلم بلهجة عدائية مألوفة ، فلم أهتم للأمر كثيراً وأخذته على محمل الخفة ؛ فنوبة خبال الفحوصات تأتيها بين آونة وأخرى ، وحسن جداً أن تأتيها هذا اليوم ، فأنا في صحة جيدة وبالي مرتاح .

قام الطبيب بالإجراءات المعتادة وفحص بدقة التقارير السابقة وصور الأشعة والدواء المقوي ، وشرحنا له بفمنا ما أراد أن يعرفه عنا ؛ ثم سكتنا وانتظرنا أن يتفوه الطبيب المختص بما يشفي الغليل . غير أنه ، بعد فترة صمت ، ابتسم برخاوة وأفادنا بأن كل ما قيل لنا صحيح ولا شائبة فيه وأن المفروض أن تكون مادتي المنوية قد قويت وأضحت قادرة على إتمام عملية التخصيب . لكن... وعدنا لانتظار كلام جديد .

ـــ... ولكن الصدفة في هذه الأمور تلعب دوراً كبيراً ولا راد لحكمها ، ويجب الاستمرار في المحاولة والانتظار .

ـ الانتظار إلى متى يا دكتور ، والعمر ينقضي ولم تتبق لنا إلا سنوات قليلة .

ـ إلا أن الأمر هكذا يا سيدتي .

ـ قل لي بصراحة يا دكتور ؛ أرجوك ، قل لي بصراحة ، هل هناك فائدة ترجى من هذا الرجل ؟

أخفض الطبيب ، ذو السلوك الحسن ، نظره وأخذ يعبث بقلم يمسكه بين أصابعه :

ـ سيدتي الكريمة ، أنا أتحدث إليكما استناداً لمعطيات علمية هي حصيلة فحوصات كثيرة ومتقنة قمتما بها خلال السنوات الماضية ، ولست أملك ، للأسف ، ما أضيفه إلى ما قلته لكما في التو ، إلا نصيحة أخوية أرجو أن تسمحي لي بالإفصاح عنها ؛ فالأمر ، في كل الأحوال ، لا ينقضي بالشدة ولا بالتوتر ، بل أن العكس هو الصحيح ؛ فالطرفان ، أنتما ، اللذان يملكان كل شيء إلا الحنان والتعاطف ومحبة الآخر ، لا يمكنهما أن يصلا إلى نتيجة إيجابية ؛ لأن النتيجة الإيجابية ، في هذه الحال ، هي قمة الاتحاد المبني على امتزاج لا جسدين حسب بل نفسين رضيتين منفتحتين على الحب والفناء في الآخر . لا تظنا بي سوءاً ، فلستُ أديباً . كلا ؛ العلم هو ما أحدثكما به . وأنتِ يا سيدتي ، اسمحي لي ، فأنا أكثر تجربة منك...

ثم سكت الطبيب ولم يكمل رغم انتظارنا . أكان متأثراً بما يقول أكثر مما يجب أم أخذته ذكرى عابرة مؤلمة ؟ لم أدرِ ؛ ولكننا خرجنا بعد ذلك ، دون تطويل . كانت مضطربة ، صامتة طوال الطريق ، وكنت أسائل نفسي إلى متى سيطول كل هذا السخف ؟

منذ ذلك الحين أخذتني نوبة الذهول هذه وسيطرت عليّ . لم أكن متألماً بشدة ولا حزيناً ، ولكن أفكاراً كالطيور السوداء ، كانت تحلق في سماء روحي الملبدة ؛ فالإنسان يتواجه مع مشاكله في الحياة ، عادة ، بما يملك من صبر وقابلية على المناورة ؛ أما إذا صارت المشكلة هي الحياة نفسها ، فما نفع الصبر والمناورات ؟

نمتُ في الصالة تلك الليلة ، على أريكة غير مريحة قرب الشباك . لم تقل شيئاً وعشنا مثل شبحين أخرسين . سعيتُ ، أحياناً ، لتحليل شخصيتها كي يمكنني تفادي ما أتوقعه منها من مصاعب ، ولم أفلح كثيراً ؛ فهذه امرأة تهين زوجها ، بخفة ، أمام شخص غريب ، دع أنه طبيب ، ولا يعتورها الخجل أو تعتذر أو تبرر عملها . تصمت فقط وتقلب وجهها دلالة الامتعاض ؛ وهي تهينه في أكثر الأمور حساسية للرجل ، ثم تطلب ، ستطلب ، منه بعد حين أن يمارس معها فعاليته المهانة! أليس هذا ارتباكاً في التكوين الخلقي وفي فهم منطق الحياة ؟ عدت من جولتي في الشوارع حوالي الخامسة ؛ وكنتُ متعباً ، فقد تعودت أن أرتاح بعد الأكل وأغتسل وأتمدد وأنعزل ؛ وهاأنذا طريد لغير سبب ، طردتُ نفسي من حياتي ، كأني أجد لذة في هذا العمل! أو كأني ، ربما ، أنتظر أن يحس أحد بفقداني ، وهذا أسوأ التفاسير .

اضطجعت ، مع ذلك ، ونمت ؛ وحين استيقظت كانت الساعة تقترب من الثامنة والليل هبط والبرد مزعج . لم يكن في البيت أحد ، مما أراحني . غسلتُ وجهي وأكلت طعاماً خفيفاً ثم جلست قرب المدفأة . كانت الأضواء مشعلة في دار أخي عبد الباري . إنهم يتحلقون أمام الشاشة الصغيرة ويعيشون سعادتهم الفارغة ، وليس هذا بالشيء القليل .

متى سيكون بمقدوري أن أكتشف نوع سعادتي ؟

١٩٧٥/١٢/٢٤

لعلها ، في عيد ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام ، أرادت أن يلد لنا ، بعد تسعة شهور ، مسيح آخر! فجاءتني إلى الصالة حيث أنام منذ ليلتين وركعت بجواري . كنتُ شبه غافٍ بعد أن كتبتُ ما كتبت وقرأت قليلاً . همستْ بكلمات لم أميز معناها جيداً ثم قبَلتني في وجهي عدة مرات . فهمتُ ، بشكل مشوّش ، أنها تشير إلى النوم الذي لا يطاوعها بمفردها في

السرير الواسع . ثم إنها رفعتْ الغطاء عني واندست حذائي على الأريكة الضيقة . أحسستُ بها عارية تحت ثوب نومها الرقيق . رمت بنهديها على وجهي وألصقتْ وسطها الحار على بطني ، ثم مدت ذراعاً ورفعت عني قماش البيجامة وراحت تداعب المواطن الحساسة . كانت رائحتها مثيرة كالعادة وملمس جسمها وحناياها المكتنزة الدافئة تبعث على الدوار . عصرتها بين ذراعيّ فأنّت وتلوت بينهما . سمعتها ، بإبهام ، تحكي عن الاعتذار وعن انفلات الأعصاب والقلق وعدم تحمل الأوضاع ؛ وكنتُ أتهيأ لإجلاسها فوقي دون اكتراث لما تتفوه به .

بعض الأحداث في حياة الإنسان ، حدث أو حدثين أو أكثر ، لا يمكن مطلقاً القبول بأعذار أو أسباب لتخفيف وقعها على النفس ؛ فالطعنة القاسية كانت مؤلمة ، وكل ما نهذي به بعد ذلك لا يغيّر من هذه الحقيقة شيئاً . قد يعمل الزمان عمله في تخفيف الآثار ، لكن هذا لا علاقة له بالقضية الأساسية ؛ فتغيير الماضي أو تبديله كلياً أو محوه من الوجود ، أمر عابث وبليد جداً .

لم تحب أن نكمل العمل الجنسي وهي تجلس فوق وسطي ، رغم تمتعها بالوضع الجديد ؛ فهي ترى أن الإدخال غير مؤثر وأن وصول المواد المنوية ليس مضموناً ، فقمنا وأقعت أمامي كما تفضل فدخلتها بعمق وشدة آلمتها قليلاً وزادت من لذتها ؛ وكنت ، على الضوء الخافت ، أرى ردفيها واسعين منفرشين وظهرها مقوساً .

وهكذا عدنا نتابع المحاولات دون كلل ، كما نصحنا الطبيب ذو السلوك الحسن .

۱۹۷٥/۱۲/۲۸ - ۱۹۷٦/۱/۱

ناداني السيد المدير العام بعد وصولي إلى المكتب بدقائق . كان إنساناً محترماً رزيناً ، إلا أن الحرج بدا واضحاً عليه . طلب مني ، برقة

زائدة ، أن أعرض الرسائل والمكاتبات التي تطبع في القلم تحت إشرافي ، على السيد مسؤول الأمن في الدائرة سليمان فتح الله ، قبل أن أوقعها . ثم نظر إليَّ نظرة يمكن وصفها بأنها أخوية وزاد قائلاً إنه يعلم بأني ذو إدراك واسع وبأنه يعتمد على هذه الصفة فيَّ كي أفهم معنى ما طلبه مني . هززت رأسي مؤيداً وموافقاً ثم استأذنت بالانصراف .

لم تكن المسألة محرجة لي كما كانت ، حسب ظني ، بالنسبة للسيد المدير العام ؛ فالمعادلة التي توصلتُ إليها بعد عودتي إلى مكتبي وشربي لقدح الشاي هو أن الوظيفة الحكومية لا علاقة لها بالكرامة الشخصية ؛ أعني أن تكون موظفاً ، ذلك لا يساوي أن تكون إنساناً ذا كرامة ، والعكس بالعكس ؛ فإذا جرى العبث بالوظائف الحكومية هكذا اتباعاً لمشيئة منحرفة ، فهذا لا يجب ، ولا يمكن ، أن ينال من شخص الموظف . لذلك وجدتُ أن الأمر تافه ، وهو لا يمسني ولستُ مكترثاً به قيد أنملة .

لكن هذه المعادلة الصعبة لم ترضِ أبا فتحية ولا جحفل الموظفين غير المرئيين ؛ فأخذت تصلني أفكار غريبة وآراء تمس الكبرياء والإباء الوطني وغير ذلك ، ينقلها إليَّ أبو فتحية متظاهراً مرة بالاستكانة ومرة بالرفض والشموخ ؛ وكان ذلك مصدر أنس لي ومسرة . كنت مشغول الذهن ، في الحقيقة ، بمشروع حفلة رأس السنة الذي عرضه عليَّ الأصدقاء عبد القادر وخالد والآخرون ؛ ولم يخطر لي أن كميلة اتفقت وثريا على حضور الحفلة التي يقيمها نادي المنصور ، وأنهما اشترتا البطاقات وعملتا الترتيبات اللازمة لكي نقضي السهرة سوياً للمرة الأولى ؛ وكان الطريف في هذا الموضوع القديم ، هو أن ابنة أخي نجية كانت على رأس جماعتنا وعملت ، بسجيتها المرحة ، على جعلنا منسجمين ، ضاحكين طوال الوقت . أثارت شجني بعض ذكريات الشباب ، بعد ما شربتُ كأسين من الويسكي ، وأضحكني كثيراً عبد الباري وتصرفاته الخجولة وحبه للشراب . لم تكن سهرة فاشلة على كل حال ، رغم تحفظنا وعدم قيامنا للمشاركة في الرقص وحتى

عدم تقبيلنا إلا لزوجاتنا وللشابة نجية . ولقد شعرتُ بعد العودة إلى البيت واختلائنا ، أنا وكميلة ، ببعضنا ، أن الجو بيننا أكثر رومانتيكية وحرارة ، مع القبل الطويلة وتلمس النهدين ومداعبة الأعضاء الحساسة وغير الحساسة ، من أن ننام بتعقل ؛ فلم نلبث أن نضونا ملابسنا التحتانية وتداخلت أعضاء جسدينا جنب الباب الخارجي ، غير شاعرين بالبرد والريح ، وبدأنا عملية تخصيب نشيطة . لا أتذكر أن الحاجة ألجأتنا إلى تجربة الإدخال واقفين ، ولابد أنّا كنا حكماء في ذلك ، فالوضع متعب وفيه بعض التعقيد ، وهو لا يؤدي ، في كل الأحوال ، إلى دخول الأعماق المطلوب بل إلى ارتخاء لعين في الساقين ، لا محيص عنه والعياذ بالله .

نمنا نوماً عميقاً تلك الليلة إثر نوبة هستيرية من الضحك والقهقهة تملكتنا حين أردنا ، بعد بلوغ النشوة ، أن نتماسك متحاضنين ، فإذا بنا نسقط أرضاً سقطة السكارى ومازلنا متحاضنين . اتفقنا على أنها بداية خير للسنة الجديدة ١٩٧٦ ، قبل أن تطوينا موجة النوم .

١٩٧٦/١/١٠

محموم وطريح الفراش منذ أكثر من أسبوع . لسعني البرد كما توقعتُ في ليلة رأس السنة المشهودة ، فلم أبالِ وخرجتُ للعمل فانتكست . يزعجني أن أقع مريضاً وتهيج أعصابي ، إضافة لذلك ؛ فالمرض توقفٌ جزئي للحياة وهو أمر مرفوض . وفي اعتقادي ، أن دور الطبيب إنساني ورائع ومتفوق ؛ ولعل من الممكن أن نستخلص أفكاراً أخلاقية من مهنة الطب وممارسته .

أمس ، كنت أحسن حالاً . فاجأنا أبو فتحية بزيارة غير متوقعة ، وكانت عملية بطولية منه أن يستدل على العنوان وأن يصل البيت أخيراً . انحنى على يديَ يريد تقبيلهما فمنعته مستغرباً وسألته عما به . قال إن الأعرج جلس مكاني ورفع سوطه على الموظفين جميعاً ، يسوطهم لغير

سبب ، حتى كفروا بكل شيء . أضحكني ذلك ، ثم سألته عن فتحية وعن البناء ، فقال إنها بخير وإن شقتهم ستكمل عن قريب ، ولعلهم يوسعون المشتملات لتكون شقتين . تمنيت لهم الخير وطمأنته على صحتي وبأني سأرجع إلى المكتب بعد يومين فلا يقلق .

شعرت باكتئاب بعد انصرافه . تخيلت وجه فتحية الأسمر الدقيق القسمات ، وعينيها الخضراوين النافذتين وحركتها إذ تبعد العباءة لتكشف ، بإتقان ، عن نهديها العاليين وشعرها الأسود المحنى . يا لها من شابة رقيقة تخفي الكثير من الصلابة والعناد .

١٩٧٦/٢/٢ الاثنين

رأيته يركض تحت المطر المتساقط بغزارة ، دون أن يتطلع لما حوله ، وهو يقفز فوق برك الماء المتجمع ويتلافى بخفة ركامات الطين والحجارة . أوقفتُ السيارة وناديته فلم يسمعني . عدتُ أحاذيه سائراً ببطء ؛ ثم أنزلتُ الزجاج وناديته مرة أخرى ، فالتفت ، لحسن الحظ ، ورآني . تفتح وجهه بفرح حقيقي وأسرع نحو السيارة . جلس جنبي لاهثاً خجلاً كالعادة ، يمسح قطرات المطر عن رأسه وثيابه ويجيب على أسئلتي بين أنفاسه المتسارعة . كان ، أيضاً ، في ثياب خفيفة لا تُخفي رثاثتها . سألته ألا يبرد قليلاً ، فهز رأسه بالنفي . كان جو السيارة دافئاً على كل حال ، مما أراحني . كنتُ أشعر بأن هذا الشاب الصغير حساس بدرجة لا يمكن معها مساعدته دون خدش عواطفه : لذلك فضّلت ألا أزيد في شقائه بعرض مادي مرفوض مقدماً ولا فائدة منه . أوصلته ورجوته أن يسلّم لي على والديه وينقل لهما تمنياتي الطيبة .

كان العمل فاتراً ، شبه معطل ، في المكتب ؛ فالرسائل الرسمية التي كانت تُعرض عليَ فأحيلها إلى شعبة الطابعة لتُطبع ثم تعاد إليَ فألقي عليها نظرة أخيرة للتأكد من عدم وجود أخطاء فيها وأوقعها وأحيلها إلى السيد

المدير العام ، في عملية لا تستغرق عادة إلا ساعة أو ساعتين ، صارت ، هذه الرسائل المسكينة ، تتراكم على مكتب السيد مسؤول أمن الدائرة لمدة يومين أو ثلاثة أو أكثر ، لأسباب مجهولة ، قال بعضهم إنها تتعلق بالفهم البطيء للسيد مسؤول الأمن ، وفسّرها البعض الآخر بأنه ، في الحقيقة ، لا يجيد القراءة ولا الكتابة . وكانت تبدو على هذه الرسائل ، إذ تُعاد منه ، علامات وخطوط غير مفهومة ، وأحياناً تغطيها علامة ضرب كبرى للدلالة على عدم موافقته على فحواها!

كانت الأيام تتحايل ، لتجلب لنا أموراً مضحكة حقاً ؛ وكان من التعقل أن نستسلم للضحك وألا نفكر بالمأساة المختفية وراء كل هذا . أدهشني ، اليوم ، ظهور المحامي ممتاز اللامي في المكتب . كان أقل قبحاً من المرة السابقة وأكثر شبهاً بأخي عبد الباري . بدا خجولاً على غير توقع ، ثم علمتُ السبب بعد ذلك . أراد أن يرى عبد الباري ويتعرف عليه ويقدم له نفسه ، فلما أخبرته بأن أخي مشغول دائماً في معمله ، ويمكنه أن يراه هناك ، صار يحدثني عن فكرته في الاستقرار في بغداد والاشتغال بالمحاماة بين خانقين وبغداد وأنه سمع بأن كريمة السيد عبد الباري قد بلغت سناً تؤهلها للزواج وأنه... ضحكت آنذاك وأوقفته بإشارة من يدي . شرحتُ له بأن نجية لاتزال طالبة ، تدرس في كلية الاقتصاد وأعتقد... ثم توقفت . انتبهتُ إلي أن محبتي لابنة أخي جعلتني أتكلم كأني والدها وأني كنت أعبّر عن أفكاري الشخصية ، في حين أن علاقتي بالفتاة غير مباشرة ، ولعل لأبويها نظرة أخرى لأمور الحياة لا أعرفها .

ـ أرجو المعذرة ، أستاذ ممتاز ، سأتصل بأخي الآن لأدبر لك لقاء معه ، فكل شيء ممكن هذه الأيام .

ـ هذا ما خطر لي أن أقوله لك يا أستاذ توفيق .

لم يزعجني قوله بسبب ما توقعته وما حصل بالفعل ؛ إذ حالما اتصلتُ بعبد الباري وأعطيته ملخص المهمة التي جاء قريبنا إلى بغداد من أجلها حتى

أخذ الأمر مأخذاً جدياً للغاية ورجاني أن أستمهله كي يتصل بثريا ويعود ليتصل بي مرة أخرى .

كانت نتيجة المشاورات الهاتفية أن دُعي المحامي ممتاز اللامي لتناول الغداء معنا ذلك اليوم بالذات ؛ وبهذه المناسبة الخارقة للعادة أغلق عبد الباري معمله وخرج من عالم الخشب . وحين كنت أصطحب قريبنا إلى البيت ، هو بسيارته الفخمة وأنا بسيارة زوجتي ، عادت إلى ذهني صورة ابنة أخي نجية فبُهتُ لأنها كانت تشبه ، في ملامحها عموماً ، ابن العم الخطيب هذا .

استُقبلنا بمهابة مضحكة من لدن العائلة كلها ، وعوملت كبطل جلب فريسة دسمة لأهله الجياع! وقبل أن يعرفوا بالضبط أوضاع السيد ممتاز ومدى جدية مقاصده ، نال رضاهم وإعجابهم بمظهره العبد المولاتي الواضح ، فاستبشرتُ خيراً . تصورتُ ، بعد ذلك ، أن مهمتي ستطول ، إلا أني كنت مخطئاً ؛ فما أن تمَ استلام ابن العم المحروس من قبل العائلة حتى جرى لفظي كالنواة ، مما أسعدني كثيراً فقصدت بيتي ، بعد الغداء ، أستمتع بقيلولتي التي أمارسها صيفاً وشتاء .

كانت كميلة ، طوال الغداء ، وما بعده ، بكماء منزوية ، فقد جاءتها العادة قبل أيام فقاطعتني ببلاهتها المعهودة ؛ لكن دوري البطولي هذا اليوم أربكها وبعث فيها الاضطراب وهي ترى العائلة تكاد ترفعني فوق الأكتاف ، فجاءت بسكينة واندست بي كالقطة المستوحشة . ما أكثر الأمور المضحكة هذه الأيام!

١٩٧٦/٢/٢٩ الأحد

تنقلب بنا الأيام دون سابق إنذار ؛ تظن أنك ستقضي أسبوعاً هادئاً دون ضجيج أو مناقشات أو مناكدات عبثية ؛ فتجد نفسك ، بعد كشف الحساب ، أنك كنتَ واهماً في تفاؤلك . وفي الحقيقة ، تذكرتُ أني ، حين دخل عليَ

قردنا العزيز المحامي ممتاز اللامي في المرة الثانية ، وخزني ما يشبه الدبوس الصغير في جنبي ، وتعوذت بالله من الشياطين كلها ؛ بلا فائدة .

وها هي حاستي السادسة تصدق ؛ بالنسبة لمفاهيمي على الأقل . إذ لم ينقضِ أسبوعان على تلك الزيارة البطولية التي قام بها قريبنا إلى دار أخي عبد الباري ، حتى تمّ بشكل أساسي حرمان تلك الفتاة نجية من الدراسة ونفيها إلى خانقين . لم يبحثوا معه أي شيء جدي . تأكدوا فقط من أنه يملك داراً مؤثثة كما يجب في تلك المدينة وأن مدخوله من المحاماة لا بأس به ، فرموا بالفتاة في أحضانه . حتى هي ، وكنت أرى فيها فتاة ذات ذكاء وتوازن شخصي ، سارعت إلى قبوله زوجاً وهجرت كليتها . لم يناقشوه أو يفهموا منه خططه المستقبلية للانتقال إلى بغداد ، ولم يريدوا أن يطلعوا على أية تفاصيل أخرى تخص حياة ابنتهم القادمة . هل ارتكب هذا الرجل خطأً بإقدامه على طلب يد نجية ، فأرادوا إلزامه بخطئه ، لئلا يتراجع ، وتكبيله مدى العمر ؟ ليس هذا معقولاً . أهي ، تلك الشابة المتفتحة على الحياة ، المرحة ، المقبولة الشكل ، كانت زائدة عن العدد المطلوب ، فجرى ، بعجلة ، التخلص منها ؟ غير معقول أيضاً . ماذا ، إذن ؟

ومما أزعجني ، ليس الاشتراك في استقبال أولاد وبنات العم القادمين زرافات من خانقين ، بوجوههم الناضحة قبحاً وهم يسيرون على خجل ، ولا في دعوتهم وتقديم الطعام لهم ومكالمتهم والصبر على تصرفاتهم الخرقاء ، بل في أن هذا كله لا يجب أن يكون ، وبهذه الطريقة السريعة المخبولة . ما يهم ، أن جو البيت عندنا ، كميلة وأنا ، تأزم أكثر من السابق ؛ فهي تعلم أفكاري بوجوب التأني وبحث الموضوع من جوانبه المختلفة وإعطاء الفرصة للفتاة لتختار بين الدراسة والزواج ، وهي ضد هذا كله . الزواج هو الزواج وهو كل شيء للفتاة ، وبقية الكلام تبطر في تبطر . تذكرتُ ، بهذه المناسبة ، ملاحقتها لي منذ كانت في التاسعة من عمرها! ماذا جنت ، هذه الغبية ، من كل تلك الجهود المضنية ؟

تقرر أن يسافر العروسان خلال شهر نيسان إلى تركيا لقضاء أسبوعين ثم يعودان إلى خانقين مباشرة .

كم أحب أن أقضي وقتاً لامحدوداً في لعب القمار ؛ كارية بعد كارية بعد كارية... إلى ما لانهاية! فمع الجلوس إلى المائدة الخضراء والارتباط بتلك الأوراق الساحرة ، تتراقص وتتراكض على المائدة وبين الأيادي ، والنقود تترامى من هنا إلى هناك ؛ وأنت تتلهف لتلك الورقة الملعونة المغناج التي لا تأتي ، ثم تأتي أخيراً فتنفجر الفرحة في نفسك ، تصاحبها لذة الانتصار والكسب... ذلك حينٌ يُنسى فيه الزمان والدنيا والمظالم والأيام القادمة .

لابد لي من لعبة بوكر عالمية .

١٩٧٦/٤/٢٣ الجمعة

سافر الجميع إلى خانقين... الجميع ، وبقيتُ وحيداً في الدار . عاد العروسان أول أمس من تركيا ، فساد الهرج والمرة بيوتنا ؛ فقد حضر لاستقبال العائدين كمٌ هائل من الوجوه القردية ، ففاضت دورنا بهم واضطر الأهل الكرام إلي استدانة الفرش من الجيران لتلافي أزمة ازدياد النائمين عندنا . كانت نجية ملطخة الوجه بكل ألوان الزينة المعروفة وغير المعروفة وهي ترفل بفستان وردي مزوّق وتضع تاجاً أبيض من الورد فوق رأسها ؛ ولا تستطيع ، بين لحظة وأخرى ، أن تخفي لمعة حزن تنبض في عينيها . هل اكتشفتْ أمور الدنيا المظلمة بهذه السرعة ؟ تقرر أن يسافر الجميع إلى خانقين منتهزين قدوم الربيع للتفسح ورؤية دار العروسين عن كثب . ارتحت لهذا القرار الذي استثناني من المغادرة ، فقد كانت لديَ مشكلة مرت بسلام لحسن الحظ .

كانت تلك الفتاة زوجة أحد أبناء العمومة . لاحظتها بين الجمع ، يضيء وجهها أو يكاد ، بنصاعة بشرته وبياضه ؛ وكانت عيناها السوداوان طويلتين ذات أسرار عميقة . رأيتها عدة مرات خلال نهار مجيئهم إلينا . كانت في

العشرين من عمرها ، جبلية ساحرة ناهضة الجسد . ثم رأيتها في ذهابنا إلى المطار . كانت شفتاها قوسين حادين ، ممتلئين حمراوين . كلمتها ، فسحرتني لكنتها وحركاتها ؛ ورأيت حاجبيها الدقيقين يتحركان عند الحديث حركات مثيرة لم أرَ لها مثيلاً ؛ وكانت تنظر إليَّ ، تحدق في عينيَّ كأنها تنوي إذابتي . ثم راقبتها تعمل مع الآخرين . تبدّى لي جسمها ومنحنياته ، خفيفاً ، نضراً ، وصدرها ناهداً رغم صغره ؛ وسارت من دار إلى أخرى ، حافية والحجل الذهبي في كاحلها يغني بخفوت ، تنقل الفرش والصحون وتخدم في المطبخ وفي الغسيل وتنظيم الغرف . بدت كميلة إلى جنبها إنسانة منطفئة تماماً . رأيتهما ، صدفة ، في ليلة السفر واقفتين تتحدثان ؛ كانت «أنوار» مطلقة شعرها الأسود الذي انتشر حول نصوع وجهها الرائع ؛ وكانت بأنفها المستقيم وتقاطيعها الدقيقة وعينيها ، مثل أميرة غجرية تصدر أوامرها .

ولم يخطر لي ، عدا الإعجاب بها ، أي خاطر سيئ ؛ فهي ، آخر الأمر ، فرد من أفراد العائلة ، ووقت وجودها المنير معنا لن يطول للأسف ؛ فكان الإعجاب من بعيد مفروضاً عليَّ بصرامة . ثم تذكرت حادثة رواها لي الصديق عبد القادر ، جرت له شخصياً وهو في زيارة عابرة لقيينا . كان حزيناً متبرماً ، في مسائه الأخير هناك ، يفكر في عودته صباح الغد إلى بغداد وإلى زوجته المملة وروتين الوظيفة والضجر ، حين لاحظ فتاة حسناء تجلس بمفردها قريباً منه في المقهى وتقرأ كتاباً باللغة الإنكليزية . بادرها بالكلام . كان خجولاً ، كما قال لي ، ولكن روحاً من عدم المبالاة تملكته ؛ إذ أن كل ما يحدث برفقة هذه المخلوقة فهو جميل ، حتى المهانة . أجابته بلطف وتشابك الحديث بينهما فجلسا معاً وتمتعا بتبادل المعلومات . ثم خرجا إلى أحد المطاعم فتعشيا عشاءً رومانتيكياً وشربا وكانا سعيدين . لكن روحه كانت مسكونة بفكرة واحدة . كيف ينالها وهو على وشك السفر بعد ساعات ؛ وهي ليست من بنات الهوى بل يبدو عليها أنها فتاة محترمة لا

يمكن أن ترضى بالتعارف البسيط ثم ـ هوب إلى الفراش . كانا يتمشيان في الشارع الرئيس ، بعد العشاء ، والليل قد انتصف والجو منعش جميل فإذا بالأخ العزيز يجهش فجأة ببكاء حار نابع من الفؤاد ؛ أثار ، بالطبع ، فضول الصديقة النمساوية الرقيقة ، فمالت عليه تواسيه مستغربة وتسأله عن السر في تبدل مزاجه وعن سبب هذا البكاء الشديد ؟ قال إنه لم يشعر بأي خجل وهو يصارحها هامساً بأنه سيعود غداً إلى بلاده وسيفارقها إلى الأبد وتنقطع علاقتهما الجميلة هذه دون أن يتعرف عليها كما يجب ودون أن يبلغا معاً النهاية الطبيعية لهذه العلاقة كما يفعل الأصدقاء في العالم... الخ فرقَ قلب «ساندريلا» وعطفت على هذا المحتال الباكي ذي الرغبات الملتهبة ، وأخذته إلى شقتها حيث بقيت تواسيه الليل كله في فراشها الدافئ .

حسناً ، ما علاقتي أنا بقصة صديقي عبد القادر الخبيث هذا ، الذي نال وطره ؟ لا شيء سوى أنها منحتني تشجيعاً غير معلن لمتابعة مشروع مشكوك في أخلاقيته .

كنت ألاحق أنوار خلال ساعات وساعات ؛ من دارنا إلى دار عبد الباري ومن دار عبد الباري إلى دار آل قصابي ثم إلى دارنا وإلى دار عبد الباري ، وهكذا دواليك ؛ وأنا أتظاهر ، لنفسي أيضاً ، بأني لا أقوم بعمل معيب ، حتى صادف أن تلاقينا في السلم . كانت تنزل حاملة بعض الشراشف وكنتُ أصعد لغاية خفية . وقفتُ أمامها . نظرتْ إليَ بتلك العينين السوداوين المليئتين بالأسرار ، والدهشة على وجهها ؛ وكانت شفتاها حمراوين ورديتين . ابتسمتْ بخفة :

ـ أنت... توفيق ؟

ـ كلا ؛ أنا خائب بن خائب .

لم تفهم ؛ صعدتُ إليها ، مادياً ومعنوياً . لم يبدُ عليها الحرج ولبثتْ تبتسم . اقتربتُ بوجهي منها ، فتراجعتْ قليلاً . وضعتُ فمي على الشفتين

المكتنزتين الحارتين وامتصصتهما امتصاصاً ؛ خيل إليّ أن فيهما حلاوة روحية . ابتعدتْ عني بعد لحظات ، وكانت ماتزال مغمضة العينين ، ثم فتحتهما فاستنار وجهها . أرادت أن تتكلم فتحرك طرفا حاجبيها . يا الله ، أية إثارة عظمى! ثم إنها ، على غير انتظار ، ألقت ما بين ذراعيها وارتمت عليّ تعاود تقبيلي بتلك الشفاه الناعمة قبلة محرقة . احتصنتها ورحت أتحسس كتفيها وخصرها وظهرها وكانت ترتجف ، وجسدها اللين يتقبض ويندس بين ساقيّ وخفقان قلبها يدق صدري . كانت هنيهات سماوية لم تدم طويلاً ؛ إذ سمعنا وقع أقدام تقبل نحو السلم فافترقنا عن بعضنا وأخذتُ أجمع معها ما تناثر من شراشف على الدرجات .

من رآنا ؟ هل رآنا أحد ؟ أم حدسوا ما عملنا ؟ لا أدري ؛ ولكن الشكوك أخذت تطل من النظرات ، ولم يهمني ذلك . أردت أن أحتضنها مرة أخرى فقط وأقبلها قبل السفر ؛ فلعلي لن أراها ثانية ؛ متى يمكن لي أن أرى إنسانة مكتملة الجمال مثلها ؟ غير أن الساعات أخذت تتراكض بجنون ، فانتصف الليل قبل وقته وانقضى ، وجاء الصباح قبل حينه وسافر الجميع إلى خانقين وهي معهم . رأيتها وهي تدخل السيارة وتجلس في زاوية منها دون أن تنظر إليّ . اقتربتُ منهم وسلمتُ على الجميع وصافحتهم وتمنيتُ لهم سلامة الوصول . أسعدني ، آنذاك ، أن أراها ترفع رأسها إليّ مبتسمة وفي عينيها الرائعتين نظرة ود خجول . شكرتني وسمعتها تهتف والسيارة تتحرك :

- إلى لقاء قريب .

مضى الأمر بسلام ، لم يكشفه أحد ؛ وبقيتُ غير متحسر ولا نادم . إنها ، أنوار هذه ، عُطية وهدية من جهة عليا مجهولة في الكون ، إلى رجال الأرض هؤلاء ؛ ورغم أني لم أتعرف على قريبي زوجها ، إلا أني أشك أن يكون على درجة من الحس السليم والوعي الجمالي ، بحيث يقدّر هذه المخلوقة ومدى رفعتها وسحرها . هل سأراها ؟ هي قالت... إلى لقاء قريب .

ومعنى ذلك أنها تتمنى لقائي ؛ فمن يجرؤ إذن ، في الأرض أو في السماء ، على عدم إطاعتها ؟

يا لها من قصة كالخرافة!

٢٧/٤/١٩٧٦ الثلاثاء

أن يطلب السيد المدير العام رؤيتي ، أمر مفهوم وعادي ، وأن يستوضح عن سير العمل ، أمر مفهوم آخر ؛ أما أن يسألني عن أسباب تأخير صدور الرسائل والكتب ، فأمر غير مفهوم البتة . بقيتُ ساكتاً فأعاد عليَّ السؤال ، فأجبته بسؤال من عندي :

ـ ألا تعرف السبب حقاً يا أستاذ ؟

حينذاك كشف عن وجهه وعبّر لي عن القلق الذي ينتابه والشكاوي المتلاحقة التي تُقدم إليه منذ أكثر من شهرين وعن مسؤوليته أمام السيد الوزير أو أي مفتش إداري يحدث أن يزور الدائرة بالصدفة أو بقصد التحقيق .

ـ هذه المشكلة... البلوى... كيف نحلها ؟

كان ، بشكل واضح ، يستنجد بي . أجبته بهدوء بأن ترجع الأمور كما كانت وأن يُبعد الفضوليون عن التدخل في شؤون لا تخصهم . نادى الفراش وطلب منه استدعاء سليمان فتح الله حالاً . وقف الفراش بلا حراك أمامه لحظة ، ثم أعلن أن السيد مسؤول الأمن غادر الدائرة منذ ساعة في مهمة خاصة ، ولن يعود إلا صباح الغد .

تساءلت ، مرات عديدة ، مع نفسي وبغموض... كيف يمكن للإنسان أن يسعد ذاته ضمن ظروف شخصية محددة ؟ وهل هذا أمر ممكن وكيف ؟ وكنت ، كل مرة ، أغوص في مستنقع محاولة تعريف السعادة وأضجر من البحث وأتركه .

أنا الآن ، مثلاً ، في بيتي ، أجلس بارتياح في زاوية مضيئة وبجانبي

الراديو وكأس «السفن آپ» ، ولدي وظيفة جيدة ومريحة ، وسيارة أستعملها على هواي ، ومرتب معقول ؛ لا يكفي ، في الواقع ، كل متطلباتي ، خاصة إذا هاجمني هوى البوكر ؛ ولكنه ، على كل حال ، مرتب يجعلني محترماً بحدود ؛ وأنا ، خارج كل هذا ، أتغذى بطعام جيد وأرتدي ثياباً فوق المستوى المتوسط وقريباً من الجودة ، وبالطبع فأنا متزوج ، أمارس الجنس لكي أرتاح نفسياً وجسدياً ، ولدي الحرية في القراءة والكتابة ومقابلة الأصدقاء واستعمال التلفون وحضور الحفلات وتحيّن الفرص لتقبيل الفتيات الجميلات .

أنا ، إذن ، بالحسابات المنطقية ، سعيد بالضرورة ، أو «يجب» أن أكون سعيداً . حسناً... وماذا بعد ؟

إن هذا التساؤل البليد سيفتح أبواب الكارثة ؛ وهذا ما أحس أني أفعله بإصرار لا أعرف مأتاه . فأمام هذه الكلمات (التي هي انعكاس ذو طبيعة خاصة لذهني أو ، إذا أمكن القول ، لما ليس مادياً فيَ) أشعر بأن الأمور الرئيسية في الحياة غائبة عني ، وأن حياتي الشخصية تخلو من الألوان والموسيقى . ثم... ثم إن هنالك صوتاً خافتاً يشكو ، في داخلي ، من أنني على وشك أن أُساق إلى آلةٍ تسحق ، لا العظام حسب ، بل كل ما يحيطها من مواد أخرى ومن هالة غامضة لا تفسر ، وتوصف بأنها روح أو وجود معنوي أو كيان إلهي .

إلا أن كل هذا قد يكون هلوسة لا تاريخ لها ، أو عملية استشعار بغير توجه معلوم ؛ نتيجتها الواضحة هي أن يُغلق البحث .

أدهشني قليلاً أن يقهقه السيد المدير العام بهذه الطريقة الطفولية وهو يطلع على الكتب والرسائل التي جلبوها له من على مكتب مسؤول الأمن سليمان فتح الله الغائب في مهمة خاصة حتى صباح الغد . أضحكته ، كما يبدو ، تلك الإشارات الغامضة ، الخالية من المعنى ، الموضوعة في جهات مختلفة من الرسائل ؛ وسرته بالخصوص ، علامات الضرب الكبيرة التي كان

السيد مسؤول الأمن يشوه بها دون سبب مفهوم بعض الرسائل . وافقته على رأيه بأن هذا أمر غريب ومسألة يجب فحصها عن كثب ، واكتفيت بذلك .

حفظ كل المكاتبات والرسائل لديه وشكرني على تعاوني ، فانحنيت بتواضع ومضيتُ ، بخفة قلب ، إلى مكتبي .

١٩٧٦/٥/٢ الأحد

شغلتني الفكرة التي سجلتها في هذا الدفتر قبل أكثر من شهر عن فعل الكتابة ، خاصة تلك الجملة... إن الكلمات هي انعكاس ذو طبيعة خاصة لذهني... الخ .

خطر لي أن الكلمات ، التي هي رموز متفق عليها ، تنعكس من الذهن ، وفيها يسجل هذا الذهن نشاطه وما يشغله من معضلات ؛ وحين توضع هذه الانعكاسات على الورق بحيث يمكن الاطلاع عليها واستعادتها ، يصبح الذهن في موقف مواجهة مع ذاته ، في موقف من يضع مرآة أمامه ؛ فهو يطلع على نفسه ، أو بعضها ، مرتدة إليه ؛ أي أنه يصير ، في الحقيقة ، « آخر » مقابل ذاته ويمكنه عند ذاك أن يراها ، ربما ، بصورة أوضح وأكثر دقة ؛ أقول « يراها » ، ويصح أن نقول أيضاً ينفذ إليها أو يتوغل فيها أو يستقصي عنها أو يتعمقها أو يكتشفها ؛ كلها أمور ـ أو أفعال ـ محتملة وجائزة .

ولكن ، هل بمقدور العقل دائماً أن يتجاوز بهذه العملية حدوده وأن يكمل نواقصه ويتلافى كوارث الحياة وأن يحل ، أخيراً ، مشاكله بصورة صحيحة ، خاصة تلك المشاكل الإنسانية التي لا تُحل ؟

كنا في طريقنا إلى خانقين من بعد ظهر الخميس ٢٩/٤/٧٦ ، منتهزين فرصة عيد العمال وعطلته التي صادفت يوم السبت فصار لدينا يومان . انحشرنا في السيارات الثلاث وكان الجو حاراً بعض الشيء وفي مخيلتي تسكن صورة الجميلة أنوار .

صباح الأربعاء الماضي شابكتُ السيد المدير العام مع مسؤول الأمن

بطريقة لا تخلو من الخبث ، فصارا يتجادلان أمامي عن حدود مسؤولية كل واحد منهما . أثار استغرابي أن سليمان فتح الله ، الذي كان قبل وقت قصير على استعداد لتلميع حذاء السيد المدير العام إذا أشار له بذلك ، كان أكثر الاثنين حدة وأشدهما حمية في الدفاع عن مفهوم المسؤولية الأمنية التي تتجاوز ، في اعتقاده ، المسؤولية الإدارية .

وصلنا خانقين والشمس على وشك الغروب ومناظر التلال المحيطة بها واتساع السماء الصافية ، تمنح النفس شعوراً بالتعالي والسمو . كانوا في استقبالنا أمام حارتهم ، فرحين فخورين ؛ وتبين لنا أن الأخ ممتاز قد بنى داره المتواضعة ليس بعيداً عن حارة الشوادي تلك ، مما سهّل علينا الاطلاع على أمور العائلة من الأعلى ومن الأسفل . اتضح ، بعد ذلك ، أننا سببنا لهم أزمة في إيجاد الفرش والأماكن المناسبة لمبيتنا ليلتين عندهم ، مثلما فعلوا هم بنا ؛ إلا أنهم حلّوا المشكلة بصورة أفضل بكثير مما فعلنا . ففي بيت المحامي ، حيث استقبلتنا نجية ، تلك العروس ذات النظرات الحزينة ، بالأحضان والبكاء ، وجدنا أنه بالإمكان أن نحتل غرفتين منفصلتين مؤثثتين كما يجب ، دون أي حرج . كان ذلك مصدر ارتياح لنا بالطبع .

لم أكن أفكر بالنوم ، بل كنت أفتش عن ذلك الوجه الصبوح الذي أفتقده . علمت ، خلال الأيام الماضية ، أنها زوجة كاسب برهان الدين حفيد عمي سمر الدين ، وأنها كردية من الجبال خطفها ذلك الحفيد الشجاع بعد أن أرضى أهلها الفقراء المشردين بماله ، وجاء بها إلى حارتهم فبثتْ الاضطراب في نفوس الرجال بجمالها فاضطر إلى إلباسها الحجاب . أثارتني كل هذه الأخبار الشيقة عن تلك الحورية ذات الشفتين الدافئتين ، وتمنيت رؤيتها .

كنا متعبين قليلاً ، لكن الجمع القبيلي التام في بيت المحامي حيث باشروا بإكرامنا بوليمة عشاء بالغوا فيها حسب قدرتهم . فرشوا صالة الحوش الواسعة بالسجاجيد والأفرشة وكوّموا المخدات في كل مكان وأناروا

المنزل بما لا يحصى من المصابيح الكهربائية القوية ، وقيل إنهم ذبحوا ثلاثة خرفان . جلسنا واحدنا جنب الآخر ، وكنتُ أرى الوجوه النموذجية لآل عبد المولى تتوالى أمام بصري مع اختلافات بسيطة في الملامح والألوان ؛ ولم يزعجني ، بالطبع ، أن أنتبه إلى الأنظار متركزة عليّ من قبل نساء العائلة خاصة ؛ إلا أن تلك الشمس ، لم تشرق . قابلتُ ، في الأثناء ، زوجها وأعجبتُ بمظهره الرجولي وشهامته وفعاليته في الإشراف على إنجاز الأعمال . كان طويلاً ، بملابس أنيقة . قيل إنه يملك معملاً لصنع الأثاث في خانقين ، وإن أعماله تتوسع يوماً بعد يوم رغم أنه لم يجاوز الثلاثين من عمره .

أسرّ لي ممتاز بأن في المستطاع توفير أي مشروب أرغب فيه ، فشكرته على عرضه وكذا فعل ، كما رأيت ، عبد الباري وعميد آل قصابي ؛ إلا أنهما ، كما ظهر لي بعد ذلك ، احتالا على الحضور برفضهما الظاهري ؛ ورأيتهما أثناء الطعام يشربان من كأسين مليئين بمشروب الببسي كولا ، بطريقة توحي بأن ذلك المشروب كان ممزوجاً بمشروب آخر يحبانه أكثر .

أكلنا حد التخمة ، هم ونحن ؛ وكنا نجلس مختلطين رجالاً ونساء ، فنحن ، آخر الأمر ، عائلة واحدة ؛ وكانت الساعة تشير إلى حوالي العاشرة حينما أدخلوا صحون الحلويات . كانت تحمل الصحن الكبير الأول وهي ترتدي فستاناً أحمر مزركشاً وقد تهدل شعرها الأسود بكثافة فوق كتفيها وحول وجهها المشرق ؛ وكانت ، بهيئتها ، مجموعة من الألوان المتراقصة ، تتقدم فتنشر الحبور والفرح حولها . وضعتْ الصحن ثم راحت تسلم علينا فرداً فرداً معتذرة بأنها كانت مشغولة في تهيئة الطعام فلم تسنح لها الفرصة للحضور للترحيب بنا . صافحتها ورأيتُ ابتسامتها الخفيفة حين صارتْ أمامي وحركتها وهي تعض على شفتها وتغض من طرفها ، فعلمتُ أنها لم تنس .

بعد الحلوى ، قُدم الشاي الأحمر القاني ، المصنوع بإتقان على الفحم الحجري . جلسنا نستريح ونتحدث ، فترة ، اقترح بعدها المضيف أن نسمح

لأطفال العائلة بأن يقدموا لنا رقصة شعبية فصفقنا مهللين ومشجعين . ثم لا أدري كيف رتبوا عزف الموسيقى من مسجل جيد الصوت ، فإذا بأطفال كالزهور الملونة يدخلون الساحة الصغيرة وسطنا ويأخذون بأداء حركات راقصة لا ضابط لها ولكنها كانت منسجمة ببراءة .

لمحتُ ، في ركن بعيد من الحوش ، وجه أنوار الجميل وهي منزوية تراقب بشغف واهتمام حركات الأطفال . كانت تبتسم ، بين لحظة وأخرى ، برضا وسعادة ؛ فشاقني أن أقترب منها وأغرق في تينك العينين الساحرتين وأتحسس وجود هذه المرأة الأنثوي الأثيري .

صباح الجمعة أخذونا إلى جولة في الأحراش القريبة منهم . كانت أشبه بغابة لا تني تنمو وتتسع يوماً بعد يوم ؛ وكانوا يتصرفون كأن كل شيء فيها ملك العائلة . استغربت ذلك ، ولم أسأل عن السر . خلال ذلك اليوم كله غيبوا أنوار عن العيون ؛ فلم يعد البقاء في خانقين ذا جدوى ، وأخذ الضجر يتسلل إليّ سريعاً وأنا بصحبة كميلة وأهلها . ثم إن فرصة ثمينة سنحت لي فاختليت بنجية ، تلك العروس الحزينة . لاطفتها وسألتها كيف وجدت الحياة الزوجية وبماذا ستنصح أبناءها عن الزواج ، فأصابها تشنج مفاجئ وغير متوقع ، فألححت عليها بالسؤال عما بها وهل تشكو من شيء أم لعل ممتاز أساء معاملتها ، فهزت رأسها بالنفي وكانت عيناها تفيضان بالدموع . ثم إنها حدثتني عن سرها . حدث لهما في تركيا أن قاما صدفة بعملية تحليل الدم لمعرفة فصيلة كل منهما ، فتبين أنهما من فصيلة واحدة مما قد يعني أن أبناءهما سيولدون مشوهين أو معوقين ذهنياً ، ثم أجهشت بالبكاء . طمأنتها ضاحكاً من أفكارها هذه ومن قلقها ووساوسها وأخبرتها بأن هنالك احتمالاً أن يكون التحليل خطأ في خطأ ، فطالما وقعت حوادث من هذا النوع ؛ ثم إن ما قيل عن تأثير الدماء في الأولاد لم يثبت علمياً بعد ؛ وأخيراً ، فإن كان التحليل صحيحاً وما سمعته صحيحاً أيضاً ، فإن الخشية من حصول تشوه تكون واردة في الولد الثالث . احتضنتني وهي لاتزال تبكي

وقالت إن هذا هو ما أخبرها به زوجها بالضبط . أعدتُ عليها كلمات التطمين وتمنيت أن يكون كلامي حقيقياً على المستوى العلمي .

تميزت عودتنا بعد ظهر السبت ١/ ٥/ ٧٦ بظهور أنوار للسلام علينا . كانت في ثوبها الأحمر المزركش ، تخفي شعرها بشال أسود ينزل حتى صدرها ويغطي كل شيء إلا وجهها المنور الرائع ؛ وكانت مبتسمة على الدوام ، ولما أقبلت نحوي صافحتها فلم تفه بكلمة غير أن طرفي حاجبيها تحركا حركتها المثيرة وهي تنظر إليّ بنظرة مليئة بالكلمات الرقيقة .

همستُ لها :

ـ نراك عن قريب ؟

فومضت في عينيها لمعة فرح وهزت رأسها .

ظلم صارخ أن تطلب من الإنسان ، هذا المخلوق اللامحدود ؛ أن يكتفي بما عنده وأن يقبر أمانيه وأحلامه . كانت العودة إلى بغداد حزينة بالضرورة ، فقد تركتُ أنوار خلفي .

١٩٧٦/٦/٣٠

كلا ، لم أكن حزيناً حسب ؛ ذلك المساء البعيد قبل ما يقارب الشهرين ؛ كنتُ ملجوماً في داخلي ، ولاأزال ؛ كأني ضُربت بشدة في مكان ما من روحي . أشعر بما يشبه التقزز من كل شيء ؛ وبمقدوري ، وأنا في هذه الحال ، أن أقوم بكل الأعمال الجنونية التي يمكن تخيلها .

صباح اليوم ، كان وجه كميلة ، الممتعضة باستمرار وبدون سبب ظاهر ، يلاحقني ويغلق منافذ الفرح . لم تشأ أن تتركني دون وخزة أخيرة ؛ فقبل أن تهبط من السيارة تكلمت كأنها تخاطبني ، بصوت جاف :

ـ تناول غداءك في الدائرة .

وأسرعتْ تصفق الباب بشدة وتمضي . لبثتُ . هنيهات ، متوقفاً . حجر جديد يوضع ، ببلاهة ، في جدار الكراهية المتبادلة .

في المكتب ، كان الأمر أشد سوءاً . جاءني أبو فتحية ليعلن لي انتقالهم إلى الشقة الصغيرة التي أكملوا بناءها فوق السوق . طلبتُ منه الخروج لأعمل بهدوء . همس بأن سليمان يشيع بأني أتآمر عليه وأنه سيعرف كيف يعالج هذه المؤامرة . أشرت إليه بالخروج . فعاد يتهامس بأن فتحية تسلم عليّ كثيراً وترجو مني أن أزورهم في بيتهم الجديد . أشرت إليه مرة أخرى بالخروج .

آنذاك تملكتني حالة التقزز التي تحدثت عنها آنفاً . شعرت كمن يُحاط بأناس يرمون عليه الطين والقاذورات بحقد غير مبرر . شعرت كأني أُداس ؛ لا يهم إن كنتُ مداساً في الواقع أم لا ، لكن شعوري كان حقيقياً ، صادقاً ؛ وهذا هو المهم . لم أكن أجهل الأسباب ، غير أني لم أكن أجد في نفسي القوة على تغييرها أو الإفلات منها ؛ وهذا هو الأمر الذي تكتمل به المعادلة التي تقود إلى الجنون أو إلى القيام بأعمال تشبه أعمال المجانين .

كان السيد المدير العام قد قرر ، بعد تعقيدات لا أتفه منها ، أن يُعاد الوضع إلى حاله الأولى ، أي لا تعرض الرسائل والكتب على مسؤول الأمن . كان ذلك منذ حوالي الشهر ، ومن وقته وهذا المهووس الأعرج الذي لا يجد ما يشغله طوال النهار ، يرسل لي بالتهديدات المبطنة . سخرتُ منه ومن تهديداته وكنت على استعداد دائم لمواجهته ، ولكن ليس دون انزعاج .

أما في البيت فقد كان الشأن أعظم وأدعى للتمسك بالصبر ؛ فقد أضحت لدى كميلة عادة البحث عن أية ذريعة تافهة أو غير تافهة لمناكدتي وللاستمرار في هذه المناكدة قدر المستطاع . أحسستُ أنها تشجَّع من قبل أشخاص مجهولين ، لعلهن رفيقاتها في المدرسة أو أبواها أو أختها ثريا ؛ لم أعلم بالضبط ، ولكنها تتصرف كأنها تجدني ضعيفاً ومتهافتاً ولا قدرة لي على إجابتها ؛ وكان هذا أمراً غريباً وغير صحيح البتة .

تغديت في المكتب ، دون شهية وأنا ساهم غائب عن حاضري . قطع عليَّ تلك الحالة أبو فتحية ؛ دخل ليعلن لي أن مزنة مباركة بللت الطرقات

ورطبت الجو ، ودعاني لشرب شاي العصر عندهم ورؤية شقتهم التي انتهوا من صبغها قبل أيام . استحسنتُ روحه العنيدة وقررت أن أتشبه به فأخبرته بأني سآخذه معي إلى بيتهم الجديد المصبوغ وأشرب الشاي معهم هناك .

كانت (أسواق الأفراح) متكونة من ثمانية دكاكين متراصة في صفين متقابلين وقد سُقفت المساحة التي تفصل بينها وسُدّ المدخل بباب حديدي ضخم . عند دخول السوق تجد باباً على اليسار يُفتح على سلم يقود إلى الطابق الأول الذي يحتوي على الشقة ؛ وهي تشتمل على غرفتين ومرافق صحية ؛ غرفة لفتحية وأخرى لأبويها . ثم تتبقى مساحة من السطح كانت النية لبناء غرفة عليها تخصص للضيوف أو للإيجار . كانت جدران الشقة مصبوغة بالأبيض الساطع وقد تكدس الأثاث في الغرفتين دون نظام .

تدبروا أمر جلستنا ، وكنتُ مستأنساً حقاً ؛ فالشابة الجميلة تعاملني باحترام وإعجاب ولا تجرؤ على إسماعي كلمة خشنة أو نابية ؛ وكذا كان والداها . كانت في فستان أزرق واسع يتهدل على جسمها ؛ وجلستْ تشكو من عدم إيجار كافة الدكاكين بسرعة . أبديتُ لها بأن المنطقة تتحرك وشارعهم شارع رئيسي فيها وستمتلئ الأسواق في الأيام القادمة بالناس .

عدتُ ، متعباً ، إلى البيت الخالي حوالي السادسة مساءً ، فاستحممت ثم غفوت ساعة أو بعض الساعة . استيقظت جائعاً ، ولم أجد في الثلاجة ما يؤكل فاكتفيت بقطعة جبن صغيرة وكسرة خبز يابس ، وجلستُ أستمع إلى الموسيقى .

أخشى أن أتصور حالي بعد سنوات ، فلن يجلب لي المستقبل ما يسرني . ورغم المناكدات وافتقاد الاحترام والراحة في البيت ، ورغم إزعاجات مسؤول الأمن وتهديداته ، فأنا راضٍ بحالي هذه ؛ لأن ما يخيفني ينبع مني ؛ فهذا الشعور الغامض اللعين الذي ينبثق فجأة ويستحوذ عليَّ بفكرة أني مداس ومهان ومكدوم الروح ، هو الذي يعلن قدوم زوبعتي... الزوبعة التي قد تدمرني قبل الجميع . هذا هو كل شيء .

١٩٧٦/٧/١ الخميس

صادفتُ غسان صباح اليوم ، فأحزنني بأخباره . كان يسير بتثاقل على الرصيف يحمل بعض القناني وأشياء أخرى لم أتميزها وهو بثوب مهترئ وبنطلون « جينز » ممزق في عدة جهات . أردت أن أوصله فابتسم شاكراً وقال إنه ذاهب إلى الدكان القريب لشراء حاجيات للبيت . ثم أخبرني أنه رسب في أغلب الدروس وعليه أن يعيد الامتحان في كافة الدروس في الخريف القادم ، وهو يائس من النجاح قبل أن يبدأ بالمراجعة . كان ينظر إليّ كمن يتمنى أن أساعده للتغلب على مشكلة عويصة لديه ، إلا أنه بقي على تحفظه . شجعته بكلمات فارغة ومضيت .

انقضى يومي الوظيفي القصير بسلام . خابرني صديقي عبد القادر يدعوني للعبة بوكر كالعادة ، فرفضت متردداً . لم تكن لديّ نقود زائدة رغم أننا في اليوم الأول من الشهر . كتمتُ رغبتي في مشاركتهم اللعب والسهر ونسيان الوقت والناس ؛ ووعدته أن أجيء إذا غيّرتُ رأيي . لم أذهب ؛ مكثتُ آكل نفسي ، متلذذاً بألمي وحسرتي وبالظلم الذي يلحق بي .

أشعر أني ، هذه الأيام ، لم أعد أميل إلى الكتابة... مثل هذه الكتابات والمذكرات ؛ لعلي بدأتُ أكرهها ، أو لنقل صرتُ أتجنبها ؛ فقد يكون في ذلك خير لأحد ما .

١٩٧٦/٩/١٠ الجمعة

هل بالإمكان أن نمارس أفعالاً حيوانية بطريقة إنسانية ؟

بالتأكيد ، بالتأكيد ؛ إذ أن كل ما يتعلق بالجسد ، عدا العقل ، نتشارك فيه مع الحيوانات ونقوم ، مثلها ، بتلبية حاجاته ورغباته ، ولكن بصورة مختلفة إلى حد ما . الأكل والشراب والغسيل والجماع . كل هذه العمليات وغيرها ، تكتمل بما يمكن من اللياقة والأناقة أحياناً ، لتصير

مقبولة جمالياً وملائمة لهذا النوع البشري المتفوق ؛ أما الولوغ في التصرفات الحيوانية بلذة إنسانية ، فذلك ما يحمل على التوقف والتأمل قليلاً .

لم أرد أن أعود إلى هذه المذكرات اللعينة ، غير أن دافعاً حقيقياً وخزني في ظهري للعودة إليها .

أمس رجعنا إلى البيت ، سكارى كلنا ، حوالي الواحدة بعد منتصف الليل ؛ أنا وكميلة وعبد الباري وثريا وأبو ثريا . كنا مدعوين لدى صديق لعميد آل قصابي وشريكه في الصفقات المالية المشبوهة على الأغلب ؛ ولم أستفسر طويلاً عن المناسبة وذهبتُ معهم قتلاً للضجر وبقيت العجوزتان مع الأولاد في البيت . كان المنزل في المنطقة الراقية من المنصور ، يظهر بجلاء مدى ثراء هذا الرجل الأمي الذي دعانا . وبسبب الضجر الذي ظل يلاحقني ، فلن أدخل في تفاصيل مملة ؛ ما يهم هو أني شربتُ ، مثل عبد الباري والقصابي ، أكثر من طاقتي ، بحيث سكرتُ تماماً . كان الجو مشجعاً على مثل هذا التصرف ؛ فزوجة هذا الثري الثانية التي لم تجاوز الثلاثين بعد ، كانت حفية بنا فوق العادة ، كأنها كانت تريد التعويض عن شكلها العادي ومنبتها الوضيع . ولم تكتفِ بهذه الحفاوة ، فظهرت علينا بفستان براق ملتصق بجسدها المليء ، يظهر صينية بطنها ويضع تحت أنوفنا ، عبر الشق الرحيب من الأعلى ، ثدييها العظيمين . وكانت ، في سيرها النشيط ، تهز ردفيها المكورين هزات شيطانية مقلقة . بعد وقت قصير من اجتماعنا ، غلب على الحاضرين الضحك والمرح ، ولاحظت ، باستغراب ، خروج كميلة وثريا المتكرر مع المضيفة ، وعودتهن يتساررن بصوت خافت ثم ترتفع بعد ذلك ضحكاتهن العجيبة ؛ فعلمتُ أن هذه الزوجة الحفية قد تسللت إلى قلبيَ الشقيقتين وأقنعتهما بشرب ما يجلب السرور لهما . وعدنا ، كما قلت ، حوالي الواحدة وكنتُ دائخاً تماماً فارتميت على فراشي ونمتُ في الحال . خلال نومي تملكتني حالة غريبة حقاً لم أجربها قبلاً . كنت أشعر كأني أمارس

الاستحلام بغير ممارسة ، وكأني أتعرض لضغط غير محتمل على جسدي ، أو كأني كنت عارياً ، يهاجمني البرد ويلسعني ؛ وكنتُ أحدث نفسي ، بين النوم واليقظة ، بأني لابد قد تمرضت وأصابني شيء بعد أن رقدت وأني يجب أن أستيقظ . إلا أني كنت ثقيل الروح ، ثقيل الاستجابة ، لا أكاد أقوى على الحركة . وبعد ثوان كابوسية ، خلتها ساعات ، استطعت أن أفتح عينيَ بتثاقل . رأيتها ، كمن به جِنّة ، تجلس على وسطي ، تدخله فيها وتنود بسرعة وتلهث وتتنهد وتتأوه . لا يمكن أن يكون الأمر واقعياً ، ولا شك في أني مريض بصورة خطيرة . إلا أن أنفاسي كادت تتقطع من ثقل جسدها وحركاتها العنيفة ، فرفعتُ ذراعيَ إليها لأنقذ حياتي وأمسكتُ بخصرها قوياً . كنا ، منذ أسبوعين ، نتدبر الهرب من بعضنا ونتجنب الاتصال ، لكن ذلك لم يكن مبرراً معقولاً لعملية انتحارية مثل هذه . هتفتُ بها :

ـ ماذا حدث لك ؟ ما بك ؟

فإذا بالمخبولة تصرخ بين أنفاسها المتقطعة :

ـ حقي هذا . آخذ حقي .

هذا ما أسميه ، باختصار ، الولوغ في الحيوانية .

١٩٧٦/١٠/١٥

أنقذتُ ، مرة أخرى ، غسان من المطر المتساقط بشدة صباح اليوم . رآني من بعيد فتوقف متردداً ، يتطلع ليرى إن كنتُ بمفردي وإن كنت سآخذه معي لتوصيله إلى الكلية . استغرب أن يرى كميلة جالسة بجمود في المقعد الخلفي وسلّم بحذر فردّت عليه بخشونة كالعادة . أوصلناها أولاً فساد الارتياح بيننا . قال إنه لم يدخل امتحان الدور الثاني بسبب مشاكل بسيطة شغلته في الصيف الماضي ، وها هو يعيد السنة الثانية من الكلية . وجدته قد نحف وشحب وجهه فوق شحوبه المعتاد وظهرت هالتان سوداوان تحت عينيه . أبديت له بإخلاص أسفي وحزني لهذه الأخبار . قال إن والده متعب

وكذلك والدته . نطق كلمة والدته بشكل خاص ، ليذكرني خفية بأنها ليست كذلك في الحقيقة . قال إن المادة تشغلهما من أجل توفير المعيشة له وللبنات . كان يتكلم ، لأول مرة ، بأسف وبلهجة مرّة . انتبهت إلى المعطف المطري الشفاف الذي يرتديه فوق ملابسه الخفيفة . كان مستهلَكاً ، مستهلكاً ؛ وعندما أوصلته ففتح باب السيارة وقفز منها . لمحته يلبس حذاءه بدون جواريب .

صار هذا الشاب يحزنني كثيراً .

في نفس اليوم ، حوالي الساعة الحادية عشرة ، أرسل السيد المدير العام في طلبي فتوجستُ شراً ، وكنت على حق . أعلمني بأن أوامر شفوية جاءت من أعلى تطلب منه إعادة الوضع مع سليمان والرسائل كما كان ؛ أي أن توضع مراسلات الوزارة تحت إشرافه مرة أخرى . أجبته بكلمة واحدة :

ـ نعم .

فالرجل واضح العجز مثلي في مقاومة هذه الأوامر العلوية .

رجعتُ إلى مكتبي والغضب يتملكني لأول مرة . لم أستطع إقناع نفسي بتفاهة كل هذه الأمور إلا بعد لأي وتعب . دهشت لذلك ، فمادمتُ أعتقد بعدم وجود أية علاقة بين الوظيفة والكرامة ، لا سلباً ولا إيجاباً ، فلمَ إذن ، هذه المشاعر الغاضبة الحادة!

لم أعد إلى البيت ظهراً ولم يخطر لي أن أخابرها . كنت منكمشاً على نفسي ضائقاً بحالي هذه ؛ وأثار عجبي ألا أجد أحداً يمكن لي أن أحدثه بانفتاح عما أشعر وأفكر به ، وأنا الذي يعتبر نفسه مجاملاً متفهماً للآخرين ولطيفاً على الدوام . هذه المعتوهة زوجتي ستدافع عن سليمان لو حكيت لها عما جرى في المكتب عندنا! ستعتبره صاحب الحق وأنا المعتدي عليه .

عدت حوالي الغروب . تظاهرتْ كأنها قلقة علي وسألتني عما بي .

ـ لا شيء . لا شيء . أعمال المكتب .

كانت منقلبة السحنة ، تنظر إليَ باتهام . لم أفهم السر في ذلك

وقتذاك . مضى أكثر من شهر على تلك الليلة التي أخذت فيها «حقها» ، بعمليتها المخبولة ، ولم نقترب من بعضنا قط . تمر أيام وأيام دون كلام بيننا ؛ وأنا ، خلال هذا الوقت ، أحس بانهدام جزئي في كياني . يأتيني هذا الإحساس ، دون سابق إنذار . أحس ، فجأة ، أني أحس به ؛ أني أُفترس من قبله ، ومسحوق بثقله . أمر لا يُطاق أبداً ؛ أن تتآكل وتتهدم وتنسلخ أمام ناظريك ولغير سبب مفهوم .

١٩٧٦/١١/٢٤ الأربعاء

كنت جالساً ، في هذا الصباح المشمس ، أتسلى بقراءة كتاب حين رنّ جرس الهاتف . منذ شهر تقريباً وأنا أتسلى هكذا بوقتي في الصباح ؛ فالرسائل تُقدم إلى السيد مسؤول الأمن وتبقى على مكتبه أياماً وأسابيع أحياناً ؛ وحين يوافق عليها يوافق على واحدة أو اثنتين يومياً فنرسلها للسيد المدير العام ونبقى نتسلى بوقت فراغنا . كان جرس الهاتف يرن إذن ، فتوقعت أن يكون هو الصديق عبد القادر يحاول أن يجرني إلى سهرة بوكرية أو يحكي لي حكايات ضجره الطويل من الدنيا . كانت كميلة ، على الجانب الآخر من الخط ، تتكلم بحيوية زائدة وبصوت رنان . قالت إن لدينا ضيوفاً من خانقين وإنها تهيئ لهم طعام الغداء وترجوني أن أشتري لها بعض الحاجيات في طريق عودتي وأن آتي إن أمكن في وقت مبكر ؛ فلما سألتها عن هوية الضيوف وعددهم تضاحكت لغير سبب كما ظننت ، وأجابت :

ـ أربعة وستراهم فلا تتعجل .

حمل لي أبو فتحية رسالتين وقعهما مسؤول الأمن فوقعتُ أنا أيضاً وأرسلتهما للسيد المدير العام ثم تهيأت لمغادرة المكتب .

كانوا موجودين في دار عبد الباري . أخبرتني بذلك كميلة وهي تشتغل في المطبخ وتعد لهم طعام الغداء . طلبتْ مني أن أتركها لوحدها وأن أذهب للسلام عليهم .

ـ نجية جاءت لتراجع الطبيب . لا أدري ما بها ، فلم تخبرنا .

هممتُ بالانصراف فأضافت :

ـ لا تعرض عليهم شراباً ، توفيق ؛ دعنا من المشاكل التي يسببها أبي وأخوك .

ضحكتُ .

كانت أنوار الجميلة جالسة قرب زوجها كاسب برهان الدين وهي تكاد تضيء كاسمها ، رغم النحول البسيط في وجهها ومظاهر التعب التي لا تخفى . كانت مفاجأة سارة حقاً ، أن أراها أمامي مثل شمس تشرق في منتصف الليل ؛ ويبدو أن المسكينة قد جيء بها هي الأخرى لإجراء الفحص . كان ممتاز في مزاج حسن ، لكن نجية بدت على غير ما يرام ؛ وكانوا ، على العموم ، آخذين الموقف بجد مبالغ فيه ، كأنهم سيحضرون محاكمة قاسية ؛ فحاولت أن أبث في الجو مرحاً مفتعلاً لم يناسبهم . كان ملخص الموضوع... إن الفتاتين ، نجية وأنوار ، لم تحبلا خلال هذه الشهور الماضية من ممارسة الجماع ، فسبَّب هذا الأمر للجميع حالة من التوتر والقلق تقترب من الانهيار العصبي أحياناً ، كما هي حال نجية حسبما فهمت من أمها . أما الجميلة أنوار فقد جاءت بناء على رغبة زوجها ، هذه الرغبة التي يمكنني أن أفهمها جيداً ؛ فمثل هذه الأنثى الرائعة يجب أن تخصَب لكي يرتفع مستوى الجمال بين هؤلاء البشر الممسوخين في دربونة الشوادي .

لم أكن أنا الذي قدم لهم الويسكي ، بل السيد الوالد القصابي ، فسرني ذلك أيما سرور . شربنا إذن وأكلنا ، واستطعت ، وأنوار أمامي مبتسمة لامعة العينين ، أن أضحكهم أغلب الوقت وأن أكون مضيفاً ممتازاً . ومع الجرأة المؤقتة التي ترافق الويسكي ، حاضرتهم ناصحاً الجميع بألا يطلبوا الأوهام فيشقوا وأن يسعدوا أنفسهم بما لديهم . كانت نصائح بسيطة وعامة ، لكنها بدت مستغلقة عليهم فلم يفهموا شيئاً . بعد أن انتهينا من الغداء ، حوالي الرابعة ، تبين أنهم لم يأخذوا ، مسبقاً ، مواعيد لمراجعة

الأطباء ؛ فبدأت سلسلة من النداءات التلفونية ، نجحنا بعدها في تدبير المواعيد ؛ وكان عليهم ، أربعتهم ، البقاء حتى يوم السبت .

لم أستطع التحدث مع أنوار على انفراد ؛ وسحرني فيها هذا الهدوء وتلك الثقة الطبيعية بالنفس . كانت قليلة الكلام ، فلغتها العربية ثقيلة بعض الشيء عليها ، ولكنها ، مع ذلك ، كانت تعبر عن نفسها بدقة رغم البطء في الكلام . كانت متعلمة تعليماً بسيطاً ، لكن ذكاءها واعتدادها بذاتها منحاها شخصية ذات حضور ، تفرض الاحترام . لم نلتق ليلاً ؛ كانوا متعبين فآووا إلى مضاجعهم مبكراً . أخبرتني كميلة بأن نجية غير مرتاحة في حياتها في خانقين ، وهي ضجرة ونادمة لتركها الدراسة وتشتاق إلى أبويها باستمرار . ثم إنها أخذت تقترب مني ونحن مندسان تحت اللحاف . لم أتردد طويلاً واحتضنتها أقبّلها بهدوء أولاً ثم بحرارة واشتهاء . تمتعنا بالجنس ، وكانت عملية جميلة تستحق التكرار ؛ استعدتُ خلالها ، عدة مرات ، وجه أنوار المشرق .

١٩٧٦/١١/٢٥ الخميس

نمت بعمق واستيقظت سعيداً ؛ كانت في خلفيتي النفسية صورة متوهجة لامرأة أنتظر رؤيتها اليوم وآمل في حديث ممتع معها وربما...

فاجأنا عبد الباري ، في الصباح ، بشرائه الكاهي والقيمر ودعوته لنا كي نفطر معهم سوية ؛ فأسرعنا إليهم . وجدناهم مجتمعين . كانت أنوار في فستان سماوي يبرز تقاطيع جسمها وقد زال عن وجهها الجميل حجاب التعب الذي غلفه بالأمس . بدت لي أنيسة طليقة ضاحكة ، تأكل بشهية وببعض الحياء . لم ألتفت لغيرها ، وتلاعبتْ في قلبي رغبة في تملك هذا الجسم المتناسق اللدن الذي يتوّجه وجهها الفاتن . كنتُ أنتظر ، بسرية الرجولة ، أن ألمح منها اهتماماً خاصاً أو نظرة خفية ذات معنى... عبثاً .

اشتغلتُ بلامبالاة في أعمال المكتب المملة ؛ وحين خابر خالد لمعرفة

قراري بالاشتراك معهم الليلة في اللعب ، أكدتُ له أن الجواب هو النفي القاطع هذه المرة ، فلدينا ضيوف لا يمكنني تركهم بمفردهم .

غادرتُ المكتب حوالي الظهر وأسرعت عائداً إلى البيت . كان ممتاز قد أخبرني صباحاً بأنه وكاسب سيقومان بجولة في بغداد ولعلهما يصحبان زوجتيهما معهما ، فالجو جميل يساعد على التجوال وتبديل المناظر ، كما أن لديهما ما يشتريانه من السوق ، وقد يمران بعد ذلك على عبد الباري في المعمل ليرافقاه في العودة .

كنت خفيف الروح وأنا أدخل دارنا ؛ وهي حالة لا تواتيني دائماً . أصاب أغلب الأحيان ، عندما أقف أمام هذا الباب ، بما يشبه الصدمة ، وأرغب تلقائياً بالهرب! هي حالة مضحكة ، يجب أن أعترف ، لم أستطع التخلص منها . إلا أنني ، اليوم ، قد تبدلتُ وصرت خفيفاً على حين غرة . ولزيادة خفة الروح هذه ، سمعتُ كميلة تغني في المطبخ ، وصوتها الحنون بصورة غير مألوفة ، يصل عبر الصالة . سرني ذلك حقاً ، وخطر لي بأن من الممكن أن تكون قد شعرتْ ببوادر حمل أو ما شابه ؛ أو أن العملية الجنسية المتقنة التي مارسناها ليلة أمس ماتزال ترفع لها معنوياتها .

« ياللي هواك شاغل بالي » أغنية أسمهان الشجية ؛ لقد أحسنتْ ، فوق ذلك ، اختيار ما تغني . اقتربتُ مبتسماً ، من مدخل المطبخ . كان الشعر الأسود الجزل ينحدر على الكتفين ويصل منتصف الظهر ، وهو في خصلات ملتفة على بعضها ، يضفي على لون الفستان السماوي انسجاماً غريباً . كانت أنوار بمفردها ، منهمكة بعمل ما بين يديها ، تغني غير شاعرة بأحد ؛ وكانت حافية القدمين تقف على رؤوس أصابعها . فتنتني حالاً بضاضة ساقيها الممتلئين وبروز ردفيها تحت القماش الناعم . اتكأتُ على خشبة المدخل . كان صوتها يتوثب بأنوثة منفلتة ، كالربيع المجنون ، والكلمات تخرج ملتوية بعض الشيء من بين تلك الشفتين الساحرتين ؛ وكانت ، في لحظات ، تهز رأسها طرباً مما تسمعه من أغنيتها . ماذا جاء بها إلى هنا ؟ كأنها كانت تنتظر أوبتي! يا لله ، ويا للقدر من متآمر عتيد!

وقبل أن أتقدم لاحتضانها ، فقد ملكني شوق عظيم إليها ، استدارت قاطعة أغنيتها ، فجأة ؛ والحذر والخوف يطلان من عينيها :

ـ آه... أستاذ توفيق ؛ أنت هنا .

لبثتُ أبتسم لتطمينها :

ـ لماذا قطعتِ غناءك ؟ ما أجمل صوتك!

ثم تقدمتُ نحوها ؛ وعلى غير ما كنت أتوقع بان الفزع على ملامحها ، فاتسعت عيناها وتلوت شفتاها . توقفتُ آسفاً ؛ ذهب السحر إذن .

ـ أرجوك ؛ أستاذ توفيق . لا تعمل شيئاً . لا أحب هذا . أرجوك .

خدش قلبي صوتها المرتجف وصورة خوفها ، فارتددت على نفسي ثم تراجعتُ ، تراجعت :

ـ أنا آسف جداً يا أنوار ؛ أنا آسف حقاً . يا لله ، هل أخفتك هكذا ؟ أرجو المعذرة .

رأيتها تتنفس الصعداء وتضع ما في يديها على الخوان . كانت متزينة ببساطة ووجهها صافياً جميلاً .

ـ كلا . أنا لا أخاف . تظنني صغيرة ؟ كلا ، كلا . أنا في السابعة والعشرين ، لا يظهر علي عمري ؟

وأسعدتني ضحكتها القصيرة وأراحتني ورفعت عن كاهلي خبالاً وهوساً لا مكان لهما معها .

ـ أين كميلة ؟

ـ هناك ، في بيت والدها ، تجلب بعض البهارات . أنا أطبخ لكم طعاماً خاصاً اليوم .

ـ هل تحبين أسمهان ؟

رفعت ذراعيها بحركة طفولية ساحرة :

ـ لا تذكّرني . لا تذكرني . أموت فيها وفي صوتها . أبكي دائماً لأنها ماتت قبل أن أولد .

ـ وماذا كان بإمكانك أن تصنعي ؟

ـ لا أدري ، لا أدري ؛ ولكن ، أن تكون هذه الإنسانة بهذا الصوت ، على قيد الحياة... لا أدري... أمر يجعل الحياة أقل صعوبة . لا أعرف كيف أقول ، لا أعرف .

كانت مرتبكة بشكل إلهي لا يخطر على البال . وددت ، محترقاً ، أن أقبّلها شاكراً لها أن تكون بهذا الجمال وبهذا اللطف وبهذا الارتباك الرائع .

ـ أنتِ أيضاً إنسانة لا مثيل لها يا أنوار .

ابتسمتْ برقة . سمعنا وقع أقدام تقترب من الباب الثاني الموصل بين دارنا ودار القصابي . كنتُ أنظر إليها حالماً متأملاً ؛ لم يتحرك حاجباها هذه المرة تلك الحركة المثيرة . أتفعل ذلك ، إذن ، عن عمد ؟

وانقضى اليوم ، بين العائلة الكبيرة ، كما تنقضي كل الأيام الأخرى . لم أحقد عليها لموقفها المتهجس مني ؛ فلم تفتعل شيئاً ، كما أحسست ؛ وأنا أنحني باحترام وبصورة علمية إن أمكن القول ، أمام الإخلاص في المشاعر ، ضدي أو معي ، يغيظني التظاهر والتنفج والكذب الفاضح . أحياناً ، أتسامح مع الكذب المتقن ، لأن فيه براعة فنية ، يجب تقديرها على كل حال . لكن الكذب الغبي ، البليد ، المفضوح... شيء لا يطاق .

١٩٧٦/١٢/١٧ الجمعة

لم أرد أن أستيقظ هذا الصباح ؛ ولم أرد ، بالأحرى ، أن أعود إلى هذه الصفحات . مللتُ . أكرر... مللتُ . إلا أن هدوء البيت اللامعتاد وشعوري بوحدتي ووحشتي منذ ليلة أمس ، دعواني برفق إلى عودة غير محمودة للكتابة .

نعم ، ذهبتُ أمس إلى بيت الصديق خالد للاشتراك في لعبة بوكر ، بعد أن استدنت خمسين ديناراً وقررتُ أن أخسرها وأنسحب . ماذا كان وراء تلك الغزوة الأثيمة ؟ الملل ، والحمد لله .

وجدتُ أنهم اكتشفوا لعبة بوكر جديدة ذات مزايا انتحارية جسيمة بالنسبة لنقودنا المسكينة ، وكانوا في قمة جنون التمتع بها ، فدخلتُ معهم عارياً إلا من خمسين ديناراً مستدانة ، ولم أخسر رغم كل الحماقات التي كنت أرتكبها والمخاطر التي تقحمتها بنزق ؛ وربحتُ وربحت . كنت أشرب من كأس الويسكي بجانبي وأرمي بنقودي وأنا بالكاد أرى نوعية الورق بين يديّ . وبين القهقهات والنكات واللعنات والكلمات البذيئة تتطاير وتتصادم في جو الغرفة المشحون بالدخان سمعتُ خالد فجأة :

ـ ستعود ، يقولون ، أم زينة .

ـ ألف مرحبا ومليون هلا .

ـ من هي أم زينة ، أخي ؟

ـ الأرملة الطروب .

ـ الله أكبر .

ـ لا تتكلم هكذا عنها ، أخي . بعض الاحترام من فضلك ؛ للموتى على الأقل .

ـ لم نحكِ غلطاً . انتبه ، لم نحكِ أبداً بالغلط ، أمور عادية فقط .

هنالك ، في الشرفة الصيفية على ضفاف النهر ، ذات مساء سحري ، تمثلتها… تقف في المدخل مترددة ، تتطلع إليّ بدهشة وتولع ، ثم تقبل سائرة بهدوء وجرأة ، وهي لا تني تتمعن في عينيّ . ذلك زمن غريب في قدمه وغريب في انبعاثه السريع . كأنها كانت أمامي قبل ساعة! وتلامست يدانا حين دست قصاصتها في راحتي ، وكانت نظراتها اللينة تحمل من معاني الإصرار واللامبالاة ، الشيء الكثير .

انتبهتُ إلى احتجاجات اللاعبين معي ، يشكون أني لا أشترك في اللعب وأريد أن أحتفظ بربحي ، فعدت إلى الأرض معهم . كنتُ محترقاً بسؤال عنها أخفيه وأريد أن أوجهه إلى خالد هذا ، فإذا بعبد القادر يسأله بدلاً عني :

ـ ماذا ترى أم زينة تروم من العودة بعد هذه السنوات ؟

ـ لا أعلم أنا . سمعتُ ما قلته لكم . لعلها اشتاقت لأشكالنا... أعوذ بالله .

لعبنا كارية ثانية ، ضاعفت فيها من ربحي ؛ وخرجنا من بيت خالد والسماء ، شرقاً ، تتنفس ضوء الفجر ؛ واستيقظتْ كميلة على ضجة دخولي البيت واصطدامي بالأشياء ، فأبدت تذمرها فدسستُ كالعادة ، بين نهديها العاريين ، ضاحكاً ، حفنة من الأوراق النقدية ، فقفزت صارخة فرحى . ثم كان أن الذكريات العذبة عن تلك الجميلة التي فقدتها ، لم تمنع جسدينا من الالتحام في عملية جنسية صباحية منعشة . إذ حين تقبل من برد الفجر الشتائي ، فتنزع ثيابك ثم تدخل الفراش بين ذراعين ناعمتين وساقين حارتين منفتحتين ، لا يمكنك حينذاك أن تدعي أن في ترتيب الأمور بعض التناقض ؛ فلا أحد يسمعك .

كنت ، مع ذلك ، مكلوم النفس من ذكراها ليلة أمس . هالني أن أجد اثنتي عشرة سنة مرت على سفرها ؛ وأننا ، ذينك الشابين الوسيمين الرائعين ، تجاوزنا الزمان والأعمار وتحولنا ، في لحظة ، إلى ضفة الكهولة المظلمة .

كان البيت خالياً ، حين نهضتُ من نومي حوالي الظهر ؛ فقد خرجت كميلة في سفرة مدرسية إلى مكان ما لا أتذكره ؛ وكنتُ موجع الرأس ، متصدعاً . شربت عدة أقداح من الشاي واستمعت إلى موسيقى هادئة حزينة ، ثم تذكرت هذه الأوراق فسعيتُ إليها .

سافرتْ نجية إلي خانقين بعدما مكثت في دار أبيها أسبوعين وبعد أن فاض كأس الصبر لدى ممتاز فجاء ليعود بها إلى بيت الزوجية . لم يجد الطبيب عندها أمراً مخلاً يمنع الحمل وطمأنها وزوجها بأن كل شيء طبيعي وعلى مايرام . ولا فائدة من التهجس والخوف من فحوص الدم ، فهنالك عناصر أخرى مختلفة تتدخل وتسير بالأمور إلى غايات معينة لها . أما العزيزة الحلوة أنوار فقد اكتشف الطبيب لديها بعض الالتهابات والعوائق التي كانت تمنع الحمل ، فأعطاها من الأدوية ما أكد لها أنه سيعطي نتائج قريبة وباهرة . كنت سعيداً

لسعادتها ولرؤية هذه الزوجة الشابة الجميلة ، تشتاق للإنجاب وللتمتع بالحياة . اشتريت لها كاسيت أغان مختارة لأسمهان من بينها أغنية « ياللي هواك » التي أمتعتني بسماعها وهي تغنيها ، وقدمته لها . يا لفرحتها! أمسكت بيديَّ وعصرتهما بشدة وهي تشكرني ، بكلمات متقطعة ، على كل شيء . أثارتني ، مرة أخرى ، حركة حاجبيها وهي تكلمني عن قرب .

يا للسماء! أية مكائد تخفيها لنا الطبيعة هذه ، نحن الرجال .

١٩٧٧/٢/٢ الأربعاء

منغمساً في قراءة الروايات العربية والمترجمة ، منصرفاً عن الدنيا وعن الاهتمام بها وبناسها ، حتى صارت الشخصيات الروائية رفاق أيامي ، تعيش معي وأكترث بها وبرغباتها ، بينما انقلب البشر الواقعيون إلى شخصيات خيالية لا شأن لي معها .

لستُ زاهداً بالحياة بل مرتداً عنها ؛ ولا أنا كاره لها إنما مشمئز منها ؛ ولا أدري إن كنت قلت هذا أم لا ، ولكن دواخلي الغامضة تسوقني أحياناً إلى تصرفات لا أحبذها دائماً ؛ يتجمع فيّ شعور ، لا أعرف بالتحديد مسبباته ، حتى يفيض دون توقع ويدفعني إلى أعمال غير مستحبة ؛ وتجنباً لما قد أعمله ولا أريده ، انكفأتُ أقرأ بنهم غير عادي ، ليل نهار ؛ في البيت ، في المكتب ، في المقهى ، في أي مكان يمكنني فيه أن أفتح الكتاب دون إزعاج . زرت مكتبات بغداد كلها ، واستعنتُ بالمبلغ الذي ربحته في لعبة القمار الأخيرة فلم أصرفه ، وبخلتُ على نفسي بشراء ملابس جديدة وأبقيتُ المال تحت يدي ، يشعرني باستقلالية هشة في عالمي البليد هذا .

قرأتُ لكتّاب روس من القرن التاسع عشر بالطبع... « أبله » دستويفسكي و« جريمته وعقابه » وثلاثية محفوظ وأندريه جيد ، « الباب الضيق » و« السيمفونية الريفية » وموريياك « عقدة الأفاعي » ثم « الأباء والبنون » لتورجنيف ، التي أنهيتها أمس في مقهى حسن عجمي .

صرنا لا نلتقي ، أنا وكميلة ، حين تهجم عليها عادتها الشهرية ؛ تسعى هي لتتنسك في بيت والديها ، وآخذ أنا على عاتقي مهمة التجوال في شوارع بغداد على غير هدى . أمس ، مثلاً ، لم يعجبني أن أرجع إلى البيت ، فذهبت إلى مقهى حسن عجمي لأرى ما سيحدث لبازاروف . جلستُ في زاوية من المقهى العتيق ذي الضجيج وشربتُ بمتعة قدحين من الشاي المركز وانكفأت على كتابي الثمين . أنهيته حوالي السادسة مساء والشمس قد غربت والظلام الخفيف يلفّنا . كنتُ سعيداً بحزن أو ، بالأصح ، كنتُ متطهراً بحزني على موت بازاروف هذا الشاب العدمي الساذج ؛ وبعدما عدت ، ليلاً ، إلى بيتنا المظلم الخالي ، بقيتُ أفكر في هذا البطل ومصيره . أحسستُ بأن عنصراً مهماً ، في نظري ، ينقصه . إن الرواية مبنية بشكل مريح ودون تعقيد ، غير أن المؤلف لم يوضح ، أو يصور ، كيف صار بازاروف عدمياً وعن أي طريق ؛ أعني ، ضمن أية ظروف حياتية وتحت تأثير أية أفكار أو تجارب وتأملات شخصية انقلبت مكوناته الذهنية وتغيرت . هذه قضية حيوية كبرى بالنسبة للشخصية ، بقيت مهملة .

واليوم ، صباحاً ، كنت في مكتبي ساكناً هادئاً ، أتطلع إلى الغيوم تسوح في السماء العريضة ، وأمامي رواية همنغواي « وداعاً للسلاح » ، حينما دخل علي سليمان فتح الله واضعاً على وجهه مسوح الأهمية فجلس بعد التحية ثم أخذ يحاضر عن وجوب تغيير صيغة المخاطبة في الكتب والرسائل الرسمية . كان من رأيه أن نكون أكثر ثورية وصلابة في الحديث ، وفي طرح الحلول . لاحظتُ أثناء ما كان يتحدث بحمية ، أن كرشه قد نما وتكور ، ولن يمر وقت طويل حتى يبرز ويتقدم السيد مسؤول الأمن حين يسير وحين يلقي المحاضرات ؛ وتثميناً لآرائه المعاصرة تلك اقترحتُ عليه أن يفاتح السيد المدير العام لإصدار تعميم إلى كافة الشعب التابعة لنا للسير على الخط الجديد في المخاطبة . أخذ بوجهة نظري في الحال وهبَّ

واقفاً ثم خرج كالعاصفة . البشر المتماسكون نفسياً لا يجب أن ينزعجوا من تصرفات أمثال هذا الشخص الأخرق . فإذا انزعجوا ؟

هم ، إذن ، غير متماسكين تماماً ؛ ويجب عليهم أن يعرفوا ذلك . أهم ضعاف ؟ ربما ؛ إذ ليس من المعقول أن نعتبر سليمان فتح الله إنساناً مفكراً ، يجب أن نصغي إليه بانتباه وأن لا ننزعج إذا ما أساء إلينا بأي شكل من الأشكال... إلا إذا كنا ضعفاء .

هذا كلام لا يتوجب نسيانه على كل حال .

لم تعجبني كتب أندريه جيد ؛ بدت لي جافة وعقلانية ومنحرفة قليلاً . أفضل منها « عقدة الأفاعي » . أما « أبله » دستويفسكي فلا مثيل له تأثيراً في الناس ؛ إنه كتاب متقن ، بل يمكن القول إنه أكثر إتقاناً من غريب كامو ؛ فهذا الأمير ميشكين ، يخرج لنا من تحت يد دستويفسكي على الخلقة التي صنعته الطبيعة عليها ، ولا مجال للسؤال ، كما هي الحال بالنسبة لميرسو كامو ، كيف صار هكذا بهذه الصفات والأفكار . لكن « الجريمة والعقاب » شغلتني كثيراً . إن فيها ، كما أظن ، خطأً جسيماً ؛ فشخص مثل راسكولينكوف ينتهي ـ بإدراكه هو ووعيه وأحاسيسه الإنسانية العالية ـ إلى إنزال العقاب بنفسه ، هذا الشخص لا يمكن أن يقدم على جريمة قتل . لا يمكن . لا يمكن ؛ لأن مكوناته الذاتية تجعله عاجزاً عن ذلك تماماً . ولهذا فإن هذه الرواية منهارة من الأساس ؛ ويحيرني أن تبقى مقروءة إلى حد الآن . لعل السبب يعود إلى قابلية المؤلف المذهلة في الالتفاف حول القارئ ورمي بصيرته الداخلية بعشرات التفاصيل والأعذار غير المقبولة ، بحيث يعطل عقله وحاسته للتمييز .

ثلاثية نجيب محفوظ ، جميلة ومسلية ، ولكن لا يمكن أخذها كرواية مأخذاً جدياً ؛ فيها ثرثرة تليق بالعجائز .

جالساً ، إذن ، في الصالة الباردة قليلاً والضوء الخافت يصلني من وراء رأسي والهدوء يخيم على الدنيا ؛ وأنا ، بسعادة ، أحاكم المؤلفين على مزاجي كأني أحد أرباب اليونان القدماء!

لستُ ضعيفاً ولا قابلاً للكسر ؛ وهذا الانكماش الذي يعتريني بين الحين والحين ، هو علامة من علامات دفاع النفس عن جوهرها ؛ فأنا ، الإنسان ، أعز من أن أضيع تحت أقدام مهووس بالسلطة ونتن كسليمان فتح الله ، أو مخبولة بالإنجاب مثل كميلة .

١٩٧٧/٢/٦ الأحد

منطوياً على نفسي ، غالقاً نوافذها ، ومخارجها ومداخلها ، وكل ما يصلني بالعالم من حولي . قضيت وقتي في مقهى حسن عجمي بعد أن جلب لي أبو فتحية طعاماً لا طعم فيه ، فازدرته بسرعة وخرجت .

مكثت ، في زاوية قصية وراء عمود حديدي ، جالساً ونظري إلى الأرض ، شاعراً بفراغ عقيم يحيطني . أنهيت وداع همنغواي للسلاح ، قبل أيام ؛ واستسلمت لغيبوبة صاحية أو لصحو كالغيبوبة . تحفر في باطني بإصرار أفكار تتوالد من إساءات الآخرين . يخزونك مجاناً ؛ وحين يجدونك تتحمل بصبر ، يعتقدون أنهم لم يخزوك بالشدة المطلوبة فيعاودون الوخز .

لم تعجبني رواية همنغواي . لا أدري لماذا بالضبط . دخل حرباً فعانى وكاد يموت ، ثم أحب ولاقت حبيبته حتفها وهي تلد طفلهما... وبعد ذلك ؟ لقد أحزنني ، في الحقيقة ، غير أني لم أتعاطف مع بطل الرواية . بدا لي شاباً يفتش عن المتاعب والمغامرات بكل ثمن ، ويقامر بحياته دون سبب واضح . هل من الممكن ، أن همنغواي هذا لا يملك رؤيا خاصة محددة للحياة وللإنسان ، يعبّر عنها في أعماله ؟ لا تقل لي إن الحياة الإنسانية بشموليتها هي ما يرسمه في رواياته ، ففي هذا فقر فكري مدقع لدى كاتب منحوه جائزة نوبل ؛ تلك الجائزة التي لم تمنح لتولستوي ولا لشيخوف أو جويس أو بروست . أمر غريب ، زاد في حزني .

عدتُ ، شبه مريض ، إلى البيت ؛ رأيتها تشتغل في تنظيف الصالة . حييتها وصعدتُ إلى الأعلى . كنت لا أملك مقدار ذرة من الحماس للحديث

معها . خطر لي أن أستحم بماء فاتر لعل هذه العملية تغير من مزاجي ، إلا أني تكاسلت . نزلت أفتش عما يؤكل ، ولما دخلت المطبخ تذكرت أنوار ووقفتها هناك تغني... ياللي هواك . من لي بها الآن! من لي بمن يغني لي ، بمفردي ، ويدفع عني برقّة هذه الكآبة!

١٩٧٧/٣/٣ الخميس

ذهبتُ أزور ، عصر اليوم ، معرض الرسام عبد الإله كمال والد غسان . أخبرني هذا صباح أمس حينما أوصلته كالعادة بأن معرض والده سيفتتح غداً وأن بطاقة دعوة باسمي موجودة لديه منذ أسبوع ولكنه لم يصادفني خلال تلك الفترة . شكرته وقتذاك ووعدته بالحضور . كان بادي الصحة ، وحينما سألته عن دروسه أبدى ثقته بأنه سينجح منذ الدور الأول ولن تتكرر حادثة رسوبه فقد عانى منها كثيراً .

كانت اللوحات غالية الثمن بدرجة لا أتمكن معها حتى من شراء نصف لوحة بكل ما أملك! ولم يحزنني ذلك ، لأني ، في الواقع ، لم أجد لوحة تعجبني كثيراً لحسن الحظ . كنت بمفردي ، فالسيدة كميلة مشغولة بأمور أهم من قضايا الفن وتفريعاتها ؛ التبولة مثلاً ، في بيت الزميلة أم أحمد ؛ شيء خارق للعادة لا يُفوِّت مطلقاً .

كانت سندس ، زوجة الرسام عبد الإله ، موجودة ، تحيطها هالة غير منظورة من اللطف والحفاوة . حييتها فهزت رأسها مبتسمة ، وسألتني عن زوجتي فأجبتها بأنها كانت مرتبطة بمواعيد سابقة ، فلم تستطع الحضور .

كنت ، بغير تصميم سابق ، أبحث عن النساء ؛ وحين أجد واحدة تثير إعجابي وفضولي ، أبقى أتأملها عن بعد وعن قرب . منذ فترة جاوزت الأسبوع ونحن ، كميلة وأنا ، على غير وفاق ، لا في الفراش ولا خارجه . ويبدو أن هذا هو السبب الأول الذي جعلني أكون بهذا المزاج اليوم .

كان غسان بملابس جديدة غيّرته تماماً ، يصول ويجول في الصالة ،

داخلاً خارجاً ، حاملاً كؤوس العصير وراجعاً بها فارغة . تضاحك معي عدة مرات وهو يصادفني في مسيرتي للفرجة على اللوحات .

روحت عن نفسي هذه الزيارة للمعرض وأنستني كل الأخبار السيئة التي كان قد نقلها إليّ صباح اليوم أبو فتحية . الأعرج ، كما يسميه ، يشيع عني بأني أخدعه وأشوه أقواله ، وأنه مصمم على أن يفضحني ويضع الأمور في نصابها . أنا ، في الحقيقة ، لم أخدعه ، ولكني شجعته على الوقوع في الفخ الذي صنعه بنفسه ، حين طلبت منه أن يعرض أفكاره الثورية على السيد المدير العام لتعميمها ؛ فقد سفهها المدير العام وحذره من اللعب بالألفاظ هكذا ، لأن هذه المسائل التي يتكلم عنها هي من اختصاص جهات عليا أكثر دراية منه وحنكة . قيل إنه خرج من غرفة المدير العام كالفار المطبوخ ، فتعثر عدة مرات في مشيته قبل أن يصل غرفته ، وهو ، في ذلك ، يتمتم بكلام غير مفهوم .

١٩٧٧/٣/٢٦ السبت

صباحاً ، حالماً دخل عليَ ممتاز اللامي المحامي من خانقين ، حتى هجس في نفسي بأن لنجية علاقة بالأمر . كانت حاملاً منذ حوالي الشهرين وقد أتعبها الوحم الشديد فساءت حالها فخطر لزوجها أن يأتي بها إلى بغداد لتعيش مع أهلها بعض الوقت لعل تغيير المكان يريحها . سألته عن أهله... أهلنا... وكنت أحوم حول صورة جميلة لم تفارق مخيلتي منذ زمن . أجاب أنهم جميعاً بخير ؛ يكدحون ليل نهار ويأكلون جيداً ويتزاوجون ، وكان يبتسم بحبور .

بعد فترة غير طويلة استأذن بالانصراف ، مصمماً أن يعود إلى خانقين لارتباطه بمرافعات في المحكمة . أبديتُ له أسفي لذلك وتمنيت له سلامة الوصول وسلمت على الجميع وعلى ابن العم كاسب برهان الدين خصوصاً .

حوالي العاشرة انتبهت إلى غياب أبي فتحية فقمتُ أريد السؤال عنه :

فرنَ جرس الهاتف آنذاك . كانت فتحية تتكلم بصوت رخيم حقاً ، وتخبرني ، بكل أدب وتهذيب ، بأن والدها سقط مريضاً مساء أمس وارتفعت حرارته فأخذوه للطبيب الذي أعطاه دواء وأوصاه بالراحة لمدة خمسة أيام ؛ وهو نائم الآن . قلت لها إنها أحسنت بمخابرتي فأني كنت ، بالفعل ، في طريقي للسؤال عنه . كان الحديث معها ممتعاً عبر الهاتف ، فسألتها إن كانوا محتاجين إلى أي شيء أجلبه لهم ، فشكرتني بحرارة... نحتاج رؤيتك . وعدتها أن آتي لعيادة والدها ورجوتها أن تحتفظ بالتقرير الطبي كي آخذه منها . عادت تشكرني وتدعو لي بالخير والنجاح والصحة الجيدة .

دعتني نغمات صوتها الرقيق إلى التصميم على زيارتهم مساء اليوم . أردت أن أراها بعد هذه المدة الطويلة من الفراق ؛ كان لدي عذر مشروع ، هو أن أطلع على السوق والدكاكين المؤجرة وبناء الغرفة الإضافية ومشاريع المستقبل لصبغها وإيصال الكهرباء إليها ؛ وكنت أطمع في رؤيتها جيداً ، فهي لم تسمح لي بأن أتمتع بمشاهدة الكثير منها... وجهها الجميل والعينين الخضراوين بالطبع وقسم من صفحة صدرها السمراء وأعالي النهدين .

طُرق ، آنذاك ، باب المكتب بحدة ودخل سليمان فتح الله يسألني وعيناه محمرتان ، عما إذا كان أبو فتحية قد أخذ إجازة مني بالغياب هذا اليوم . لم أجبه ؛ فبقي ينظر إليَ نظرات منحرفة شبه جنونية ، غير فاهم موقفي الملتبس . كنت ، في الحقيقة ، أتمتع باحتراق هذا المخلوق . ثم ، بعد لحظات ، فتحت ذراعي بحركة مبهمة لا معنى لها ، وحافظت على صمتي . ازدادت عيناه اتساعاً ورفت أجفانه بسرعة :

ـ نعم ؟ نعم ؟

ـ يبدو أنه مريض ؛ فقد اتصل بي أهله ليقولوا لي ذلك وسيجلبون التقرير الطبي غداً إنشاء الله .

حملق بي هنيهات ، يحاول أن يستوعب معاني كلامي :

ـ حسناً ، سنرى . مؤامرة هذه . سنرى .

اشتريت كمية من الفواكه وأنا في طريقي إلى حي العامل بعد أن أكلت غدائي بمفردي ثم مررت أطلع على حال نجية . كانت نحيلة الوجه ، شاحبة ، منهوكة القوى ؛ لكن نظراتها كانت سعيدة . قبلتها وشاركتها الضحك وشجعتها وهنأتها . لم تزل طفلة وهي في الثانية والعشرين من عمرها . لعلنا ، كلنا ، لا نفارق طفولتنا إلا بأقساط لا تنتهي إلا بموتنا ؛ وقد لا تنتهي ، ونموت وثلثنا طفل أو أكثر ؛ من يدري!

صدمتني حال (أسواق الأفراح) . القذارة والازدحام والهرج والمرج ، متى تم كل هذا ؟ غير أني ما أن ضغطتُ على زر جرس الباب التحتاني حتى ظهرت فتحية ترحب بي ، فارتقينا السلم إلى الأعلى وتغيّر الموقف تماماً . قلّت الضجة وانفرج المكان وسادت النظافة . كانت الأسواق مغطاة بسقف متين من الإسمنت المسلح ، يشكل ساحة تتسع أمام الشقة المتكونة من غرفتين ومطبخ وحمام ومرحاض ثم غرفة أخرى لم تكمل بعد .

كانت فتحية متزينة ببساطة ، تضع عباءة نزعتها عنها حالما صرنا بمفردنا . وجدتُ أبا فتحية منحشراً في فراش ضيق قذر ، وقد اصفر وجهه وطالت لحيته البيضاء . وضعتُ قربه كيس الفواكه فأخذ يشكرني ويدعو لي بالرفعة ، بصوت متهدج خافت . كانت رائحة الغرفة لا تطاق أبداً ؛ نتانة مضاعفة مع رائحة صبغ حديث! تزيدها عطانة فوق عطانة ، أنفاس المريض وعائلته . دعتني فتحية لمشاهدة الغرفة الإضافية فأسرعت بالخروج معها . طلبتْ من أمها ، بخشونة ، أن تصنع لنا الشاي . أخذتني إلى الغرفة التي لم يكمل بناؤها ؛ وجدتها واسعة ذات شباك يطل على الطريق ، ويدخل منه ضياء هادئ ينير الغرفة بشكل جيد . لم تكن أرضيتها قد كُسيت بعد بالكاشي ولا تم إيصال الكهرباء لها ؛ إلا أن فتحية أكدت بأن هذه الأمور بسيطة تنجز في أيام قليلة .

ثم دعتني بعد ذلك لشرب الشاي في غرفتها ؛ وكانت غرفة واسعة نسبياً تمتلئ بأثاث ضخم ذي لون أحمر غامق ، ويحتل السرير الكبير

المغطى بمفرش أبيض مطرز بالذهب ، نصفها تقريباً . أجلستني على أريكة ، قرب الشباك العريض المطل على الشارع العام ، وضعت أمامها منضدة ذات غطاء زجاجي . كانت واضحة الانشغال بي ، تريد أن تبذل أقصى ما لديها لتريني أنها تحتفي بي عن تقدير كبير مخلص . رأيتها ترتدي فستاناً أزرق غامقاً ، يهصر جسدها ويظهر تقاطيعه . أثارتني ، بعد أن جلستُ واستجمعت أنفاسي ، الحنايا التي أراها لأول مرة ؛ خصرها النحيل وارتفاع نهديها اللامألوف واتساع حجم حوضها ، والشعر الأسود المحنى ، يحيط وجهها بكثافة ويتلاعب بحلقات على كتفيها .

جلستْ على كرسي أمامي ووضعتْ ساقاً على ساق فارتفع طرف فستانها فوق ركبتيها الملساوين وتكشفت ساقاها الممتلئتان . صارت تحدثني عن مشاق البناء والتعامل مع الناس وتبدل أخلاقهم إلى الأسوأ وعدم احترام المواعيد والأنانية... الخ . كانت الكلمات تخرج بأناقة من فمها ، وكنت أصغي إليها مندهشاً . سمعنا ، آنذاك ، نداء أمها من خارج الغرفة :

ـ فتيخة . فخاتي .

توترت في الحال وقامت مسرعة لتغادر الغرفة . سمعتُ همهمة متقطعة حادة وتنهدات وكلمات لينة ، ولم أفهم شيئاً . دخلت بعد قليل حاملة صينية من الفضة عليها أقداح الشاي وصحن الكعك ، وانحنت تقدم لي قدحي بكل لطف وهدوء . بدت لي على درجة عالية من القدرة على التحكم في أعصابها . رجعت تجلس في مكانها الأول وتضع ساقاً على ساق ممسكة بقدح الشاي ؛ ثم عادت تكمل حديثها السابق كأن شيئاً لم يحدث .

هذه شابة خطيرة ؛ إذا كان همها أن تجمع المال فلا بأس عليها ؛ ستجمعه بالتأكيد ؛ وإذا خطر لها أن تتزوج سيداً ذا مكانة ورفعة ، فلا بأس أيضاً ؛ ستفعل ذلك . الخطر يكمن في طموحها لتتجاوز حدودها باستمرار ، فتدمر نفسها آنذاك .

حين وصلتُ بيتنا حوالي الثامنة ودخلتُ فأضأت النور ، نادت عليَ

كميلة من الدور الأعلى ، ثم نزلت في فستان بيتي شفاف . تعشينا بهدوء وانسجام غير متوقعين . انتبهتُ إلى نظراتها المتلاينة الناعسة وهي تكلمني ، فتهجست نوع القضية التي تنوي زوجتي ، هذه الليلة ، إشراكي فيها ؛ فبموجب حساباتها ، نحن في وسط الأيام الملائمة للحمل ، ولابد من انتهاز الفرصة ، وكنت متفقاً معها . بقيت ترفع ساقيها السمراوين الشهيتين إلى الأعلى لمدة دقائق ، بعد أن قمتُ عنها وذهبتُ إلى الحمام . تمنيتُ مخلصاً أن ترحمنا الطبيعة هذه المرة ، بالتخصيب ؛ وأن تنحل عقدة العقد هذه .

١٩٧٧/٤/١٢ الثلاثاء

أتأمل في حياتي ، وأشعر بالقلق ؛ إن موازينها غير مستقرة أبداً ؛ ولكم حاولت أن أبعد عن نفسي تلك المشاعر البغيضة التي توحي لي بأني في مثل هذه الظروف ، أقترب من مصير كمصير الصراصير... الانسحاق تحت الأقدام ؛ ولن يهم أن أعرف إن كان ذلك عملاً عادلاً أم لا ؛ إنما هو ، بالتأكيد ، عمل لا يليق بالانسان ، وممارسة وحشية مقنَعة .

ها نحن ، بعد سلسلة من الأعمال الجنسية ، المتعبة أحياناً ، نقف ننتظر باضطراب نتيجة ما عملنا ؛ وما أن تسيل قطرة الدم الأولى حتى تنقلب الدنيا عاليها سافلها وتثور ثائرة تلك المخبولة وتهيج وتكاد ترتكب جريمة قتل . ما معنى هذا بالنسبة لحياتي كإنسان ؟

اليوم ، فجراً ، صرختْ بوجهي لاعنة أبي وأجدادي ومن كان السبب في تزويجنا ، حين أسرعتُ إليها ، بعد أن سمعتُ نشيجها العالي وهي في المرحاض ، أسألها عما جرى لها ، وأحاول أن أحتضنها لتهدئة خواطرها ومشاعرها ؛ وبدل أن ترتمي بين ذراعيَ ، دفعتني بعنف وركضتْ مطلقةً لعناتها وشتائمها . ثم جمعتْ أشياءها بعجلة وغادرتْ المنزل . لم أتبعها ولم أجرب ، مرة أخرى ، تسكين عواطفها ؛ فقد وجدتُ ألا فائدة من ذلك .

جلستُ في الصالة متأملاً حالي . ليس الأمر مع الحياة الإنسانية ، أن نطوي الأيام والليالي تحت أباطنا مهما يكن من حسنها أو قبحها ؛ بل هو ، مع الفرد المفرد من البشر ، معي أنا مثلاً ، ألا أنغمس في مواقف مزرية كهذه ، يصير العيش فيها كابوساً ماضياً وآتياً . لا يمكن هذا ، لا يمكن هذا ؛ ومع صبري وتحملي ، إلا أن شعوراً بالتقزز من ذاتي أولاً ، يكاد يغرقني . أنا أُداس بين الحين والآخر ، وباستمرار ؛ ولستُ راضياً بذلك . كلا ؛ لستُ راضياً ؛ ولعلي سأثبت يوماً بأني لستُ الرجل الذي يظنون .

١٩٧٧/٥/٣٠ الاثنين

فتح الباب بعنف وتوقف ممسكاً به ثم سلّم بخشونة ووضع حزمة الكتب والرسائل على مكتبي بحركة هي أشبه بلبطة سمكة . رفعت نظري إليه .

ـ أبو فتحية غائب... كالعادة ، ونقوم نحن بالتوزيع ، أستاذ توفيق .

أردت أن أجيبه تواً ، لكنني وددتُ أن أبدي له بأني متين الأعصاب وأن دخوله وتصرفه الهمجي لم يؤثر عليّ . تلبثتُ هنيهات ، وعندما همّ بالتراجع ، كلمته :

ـ أرسله السيد المدير العام في مهمة تخص السيد الوكيل .

اختض كيانه كله :

ـ وأرجو ألا ترمي الرسائل هكذا مرة أخرى على مكاتب المسؤولين .

تراجع وأغلق الباب بحذر .

أثار استغرابي أن أجد أغلب المراسلات مشوهة بخطوط لا معنى لها وإشارات تحت بعض الكلمات ودوائر حول أخرى ، فقررت أن أعرضها على السيد المدير العام ، فهذه مراسلات رسمية ستُحفظ في أضابير ويُرجع إليها في المستقبل ، ولا يمكن أن تعامل بهذه الطريقة .

أخذت المراسلات معي وحكيت للسيد المدير العام حكاية الأخ مسؤول الأمن وكيف تصرف معي ثم عرضتُ عليه تلك الرسائل الحكومية التي

لستُ غير ملوم ، وأنا لا أفتش لنفسي عن تبرير ، لكني ـ متذكراً دون إرادتي ، هياجها وحقدها وشتائمها خلال السنين الأخيرة ـ لم أسع لفهمها أو التصالح مع هذه الإنسانة المضطربة .

هكذا إذن ، يشتد حصار الدوس والسحق حولي ، ويزداد ثقلاً على قلبي ؛ إلا أن ما كان يعزيني هو فكرة بسيطة تتلخص في كلمات : لا مجال للقضاء عليَ وأنا بهذا الوعي ، فأنا أرى كل شيء مرتين ، وهو ما يعني أن لدي الوقت الكافي للعمل .

علمتُ من أخبار نقلتها نجية لأمها ونقلتها هذه لعبد الباري فنقلها بدوره إليّ ، بأن أنوار حامل في شهرها الثاني . سررتُ بالرغم مني . لعلها ، بل هي بالتأكيد ، سعيدة بهذا الحدث ، ولعلها ستغني وتفرح بدنياها وحياتها ؛ وكل ذلك جميل ، لابد أن يسرّ البشر .

١٩٧٧/٦/١٥ الأربعاء

اليوم أكملت من عمري خمسة وأربعين عاماً ، شاعراً بأني على مبعدة من نفسي بقدر هذا العدد من السنين الضوئية كما يقول الفلكيون . أنا... لست أنا ، كما عهدتُ نفسي في الماضي . لا أعلم كيف تكوَّن هذا الشعور فيّ ولا كيف تنامى ؛ لم أتغير إرادياً بالتأكيد ؛ فأنا ، مثل بقية البشر ، أُطرق بمطرقة زملائي البشر ومطرقة أخرى تحملها الظروف الطارئة ، فتتشكل نفسي ، هكذا ، بأشكال تحكمها الصدفة العمياء . لكل هذا ، أحس كمن يحس من يقف وفوق رأسه شخص يهم بضربه ؛ فهو ينتظر الضربة/ الكارثة ، بين لحظة وأخرى ؛ إنه إحساس بالتوفز والقلق والكآبة والإحباط وانعدام الفرح وظلام المستقبل .

ولستُ أتساءل عن السبب ؛ فالحياة لعبة بوكر ، لا يجوز الاعتراض فيها على الورق الذي يُرمى إليك ؛ يمكنك الانسحاب حينما تريد أو حينما يرغمك خصم على ذلك ؛ أما الاعتراض فغير مسموح به . جالس في البيت

وحدي والشمس تغيب في يوم مولدي كدأبها دوماً وقد أنهيت قبل قليل قراءة رائعة ستندال «الأحمر والأسود» . تركني إعدام جوليان مشوشاً حزيناً ، غير عارف بالضبط ما إذا كان هذا الفعل البالغ القسوة ، صواباً أم لا . تخيَلت رأسه الجميل يتدحرج ويسقط ، مدمى ، في سلة الموت ، فازداد حزني وتشوشي . أمن حق المؤلف ، أي مؤلف ، مهما عظم ، أن يذكرنا بتفاهة الحياة ؟ وأية منفعة له في ذلك ولنا ؟

مازلنا ، هي وأنا ، غرباء ، في بيتنا ، لا نتبادل حتى التحية! والمضحك المبكي في الأمر هو أني ، على الأقل ، لا أعلم لهذا الوضع الشاذ سبباً معقولاً .

١٩٧٧/٧/٢٣ السبت

خرجت من البيت صباحاً إلى حر بغداد وشمسها المحرقة وكانت الساعة تشارف السابعة والنصف ؛ فلما استخرجتُ مفاتيحي اكتشفتُ أن مفتاح السيارة قد رُفع وبقي لدي مفتاح باب الدار فقط... ففهمت . لم تجرؤ السخيفة على مواجهتي فسرقت مفتاح السيارة دون أن تحذرني كي أخرج مبكراً من البيت . أسرعتُ أحاول أن أتحاشى الازدحام وأصل في موعد غير متأخر كثيراً . وجدت غسان ينتظر مع عشرات المنتظرين في موقف الباص . حييته فابتسم مندهشاً من رؤيتي وأجاب على تحيتي . أخبرني بأنه نجح في الدور الأول فهنأته بحرارة وحذرته من الإهمال مرة أخرى والمغامرة بمستقبله الدراسي . سألته أين يذهب فتحاشى الإجابة والتفت إلى جهة أخرى . شغل عائلي . لم أفهم ما يعني ؛ وانتبهتُ إلى مضي الوقت فقررت أن أستقل سيارة أجرة لئلا تثار فضيحة في الدائرة بسبب تأخري ، فلست بدون أعداء مجانين هناك . صحبتُ غسان معي فنزل في شارع الرشيد ومضيت أنا إلى وجهتي . وصلت بُعيد الثامنة والنصف بقليل ، ولم ينتبه أحد لهذا التأخر . كان أبو فتحية ينتظرني بباب المكتب فلاحظت على جهة من رأسه نقطة صبغ زرقاء ،

فضحكت وسألته عما إذا كانوا أكملوا صبغ حيطان الغرفة الإضافية فدهش بسرور وأخذ يتقافز حولي كعادته التهريجية ويصف كيف بدت الغرفة بعد الانتهاء من طلاء جدرانها بالصبغ ليلة أمس .

استرحتُ بعد أن شربتُ الشاي والماء البارد ، وأخذت أتغلب تدريجياً على انزعاجي من تصرف كميلة العدائي . لابد لي من التأمل في دلالته وفيما تريده حقيقة هذه المخبولة . تذكرت أني لم أرها صباحاً حين استيقاظي . كان ذلك أمراً عادياً في الأشهر الأخيرة . لا أحد في البيت يسأل عن أحد أو يهتم بما صار إليه ؛ وكل واحد حرّ في تصرفاته حرية مطلقة منفلتة إلى أقصى الحدود . لذلك حلقتُ وأفطرتُ وارتديتُ ملابسي دون اكتراث بمن يوجد في البيت أو لا يوجد ؛ وخرجتُ كالعادة وكانت المفاجأة غير السارة .

حسناً ، لقد انزوت في بيت والدها وتركتني لقمة سائغة للحر والشمس والعرق والمهانات الأخرى . من أجل ماذا ؟ ألكي تقول لي ، بطريقة خاصة ، إنها الأقوى لأنها تملك ، وأنا لا أملك ؟ شربتُ القدح الثاني من الشاي بهدوء والتذذت بطعمه . نادراً ما يحصل لي هذا ، فالشاي يُعمل عندنا بآلية تفقده رونقه وطعمه ؛ إلا أنه ، هذه المرة ، كان ذا امتياز ومصنوعاً بإتقان . وماذا يعني ؛ في علاقة المساواة التي جهدتُ لتحقيقها معها ، أن تكون الأقوى وأن يكون الآخر ، بالضرورة ، هو الأضعف ؟ إنه عدم التوازن والانحراف الخطير والارتماء في أحضان الكارثة .

قبيل انتهاء الدوام ، خطر لي أن أتصل هاتفياً بعبد الباري ليوصلني بسيارته ويجنبي مشاق العودة بالباص ؛ لكن هاجساً غامضاً ساورني بأنه إذ يعتذر بأي عذر ، حقيقي أم مزيف ، فسوف أحزن كثيراً . وصلت البيت حوالي الرابعة والنصف فاستحممت وأكلت ما وجدته ثم نمت . ذهبت قبيل الغروب أسأل ثريا عما تقصد أختها من هذه التصرفات ، خاصة وأن السيارة لم تتحرك من مكانها . كانت ثريا امرأة خبيثة باعتدال ، تلاحق مصالحها

الآنية بشكل معقول ، ولكنها لا تتخلى عنها مطلقاً . تبدلت ملامح وجهها فعلمتُ أنها لا تعلم ، فلم أزد من أسئلتي . المهم أنها علمت .

١٩٧٧/٨/٢٢ الاثنين

كان الوصول إلى الدائرة في الوقت المحدد ، صعباً ومرهقاً مثل كل صباح . جعلت كميلة من السيارة ، سيارتها ، قضية مستعصية ؛ ولم أساعد أنا ، من جهتي ، على جعلها أقل استعصاء . سحبت مني مفاتيحها قبل شهر دون سابق إنذار أو سبب معلوم ، وجعلتني أتمرغ في وحول وسائل النقل حوالي أسبوعين ؛ والسيارة واقفة أمام البيت رمزاً حياً لحماقتها ؛ فلا هي تستعملها ولا تدعني أفعل ذلك ؛ ولا هي ترضى أن نتفاهم أو تفصح عما تريد . ثم أرسلت ، بعد أكثر من ثلاثة أسابيع ، المفاتيح بيد أختها ثريا فرفضتُ أخذها وفضّلتُ مهانات وسائل النقل التي بدت لي هينة مادمتُ قد اخترتها ، على سيارتها . ولم أعلم ، ولاأزال ، دافعها لكل هذا .

لم يهمني كثيراً أن أستيقظ ساعة قبل الموعد المعتاد ، فلستُ أسهر ؛ لا قمار ولا شراب ولا مسائل أخرى مهما تكن ؛ ولم أعد أحتاج أن أكتب أو أفكر كثيراً ؛ بل انحصرت حياتي في تحاشي التعب والحر والإرهاق الزائد . القراءة وحدها بقيت عادة ملازمة لي ، فيها وجدتُ حياة على مستوى آخر يجاوز مستواي الفردي .

قرأتُ رواية سانين مرة ثالثة بعد أن أخبرني عبد القادر أنه جلّدها للمحافظة عليها فطلبتها منه فجلبها لي . حسدتُ سانين ، كما هي عادتي كل مرة ؛ حسدته لإدراكه ويقينه وسيطرته على ذاته وجرأته وصفاته الأخرى التي جعلت منه إنساناً عادياً وأسطورياً في نفس الوقت ؛ ولكم تحسرتُ أن تنتهي الصفحة الأخيرة وأن أضطر إلى مفارقة هذا المخلوق وهو يقفز من القطار ، تاركاً هذا يمضي بدونه إلى أفق مجهول .

أكتب هكذا لأهدأ من توزع واضطراب نفسي قليلاً ؛ ولعلي ، في سكون

الليل الثقيل ، منفرداً مع الصفحة البيضاء هذه ، أستطيع أن أعالج بشكل صحيح قلقي مما حدث صباح اليوم .

كانت المبردة في المكتب ، ماتزال معطلة منذ يومين ؛ وغرفتي ، بمواجهة المشرق ، حارة ، رطبة الهواء . نزعتُ سترتي ؛ كنت مبللاً بالعرق ومنهكاً . جلستُ أرتاح ؛ وشربتُ كأس الماء البارد وقدح الشاي اللذيذ ، لكن انزعاجي مما لاقيتُ في الباص بقي مسيطراً عليّ ؛ وكان النبض القوي في صدغي يمنعني من التفكير أو البدء في العمل . لعل ضغط دمي ليس على ما يرام ؛ فلا يمكن أن تتحمل الشرايين البشرية الرقيقة كل هذه الضغوط اللاإنسانية المستمرة منذ شهور . يتوجب عليّ مراجعة الطبيب إذن ؛ مهمة أخرى لا أحبها .

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة كما أعتقد ، والحر صار لزجاً خانقاً حينما اندفع سليمان فتح الله إلى الغرفة ، ضارباً الباب بشدة . رفعتُ رأسي مندهشاً . كان واقفاً في الإطار وعلى وجهه علائم ممزوجة من الغضب والجنون والحقد . تقدم خطوة ورمى حفنة من المراسلات الرسمية كان يحملها ، على مكتبي فتناثرت وتساقطت على أوراقي وفي حجري ؛ ثم وقف دون كلام وقفة تحدٍ ، وشفتاه ترتجفان ووجهه أزرق في احمرار . شعرتُ ، لحظة ، بدوار في رأسي ، فعلمت أنها إشارة الانفلات ؛ لم يعد العقل يعمل . قمت من مكاني بهدوء وسرتُ نحوه :

ـ سبق لي أن نبهتك ، لا تقم بمثل هذه الأعمال معي .

صفعته بقوة على خده الأيسر فارتطم رأسه بالباب ، ألحقتها بضربة من قدمي في جنبه فترامى بضجة كبيرة ثم انطرح ساقطاً على الأرض وهو يصرخ مستنجداً .

كان سؤالي لنفسي بعد ذلك معقداً بعض الشيء... هل الوظيفة والفرد ، شيئان مندمجان لا فرق بينهما ؟ وهل الإساءة التي توجه إلى الوظيفة ـ التي لا علاقة لها بالكرامة ـ تعتبر موجهة إلى شخص الموظف وتُعد ، بمنظور

الأخلاق والمجتمع ، تنزيلاً له وإهانة لكرامته ؟ وكيف بإمكاننا أن نتصور وظيفة لا تهان وموظفاً مهاناً ، في نفس الوقت ؟ هل يعير الموظف كرامته للوظيفة ؟ أم أنه يشيّد كرامته الشخصية على أساس الوظيفة التي لا تحوي في جوهرها هذا العنصر ؟

ولم أستطع الوصول إلى أجوبة ذات حدود معلومة . فكل أمر في هذه الأسئلة يحتاج إلى توضيح وتفسير ، ولم أكن أملك الطاقة ولا الصبر لإتمام هذه المهمة .

وصلتُ البيت بُعيد الرابعة ، وكنت كمن ضُرب بالسياط ، دائخاً مشلول القوى . لم تنتهِ الضجة في الدائرة إلا قبيل انتهاء الدوام ، وكنت أحاول ، آنذاك ، تبيان الموقف على حقيقته للمسؤولين ، غير قاصد أن أدمر الغريم بكل ثمن ؛ إلا أن سليمان ، من خلال شعوره بالإهانة ، كان يسعى لذلك بكل قوة . قدمنا شكاوي وطلبات للتحقيق ، واستمع المدير العام لأقوالنا وأبدى لي امتعاضاً غير متوقع . ثم تبارى الموظفون للتحدث معي خفية وإظهارهم للتعاطف . كان ذلك جبناً بعث فيّ الحذر .

استحممتُ واسترخيتُ في الصالة المبردة ، مضطجعاً على أريكة . لم يكن هناك أحد في الدار ولم أجد ما يؤكل . يبدو أنها لم تزر محل سكنانا هذا اليوم ولا هي قد فكرتْ بي طبعاً . نمت على جوع نوماً مضطرباً وصحوت في السابعة مساء . ارتديت ثيابي وعبرتُ الشارع إلى بيت أخي عبد الباري . حضّرتْ لي ثريا ، بناء على طلبي ، طعاماً خفيفاً . أخبرتها بما حصل لي صباح اليوم . صُدمتْ بشدة واستغربت مني هذا العمل . أخبرتها بأني أنا الآخر أثار استغرابي أن أقدم على ضرب إنسان لأنه رمى بإهمال وريقات في وجهي . سألتني عما يمكن أن يفعلوا بي . فقلت :

ـ لا أدري بالضبط . لعلهم يعاقبوننا نحن الاثنين بإلفات نظر أو إنذار أو ما شابه ذلك .

تمنت لي الخير ، فالدنيا لا تؤتمن هذه الأيام ؛ فأيدتها في كلامها .

عدت إلى دارنا الخالية وفتشت في الراديو عن موسيقى هادئة تخفف من توتر أعصابي ، فلم يسعفني الحظ . تذكرت أني لم أسألها عن كميلة ولا عن عبد الباري أو والدتي ، ولم تفه هي بكلمة عنهم .

١٩٧٧/٨/٢٣ الثلاثاء

انتظرتْ أوبتي من الدائرة ، جالسة في الصالة ، منقلبة السحنة . بادرتني بالكلام . كنتُ مطحوناً بالحر والشمس والازدحام وما لاقيته في يومي من مضايقات وتكهنات مقلقة وإشارات ذات معنى . أخذتْ تستوضح عما حدث لي أمس في الدائرة كأننا لم ننقطع عن تبادل الحديث منذ أشهر! وكانت تريد أن تعرف أمراً واحداً... ماذا سيفعلون بي ؟ وهو الأمر الذي كنت أجهله .

أوجزت لها كل ما حصل دون تزويق ، وأنا أنزع ثيابي استعداداً للاستحمام ؛ ثم رجوتها ، بلهجة خشنة ، ألا تعود إلى سؤالي عما جرى وعما سيجري ، لأني أكثر تعباً وارهاقاً من أن أجيبها . رأيتها تتردد قليلاً ، ثم قامت بعجلة فخرجت .

أكملتُ استحمامي ثم استلقيت في الصالة المبردة . أحزنني أن أستعيد هذه المقابلة الجافة ؛ أية علاقة هذه ؟ وكيف يتسنى للبشر أن يصلوا إلى هذه الدرجة من القسوة وعدم الاكتراث بما يحدث لأقرب الناس إليهم ؟ ثم... عماذا جاءت تبحث وهي تسأل وتستوضح ؟ عما سيحدث لي ؟ ومتى همها ما يحدث لي! عما سيحدث لها ؟ محتمل جداً ، وهو أمر يبعث على الحزن .

كنتُ حزيناً إذن ، وأنا مستلق في الصالة المبردة أفكر ؛ ثم إني شعرت بالجوع ، أخيراً ؛ وكانت الساعة قد جاوزت الخامسة ، فقمتُ ، بأمل خادع ، في أن أجد ما يؤكل ، مادامت قد تجشمت المجيء إلى البيت والانتظار ، فلعلها... من يدري!

نمتُ أكتم جوعي وخيبة أملي ؛ وكان رقاداً ، كنومة أمس ، لا يريح ولا

يمنح الجسم نشاطاً . ثم إني ، بعد استيقاظي ، خجلتُ أن أقصد ثريا مرة أخرى لتطعمني ، فارتديت ملابسي وخرجت مع الغروب . لم أكن أملك الكثير لأبعثره على أكلة في مطعم راق ؛ فاشتريتُ قطعة جبن وفواكه وخبزاً ثم عدت . أكلت بغير حماس ولكن برضا ، وكنت سعيد الحظ ، إذ عثرتُ على محطة مجهولة تبث موسيقى شجية .

كانت الحكايات في الدائرة تتمحور حول إجراء تحقيق معنا ثم معاقبتنا بإلفات نظر أو إنذار ؛ وكان المسكوت عنه خلف هذه الحكايات ، أن الأعرج له علاقات بجهات أخرى متنفذة قد يستطيع إقناعها بوجوب العمل ضدي ومعاقبتي بقسوة . وكان الجميع ، أحسستُ ، مشفقين عليّ . قلقتُ ، وزاد في قلقي أن المدير العام نأى بنفسه عني وتحاشى إبداء أي ميل أو تعاطف نحوي . خطر لي ، وأنا أتناول وجبة عشائي السعيد ، أن أفحص إمكانياتي في القيام بهجوم مقابل لحماية وظيفتي على الأقل . لم أجد شيئاً ، لا شيء على الإطلاق ؛ لا علاقات عندي مفيدة في هذه الشؤون ؛ فأنا ومن أعرفهم من أصدقاء وغيرهم ، في ركن يغلفه الظلام ولا قدرة لنا على التأثير في مجريات الأمور العامة . كما أني لا أملك مالاً بكمية تمنحني قوة على جعل الأحداث تنحرف لتصير بجانبي . إذن ، « لاشيء » هذه صحيحة ؛ ومن هذه الفكرة بدأتُ بمحاربة القلق وتفتت الأعصاب . ارتحْ مادمتَ لا تقوى على عمل ما ؛ نهج بسيط بدأت بالسير عليه منذ تلك الليلة . الراحة التامة ، المؤسسة على العجز المطلق ؛ فدنيا هذه الأيام لم تعد لنا وما نمثل ، ويجب أن نفهم ذلك ولو متأخراً .

١٩٧٧/٩/١١ الأحد

بسبب أنها دخلت في شهرها ، كما يقولون ، منذ أسبوعين وانتظاراً لحادثة الولادة التي توجّب أن تتم في بغداد ، فقد هلّت علينا نجية ببطنها العالي ومعها ممتاز ورهط من زوجات أبناء العم لم تكن من بينهن ، للأسف ،

«أنوار» ي . كان ذلك مساء الخميس الماضي فخطر لعبد الباري خاطر عبقري لا يلائمه ، هو أن يسعى وثريا للصلح بيننا... كميلة وأنا . ولم أكن ضد هذا الرأي ؛ فقد انزاح عني قلق حادثة الأعرج بتوجيه إلفات نظر إلينا كلينا من قبل المدير العام ، واعتُبرت القضية منتهية مما أراح الجميع . ثم إني لم أمارس الجنس منذ وقت لا أتذكر بدايته ، بحيث صار التوتر عندي عادة لعينة دائمة ، وصارت رؤية النساء تحيلني إلى مراهق أحمق . وكانت فرصة لعبد الباري وعميد آل قصابي انتهزاها ليشربا ، تلك الليلة ، مع ممتاز ما شاء لهم الشراب . أجلسوا كميلة لصقي ، فتهيّجتُ من ملمس فخذها وكتفها وذراعها ، وكانت هي أقل ثقلاً وتهجساً وأقرب إلى طبيعتها السوية الماضية . شاركتنا نجية ومن جاء معها من النساء ، جلستنا تلك ، وبدت سعيدة ، تشعر بأهميتها وأهمية الحادث المقبل ؛ إلا أنها بقيت تتصرف كطفلة يدللها الجميع .

حوالي العاشرة قدموا العشاء ، وكنا منتشين بما شربنا ؛ نضحك لغير سبب أو لسبب لا نعرفه بالضبط ؛ وكنت أتلمس ظهر كميلة بين الحين والآخر ، وأنزل بيدي ، سراً ، حتى أعالي ردفيها ؛ فيزداد ، مع هذه المداعبات ، ضحكها وغنجها . وعندما عبرنا الممر الموصل بين دار آل قصابي ودارنا ، توقفنا تحت السقيفة في الظلمة ، وأخذنا نتبادل القبل الشهوانية ونلصق أجسادنا ببعضها . ولم ننتظر الوصول إلى غرفة النوم ؛ فتوقفنا في الصالة وبدأنا ، بين قبلة وأخرى ، ننزع ثيابنا ونتساعد على ذلك . كان جسدها حاراً ناعماً ، ذا منحنيات وكتل لحمية تثير جنون الرغبة . تلاحمنا مع بعضنا على أريكة طويلة ، وأخذتُ أداعبها بخفة في مواضع حساسة فارتفعت منها تنهدات وتأوهات أججت شهوتي . أردت أن أدخلها فرفعت ساقيها فإذا بنا نتهاوى من الأريكة الضيقة ونسقط . ضحكنا دون مبالاة ، ووضعتُ يديّ تحت ردفيها الثقيلين ثم نمت عليها مرة أخرى . كان ضوء الشارع حُلمياً شاحباً ، أحال وجهها إلى وجه إلهة شبقة ذات شفاه

لينة تمتص الفؤاد . احتويتها بين ذراعيّ وفخذيّ وعصرتها إلى جسمي ، شاعراً براحة عظمى تخالط شهوتي وأنا أضمها وأدخلها بقوة هكذا . تلاشى الزمن الماضي كله وبقيت الأجساد تعيش حاضرها اللذيذ وتسعد به . ارتفع أنينها بعد فترة وازداد ارتفاعاً مع الوقت ومع تحركي فيها حتى تحول إلى صرخات أنينية كان وقعها جميلاً على مسمعي ؛ ولم نتأخر كثيراً وانتهينا ، ثم قمنا نغتسل ونتهامس ونأخذ طريقنا إلى الفراش . يوم الجمعة قضيناه مع الجمع السعيد . أكلنا وشربنا في حديقة دار عبد الباري المشمسة ؛ ونزلت أمي أيضاً فقبّلتُ يدها وقبلتني في صدغي . لم نتبادل الكلام وكانت متعبة من حمل سنين عمرها . سألتُ نجية عن أنوار فأخبرتني بأنها تكاد تطير سعادة بحملها وأنها قد ازدادت جمالاً على جمال رغم سمنتها وارتفاع بطنها . يا لله ، كم اشتهيتُ أن أراها وأرى هذا الجمال الذي يزداد!

١٩٧٧/٩/٢٨ الأربعاء

أمس ١٩٧٧/٩/٢٧ ، في الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح يوم مشرق ، ولدت في مشفى الحيدري للولادة الصغيرة عنبر ، ابنة نجية وممتاز اللامي . خابرتني كميلة إلى الدائرة لتنقل لي الخبر وتطلب مني العودة مبكراً حسب الإمكان لكي نذهب إلى المستشفى في وقت مناسب . وعدتها بذلك .

استأذنتُ من السيد المدير العام للخروج قبل انتهاء الدوام بساعة ، فقابل طلبي البسيط هذا بالامتعاض ، ثم أخذ ، وهو متجهم الوجه ، يوضح لي بأن هذا عمل غير مرغوب وليس فيه شعور كبير بالمسؤولية . تراجعتُ دون أي تعليق أو إبداء دهشة ؛ أقلقني فقط أن يصل جبن المدير العام ونفاقه إلى هذا الحد ؛ وخطر لي أنه يشم ، ربما ، رائحة أمور تجري في الخفاء ويرى أنها تستهدفني وأني صرت شخصاً يستحسن عدم مراعاته أو إظهار التعاطف معه . محتمل ، محتمل جداً ؛ فمع منطق المصالح والأطماع الشخصية والجهل بالحقائق ، يمكن أن يحدث كل شيء ، كل شيء .

ذهبتُ مع كميلة إلى المستشفى حوالي الخامسة مساءً ، وكانت السماء قد تلبدت بالغيوم الثقيلة . لم أفصح لها عن هواجسي ، فلا فائدة من نقل عدوى هذه المضايقات النفسية إليها ، واكتفيت بمداعبتها بالكلام والملامسات وإشعارها بأهميتها العاطفية والجسدية بالنسبة لي . كنت ، في الحقيقة ، مثاراً جنسياً لغير سبب مفهوم ، كأني داخل في حلقة من الهيجان الفحولي أو في فترة فوران الطاقة التخصيبية ؛ وكان التقرب من أنثاي وأنا في هذه الحال ، يمنحني لذة مستحبة .

صحبنا ممتاز معنا في العودة إلى البيت ، وقامت كميلة بتحضير عشاء فاخر لنا... لي ولعبد الباري وممتاز ووالدها . جلسنا نشرب ونضحك ونتذكر حركات الصغيرة عنبر ونحاول أن نحدد مدى ابتعادها عن ميراث آل عبد المولى في الخلقة ؛ واعترف ممتاز بأمله في أن تتشكل ابنته على مثال أمها فذلك خير لها وللجميع .

كانت كميلة ، خلال هذا الوقت ، تروح وتجيء ، هي وابنة اختها نريمان ، وعلى وجهها ابتسامة وفي عينيها بريق ارتياح وأنس . احتكت بي عدة مرات وقعدت ، مرة ، على ذراع الكرسي الذي أجلس عليه فأحسستُ بردفيها يفترشان رسغي . لم ننته من الشراب بعد العشاء ، فأكملنا السهرة بشرب المهضمات الكحولية القوية التي طرحت عميد آل القصابي فقام بمساعدة ممتاز ومضيا إلى بيتهم ، ثم أعقبهما عبد الباري وابنته .

كانت الساعة تقارب منتصف الليل حينما انفردنا ببعضنا . لاحظتُ على كميلة عديد الحركات التي استنتجت منها أنها قد تكون كرعت خفية بعض الكؤوس ، وأكدت لي رائحة فمها ذلك . كانت دائخة ، متراخية الجسم ، تشتهي الجنس بعنف . صعدنا إلى غرفتنا نتضاحك ونتبادل القبل والمداعبات . وقفنا متلاصقين بشدة ، نمتص شفاه بعضنا . فمدت يدها وأمسكت به تداعبه برفق . تعرينا بسرعة وارتمينا على الفراش متحاضنين . كان ضوء الشارع خافتاً كالعادة ، ذا تأثير جذاب على الأجسام ، فأخذتُ

أقبلها في أنحاء جسدها الحار ، وأنا أحس بها تتلوى لذة وتعبث بشعري ، ثم تمسك به تداعبه وتعصره بخفة ، وتمر بيدها على بطني وظهري وفخذي . كانت عملية سحرية رائعة لم تستمر طوال العمر مع الأسف . انتهينا معاً كمخبولين ، نتبادل اللهاث ؛ ولم نقم لنغتسل وكان الاستسلام للنوم ، هو التتمة المثلى لتلك الذروة المذهلة .

... وغارقاً في لجج النوم العميق والوقت يمر ، لحظة أم نصف لحظة أم عشر معشار اللحظة أم سنة من السنين ، لستُ أدري ؛ تبدى لي وجه حبيبتي الغائبة ، تعود بعد فراق طويل . مَنْ كانت من النساء ؟ لم أكن على ثقة ؛ فهي ، في الآن نفسه ، « آديل » و« لارا » جيفاكو و« أنوار » و« سونيا » راسكولينكوف و« كميلة » و« ماتيلد » ستندال ، وهي في آن آخر واحدة مفردة... امرأتي ، حبيبة القلب ؛ وكنتُ أحتضنها ، وقد أخذني إليها شوق عظيم محرق ، وأقبلها بلهفة وأقبلها ، وشوقي يفيض ويلتهب . ومن عمق نومي السحيق ارتفعتُ ببطء متيقظاً رويداً رويداً وأنا أحس ، مغمض العينين ، بالجسد الأنثوي الدافئ الناعم يتقلب بين ذراعيّ ، والوجه ذي الأنفاس العطرة والشفتين الناعمتين تمتصان شفتي... وفتحت عيني . كنا ؛ كميلة وأنا ، عراة مشتبكي الأجسام ، ونحن في حمى قُبل شهوانية وأنا منتصب بشدة داخل ساقيها وهي تتأوه بسكون ؛ وكانت أضواء الفجر الأولى تغرق الغرفة الدافئة ونحن منسجمان ضمن لعبة من السحر لا مثيل لها . ضممتها إلى صدري فارتفعت ، آنذاك ، أجفانها وخيل إلي أني أرى في عينيها الناعستين دهشة ومحبة واشتهاء . رمينا عنا الغطاء وقعدنا كأننا على اتفاق ؛ فانحشرتْ بين أحضاني وركعت رافعة ردفيها إلى الأعلى في الوضع الأمثل للإدخال العميق . كانت عملية جنسية ثانية ، خلال أقل من ست ساعات ، ذات نكهة خاصة ومن الطراز الأول مارسناها بسعادة .

كنت ، في الدائرة ، متعباً بعض الشيء ، بودي أن ينتهي الدوام بسرعة كي أسترجع بنومة ما بعد الظهر ، نشاطي العادي .

صار العمل يزعجني ويؤثر سلباً على أعصابي . خطر لي أن أتمتع بإجازة قصيرة أريح فيها نفسي من هذا الجو المسموم الذي يحيط بي . كل شيء ملغوم ومزيف ؛ حتى أبو فتحية لم يعد يثيرني بحكاياته وبالإشاعات التي يمضغها الموظفون وبذكره لفتحية وسلامها الذي ترسله لي باستمرار . لم يعد يهمني شيء . فقدتُ شهية الاهتمام بالدنيا فجأة ؛ ولعلها نوبة أخرى من نوبات النوم الحياتي التي تهاجمني بين زمن وآخر . إلا أني أشعر ، هذه المرة ، بأني قمتُ بما أراحني ، أو يجب أن يريحني ؛ فلم يعد الأعرج يتجرأ على المرور أمام باب غرفتي وكنت محترماً من الجميع رغم قلقهم على مصيري . القلق على المصير... ربما يكون هذا هو الثمن المتوجب دفعه لخفة القلب والارتياح النفسي واحترام الذات .

١٥/١٠/١٩٧٧ السبت

دخلتُ ، منذ أسبوع ، في نوبة قراءات أخرى لا تنتهي . كنت مطمئن النفس رغم الكآبة الخفيفة التي أمست عادة عندي وأنا في سورة هذه النوبات . في البيت ، نحن متفقان بإعطاء كل واحد للآخر حريته المعقولة في التصرف بوقته الخاص . تبدلتْ نظرة كميلة إلي بعد أن تصالحنا وتعاطينا الجنس مراراً ؛ صارت مترفقة في التصرفات ، متفهمة لأغلب الأمور التي أنقلها إليها . وإذ لمستْ عن قرب زهدي الطبيعي في الخروج والالتقاء بالناس وحضور الحفلات ، أخذت تدبر أمورها بحيث لا تكلفني مشقة لا داعي لها ؛ فانكفأتُ على نفسي ، في أمسيات الخريف هذه ، أقرأ وأفكر وأستمع إلى الموسيقى أحياناً . كان ذلك أقصى ما يمكنني أن أتمناه ؛ وخطر لي عدة مرات بأني نلت هذا التحرر الوقتي الجميل عن جدارة ؛ فهو ، رغم مظاهر التشتت ، نتيجة منطقية ونفسية لما حصل لي مع الأعرج . لم أكن ، قبل ذلك اليوم ، غير إنسان مداس ، إنسان مضغوط عليه ، إنسان لا يملك أن يرفع رأسه .

أمس مساء ، كنت جالساً بمفردي في الصالة أقرأ الصفحات الأخيرة من كتاب «الأيام» لطه حسين ، حين طرق الباب وفاجأني أبو فتحية بظهوره أمامي . لم أكترث بمقدماته الطويلة عن وجوده في الحي ، صدفة ، وتفكيره بزيارتي والسؤال عن الصغيرة حفيدة أخي... الخ ، وسألته أن يفرغ ما في جعبته الخفية . قال إنه قلق باستمرار لما يسمع من إشاعات ولا ينقلها إليّ ، فهي لم تنقطع منذ ذلك اليوم ؛ ثم أبدى خوفه عليّ ودعاني إلى التحرك . أجبته ، كأني أحادث نفسي ، بأن كل هذه الاشاعات هي من صنع الأعرج الذي فشل في عمل أي شيء ضدي وأني لا آخذها مأخذ الجد وعليه أن يطمئن . سره كلامي وصدقه كأنه قول منزل وبدأ يشرب «السڤن آپ» الذي قدمته له بشراهة . بعد ذلك فتح موضوع ابنته فتحية وصار يشكو من سوء معاملتها لهما وتجاسرها على أصحاب الدكاكين المستأجرين في السوق ورفضها تأجير الغرفة الإضافية التي بنوها جوار شقتهم ، فقد تركتها فارغة إلا من بعض صناديقها المغلقة .

ـ اصبروا عليها ، فهي مترملة منذ وقت قصير ولاتزال شابة صغيرة . اصبروا عليها فالزمن يداوي هذه الحالات .

وكنتُ أتخيل خصرها الناحل وحوضها العريض والثديين العاليين .

ـ لماذا لا تمر علينا يا أستاذ توفيق وتتكلم معها ، فهي تحترمك مثلنا كثيراً وقد تسمع منك ما لا تسمعه منا .

وعدته خيراً وشجعته على الانصراف ، فليس من المستحب أن تلقاه كميلة وتبدأ استنتاجاتها الملتوية عن السبب والمعنى وماذا سيجري لك... الخ . كانت زيارة ذات دلالة ؛ فهذا الرجل القميء ذو قلب حساس وحدس بعيد ؛ ولعله يملك من أخبار الحقيقة ما يخشى أن ينقله لي . أوصيته أن يسلّم لي سلاماً حاراً على فتحية وأن يوصيها بالعناية بنفسها وبأني سأزورها عن قريب .

أما «أيام» طه حسين فعمل لغوي وإنساني ذو مستوى رفيع حقاً ؛

شيء خارق تلاعب هذا الرجل باللغة ودقة تعبيراته . لم يعجبني منه فقط اختفاءه وراء ضمير الغائب وهو يحكي عن نفسه . أعجبتُ به أولاً ثم صرتُ أستثقله بعد ذلك .

رجعت كميلة بعد الساعة التاسعة وكانت في سيارتها وقد بدت عليها سعادة غريبة . وجدتني أتعشى وأستمع إلى الموسيقى ؛ فجلستْ تحكي لي عن أحوال الدنيا . كانت متزينة بإفراط تنبعث منها رائحة السكاير ؛ وكنتُ مستأنساً بكآبة وأنا أتظاهر بالإنصات إليها . أردت أن أحدثها قليلاً عن «الأيام» ، إلا أنها لم تترك لي الوقت اللازم ، وقامت ، مبتسمة ، تهز أردافها المكورة ومضت إلى الأعلى . لم يخطر لي أن أتبعها فقد انطفأت جمرة الشهوة منذ أيام . لبثتُ أتمشى بعض الوقت ، ثم لعبتُ دوراً شطرنجياً جميلاً ، شعرت بعده بتعب في ذهني فالتجأت إلى هذه الأوراق أنقش عليها ما أراه في الحياة من ألغاز وأحاول حلها .

١٩٧٧/١١/١٧ الخميس

تم ذلك اليوم ، في هذا اليوم المظلم الكئيب . خرجنا مع المطر الشديد ، أنا وكميلة ، فأوصلتها إلى المدرسة ثم اتجهت إلى الدائرة . كانت ماسحتا الزجاج تعملان بهمة لطرد قطرات المطر المتساقطة ، وكنت أسوق ببطء وانتباه وأعصابي مشدودة بعض الشيء . وصلتُ وركنتُ السيارة في مكانها المعهود ثم ركضت أتلافى المطر ودخلت غرفتي الدافئة لاهثاً . جلست إلي مكتبي وضغطتُ على زر الجرس مستدعياً أبا فتحية ، فلم يستجب لندائي . خطر لي أن هذا الأحمق قد ترك الدائرة مرة أخرى لقضاء أشغاله الخاصة . أخذتُ أقلّب في الأوراق التي وجدتها أمامي على المكتب . سمعتُ بعد قليل وقع أقدام يرتفع ثم طُرق الباب ودخل عليَ فراش المدير العام ومن ورائه موظف في الذاتية . سلما بجفاء وتقدم الفراش ومعه مظروف مغلق فسلمه لي بأدب وطلب مني التوقيع على استلامه في الدفتر الذي كان

يحمله . كنت أعرف ذلك الفراش منذ مدة طويلة ، فنظرت في عينيه متسائلاً عن جلية الأمر ، فوجدته منكمش الملامح ، غائم البصر .

ـ ما هذا ؟

ـ كتاب مرسل إليك ، أستاذ توفيق . وقع هنا بالاستلام .

وقعتُ وأنا أشعر باضطراب ، انزعجتُ منه . خرجا مسرعين . كان أمراً صادراً من جهة عليا يقضي بفصلي من الخدمة بدرجة أدنى لمدة خمس سنوات تبدأ من تاريخ التبليغ ومنعي من الاشتغال بالمحاماة لنفس المدة ؛ مما كان يعني ، بلغة البشر العاديين ، القضاء عليّ قضاء تاماً على المستوى الوظيفي والمستوى الإنساني .

ذهلتُ ، وأنا أعيد قراءة الأمر ، من لهجة العداء والحقد التي كانت تفوح من سطوره القليلة ؛ كأني بذلك الأعرج ، هو الذي أملى على الجهة العليا أمرها ذاك!

كان عليّ ، بعد ذلك ، أن ألمّ شتات نفسي ، فلا فائدة من البكاء على الأطلال ، فأخذتُ أجمع ما لدي من أوراق قديمة في أدراج مكتبي وما أملك من قطع أثاث فوق المنضدة ؛ حينما عاد موظف الذاتية ليبدي لي أسفه لما حصل ويعلمني بأن عليّ أن أنفك من الوظيفة بعد ظهر اليوم بأمر السيد المدير العام لكي يصدر الأمر بذلك حسب الأصول . وقف بعد ذلك ينتظر رد فعلي . سألته عن أبي فتحية فأجاب بأنه هناك منخرطاً في البكاء . أضحكني ذلك بالرغم مني ، فابتسم الموظف ابتسامة شاحبة . سرني أن أستطيع الضحك وأن يساورني الاعتقاد ، آنذاك ، بأن سقف الدنيا لم ينغلق تماماً رغم كل محاولات الأشرار .

ـ قل لمديرك العام المنافق بأني سأتشرف بترك هذه الدائرة التي يحكمها مجنون شاذ .

كنت مطمئناً وأنا أتكلم بصوت مرتفع ، غير مكترث لمن يسمع ولمن لا يسمع .

لم أتوقع ما ستعمله كميلة وأنا أسوق لها الخبر المشؤوم ، فانتظرتُ حتى انتهينا من الغداء وجلسنا نستريح ونثرثر ، فقلتُ لها عَرَضاً بأني فصلت من وظيفتي بدرجة أدنى وأن ذلك يعني بأن راتبي التقاعدي لن يتجاوز الخمسين ديناراً شهرياً . لم تفهم أول الأمر ؛ وبالأصح ، أنها سمعت مني الكلمات التي نقلت لها معاني ما أقصده من حديثي لكنها لم تدرك دلالات تلك المعاني بصورة مضبوطة . غريب كيف تكون مفاجئة ، ردود الأفعال الانعكاسية اللامفهومة! لحظات وعيناها جامدتان مثل عينيَ سمكة ، ثم ، إذا بها تصرخ صرخة عالية كأنها رأتني أقع ميتاً أمامها! وأخذتْ ، المدرّسة التي تعلم أجيال المستقبل ، تبكي وتنتحب وتلطم على رأسها وتعاود الصراخ ، تتهمني بأني فعلت ذلك عمداً ونكاية بها وبعائلتها . ثم بدأت ، لدهشتي ، بالسباب والشتائم على من يسعون لشقائها الدائم ويدبرون ويحقدون عليها لغير سبب جنته ، وكانت ، في تلك الأثناء ، لاتزال تضرب نفسها أحياناً والدموع تنهمر من عينيها .

كنتُ جالساً أنتظر أن ينتهي المنظر بنهاية معقولة على الأقل ، لكن النهاية غالباً ما تنبع من البداية الشاذة ؛ وهكذا ، مع اللطم والبكاء والصراخ والسباب ركضت زوجتي كميلة خارجة من الصالة ، متجهة بسرعة نحو دار أبيها عميد أسرة آل قصابي العتيد ، ولبثت في مكاني شاعراً ، لأول مرة في هذا اليوم الأسود ، بعِظم الطعنة التي سُددت إليَ .

لم تعد إلى البيت تلك الليلة ، وبقيتُ أفكر طويلاً فيما يدفعها للتصرف بهذا الشكل العدائي اللامنطقي ، بدل أن تواسيني وتبث فيَ دواعي الصبر والتجلد . ولم أنتهِ إلى نتائج حاسمة وواضحة ؛ غير أني تهجست بأن ما قامت به كميلة من أعمال هو ، في الواقع ، أشد قسوة من الأمر الصادر بفصلي ، وهو نذير شؤم بحياة شاقة تنتظرني بدون شك . كنتُ حزيناً خلال المساء كله . خطر لي أن أذهب لمقابلة عبد الباري ووالدتي ، إلا أنني ترددت . لم أكن واثقاً بأنهما سيواسيانني أو يعرضان عليَ المساعدة . وانتظرت أن يأتي والدا

كميلة لزيارتي ، فلم يفعلا . كانت المحنة محنتي ؛ والجميع ، كما يبدو ، متفقين على هذا الرأي . بقي فقط أن أكتشف من من الآخرين سيبقى متفرجاً ومن منهم سيسعى لزيادة هذه المحنة وترسيخها إلى الأبد .

١٩٧٧/١١/١٨ الجمعة

استيقظتُ مبكراً صباح اليوم ، فانتبهتُ حالاً إلى غياب كميلة ثم تذكرت الموقف الجديد الذي صرت فيه فعدت إلى النوم . لم تهاجمني الكوابيس بل يمكنني القول إني رقدت وقمت مرتاحاً . أفقتُ من نومتي الثانية بعد الساعة التاسعة على رنين جرس الباب ، فقفزت من فراشي وكدت أسقط ، مضطرباً ، وأنا أنزل درجات السلم . كان هو عبد الباري وبرفقته القصابي ؛ جاءا يزورانني وعلى وجهيهما صرامة تناسب الموقف . أدخلتهما معتذراً وأجلستهما في الصالة ، ثم صعدتُ أغتسل وأضع معطفي البيتي .

أبديا ، بالطبع ، أسفهما لما جرى لي وخففا عني وقع الحادث بما يملك كل واحد منهما من كلمات تدخل في قاموس التعزية والتشجيع . شكرتهما ملاحظاً أن أياً منهما لم يظهر استعداده لمساعدتي في التغلب على الصعوبات المادية التي ، لا شك ، سأواجهها . قام عبد الباري بعد فترة قصيرة بعذر وجود عمل مستعجل لديه وهمّ بالانصراف . أشار له القصابي بما معناه أنهما سيلتقيان بعد حين ؛ ثم افتتح كلامه حين انفردنا بأن كميلة متعبة جداً وتحتاج إلى راحة طويلة ، فاستغربت كلامه ، وسألته عما إذا كانت مصابة ، لا سمح الله ، بشيء أجهله ، فتلعثم قليلاً وأخذ يردد حكايات عن الحياة الزوجية الحقة والوضع المادي والمضايقات وأحاديث الناس . هذه المرة اندهشت حقاً ؛ فحديثه ليس حديث عموميات وهو ، بالتأكيد ، ليس بريئاً .

ـ وضح لي من فضلك ، أبا ثريا ؛ فأنت إنسان محترم وصريح وشريف في أقواله .

عبس ، وتغضن وجهه الأحمر ؛ ثم عدّل من وضع عقاله على رأسه . سكت هنيهة وبدأ ، مرة أخرى ، يكرر ما قال بالحرف الواحد تقريباً . فهمتُ ما أراد إيصاله لي ولم ألح عليه ؛ فقد نفدتْ بسرعة طاقتي للاهتمام بتفسير حياة وتصرفات البشر .

جاءت كميلة برفقة والدتها حوالي الظهر ، واعتذرت عن تصرفاتها وأقوالها ظهر أمس ، وأرجعت ذلك إلى الصدمة التي عانتها من جراء الخبر المؤلم . كانت أمها ساكتة وعلى وجهها أمارات رعب خفي . هدأتها وصرت أخفف عنها وأهون الأمور . لم تبقيا طويلاً وطلبت كميلة مني مفاتيح السيارة لقضاء حاجة مع والدتها .

ثم أقبلت ثريا مع ابنها عبد المولى . لم أكن أحترم هذه المرأة على المستوى الفكري ، فهي مثل بقية النساء ، مشغولة بمهام البيت والأولاد ومشاكل الزوج ، بحيث لا تتوقع منها سعة فكر أو اهتمام بأحوال الآخرين ؛ لكنها تبدت على وجه آخر لم يخطر لي أنها تملكه . حذرتني بلهجة هادئة باردة بأني أواجه كارثة على المستوى الشخصي وأن عليّ أن أتغلب عليها بمفردي ، لأن كل إنسان مشغول بشؤونه ، وأن الاعتماد ، حتى على أقرب الناس ، قد يكشف عن ورطة مؤلمة . ثم أضافت كلاماً يخيل إليّ أني لن أنساه بسهولة .

– إني أعزك يا توفيق ، ليس لأنك عم أولادي ، بل لأني أفهم أي نوع من الرجال أنت ؛ فلا تضيّع نفسك وتذكّر كلامي . احذر ، فلا أحد يهتم بك وبمصيرك ، حتى أنا وأخوك ، لا نقدر أن نرعاك كما تحب ، وأنت على مشارف الصحراء .

وجدتها تبالغ بعض الشيء ، وتمنيتُ أن أكون مخطئاً .

١٩٧٧/١٢/٢٣ الجمعة

رغم إرادتي ، أدركت أن ذلك الأمر الاداري بفصلي من الوظيفة ، مسّني في الصميم وأصاب مني ناحية نفسية ووجودية ، ما ظننت يوماً بأن من

الممكن إصابتها هكذا بورقة هشة لا تتضمن إلا سطوراً قليلة تافهة المحتوى والصياغة . حاولت ، خلال الشهر الذي مضى ، أن أثبت عكس هذه الفكرة المنتشرة بين عامة الناس ، ففشلت ؛ فأنا ، أينما توجهت ، أُقابل بحقيقة أنني عضو في المجتمع جرى بتره لأسباب لا تشرّف أحداً حسب الظاهر : والأمر الذي يزيد في الازعاج ، أنك غير قادر على الدفاع عن نفسك ، لأنك لا تواجه ، صراحة ، أي اتهام واضح ومحدد . هناك ، في كل مكان ولدى كل الأشخاص الذين تراجعهم ، انطباع ، انطباع فقط ، ينقل إليك بوسائل مختلفة بأنك ، كما قلنا ، شخص لفظته الدولة لأسباب تعرفها هي .

ومع ذلك ، فقد أنهيت أشغالي ورتبت قضية تقاعدي وقبضت المكافأة ، في أقل من شهر ، وقررت أن أستريح بعض الوقت وأن أتأمل .

يعتقد الناس أن تصرفاتهم تجاه بعضهم لا تتغير بسرعة ، وقد لا تتغير مطلقاً ، فاكتشفتُ ، هذه الأيام ، أن ردود فعل البشر تجاه الآخرين تشابه ضغط دمهم ؛ فهي تصعد وتنزل لأقل انفعال ولأبسط حادث . زوجتي كميلة ، مثلاً ، لم تعد تعاملني كالسابق ؛ فأنا ، الآن ، موظف مفصول ؛ وهذه الحقيقة الواقعية تغير من موضع أحدنا بالنسبة للآخر ، وهو أمر ليس جديداً عليَ منها . كانت ، في العادة ، تتطلع بتقدير ، حين تراني في ملابس جديدة وثمينة! أو حين أربح في القمار وأدس بين ثدييها حفنة دنانير ، أو عندما نكون قد تضاجعنا في الليلة السابقة بشكل أرضاها ؛ تتغير نظرتها ومن ثم سلوكها وحتى كلماتها ولهجتها . هذه حال زوجتي ، فما بالك بالآخرين... عبد الباري ووالدتي العجوز والأصدقاء عبد القادر وخالد و... و...

أنا ألاحظ فقط ؛ صرتُ حساساً كأحسن آلات الكومبيوتر ؛ ولم أكن أحاكم أحداً ، فالحقائق لا أخلاق لها . والأخلاق تستند إلى حقائق معوجة أغلب الأحيان ، لأنها تأتي من القلب . وبهذا المعيار المزاجي ، شعرت أن أنوار ـ حينما ذهبتُ أزورهم في مستشفى الحيدري للولادة ، حاملاً معي باقة

كبيرة من الورد ، بقيتْ ساكتة جامدة تنظر إليّ بنظرات مؤثرة اجتمع فيها العرفان بالجميل والتعاطف والود العظيم وبعض الحب ، نظرات صافية ، صافية تماماً ـ أبعدت عني كل غيوم الهمّ التي غطت سمائي . شكرت لها بصمت تلك النظرة التي لا مثيل لها ، وتلقاني زوجها كاسب بحرارة . قبّلتُ الطفل الوليد الذي سموه توفيقاً ، وكنتُ مثار العاطفة إلى حد بعيد .

كانت في الفراش منذ يومين ، فقد أتعبتها الولادة قليلاً ، وكان وجهها الجميل شاحباً ، لكنه بقي على نصوع بياضه وشفافيته ؛ وشعرها الأسود الجزل منتشراً حوله وحول رقبتها البضة . قللا من أهمية ما حدث لي ، وطلبا مني المجيء إلى خانقين والسكنى معهم ، فالحياة هناك أقل تعقيداً والناس أطيب سريرة . أسعدني كلامهما الذي شعرت أنهما قالاه بإخلاص تام ؛ وكنت آنذاك لا أقدّر موقفي حق قدره ولا أحسب لضربات القدر حسابها ، لذلك شكرتهما بلطف ووعدتُ أن أزورهما عن قريب ، ولم أكن جاداً في كلامي . كانت رغبتي في أنوار كامرأة ، ماتزال مشتعلة في أعماقي ، وكنت ، في الوقت نفسه ، أحترمها وأعزّها كصديقة جميلة ، بحيث لا يمكنني أن أسمح لهذه الرغبة بالظهور والسيطرة عليّ ؛ لذلك فضّلت أن أبتعد عنها كحل لا مناص منه .

ومع كلمة «الرغبة» التي أفلتت مني صدفة ، تذكرت علاقتي الجنسية اللامألوفة مع زوجتي ؛ فهذه المرأة ، التي يجب الاعتراف بضعف شخصيتها ، أخذت تتعالى عن الاتصال بزوجها... الموظف المفصول! كأنها تريد أن تطبق الأمر الإداري على حياتنا الزوجية . أمسى الجنس بالنسبة لها غير موجود ، باعتبار أن النكبة التي حلت بنا لا يجب أن تدع لنا التفكير به ، ومن باب أولى ممارسته ؛ فإذا حدث أن تقمصنا الشيطان ، كما حصل لي ، ودفعنا نحو القيام بأعمال لا تليق ، فلا يجب أن نسمح بذلك . وهكذا وجدتها ، بعد صدور الأمر الإداري ، بأسبوع ، تتحاشاني بصدق وبدون تكلف ، وترفض بأعذار مختلفة أي اتصال جسدي بيننا . وكنتُ ، على طبيعتي ، أشعر

بحاجتي لهذه العملية رغم كل ما حلّ بي ؛ بل إنها صارت أكثر ضرورة من قبل ، لأنها كانت ستقلل من توتري ومن جو التشاؤم الذي يلاحقني ؛ ولم يخطر لي أن بمقدورها أن تحكم عليّ بأني لم أعد أصلح لها زوجاً ، ثم تنفذ هذا الحكم ، على أرض الواقع ، بالامتناع عن مضاجعتي . لم يكن ذلك ممكناً في نظري ، فالطبائع الإنسانية ترفضه وكذا ما يسمى بالأخلاق الاجتماعية . لذلك اعتقدتُ ، خطأ بالطبع ، أنها لاتزال تعاني من الصدمة ، وأن من المستحسن أن أضغط عليها قليلاً لننهي مقاطعتنا اللامعقولة لهذه العملية الفذة ؛ واخترت ذات ليلة أن أتسلل إليها قبيل أن يأخذنا النوم ، وهي بملابس خفيفة ؛ فاستجابت للمداعبات الأولى ، ثم توقفت فجأة عندما شملت الملامسات بعض المناطق الحساسة وأغلقت أمامي فخذيها . لم أكترث لحركتها وسعيتُ جاهداً كي أنهي مقاومتها بجعلها تشتهي هي وترغب في العمل . نجحت إلى حد ما ، ولم أعلم ، عن يقين ، هل فتحت لي ساقيها وأحاطتني بهما بعد أن دخلتها ؛ عن رغبة واشتهاء أم عن رضوخ واستسلام لما اعتبرته قضاءً وقدراً ؟ ما أتذكره ، الآن ، أنها تصلبت بعد هنيهات وتوقفت عن إبداء أية حركة أو نأمة ، حتى خلتها لم تعد تتنفس . توقفتُ أنا الآخر ونظرتُ إليها . كانت عيناها مفتوحتين في غبش الغرفة وهي ترمي بنظرها إلى السقف وفمها ، كالعادة ، مزموماً . أرادت أن تنقل لي بما تملك من إيماءات ذات دلالة ، بأنها لا تريدني ولا تحب هذا الاتصال فيما بيننا . كنتُ آنئذ ، منغمراً بأعماقها الدافئة أحس بتلك النشوة الرائعة المفتقدة ، تندفع من وسطي إلى الأعلى ، فلم أتوقف عن حركتي البطيئة المنغمة ، ورأيت من الطيش أن أبعثر لذتي السماوية النادرة من أجل الاستجابة لحماقات أنثى جاهلة ؛ وهكذا أكملتُ رحلتي متمسكاً بلذتي حتى النهاية وقذفت فيها . كنتُ سعيداً رغم الجرح الطفيف ، وبقيت سعيداً وأنا أنكفئ عنها وألتم على نفسي في الصالة الباردة ، أناجي هذه الصفحات وأطلب منها الحل والعزاء .

تم هذا قبل ثلاثة أسابيع ، قامت بعده بعملين : أخذت مني مفاتيح سيارتها بعذر أنها لاتزال في الخدمة وتحتاجها أكثر مني في الذهاب إلى المدرسة والعودة منها وفي التسوق وقضاء حاجات أخرى ؛ والعمل الثاني أنها هجرت البيت وصارت تبيت في دار أبيها ، فلم يعد ينقصني من أجل بلوغ سعادة بشرية معقولة سوى أن ألقى طعاماً حين أجوع وامرأة تحب أن تشاركني الفراش وتستمع إليَ أحياناً .

جاء أبو فتحية عصر اليوم لزيارتي ولينقل لي آخر الأخبار . الأعرج احتل غرفتي وطلب من المدير العام أن يصدر أمراً كي يقوم بعملي وكالة ، فرضخ لطلبه وسط استياء جميع الموظفين . فتحية وأمها يسألان عني ويلحان عليَ كي أزورهم وأطلع على حال الغرفة الإضافية التي اكتمل بناؤها وصبغها . مشاكل فتحية مع المستأجرين لا تنتهي . حميد ، موزع الشاي في الدائرة ، نسي أن يطلب دينه عليَ ومقداره خمسة دنانير .

وقبل أن ينصرف أبو فتحية ، قبيل الغروب ، طلبت منه ألا يقطع زياراته ، فإن لم يستطع فليتصل بي تلفونياً من الدائرة . وعدته أن آتي لزيارتهم ، خفف عني حديث هذا الرجل الساذج وسلاني . جلست في الصالة وفتحت التلفزيون . هجرتُ القراءة منذ مدة ، ففي داخلي تمور أمواج عجيبة من القلق والانشغال ، بحيث كان التركيز يصعب عليَ وبالأحرى الاستمتاع بما أقرأ ؛ وكان ذلك أمراً مؤسفاً ، صممتُ أن أتغلب عليه قريباً ، فماذا أعمل بحياتي ككل ، حين تغلق أبواب القراءة أمامي ؟

١٩٧٨/٢/١٧ الجمعة

عثرتُ اليوم على هذا الدفتر الذي يضم تعاساتي وبعض أفراحي ، مدسوساً بين صحف قديمة ؛ وسرني أن أجد بضع ورقات بيضاء ماتزال فيه ، تنتظر مني تسويدها . يا لغرابة هذه الصدفة! فما كنتُ أرغب ، قبلها ، في الكتابة ، ولا كنت قد تساءلت عن سبب تركي لها خلال هذه الأيام العصيبة واللامألوفة التي مرت .

بماذا يجب أن أبدأ إذن ، لتستقر صورة الأحداث في مكانها الطبيعي ؟ أفي تفسير وجودي في هذا المكان غير المنتظر... حي العامل ؟ أم في تفتت حياتي الزوجية السريع وانهيارها ؟ أم في وصف القهر الذي انتابني وأنا أواجه نفوساً ميتة ترميني بالحجارة ؟

كل هذه مقدمات ؛ تصلح ولا تصلح ، في نفس الوقت ؛ فلأختر منها حسب مزاجي ولأترك لنفسي حرية القفز بين المواضيع فلا ضرر في ذلك .

قبيل نهاية سنة ١٩٧٧ بيومين أرسلت لي ثريا زوجة عبد الباري من يخبرني بأنها تريد أن تحدثني في موضوع هام ، ثم جاءت بعد ذلك لزيارتي .

ـ اسمع يا توفيق ؛ بصراحة ، لقد ملّت كميلة الحياة معك ولا تريد الاستمرار فيها وترغب في الافتراق جدياً ، فهل ترى أن يتم الاتفاق بينكما ، وهو ما أنصحك به ، أم تريد أن تلجأ إلى المحكمة وتطول القضية دون فائدة لأحد ؟ خذ وقتك وفكر فيما قلته لك .

ـ كلا ، شكراً ؛ فلا وقت عندي ؛ وهي ليست زوجة لي منذ زمن ، دعينا ننتهي وهاتي ما عندك وما تريده مني .

ـ لا شيء كثيراً ؛ اذهبا إلى المحكمة وقدما قضية بالمخالعة وأصرا عليها .

لم يكن ذلك بالأمر الصعب ، وقد قمنا به... أنا ومحاميها . بذلنا جهدنا أولاً كي تُنظر الدعوى بأسرع وقت ونجحنا ؛ ولم يخطر لي أن شهية القاضي للكلام ستكون بهذه القوة . تذكرت ، حين كنت واقفاً أمام القاضي ، الأسبوعين الأخيرين من حياتنا الزوجية ؛ قاطعتْ الدار بعد تلك العملية الجنسية وأخذت معها حاجياتها قبل أن تنتقل إلى بيت والديها . لم يهمني ذلك كثيراً بل أراحني بشكل من الأشكال . لكن مشكلة الطعام أرهقتني وكذلك مشكلة التنقل .

أجَل القاضي الدعوى عشرة أيام ودعانا للتفكير فيما نعزم عليه وأرسل ، إضافة لذلك ، معاونته الاجتماعية لتزورنا وتتحدث معنا على انفراد

ومجتمعين . بعد هذا ، وفي اليوم المعين للمرافعة ، يبدو أن القناعة حصلت لدى القاضي بعسر حياتنا المشتركة فأصدر حكمه بالطلاق حسب اتفاقنا وطلبنا ، وألزم كل طرف بمصاريفه .

عدتُ ذلك اليوم حوالي الثالثة بعد أن أكلت لقمة في مطعم قريب من المحكمة ؛ وكنت متعباً ، منخذلاً بعض الشيء ومحاطاً بجو من الشجا . أردت أن أرتاح قليلاً ، غير أن سمعت ، بُعيد الساعة الرابعة ، صياحاً في دار القصابي المجاورة وفُتح الباب الموصل بين المشتمل ودارهم برجة شديدة وارتفع صراخها وسبابها ، فأسرعتُ أستجلي الخبر . كانت برفقة والديها ، وهي في ثيابها المنزلية وعلى وجهها ملامح من خرج من نوبة بكاء طويلة ، وخطوط الزينة السوداء تسيل على خدودها المحمرة .

- تفضل سيد أفندي . اجمع أغراضك واخرج . لا أريدك في بيتي . أريد بيتي نظيفاً . تفضل واخرج .

وكانت تزداد صراخاً مع اللحظات وهي تمعن النظر في وجهي :

- يكفيني ما رأيت منك وعانيتُ وسمعت ، يكفيني . أنت وصاحباتك ، يكفيني . هذه حياة لا تطاق .

وكانت والدتها تسحبها ووالدها يفتح فمه ويغلقه دون صوت ؛ وكنت أحاول أن أستنتج سبب ثورتها هذه وأفهم منها هوية صاحباتي اللواتي تشير إليهن .

- يأكل حقي ويأكل حياتي وهو إنسان خداع لا نفع فيه . تفضل سيد ، هذا ليس بيتك . تفضل ، اجمع حوائجك وارحل . اذهب إلى... الى...

وأشارت إشارة عريضة نحو جهة من الأفق :

- ... إلى أي مكان ، إلى باريس ، لعلها لاتزال تنتظرك ، قحبتك تلك . قل لها إن رسالتها لم تصل . قل لها ذلك . قل لها أخذتها زوجتي وحرقتها ، وسأحرق آباءك وأجدادك معها إذا لم تخرج من أمامي الآن . الآن ، أقول لك . أتفهم ؟

حينذاك فقط ، تجرأ والداها فأمسكا بها وسحباها متراجعين إلى داخل منزلهما . وقفتُ أتطلع إلى الباب المغلق بيننا . أثارت شجوني وأحزنتني هذه اللعينة . لم تنسني إذن ، تلك العزيزة آديل! أرادت أن أعلم أنها لم تنسني فكتبت إليّ ؛ ولعلها أرادت أيضاً أن نتواصل على البعد أو أن نلتقي! يا للسخرية المريرة! وتأتيك مخبولة من مخلوقات ما قبل التاريخ ، فتخنق بوحشية برعم الحب الصغير هذا! دون إدراك لما تعمل ، دون اكتراث . وها هي ، فوق ذلك ، تتذكر عملها الدنيء بعد عشر سنوات ، كأن روحها وُصمت به فلا فكاك لها منه .

جمعتُ ، والشمس تغيب ، ما تسنى لي جمعه من أشيائي المتناثرة هنا وهناك وبعض كتبي ولوح شطرنجي وملابسي ، ثم قصدتُ دار أخي عبد الباري . أردت ، بسذاجة لا مكان لها ، أن أعود إلى غرفتي هناك ، أن أعود إلى حياتي السابقة ، حياة الأعزب المقامر والعاشق السعيد . أجلستني ثريا في غرفة الاستقبال . كانت على علم بما جرى ، بل إنها سمعت بعض ما تفوهت به أختها . قال لي إنها مصدومة صدمة إدراك الانفصال الذي صار واقعاً ، وهذا أمر لا محيص عنه . لم أفهم ذلك ؛ رجوتها أن تجد لي ملاذاً في بيت والدتي أستقر فيه . لم تتبدل ملامحها الجامدة وهي تتكلم بعد ذلك :

ـ مكانك في بيت أخيك محفوظ يا توفيق وسنساعدك جهد طاقتنا أنا وهو .

ـ أنا أريد أن أعود إلى ما كنت عليه بينكم .

ـ هذا حقك .

ـ سأرى والدتي وأكلمها .

لم تطق ثريا طويلاً أن أذكر بأن هذه هي دار والدتي وأن لي فيها حقاً ، فردت عليّ في الحال :

ـ إنها دار أخيك يا توفيق ؛ لقد باعتها أمك إلى عبد الباري بعد إبلالها من مرضها قبل سنوات وسُجل البيع أصولياً في دائرة التسجيل العقاري .

لكنك ستنام عندنا الليلة حتى يأتي أخوك لتكلمه وتجد حلاً لوضعك . أنا لا ألوم أحداً يا توفيق ، ولكنك لا تستحق معاملة كهذه ، لا من والدتك ولا من زوجتك ، فأنت لم تسئ إليهما بتاتاً ؛ ولا ذنب لك في عدم الانجاب فتلك إرادة الله سبحانه وتعالى ولا مردّ لها . أما أمك ، فشأنها غريب لم أفهمه ولا أظنك تفهمه . تأكد أنها هي التي أصرت على زوجي لتسجيل الدار باسمه . لم يطلب منها ذلك مطلقاً ، وأقسم لك .

تلك الليلة ، على أريكة في غرفة الاستقبال ، لم أنم إلا لماماً . بدا لي العالم يتقوض عليّ ؛ وحرتُ كيف أهتدي إلى سبيل يحفظ لي اتزاني العقلي وهدوء نفسي . لم يزد عبد الباري على ما قالته زوجته شيئاً ؛ وكانت رؤية عينيه المضببتين تكفي لتصديق ما يقول . ثم... ما فائدة السؤال والجواب عن أفعال مضت عليها السنون ؟

صباحاً ، اتصلتُ بأبي فتحية على هاتف الدائرة فرجوته أن يساعدني بالمجيء إلى دار أخي عبد الباري مستأجراً سيارة نقل صغيرة للانتقال إلى مكان ما ، آوي إليه مؤقتاً . وعدني خيراً ، ووفى بوعده . كنتُ متشنجاً إلى أقصى حد ، لا أطيق حتى التفكير في البقاء تحت سقف هذا البيت ؛ وحينما وصلت سيارة النقل وخرجتُ لملاقاة أبي فتحية ، وجدتُ جنب الباب في الطريق ، رزمة ضخمة ملفوفة لفاً رديئاً بقماش أبيض ، عرفتُ فيها بقية ما تبقى لي في تلك الدار . حملتها بمساعدته ووضعناها في السيارة . لم يخرج أحد ليقول لي كلمة وداع ؛ كان المساء مظلماً والنهار فارقنا بأسرع مما يجب . جلسنا جنب بعضنا قرب السائق ، وهمس أبو فتحية في الحال يسألني عن وجهتنا . كنتُ أحس بنفسي مشتتاً بصورة غريبة . لم أجبه ، لحظات ؛ وأخذتُ أمسح عينيّ وصدغي . كأنني في عالم أحلام هش! تدور حولي الأشياء وتتراقص هاوية من حواسي . سمعته يعاود الهمس :

ـ لا بأس ، عمي توفيق ، لا بأس . تأتي معي وتبيت عندنا الليلة والصباح رباح . هيا أخي أبا خليل ، إلى حي العامل ، تعرفه طبعاً ؛ ومن

هناك إلى أسواق الأفراح ، أشهر من نار على جمل ، كما يقولون . هيا ، أخي .

ونخزني برفق في جنبي .

وهكذا قادتني ملابسات وافتراضات وتردد ونوايا خفية ، إلى هذا الحي البعيد وإلى أسواق الأفراح الصاخبة .

لم نتبادل الحديث خلال الطريق ، وحين وصلنا رجاني أبو فتحية أن أتركه يسبقني ليخبر الأهل بوصولي . رحبت بي فتحية بإخلاص واضح أزال عني قسماً من ظلمة الكآبة التي تلبستني منذ أيام ، ودعتني للجلوس في غرفتها ريثما يتم تهيئة المكان ، إلا أني فضلتُ أن أخرج لشرب الشاي في مقهى قريب .

كنتُ معتصر القلب ، أراقب الجالسين في المقهى وأدير الملعقة في قدح الشاي العكر . هاأنذا ، خالياً من أية عاطفة سوى الحزن وما تخلفه ذكرى جميلة مرت وانقضت . لعلي لن أشقى بعد الآن وقد خرجتُ من معمعة العلاقات المتضاربة ؛ ولكن... أين المهرب من الماضي العذب وما يبثه في النفس من شجون وأتراح ؟ وتصورت ، هنيهة ، آديل منكبة تكتب لي رسالتها الفريدة تلك ؛ وتودعها كل المشاعر النبيلة التي تملأ فؤادها . لعلها كتبت تقترح عليّ حلولاً تمكننا من الاجتماع! ثم واتاها اليأس بعد ذلك ، إذ لم يصلها شيء مني ؛ ومضت السنون تلو السنين وتماهت صورتي مع الصور وامحت ذكراي ؛ وكل ذلك بسبب مخلوقة مختلة العقل وغير متوازنة . يا لقسوة البشر! كان بإمكاني أن أقضي عليها ركلاً بأقدامي!

رأيت ، بغتة ، أبا فتحية يقف أمامي مبتسماً ، يحييني بخجل ويخرجني من لجة الذكريات ويدعوني لرؤية الغرفة ، فقد رُتب كل شيء حسب الأصول . أجلسته قربي وشربنا شاياً آخر ثم قمنا .

كانت الغرفة الرطبة نظيفة مفتوحة الشباك . تحتوي على سرير ومنضدة صغيرة وصندوق مغطى بمفرش جميل ، صُفت فوقه كتبي بعناية ؛ وكانت

فتحية مشرقة الوجه رغم مظاهر التعب ، تتعامل معي بلطف واحترام وتبذل جهدها لإرضائي .

ـ هذا بيتك يا أستاذ توفيق وأنت بين أهلك ، ولقد قدر الله سبحانه وتعالى ذلك ، فارتح ولا تغرق نفسك بالهموم ، فقد شبعت منها خلال الأشهر الماضية . أهلاً وسهلاً بك ألف مرة .

لم أدرِ بمَ أجيب وكيف أشكر لها كلماتها الرقيقة ، المناسبة جداً لي ؛ وكنتُ في غاية التأثر . شكرتها وسألتها عن السرير والفراش ، فأجابت ضاحكة بأنها عثرت على السرير السفري بين متاعي وجلبت من عندها الفراش ، غير أن الغطاء الصوفي يبدو لها غير كاف ، فطمأنتها بأني ، عادة ، لا أشعر بالبرد ليلاً ، فلمعت عيناها الخضراوان الكحيلتان ، وهي تنظر إليَ مبتسمة ومتفهمة .

تركوني لوحدي في الغرفة المعطرة الرائحة ، فجلستُ على الفراش فلقيته مريحاً بشكل معقول . أغلقتُ الشباك ، ثم خطر لي أن أشتري ، لنا كلنا ، عشاءً من مطعم الكباب الذي لاحظتُ وجوده قريباً من المقهى . فوجئوا بي وأنا أعود حاملاً لفافة الكباب وملحقاته ، فهيأت فتحية لنا مكاناً في غرفتها الواسعة وتحلقنا حول الطعام تحت ضوء المصباح الكهربائي الشاحب ، نأكل بصمت تقطعه بعض كلمات المجاملة . كانت في غرفتها آلة تلفزيون جديدة اعتذرت عن تشغيلها لعدم تركيب اللاقط . كنتُ متوجساً لا أعرف كيف أبرر لهم وجودي المفاجئ بينهم ؛ إلا أن مرور الوقت خفف من ثقل الساعات الأولى . شربنا الشاي الذي خدرته أمها لنا بإتقان ، ثم بدأتُ أحدثهم عن ظروفي الحالية بشكل موجز . أبديتُ لهم أولاً بأني سأبقى هنا فترة قصيرة إذا وافقوا على ذلك ، فهزت فتحية رأسها دلالة على الفهم والموافقة ؛ ولكنني اشترطت أن أدفع لهم الأجرة المناسبة ؛ أرادوا أن يحتجوا فرفعت يديَ :

ـ لكل ذي حق حقه ، أرجوكم .

وبينتُ لهم بأن منعي من الاشتغال في المحاماة ، لن يحول دوني ودون الاشتغال مع أحد المحامين من أصدقائي ؛ وكانت على وجوههم علامات الاهتمام والجد . أخلدتُ إلى غرفتي بعد العاشرة مساءً ، وكانت الضجة قد خفت كثيراً عنها في بداية المساء ؛ أزعجني ضوء المصباح الكهربائي الشاحب ، بحيث لم أستطع أن أرتب كتبي وأوراقي على راحتي . كانت نافذة الغرفة الوحيدة تطل على الشارع ، وهي ليست واسعة ولا ضيقة وقد نُظف زجاجها منذ زمن قريب . عادت لي صورة آديل ، وأنا جالس على السرير . لقد طبعت حياتي بوجودها الأثيري القصير .

طُرق عليّ الباب وأطلت فتحية ممسكة في يدها بمصباح كهربائي . اعتذرتْ عن المصباح الضعيف ورجتني أن أبدله . شكرتها بحرارة وقمتُ فأبدلت المصباح . شعّ ضوء قوي غيّر جو الغرفة في الحال . كانت فتحية ، في إطار الباب ، تقف مبتسمة برضا ، وقد ارتدت ثوب نوم أزرق شفافاً ومشطت شعرها ورمته على كتفيها . خلتها تريد أن تقول لي شيئاً ما . أبدت أسفها ، برقة ، لافتراقي عن زوجتي ولكل ما حصل لي وما لا أستحقه أبداً . لم أستطع ، وقد ملكني التأثر ، إلا أن أكرر لها شكري من صميم قلبي ، لعواطفها الصادقة هذه ؛ وكنت ، في الواقع ، مهتز النفس ، أوشك أحياناً على الانفجار ببكاء حاد ، أو بضحكة مجلجلة كلما لمستُ إخلاصاً صافياً مجانياً من أحد البشر . فتشتُ بين أوراقي وكتبي عن هذا الدفتر المسحور ، فلم أجده ، وخطر لي أن تلك المخبولة كميلة قد عثرت عليه وأحرقته مثلما فعلتْ برسالة آديل . زادت هذه الفكرة من توتري ومن حماسي في البحث عنه ؛ وكان مندساً ، شبه هارب ، بين صحف قديمة كنت أحتفظ بها لأسباب نسيتها . أسعدني أن ألقى فيه هذه الصفحات الأخيرة البيضاء ؛ إنها مهيأة ، بتدبير خفي ، لتسجيل التتمة .

عدتُ أجلس على السرير وأتكئ بظهري على المخدة وأبدأ الكتابة . كانت الساعة تشارف منتصف الليل ؛ والسكون غريب هنا ، لا أدري كيف

أصفه . كان عواء الكلاب السائبة يتوقف أحياناً ، وكذا أصداء الطلقات النارية البعيدة ، كما في الريف ، وبعض الصرخات المجهولة ؛ فيأتي السكون النادر هذا ويضم الكون بأسره . كانت الغرفة باردة ، فاحتميت بمعطفي المنزلي وشعرت بدفء مريح .

سأغلق دفتري فقد امتلأت صفحاته ولم يبق من مزيد ؛ ويجب أن أقول أخيراً ، بأني ، رغم كل ما حصل ، أحس بما يشبه الاستقرار ، استقرار القلب ، وأني ، ربما ، أكون على مفتتح عهد جديد ، لا يخلو من سعادة ، في حياتي ، ربما .

٣

لم يرتح آل قصابي لطلاق ابنتهم الثانية ، واعتبروا ذلك ضربة قوية من عين حسود ؛ فأحبت كميلة أن تثبت لهم أن عدم ارتياحهم لا محل له ولا أساس ؛ فهي ، مع احتفاظها بشرفها وكرامتها ، كانت على علاقة متينة بشقيق إحدى زميلاتها المعلمات ، الذي بادر ، بعد انتهاء فترة العدة ، إلى التقدم لخطبتها والتهيؤ للحلول ، في المشتمل ، محل الزوج السابق الذي لا ينجب ؛ وكادت الغمة أن تزول بالفعل بعد فترة ، لولا أن كميلة صدمت سيارتها مرتين خلال أسبوع واحد ، وكادت في المرة الثانية أن تزهق روح سائق السيارة الأخرى لولا رحمة العلي القدير ، كما قالت والدتها ؛ فاتفق الجميع بأن عليها أن تترك السياقة مادامت في حالتها النفسية والفكرية المضطربة هذه ؛ وهكذا كان . وبالسرعة التي تمت فيها خطبة السيد جاسم الرمضاني ، الموظف في أمانة العاصمة على السيدة كميلة كريمة عميد أسرة آل قصابي ، بحفل غير بهيج اقتصر على الأهل الأقربين ، تم تسليم مفاتيح السيارة الأوبل البيضاء إلى السيد الخطيب ، وعادت المياه إلى مجاريها العتيقة وبدأ آل قصابي يستعدون لنسيان ما حدث .

بمناسبة الخطبة ، جاء من خانقين خلق من الأهل الأقربين ، كان من بينهم المحامي ممتاز اللامي وزوجته نجية وابنتهما عنبر ؛ وكذلك حضر كاسب برهان الدين وزوجته أنوار وطفلهما توفيق ؛ وكان القادمون على حذر

لئلا يرتكبوا خطأ التلفظ باسم غير مرغوب فيه ، أو الإشارة إلى ما لا يستحسن الإشارة إليه . لكن ابنة الأخ الرقيقة الحواس نجية ، لم تستطع ، رغم الجهد ، إلا أن تتذكر عمها توفيق في اليوم التالي ، وتبكي بحرقة على صدر أمها . أما الجميلة أنوار فلم تكن بحاجة ، منذ وطأت أقدامها بغداد ، لمن ينبهها إلى ضرورة الحذر الدائم ؛ وحتى طفلها العزيز توفيق ، اختصرت اسمه لكيلا تثير حفيظة آل قصابي عليها ، فصارت تكتفي بمناداته باسم الدلال... توتو .

غير أن توفيق لام بقي ، رغم الوقاية ، محسوساً بوجوده الوسيم الجذاب ؛ حتى أن كاسب برهان الدين سأل عمه عبد الباري عما إذا كان يعرف عنوان مسكنه فأجابه بالنفي . كان سؤالاً بارداً حسب رأي البعض ؛ موحى به من زوجته ، حسب البعض الآخر ، والله أعلم على كل حال .

كان الجميع ، تقريباً ، على علم بأن ثريا زوجة عبد الباري هي المدبر الخفي لأغلب التصرفات العقلانية التي تبدر من أفراد العائلة ؛ فلولا موافقتها الضمنية على علاقة كميلة السابقة بخطيبها الحالي ، لما تكسرت هكذا وبسرعة حياتها الزوجية الأولى . حسبتْ ، بهدوء ، حساب كل شيء... عمر كميلة المتقدم ورغبتها الجنونية في الإنجاب ، واحتمال أن يكون توفيق عقيماً ، فحكمت ، بعد ذلك ، بأن من الخير لشقيقتها الصغرى أن تنفصل عن هذا الرجل . وبمثل هذا الأسلوب العلمي الفريد في بابه ، أقنعت والدة عبد الباري بأن من المستحسن أن تكتب كامل الدار التي يسكنونها باسم ابنها الكبير عبد الباري لتقوية استقرار عائلته الكبيرة ولتثبيت موقفه المالي في الشركة التي تجمعه وآل قصابي . لم تقتنع والدة عبد الباري بسهولة ؛ لكنها وجدت نفسها محاصرة من كل الجهات بإصرار ، فاستسلمت للقوة والضغط الموجه نحوها ، ووقعت على عقد البيع ودموعها تسيل بهدوء . لم تكن تعلم لماذا تتجاوز كل الحدود كي تظلم ابنها الصغير وتحرمه من آخر حق يملكه في الدنيا .

كان توفيق ، في ذلك الوقت ، على قدر معين من راحة النفس والقلب لا تُنال من قبل الغالبية العظمى من البشر ؛ فقد وجد أن الأمور المنتهية ، الأمور التي أغلق عليها فاندثرت ، لا يجب أن تبقى لاصقة ، لا بنا ولا بذاكرتنا . ثم إنه ، بعد تعمق في التفكير ، أضاف صفة إلى الأمور ، فجعلها الأمور المنتهية «المنغصة للحياة» . وفي أول أربع وعشرين ساعة يقضيها في غرفته المستأجرة في أسواق الأفراح ، استطاع أن يفرز حالاته ومستويات عيشه ونظامه الواجب الاتباع والآفاق التي يجب أن يسعى لفائدته فيها ؛ واستجاب وتساهل وتغاضى وتعامل وتراضى واسترخى ، من أجل أن تكون الحياة ممكنة . أراد ، قبل كل شيء ، أن يدبر لنفسه مورداً بسيطاً ؛ فمخزونه من المال لا يتجاوز التسعمائة دينار وراتبه التقاعدي هو ، تحديداً ، (٥١,٤٥٠) ديناراً ؛ وبهذا المقدار من النقود أدرك أن وفاته جوعاً قد تتم بعد سنة ونصف أو سنتين ، إن لم يتدارك نفسه . كان يعرف بعض المحامين ، فلم يذهب إليهم . زار صديقه عبد القادر ، فرحب به ترحيباً جيداً ، لكنه بدا منشغلاً بأعماله الوظيفية والشخصية . كان موظفاً كبيراً في مؤسسة لتسويق المواد الكهربائية ؛ وخيل لتوفيق ، بعد أن جلس نصف ساعة قرب صديق الطفولة هذا ، بأن من التجني الأخلاقي أن نطلب من إنسان ذي مناعة عادية ، أن يقاوم كل إغراءات السرقة التي تُعرض عليه بهذا الشكل . وتبادلا النظر طويلاً ، بعد ساعة من الأحاديث ، وتفاهما بهذه الطريقة ، ففتح عبد القادر ذراعيه على سعتهما فوق مكتبه الضخم :

ـ... فيم التعللُ ، لا أهلٌ ولا وطنُ ؟

فقام توفيق ، حزيناً ، من مكانه يريد الانصراف .

ـ إذا نظمتَ أمورك يا أخي توفيق ، وفتحتَ محلاً للمواد الكهربائية . فتعال زرني مرة أخرى ؛ وإلا فدعنا نكتفي بلعب البوكر .

ولم يكن قادراً على تنفيذ أي من الأمرين ؛ فسلَم ومضى .

كان صبره مع المحامين أطول ، استمر شهور الصيف وما بعدها ،

واستطاع بمشقة وبعد مكابدات وركض ومواجهات صفيقة ، أن يحصل على مبالغ لم تتجاوز بمجموعها المائة دينار . وفي ضحى يوم خريفي ، جالساً في مقهى حمزة ، وخفقان قلبه المضطرب يزعجه ويخيفه ، خطر له ، لأول مرة ، أن يزور أخاه عبد الباري في المعمل لعله يجد لديه ما ينفعه... عملاً أو نصيحة .

كان يستيقظ ، في أيامه الأولى ، قبيل الفجر ، ثم تعوّد على ضجة الأسواق فصار يمكث ، شبه نائم ، في فراشه حتى التاسعة صباحاً أو العاشرة ؛ ثم يقوم ليحلق ويصنع لنفسه شاياً ويفطر على ما اشتراه وحفظه في ثلاجتهم من مربى وزبدة ، يعود بعد ذلك إلى غرفته ليرتبها قليلاً ويفتح الشباك والباب لتغيير الهواء ، ويجلس يستمع إلى الأخبار والأغاني والموسيقى من الراديو ، وهو في ذلك يتمتع بفراغه وبانعزاله ، ويفكر في الأمور التي تسره . لم تخطر له كميلة على بال إلا مرة أو مرتين ؛ وأثار استغرابه ألا يستطيع تخيل معالم وجهها . أعاد إلى ذهنه أحياناً تقاطيع جسدها الأسمر اللحيم وبعض المواقف الجنسية .

اعتاد ، حوالي الحادية عشرة ، أن يخرج ؛ وغالباً ما كان يصادف فتحية مشتبكة في حديث حام مع مستأجر أو زبون ؛ أو يجدها في ركن تكلم إحدى النسوة . لم يتقاربا كثيراً في الأيام الأولى ، فقد كانت لكل واحد منهما طريقة خاصة في الحياة . في مقهى حمزة ، يشرب شايه ويقرأ الجرائد المستعارة من بائعها . وفي أيام الربيع تلك ، بعد طلاقه بحوالي شهرين ، بدأ أشغاله المضنية مع المحامين كمساعد ومعقّب للدعاوي ؛ وقضى أيام الصيف اللعينة يلهث وراء خبز مزيف . ولما شعر كم نال ذلك العمل من نفسه وكرامته وذهنه ، قرر تركه ؛ وخطر له أن يزور أخاه ذلك الخريف . اندهش عبد الباري دهشة بالغة حين رأى توفيق يدخل عليه مكتبه في المعمل ؛ فقام يحتضنه ويقبله عدة مرات . سأله عن أخبار العائلة فأوجزها له وأضاف بأن صحة الوالدة لا تبدو على ما يرام . طرق توفيق موضوعه بعد

ذلك موضحاً لأخيه حاجته لعمل ذي مورد ، لأن راتبه التقاعدي لا يكفي لمعيشته ؛ وقد فكر بأن المعمل له علاقات قانونية أو مشاكل مع الآخرين يمكنه أن يساعد ، ولو بصفة غير رسمية ، في حلها . غطى قناع من الغباء وجه عبد الباري بشكل جلي ، أعقبته علامات حيرة وانزعاج .

ـ لا أدري . لا أعرف شيئاً عن هذه الشؤون .

وضغط على زر بجواره . لاحظ توفيق أن الشيب تكاثر في شعره وشاربه ، وأن وجهه صار مقبولاً أكثر من قبل ، ولم تعد تخفى عنه مظاهر الوجاهة . دخلت عليهما شابة بملابس ملائمة فسلّمت .

ـ هل لدينا قضايا... أو مشاكل قانونية ، أو ما أشبه ، مع أحد ؟

ـ كلا ، أستاذ عبد الباري .

ـ لا يوجد أي شيء ؟

ـ حسب علمي ، لا توجد عندنا قضايا . مع ذلك ، إذا سمحت سأتصل بمحامي الشركة لأسأله .

ـ آه... طبعاً .

عاد توفيق إلى « حي العامل » بُعيد الساعة الثالثة . كان قد تغدى بعد انصرافه من المعمل وقصد شاطئ النهر فجلس في إحدى المقاهي يتملى من منظر الأفق العريض ويستنشق الهواء الصافي . تذكر بعض الشخصيات الروائية ؛ يبدو الإنسان ، في الرواية ، أكثر رسوخاً في وقوفه على أرض الواقع الحياتي ، وأكثر فهماً لما يجري له . ورغم اختلاط الأحداث والانفعالات والمصائر ، فإن هناك إدراكاً ، جزئياً في بعض الأحيان ، لدى القارئ بوجود نظام يمكن إدخال كل هذه الألغاز ضمنه . شيء مسل . من جهة أخرى ، لا يمكن لأي روائي ، مهما عظم ، أن يتجرأ ويقدم موقفاً مثل هذا الذي حصل لتوفيق مع عبد الباري قبل ساعات ؛ فإنْ يعلم الثاني ، خير العلم ، أن شقيقه المظلوم والمحروم دون سبب من حقوقه ، يحتاج لما يقيم أوده ، ويبقى مع ذلك يتغابى ويملكه الفزع من فكرة مساعدته ، ويتركه

يمضي نحو المجهول المخيف دون أن يسأله حتى عن عنوانه ؛ إنه الإحباط الكامل وهو أمر يثقل على قلب القارئ مهما تكن صلابته وقوته على التحمل ؛ وهذه المواقف لا تقدم في الروايات ، ليس بسبب ما تتضمنه من عنصر مهين للبشرية جمعاء ، وأنها لا تساعد القارئ على تقبل العيش أبداً ، بل لأنها منقطعة الصلة بأي نظام أخلاقي أو كوني ، يبررها بشكل ما ويجعلها من ضمن المألوفات المقبولة .

حين وصل أسواق الأفراح وجد أبا فتحية بانتظاره في أسفل السلم . أخبره بأن لديهم ضيوفاً ثقلاء هم أولاد زوج فتحية المتوفى ، جاؤوا يتفحصون الأسواق بعد أن سمعوا عنها ؛ وأضاف بأنهم بشر من البدو ، لا يفهمون شيئاً من أمور الدنيا ، ولذلك يتصورون أموراً غريبة لا يعرف أحد كيف تهبط على رؤوسهم ؛ وكل مبتغاهم هو كسب المال بأية طريقة ممكنة . تملك الانزعاج توفيق ؛ فقد أراد أن يتخلص من المنغصات التي واجهته قبل ساعات بنومة ثقيلة ، فإذا بثرثرة أبي فتحية تنتظره . سأله عما يريد .

ـ طلبت فتحية أن أرجوك أن تكون محامياً لها وأن تجلس معهم .

ـ من هم ؟

ـ أولاد زوجها المنبوش... المرحوم ؛ فرهود وجبار وسكران . إنهم هنا ، عندنا ، يتكلمون ويهددون ولا أدري بماذا يحكون . قالت فتحية تعال وتحدث معهم كمحام لنا وسيخافون .

كان ذلك أمراً جديداً على توفيق ، لا يتلاءم وصداع الرأس الذي يشقيه ؛ إلا أنه استجاب لما أرادت فتحية ، منتظراً ، في دخيلته ، أن ينقذها من الورطة التي هي فيها حسب الظاهر ، وأن يُثاب بعد ذلك من قبلها ؛ وهو ما كان يسره . قبل ذلك ، وبعد أيام من سكناه معهم ، تبدلت صورة فتحية بالنسبة إليه بمقدار ما كانت نزعاته الجنسية لا تجد لها منفذاً طبيعياً اعتاد عليه ، فأخذ كل شيء فيها يجذبه ويمتعه ويبعث فيه حيوية نادرة . حدث له مرة أن ترك باب غرفته موارباً وهو يقرأ على سريره ، وكان الوقت عصراً

والربيع يعذب الذكور منذ حين ، فسمع صوت مكنسة القش يتردد ، صوت شبه أنثوي يتكرر ويتكرر ؛ رأى فتحية تطوي ساقيها وتجلس عليهما ، وهي تكنس أرض الساحة بمكنستها الصغيرة وتتقدم ببطء في لباس نوم ناعم يظهر حنايا جسدها الخلفي . ترك كتابه جانباً وراح يتملى من رؤية ظهرها النحيل وفقرات عمودها وحوضها الذي يتسع بعد ذلك ويبرز ردفاها المليئان والشق العميق بينهما . كان شعرها مشدوداً إلى الأعلى بقطعة قماش حمراء ليمنع انسداله على وجهها ؛ ولما استدارت في حركتها البطيئة وواجهته وهي مهمومة بعملها ، تبدى لعينيه من خلال شق الباب ، فخذاها الخمريان منفتحين واللباس ، في عمق التقائهما ، منحشراً بادي الانتفاخ . صار قلبه يخفق ويخفق ، ويداه ترتجفان . يا للرغبة الجنونية!

ومع تقديره لاحترامها له ، لم يتخلف عن جلسته تلك وراء الباب الموارب ؛ وهجم الصيف عليهم كما يفعل كل سنة ، وتعرت أذرع النساء وأذرع فتحية ذات الجاذبية الخاصة ، فصارت جلسته تلك وراء الباب هي متعته الوحيدة ، في أيام متعبة سوداء ندرت فيها المتع . كانت تقوم ، بعد ميلان الشمس عن غرفتها ، فتخرج إلى الساحة ترشها بالماء ، وهي عادة في ثوب رقيق قصير جداً ، ترتديه على جلدها كما استطاع توفيق أن يرى بوضوح . كانت جولتها لتبريد الجو ، تجعله يحترق رغبة في تملكها ؛ وربما كانت تظن نفسها بمفردها ولا رقيب عليها ، فكانت تمسك بأنبوب الماء المطاطي وترفعه إلى أعلى فتتلامع القطرات ببهجة تحت أشعة الشمس وترش أرض الساحة حيناً ، ثم تعوج به نحوها وينثال الماء على ثوبها فيلتصق على الجسد الفتي الرائع . كان ثدياها متوسطي الحجم ، ناهضين بقوة ، وبطنها منخفضاً ؛ وكان المثلث المدهش في خفائه بين الفخذين المتينين وترجرج ردفيها المكورين وهي تتحرك ، يصل بإثارته لتوفيق حد الخروج عن طوره ؛ غير أنه تعلم أن يتمتع بهياجه غير المشبع هذا بصمت ، وأن يعاود التجربة . ظن ، أول الأمر ، أن ذلك نوع من أنواع السفاهة ؛ ثم قرر أن يسميه ،

تجنباً للأحكام الأخلاقية ، البقاء في القمة . وخلال بعض الأوقات ، اعتقد أنه ، في كل الأحوال ، لن يكون أكثر ، ولا أقل ، من سفاهة في القمة!

تغيرت طريقته في معاملة فتحية تدريجياً ودون إرادة منه ؛ لم ينقلب ضعيفاً بصورة تامة ، قبالتها ؛ ولكنه لم يعد يستطيع أن يقول لها... كلا... حين يتوجب التلفظ بهذه الكلمة . كانت ، تلك الفتاة المتلاينة اللطيفة معه ، تنقلب إلى هرة متوحشة حين تغضب بمواجهة والديها أو أحد المستأجرين المشاغبين لسبب من الأسباب . عاركت أمها قبل العشاء ، مرة ؛ وصله الصراخ فخرج يستطلع الخبر . كانوا في أواخر أيلول ، والليل رطيب بارد ؛ وجد باب غرفتها مفتوحاً والضوء مشعلاً فيها . كانت فتحية واقفة وسط الغرفة ممسكة بعصا أو بآلة خشبية لم يعرف نوعها ، وأمها تركع تحتها رافعة ذراعيها بتوسل إلى الأعلى ، تصرخ صرخات حيوان جريح ، والأب منكمشاً على أريكة ، دون حراك . أحاط فتحية بذراعيه واحتضنها من الخلف بقوة وأنزل ذراعها إلى جانبها مسقطاً القطعة الخشبية من يدها . كانوا يصرخون جميعاً لغير سبب معروف . سحبها إلى خارج الغرفة وطلب من أبويها أن يذهبا إلى غرفتهما . لم تقاومه وسكنت إلى أحضانه . أحس بكفه يضغط على أحد نهديها . كانت تبكي وتشكو أمها وجهلها وسوء تصرفاتها ، وهي تهتز بعنف . مشى بها بعيداً وتوقفا في زاوية مظلمة قرب غرفته . هدأها . لبثت تبكي بحرقة ، ووجد نفسها يحيطها بذراعيه ووجهها يستند على كتفه اليسرى . مرّ براحته على خدها المبلل ، ثم ضمها إليه ملتذاً بالحرارة الأنثوية التي سرت إليه من جسمها وبليونة نهديها على صدره ؛ ثم ، بعد لحظات ، شعر أنه يكاد يتجاوز تصليح الأمور إلى إفسادها ، فابتعد عنها ليتجنب أن تحس تلك الأرملة الشابة بمدى ما وصله من هياج ، وأخذ يكلمها بكلام العقل . كانت تمسح ، في الظلام ، وجهها وهي تنشج بسكون نشجات رقيقة أثارته دون أن يريد ، ووجد من الحصافة أن ينهي الموقف ، فدعاها للانصراف إلى النوم فأطاعته بهدوء أراحه .

عادت له تلك المواقف والصور ، وهو ، في غرفته ، يشدّ رباط عنقه ويهيئ نفسه لمقابلة أولاد زوج فتحية بصفته محامي العائلة . كان أبو فتحية يقف بذل في باب الغرفة ، منتظراً أن يكمل الأستاذ ارتداء مسوح المحاماة ؛ فلما خرج إليه حاملاً حقيبة سوداء ، أوشك أن ينحني له إجلالاً .

لم يكن أبناء زوج فتحية بدواً ولا فلاحين ، بل ريفيين أفسدهم ، منذ الصغر ، مال أبيهم . قاموا احتراماً له حين دخل وسلم عليهم بوقار . لم يملكهم التردد ، لحظة ، في اعتباره محامياً بغدادياً ذا شأن كبير وسطوة ، لذلك جلسوا ملفوفين بعباءاتهم الصوفية ، يتطلعون إليه بوجل . قامت فتحية وأمها فخرجتا من الغرفة بسرعة ، وانتحى أبو فتحية زاوية فاختبأ فيها . كان الجو ملغوماً ببلاهة ، ولم يعرف توفيق تماماً عمّ جاؤوا يبحثون وماذا يريدون بالضبط من فتاته المشتهاة ؛ ثم خطر له أن يبدي لهم استصغاره لشأنهم ، لعل ذلك ينفعه في تعجيل ابتعادهم ؛ فسأل من كان يبدو أكبرهم سناً عما يريدون من زوجة المرحوم أبيهم . أجاب أحدهم بأن لديهم قضية صمموا على تقديمها للمحاكم . أبدى لهم حالاً انزعاجه من سماع هذا الكلام ، فرأى بعض علائم الخشية على وجوههم ، فاستنتج أن قضيتهم المفترضة ، تبدو مفتعلة وغير ذات أساس ، وأن غرضهم شيء آخر لا علاقة له بها .

دخلت فتحية تحمل صينية الشاي والكعك ، فقدمته له أولاً ثم لهم ، وجلست بعد ذلك على كرسي غير بعيد عنهم . كشفوا عن أوراقهم بعد أن انتهوا من شرب الشاي وأكل الكعك .

ـ لدينا قضية يا أستاذ ، أي نعم ، قضية نقدمها لحاكم التحقيق عندنا . نحن نرى أن أبانا ، ألف رحمة عليه وعلى آبائكم وأجدادكم يا أستاذ ، نرى أنه لم يمت ميتة طبيعية . نعم ، ميتة طبيعية ؛ وسنطلب إجراء التحقيق والعدالة ، لمعرفة أسباب الوفاة . أليس كذلك ؟

نبرت فتحية فأشار إليها توفيق بالتزام الصمت .

ـ لماذا أتعبتم أنفسكم يا اخوان بالمجيء إلينا... إلى موكلتي فتحية ؟

اذهبوا ، بحفظ الله ، إلى السيد قاضي التحقيق مباشرة . نحن لا نعترض على ذلك ، والسلام . لماذا تضيّعون وقتكم ووقتنا بالمجيء إلى بغداد ومقابلة موكلتي فتحية وتطويل الحديث والسؤال والجواب دون داعٍ ، صحيح أم لا ؟ قولوا لي من فضلكم .

شعر بسرور وهو يراهم مشتتين ، يتبادلون النظر الحائر بصمت . ثم بادر فسألهم عن عمر والدهم حين توفاه الله إلى جواره ، فاختلفوا في تحديد الرقم . قال واحد منهم إنه كان في السادسة والسبعين ، فاعترض الآخران وصححا الرقم إلى الخامسة والسبعين ؛ فعاد يسألهم عن سبب الوفاة فأجابوه بأنه سقط بالسكتة القلبية .

ـ هل ثُبّت ذلك علمياً وبالتقرير الطبي ؟

ـ نعم ، أستاذ ؛ بالتأكيد ؛ وكيف لا ؟

فبيّن لهم توفيق بأنه ، شخصياً ، سيكون سعيداً لو عمّر إلى حدود السبعين ولو رحمه الله فتوفاه إليه بالسكتة القلبية دون مرض طويل ولا عذاب . أيدوه متحسرين فكاد ينفجر بضحكة عريضة وهو يرى وجه فتحية تتابع المحادثة بلهفة وانتباه وفخر . أية مهزلة هذه! وماذا يقصدون ؟

ـ أردنا أن نقول ، وتسمح لنا أستاذ ، لأننا أهل وأقرباء . عائلة واحدة كما تعلم ؛ نفرح بفرح أحدنا ونحزن لحزنه . عائلة مترابطة ، والله على ما نقول شهيد . المقصود يا أستاذ ، وأنت سيد العارفين ، أن القوي يساعد الضعيف ، والشخص الذي مكّنه الله وأعطاه ، لابد أن يساعد الأقرباء المحتاجين . ونحن عائلة واحدة والمال مالنا ، مال والدنا والقضية مختصرة . لا يصح أن يأكل عضو من العائلة كل الأملاك ويبقى الآخرون فقراء يرفعون أيديهم للسماء . وهذه العمارة ، أنت شاهد والله شاهد ، هي من مال أبينا ؛ بنتها ، في الحقيقة ، زوجته مما ورثته من ماله ، فالأمر ، هذه الساعة ، كيف تساعد العائلة .

قامت فتحية من مكانها ، ووقفت أمامهم وعيناها الخضراوان تقدحان شرراً :

ـ ألهذا جئتم يا أولاد غضبان الحسن ؟ أهذا هو شرفكم ، يا شيوخ يا أبناء الشيوخ ؟ تهددونني أمام المحامي وتطلبون مني مالي الحلال ، مالي مالي أنا وليس مال أبيكم . تريدون مني أن أتكلم ؟ أنت يا فرهود وأنت يا سكران وأنت يا جبار ؟ تريدون أن أتكلم ؟ لن أتكلم هنا ، أتكلم أمام حاكم التحقيق . فهمتم ؟ أمام الحاكم ؛ وإذا لم تقدموا قضية فسأقدمها أنا ، وهذا المحامي شاهد على ما أقول . أنا التي تقدم القضية ضدكم... ضدكم . هل فهمتم ؟

كان شعرها الأسود المحنى مهتاجاً مثلها ، يتناثر على جبينها وكتفيها ، ويتراقص مع حركاتها وكلماتها . أجلسها وهدأها واشتهى أن يقبلها ويضمها إلى صدره . كسبوا المعركة بتدخلها العنيف الذي أخاف رجال القش أولئك ، فأخذوا يعتذرون بجمل متقطعة ، ويبدون استغرابهم لحديثها ولما تفكر به ، ويرجون من الأستاذ المحامي أن يتدخل ويفهّمها المسألة ، فهم لا يطلبون شيئاً سوى المساعدة عند المقدرة ولا شيء غيرها ، فلكل ماله وما ملكت يداه ، وإذا لم تفهم زوجة المرحوم والدهم كلامهم كما قصدوه ، فيرجى من الأستاذ أن يفهّمها ، وهم لا يطلبون شيئاً وكان الله مع الصابرين .

وهكذا انصرفوا ، تحت ستر الظلام ، يتعثرون بعباءاتهم الصوفية وبآمالهم الخائبة ؛ وحق لتوفيق ، وهو يتطلع إليهم من نافذته ، يختفون عند ثنية الشارع ، أن يفكر بأن ثواب فتحية له لن يتأخر كثيراً .

في الأثناء ، تم زواج كميلة الثاني من خطيبها جاسم الرمضاني بعد انتهاء فترة العدة القانونية . عقدوا العقد في المحكمة وعادوا إلى البيت ليحتفلوا احتفالاً صغيراً هم وأقرباء العريس ثم استقل الزوجان السعيدان الطائرة قبيل الغروب للقيام بجولة في أوروبا لم يحددا مدتها . كان ذلك منتصف شهر تموز ١٩٧٨ ، حين كان توفيق ، يركض من هنا إلى هناك ، تحت أشعة الشمس ووطأة حر بغداد الشديد ، كي يدبر مورداً ثابتاً لرزقه من زمرة المحامين الذين أثبتوا أنهم لا يعرفون العدالة في معاملاتهم

الشخصية . ولما كان جاسم وزوجته كميلة يحملان ، عند سفرهما ، من المال ما يكفيهما لعدة شهور ، ولأن طبيعة تكوينهما تواءمت وامتزجت لأسباب غير معروفة ، فقد تأخرت عودتهما إلى أرض الوطن حتى نهاية تشرين أول من تلك السنة . وحين عادا خرج الأهل لاستقبالهما بكل الحفاوة والضجة الممكنتين ؛ فلما ظهرت كميلة من بعيد بين جمع المسافرين وزوجها يمسك بذراعها ، لاحظ الجميع بذهول ارتفاع بطنها الملفت للنظر ، واختلالاً بسيطاً في مشيتها ؛ فأطلقت أمها زغرودة فرح ، استبشاراً بهذه العلامة ذات الدلالة الكبرى . لم يكونوا على خطأ ، فكميلة حامل هذه المرة بشهرها الثاني ، وهي ، من فرط سعادتها ، تكاد تطير بلا أجنحة . كانا ، هي وزوجها ، قد سمنا خلال هذه الشهور ، وامتلأ وجهاهما واستدارا ؛ ولولا المعطف الطويل المزرر بإحكام ، لبدا كرش جاسم يفوق في تكوره بطن زوجته الحامل .

واستقر الزوجان السعيدان في المشتمل ، الذي زوّر آل القصابي مظهره أثناء رحلة شهر العسل الطويلة . لم يصرف ذلك القصاب البخيل من جيبه إلا أقل مبلغ ممكن ؛ فقد تم صبغ الحيطان وتبديل الأثاث . نُقل الأثاث الذي استعملته كميلة برفقة زوجها الأول ، إلى بيت آل قصابي ، وجيء بأثاثهم المستعمل ووضع بدلاً عنه ؛ وجرى تغيير الستائر ومواضع الثلاجة والتلفزيون والأدوات الأخرى ، فظهر المشتمل كأنه جديد لم يسكنه أحد من قبل . غير أن جاسم الرمضاني لم يكن بحاجة لكل هذه الجهود ليرضى ؛ كانت المظاهر الكاذبة البسيطة تكفيه لينتفخ كالديك سروراً ؛ وها هو يحصل على أكثر بكثير مما كان يحلم به .

وجاء جمع الأهل ، كالعادة ، من خانقين ، جالبين معهم من الهدايا ما أدهش آل قصابي وأدخل البهجة إلى قلوبهم ؛ واتفق الجميع بأن الحظ الحسن قد ابتسم أخيراً لكميلة ؛ وكانت أنوار بين الجالسين وفي حضنها طفلها توفيق الجميل ، تراقب وتقارن بين ذلك الزوج الوسيم الخفيف الروح ، الذي

لم تنسَ قبلته على فمها ، وبين هذا الزوج البطين ذي الوجه المعتم المحزن .

ولم يسأل أحد عن توفيق لام ولا سُمح بالسؤال عنه ؛ إلا أن مرض والدته الخطير قلب نظام الأشياء ، وتوجب لأسباب أخلاقية وتقليدية وغيرها ، إيجاد عنوانه والاتصال به ؛ وكان ذلك في بداية شهر كانون الأول ١٩٧٨ .

قررت فتحية بعد انصراف الزوار الثقلاء أن تدعو توفيق للعشاء معهم ، وأرسلت أباها لشراء الكباب من ذلك المطعم القريب ، ثم دعت الأستاذ توفيق للمجيء إلى غرفتها لمشاهدة برامج التلفزيون . لم يكن هذا هو الثواب الذي توقعه توفيق ، لكنه لم يستطع رفض الدعوة للعشاء معهم . جلسا معاً ، هو وفتحية ، بعد أن خرجت أمها للمطبخ انتظاراً لعودة الأب . أخبرته بأنها لم تضيّف أبناء زوجها بقصد إذلالهم ، لكنهم سيعودون مع ذلك مرة أخرى وأخرى لتكرار المحاولة ؛ ولن يضجروا من الرواح والمجيء لأن هدفهم الأساس هو تضجيرها هي لتستسلم وتستجيب لطلباتهم . أعجب بتحليلها ذاك ، رغم عدم تصديقه . سألها عما لديها ما تخفيه وتهددهم به أمام قاضي التحقيق ؛ فأطرقت برأسها وجمدت ملامح وجهها :

ـ حكايا عتيقة كثيرة ؛ قد يأتي وقتها .

أكلوا بشراهة ، كلهم ؛ وكان ، بشكل ما ، سعيداً وهو يعابثهم ويروي لهم النكات وينظر إليها متمتعاً برونق شبابها وجمالها وأنوثتها . لم يعد يفكر بماذا ستكافئه ، فلم يعمل عملاً بطولياً خارقاً ؛ ووجد أن وقته السعيد هذا معهم هو الشيء الثمين الذي كان قد ضيّعه منذ سنوات .

لكنها جاءت إليه مع ذلك ؛ جلبت له الشاي إلى غرفته حيث استلقى على السرير ، مطفئاً الضوء وفاتحاً الباب . جلست على الصندوق أمامه ، جنب الكتب المصفوفة . بدت له متغيرة النظرات ، ولعلها تزينت قليلاً قبل أن تجيئه ؛ فهذا الكحل لم يكن بهذا العمق قبل ساعات ، ولا تلك الحمرة في الشفاه . خفق قلبه حينما شكرته برقة على مساعدته لها ، وابتسم قائلاً إن

الذي ساعدها حقاً هو الحقيبة السوداء والرباط الذي وضعه في تلك المناسبة! أضحكها ذلك كثيراً ، وبزغت الفرحة من عينيها . وضع قدح الشاي جانباً ؛ سألها ، مرة أخرى ، عن حكاياتها القديمة ، فتلاينت ملامحها وأخفضت رأسها فأخفى الشعر الجزل الأسود وجهها . مدّ يده وأبعده عن عينيها . استكانت لحركته بشكل غريب والابتسامة الغامضة على شفتيها :

ـ حكايات عتيقة ، عتيقة ؛ لا تُحكى كلها .

أنزل يده فمرّ بأنامله على جبينها وأنفها ثم وصل إلى شفتيها ؛ فتحتهما وضغطت بأسنانها على سبابته . قام مقترباً منها وأمسك بكتفيها . كانت عيناها ، في الضوء الآتي من بعيد ، متوجهتين نحوه ، تنفثان سحراً عجيباً . انحنى عليها فوضع فمه على شفتيها المنفرجتين وقبّلها بنعومة ؛ تملكه دوار فأغمض عينيه وزاد من تمسكه بكتفيها . أحس بها تبادله قبلته وتداعب شفتيه بطرف لسانها . كان رضابها حلواً ، ذا مذاق لذيذ ، شبه مسكر . أنهضها واحتضنها وشدها إلى جسمه المتوتر الحار . احتضنته هي الأخرى واستجابت لحركاته . كان يرتجف رغبة فيها ويحس بغياب العالم من حوله ؛ وكانت الأفكار تتسارع في ذهنه عما يمكن أن يعملا وهل يستطيعان حقاً وهل تقبل وكيف... وهو يشعر بتوتره يلتصق على أسفل بطنها بشكل حاد ، دون أن تبدي اعتراضاً أو تحاول إبعاده ، وثدياها يندفعان إلى صدره وينامان برفق عليه . كانت لحظات في السماء العالية ، بين غيوم معطرة ، تبعث في الجسد لذاذات لا حصر ولا نهاية لها . تحسس نهدها ، تحت ثوب النوم ، فوجده عارياً ، حاراً ، بارز الحلمة ؛ داعبه بلطف... بلطف . تنهدت وتأوهت بصوت خافت ، ثم رمت برأسها على كتفه . كان يرى وجهها بغموض ، منفرجة الشفتين مغلقة العينين . عاد إلى تقبيلها ، وتناول شفتها السفلى بفمه ، يمتصها بنهم . مرر ذراعه على ظهرها وأنزلها إلى فخذيها وردفيها العريضين ؛ ولما أراد أن يلمس منها منطقة حساسة أوقفته بضعف وهمست بصوت مرتجف :

ـ ليس الآن ، ليس الآن .

كانا ، متحاضنين ، يتنفسان باضطراب وقلباهما يخفقان بشدة . لم يدر ما العمل وهو يحس بجسده يشتعل ؛ ولم يصدق أنها تريد أن يتوقفا إلى هذا الحد المميت للأعصاب ؛ فعاد يقبلها وتقبله ويمتصان شفاه بعضهما الآخر ويغيبان عن العالم . كان وقتاً إلهياً لم يألفاه ، ولم يريدا أن ينتهي ؛ لكنها ، رغم ضعف النساء ، كانت أقوى تصميماً منه وأقوى على التوقف عند الحدود الخطيرة ؛ وهكذا اتفقا ، تلك الليلة ، أن يتوقفا وأن يتدبرا الأمور قبل ارتكاب الحماقات . وعدته فتحية ، بين القبل الطويلة ، أن تروي له يوماً ما ، أو ليلة ما ، تلك الحكايات العتيقة ، وحذرته بأنها قد تثير الدهشة والاستنكار ، وقد لا تعجبه البتة ، فطمأنها ، إذ غالباً ما تكون الدهشة عنواناً لنجاح الحكاية ، أما عدم الإعجاب ، فذلك أمر سيدعو للعجب!

بعد تلك الليلة الخريفية الجميلة التي لم يذق فيها طعم النوم ، وجد توفيق نفسه يزن حياته الحالية بميزان آخر ؛ فماذا تعني السعادة الإنسانية غير هذا... الارتياح وعدم العوز واللامسؤولية والحب المتبادل ، والوعي بكل هذا ؟ ؟

ومع أن كل هذه الشروط لم تكتمل ، وهو سعيد ، مع ذلك ؛ فكيف يتم مثل هذا الأمر ؟ لابد أن الخلل كامن في أن أحد هذه العناصر قد طفح وأغرق العناصر الأخرى فتلاشت مؤقتاً واكتملت السعادة بطريقة مغشوشة .

كانت نقوده في المصرف تتناقص بصورة مستمرة وسريعة ومخيفة ؛ فلم يبق من رصيده غير ستمائة دينار ، وهو يسحب منه بغير انقطاع ، ولا يستطيع أن يقضي احتياجاته كلها براتب التقاعد الضنيل . أعطى فتحية خمسة عشر ديناراً عن أجرة الغرفة ، فلم ترد أن تأخذها منه خجلاً واحتراماً له ؛ لكنه أصر ؛ فهذا الملاذ يدفع عنه الكثير من الشرور بمبلغ زهيد . وكانت مشكلة الطعام مشكلة كبرى ، فحلها بمساعدة فتحية ؛ اتفقوا أن يأكل معهم في بعض الأيام مقابل مبلغ غير كبير شهرياً ؛ أما حين لا يحضر للأكل معهم ، فعليه أن يدبر حاله بأكلة سريعة من أحد المطاعم .

غير أنه ، بمواجهة مستوى حياته الجديدة ، الباعث على الشقاء ، كان بحاجة ، ليس لتبرير ما حدث ، بل لتأسيس قناعات أخرى تتيح له أن يدافع عن جوهر ذاته المهدد بالتفتت . وجد أن التعود على عدم الاكتراث بالتفاصيل والاهتمام بالواقع الرئيس ، قد يكون سبيلاً قصيراً لبلوغ الهدف . ولم يسع لتعريف معنى الواقع الرئيس ؛ فهو ، ببساطة ، ما كان يُفرض عليه أن يعمله أو ما كان يريده مضطراً . مشكلة التنقل اللعينة مثلاً ؛ فلا سبب يدعو لممارسة بلادة لا محل لها حين تستحوذ علينا فكرة بأن تملّك سيارة خاصة يجعل الذهاب إلى أي مكان مسألة مريحة ، بل الأصح أن نحوّر الاقتناع إلى أن الانتقال بواسطة باص الأمانة بهذا المبلغ البسيط هو ، بحد ذاته ، نجاح يجب الاكتفاء به .

أرضته ، بشكل ما ، هذه الفكرة ، فأراد تطبيقها على مشكلة الطعام ؛ تذكر ، بهذا الصدد ، قولاً مأثوراً أو حكمة قديمة فحواها أن على الإنسان ـ ولابد أن يكون المقصود بذلك الإنسان المشهود له بالرفعة والمنزلة المحترمة ـ أن يأكل ليعيش لا أن يعيش ليأكل . حسن هذا ؛ ومن المعقول فعلاً من بعض النواحي ، أن نجعل الطعام في الدرجة الثانية من الاهتمام ؛ إلا أنه شعر ، في وقت ما ، بأن الأكل الذي يزدرده هو من الدرجة العاشرة على أقل تقدير ، مما جعل فكرة عدم الاكتراث تعني فشلاً ذريعاً ، أدى إلى تدهور صحته بشكل منتظم ومقلق ، اضطره إلى زيادة مصروفه وهو أمر يدعو إلى الامتعاض الشديد .

تلك أيام من الحياة مزعجة حقاً ؛ يزيد في إزعاجها ألا تجد منفذاً قريباً أو حلاً . ولم يرد أن يعيد تجربة المحامين ولا مقابلة أخيه ؛ فقد كانت المهانات فيهما زائدة عن الحدود المعقولة والمقبولة .

وفي أحد أيام كانون الأول ١٩٧٨ ، عاد أبو فتحية بعد الظهر مضطرباً إلى البيت فأخبر توفيق بأن والدته مريضة جداً وهي تطلب رؤيته ، وقد اتصل أخوه عبد الباري بأحد موظفي الدائرة ليوصل إليه الخبر . لم يجد شيئاً قد

تغير في حيّهم السابق خلال الأشهر الأخيرة الماضية! كأنه غادره أمس . أدخله إلى الدار أحد أبناء أخيه ، فلاقى ثريا في الصالة . حيته ببرود وأعلمته بأن الوالدة أصيبت بذات الرئة ، ولا أمل كبيراً بنجاتها هذه المرة . كانت أمه مستلقية على فراشها وعبد الباري بجوارها ، ينتظر المجهول . حياهما واقترب من سريرها يملكه القلق . كان وجهها شاحباً ، خالياً من أمارات الحياة . أدهشته منها ابتسامة طفيفة ، فأمسك بيدها الملقاة على اللحاف . ضغطت على أصابعه بحركة ضعيفة وهمست :

ـ كيف أنت ؟

هزّ لها رأسه :

ـ وأنتِ ؟

ـ كم تغيرتَ يا توفيق!

أراد ، لحظة ، أن يقول لها... بجهودك ؛ ابتسم ابتسامة باهتة وجلس قرب الفراش . عادت تضغط على يده :

ـ كم تغيرت يا توفيق... يا ابني!

أحزنه تكرارها تلك الجملة ، كأنها نادمة على ما فعلت به ؛ لم يجبها ، ورآها تغمض عينيها بهدوء .

توفيت والدة عبد الباري في بداية سنة ١٩٧٩ ، بعد رأس السنة بأيام . زارها توفيق عدة مرات قبل وفاتها ، وكان يزداد حزناً إثر كل زيارة يقوم بها ، دون أن يعلم لماذا . صادف ، مرة ، زوجته السابقة كميلة ، تخرج من بيتهم وتتجه نحو سيارتها لتستقلها جنب زوجها الحالي . شعر بقلبه يعتصر بمرارة ، وهو يلاحظ بروز بطنها بشكل واضح . بقي ، تلك الليلة ، يفكر في سخف ما أحس به . أراد ، ربما ، أن يكون قد اجتاز مرحلة تلك الأحاسيس ، ففوجئ بالعكس ؛ ثم أراد ، وهو يحدث فتحية ، أن يسخر مما حصل له . كانت تأتيه إلى الغرفة في بعض الليالي ، فيلبثان غارقين في أحاديث شتى والباب مغلق عليهما . تبادلا القبلات مرتين أو ثلاثاً بصورة

تلقائية ؛ لكنه وهو يصف لها ، مفتعلاً التهكم ، مقالب الصدف ومدى تأثيرها في حياة البشر ، إذا بصوته يخونه دون مقدمات فيرتجف وتنقطع سلسلة كلامه ؛ ففهمت فتحية الضد مما أراده فرأفت به وشرعت في مواساته . أمسكت بيديه وعصرتهما بين راحتيها ثم ضمتهما إلى صدرها ، بين النهدين الحارين ، فتشبث بهذه الحركة الجميلة وسايرها في عطفها عليه . احتضنها وشرعا في جولة قُبل عاطفية لا تنتهي ؛ لكن اتفاقهما على عدم المضي في حماسهما الجنسي إلى نهايته كان مايزال في أيامه الأولى ، لذلك توقفا حينما كانت تحتويه بين فخذيها المفتوحين ، شاعرة بتوتره يضغط بشدة على مكمنها الذي لا يخفيه إلا قماش ناعم رقيق .

لم يكتف عبد الباري بإعلان وفاة والدته في جريدة واحدة ، بل سعى بكل جهده لنشر النبأ في جرائد بغداد كلها ولعدة أيام ، ذاكراً اسم زوجها والده ، وسلسلة نسبها وعدد أولادها وعلاقة المصاهرة التي تربط أحد أبنائها بآل قصابي ؛ ولم يستطع توفيق إلا أن يلاحظ بدهشة وامتعاض ، أمارات السعادة الخفية على وجه أخيه وهو يستقبل المعزين ويحييهم ويرافقهم إلى الباب مودعاً .

حضر توفيق مجلس الفاتحة واتخذ له مكاناً جنب عبد الباري الذي تنازل عن الأولوية في الجلوس إلى عمه عميد آل قصابي ، فصار قاطع اللحم هذا ذو النبل المزيف ، يتقبل العزاء عن وفاة والدتهم كأنه والدهم أو ولي أمرهم . غير أن تلك الأيام الكئيبة المربكة لتوفيق ، تخللتها مقابلات بعثت الدفء في روحه . ففي اليوم الثاني ، حضر للتعزية الرسام عبد الإله كمال والد غسان ، فقام للجلوس بجانبه وسأله عن غسان وعن دراسته وأحواله الصحية ، فأكد له الوالد أن ذلك الشاب في صحة جيدة وأنه يسعى بجد ليتخرج هذه السنة من الكلية في الدور الأول . وفي اليوم نفسه ، علم توفيق بوصول ممتاز اللامي وزوجته وكذلك كاسب برهان الدين ، إلا أنه لم يرهما إلا حوالي الغروب . جلس ممتاز قربه وهمس في أذنه ، بعد قليل ، بأنه

والعائلة يسألون عنه دائماً ويأسفون لعدم استطاعتهم زيارته ، مؤكدين له استعداده للمساعدة في أي شأن ، وطالباً منه بإلحاح أن يزورهم ، لأن دورهم كلها مفتوحة له . شكره من صميم قلبه ووعده أن يأتي إلى خانقين عن قريب . كان كاسب مستقراً على مقعد غير بعيد عنه ، وكانت نظراته المحيية إليه تؤيد ما يقوله ممتاز . خيل لتوفيق أن ممتاز وكاسب هما الشخصان الأكثر بروزاً ، هذه الأيام ، في عائلة آل عبد المولى ، ولعلهما أقدر على مساعدته من الآخرين ؛ لذلك صمم بينه وبين نفسه أن ينفذ وعده لقريبه ويقوم بالزيارة بأقرب أجل ممكن . ثم إن نجية ، ابنة أخيه ، انفردت به بعد انتهاء اليوم الثاني من الفاتحة ، وراحت تسأله ، شبه مختنقة بالبكاء ، عن سبب تبدله هكذا وعن مظاهر العوز البادية عليه ولمَ لا يأتي إليهم ليساعدوه في محنته هذه . مسّت كلماتها قلبه بعمق ، فاحتضنها وقبّل صدغها وشعرها ، ثم طمأنها بأنه في حال جيدة وسيعثر على عمل فلا تقلق عليه ؛ ثم سألها هو عن أنوار وطفلها فأخبرته بأنها لم تأت معهم لمرض ابنها ولعلها تلحق بهم بعد أيام ، وأضافت :

ـ أرجوك ، عمو ، أرجوك .

ولم تكمل . كانت عيناها حمراوين متوسلتين ، تغرقهما الدموع . ابتسم لها حائراً ، متسائلاً عما تريد أن تقول ، فازداد انفعالها واضطرابها وارتمت على يده تقبلها ، باكية بحرقة .

عاد ، تلك الليلة ، سيراً على الأقدام إلى الأسواق . أراد أن ينتقم من نفسه لابنة أخيه الحنون ؛ فقد عمل ما عمل فتهاوى إلى مستوى من العيش ، يشفق فيه عليه من يحبونه بإخلاص . كانت فتحية ، خلال ذلك المساء كله ، تكافح بمفردها هجوم أولاد زوجها الذين حضروا ، فجأة ، وجلسوا يكررون أقوالهم ويلوكونها بلذة سادية ، قاصدين أن يربحوا المعركة عن طريق استسلام الخصم بسبب الملل! عاملتهم بدهاء متميز ، فخرجت وتركتهم مع والديها يستمعان إليهم بصبر نافد ؛ ثم رجعت بعد ساعات ودخلت عليهم

كالعاصفة ، تهتف بأنها قدمت شكوى ضدهم في المركز وأن الشرطة ستحضر بعدها للقبض عليهم ولو هربوا إلى جهنم . لملموا عباءاتهم ببعض العجلة ثم انسلوا خارجين بصمت مهدد ؛ فانهارت وصارت تصرخ وتبكي .

حينما وصل توفيق ، متعباً مستبرداً متورم الساقين جراء السير الطويل ، كانت فتحية ماتزال مستلقية على سريرها ، تنشج وتهزها نوبات من النحيب المتقطع . حكى له والدها ما جرى ، فذهب يغتسل ويضع ما اشتراه من طعام وفواكه في المطبخ ثم قصد غرفتها .

كان ضوء الشارع يتسلل ، شاحباً ، خلال الستائر الرقيقة ، ويبدي لعينيه ظلها الأسود فوق الفراش . خاطبها مسلّماً ، فردت عليه بصوت خافت قطعته شهقة قصيرة أثارته رغم إرادته . رجاها أن تسمح له بإضاءة الغرفة ، فتوسلت إليه ألا يفعل . عرض عليها أن يأكلا ، فهو على وشك الموت جوعاً وتعباً ؛ إذ تورط بالمجيء مشياً على الأقدام ليعاقب نفسه! سمعها تضحك بخفة دون أن تجيب ؛ فاقترح أن يجلب بعض ما يؤكل إلى غرفتها ، فلبثت صامتة فخرج لتنفيذ فكرته . طمأن والديها ودعاهما لأكل لقمة والإخلاد إلى النوم ، فلا شيء خطيراً سيحدث لها أو لهما .

كان خالي الذهن بإخلاص من أية فكرة خبيثة تجاهها ؛ ولم يكن ذلك بسبب أنه كان ملاكاً ، بل لأنه كان شيطاناً متعباً جداً . رآها جالسة في فراشها محلولة الشعر ، فوضع الصينية على مائدة صغيرة بعيدة ، فطلبت منه أن يأتي هو والصينية إلى الفراش قربها . لم تبكِ ، قالت ، لأنها كانت خائفة منهم ، بل لأنها لم تكن تملك الوسائل لطردهم وركلهم ورميهم بالحجارة كما ترمى الكلاب .

جلس جلسة غير مريحة أمامها والصينية بينهما تحتوي على العشاء الذي أعده لهما.. بيض مسلوق وقطع من الجبن والخيار والخبز وتفاحة وعدة برتقالات . كانت تتطلع إلى محتويات الصينية وهي تخفض رأسها وخصلات شعرها الأسود الطويل تخفي وجهها . أخذا يأكلان بصمت ، تحوطهما

الظلال والنور المبهم . سألته بصوت خافت ، لمَ أراد أن يعاقب نفسه ؟ فاعتدل في جلسته وبقي صامتاً لحظات :

ـ من كثرة التعب من الناس ، على الأغلب ؛ ومن هذا التقزز الذي يملأ روحي وأحشائي .

ـ تقزز ؟ ما معنى ذلك ؟

ـ لن تفهميه ؛ فعمرك وحرارة جسدك وقلبك لا يساعدانك على الفهم .

ـ أنا ذكية ، فلا تستهن بي ، وأنا أحذرك .

ـ أريد أن أقبّلك .

ـ لا تحكِ هكذا .

ـ اتركيني إذن لتعبي ، فهو السبب الوحيد الذي يصدني عنك .

ـ ما أقساه! هذا التعب!

ـ أنتِ تريدين أن تفسدي أخلاقي ؛ ثم... من أين لك بكل هذا التغنج ؟ من علمكِ أن تكوني امرأة مشتهاة بهذه الدرجة ؟

ـ ولكنه زوجي ؛ ألم أحدثك عنه ؟

ـ كلا بالطبع ، ماتزالين تبخلين عليّ بالحديث عن أسرارك هذه .

ـ أتظنها أسراراً ؟

ـ أيوجد سرٌ بين البشر أكثر سرية من علاقة الأنثى بالذكر ؟

ضحكت ضحكة قصيرة :

ـ لقد قلب حياتي ذلك الشيخ زوجي ، منذ اليوم الأول الذي أخذني فيه حتى ليلة وفاته . كنت زوجته الثالثة ، في السادسة عشرة من عمري . ما أن وقع نظره عليّ حتى تملكه جنون شهوة لم يتوقف إلا بتوقف قلبه ؛ ولم يأسف على شبابه بقدر أسفي أنا ؛ فقد أدهشتني حرارة روحه والتهاب جسده المثقل بسنواته الست والستين ؛ وتخيلتُ ما كان يمكن أن يكونه لو التقيته وهو أصغر سناً بعشرين سنة! لم أحس بأهميتي كامرأة مثلما أحسستها طيلة السنوات التسع التي عشتها في كنفه . أمتعني بأشياء كثيرة لا يعرفها كل

الرجال ، ووهبته ما أراد من عواطفي وجسمي بكرم وسخاء لا تقدر عليه كل النساء ؛ ودللني مثل طفلة جميلة ووحيدة ، وكان خبيراً بذلك . عشنا في الصويرة ، بدار صغيرة مترفة بناها لي ولم يرد أن يدخلها أحد ؛ حتى أبناؤه السفلة هؤلاء ، منعهم من الاقتراب من داري . كان على علم بنواياهم الخسيسة السوداء ؛ ولقد كشفهم القدر بسرعة ، لحسن حظي . كانوا ، الجبناء الأرذال ، يعتبرونني متاعاً للأسرة ، ويأسفون ، في دخيلتهم ، لأن أباهم الشيخ يتمتع بمثل هذه الفتوة والجمال . دخل اثنان منهم عليّ الدار بعد الزواج بأشهر وأعلنا عن رغبتهما بصراحة . كدتُ أجن ؛ لا بل جننت تلك اللحظة بالفعل . لم يستحيا أو يدركا فظاعة ما يريدانه مني . صارا بمواجهتي مثل حيوانين ضاريين يهمان بالهجوم عليّ ، فأخذتُ أصرخ وأستنجد ؛ وكان القدر بجانبي ، فقد صادف أن عاد زوجي آنذاك ، كما كان يفعل أحياناً ، على غير توقع . كان يقول إنه يجد نفسه ، وهو في مجلس بين أصدقائه من أعيان البلدة ، يفكر بي فجأة ويمتلئ ذهنه بالصور والحركات فتتأجج شهوته ويتوتر ، ولا يرى بدأ من الاعتذار لأصدقائه ويقوم مسرعاً إلى الدار . ووصل وطرق سمعه صراخي... يالله... يالله... أية أعمال عمل بهما! وبأية قسوة أدّب ابنيه السفيهين! وكل ذلك تحت سمعي وبصري ، وهو ما هددتهم أن أقوله لحاكم التحقيق .

كانت تتحدث بليونة ، أثناء تناولها الطعام ؛ وكان مسترخياً في الظلام ، يتكئ على مخدة ثقيلة ويصغي بلذة لحكاياتها .

ـ كان يناديني أول ما يفتح الباب... فخاتي ؛ فقد كان هذا هو اسمي الذي ابتكرته لي تلك الجاهلة المجنونة أمي ؛ ثم يمسك بي ، أحياناً ، ويتملكني بشدة يقصف لي ظهري بعدها ، ونحن لازلنا في المجاز .

ـ أريد أن أقبلك أنا أيضاً يا فخاتي .

ـ لا تناديني يا توفيق بهذا الاسم ، وخلني أتكلم ، فأنا محتاجة والله لهذا الكلام كما سترى .

ـ قبلة واحدة .

ـ دون مص ولا حركات لسانية ؟

ـ نعم .

ـ خذ وهات ، إذن .

انحنت عليه برفق فوضعت شفتيها الناعمتين المبللتين بشذى التفاح على فمه الملهوف . أغمض عينيه ؛ ذهب عنه تعب النهار كله وما تخلف في نفسه من كآبة الأحاديث وصور الوجوه القاتمة . احتضنها وراح يمسح برقة على ظهرها وردفيها وأعلى فخذيها . أدخلت لسانها ، لحظة ، بين شفتيه ثم سحبته وابتعدت برفق عنه .

ـ تعبتَ من حديثي ؟

ـ أبداً .

ـ ما لك تغمض عينيك هكذا ؟

ـ أي سؤال عجيب يا فتحية ، يا طائري الجميل! ولكن ، لأختلي بك ، ألا تعلمين ؟ حدثيني ، حدثيني .

جلست جلستها الأولى بعد أن أبعدت الصينية عنها :

ـ أنت تذكرني بزوجي ؛ لا أدري لماذا ، فلا شبه بينكما ؛ ولكنه كان يحتضنني ويقبلني بحرارة مثلك .

ـ قبلة واحدة أخرى .

ـ أرجوك توفيق ، سأزعل إذا قاطعتني . ألم تسمع أولئك الحمقى يتهمونني بقتله ؟

ـ ولكنك براء من دمه ، أليس كذلك ؟

ـ أنت مجنون لتسألني هذا السؤال! كان لي كل شيء في الحياة ، رغم أني كنت أعلم ، بألم ، أنه لن يبقى لي طويلاً ؛ ولهذا استجبت لكل ما أراد أن نفعل .

ـ وماذا فعلتما أيها العاشقان الصغيران ؟

ـ تتملكني رغبة في البكاء حين أسمع من يهزأ به!

ـ المعذرة ، المعذرة ألف مرة .

ـ كان يذهب بين وقت وآخر إلى بغداد ، فله مصالح وصداقات كثيرة وغريبة أحياناً ؛ ويعود مثقلاً بالهدايا ، لي... لي وحدي ؛ هدايا من كل صنف تتخيله ، حتى ظننتُ أنه يسافر إلى خارج العراق ليشتري هذه الأنواع من البضائع التي لم أرها قبلاً . وهكذا جلب ، مرة ، ملابس نسائية داخلية ذات ألوان وأشكال لا تخطر على البال . تلك ليلة مشهودة ، كأنها العيد . لبستها أمامه فأهاجه منظري ولم يسيطر على نفسه ، فهجم عليّ وتملكني بعنف الشباب وقوته . ومنذئذ ، دخلنا في طرائق الإثارة الجنسية المتأتية عن الملابس الداخلية والأشياء الأخرى ، وكنتُ أتمتع لمتعته وأخاف عليه أحياناً ، فقد جاوز السبعين ، ولم يكن من التعقل أن يتهيج ويمارس الجنس بكثرة . قلت له ذلك بكل لطف ومحبة ، فانزعج وظن أني مللته ، فاضطررت إلى مصالحته ومجاراته . ثم إنه اكتشف في السنة الأخيرة ، الصور والمجلات الخليعة وأفلام الفيديو التي كانت مبذولة ، كما قال ، في بغداد آنذاك . كان يذهب كل أسبوعين أو ثلاثة فيتسوق منها ويعود إليّ كالطفل السعيد ؛ ولعل بعضهم تهجس ما نعمل فأخبر أبناءه ؛ أولئك السفلة ؛ وها أنت تراهم يزحفون على بطونهم كالأفاعي ، يتهمونني بأني قتلته . كان فرحاً تلك الليلة ، فرحاً بشكل غير معقول ، مثلما كان ليلة عرسنا . يا للرجال! كم تسرهم أمور بسيطة متعبة! وفرحتُ مثله ، فهو لا يخفي سراً ، وفرحه لا شك متأت من شعوره بأنه سيتملكني بعد حين . هذا هو كل شيء . شاهدنا فلماً جنسياً مثيراً ، كما يمكنك أن تتصور ، وانتهينا عراة في الفراش ، وجرى ما كان يجري بيننا كل مرة ، ورقد قربي بعد ذلك هامداً متعباً ، مثل كل مرة ؛ إلا أنه كان مصفرّ الوجه قليلاً ، خامد النظرات ؛ قلقتُ عليه وسألته أأعمل له شراباً يدفئه ، فهز رأسه بالإيجاب وأطبق أجفانه ، فانصرفتُ إلى المطبخ ، وكان ذلك...

توقفت عن الحديث بغتة ، ولبثت جامدة في الظلام . أمسك توفيق برسغها الحار وضغط عليه ؛ مدركاً نوع المأساة التي عاشتها ، ومدى الألم الذي تسببه اتهامات أولاد زوجها له . ثم قعد في الفراش وأراد أن يحتضنها فأبعدته عنها بحدة وقامت تقف أمام الشباك المطل على الشارع . كانت ملامح جسدها تبين من خلال قماش ثوب نومها ؛ إلا أنه كان أشد إرهاقاً من أن يُثار ، وكانت هي بعيدة عنه ، في خضم ذكريات محزنة ، فانسلّ بهدوء حاملً الصينية ومتمنياً لها أن تصبح على خير .

في مساء اليوم الثالث من أيام الفاتحة ، وإطاعة للتقاليد وتجنباً للانتقاد ، اضطر توفيق للبقاء في بيت عبد الباري لتناول العشاء . وقف على مبعدة من المائدة الطويلة التي مُدّت في غرفة الطعام ، لا يشارك في الأكل ولا في حث الحاضرين على تناوله ، فقد كان هنالك الكثير من المتبرعين للقيام بهذه المهمة . راقب بفضول زوج كميلة جاسم الرمضاني ، في تلهفه الواضح للطعام ؛ وشعر بأنه كان من قبيل بُعد النظر التعالي والابتعاد عن أنماط من هذا النوع ، وإلا لخسر الإنسان اطمئنانه ومستقبله .

رأى ، قبيل انتهاء العشاء ، كاسب برهان الدين يقبل نحوه حاملاً بين ذراعيه طفلاً وعلى فمه ابتسامة عريضة سعيدة يحاول إخفاءها عبثاً ؛ كان ذلك الطفل الجميل سميّه توفيق بن أنوار . قبّله عديد القبل وخيل إليه ، لحظة ، أن فيه رائحة أمه ، وأن نظراته الهادئة إليه تحمل لقلبه تحيات خفية من تلك المرأة الرائعة . لم يستطع رؤيتها ، وأسعده أن يفكر بأنها أرسلتْ له ابنها الوسيم لتذكره بعلاقتهما السرية . غادر دار أخيه بعد انصراف آخر المعزين ورافقه ممتاز إلى الباب الخارجي ، يكرر عليه بأنه وأهله ينتظرون زيارته إلى خانقين .

جاوزت الساعة التاسعة حين اتجه من جامع دراغ إلى شارع دمشق عبر شارع المنصور . أحب أن يسير رغم الجو البارد ، وأن ينفرد بنفسه . أمضه جواب عبد الباري حين سأله عما إذا عمل على استخراج القسام الشرعي

للوالدة ؛ فأبدى ، بغباء كالعادة ، دهشته لذلك ، فلم تترك المرحومة شيئاً يستوجب عناء استخراج هذه الورقة . لم يرد أن يوجه أسئلة ، فقد كان يعرف كل الأجوبة . خطرت له فكرة القناعة فقط ، أثناء مسيرته الليلية تلك . جاءته الفكرة هكذا ، مع النسمات الباردة ؛ لتعزيته ربما . إنها ليست عملاً إرادياً حسب ، بل يبدو أن صفات نفسية وبعض المتجذرات الوراثية تغلب عليها ؛ وهي ممارسة تتطلب شروطاً وجواً ليمكن لها أن تنجح . فالبقاء في الغرفة الباردة ، زهداً بهذا العالم الخارجي ومن ضمنه فتحية المتطلعة للحياة والشهوة ، يتوجب أن يرافقه انهماك في قراءة كتاب يستحوذ عليك ، لكي تعتدل القناعة وتقف على ساقيها . وكذا الأمر مع التنسك الطعامي المفروض فرضاً ؛ فالمعدة اللعينة الفارغة ، لا تترك لك سبيل القناعة سالكاً بهدوء ، فهي لا تني تطحن نفسها طحناً مؤلماً ، مما يدعو إلى تشتت الأفكار وابتعاد القناعة . لكن هذه الماكنة الجهنمية تتساهل معك لو استطعتَ أن تنساها وتنساك أو لو قدرت أن تجعلها تتلهى بقطعة خبز يابسة وأنت تلتهم صفحات كتاب ممتع .

غير أن الأمر الذي يؤسف له حقاً هو أن تكتشف أن القناعة ليست كنزاً ، بل هي عملية بائسة وغير مفهومة للتشبث بالكرامة والكبرياء الشخصيتين ، ولا تجلب ، في أحسن الأحوال ، إلا اطمئناناً غير متوازن تماماً .

لكن للقناعة حقيقة ، من جهة أخرى ، كتجربة تقدم عليها بعد تأمل وإيمان ، تنبع من قدرتها على غسل النفوس من أدران المظالم التي تنزل بها دون سبب مفهوم . إنها ليست ، بالضبط ، الرضا اللامحدود بما بين يديك ، وإنما ، أيضاً ، الإدراك بأن ما تفتقده لا يمنع عنك سعادة آنية .

وهكذا أراد توفيق لام أن يصغر مساحة حياته المادية وأن يغني ما يتبقى له بعد ذلك ؛ فحذف من جدول طعامه العديد من المواد التي اعتبرها عالية السعر ، وحوّر مواعيد الوجبات : صار ، بمحض إرادته ، لا يستيقظ

قبل العاشرة من نومه ، ويفطر حوالي الحادية العشرة فطوراً دسماً ما أمكن دون إسراف... بيضتين مسلوقتين مع الكثير من الخبز . ثم الشاي فقط ؛ ويخلد إلى الراحة . دون غسيل ، دون حلاقة ، دون اكتراث بالناس أو بالضجة التي تدور حوله . يقرأ باستمرار ؛ فإذا ساعدته هذه القراءة على النوم ، فلا مانع من ذلك ، إذ أن وجبة الطعام الثانية موعدها الساعة الخامسة . دبّر هذه الوجبة بالاتفاق مع فتحية ، فقد وافقت أن يتركوا له صحناً صغيراً ، مما يطبخونه ظهراً ، يحتوى على الرز وقليل من المرق مقابل مبلغ معين شهرياً ؛ أضاف لهذا بعض المواد التي كان يشتريها ويعتبرها صعبة على الهضم .

في نهاية شهر شباط اكتشف لهذا النظام الطعامي الرخيص فائدة ثانوية لا يلتفت إليها أحد : فمع ضعف الجسم ، الذي يجب الاعتراف بأنه أمر لابد منه ، تنخفض حدة المشاعر ويقل توهج العاطفة الشهوانية ويكون بالإمكان التمتع بالراحة ، الراحة التامة . إلا أن الاستمرار في هذا النظام يؤدي ، كما يبدو منطقياً ، إلى أمور أخرى لا تسر كثيراً .

في النصف الثاني من شهر آذار ، كان الربيع يرفع قناعه باستحياء ، وتوفيق جالساً باسترخاء في مقهى حمزة ، يرتشف شايه ويتأمل الرائحين والغادين في الشارع المكتظ ، حينما دارت الدنيا به دورة سريعة وعنيفة ، كادت أن تسقطه من التخت الخشبي لولا تشبثه بالمسند في اللحظة الأخيرة . ثم شعر ، وهو يتطلع بدهشة إلى قدح الشاي المكسور ، بخواء رهيب انفتح في داخله وامتص قواه دفعة واحدة . كانت يداه ترتجفان ، ونبضات قلبه تبطىء وتبطىء . تنفس بعمق وأغمض عينيه . جاءه عامل المقهى يسأله عما به فطلب كأس ماء غسل بها وجهه وشرب جرعات منها فانتعش قليلاً . فسّر الحادثة بأنها من تأثير المناخ وتغيّره ؛ وكان يعرف أن ذلك غير صحيح . عاد إلى غرفته يجر قدميه جراً فأسرعت إليه فتحية وأبوها : لاماه على فوضى طعامه وعرضت عليه فتحية أن تهيئ له أكلة خفيفة

فرفض شاكراً وبيّن لهما أنه تناول وجبته قبل أقل من ساعة وخرج يروّح عن نفسه فهاجمته تلك الدوخة العجيبة . روى له أبو فتحية وهو يصفق يداً بيد بأن سليمان فتح الله بلغ من السمنة حداً كسر فيه الكرسي الذي يجلس عليه في المكتب ؛ فاستبدلوه بآخر من الحديد! وأنه ، خلال الدوام الرسمي ، يأكل عدة وجبات متنوعة .

عاتبته فتحية ، برقة ، حين انفردت به ، وسألته أن يرأف بنفسه وأن يترك أفكاره الاقتصادية جانباً ، فلم يجبها . أمسك بيدها وضغط عليها . كان ، في الواقع ، قد انتهى إلى نتيجة محزنة هي أنه ، مع كل ما يعمل ، لا يمكنه أن يكتفي براتبه التقاعدي ، ولابد له من أن يسحب من حسابه الذي أخذ يتناقص بشكل مذهل . أخبرها بأنه قرر أن يقصد خانقين خلال الأسبوع القادم للتفتيش عن عمل بمعاونة أقاربه هناك . شجعته ضاحكة ودعته ليرتاح ويحلق قبل أن يذهب ؛ ثم إنها ، لغير سبب واضح ، قامت وقبّلته في جبهته وطلبت منه أن يأتي للعشاء معهم ؛ وخرجت تنظر إليه نظرات مغرية حركت ، رغم الضعف والخواء ، شيئاً ما في أحشائه .

استلقى على فراشه ساعة وبعض الساعة ، وكان يسمع ضجة فتحية وأمها في المطبخ جواره ؛ وقام والليل قد هبط ، فحلق ذقنه واستحم ، فاستعاد حيويته .

شاركهم عشاءً سعيداً وأكل بشهية صحناً كبيراً من تشريب الدجاج جهدت فتحية لإتقان طبخه . كان ، أمامهم ، رجلاً جذاباً ، يتكلم بطلاقة ويضحك بحبور كأنه لم يكد يسقط قبل ساعات صريع سوء التغذية المتواصل . كانت فتحية تعامله بلطف وإعجاب ، وتتراكض بمرح بين المطبخ وغرفتها ، في بنطلون أسود ضيق وبلوزة حمراء . قصّ عليهم حكايات كثيرة عن زيارته للندن وعن الحياة والناس هناك وتصرفات بعض العراقيين المضحكة . كانوا يستمعون إليه بانذهال وخاصة فتحية ، حين أخذ يصف لهم المباني والشوارع ومظاهر الغنى الفاحش وأسعار السيارات

والملابس وقضايا اللهو والفساد وأخلاق المجتمع واستقلالية الفتيات وتصرفاتهن والمخدرات والاستعمار الانكليزي . بدا له ، خلال لحظات ، كأنه يهذي ويفرغ أحشاء دماغه من سموم استقرت فيه دون وعي . كانت عينا فتحية الخضراوان تتلامعان أحياناً لبعض حكاياته ويفتر ثغرها عن ابتسامة تظهر رصعةً جميلة على جهة ما من فمها ؛ وكانت قد أطلقت خصلات شعرها الطويل ، فصار يرفرف حول وجهها حين تسير .

انتهوا من عشائهم وشايهم المخدّر على جمرات المنقلة ، حوالي العاشرة ، فانصرف إلى غرفته ، حادساً أنها قد تزوره الليلة ، فترك الباب مفتوحاً . أراد أن يشغل نفسه بقراءة الجزء الثالث من «أيام» طه حسين ، فلم يستطع ؛ غلبه الضجر وشعور بالضعف ، فقام يطفئ المصباح الكهربائي ويقف ، مترقباً ، أمام الشباك الضيق .

شمّ رائحتها وتهجس وجودها الطيفي وراءه . كانت تقف في محيط الباب بملابس النوم وتستند برأسها على الحافة ، وكان السطح خلفها تغرقه أنوار خفية . لعلها إشعاعات النجوم والسماء والقمر اللامرئي .

همست بكلام ما ، لم يسمعه جيداً ، وطلب منها أن تدخل ، فالبرد غدّار هذه الأوقات . لبثت في مكانها :

ـ لماذا تعمل بنفسك ما تعمل ، يا توفيق ؟

ـ سؤال غريب .

تقدمت ببطء إلى الداخل . كانت رائحتها مسكرة تماماً :

ـ قل لي الحق ، ما بك ؟

ـ أتسألين لأني دخت قليلاً بسبب هواء الربيع ؟

ـ لا تسخر ، كان ذلك هواء الجوع ، لا هواء الربيع!

ضحكت قبله ، وتحاضنا . عصر جسدها اللين إليه ، فانتشرت فيه لذة أرجفته ؛ تناول بفمه شفتها السفلى الرطبة فأخذ يمتصها بشغف شديد ؛ ازداد ارتجافه مع إحساسه بنهديها الناعمين على صدره وبطنها الحار يلتصق

على بطنه ؛ وكان متوتراً بصورة لم يتوقعها قط . ذهب عنه الانحلال والخور وتملكته شهوة عنيفة وهو يضم فتحية إلى صدره ويقبلها في فمها وخديها ورقبتها وشعرها . كانت مستكينة بين ذراعيه كالطير الصغير ، تبادله القبل وتتأوه بين الحين والآخر . بدا له كأنها لا ترتدي شيئاً تحت ثوب نومها الخفيف هذا ، مما زاد في هياجه . مرَّ براحة يده على ظهرها وكتفيها ثم أنزلها إلى خصرها الناحل وما حوله . كانت نعومة جسدها تطفو من خلال القماش ، ومنحنياتها المذهلة تتلاين تحت لمساته ؛ وكان انتصابه يضغط عليها فتحيطه بفخذيها الدافئين . ثم ، بعد هنيهات ، تراميا ببطء وحذر على سريره ، وهما مازالا ملتصقين . رفع ثوبها وأرسل يده تجول على الملمس المخملي الحار لساقيها وفخذيها وردفيها وجنبها ؛ ومال رويداً عليها فاندست ونامت تحته دون كلام ، وأحس بها تفتح ساقيها له . كانت تتنهد وتتأوه وتهمس بكلمات متقطعة لا معنى لها ، وكان في حمى الرغبة ، يلتصق بها شاعراً بنفسه يندفع ويضغط على موضعها الملتهب المغطى بالقماش الخفيف . عرّى وسطه وعاد يرتمي عليها ، فتلامست بشرته وبشرتها . تأوهت طويلاً وصكّت فخذيها حوله . أراد أن يباعد ساقيها وينزل لباسها ، فأمسكت بيده ومنعته وهي تهمهم بكلمات متقطعة . كان في قمة تأججه ، يتحرك لاشعورياً وببطء عليها ، حاشراً نفسه بين الحدين المغطين وداخلاً نصف دخول بينهما . كانت لحظات عجيبة من السحر ، لم يعشها قبلاً . طوّقها بذراعيه واشتد في تقبيلها وفي تحركه لتملكها ؛ وهي ، تحته ، ترتجف وتهذي وتتأوه لذة وتحرك رأسها من جهة لأخرى . كان وضعه ملتبساً غير مريح ، إلا أنه لم يستطع أن يوقف تصاعد لذته ، فشعر بعد فترة ، بذروته تقبل من أعماق سحيقة في جسده وترتفع ، ترتفع ، حتى تصل نقطة الانفجار الذي لم يعهده من قبل ، وتنبثق الروح مع مائه الذي يفيض منه ويفيض ويفيض بغزارة .

في خانقين ، رحبوا به على مستويات مختلفة . فرحت به نجية فرحاً

نابعاً من القلب وأبقته للغداء معهم في ذلك اليوم الجميل من أواخر آذار . قبّل الصغيرة عنبر وأخذها بين أحضانه شاعراً بحنان لا يقاوم نحو تلك الطفلة الجميلة . سألها متى يتوقعون ولادة خالتها كميلة ، فابتسمت بحرج وأجابت بأن الموعد هو في مايس القادم .

كانت دار المحامي ممتاز اللامي متواضعة ، تقع على مشارف خانقين ، وتحتوي على غرفتين في الطابق الأرضي مع المرافق الأخرى وعلى غرفتين أخريين في الطابق الأول ، وهي مبنية دون تبذير أو تزويق . حدثته نجية بأن أفراد عائلتهم كثيرون جداً ولا يمكن معرفتهم كلهم ، فقد انتشروا في أنحاء خانقين وانتقل قسم منهم إلى كركوك وبغداد وبعقوبة ؛ وحين أقبل زوجها ممتاز ، منهكاً من عمله في المحكمة ، سرّ كثيراً برؤيته واتصل حالاً بكاسب برهان الدين للاتفاق معه على اللقاء في مكتب ممتاز عصر ذلك اليوم . استراح توفيق بعد الغداء ؛ كانت عواطفه في مد وجزر ، وكذا شعوره بكرامته واحترامه لشخصه ، وكان حذراً . لم يرد أن يطلب منهم شيئاً ، ولكنه كان في موقف الطالب ؛ وكان مصمماً أن يرفض أية بادرة لمنحه مالاً لا يعمل مقابله .

اجتمعوا ، ثلاثتهم ، في مكتب ممتاز وسط خانقين ، وكان الحديث جاداً عن السبل الكفيلة بإيجاد عمل محترم له . بعد وقت قصير ، ابتعد المحامي ممتاز بنفسه عن الحوار حين علم أن توفيق ممنوع من مزاولة المحاماة ، وأخذ يتراجع بهدوء ، تاركاً لكاسب أن يقترح ما يرى وأن يأخذ على عاتقه حل المشكل ؛ ولم يفت ذلك على توفيق ، وتمنى أن يفشل هذا الشاب المتحمس لمساعدته ، لكي يأخذ طريق العودة إلى بغداد قبل غروب الشمس .

بعد ساعة من النقاش المتراخي ، تفتق ذهن كاسب عن فكرة لا يدري لمَ لم تخطر له قبل ذلك ؛ فهو بحاجة لمن يشرف ، في غيابه ، على إدارة المعمل وعلى الحسابات ، فلما سأله توفيق عما تعنيه هذه المهمة ، أجابه

كاسب بأنه لا يعلم مثله ، ولكنه طالما أراد شخصاً موثوقاً به يحل محله حين يغيب عن المعمل ويكون إلى جواره لمساعدته في الحسابات وغيرها . أراح توفيق ما رأى من إخلاص كاسب في كلامه ، فالرجل لا يجامل ولا يداري ولا يحسب الحسابات الخفية مثلما يفعل ابن العم المحامي ممتاز ، فأبدى لذلك استعداده وموافقته المبدئية على هذه الفكرة وترك بحث التفاصيل إلى وقت آخر قريب .

دعاهم كاسب للعشاء في بيته ، فرجاهما ممتاز أن يسبقاه إلى الدار وسيأتي بعدهما مع نجية وعنبر .

لم تأت أنوار للسلام عليه إلا بعد وصول ممتاز ونجية وعنبر ، وكان الرجال الثلاثة في غرفة الاستقبال ذات الأثاث الفخم ، يشربون من كؤوس الويسكي ويتحدثون بحيوية . وجدها قد امتلأ جسمها ووجهها الجميل امتلاءً واضحاً ، وبدت له أكثر إشراقاً وأنوثة من قبل . صافحته بحرارة وسألته عن صحته وأحواله ؛ وكانت تنظر ، مباشرة ، في عينيه مبتسمة ابتسامة مجاملة . اضطرب قليلاً وردّ عليها بأدب وهنأها بولادة ابنها وبسلامتها . كانت ترتدي فستاناً أحمر غامقاً ، يشدّ جسدها ويبرز حناياها .

سهروا تلك الليلة لدى كاسب حتى الساعة الحادية عشرة ، يشربون ويأكلون ويتفرجون على فيلم في التلفزيون . أحس توفيق أن أنوار لا تريد أن يراها أحد من الحاضرين تتطلع إليه ، وأنها لم تكن قادرة تماماً على منع نفسها من ذلك . كانت تحمل توفيق الصغير بين ذراعيها وترفعه لتقبله وهي تختلس نظرة طويلة إليه . ثم حدث مرة حين قدّمت له صحن الحلوى ، أن انحنت فبرز نهداها الكبيران الأبيضان ، فسألها مداعباً عما إذا كانت قد أرضعت توفيق جيداً وأشبعته ، فتراجعت ورفعت يدها بعفوية تغطي صدرها ، ثم أجابته ببعض الاضطراب ، فتحرك حاجبها حركته المثيرة تلك ، فتمنى آنذاك أن يحتضن هذه المرأة العزيزة ويقبلها ببراءة ، إن أمكن .

قضى ليلته في دار ابنة أخيه ، على فراش فُرش على عجل في غرفة

الاستقبال ، واعتذروا له بأن الرقاد في الطابق الأول غير ملائم له ، لأن عنبر غالباً ما تستيقظ من نومها وقد تزعجه . لم ينم جيداً رغم تعبه ، وبقي مستلقياً على الفراش النظيف ، غير شاعر بأية راحة . لم تسنح له الفرصة للاغتسال كما يجب ، وكان ، في ثوبه ولباسه ، يحس بغرابة مزعجة نغصت عليه رقاده .

ذهب لمقابلة كاسب في معمله لصنع الأثاث في الصباح الباكر ، برفقة المحامي ممتاز . كان معملاً كبيراً مزوداً بأحدث الآلات لقطع الخشب وتسويته ولصقه وتزويقه . رحب به كاسب في المكتب الفخم المطل على الشارع ، وأشار إلى منضدة وكرسي موضوعين على جانب ، هاتفاً بأن مكانه قد هُيئ منذ أن وافق على الاشتغال معه . سرَّ توفيق بذلك وتمنى أن تكون التتمة مسرة أيضاً ، وفاتح كاسب بأن يبدأ العمل يوم السبت القادم بعد يومين ، فإن أشغالاً شخصية تقتضي منه العودة إلى بغداد لترتيبها . لم يبدِ كاسب اعتراضاً ودعاه لبحث بعض التفاصيل التي تخص العمل . كان كاسب شاباً في حوالي الثلاثين ، طويلاً خشن الملامح ، في عينيه المنطفئتين بعض الجحوظ وفي أنفه الكبير اعوجاج بسيط ؛ إلا أن هذا المظهر العادي ، كان يخفي داخله قلباً من ذهب ، لا يمكن اكتشافه إلا بمرور الأيام وبالتجربة المباشرة .

ـ سيدي الأستاذ توفيق ، لقد شرفتني بالموافقة على العمل معي ، وأنا أعد نفسي سعيداً ومحظوظاً ، لأني ، ساعة وجودك هنا ، سأكون مرتاح الضمير بأن كل شيء في المعمل يجري على مايرام . سأوضح لك بإيجاز ، حين تريد ، الخطوط العامة لترتيب أعمالنا وطريقة معالجتي لحل المشاكل ؛ فأنا هنا ، مثلك ، بين أهلي وعائلتي وأكثر عمالي وزبائني هم من أفراد عائلة عبد المولى . تصور ، حتى الأستاذ عبد الباري يعرف هذا الوضع .

استغرب توفيق ذكر اسم أخيه وتساءل عن علاقته بالوضع كما يقول .

ضحك كاسب :

ـ لا أخفي عنك بأن نصف أشغالنا تقريباً هي لتلبية طلبات معمل عبد الباري في بغداد ، فهو منذ مدة طويلة لم يعد يصنّع الأثاث ، بل يبيعه فقط ، وقد ألقى مسؤولية التصنيع علينا . إنه يتلقى التوصيات من زبائنه البغداديين وينقلها إلينا فنصنع الأثاث ونرسله له ونقبض الثمن ؛ ويبدو أن الفرق بين الأسعار هو حصة الأستاذ عبد الباري .

بقي توفيق يفكر في حال أخيه ، خلال جلوسه في السيارة الذاهبة إلى بغداد . هنالك بشر يأتيهم الرزق ساعياً على قدميه ، هذا هو الوصف المضبوط ؛ وهو ، مازال شقياً ، بعد ساعتين من تركه خانقين ، لأنه لم يحسم مع نفسه قضية قبوله الخمسين ديناراً التي سلمها له كاسب كمقدمة من راتبه ، وهل كان من الصواب أن يفعل ذلك أم لا . لم تكن مسألة عقلية صرفاً ، بل تدخلت فيها مشاعر غير عادية ؛ إذ خيل إليه كأن قلبه يوحي له بأن أنوار هي التي كانت تدفع له!

ومكث ملولاً معتصراً ، وهو يصل بغداد ويقصد حي العامل ويرى فتحية ويقبلها قبلة خاطفة ، قبل أن يحكي لها حكاية سفرته ومقابلاته ووظيفته الجديدة .

اعتقد توفيق أن أقاربه من آل عبد المولى يحاولون مساعدته مادياً دون أن يمسوا كرامته ، فابتكروا له وظيفة مساعد لكاسب برهان الدين براتب جيد ؛ إلا أنه ، بعد عشرة أيام فقط من مباشرته عمله ، غيّر رأيه تماماً ؛ فصاحب المعمل هذا كثير الغياب ، والنداءات التلفونية لا تتوقف أثناء وجوده وغيابه ، وهي كلها نداءات أعمال وطلبات يتوجب اتخاذ إجراء سريع بشأنها ، وإلا دخلت الفوضى إلى نظام المعمل . بعد أسبوع واحد أمكنه أن يفهم بالتقريب ، فحوى الطريقة التي يدير بها كاسب مشروعه المربح هذا ؛ وبقدر ما سرّه أن يشعر بأنه ذو فائدة للمعمل وأن راتبه يُمنح له مقابل عرق جبينه ، لفت انتباهه كثرة غياب كاسب عن خانقين ؛ كأنه كان يفسح له ، عن قصد ، مجال العمل والتعود عليه .

صباح السبت ، حين عاد من بغداد ليباشر العمل ، كانت تشغله مشكلتا إيجاد سكن له وتدبير طعام مناسب بسعر معقول ؛ ففاتح كاسب بهما فضحك هذا ضحكة عريضة :

ـ هنالك عدة حلول لا حل واحد يا سيدي الأستاذ . أولها أن تسكن معنا في البيت وثانيها أن تستأجر غرفة في فندق الشرق وسط خانقين وثالثها أن تحتل الغرفة المجاورة للمكتب وهي مهيأة لسكنى شخص واحد ، ففيها فراش كنت أرتاح عليه أحياناً بعد الظهر ، وفيها مغسلة ومرحاض ، وإذا نالت رضاك عملنا لك على جهة منها حماماً صغيراً . أما الطعام ، فعيب عليك أن تسأل عنه ؛ أنت من العائلة وستأكل معي ، فأم توفيق أنوار ، ترسل لنا يومياً الغداء من طبخها ، فإذا غبتُ أنا كان عليك أن تأكل طعام شخصين!

وغرق في قهقهة عالية ، فتبعه توفيق يرسل الضحكات من صميم قلبه . كانت الغرفة المجاورة للمكتب صغيرة ولكنها كافية ، ففيها مجال له ولأشيائه القليلة التي أحضرها ؛ وكانت مضيئة يطل شباكها الوحيد العريض على الجهة الأخرى من الشارع ، حيث ينفتح الفضاء على مساحة واسعة خضراء من المراعي . رتبوا له «دوشاً» صغيراً تحيطه ستائر بلاستيكية ، ثم أضاف كاسب من عنده ، ثلاجة وطباخاً كهربائياً ذا عينين مع بعض الصحون والأقداح ؛ ولقي توفيق نفسه خلال أسبوع واحد ، يسكن حجرته الخاصة النظيفة ، دون أن يدفع فلساً واحداً عن تكاليف بنائها أو تجهيزها . نام ليلته الأولى فيها بعمق على السرير المريح ، وسرّه أن مصباح الطريق الكهربائي يرمي على النافذة ضوءاً خافتاً مثلما كانت الحال في غرفة نومه الزوجية ، في ذلك المشتمل في بغداد ، في الزمن القديم الذي لا يحس أبداً أنه وُجد وامتد وانقضى . ثم انبثقت صورة أنوار في ذهنه مثل الشمس ؛ كم بدت شهية بجسدها الممتلئ! وهي في حركاتها وإيماءاتها ، تحاول أن تخفي ، فتكشف ، أنها مهتمة به أكثر من كل البشر ؛ لكنها محرمة عليه ، ولا يجب أن تقوده الخيالات إلى عتبة الحماقات .

لم يفارقه كاسب خلال الأسبوع الأول ؛ أطلعه على كل ما في المعمل وعرّفه بالعمال وعرفهم عليه باعتباره مدير المعمل ، يحل محله على الدوام . وبيّن له بعد ذلك طريقة العمل وكيفية تلقي الطلبات وتسجيلها وإعطاء الأوامر بشأنها للمسؤول عن العمال . أسعده ، مرة ، خلال ذلك الأسبوع ، أن يسمع صوت عبد الباري على الهاتف يطلب مكالمة كاسب . حيّاه مداعباً فدهش الأخ من وجوده في خانقين ، فجاء كاسب وأخبر عبد الباري ضاحكاً بأن توفيق هو المدير الجديد للمعمل وأنه هو الذي سيسجل طلباته منذ الآن فصاعداً .

جلب لهما أحد العمال الغداء بُعيد الساعة الواحدة فجلسا يأكلان بهدوء . كان الجو جميلاً ، شمساً دافئة وهواءً بارداً ونفحات ربيعية من هنا وهناك . لذّ له الأكل بدرجة كبيرة فأطراه وأطراه . إنه نَفَسها الطيب ، تلك المرأة الرائعة ؛ ولم يستطع إلا أن يستعيد ، لحظة ، صورة نهديها البضين النافرين ، ونظراتها المشبعة بالاندفاع الخفي نحوه ، وتلك الحركة الإلهية من حاجبها . لبث بعد الغداء مستلقياً ، مثل كاسب ، يتفكر ويتخيل ويهفو ويتحرج ويأسى .

نهاية شهر نيسان ، استلم راتبه فوجده أكثر مما توقع ومما اتفقا عليه هو وكاسب ، ووضح له هذا الأخير أن السبب هو أن أداءه كان أجود من العادي والمنتظر . أراد أن يقضي يومين في بغداد لإنهاء أشغال شخصية عاجلة ، وكاشف كاسب بذلك فاقترح هذا أن يوصله ، إذا أحب ، بسيارته فشكره توفيق وفضل السفر بوسائل النقل العامة . لم يرَ أنوار خلال شهر الربيع هذا ولا سمع صوتها ، ولكنه شعر بصحته تتحسن وهو يداوم على أكل طعامها اللذيذ .

كان العمل يأخذ منه كل ساعات النهار تقريباً ، فلا يكاد يخلو لنفسه إلا حوالي السادسة مساءً حين يغادر كاسب المعمل ؛ وكان هذا يدعو توفيق أغلب الأحيان ، للعشاء معه أو لقضاء السهرة في مشاهدة التلفزيون ،

فيعتذر بعذر القراءة والحاجة إلى الراحة ؛ ويلبث في الحجرة شاغلاً نفسه بشيء أو بآخر .

كانت قراءاته قد توقفت منذ حين ؛ ومع انعزاله المستديم والسكون العميق المحيط به ، صارت أفكاره تسرح مشرّقةً ومغرّبةً . صفّى حياته الماضية كلها وأعاد فحصها ، فوجد الأخطاء تتراكم فوق قِصر النظر والتقدير ، وسوء التفسير والتصرف ؛ وملكه الاستغراب ، في إحدى الليالي ، عن كيفية اقتناعه بالزواج من كميلة ، وكيف عمي عن رؤية كل المثالب والمس بالكرامة ومخاطر تحويله إلى كبش فداء سمين ، التي كانت هذه العلاقة تحملها في طياتها .

تذكر بحزن ، مرة ، حين احتدم بينهما النقاش وتحول إلى نزاع مستعر وانفلتت الألسن ، فاستهزأ بها وبعائلتها ووصف أباها بغني حرب جشع ، فالتهبت غضباً وبدأت تصرخ بجنون ، تسبّه وتهينه وتفتخر بأن آل قصابي هم من أشرف العوائل العراقية القديمة وخاصة فرعهم هم وعلى رأسه والدها عميد العائلة ؛ فلم يدرِ كيف واتته قهقهة شديدة انطلقت ، ليس من فمه حسب ، بل من وجدانه وكيانه كله :

ـ يا صاحبة الفضيلة والمجد ، أبوك المحترم جزار ابن جزار ابن جزار ، أباً عن جد ، يذبح الحيوانات ويتلوث بدمها وبرازها ويبيع لحمها ويعيش عيشة الجرذان في دكانه الصغير القذر في الهويدر ، حتى جاءت الحرب فأنقذته وصار ، بين ليلة وضحاها ، شريف روما وعميد أشرف وأقدم عائلة في العراق... سبحانك اللهم .

ولمَ كان كل هذا ؟ ألأنه شعر ، بعد سنوات ، بأن هذه المخبولة التي كانت تلهث وراءه كأنها ستملك الدنيا إذا تزوجته ، فلما استجاب لها زهدت فيه بعد زمن غير طويل ، وأخذت تريد أن تمسح به الأرض ؟ ربما .

وتذكر آديل أيضاً ؛ تلك حكاية ذهبية لا يمل من استرجاعها . يا للمخلوقة الملائكية التي لا نظير لها ، لا نظير لها بالتأكيد ؛ وتأتي ، فجأة ،

تلك الغبية لتمزق رسالتها دون تردد ، تمزق كلماتها الموجهة إليه ؛ ولم يكونا قد تزوجا بعد ، لم يكونا تزوجا! لعلها حدست بغريزة إناث الحيوان بأن هذه الوريقة قد تحرق صورتها لديه فلا يتزوجها! ولعلها ، أخيراً ، كانت على حق .

سافر مساء الأربعاء قبيل مغيب الشمس ، بعد أن وعد كاسب بالعودة صباح السبت مبكراً . وجدهم ، في الأسواق ، قد انتهوا من العشاء وانشغلوا بغسل الصحون ؛ فرحوا به وبالهدايا التي جلبها لهم من خانقين ، وأحاطوا به ، في غرفة فتحية ، يسألونه عن عمله ومرتبه وعما رأى وكيف عاش هناك . كان مشتاقاً لهم ، وأحب أن يقبّل فتحية خلسة ويختلي بها أول ما وصل ، إلا أنها ابتعدت عنه مبتسمة . وجد غرفته أكثر قذارة مما تركها ؛ والتراب يغطي الأرض والسرير والكتب . أزعجه ذلك ولام فتحية وأمها ، فاعتذرتا .

اختليا حوالي منتصف الليل . جاءته ، متعبة ناعسة ، لتعاود الاعتذار منه عن إهمال غرفته . أخبرته أنها مرهقة تماماً ، فهي دائبة الحركة في البيت والأسواق ، ولا تستطيع أن تهدأ دقائق خلال النهار كله .

ـ وكيف أنت يا أستاذ توفيق ؟ هل وجدت امرأة أخرى هناك ، تداريك وتطبخ لك ؟

ـ تعالي جنبي . أأنتِ منزعجة ؟

ـ كلا ؛ ولكنك تغيب شهراً كاملاً دون أن تقول ، على الأقل .

ـ أنا آسف . لك كل الحق . تعالي هنا .

ـ لا فائدة مني ، فأنا أموت تعباً ونعاساً .

ـ تعالي أشم رائحتك لأرتاح . هيا .

تحاضنا قرب شباك غرفته ، فطلبت منه أن يطفئ الضوء . دخلا عالم القبل الطويلة ، وكان في هياج شديد : يمسك بها وهو يرتجف ، ويضمها إلى صدره متلهفاً ، محترقاً شوقاً إليها . لكنها انسلت من بين ذراعيه بهدوء .

ـ دعني . أريد أن أرتاح ؛ لا قوة عندي لهذه الأشياء .

كانت متلاينة ، تكاد تفلت من بين ذراعيه ساقطة على الأرض . بقي يتحسس جسدها الحار تحت القماش الخفيف ؛ كم لذّ له ذلك! ثم تركها فارتكت عليه ، لا تنصرف ؛ فعاد يحتضنها ويقبلها ويتلمس برفق نهديها . إلا أنها تماسكت مرة أخرى وسحبت نفسها ببطء ثم رجته ، بصوت منكسر ، أن يرتاح وأن يتركها ترتاح .

صباح اليوم التالي قصد المصرف ووضع في رصيده ، لأول مرة منذ أشهر ، مائة وخمسين ديناراً ، ظن أنه لن يحتاجها في الأيام القادمة . أعطى فتحية أجرة الغرفة وزاد عليها عشرين ديناراً . ابتغى رضاها ، رغم علمه أنها بغير حاجة لنقوده ، فمدخولها الشهري لا يقل عن مائتي دينار . سرّت بهديته ونقوده ، لكنها شاغلت نفسها عنه خلال الليالي الثلاث التي قضاها في غرفته . كانت تبدي له الملل والانزعاج والكآبة ؛ ولم تجبه بما يرضي ، حين سألها عن سبب كل هذا ؛ إلا أنه شعر بأنها كانت صادقة دون أن يدري كيف ولا لماذا . نزل يتجول في شارع الرشيد صباح الجمعة . وذهب يجلس في مقهى حسن عجمي يستعيد أوقاته التي قضاها هناك . تمشى ، بعد ذلك ، إلى سوق السراي ، فأنعشته رائحة الورق والكتب . اشترى بعض الكتب الروائية ، العربية والمترجمة ، وحملها عائداً إلى المقهى . كان سعيداً ، في زاوية خالية من المقهى ، وهو يتصفح الكتب ويقلب أوراقها ويكتب اسمه على صفحتها الأولى . نسي ما عانى من جوع وحرمان ، قبل وقت وجيز ؛ واستشعر بنفسه راضياً عن حاله هذه ، لا تهدده الفاقة ، وتنتظره مواقف ولقاءات قد تبهج القلب . تلك هي ، ربما ، سعادة الإنسان اللامنظورة ؛ تلك هي الأوقات الهنية التي نحس بها وقد مضت ، أو نعيها وهي ذكرى ؛ ثم نتحسر إذ لا نجد شيئاً آخر في الحياة .

وضع رزمة الكتب قربه وطلب شاياً آخر . كان المقهى وشارع الرشيد والمخازن على جانبيه والجامع ومحلة الحيدر خانة وتلك الأزقة المشبوهة

السمعة ، هي تشكيلات ماضيه التي تبعث في صدره الآن شجى وحنيناً مؤسياً ؛ وكان يحس بكل شيء حوله ، ممتعاً يمت له بصلة .

زار دربونة الشوادي مقر عائلة عبد المولى ، خلال شهر مايس الذي يختلط فيه الربيع بالصيف ، وتجول فيما تبقى من الأحراش . وجد العائلة قد ازدادت عدداً بشكل غير اعتيادي ، إلا أن أفرادها بقوا مترابطين فيما بينهم ؛ ولعل لتجمعهم في مكان ضيق مثل هذه الدربونة الشهيرة أثراً في ذلك . إلا أن الحقد والغيرة والحسد والنميمة والنفاق وحتى الخيانات ، لم تكن غائبة عن هذا الحي الكبير ؛ غير أن مشاكلهم المستمرة مكثت محصورة في نطاق العائلة... ذلك تقليد أزلي لم يستطيعوا الإفلات منه . قدموه إلى أغلب الشخصيات التي تمت له بصلة قرابة غير بعيدة ، وكان مسروراً أن يجدهم متواضعين ومجدين وجاهلين بأمور الدنيا الخارجية .

لمح عدة وجوه نسائية جميلة ، سرعان ما تختفي بعد أن تظهر بقليل . كان مشتاقاً لأنثى رفيقة وحبيبة ، يغازلها ويلاطفها ويمنحها لذة الوصال ، وكانت صورة أنوار لا تغيب عن مخيلته ؛ فما أن دخل خانقين حتى سيطرت عليه كلياً رغبته في أن يراها ويشبع من رؤياها . تضاءلت صورة فتحية وغنجها وشبابها ، وتركزت أهواؤه وخيالاته على تلك المرأة المحرمة عليه .

أواخر مايس ، نزل كاسب إلى بغداد صباحاً ؛ ولم يعد ، كما هي عادته ، مساءً . لم يلتفت توفيق لذلك ، فقد ألزم نفسه بعدم الاهتمام جدياً بما يجري من أمور ، غامضة أحياناً ، حوله . إلا أنها كانت في غاية القلق . خابرته حوالي منتصف الليل . أفزعه رنين جرس الهاتف وأيقظه من نومه . ميز صوتها حالاً ؛ كانت مترددة خجلى ، لا تستطيع الكلام بشكل مستقيم :

ـ اعذرني... المعذرة ، سيد توفيق . كاسب عندكم ؟

ـ ما بك يا أنوار ؟ أليس هو في البيت ؟

ـ لا .

ـ ألم يرجع من بغداد ؟

ـ لا .

ـ أأنتِ قلقة بشأنه ؟

بقيت صامتة .

ـ أتخافين شيئاً ؟ أهناك شيء تخافين منه ؟

ـ حادثة تحصل له .

ـ لا تفكري هكذا ؛ إنه بخير ، ولعل أشغالاً منعته من العودة قبل نزول الظلام ، فقرر المبيت في بغداد . هل نخابر المحامي ممتاز ؟

ـ لا . لا . لا . أرجوك ، لا .

وصمتت هنيهات :

ـ سيد توفيق ، أنا أخابرك لأني واثقة منك ؛ لا تطلع أحداً على هذا .

ـ أنا سعيد يا أنوار بهذه الثقة وسعيد لأني أحمل اسم ابنك الجميل .

سمع لهاثاً كأنه ضحكة مكتومة .

ـ أنت إنسانة عزيزة عليَّ وأنا أحترمك كثيراً ، فقولي لي أي شيء تريدين مني أن أعمله كي ترتاحي .

ـ لا أريد شيئاً ، ولكن... لا تحكِ لأحد ، أرجوك ، أنا قلقة فقط .

ـ إذن ارتاحي فلا شيء سيئاً يحصل لكاسب ؛ إنه إنسان طيب وشجاع .

ـ أنت أيضاً يا سيد توفيق ، إنسان طيب ولطيف وأنا... أنا...

ثم قطعتْ الاتصال .

لم يقلق لغياب كاسب ، وانتشى بسماع صوتها ؛ أية موسيقى مثيرة! ولكن ذلك المجنون ، كيف يمكنه أن يتركها وحيدة مع طفلها الصغير ؟ أم أن حادثاً وقع له فمنعه من العودة ؟

كل شيء ممكن ، فهذا الشاب الغني ، المتأجج العواطف ، لا يتراجع أمام الغزوات النسائية ولا كؤوس الويسكي ؛ وبمقدوره أن يرتكب ، تحت هذه العناوين ، أنواع الحماقات والأعمال الطائشة .

لم يواته النوم ، بعد أن أطفأ الضوء واستلقى على السرير ، ولا راحة البال ؛ وشعر بنفسه مذنباً فوق ذلك ؛ فبدلاً من التفكير في معضلة هذه الزوجة المخلصة ، أخذ يسترجع صورها وحركاتها وبعض ما رأى من جسمها المكتنز ، ويدخل في أوضاع معها غير محتشمة . ومع التعب والإثارة وأحلام اليقظة ، شعر أنه استهلك قواه كلها ، فانطرح قبيل الفجر بقليل نائماً كالأموات .

استيقظ في وقته المعتاد صباحاً ، وانشغل ذهنه ، أثناء الحلاقة وارتداء الملابس والفطور ، بأنوار وعما إذا كان صواباً أن يتصل بها لمعرفة أخبار كاسب أم لا ؛ ثم صمم أن يجازف فلا شيء خطيراً يمكن أن يحصل . أخبرته بصوت خافت جداً ومتقطع بأن كاسب موقوف لاشتراكه في معركة مع أشخاص في ملهى في بغداد ، وأن بعض الأصدقاء كلفوا المحامي ممتاز كي يحضر لمراجعة قاضي التحقيق بشأن إطلاق سراحه ، وأن هذا الأخير اتصل بها لتطمينها وإعلامها بأنه سينزل إلى بغداد بعد قليل وأن كل شيء سينتهي إلى خير . كانت نغمات صوتها تداعب قلبه ووتر رجولته الحساس ، وكان يريد أن يطيل من وقت حديثهما ، لكنها بدت متعبة لا تطيق الكلام ، فطمأنها هو الآخر وأكد لها أن ممتاز محام قدير وسيدبر أمر إطلاق سراح كاسب بسهولة . لبثت صامتة ، وهجس في نفسه بأنها تبكي في الطرف الآخر من الخط فسألها عما بها وهل هي بخير ؟

ـ سنرى يا سيد توفيق ، سنرى ؛ ولنقل إنشاء الله .

لم يستطع المحامي ممتاز إطلاق سراح كاسب برهان الدين ، وبرر قاضي التحقيق رفض طلبه بأن أحد ضحايا المعركة مازال راقداً في المستشفى تحت العلاج . عاد بعد الظهر متظاهراً بالإرهاق ، يخفي بشكل ظاهر ، انزعاجه لرفض طلبه ويعد بمراجعة القاضي في صباح اليوم التالي .

اجتمعوا في بيته ، توفيق وأنوار وبعض أقاربهم ؛ كانت أنوار شاحبة ، تحيط بعينيها الطويلتين اللوزيتين هالتان غامقتان ، وتبدو ، في بضاضة

وجهها الرقراق وملامحها الدقيقة الجميلة ، كتمثال من المرمر الأبيض . لم تتكلم ، ولم تتساءل ولم ترفع نظرها عن الأرض ؛ وشكرت لنجية دعوتها أن تأتي للمبيت عندهم وأخبرتها بأن والدة كاسب ستقضي الليل معها . أدهش توفيق أن يراها ، بعد ذلك ، ترجو من المحامي ممتاز أن يبذل جهده لإطلاق سراح صديقه وقريبه ورفيقه كاسب ، دون أن ترفع بصرها إلى وجهه ، وأرجع ذلك إلى خجلها وقلقها واضطرابها . كان ممتاز يجلس ، كالديك المنزعج ، غير مبالٍ بأحد سوى أن يظهر للجميع علو مكانته ومقامه وهو يدخل المحكمة ويقابل القاضي ويقدم طلبه ويناقش المحكمة في أسباب الرفض ويطلب مواجهة موكله كاسب... الخ .

كانت أنوار في ثياب قاتمة كلها ، مما زاد في التماع بشرتها ووجهها ؛ وكانت تضم ابنها الصغير وهي تجلسه في حضنها ؛ ولم يدر توفيق من أين جاءته أفكار عن وجود أمور غامضة في المسألة كلها . عادوا بعد أن تعشوا عشاء خفيفاً ، وأوصلهم المحامي ممتاز بسيارته واحداً واحداً .

لم يطلق سراح كاسب في اليوم الثاني ؛ وتملك توفيق قلق أسود خفي بعد أن بقي ينتظر المحامي ممتاز حتى رجوعه ، خائباً ، من بغداد حوالي السادسة مساء . كان العذر هو نفسه عذر الأمس . لازال الجريح تحت العلاج في المستشفى . أخبروا أنوار بالأمر تلفونياً ، فلم تلح في السؤال ، واستفسرت عما إذا كان المحامي سيراجع المحكمة غداً ، فأكد لها ذلك .

في غرفته ، تلك الليلة ، خطر لتوفيق أن يبحث عن وسيلة يخدم بها كاسب ويساعده في محنته هذه ، فلم يعلم أي طريق يسلك لتحقيق غرضه ، وفكر أن يتصل بأنوار ليسألها عن ذلك ؛ آنذاك ، وكانت الساعة قد شارفت على الثامنة ، رنّ جرس الهاتف فأسرع إليه . كان هو كاسب على الخط ، يتكلم بسرعة :

ـ توفيق ، الله يساعدك . أنا كاسب ، اسمع . تعال الآن إلى بغداد ، إلى مركز شرطة البتاويين واسأل عن المعاون محمود ، قل له إنك توفيق

وسيعرفك ويخبرك بما تعمل . لا تتأخر . هات معك مائتي دينار ، خذها من أنوار ، وقل لها إني بخير . تعال بسرعة ، فلا وقت عندي .

ثم أغلق الخط .

لم يتردد توفيق ، رغم حيرته ، واتصل بأنوار حالاً ، جاءته وجاءت معها النغمات المثيرة . حدثها بما جرى وبما طلبه كاسب ، فلبثت ساكتة بضع لحظات :

ـ لولا أنك توفيق الذي أعرفه و... وأثق فيه لما صدقتك . تعال فلدي النقود التي تحتاجها .

كانت المسافة بين المعمل والبيت متعبة لمن يقطعها ، في الليل ، سيراً على الأقدام ؛ وجد المصابيح مضاءة في الدار ، وباب الحديقة الحديدي مغلقاً . لاحظ سيارة ، غير غريبة عنه ، تسرع في الابتعاد عن البيت حين وقف يطرق الباب الكبير . لمح شبحاً في النافذة ، يتوقف قليلاً ثم تفتح باب الدار الداخلية وتخرج أنوار سائرة بعجلة نحو باب الحديقة نحوه . كانت ماتزال بثيابها الغامقة وشعرها يتهدل بغزارة على كتفيها . سلمت عليه بهمس . سألها :

ـ هل حضّرتِ النقود ؟

ـ نعم .

ـ يجب أن أسرع .

ـ أدخل لحظة .

وعملت يداها بقفل الباب ثم سحبته . كان الضوء خافتاً حولهما ووجهها البض يتباين له محاطاً بخصلات الشعر الأسود . وقفا حذاء جدار قرب الشباك ، لا يصله نور الشارع وتنيره السماء ونجومها . انتبه إلى مغلف سميك تحشره تحت إبطها . سمعها تعاود الهمس :

ـ أنا أعرف يا سيد توفيق لماذا خابرك كاسب ، أنت من دون البقية ؛ أنت موضع ثقته... وثقتي ؛ وأنا مطمئنة تماماً بأنك لن تخونه وسترعاه كما ترعى أخاك .

كان وجهها أمامه ، على مبعدة نصف متر أو أقل ، وملامحها وعيناها خاصة ، مغشاة بهالة سحرية ؛ وكان صوتها ورائحتها تثيرانه رغم أنفه .

ـ لا داعي لكل هذا الكلام يا أنوار ؛ وكاسب عزيز عليَّ وقد ساعدني كما لم يساعدني أخي ؛ لقد تركني الجميع عداه ، وأنا أعرف ذلك . هاتي النقود فالوقت ضيق .

ناولته المغلف فوضعه في جيب سترته :

ـ اطمئني ، سأبذل جهدي لمساعدته ، ليس لأجله فقط ، فأنتِ تعلمين يا أنوار كم... كم أنتِ عزيزة عليَّ ، أليس كذلك ؟ قولي ، أتعلمين ؟

أحس بيديها الحارتين تمسكان بيديه وتضغطان عليهما بشدة . رأى ، بإبهام ، وجهها متفتحاً بما يشبه ابتسامة سعيدة ، وخيل إليه ، بإبهام أكثر ، أن حاجبها يتحرك حركته السحرية وأن عينيها تشعان فرحاً غريباً . سحبها برفق إليه وأحاطها بذراعيه ثم تناول شفتيها المكتنزتين بين شفتيه فقبلهما بشغف وتعطش . أغمض عينيه وارتجف لذة وهو يحس بجسدها الدافئ اللين يلتصق بجسده وبصدرها العالي وبطنها تضغطان عليه . خشي ، وهو في أقصى حالات التوتر ، أن يزعج أنوار المستكينة إليه ، بما تشعر من هياجه الجنسي ؛ وكانا ، في الفردوس المحرم عليهما ، يدركان بحسرة مدى السعادة التي يخسرانها . ثم فكّت نفسها عنه ودفعته بدلال في صدره :

ـ لا أريد هذا ، ألم أقل لك ؟

وكانت كلماتها المهموسة هذه ، أجمل اعتراف مبطن بالرغبة المتبادلة .

وصل مركز شرطة البتاويين بعد منتصف الليل بقليل ، فأُدخل على المعاون محمود في الحال ؛ وكان لقاءً سعيداً حين تبيّن الاثنان أنهما أبناء محلة الحيدر خانة وأن عائلتيهما كانتا تتزاوران باستمرار . نودي على كاسب فجاء ، متعباً غير حليق الوجه ، وارتمى على توفيق يعانقه مختنقاً بالعبرات ويشكر له حضوره ومساعدته . حُرر طلبُ إطلاق السراح بكفالة

وتبرع المعاون محمود بتقديمه بنفسه إلى قاضي التحقيق وشرح الحال له :

- يبدو أن محاميك يا سيد كاسب لا يحب لك أن تخرج من التوقيف ، فقد أخبرته أن الجريح غادر المستشفى ليلة أمس ، فلم يعرني أذناً صاغية .

سلّم توفيق المغلف إلى كاسب بعد أن سحبه إلى جهة من الغرفة ، فأخذه هذا وأحصى النقود ثم وضع مائة دينار على جهة وأخفى الباقي ، وهو يبتسم برضا . كان في غاية الإرهاق ، شاحب الوجه ، ترتجف يداه ارتجافاً ظاهراً ؛ إلا أن نشاطه وخفته عادتا له حين رجع المعاون محمود بقرار إطلاق سراحه بكفالة بسيطة . اختلى كاسب بالمعاون فترة قصيرة نُظمت فيها الكفالة ووقع عليها توفيق ككفيل ضامن بالحضور ، ثم خرجا من المركز فاستقلا سيارة كاسب التي استجاب محركها لأول بادرة تشغيل وانطلقا سعيدين ، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية والنصف صباحاً .

لم يحك كاسب لتوفيق أي شيء عما حدث له ، ولم يشأ هذا أن يلح في السؤال ، واكتفى بتطمينه على أنوار وعلى ابنه الصغير . لكنه ، مع ذلك ، لم يستطع الصبر على ما قاله المعاون محمود ، فبقي يتساءل بصوت مرتفع ، مرة بعد أخرى ، عما إذا كان ذلك صحيحاً ، وماذا يقصد ممتاز من هذا التصرف الغريب ؛ وكان كاسب يسوق بسرعة كبيرة وهو يحدق أمامه بانتباه ، دون أن يظهر عليه أنه يسمع ما كان يقوله توفيق . وعندما قاربا الوصول إلى خانقين ، أدرك توفيق أن من المستحسن أن يضع أقوال المعاون محمود وما تعنيه ، مع بقية الأمور الغامضة التي لا يجد لها ، الآن ، تفسيراً .

وصلا المدينة والسماء الشرقية تتفتح بنور خفيف ، والشوارع ماتزال مليئة بالظلال ؛ فوجدا المصباح الكهربائي مشعلاً في دار كاسب ، وأنوار تنتظر وراء الشباك وفي حجرها ابنها الصغير النائم توفيق .

نزل توفيق إلى بغداد في اليوم الثالث من حزيران مساءً ، بعد أن استلم راتبه من كاسب وبعد أن أخبره أنه ذاهب ، كالعادة ، لقضاء أشغال شخصية ولن يتأخر في العودة هذه المرة . استقل السيارة متأخراً ، وكان الجو حاراً ،

فوصل بغداد ليلاً ووجد الجميع نائمين ؛ ولولا مفتاحه الخاص الذي يحمله معه ، لما درى أين يقضي ليلته . لم يستيقظ أحد ، ووجد غرفته قذرة مثل المرة السابقة . نظّف فراشه ثم اغتسل وأخلد إلى النوم . كان منزعجاً ، يفكر بنوعية هؤلاء البشر الذين يساكنهم هنا ، وكيف أن عليه أن يرجع إلى خانقين مساء الغد . لم يواته النوم ، وكان يحس بجوع لا يمكن السيطرة عليه . أيمكن أن نسمي حياةً ، ممارسات الإنسان لأفعال آلية لا طعم لها ولا غاية سامية ولا لذة ؟ ولمَ يبقى بين رحى الطاحونة اللعينة هذه ؟ وخطر له أن ينقل ما تبقى من أثاث له هنا إلى خانقين ، فالمكان أحسن والطعام أجود والأماني أكثر عطاء ؛ وهنالك قد يحيا حقاً ، قريباً من تلك المرأة العزيزة أنوار . لكنه ، لا يعلم كيف يرى نفسه متعلقاً بهذه النواحي وبهؤلاء البشر . خطر له أن يفتش عن شيء يؤكل في الثلاجة فقام ودخل المطبخ دون أن يشعل الضوء . وجدها أفرغ من فؤاد أم موسى ؛ فوقف أمامها يضحك حنقاً . ثم أُضيء المصباح الكهربائي وهتفت فتحية باسمه متعجبة بخوف .

ـ اتركوا خبزة يابسة ، على الأقل ، للص جائع لا يجد ما يسرقه .

ضحكت وتثاءبت ورفعت ذراعها تحك رأسها .

ـ من أتى بك في هذه الساعة من الليل ؟

كانت شبه عارية ، لا تضع تحت فستان نوم قصير وشفاف غير لباس أسود . أذهله منظر نهديها الناهضين المليئين واستدارة بطنها ومنحنيات اللحم في فخذيها ووسطها . أغلق الثلاجة واقترب منها .

ـ هل أعمل لك شيئاً تأكله ؟

ـ لا ، أريد أن آكلك .

رفعت ذراعها محتجة فاحتضنها ثم قبّلها في فمها . كانت حارة الشفتين . داعب نهدها وضغطه بين أنامله . كان سعيداً وهو يهصر الجسم الفتي ويحيطه بفخذيه . لم تبد ممتنعة ، وشعر بذراعيها تلتفان حوله . كانت بيجامته الصيفية خفيفة القماش ، مفتوحة من الوسط ، مما جعله على تماس

مثير بجسدها . أراد أن يرفع ثوبها فلم تقبل ؛ وأحس بتوتره يستقر على مكمن أنوثتها الدافئ . همس في أذنها ، يقترح أن يذهبا إلى غرفته فبقيت صامتة ، تقبله وتشده إليها . ثم ارتفع ، على حين غرة ، صوت والدتها تناديها وتسألها أن تجلب لها كأس ماء . رآها تبتسم في وجهه وترفع حاجبيها بمعنى... ماذا يمكنني أن أعمل ؟ وأخذت كأس الماء وسارت وطرفا ردفيها ، يظهران من حافتي اللباس ، يترجرجان بإيقاع يبعث على الجنون . أشار إليها أن تعود إليه ، فرفعت ذراعها بحركة مغناج لا معنى لها وهزّت وسطها هازئة . انتظرها مع ذلك ؛ ثم أراد أن يذهب إليها في غرفتها . كان مهتاجاً جنسياً بشكل حيواني لا يعرف المهادنة ، ولم يدرِ ما يصنع بنفسه ؛ فهذه العلاقة الأزلية بين الأنثى والذكر تسبب من الأوجاع أضعاف ما تمنح من المسرات .

توطدت علاقات كاسب وأنوار بتوفيق بعد حادثة التوقيف ، وصار أمراً مألوفاً أن يدعوه كاسب إلى منزله للغداء أو للعشاء ؛ وأن يجالس أنوار بمفردها فترة من الوقت حين ينصرف كاسب إلى بعض ما يشغله . لكن توفيق ، لم يرد أن يفيد من هذا التقارب بينهما لكي يغوي تلك المرأة الجميلة التي يفتتن بها ؛ وجد فيها براءة وشرفاً وحباً من نوع خاص . كأنها كانت امرأة من خارج عالمه ؛ لا تتقيد بتقاليده ولا يهمها غير أن تكون مخلصة لمن تحب ، معطاء بغير حدود . سألها مرة ، وهما متواجدان في الحديقة بمفردهما لشرب شاي العصر ، بعد أسبوع من عودته ؛ أتعلم كم يعزها ؟ كان كاسب قد دخل الدار يجيب على نداء تلفوني .

ـ تبقى تكرر هذا ؟

كانت في عز جمالها وتفتحها ، ترتدي فستاناً أخضر يضفي على وجهها عذوبة أنثوية .

ـ لم أنتبه . المعذرة .

ـ يجب أن تقول... إلى متى سأبقى عزيزة عليك ؟

ـ أنتِ على حق ؛ إلى الأبد ، كما أعتقد .

كانت تعبث بشفتيها الحمراوين كأنها تريد أن تبتسم ولا تريد ، ثم...

ـ أنا امرأة متزوجة يا توفيق ، وأنت تريد أن تنسى ذلك ؛ ولقد بيّنت لك مرتين أني... أني لا أكرهك ، ألم أفعل ؟ هل تتذكر جيداً ؟

ـ أنتِ تتكلمين كلاماً جميلاً مدهشاً ، كيف يسعك ذلك ؟

ـ قل سبحان الله ولا تسل عن الأسباب .

جاءهم خبر عسر ولادة كميلة قبل عيد ميلاده بأيام ؛ فقد اتصلت نجية بأنوار وأعلمتها بأن خالتها نُقلت إلى المستشفى بعد أن فات على موعد ولادتها أسبوعان أو أكثر . ارتأى كاسب أن يقصدوا المستشفى هو وأنوار ونجية والأطفال كي يكونوا حاضرين لتقديم المساعدة ، بينما فضّل المحامي ممتاز أن يلازم خانقين مهتماً بأشغاله . سافروا في صباح اليوم التالي بسيارة كاسب .

ملكت توفيق عواطف متضاربة وهو جالس في المكتب بعد أن ودّع الذاهبين إلى بغداد . لم يرد إلا الخير لزوجته السابقة ، لكنها لم تكن تدرك منحى أفكاره أو مشاعره العميقة ، بل ارتضت أن تُقاد بعماء نحو هدف غريزي قد لا يضمن ، آخر الأمر ، السعادة لأحد .

كان الحر مزعجاً ذلك اليوم... الثالث عشر من حزيران ، ولم يكن قد نام نوماً مريحاً في الليلة السابقة ؛ مكث يُقلى على نار الاشتهاء الهادئة لأنوار . ثم خطر له أن ذلك وضعٌ لا يطاق ، وأن عليه أن يحلّ مشكلة الجنس اللعينة هذه . وماذا يمكن أن يكون الحل ، في هذا البلد ، غير الزواج ؟ الزواج مرة أخرى! يا لها من فكرة متعبة حقاً!

قام بجولة تفقد فيها المعمل وتحادث مع العمال الذين بدأوا يأنسون إليه ؛ ثم راقب سير العمل وتأكد من بعض المواصفات في الأثاث الموصى عليه وعاد بعد ذلك إلى المكتب .

فكر أن يتصل تلفونياً بعبد الباري يسأله عن حال كميلة ؛ إلا أنه تردد

ووجد من المستحسن أن يتصل بأختها ثريا . ستكون بادرة مجاملة لا أكثر ولا أقل ؛ ولعلها تفهمها ؛ ولبث متردداً .

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف وخمس دقائق ، حينما خطر له أن من الضروري وقتئذ تشغيل المروحة فقام من مكانه فرآهم يتجهون إلى المكتب . كانوا أربعة رجال مسلحين ، تبدو على سيماهم الجهمة مظاهر الشراسة والعنف . خفق قلبه حالاً وتهجس شراً ، مجهول الأساس ، يتجه نحوه . سألوه عن اسمه الكامل واطلعوا على بطاقة هويته ثم طلبوا منه مرافقتهم إلى مقر المنظمة للسؤال منه عن بعض الأمور . لمّ شعث أعصابه ونادى على أحد العمال فأعلمه بما يجري وسلمه مفاتيح المكتب وطلب منه ، همساً ، أن يخبر كاسب إذا اتصل بالمعمل ؛ ثم غادر مع الرجال الأربعة المتجهمين . كان ذلك اليوم ، يوم الأوجاع حقاً . تكالبوا ، أربعتهم ، عليه ، في غرفة عارية الجدران ، فضربوه بشدة وحقد حتى تهالك فاقد الوعي ؛ حينذاك تركوه ، مدميّ موجوعاً حائر الروح ، يومين بلا عناية ولا طعام أو ماء . جاؤوه في اليوم الثالث أو الرابع ؛ وكان محموماً ، منتفخ الوجه ، مشوه الملامح ، لا يكاد يدرك تماماً ما يدور حوله . لم يستطع الوقوف على قدميه ، فسحبوه سحباً إلى غرفة أخرى يجلس فيها شخص وراء طاولة ويدخن بهدوء . لم يرَ وهو قابع على الأرض الرطبة ، إلا الدخان يتصاعد ، عرف من رائحته أنه دخان سيكائر «مالبورو» . خاطبه ذلك الشخص بخشونه فأخبره بأن من حسن حظه أن يكون لديه هنا في خانقين أقارب محترمون يعرفونه ، وإلا لجرى إعدامه فجر هذا اليوم . كان توفيق خائفاً وذلك الصوت يطرق سمعه ؛ وخلال ثوان ، مرمياً على التراب مثل خرقة بالية ، استنارت نفسه بسؤال... ممَ أخاف ؟ لمَ يجب أن أخاف ؟ لكن ذهنه المرهق لم ينجده بالجواب . وعاد الشخص يُعلن له بأن عليه أن يترك خانقين حالما يخرج من هنا وألا يفكر بالعودة إليها بتاتاً أو بالحديث ، على الأخص ، بما جرى له .

استلمه كاسب في اليوم التالي ؛ حمله ، أو كاد ، إلى سيارته وأسرع به إلى بيته . أجلسوه في فراش وأطعموه وجاؤوا بطبيب يعوده . ذهل الطبيب مما رأى ، فتوسلوا إليه أن يداويه ويسكت .

نام توفيق نوماً عميقاً ، طويلاً ، وحينما استيقظ ذات صباح وجد أمامه كاسب وأنوار ، فرجاهما أن يدبرا أمر عودته إلى بغداد . كانت أنوار هلعة ، تبرق عيناها بين الحين والآخر ، ولا تقول شيئاً سوى كلمات التطمين والتهدئة . رأى في نظرات كاسب غيظاً وغضباً مكتومين . أكدا له أن كل شيء قد رُتب وسيصحبه كاسب إلى بغداد بعد أن يرتاح . كانت في حركاتهما وملامح وجهيهما وكلماتهما المبتورة ، ما يوحي بأنهما يعرفان سراً مروعاً لا يستطيعان البوح به ، فهو سر من الأسرار المخزية اللعينة .

عندما صعد توفيق سلم أسواق الأفراح ، قاصداً غرفته برفقة كاسب ، كان قد استعاد أغلب قواه ؛ إلا أن الألوان الزرقاء والحمراء حول عينيه وفي جبهته ورقبته ، بقيت تشير إلى حادثة مخيفة لا يستحسن تذكرها . كانت أم فتحية في المطبخ والشمس تملأ الساحة الصغيرة ، فحياها توفيق فخرجت من المطبخ ولم تكد تتعرف عليه حتى أخذت تلطم وتخمش وجهها . هدأها وفتح غرفته فوجدها قذرة كالعادة ، فتناول حقيبة أشيائه من كاسب ودعاه للدخول . اعتذر هذا :

- عليّ أن أرجع إلى خانقين .

كان عابس الوجه محمر العينين :

- يوماً ما ، ستعرف يا ابن عمي .

ثم احتضن توفيق بقوة ؛ وقبل أن ينصرف دسّ في يده مبلغاً من المال ووعد ألا ينساه ؛ ثم طلب منه أن يتصل به وقتما يشاء ويعلمه باحتياجاته . شكره توفيق وعادا يقبل أحدهما الآخر بسكون ودون كلام . طلب من أم فتحية ، بعد انصراف كاسب ، أن تشتري له بعض ما يحتاجه وتتسوق وتطبخ له طعاماً ؛ ثم أخلد إلى غرفته ليرتاح . استلقى على السرير وأغلق الباب .

كانت رطوبة الغرفة تخفف من شدة الحر ، والضوء خافتاً يريح الأعصاب والعين . وضع ذراعه على جبهته هنيهات ، أحس بعدها بالدموع تسيل ببطء من مآقيه فتبلل خديه . لم يكن يبكي حسرة ولا جزعاً أو انخذالاً ؛ كان يبكي سعادة مجهضة ونمطاً من الحياة فقده . جاءته أنوار ، قبل سفره ، إلى الغرفة التي أعدوها له ؛ لا يدري كيف جرؤت على ذلك . فتحت الباب بعجلة وأسرعت لتجلس على حافة فراشه الملقى على الأرض . كانت في فستانها السماوي الذي يتذكره جيداً . بدت له مثل طيف ملون لا يُنال . كانت متزينة ، وفي عينيها الكحيلتين الملتمعتين نظرات حزن وانكسار . بقيت ، لحظات ، جالسة هكذا تتطلع إليه ؛ ثم اقتربت منه فوضعت راحتها على يده :

ـ هنالك خبر لم نطلعك عليه وأنت بهذه الحال .

سقطت من إحدى عينيها ، فجأة ، دمعة كبيرة أفسدت كحلها :

ـ كميلة ، توفيت قبل أربعة أيام ، أثناء ما كنتَ في الموقف ، هي وطفلها .

ـ كميلة ؟ كميلة ؟ لماذا ؟ يالله ، هي وطفلها ؟ يا إلهي! يا إلهي!

تراجعت أنوار في جلستها ، تبكي دون صوت ، واضعة يدها فوق عينيها . شعر ، وقتذاك ، بالصدمة كسكين تقطع أحشاءه ؛ ولايزال ، الآن ، يحس بأمر غريب يملك عليه قلبه وعواطفه فيعصرها . نسي آلام جسده فاعتدل في فراشه ؛ أنزلت أنوار يدها فتبدت له العينان المبتلتان الملطختان والأنف الدقيق المحمر والشفتان الطريتان الممتلئتان .

ـ وأنت يا توفيق ، أنت تتألم بسببي ، أنا أعلم ذلك ؛ وأنت عزيز عليّ ، عزيز والله ولكنني ، لم أتصور شيئاً مثل هذا .

احتضنها فوضعت رأسها على كتفه . كان مذهولاً ، مشوش الفكر ؛ يختلط عليه هذا الواقع الذي يعيشه ، بأحلامه الأخرى الحزينة . لمس ذراعها العارية الناعمة وشعر بجسدها يختض وهي تنشج باكية . والآن ، في غرفته متمدداً ، وقد استعاد زخم شهواته ، تبادر إلى ذهنه أنه قد ضيّع ، ربما ،

فرصة ذهبية لن تسنح مرة أخرى . مسح الدموع عن خديه ، منشغلاً بهذه الفكرة الجديدة : أكانت ستمنحه نفسها آنذاك ؟

حين جاءت فتحية بعد الظهر بقليل ، فرأته بوجهه المشوه ، بهتت لحظة ثم ، دون مقدمات ، غرقت في نوبة ضحك هستيري أوقعها أرضاً تتلوى . تقبل ردة فعلها هذه بطيبة قلب ، وشاركها ضحكها بعد تردد قصير . لكنها ، بعد غداء دسم أكلوه سوية ، جاءته لتمنحه عطفها ومواساتها وقبلها الحارة . لم يستجب إلا للحد الأدنى من المداعبات ؛ فاكتفى بتقبيلها واحتضانها دون مزيد . لم تثر جسده المرضوض قبلاتها ولا حركة لسانها في فمه ولا رؤية جسمها الفتي يتثنى أمامه . كان خامد الروح والذهن ، منطفئاً بشكل من الأشكال . أخبرها ، آنذاك ، بوفاة زوجته السابقة فملكها الروع وقامت بسرعة فجلست على الصندوق واضعة يدها على فمها ، تلاحقه بالأسئلة والاستفسارات .

تراخى توفيق في حياته لا إرادياً ، وتراجع في متطلبات عيشه ؛ لم يعد يخرج أغلب الأحيان ، فلا الحر يشجعه ولا الرغبة في تغيير الجو تدفعه لذلك . اشترى مروحة صغيرة وانزوى في غرفته يعالج فيها شجونه .

خطر له مرة ان يزور قبر كميلة ويقرأ عليه الفاتحة ؛ إلا أنه لم يعرف المقبرة التي دفنوها فيها ؛ أراد أن يخابر أخاه ويسأله عن المكان ، فتردد ثم نسي مشروعه .

صارت خانقين ، في بداية الخريف ، ذكرى وكابوساً ؛ يتذكرها ويحنّ ويأسى ، ثم يقتحم الكابوس عليه دنيا ذكرياته فيدمرها . لم يفهم أي شيء مما جرى له هناك ؛ ولم يتصل بأحد منهم ولا اتصل أحد به . كان عالمه الضيق في أسواق الأفراح ، مع فتحية وذويها وبعض الكتب ، يكفيه . حدس ، بعد القراءة الرابعة لسانين ، معنى ودلالة افعاله الجريئة ومراميها اللامألوفة . كلها كانت ذا أساس ؛ ولقد اعتمد المؤلف ، دون شك ، على ذكاء القارىء

ليستنتج بأن هذه الشخصية مرت بتجارب حياتية ومعاناة عميقة في ماضيها بحيث أمكنها الوصول الى هذا المستوى من القدرة على إصدار الأحكام .

قضى وقتاً ممتعاً ، مهزوز الفؤاد ، مع تلك الصفحات ؛ وشعر بعدها كأن رغبته القديمة في الحياة تعاوده ، هذه الرغبة التي خبت عنده وابتعدت مثلما ابتعدت عنه فتحية بعد أن أحست بمواته . لم يعودا ، منذ زمن ، يتبادلان كلمة او يرى أحدهما الآخر ؛ وترك لحيته دون حلاقة وأهمل هندامه وطعامه ؛ وصار يمكث في فراشه متقلباً ، لا يملك الحماس للقيام ولممارسة عيشه الفارغ . وتبعاً لهذا النظام المهلك نحل جسمه وذبلت ملامح وجهه وظهر الشيب جلياً في شعر رأسه وفوديه ؛ وقالت له فتحية يوماً وهي تراه لا يلتفت حتى الى فخذيها المنفتحين أمامه :

ـ يبدو عليك يا توفيق كأنك تريد أن تموت ، فهل تريد ذلك حقاً ؟

فكّر طويلاً بقولها ؛ ليس عن إرادة الموت ، بل عن سبب كل هذا ؛ فاذا كان الامر قد بدأ بذلك الاعتداء عليه ، الذي يسيطر على ذهنه ، فقد يكون منطقياً ان يكتنه دوافعه وهدفه ، لعل هذا يساعده على إزالة آثاره في نفسه ؛ وتذكر ، بغموض ، أقوال أنوار عن الاسباب والدواعي ، حين جاءته في ثوبها السماوي ذاك . أكانت تملك معلومات وطيدة حقاً ؟ أكانت تعرف السر ؟ وقرر أن يسافر الى الذكرى ، الى خانقين .

كان الجو قد طاب قليلاً في بداية تشرين الأول ، فشدَّ من عزمه صباح أحد الأيام وحلق لحيته وارتدى ثيابه وخرج حوالي الساعة التاسعة والنصف . جلس في مقهى حمزة يشرب الشاي تحت الشمس الدافئة . أحس سلاماً شخصياً يحيط به على التخت الخشبي القديم ؛ حالة لا تُعَرف ولا حدود لها ، ولكنها تُعاش ببساطة وشفافية . أطال في جلوسه وشرب قدحاً آخر من الشاي اللذيذ ؛ ثم ، بعد حين ، أبعد فكرة الذهاب الى خانقين عن ذهنه واكتفى بالنزول الى الحيدرخانة لرؤية أخيه عبد الباري .

أدهشه أن يراه متفتحاً زاهياً قوياً ؛ تحاضنا وتبادلا القبل والاسئلة .

أخبره بأن كميلة وطفلها دفنا في مقبرة الشيخ معروف ، وبأن الجميع عرفوا بما حصل له في خانقين وأنه لم يأتِ لزيارته لجهله عنوانه . أخذ كلامه مأخذاً عادياً ؛ فلم يعد قادراً على إدراك منحى اختلاط عواطف البشر مع حساباتهم وتأويلاتهم .

أخبره أيضاً أن مشكلة آل قصابي تتمثل ، في الوقت الحاضر ، باخراج جاسم الرمضاني زوج كميلة ، من المشتمل الذي يجد ان له حقاً في السكنى فيه الى الأبد! سرّه أن أخاه لم يلحظ فيه تغيراً كبيراً في الهيئة والملامح ؛ إلا أنه فوجىء ، أثناء انصرافه ، بصورته في مرآة كبيرة قرب باب المعمل... الظهر المنحني والملابس القديمة المتهدلة والنحول واصفرار الوجه وبياض الشعر . وقف امام المرآة ، غير مبالٍ بحديث أخيه . كأنه يرى نفسه لأول مرة... شخصاً آخر ، يعرفه ولا يعرفه! وهذا الشقيق الذي احتضنه وقبّله قبل سويعات ، لا يلتفت الى كل هذا الخراب الذي حل بشقيقه! خرج ببطء ، ذاهلاً عن نفسه ، غير عارف من المخطىء في تشابك الأمور هذا . لمح مقهى حسن عجمي بغتةً ، على الجهة الثانية من الشارع فاتجه اليها وهو يحس بدوار في رأسه . كان الجو فيها ضاجاً ملبداً بدخان السكاير . شرب شايه الاحمر الداكن دون ان يحس له طعماً ، وشعر بأنه مرتبك لغير سبب واضح ، وأن ذلك مما لا يجب ان يحدث له . لقد تسارعت عليه الاحداث ، وهذا القلق المتخفي وراء ارتباكه ، يخفي هو الآخر عنصراً مبهماً يفلت باستمرار عن الادراك ؛ وكل هذا التعقيد الجديد ، بدأ حين ذهب الى خانقين ، باحثاً عن الرزق الحلال . في تلك المدينة التي نبع منها نهر عائلته ، عرف البهجة السرية والوعود المثيرة والرعب المجاني ؛ ولم يتبق له من كل هذا غير رماد ذلك الرعب المسموم . إلا أنه ، مع كل أجواء الفزع والقسوة التي أحاطوه بها ، بقي مالكاً لجزء من عقله ، جزء يتساءل بتحدٍ وهو راكع على الأرض... مم أخاف ؟ لم يغلبوه إذن ، ولم يفتوا في عضده ؛ ولعله ، الآن ، أقدر على تحليل مشروعية رعبه من عدمها . ولكن... ماذا

بوسعنا أن نعمل مع الماضي ، مع الحدث الذي سُطِّر في اللوح ، مع ما صار أمراً مكتوباً ؟ لا أحد في الكون ، يقدر على تغيير ما حدث ؛ لا أحد على الاطلاق .

ولكن الانسان ، الانسان مثله ، المدافع عن كينونته التي ديست ، يمكن له ، أليس كذلك ؟ ، أن يتحاشى استمرار سحقه ؛ أن ينهض من ركام بقاياه ويتجدد ، بحيث يتحول ما حدث الى رماد تنثره الريح ؛ فهذا الماضي مدين ببقائه الى النفس البشرية التي ترضى بأن تُدمغ به ؛ أما حين يمحو الانسان /الفرد إشارة اللعنة تلك ، فسيكون قد مارس عملية معجزة ، فحواها أن «الحدث» قد مضى ، مضى ولم يترك أثراً ، مضى مثل كل الأمور التافهة الاخرى في الحياة المتسعة هذه . أخذوه ، إذن ، ذلك الصباح من ركنه المليء بالاحلام ، لانهم كانوا اربعة مدججين بالسلاح ؛ هم ، فرداً فرداً ، غير قادرين على مواجهته ولا على إهانته أو تركيعه . كانوا ضعفاء ، أضعف منه بكثير ، يتقاوون بتواجدهم معاً . ومع كل هذا ، وحتى حين كان مرمياً على الأرض الباردة ، مدمىً جائعاً مرضوض الجسد والروح والقلب ، يأتيه دخان «المارلبورو» من أعلى ، تجلّد ، نافياً عنه كل الاهانات ، ورفع أصبعاً يضع فيه الخوف موضع السؤال ؛ وكان ذلك هو البداية .

وباجتيازه ذياك الامتحان الوحشي اللامفهوم ، كان هو ، هو البريء النظيف اليد المسلوب الحق الأبيض الصفحة ؛ وكانوا ، صاروا جميعاً ، سود الوجوه والنفوس والأفعال ، مدموغين بهذه الصفات الى أبد الآبدين .

خرج يتمشى في شارع الرشيد ، متجهاً نحو جسر الشهداء ؛ وكان الجو جميلاً ذا سماء صافية الزرقة . لم يحس جوعاً رغم ان الساعة جاوزت منتصف النهار . بدّلته جلسته الوجيزة في المقهى العتيق ، بدّلت من طوايا نفسه . هذا هو الانسان ، الحيوان العجيب الذي تغيّره أفكاره وتمحيصاته وتأملاته ، الخاطئة منها والصائبة ؛ ويوم يتوقف هذا المسار الذهني عن عمله ، فذلك يعني أن وقت حفر القبور قد حان .

حين اجتاز جسر الأحرار ، في مسيرته النشيطة تلك ، ملكه شعور بأن بمقدوره ان يكون اقوى من جلاديه . هزته هذه الفكرة النيرة ؛ بل وأن بامكانه ان يهزمهم ويفضحهم ؛ فمهما كان التدني في الأخلاق والمستويات الفكرية ، فإن جرائم من هذا النوع يجب ان تُدان . وقف ، لحظات ، حائراً أمام مقهى المربعة . أراد ، في فورته ، أن يحادث أنوار وكاسب ولمح عن بعد دائرة البريد المركزي ، فتبادر له كأن هناك من يناديه للسير بفكرته هذه الى الأمام . لم يجبه أحد في مكتب كاسب . أدار قرص الهاتف على رقم البيت ، فلعله يتناول غداءه الآن . جاءته أنوار ، جاءته الموسيقى والذكريات والعطور . بهتت اذ طرق سمعها صوته ، وظنته في خانقين . لم يكن كاسب في البيت ، ولا تعرف أي هو . أخبرها توفيق بصوت متهدج أنه يريد أن يأتي الى خانقين . هتفت بسرعة :

ـ لا . لا تأتِ... لا تأتِ أبداً ، أبداً .

أحرجه ذلك وأمضّه ؛ ظنها تحب أن تراه .

ـ لا وقت لهذه الأمور يا توفيق ، ليس الآن . سيؤذونك .

ـ سأفضحهم .

ـ كلا ، كلا . من أجلي ، لا تعمل أي شيء . لا تأتِ ، أتوسل إليك . أنا سانزل الى بغداد ونتقابل . سأنزل يوم الخميس لأرى ثريا وأمها . خابرهم . ولعلنا نلتقي . سأحكي لك كل شيء ، كل شيء .

هدأتْ نفسه بعد أن سمع الى كلام أنوار المنفعل ، بصوتها المهتز ، المنغم ؛ ورضي بوعدها المفاجىء أن تراه في بغداد ؛ لا بل داخله السرور من فكرة رجولية حمقاء تبيح له ، ضمناً ، أن يتصور تلك المرأة مستسلمة له . لكنها ، رغم ذلك ، أثارت شكوكه بنبرات صوتها المضطرب وسرعة حديثها ؛ وأحس ، بغرابة ، أنها لم تكن وحدها ، وأن خطابها الملتهب إنما كان لذر الرماد في العيون . ولكن... عيون من ؟ كانت فتحية ، على مدخل أسواق الأفراح ، آخذة بأذن ذلك الفتى حسن ، تصرخ في وجهه وتهزه

وتشتمه وتدفعه وتهدده ؛ فهو ، المشعوذ القذر ، الذي يعرف جيداً من سرق دكان العطار أبي قاسم بعد أن كسر قفله ؛ وهي ستجعله ، بطريقتها الخاصة ، ينطق ويعترف ، لأنها ، قبل الشرطة ، مسؤولة عن أمن أسواقها وبضائع مستأجريها ، ماداموا يدفعون الأجرة ، مثل أبي قاسم ، بانتظام واستمرار . كان الفتى ذو الثياب الوسخة المرقّعة ، يبكي ويتوسل ويعلن براءته جهراً ، دون جدوى ؛ ففتحية حين تظن أنها تعلم الحقيقة ، تتشبث بهذا الظن حتى نهاية المطاف . اقترب توفيق منهما ومن الجمع المتفرج وتدّخل يطلب منها التحلي بالهدوء ، ثم خلّص الفتى من بين يديها وسار به الى جهة على جانب . اعتاد ان يلحظ «حسن» طيلة الأشهر الأخيرة ، دون ان يعرف من أين جاء ولا ابن من هو ؛ يتحرك على الدوام ، يخدم ويشاغب ويتخاصم ويعقد الصفقات ؛ والجميع في الأسواق يودونه ويحذرون منه ؛ فحسن هذا ، لا يترك الفرصة تضيع منه ؛ اذا أمكنه أن يسرق دون أن يُضبط ؛ لكنه ، بشكل من الأشكال ، كان مسالماً ودوداً ؛ وكان ، مع أوساخه وقذارة وجهه وشعره الأسود الملبد ، متفتح التقاطيع ، تتألق عيناه السوداوان الواسعتان ببهجة الحياة . أخذه على جهة وأشار لفتحية أن تنصرف ، ثم ابتسم لحسن وخاطبه بجدٍ طالباً منه أن يخبره عما جرى . كان الفتى يأنس لتوفيق ، فقد اعتاد أن يعامله بلطف ويمنحه نقوداً في بعض الأحيان .

- عمي توفيق ، القضية لا تستحق كل هذا الصراخ من خالة فتحية ؛ وأنا لم أقم بها والله ؛ كلها ، كم درهم وحفنة كشمش ولوز ، والله ، أمهلني خمس دقائق وسأجلبها لك إنما لا تدع هذه المجنونة تقتلني ، فجسمي ضعيف وأنا جائع .

- أصدقك ، وستكون آخر مرة . هات المسروقات حالاً ، اجلبها الينا واعطها لفتحية واعتذر لها .

- على رأسي ، حاضر .

نام بعد الغداء نوماً ثقيلاً ؛ عادت اليه شكوكه حين سأل عن اليوم الذي كانوا فيه فأخبرته فتحية بأنه الخميس . خرج ، عصراً ، يتمشى في شوارع الحي الصاخب وهو لا يقصد إلا أن يهتدي ، بأفكاره ، الى حل متماسك أو تفسير مهما تكن هشاشته ، لحقيقة الموقف في خانقين . أكانت بمفردها حقاً ؟ هي تواعده للقاء يوم الخميس ، ونحن في يوم الخميس! أتقصد الأسبوع القادم ؟ محتمل .

وجد نفسه وسط دكاكين وكراجات تصليح السيارات ، ولمح عن بعد مقهى حمزة فشق طريقه اليها .

بعد قدح الشاي الثاني ، والشمس مالت للمغيب ، خيل اليه ان ذهنه قد ازداد صفاءً وان بمقدوره ان يفكر الآن بهدوء وقد يصل الى نتائج ملموسة ؛ غير ان ما كان يبدو له منذ قليل أمراً بديهياً ، صار ، بتعميق التفكير ، أمراً تحيطه الريب ويحتاج الى براهين . لعل انوار لا تخفي سراً ، ولعل كل شكوكه لا أساس لها ؛ وأنها ، ببساطة ، لا تريد رؤيته لانها امرأة متزوجة من احد أبناء عمه ، الذي احسن اليه فجعلها ، بذلك ، محرمة عليه ، لا يستطيع مسَّها إلا بعد تعذيب من ضميره ؛ وحتى اذا تساهل معه ضميره فانها قد لا ترضى باكثر مما وصلت بعلاقتها معه . التقبيل والكلام المبطن وتحريك الحواجب . تباً!

كانت السماء ، في جهة المغرب ، بنفسجية ، داكنة الاحمرار ، كأن نيران حريق تشتعل هناك في الأفق القصي . تلاينت أفكاره ، انسجاماً مع لوحة الألوان التي كانت الشمس تعبث بصنعها ، فارتاح قليلاً . لا ضير من الهياج الفكري في بعض الأحيان ، فهذا علامة نشاط وحيوية ؛ ولكن اللعنة هي في هياج الغرائز التي لا تنام ولا تسكن . كم يؤسفه أن ضيّع على نفسه فرص الاقتراب من أنوار ، ليلة جاءت ، هائجة حزينة منفعلة ، تعلن له خبر وفاة كميلة . كانت مشفقةً عليه ومتعاطفة بشدة مع مأساته ومع جروحه ، وقلبها الحنون يفيض بالود له ، فلم يستفد من حالها النادرة تلك . اللعنة .

أربكته المفاجأة حين سمع نبأ وفاة كميلة ؛ وبقي ملجوماً وهي تحتضنه مواسيةً له . كان عليه ان ينسى ، عليه اللعنة ، وأن يتدبر أموره المهمة .

ثم تذكر ان كاسب ، خلال الشهور الماضية ، لم يمر عليه أو يتصل به ؛ وقد نفدت كل النقود التي استلمها منه ، وعاد يحصي على نفسه أقداح الشاي التي يشربها في المقهى . طلب منه كاسب ، مع ذلك ، ان يخابره إن احتاج لشيء ما ؛ حسناً جداً ، سيخابره ويطلب راتبه .

رجع الى غرفته حوالي الثامنة فوجدهم يحضَرون للعشاء . اشترى في طريقه ، جبناً وبعض الفاكهة . كان على اتفاق ضمني بأن يشاركهم الطعام ويدفع لفتحية ما يرضيها آخر الشهر . كانت في غرفتها ووالداها يعملان في المطبخ بضجة مفتعلة وأحاديثهما لا تنقطع . طرق عليها الباب . كانت متزينة ممشطة الشعر ، ترتدي فستاناً أسود تزينه نقوش ذهبية حوالي الصدر ، يهصرها هصراً .

ـ خارجة ؟

ـ لا . داخلة .

ـ ما أجملكِ!

ـ من أين طلع القمر هذا اليوم! أنت نائم يا سيد توفيق ؟

أمسكها من خصرها ، فحركته حركة ذات معنى . كانت تحدق في المرآة أمامها وتتملى من رؤية وجهها الجميل وتعبث بتحريك شفتيها الحمراوين وعيناها ذات الظلال الخضراء تنتقل من وجهها الى وجهه وبالعكس .

ـ نراكم ؟

ـ ولو!

ـ نحبكم .

ـ حبيبي كذاب .

ـ نجيؤكم ؟

ـ أعوذ بالله من شر الوسواس الخنّاس .
ـ نموت إذن ؟
التفتت إليه باسمة :
ـ هاجت أموركم يا سيد توفيق ؟
احتضنها وأراد تقبيلها ، فأبعدت وجهها :
ـ الدفع أولاً .
ـ الدفع ؟
ـ مصاريف أحمر الشفاه .
قبلّها في خديها ، ومن اذنها ورقبتها وشمَّ عطرها .

انتظر توفيق اسبوعاً كي يأتي يوم الخميس الذي بشرته به انوار ؛ وخرج صباح ذلك اليوم ، حالقاً لحيته ومرتدياً احسن ما تبقى من ملابسه الشتوية ، فقصد دار اخيه عبد الباري . استقبله عبد المولى ، ابن أخيه مرحباً به وأدخله الى غرفة الاستقبال ثم سمعه ينادي امه .

لم يظهر له ان هنالك زواراً في الدار وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة . جاءته ثريا في فستان غامق فحيته بما يجب من برود وتكلف . عزاها ، مع ذلك ، بوفاة كميلة واعتذر بظروفه الخاصة التي اجبرته ان يكون متأخراً هكذا ؛ لم تجبه الا بهزة رأس بسيطة . كانت قد تحولت الى عجوز وهي في الخمسين من عمرها ، وخيل اليه ان التجاعيد في روحها اكثر عدداً من تلك الظاهرة على وجهها . سألها عن نجية وعن ممتاز ، فلبثت تحدق فيه لحظات ، ثم أجابته بكلمة واحدة . قام ينصرف بعد ان تأكد لديه ان انوار لم تأتِ ، وبعد ان كاد يخنقه هذا اللقاء مع زوجة اخيه .

خرج الى الشمس الجميلة ؛ وتذكر ، في نظرة خاطفة الى الحديقة ، أوقاته السعيدة في هذا البيت ، وفي انحاء هذه الحديقة الوارفة بالذات . عوداته فجراً ، بعد ليلة يقضيها مع الأصدقاء في الشراب والقمار والضحك والعربدة ؛ وآديل ، تلك العزيزة التي غابت الى الأبد ، كم أرهقته سعادته بها ، أحياناً ،

وهو يتمشى بين تلك الاشجار! كان آنذاك ، مثقلاً بعواطفه ومشاعر العشق لتلك المخلوقة الفريدة . تطلع الى المشتمل ، حيث سكن سنوات مع زوجته كميلة . لا زال كما هو ؛ وسيارتها البيضاء تقف أمام الباب . كأن شيئاً لم يتبدل والأيام لم تعبر . مضى بخطوات بطيئة يجتاز شارعهم القديم . مرّ بدار الرسام عبد الاله كمال ، فوجدها ، هي الاخرى ، باقية على عهدها ، وعدة سيارات تقف حذاء الباب . احب ان يقوم بزيارة لهم ، يسأل فيها عنهم وعن غسان ؛ الا ان وجود السيارات جعله يتردد ويواصل سيره .

لم يعجبه ان يعود الى حي العامل ؛ وقرر ، بعد تفكير ، ان ينزل الى بغداد ويخابر كاسب ويطلب منه معونة مالية ، فقد بدأت حدود الخطر تقترب منه ، ولن يدهشه ، في يوم غير بعيد ، ألا يملك غير راتبه التقاعدي الهزيل ، وذلك ما يعني الدخول في نفق الموت جوعاً . جاءه كاسب على الهاتف ورحّب به وبندائه ترحيباً بدا له حاراً ؛ ثم اعتذر له بأنه مشغول للغاية ولم يستطع المرور عليه خلال الفترة السابقة وان انوار كانت ترغب بالنزول الى بغداد هذه الأيام ، لكن توفيق الصغير تمرض فأجلوا سفرتهم . كان يحس بنفسه ثقيلاً وهو يكلم كاسب ويريد أن يبدي له حاجته المادية وخوفه من المستقبل ؛ وكان في معركة مع ذاته ، خلال تلك الدقائق ، لا يدري كيف يحسمها ؛ حتى حسمها بدلاً عنه كاسب الذي سأله عما اذا كان بحاجة الى المال ، فأجابه بالايجاب وبأنه يريد ان يشتغل اذا كان ذلك ممكناً . ران عليهما الصمت ، قطعه كاسب يخبره بأن هذا الامر غير ممكن الآن ، ولكنه سينزل الى بغداد خلال الاسبوع القادم او يرسل انوار بدلاً عنه لتجلب له ما يريد . شكره بحرارة .

خرج مسروراً من دائرة البريد ، كأنه أدى واجباً ونجح فيه . خطر له ان يزور أخاه عبد الباري وأن يعيد عليه الطلب في ايجاد عمل له مهما يكن نوعه ومقدار راتبه . لن يهمه ان يكون لجوجاً او مزعجاً ، اذ لا بد له من ايجاد عمل ما ، بكل ثمن .

هزّ عبد الباري رأسه عدة مرات :

ـ الاعمال غير مواتية ، وعمي سلمان كبر وعجّز ، وهو لا يخرج ولا يذهب الى السوق ، وانا بمفردي هنا ، لأن الاعمال غير كثيرة ولا ادري من أين أجيء لك بالعمل .

وعاد يهز رأسه . كان توفيق في معركة اخرى مع ذاته ؛ لم يرد ان يهّب في وجه اخيه ويعدّد له الاعمال العدائية التي صبّتها والدتهما على رأسه مذ كان صغيراً ، فسرقته وسرقت أباهما وحبته هو ، بوجه القرد هذا ، بكل محبتها ومالها المسروق ؛ لكنه لم يستطع التغلب على عواطفه .

أدرك ، وهو يسرع خلال دروب الحيدرخانة الملتوية نحو شارع الرشيد ، انه اعتدى على نفسه أكثر من اعتدائه على اخيه وعلى ذكرى والدته ؛ فهو ، قبلهما ، إنسان واعٍ بمصيره ، وهو لذلك واعٍ بقيم الحياة وبمقدوره ان ينظر فوق أعمالهما ضده . لقد سرقته أمه وقالت له ، دون حرج ، انها سرقته ؛ فلم ينفعل ولم يرد عليها ، وتساوى لديه ان يملك او لا يملك ؛ وسرق منه اخوه حصته من ميراث والدته ، فتقبل الامر كأنه قضاء وقدر ، ولم يهمه ان يملك او لا يملك . ماذا جرى له ، إذن ، هذه الأيام ليجري لاهثاً وراء عربة المال التي توارت عند الأفق وتركت له غبارها يغطيه ؟ أفلا يرى أن مرض حب المال يسرى مع الدماء حين الولادة ، وأن من العبث ان تتظاهر بأنك مريض بحب المال ، وأنت تحتقره رغماً عنك ؟ أم لعلها حاله الآنية هذه ، هي التي تفتُّ في عضده وتعمل على انزلاق قدميه نحو اعمال مثل هذه التي اقترفها بحق اخيه ؟

اتجه نحو مقهى حسن عجمي ، غير انه انكفأ عنها قبل ان يصلها ، واتخذ له مقعداً في باص اوصله الى الباب الشرقي . كان متعباً ، جائعاً بعض الشيء ؛ إلا أن الشمس في ساحة التحرير بثتْ فيه البهجة ومنحته نشاطاً جديداً . دخل احدى المكتبات على جانب الساحة ، فأسعدته ، لحظة ، رائحة الكتب ومنظرها مكدسةً في كل مكان . أخذ يتابعها بعينيه ويقرأ

وهو يتمشى بين تلك الاشجار! كان آنذاك ، مثقلاً بعواطفه ومشاعر العشق لتلك المخلوقة الفريدة . تطلع الى المشتمل ، حيث سكن سنوات مع زوجته كميلة . لا زال كما هو ؛ وسيارتها البيضاء تقف أمام الباب . كأن شيئاً لم يتبدل والأيام لم تعبر . مضى بخطوات بطيئة يجتاز شارعهم القديم . مرّ بدار الرسام عبد الاله كمال ، فوجدها ، هي الاخرى ، باقية على عهدها ، وعدة سيارات تقف حذاء الباب . احب ان يقوم بزيارة لهم ، يسأل فيها عنهم وعن غسان ؛ الا ان وجود السيارات جعله يتردد ويواصل سيره .

لم يعجبه ان يعود الى حي العامل ؛ وقرر ، بعد تفكير ، ان ينزل الى بغداد ويخابر كاسب ويطلب منه معونة مالية ، فقد بدأت حدود الخطر تقترب منه ، ولن يدهشه ، في يوم غير بعيد ، ألا يملك غير راتبه التقاعدي الهزيل ، وذلك ما يعني الدخول في نفق الموت جوعاً . جاءه كاسب على الهاتف ورحّب به وبندائه ترحيباً بدا له حاراً ؛ ثم اعتذر له بأنه مشغول للغاية ولم يستطع المرور عليه خلال الفترة السابقة وان انوار كانت ترغب بالنزول الى بغداد هذه الأيام ، لكن توفيق الصغير تمرض فأجلوا سفرتهم . كان يحس بنفسه ثقيلاً وهو يكلم كاسب ويريد أن يبدي له حاجته المادية وخوفه من المستقبل ؛ وكان في معركة مع ذاته ، خلال تلك الدقائق ، لا يدري كيف يحسمها ؛ حتى حسمها بدلاً عنه كاسب الذي سأله عما اذا كان بحاجة الى المال ، فأجابه بالايجاب وبأنه يريد ان يشتغل اذا كان ذلك ممكناً . ران عليهما الصمت ، قطعه كاسب يخبره بأن هذا الامر غير ممكن الآن ، ولكنه سينزل الى بغداد خلال الاسبوع القادم او يرسل انوار بدلاً عنه لتجلب له ما يريد . شكره بحرارة .

خرج مسروراً من دائرة البريد ، كأنه أدى واجباً ونجح فيه . خطر له ان يزور أخاه عبد الباري وأن يعيد عليه الطلب في ايجاد عمل له مهما يكن نوعه ومقدار راتبه . لن يهمه ان يكون لجوجاً او مزعجاً ، اذ لا بد له من ايجاد عمل ما ، بكل ثمن .

هزّ عبد الباري رأسه عدة مرات :

ـ الاعمال غير مواتية ، وعمي سلمان كبر وعجَز ، وهو لا يخرج ولا يذهب الى السوق ، وانا بمفردي هنا ، لأن الاعمال غير كثيرة ولا ادري من أين أجيء لك بالعمل .

وعاد يهز رأسه . كان توفيق في معركة اخرى مع ذاته ؛ لم يرد ان يهّب في وجه اخيه ويعدّد له الاعمال العدائية التي صبّتها والدتهما على رأسه مذ كان صغيراً ، فسرقته وسرقت أباهما وحبته هو ، بوجه القرد هذا ، بكل محبتها ومالها المسروق ؛ لكنه لم يستطع التغلب على عواطفه .

أدرك ، وهو يسرع خلال دروب الحيدرخانة الملتوية نحو شارع الرشيد ، انه اعتدى على نفسه أكثر من اعتدائه على اخيه وعلى ذكرى والدته ؛ فهو ، قبلهما ، إنسان واعٍ بمصيره ، وهو لذلك واعٍ بقيم الحياة وبمقدوره ان ينظر فوق أعمالهما ضده . لقد سرقته أمه وقالت له ، دون حرج ، انها سرقته ؛ فلم ينفعل ولم يرد عليها ، وتساوى لديه ان يملك او لا يملك ؛ وسرق منه اخوه حصته من ميراث والدته ، فتقبل الامر كأنه قضاء وقدر ، ولم يهمه ان يملك او لا يملك . ماذا جرى له ، إذن ، هذه الأيام ليجري لاهثاً وراء عربة المال التي توارت عند الأفق وتركت له غبارها يغطيه ؟ أفلا يرى أن مرض حب المال يسرى مع الدماء حين الولادة ، وأن من العبث ان تتظاهر بأنك مريض بحب المال ، وأنت تحتقره رغماً عنك ؟ أم لعلها حاله الآنية هذه ، هي التي تفتُّ في عضده وتعمل على انزلاق قدميه نحو اعمال مثل هذه التي اقترفها بحق اخيه ؟

اتجه نحو مقهى حسن عجمي ، غير انه انكفأ عنها قبل ان يصلها ، واتخذ له مقعداً في باص اوصله الى الباب الشرقي . كان متعباً ، جائعاً بعض الشيء ؛ إلا أن الشمس في ساحة التحرير بثتْ فيه البهجة ومنحته نشاطاً جديداً . دخل احدى المكتبات على جانب الساحة ، فأسعدته ، لحظة ، رائحة الكتب ومنظرها مكدسةً في كل مكان . أخذ يتابعها بعينيه ويقرأ

عناوينها . أثارته كتب ذات مواضيع فكرية واخرى تبحث في علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ .

تناول كتاباً عن تاريخ العالم بعد الحرب العالمية الأولى وحتى سنة ١٩٥٠ ، فأخذ يتصفحه ؛ حوادث مثيرة وتحليلات تلفت النظر . كان ثمنه ديناراً ونصف الدينار ؛ أكثر من قابليته الشرائية في الوقت الحاضر . عثر ، بعد ذلك ، على ترجمة رواية « موبي ديك » للكاتب الامريكي ملڤيل ، بحوالي ألف صفحة من القطع الكبير . إنها ، كما يعلم ، الترجمة الحرفية المتقنة لهذا العمل الأدبي العملاق . أخذ يقلب صفحات الكتاب ويقرأ بعض السطور ، وشعور من الفرح الغريب يداخله . طرق سمعه الصوت الأنثوي فجأة :

ـ أريد ، من فضلك ، كتاباً في تعليم اللغة العربية .

ـ أي نوع من الكتب ؟

ـ ألا تفهم اللغة العربية ، أنت أيضاً ؟ قلت لك كتاباً لتعليم اللغة العربية .

ـ فهمت يا سيدتي ، ولكن هناك كتباً للأجانب واخرى للأطفال .

كان الصوت ذا نبرات أنيسة متوثبة . التفت بحذر . رآها واقفة ، في المدخل ، أمام صاحب المكتبة ، مرتدية معطفاً من الفرو الأسود ، وخصلات شعرها الاشقر تنحدر على الكتفين كالشلال ، وصفحة وجهها الملونة مشرقة كما هي دائماً ، كما ألفها ، كما أحبها وأسعدته . استدار واقترب منها خطوة ثم اخرى . كانت تقَلب صفحات الكتاب الذي قدمه لها البائع وهي تضَيق قليلاً من عينيها وتهمهم بكلمات غير مفهومة . وقف على مبعدة منها ، يتطلع اليها بتولهٍ وذهول ، وهو يشدُ الرواية الى صدره . هزَت رأسها علامة عدم الرضا وهمَت أن تعيد الكتاب الى البائع .

ـ كلا ليس هذا . هذا لايصلح .

فلمحته بغموض ، يقف وقفته الغريبة منها ، فالتفتت بنظرها اليها ؛ واذ لم تميز شخصه ، رجعت تكمل حديثها مع البائع :

ـ قلت لك كتاباً...

وتوقفت ، ثم حركت ببطء رأسها الجميل مرة اخرى باتجاهه . وقفا يتبادلان النظر . كانت اكثر انشداها منه ، ترنو اليه كأنها لاتصدق عينيها . كلمها :

ـ صباح الخير ، آديل .

وهز رأسه :

ـ نعم ، انه انا ؛ او ماتبقى مني .

رمت مافي يديها واندفعت بحمية نحوه :

ـ آه... ياربي ، أنت! توفيق ، انت حي!

واحتضنته دون اكتراث بمن كان حولهما ، ووضعت وجهها على وجهه تتحسسه :

ـ يالله ، انت حي ؛ انت حي . قالوا لي ، قالوا لي...

ثم ارتفع نشيجها عالياً ؛ وكان ، في حلم الواقع الجنوني هذا ، يملأ أنفه وروحه بعطرها العذب ويحس بملمس بشرتها الناعمة الدافئة على وجهه . هدأت بعد لحظات وتراجعت عنه تمسح عينيها بأناملها ؛ ثم انهيا الموقف اللامعقول وخرجا بسرعة من المكتبة تاركين الحضور في حيرتهم . كانت تمسك قوياً بذراعه وتجره معها متلفتة بين الحين والآخر ، لترى الى وجهه :

ـ قالوا لي قتلوك ؛ لماذا يقولون لي هذا ؟ ولم انت هكذا ؟ كم تغيرت ، ياالهي! تعال معي ، دعني أراك جيداً .

أدرك توفيق انها مضطربة اكثر منه وان امورها النفسية مختلطة قليلاً ؛ وكان مأخوذا بشوقه للحبيبة التي هبطت عليه من السماء ، في هذا اليوم المبارك .

ـ لماذا يقولون لي هذا ؟ ماذا عملت لهم ؟ وأنت... اين كنت ، وانا اكتب اليك وانت لاتجيب ياقاسي ؟ تعال معي اعرفك على ابنتي زينة . لقد كبرت وانا افتش لها عن كتاب لتعليم اللغة العربية ، فهي لاتفهم منها شيئا كثيراً .

وجدا الابنة ، تلك الشابة الجميلة الملولة ، تنتظر بصبر نافد في سيارة السوبر (تويوتا) البيضاء . عرفته عليها ثم طلبت منها بالفرنسية ان تنتقل الى احد الكراسي الخلفية فقامت هذه بسرعة ؛ دعته آديل للجلوس قربها . وهكذا ، خلال دقائق من الزمان اللانهائي ، وجد توفيق نفسه جالساً بجانب آديل ، وهي تسوق سيارتها الفخمة متجهة نحو الكرادة الشرقية .

كانت ملامحها تميل الى بعض الصرامة ؛ ازالت حياتها العمليةالطويلة في فرنسا عن وجهها الفتي ، تلك الهالة من عذوبة الانثى وحلاوتها ؛ ومع خطوط دقيقة جدا حول الفم وتحت العينين العسليتين ، صارت آديله ، الشابة الملتاعة حباً بلا حدود ، امرأة رزينة متحكمة لاتريد ان يخدعها احد .

بقي يستمع اليها تحدثه دون انقطاع ، خلال مسيرتهم من ساحة التحرير . اخبرته بأنها جاءت منذ عشرة ايام لحسم قضية ميراث زينة من ابيها ، فقد كانت حصتها موضوعة تحت ادارة مديرية اموال القاصرين حتى بلوغها سن الرشد ثم قالت له انها امضت ثلاثة ايام تسعي للاتصال به او باحد أولئك الاصدقاء والمقامرين . فوجئت بأن كل ارقام التلفونات قد تغيرت خلال فترة غيابها الطويلة ، لكنها لم تيأس وتذكرت الاسم الكامل لذلك الصديق المدعو خالد فاستخرجت رقم هاتفه من الدليل واتصلت به غير مهتمة بالأفكار التي قد تخطر له عنها . الح الحاحا غريبا على مقابلتها وشعرت به كأنه صدم حين سألت عنه... عن توفيق ، فأجابها بعد تردد بأن مايعرفه عنه هو انه فصل من الوظيفة واعتقل بعد ذلك ومن المحتمل أن يكون قد قتل .

كانت منفعلة ، محمرة الخدين ؛ تسوق السيارة وتلتفت ، لحظة ، ترنو الى وجهه ، الى عينيه ، وتبتسم ثم تعود الى المقود ؛وكان في جلسته قربها ، يحس باختلاط شديد بين عواطفه نحوها وبين مشاعر الانكسار والخجل والحيرة التي تملكه من الداخل .

ـ كتبت لك ، كتب لك مرتين .

ومدت ذراعها فاحتوت يده بكفها وضغطت عليها :

ـ لم تجبني . لماذا ياتوفيق ؟

أثرت فيه كلماتها :

ـ لاني لم استلم رسالتيك . كنت أنتظرهما بأحر الشوق ، لكن البعض تبرع باتلافها مع الأسف .

ـ رسائلي! ؟ لماذا ؟ ماذا عملتُ لهم ؟

توقفوا امام دار ضخمة في شارع عريض لم يتعرف عليه من قبل ، ونزلت هي وابنتها فنزل هو الآخر . دعته للدخول فتردد :

ـ لاتتحرج... ارجوك .دعنا نجلس ، نتحدث قليلاً .

استقبلتهم عجوزمرحبة بهم وفتحت لهم باب غرفة واسعة ، رصت فيها بعض الكراسي واريكة . نزعت آديل عنها معطفها الأسود فبدت في فستان ازرق قصير ، لاحظ امتلاء جسدها وتناسقه المثير . رجته ان يرتاح وقالت انها ستعود حالا ، ثم خرجت .

جلس بتحرز شديد ، متوتر الاعصاب . سحرته وهو يراها بفستانها ذاك وبالحلي الماسية البراقة التي تضعها ، وتوجس شيئا ما في نفسه ينكمش عنها . بدت كنجمة سينما لامعة ، تحنو على شحاذ عرفته في طفولتها!

لم تتأخر عليه في العودة بمفردها . جلست قربه على الاريكة وواجهته . طمأنته قليلاً نظرات الحنان الصافية ، تشع من عينيها المبللتين :

ـ لا ، توفيق ، مازلت آديل ؛ مازلت لم أتغير .

انكفأ ، دون ان يتدبر ، على يديها وتناولها فرفعهما الى فمه يقبلهما ، يقبلهما . امسكت بوجهه بين راحتيها الحارتين الناعمتين :

ـ بأية قسوة عاملتك الحياة ياحبيبي ؟

كانت على سفر بعد يومين ؛ فقد انهت جل اعمالها ورتبت امور ابنتها

المالية ؛ الا انها ، اذ قابلته ، اجلت رحلتها اسبوعا . قضيا الأيام والليالي معاً . يتحدثان ويتناجيان ويبكيان احيانا ويتبادلان الحب المستعر ويتساءلان . لم تكتم عنه شيئا مهما ، ولم يرد هو من تلك المخلوقة الأثيرية غير ان تكون معه في وقت شقائه ذاك . شعر بها تتعذب وهي تحتضنه وتضمه بسكون الى جسدها البض الدافيء . لم تكن ، لا هي ولا هو ، في مرحلة من العمر تستطيع معها ان تنسى ؛ وكانا على يقين ، يخفيانه عن بعضهما ، بأن وقت اللقاء محدودجداً . قص عليها تفاصيل معاناته الطويلة واستسلامه لها منتظرا المجهول ؛ واخبرته هي ، بأنها ، على العكس منه ، عاشت حياة مرفهة ومريحة ومحترمة ؛ ثم بكت بحرقةعلى صدره ، قاطعه حديثها ، كأنها ترجوه ان يغفر لها سعادتها تلك ؛ ولم يخطر لهما ان يبحثا المستقبل بجد ، فكلاهما ، في دخيلته ، كان يدرك بحسرة كم كان لقاؤهما ضربا من المستحيل ، وكم يجب ان يعتنيا كيلا يعذبهما البحث فيما لافائدة فيه ولاجدوى ؛ وخلال تلك الايام معها ، يعايشها ويدخل في ثنايا حياتها اليومية الخاصة ، اسعده ان يلمس اي نوع عذب ، مغرق في عذوبته ، من النساء هي ؛ واراحه ان يستمع اليها تشرح له ، باحترام شديد ، خططها في ذلك البلد البعيد وكيف عملت وستعمل لتنظيم حياتها وحياة ابنتها ؛ وصارحته بانها لاتستبعد الزواج من اجل ضمان مصالحها المادية .

ـ الرجال هناك مريحون جداً ، خاصة اذا عرفوا انك لاتحتاجهم مادياً .

كبت ألم الوخزة التي احسها في قلبه ، لكنها حدسته فاحتضنته ووضعت رأسه بين نهديها العاريين ؛ وغلبته رغبة صبيانية في البكاء ، وبكت روحه معه ؛ بكى وجوده كله تلك اللحظات ، وابقى وجهه على البشرة الوردية ؛ يبللها بدموعه .

عرضت عليه ، مداورة ، ان تساعده مالياً ، فتوسل اليها ان تغلق هذا الحديث ؛ اراد منها فقط ان تكتب له وألاتنساه وان تمنحه خصلة من شعرها .

ـ لاتسخري ياحبيبتي ؛ فالنسيان هو الوداع الاخير ، وانا لاأريده . انه يخيفني . لا اريد ان اودعك... ابداً .

اثر فيها قوله ذاك ، ، ولبثت صامت تنظراليه بسهوم وهي تمر بيدها على شعره .

كانا يلتقيان كل يوم ،صباحا ومساء ، ويدبران امر زينة والخادمة بشكل من الاشكال ؛ وكان يعود الى حي العامل بعض الوقت ليلاً او نهاراً كي لايثير الانتباه بغيابه المستمر . لحظت فيه فتحية انشغال البال ، الا انها لم تجد الوقت المناسب لتسأله عن اسباب ذلك .

قبيل اعياد الميلاد ورأس السنة ، يتذكر جيداً ، قضيا الليلة سوية ؛ تلك كانت ليلة ١٨-١٩ / ١٢/ ١٩٧٩ . استيقظا صباحا وفطرا معا ، متفقين فيما بينهما ان يكونا سعيدين طوال الوقت . ثم اراد ان يذهب لقضاء عمل تذكره ؛ وكان يقصد ،في الواقع ،ان يشتري لها هدية تأخذها معها .

اعتذر لها وانصرف وتواعدا على اللقاءوالغداء معا ايضاً . اسرع يسحب من حسابه مبلغا من المال ثم مضى فاختار لها شالا جميلا ، لفوه بعناية ، وكتب لها كلمة حب اودعها مظروفا انيقا وعاد اليها بما يقدر من عجلة .

وصل الدار حوالي منتصف النهار . فتحت الباب له الخادمة . اخبرته بنبرة جامدة ان آديل وابنتها سافرتا قبل اكثر من ساعة ، فطائرتهما تقلع الى باريس عند الساعة الثانية عشرة بالضبط ؛ ثم قدمت له بأدب لفافة من الورق الازرق تحوي الخصلة الشقراء ، فسألها اهذا هو كل شيء ، فهزت الخادمة رأسها ان نعم .

لم تودعه آديل ، اذن ، الوداع الاخير ؛ ولعلها ظنت انه كان يريد ذلك ؛ولم يدر أيشكر لها هذه البادرة ام لا .كانت اقوى منه ، اذ لم تصب بمثل الوخزات التي اصابت فؤاده ؛ ولكن ، كان عليها ان تعلم بأن في الدنيا من الضعفاء اكثر بكثير مما فيها من الأقوياء وان... وان... ؛ غير انه قرر ، بينه وبين نفسه ، وهو يبتعد حاملاً هديته وهديتها ، الا يجعل حلم سعادته

العظمى الذي تحقق بغفلة من الزمن ، سبباً من اسباب التعاسة ؛ وكان هذا قرارا شاقا على التنفيذ شاقا على القلب . لبث اياما بلياليها يريد ان يبكي فقط ؛ ان يجلس لوحده في مكان ما ، وان يفرغ مخزونه من الدموع ؛ ان يبكي ضد تصميمه ان يكون سعيدا ، ضد رغبته في ان يتعقل ويتدبر الحياة ويقبل ويقبل ؛ واخافه ، مضطجعا على فراشه في غبش الغرفة المغلقة ، ان يجد دلالة ما في عملها ذاك . فهل فكرت في قيمة السويعات الذهبية التي حرمته منها ، قبل الفراق ؟تلك السويعات التي لن تعود ، ومعناها له ؟

واذا كان قد خطر لها ذلك ، هل ترددت وقلبت الامر وعادت لتتردد ؟ ام انها حسمت كل شيء في لحظة ونفضت يدها منه ؟

وهل بمقدور آديله العذبة تلك ان تفعل ذلك ؟

ولكنها فعلته ، وتركت له ان يفهم الامر اذا استطاع ، وان يتعذب اذا عجز عن الفهم ؛ وكلتا الحالين غير مقبولة ؛ وهذا ماقرر ان يقوله لها حالما يستلم منها رسالتها الاولى . ومع تذكره لاتفاقهما ان يتكاتبا ، انزاح عنه بسرعة غريبة ، ماخيل اليه انه هم كبير وثقل سماوي لايطاق . ماتزال الصلة بين القلبين ، ماتزال ؛ ولامكان او معنى لهذا الحزن او لمشروع البكاء الطويل .

صعد حسن السلم وثبا وصرخ بأم فتحية بأن هناك شخصا يطلب الاستاذ توفيق في الاسفل لعمل مستعجل . اشارت له بانزعاج ان يهدىء من ضجته وسارت باتجاه غرفة الاستاذ وهي تمسح يدها بفستانها . كان الوقت ضحى والشمس تملأ الباحة باشعتها وضجيج الاسواق مرتفعا . طرقت على الباب عدة مرات منادية باسمه .اختلى ، منذ اسبوع ، بنفسه في هذا الجحر ، لايخرج منها الا لقضاء حاجته او للاكل ؛ لايكلم احدا ولايريد من احد ان يكلمه ؛ وصارت لحيته ، مع الايام ، مشعثة سوداء في بيضاء ، تزيد من مظهره غرابة . فتح لها الباب فهتف حسن من موقفه قرب السلم يعلن له بأن رجلا جاء من خانقين يروم رؤيته لعمل مهم ، وانه صادفه يسأل عنه في

مقهى حمزة فقاده بنفسه الى هنا . تمالك توفيق حواسه ، وغسل وجهه ثم نزل مع حسن . كان القادم احد عمال المعمل ويدعى بكر آغا ، رجل امين وطيب جاوز الستين من عمره . حيا توفيق بحرارة ثم عانقه واخذه على جهة فاخبره بأن كاسب مشغول هذه الايام ولم يستطع المجيء بنفسه ، ثم اخرج من جيبه رزمة من الأوراق النقدية قال انها مائة دينار ارسلها إليه كاسب حسب وعده له . سر توفيق بهذه المعونة ورجا بكر اغا ان ينتظره ريثما يبدل ملابسه ليذهبا للغداء معا . اراد الشيخ ان يعتذر لكن توفيق اصر .

كانا على مائدة الغداء يتحدثان في امور شتى تخص المعمل والعمال من آل عبد المولى ، حينما جاء ، عرضاً ، ذكر حادث الاعتداء عليه وحجزه . ابدى بكر آغا اسفه وحزنه وغيظه ، واكد لتوفيق بأن جميع العمال معه يشاركونه هذه المشاعر وهم ينتظرون الفرصة ، لعلها تسنح ، للثأر له . شكره توفيق متأثرا من اقواله ونصحه الا يفكر هو وزملاؤه بأفكار من هذا النوع ذهب زمانها ؛ ثم سأله متهكماً :

ـ ثم... ممن تثأرون ؟ من حملة السلاح المجرمين اولئك ؟

نظر اليه بكر اغا نظرة عميقة ثابتة .

ـ انت انسان كريم بطبعك يااستاذ توفيق ، رغم المصائب التي حلت عليك دون خطأ منك ، ولكن يجب ان تعلم مانعلمه كلنا في خانقين ، فليس هنالك سر في هذه المدينة .

دهش توفيق من حديث الشيخ وتوقف عن اكمال غدائه .

ـ اولئك المسلحون هم ادوات صماء لمدبر خفي حقود يخشى ان ينفضح فضغط على مدخن سجائر « المارلبورو » فقام هذا بتدبير الاعتداء عليك وحجزك من اجل ابعادك عن خانقين . نحن لانعلم السبب بالضبط ، ولكننا نعلم بان المحامي ممتاز هو مسؤول المنطقة ولاشيء يحدث دون علمه... وانت ، ماذا عملت له ياستاذ توفيق ؟ انت قريبه وهو زوج ابنة اخيك ؟

ابعد توفيق صحن الطعام من امامه ، شاعراً بصدمة في نفسه وجسده .لم يجب على سؤال بكر آغا ، فقد كان ذلك امرا مستغلقا عليه اكثر من استغلاقه عليهم ؛ وكان ، فوق ذلك ، متعبا مما حدث له في الاسبوع الفائت مع آديل ، ويحس بضعف عام في جسمه .

ـ البشر ياastاذ توفيق . تتملكهم نزعات الشر دون اي سبب معقول ؛ ونحن في خانقين نريد ان نفسر الأمور فلانستطيع ؛ حتى السيد كاسب بذاته يخشى من المحامي ممتاز ويتجنب تدبيراته ، هو وزوجته ام توفيق .

ـ مادخل زوجته في الموضوع ؟

ـ لاندري ، لاندري والله .

ـ حسنا يابكر آغا ، لاتحشر الجميع في هذه القضية .

ـ قلت لك انك رجل طيب وشريف ياastاذ توفيق ، وهاأنذا اكرر عليك ذلك ، ولكن لاتنتظر من احد ان يحترم شرف غيره . نحن ، في خانقين ، نفهم النظرات ولكننا لانجرؤ على البوح بما تقول هذه النظرات

ولم يفصح له بكر اغا عن الأفكار السرية التي تدور في اذهان سكنة خانقين ، ولكنه ادرك انه بقليل من سوء النية يمكن ان يتوصل الى الفحوى العام لهذه الافكار . انها سلسلة خفية سوداء من رغبات الاشتهاء لزوجات الآخرين ، ومن المحاولات البائسة اللامنظورة لتحقيقها . ازعجه ان ينحشر اسم انوار في فوضى اختلاط القيم هذا ، ولكنه شعر ، بعد امعان التفكير ، انه ليس آخر من يجب أن يلام في هذا الشأن ؛ وتلك المخلوقة الوضاءة ، كانت تعرف ، بالتأكيد ، اشياء كثيرة ترعبها .

انصرف بكر اغا وعاد توفيق الى الاسواق الصاخبة . منح حسن بقشيشا وصعد الى غرفته . لم تعجبه لحيته ، ووجد فيها عنوانا للقذارة لاداعي لحمله والدنيا على ابواب عام جديد . سمع صوت فتحية تكلم والدتها فنادى عليها . جاءته بغير رضى . سألها عن رأيها في لحيته . فمالت برأسها من جهة لاخرى دون كلام .

ـ نحلق ؟ لانحلق ؟

ثم سألها عما اذا كانت تحتفل هي وزوجها السابق برأس السنة ، هذا الحدث المتكرر منذ مئات السنين ، فأعجبها السؤال وتغيرت أساريرها اللامبالية .

ـ كان المرحوم يحب الحفلات من كل نوع ويعرف عادات الانكليزفي هذا الشأن ،وكنا نعمل حفلة رأس السنة في بيتنا... أنا وهو فقط ، لكنها كانت دائما حفلات قصيرة ، فقد كان يشرب ويتهيج بسرعة ثم يريد بعد ذلك أن يفعلها في الحال ، وأنا لا أمانع ، فتنتهي الحفلة بوقت مبكر ويتعب هو وينام .

ابتسم لها توفيق وقرصها بخفة في ردفهاوهي تستدير ماضية عنه .

صرخت متظاهرة بالألم وكانت تتساءل في نفسها عما إذا كان قد برىء مما كان فيه ؟وفي الحقيقة ،لم يجد توفيق ، بعد سفر آديل بأسبوع ، أي معنى لخلوته تلك ولا لاعتزاله الدنيا كأنه درويش جديد ، فهي قد كانت ، منذ رآها أول مرة وهو في سنته العشرين ، هبة من السماء ، لاتعلن عن قدومها ولاعن انصرافها ، ومن المستحسن لأمثاله من البشرالفانين أن يتحملوا صدمة هذه السعادة العلوية بأعصاب هادئة وبفكر صاف ، وأن يعاودوا ، بعد انقضائها ، حياتهم اليومية كالسابق . سيحتاج ذلك بالتأكيدالى جهد استثنائي ،ولكن ، بمعونة القليل من حوداث الترفيه يمكن أن نستجلب هذا الجهد وتهدأ الاعصاب .

لكل هذا اقترح فكرة متألقة على فتحية ، هي أن يحتفلوا بعيد رأس السنة بعد يومين ، هو وهي ووالدها ؛ ونسي الصبي حسن ، لكن هذا ذكرهم بنفسه حين اشترك في تزيين الغرفة وقام بأكثر الاعمال مشقة ، فرحاً يكاد يطير من الفرح .

ونزل توفيق لام الى بغداد ، مسلحاً بالمائة دينار ،فاشترى بعض الحلويات والمأكولات والفواكه وعشر قناني بيرة ، وعاد بسيارة اجرة . كان

المساء بارداً والهواء يخترق مسامات الثياب وينفذ الى الجلد ، والسماء رمادية كئيبة . وجدهم ينتظرونه في المطبخ وينتظرون قراره بتعيين مكان الاحتفال .ضحك في وجوههم وسألهم... اهناك محل انسب من غرفة ملكة الجمال...فتحية! ؟

أيدوه بهتافات هزلية وصرخ حسن قافزا يركض الى الغرفة . كان هذا الصبي مقرفا في مظهره ، ولكن تصرفاته الطيبة كانت تنسي الآخرين ذلك ؛ طلبت منه فتحية قبل يوم أن يغتسل فبان الرعب على وجهه بشكل أضحكها . دعته بلطف الى تنظيف نفسه او تبديل ثيابه على الاقل فإن رائحته لاتطاق أحياناً ؛ فأخجله ذلك ووعدها بأن يعمل على تنفيذ طلبها . جاء في اليوم الموعود بملابس نظيفة لارائحة فيها وبوجه قمحي شاحب وشعر مغسول وممشط ، فبدا ، في مظهره الجديد ، حزيناً بائساً حائراً ؛ لكن توفيق لام استحسن جهوده لرفع شأن مظهره وابدى له إعجابه .

دبروا مائدة منخفضة من صندوقين وخشبة عريضة ، وضعوها امام التلفزيون ؛ كانت مائدة لمن لايملك مقاعد ، بل اعتاد الجلوس والمشاهدة والاكل والشراب على الارض ؛ وهكذا تكاملت الجلسة في تلك الليلة الاخيرة من سنة ١٩٧٩ ، فتساءل ابو فتحية وهو يفترش بارتياح وسادة وثيرة قرب المدفئة النفطية ويستند بظهره الى الحائط :

ـ سبحان الله ، ماشاء الله . ماذا سنفعل بعد ذلك ياأستاذ توفيق ؟

كان الطعام موزعاً في صحون صغيرة كثيرة على المائدة ، وقناني البيرة موضوعة تحتها قرب مجلس توفيق لام .

ـ ياأبا فتحية ، يرحم الله والديك الف رحمة في هذه الليلة ، ذكرتني بأن علي ان اشرح لكم بأن السيد المسيح عيسى بن مريم ، قد ولد قبل اسبوع من يومنا هذا في بيت لحم بفلسطين منذ ١٩٧٩ سنة ، الا ان الوقت لم يتوفر له ليحتفل بعيد ميلاده وبالسنة الجديدة ، لذلك فإن اخواننا المسيحيين في كل مكان اعتادوا أن يفرحوا ، كل سنة ، بعيد ميلاد المسيح

وبالسنة الجديدة ، فيجتمعوا ويشربو ويأكلوا حتى منتصف الليل ، حين تطفأ الأنوار فيأخذون بتبادل التهاني ويقبل بعضهم بعضابهذه المناسبة ، ونحن سنفعل مثلهم لاننا كمسلمين نعترف بدينهم .

ـ هم من اهل الكتاب .

ـ احسنت ياابا فتحية ، هم من اهل الكتاب ، وعلينا ، مثلهم ، أن نأكل ونشرب ونفرح .

ـ الآن وهنا ؟

ـ نعم ، كما يقول اصحاب العلم .

ـ ماذا ننتظر ، أستاذ توفيق ؟

وبدأ الاحتفال ، مبكراً بعض الشيء ، بلقيمات اخذ اعضاء الجماعة يلتقطونها بحذر اول الامر ويضعونها بثقة في افواههم . كانت فتحية ،الى جانب توفيق ، جالسة بصمت تراقب مايعرض على شاشة التلفزيون وحسن قربها يتلملم على نفسه ، مسحورا هو الآخر بتلك الصور الملونة ؛ اماوالدا فتحية فقد ارتكنا على الجدار ملتصقين ببعضهما . ولم يلبث توفيق الا وقتا قصيرا حتى تذكر قناني البيرة الرابضة تحت قدميه ، تنتظر دورها في بعث البهجة بنفوسهم ؛ وخطر له بأن من المستحسن ممارسة الشراب بحذر ويقظة مع اناس لايرتبطون بتقاليده ولم يجربوه كثيرا ؛ فطلب من حسن ان يجلب مافي المطبخ من اقداح صغيرة وكبيرة .

كانت فتحية ساكنة على غير عادتها ، تندس به بشكل غير منظور وتدفيء جنبه ، وكان يحس بالضغط اللين لنهدها الأيسر على صدره . فتح قنينتي بيرة ووزعها على الكؤوس بنسب غير عادلة طالبا من الجميع ان يشربوا عند العطش وبعد الأكل وليس قبله ؛ ذلك ان التلاعب في هذا الترتيب يؤدي الى قلب معادلة الوجود الغذائي في الانسان ؛ وهو مايجر بالتالي الى امور مستهجنة وضارة .

كانوا ، في التلفزيون ، يرقصون ويدورون حول انفسهم ويغنون ،

فاقترح توفيق ان يطفئوا انوار الغرفة منذ الآن ليرتاحوا ، فقام حسن على الفور واطفأها . شعت اضواء التلفزيون على وجوه الجالسين بشكل مربك للنظر . كانت فتحية قد اتت على كأسها وصارت تحث توفيق على فتح قنينة اخرى بالسر ؛ اما والدها فقد ابقى على نصف قدحه الصغير مليئاً ، متظاهراً بالترفع ، بعد ان اخذ قدح زوجته عنوة وشربه بسرعة . وفي هنيهات من الزمان ؛ وإثر ان عب توفيق وفتحية القدح الثاني وزادت من التصاق فخذها على فخذه ، وتبدى له وجهها الفتي الساحر وهي تبتسم له في الظلام الملون ؛ تملكته موجة من حبور صاخب ، تصاعدت متلاطمة من خفايا نفسه القديمة وهزته وهزته . ثم ترافقت في مرورها على قلبه ، صور سعاداته الماضية كلها مع قوس قزح نسائه العزيزات المحبات ، ووجودهن الأنثوي الرائع في حياته ؛ وارتسم ، بعد ذلك ، في اثير الغرفة المتموج ، على صعيد الاضواء المتلاعبة ، وجه تلك التي قطعت هناء ايامه معها وودعته في غفلة منه ، والتي مازال يستعصي عليه ان يحسم امره معها . «اهرب من قلبي أروح على فين ، ليالينا الحلوة في كل مكان» كان الصوت رقيقاً ، حنوناً ، صافياً ؛ تختلط فيه النعومة بالقوة وتهزه عاطفة خفية متفجرة ؛ وكان حسن ، في غنائه ، يشير بذراعيه طربا ويبدو ، في زاويته ، كمن استفردبنفسه كليا واخذ يغني احزانه ولوعته . لم يدهشوا ولاترددوا . وارتفعت عقيرتهم يكملون مع الصبي المنتشي المقطع الجميل «مليناها حب احنا الاثنين ، وملينا الدنيا امل وحنان» .

غنوا ، اذن ، ليلتهم تلك وصفَقوا وضحكوا طويلا وشربوا واكلوا ، واقتصرت القبل على توفيق وفتحية ؛ تبادلاها في الظلام بعد انصراف الجميع . كانا ، مع ذلك ، متعبين ، فاكتفيا بالقبل والتهاني واسرعا الى فراشيهما .

لم ينم توفيق رغم ثقل رأسه ومعدته . بقي مطروحا على السرير ، يحدق في السقف بعينين فارغتين . كان مذاق الدنيا فاترا في فمه ، بلا طعم

مثل الرماد ؛ وهاهو مرميا مرة اخرى في زاويته ، كأن لم يعش منذ أيام حلمه السعيد ، كأنه لم يغرق في آديله ، في وجودها الجسدي المرمري الدافىء ، بين ثناياها واطرافها البضة الناعمة ؛ كأنه لم يرها ، كأنها لم تره ، كأنهما لم يلتقيا ؛ وكأن كل هذا امر عادي مألوف ؛ ولهذا تراهم يذكرونك بأن ترتوي حتى الثمالة من سعادتك قبل ان تبتعد عنك . خذها كلها ، كلها ؛ ولكن... ماذا كان بمقدوره ان يعمل غير ان يعود مجرجراً اقدامه ، حاملاً هداياه البائسة على صدره ؟

لم يُترك له خيار ان يمتلك سعادته بالكامل ، ان يرتوي منها ؛ واحتفظت هي برأيها لنفسها في ان تمضي دون لمسة وداع أخيرة .

اكتشف في الايام الاخيرة من شهر كانون الثاني ١٩٨٠بأنه مفلس حقيقة ومجازا وان عليه ، اراد ام لم يرد ، ان يبدأ التراكض من هنا الى هناك ليدبر مايضيفه الى راتبه التقاعدي ويقيت نفسه ويحفظ كرامته ؛ والكرامة هذه ،مسألة شائكة حين تتدخل في قضية كسب الرزق ؛ فمع صون الكرامة ، هذه الأيام ، ينخفض الكسب الحلال ، والعكس ، لسوء الحظ ربما ، لايأتي بالعكس ، مما يعني ، آخر الأمر ، ان المسألة شائكة . كان جالساً ، ذلك الصباح ، في مقهى حمزة يشرب شايه ويتمتع بالتردد الذي يساوره في تحديد الوجهة الأحسن التي يجب ان يبدأ بدايته الجديدة منها . يقابل أخاه عبد الباري مثلاً ، كأنه لم يشتمه ووالدته منذزمن ، ويصر عليه ان يجد له عملاً ما في أي مكان أو لنقل أن زوجة عبد الباري هي الأصلح ليبدأ المقابلة بها ؛ فهي لم تسمع شتائمه أولاً ــ مفترضا ان عبد الباري نقلها اليها بشكل سيء وغير حي ، كما هومتوقع ــ وهي ثانياً القادرة المقتدرة ، خليفة امه دون منازع ؛ فاذا قالت لاخيه... شغله ، فقد اشتغل ، وإلا فلا . ام ان البداية الاجدى تكون من خانقين ؟ يذهب ، على سبيل المثال ، الى كاسب او حتى الى ذاك المحامي الشاذ ممتاز ، يستوضح منه حقيقة طبيعته الاجرامية وهل حقاً مايقال عنه ؟ أم لعل أنوار هي الملجأ والملاذ الأخير . وما ألذها من ملاذ!

كان المقهى دافئاً ، أقل ضجيجا من المعتاد ، فالبرد شديد والسماء ملبدة بالغيوم . هذا يوم يصح فيه الإخلاد إلى الفراش مع أنثى جميلة مشتهاة . ياللرجل ، هذا الذكر المسكين ، كم يشقيه عضو ذكورته دون ان يعرف سبباً لذلك الشقاء!

لم يستعد قواه تماما بعد اسبوعه الذهبي مع آديل . كان ، قبلها ، قد جمدت عروقه ، وصار ينفر او يكاد من فتحية ومن كل نساء العالم . تملكه زهد اجباري بعد ذلك الاعتداء عليه ؛ لم يضربوه في موضعه الحساس ، ولكنهم دسوا له السم في احشاء رجولته ، وجعلوه يفقد ذائقة الحياة ونكهة المرأة ومتعة المضاجعة والحب ؛ ولم يدرك انه كان في تلك الحال السيئة حتى بزغت امامه آديل ، فمسحت بسحرها على صدره وقلبه وكبده وعقله ، فبرأ وعاد يحيا كما كان . عند ذاك عرف كم كان مواته فظيعا وقبيحا .

انهمر المطر على حين غرة ، فتراكض الناس يحتمون منه وابطأت السيارات . كان المقهى مغلقا بواجهاته الزجاجية القذرة ، والجالسون يقبعون على تخوت الخشب ، ملتفين بعباءاتهم أو معاطفهم ، والجو يملؤه دخان السجائر كالعادة . رآه يتجه نحو مدخل المقهى وهو ينفض قطرات المطر عن بزته العسكرية وعن شعره ؛ وراقبه يدخل ويجلس خلفه على مبعدة دون ان ينتبه اليه . استدار اليه بعد لحظات فوجده جالسا يدير بصره مفتشاعن عامل المقهى . حياه :

- صباح الخير - غسان ، كيف الصحة ؟

التفت هذا اليه ؛ ومرت هنيهة لم يعرفه فيها ؛ ثم قفز من مكانه واقبل نحو توفيق لام بحيوية وود كبيرين .

- صباح الخير عمو توفيق . أوه... اعذرني ، لم اعرفك . كيف الحال ؟

اية مصادفة جميلة ؛ لم اعرفك والله ، وانا دائم السؤال عنك .

كان وجهه ، الشاحب قليلاً ، مستضيئاً بفرح تلقائي غير مسيطر عليه ؛ ورغم خشونة بدلته العسكرية ، فقد تجلت عليه ، بشكل غامض . مظاهر

السعة في العيش . جلسا يتحدثان كصديقين متقاربين في السن التقيا بعد فراق طويل . سأله عن والده وعن السيدة سندس وعن اخواته ، فأجابه بأنهم كلهم بخير ولايشكون شيئاً ، وان احدى اختيه دخلت الجامعة بينما ستكمل الثانية المرحلة الثانوية هذه السنة ؛ ثم رفع قدح الشاي بصمت الى فمه ، واردف دون ان ينظر الى توفيق :

ـ والدتي توفيت قبل حوالي السنة . لاأظنك سمعت بهذا . في حادث سيارة على طريق الرمادي .

دهش توفيق لآن احداً ، في الواقع ، لم يخبره ، وعزاه مبديا له حزنه لانه لم يسمع بالحادث في وقته ، ثم سأله هل عملوا لها فاتحة ؟

فهز غسان رأسه بالنفي . ران عليهما سكون ثقيل .

ـ سمعت عن كل ماجرى لك عمو توفيق ، واردت ان اراك وان احدثك . وعندما... عندما جرى الحادث للوالدة وطلبوني في المستشفى الذي ترقد فيه ، اردت... وددت لو أتيت معي الى المستشفى .

كانت امه مع زوجها الثاني حين وقع لهما حادث تصادم عنيف وهما في طريق عودتهما الى بغداد من خارج العراق . توفي الزوج حالاً ، وبقيت هي بعده اسبوعا معلقة بين الحياة والموت ، في مستشفى مدينة الطب . ذهب غسان لزيارتها عدة مرات ، مع والده والعائلة اول مرة وبمفرده بعد ذلك . لم تكن تلك المرأة المسجاة هناك غريبة عنه ولاهي قريبة منه . استعادت رشدها مرة او مرتين ، ضغطت على يده حين فتحت عينيها ورأته ؛ وكان ذلك هو كل رسالتها اليه .

ـ ماذا تعمل هذه الايام ، عمو توفيق ؟

ـ اعمال حرة . غير منتظمة .

ـ المعذرة ، ارى انك تغيرت ، هل نحفت قليلاً ؟

ـ بعض الشيء ؛ وكما تعلم فإن الناس حولي يسمنون يوما بعد يوم ، فيبدو الفارق على وجهي .

ـ سمعت من والدي ان عمو عبد الباري مريض منذ اسبوع او اكثر ، ولاأدري ان كان مايزال مريضا ام لا .

ـ قبل اسبوع ، قلت ؟

ـ حوالي ذلك .

ـ لم اسمع بهذا ، ولابد لي من زيارته .

ـ نعم ، بالطبع . تعال معي ، سأوصلك ، فأنا عائد للبيت . هل تسكن في هذه المنطقة ؟

ـ هناك ، في تلك الجهة الاخرى من الشارع ، فوق اسواق الافراح . اعتقد اني سأرافقك في عودتك الى البيت .

نظر غسان الى ساعة يده :

ـ هل يمكن ان تنتظر معي بعض الوقت ؟ سينتهي تصليح السيارة بعد ربع ساعة .

ـ طبعا ، وسنشرب قدحا آخر من الشاي . اسمع ، انت تخرجت من الجامعة ؟

ـ آه ، نعم ، في السنة الماضية ورغم الاحداث المحزنة .

ـ مبروك ، الف مبروك .

ـ شكراً ، شكراً .

ـ وكم ستخدم في الجندية ؟

ـ لااعرف بالضبط ، ولكن ، لاأظن المدة تطول .

ثم قاما حين لاحظا انقطاع المطر ، فسارا باتجاه مجمع الكراجات .

لم يذهل توفيق عن تغير حال صديقه المادية الى الاحسن ، وجلس بصمت جواره في سيارة المارسيدس ، يداور افكارا لتفسير هذه الظاهرة . خطر له ان والد غسان قد انجز ، ربما ، معرضا ناجحا ، او انه كلف من قبل الدولة برسم لوحات بأثمان عالية ، فسعت اليه الثروة بأقصر طريق ، فاشترى هذه المركبة الغالية . ربما ، ربما ؛ والشاب يبدو مترفاً متأنقاً سعيداً ، يقود السيارة بثقة تبعث على الاعجاب ، كأنه مالكها!

سأله عما يخطط ان يعمل بعد ان تنتهي فترة خدمته العسكرية :

ـ لاادري . لم افكر بالامر...

بدون اكتراث مطلق ، كأنها مسألة ثانوية او اقل من ذلك . اوصله غسان الى بيت اخيه ورجاه ، بعد ان اعطاه رقم تلفونهم ، ان يزورهم في دار والده ، فشكره توفيق وشعر حين اندفعت السيارة مبتعدة عنه ان هنالك من الامور المختلطة مايجب ان يستوضحها من والد غسان .

ادخله ابن اخيه عبد المولى الى المنزل مرحبا وسار به في الحال الى غرفة ابيه . وجد اخاه عبد الباري راقداًعلى فراش مرض ذي مظهر خطير ؛ فقد فاجأته نوبة آلام حادة في جنبه الأيمن قبل اسبوع ، لم تدع له ان ينام ليلتين . اوصى الطبيب ، الذي اعطاه بعض المهدئات ، بأن تجرى له فحوصات شعاعية بأسرع وقت ممكن وحالما يستطيع الوقوف على قدميه .

بدا عبد الباري غائر العينين ، شاحباً ، ولحيته الطويلة مليئة بالشعر الابيض . سأله توفيق عما به حقاً فهز عبد الباري رأسه بلا مبالاة واجابه بأنه لايدري ولعلها المرارة أو شيء آخر أسوأ . كان الموقف بينهما يزداد ثقلا لغير سبب ، وعندما عرض توفيق مساعدته في اي شأن من الشؤون ، حرك عبد الباري ذراعه حركة غريبة . لاتدل على النفي فحسب بل على طلب الابتعاد ايضا . تملكه حينذاك احساس مؤلم بالتقزز ، وانتبه الى عدم توجه احد من اهل البيت للسلام عليه . لاح له كأنه غرق في مستنقع آسن الى مافوق رأسه ، وان العالم حوله ، بناسه ورائحته ، يسعى لخنقه والقضاء عليه ؛ وخطر له ، بحزن ، انه لم يهنأ بأي سلام او تفاهم مع اقرب الاقرباء إليه ، حتى حينما تتقطع بهم سبل العافية .

قام بهدوء من جوار اخيه المريض الذي يرفض مواساته وسلم بصوت خافت ثم خرج .

لم يودعه احد ، وعاد المطر ينزل خفيفا فأسرع في خطوه .

جلس في مقهى صغير مطل على شارع المنصور العام . كان جائعا فقد جاوزت الساعة الواحدة والربع ؛ وكان متألما ألمين .

استعاد في ذهنه ، وهو يحرك الملعقة في قدح الشاي الداكن ، بأنه خلال اشهر قليلة . جرى رفعه الي مستوى سام من الاستقرار المادي والزهو النفسي والتفتح ، ثم عولج بضربة وحشية انزلته اسفل قعر من صدمات الروح والعاطفة ؛ كأنه نصب عدواً للبشر دون علمه ، فاستحق التنكيل والانتقام .

عاد الى حي العامل فلم يجد طعاما يؤكل واخبرته ام فتحية بأن هذه خرجت لقضاء معاملة تخصها ولم تعد حتى الآن ، وأنها لم تكن تملك اي شيء تطبخه ، فأكلت خبزاً وبيضة مسلوقة . كان لديه مايكفي ليتغدى في المطعم القريب ، غير ان مشاعر مختلطة من التقزز وعدم المبالاة والحزن تملكته ورمت به على الفراش في غرفته الباردة . لم يكن متعباً ؛ الا انه ، مع ذلك ، استغرق بعد قليل في نوم مضطرب .

ايقظته فتحية وهي تكلمه وتحاول ان تغطيه باللحاف ، فقام شاعراً بالبرد وسألها اين كانت .جلست على الصندوق امامه واضعة يديها بين فخذيها :

ـ اولئك الانجاس ، اولاد زوجي ، اقاموا علي دعوى ، لا بل دعويين ، واحدة للمطالبة بدين علي والثانية لاني قتلت اباهم! هل ترى كم تبلغ الوقاحة بالناس احيانا ؟ ولكن ، قل لي بربك ، اهؤلاء بشر ، بشر يستحون ويحترمون حقوق الغير وحقوق الله ؟

ـ واين كنت ؟

ـ ذهبت مع والدي لتوكيل محام ؛ ماذا اعمل ؟

ـ هل بلغتك المحكمة بالأوراق ؟

ـ نعم ، تعال اقرأها ، انها معي . كومة كبيرة من الخراء تليق بأولئك الارذال .

ـ انا جائع .

ـ وانا ايضاً ؛ سأهيء لنا مانأكله بسرعة . قم بالله وارم هذه السحنة الجهمة جانباً .

أنسته لغة الدعويين وفحواهما شجى ذاته ، وزادت في تقززه . كانوا يطالبون فتحية بعدة آلاف من الدنانير ، لانها استغلت خلال السنوات الماضية ميراث ابيهم دون علمهم ودون ان تدفع لهم حصتهم من الأرباح . اراد ان يقوم ويرمي نفسه على الارض ضاحكاً ، لكن قواه لم تطاوعه . استغرب ان تصل البلادة ببعضهم حد ان يكتب مثل هذا الهذيان وان يدفع رسوما للمحكمة لقاء دعوى لاتقوم على اي اساس قانوني مهما يكن تافها . اخبر فتحية برأيه فاجابته بان هذا هو رأي المحامي الذي وكلته ايضاً .

كانت جذابة بحيويتها وانوثتها وصورتها الخاصة جداً وبهذا الاصرار والاندفاع في حركاتها وصوتها . ابتسم في وجهها بتعب ، فأمالت رأسها تداعبه وكورت شفتيها ثم تطلعت الى باب غرفتها ، فلما لم تجد احدا قربت وجهها منه وقبلته في فمه . احس بشفتيها الحارتين تبثان الدفء في عروقه . الا انه دفء مؤقت ، سرعان مايفارقه اذ يعود الى جحره فتتكالب عليه مشاعر مظلمة وافكار أشد ظلاما . كان يقضي لياليه منعزلا ، لايشجع احدا على الجلوس اليه ومحادثته ؛غارقاً في حال من الراحة تواتيه من الاستسلام لافكاره ومشاعره السوداء تلك ، فقد كانت مثل مخدر ، تزين له الاخلاد الى رفاهية اللاعمل ، لأن اللاجدوى هي النتيجة الحتمية لكل شيء .

وفي ليلة باردة من اواخر شهر كانون الثاني ١٩٨٠ ، كان البرد فيها ينخر عظامه ، سيطرت عليه ذكرى حادث الاعتداء عليه واثارته . لم يحب ان يعاود معايشة ذلك الكابوس ، لكن الصور اللعينة سيطرت عليه ، فأخذ يفتش عن معنى ماجرى وكيفية تفسيره وعلاقة هذا المحامي المجنون به . عزم ان يزور خانقين ، من اجل التحدي فقط ؛ من اجل ان يكشف عن جبنهم .

قام يتمشى في المساحة الجرداء الصغيرة ، وهو يضع اللحاف على ظهره . كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، والسكون لايقطعه غير عواء الكلاب الموحش . حتى اكبر الطغاة ، يتملكه الرعب ويهتز اذ يجد طفلا اعزل او شيخا عاجزاً ، يقف امامه بكل طيبة البشر ونقائهم ، ويرفع في

وجهه اصبعا ، ثابتا او مرتجفا ، يشير اليه بأنه قاتل ومجرم وسيلقي جزاءه ان عاجلا ام اجلا... فلنطمئن اذن ، فالطاغية سيهتز هلعاً ولكن ، هل سيمنعه هلعه المؤقت هذا من القضاء على الطفل الاعزل او الشيخ العاجز ومن الاستمرار في هوايته التي صنعت منه طاغية ؟

كان توفيق لام يذرع حجرته بخطوات سريعة وبحيوية بعثتها فيه افكاره عن الطغاة ، حين خيل اليه انه يسمع ضجة مكتومة في مكان ما حوله او في الجوار . فتح الباب بتردد فاندفع الهواء الصقيعي يخدش وجهه . كان هنالك من يطرق بالحاح على باب الشقة داخل السوق . خرج ملتفا بغطائه إلسميك ووقف في فتحة السلم . كان الجميع نياماً ، سمع خشخشة وهمسا . فنادى يسأل من هناك . كان مستغرباً ان يستطيع شخص دخول الأسواق وبابها ، حسب علمه ، يغلق ليلاً . جاءه صوت حسن خافتا متقطعا يتوسل اليه ان يفتح له فهناك من يتعقبه .

اضاء السلم ونزل الدرجات بحذر . أعاد السؤال عمن يكون هناك فرد عليه حسن مرة اخرى بصوت واهن بانه حسن وانه بمفرده .

وجده مرتميا قرب الدرجة الاخيرة ، ممسكا بساقه اليسرى ويده ملطخة ببقعة حمراء من دمائه . ساعده على الصعود واغلق الباب خلفه . كان الصبي المذعور مصابا بجرح غير عميق من آلة جارحة او من طلق ناري . ادخله غرفته واجلسه قرب الصندوق ثم اخذ يفحص الجرح ؛ اطمأن اذ لم يجده عميقا وذهب الى المطبخ يفوّر ماء ويحضر القطن والمعقم . كان حسن يتكوم في مكانه دون حركة ، شاداً على مكان الجرح وعيناه السوداوان الواسعتان تحكيان قصة خوفه وارتياعه .

خطر لتوفيق ان يوقظ فتحية لعلها تساعده في تضميد الجرح ولكيلا تفاجأ بالحادث في الصباح . طرق بابها عدة مرات فلم تجب فدفعه فوجده مغلقاً . عاد ليحمل الماء والقطن والمعقم الى غرفته . لم يسأل حسناً عما فعله فأدى به الى هذه الحال ، فهو يعلم انه مخلوق مشوه لايقدر على النطق

بكلام صادق... داواه كما يستطيع ؛ ولفت انتباهه ان الصبي لم يئن ولابدرت منه نأمه الم ، رغم مايحدثه المعقم من حرق للجرح .

ثم لاحظ انه شاحب الوجه جدا ومنهك ، فسأله هل ركض طويلاً ؟

لبث الصبي ينظر اليه صامتا كأنه لايفهم مايقال له . كرر عليه السؤال ، فاستند برأسه على حافة الصندوق واغمض عينيه . وجد توفيق حينذاك بان من الضروري ان يحاول ايقاظ فتحية . نجح هذه المرة . ظنته يريد ان ينام معها ، فعادت تغلق الباب بليونة .

عملا على تدفئة الصبي ، فقد كان يرتجف بعنف ، ثم حضرت فتحية له قدحاً من الشاي فشربه وأكل قطعة خبز فهوى رأسه وغفا في ركن من غرفة توفيق رتبته له بسرعة . كانت متضايقة ، مقطبة الجبين .

ـ لااحب هذه الشاكلة من الناس ؛ اخاف منهم واخشى ان يورطني مع الشرطة ؛ انه مصاب بطلق ناري اخطأه لحسن حظه ، ولابد انه طورد لمدة طويلة ونزف دما كثيراً . الم تر لون وجهه ؟

اتفقا الا يبقياه عندهم غدا الا وقتا قصيرا ؛ لكنه تسلل قبل ان يفتحوا عيونهم ، وهرب كعادته بعد ان سرق بيضتين وقطعة جبن وخبزة .

ـ لاتصنع المعروف في غير اهله .

بقي ابو فتحية يردد المثل وهو يستعد للذهاب الى عمله ؛ ولما استوضح منه توفيق كيف يمكن ان نعرف اهل المعروف هؤلاء مقدما ، صدم واعتبر السؤال استهزاء به :

ـ الله اعلم ، الله اعلم .

كانت فتحية على حق في تضايقها وتشاؤمها ، فقد جاء افراد من الشرطة بعد يومين يسألون عمن آوى الصبي الهارب واطعمه وداواه ، واستغرب اصحاب الدكاكين الذين تعرضوا للاستجواب ، واكدوا للشرطة بأن ليس في امكان احد ، حتى الشيطان حسن ، ان يدخل الاسواق بعد غروب الشمس . لم يقتنع ممثلو السلطة بتلك الافتراضات ، وبينوا للسيدة فتحية

صاحبة الاسواق بأن هنالك خمسة اوامر قبض صادرة بحق المدعو حسن مجهول اسم الاب ، وانه مطلوب في جرائم سرقة متعددة ويجب بذل الجهود للقبض عليه . طمأنت السيدة فتحية افراد الشرطة باستعدادها للتعاون معهم للقبض على المدعو حسن مجهول اسم الاب حالما يبدو له أثر في الاسواق ، وبرهنت لهم على هذا الاستعدادا بما دسته ، خفية ، من نقود في يد العريف ، فمضوا ، بعد تلكؤ ، سعداء بما حققوا .

في الاسبوع الثاني من شباط ١٩٨٠ ، خطر لتوفيق لام ، بعد ان استيقظ وحلق وافطر ، ان يتصل بكاسب تلفونيا . كان الجو جميلا ، صحوا مع شمس ضاحكة ؛ فنزل الى شارع الرشيد وقصد دائرة البريدالمركزي . جاءه احد العمال الذين يعرفهم فسلم عليه وطلب ان يكلم كاسباً ؛ بدا الاضطراب في صوت العامل واخبره بأنه مسافر منذ عدة ايام الى الشمال . توجس امرا غير طبيعي فرجا العامل ان ينادي بكر آغا ليكلمه .

تملكه قلق واضطراب على حين غرة . جاءه بكر آغا وصار يتحدث بصوت عال يكاد يشق طبلة الاذن... اخبره بان زوجة كاسب ام توفيق قد سافرت الى اهلها ، منذ مدة ، دون علم زوجها واخذت معها طفلهما والاشياء التي تخصها ، وان كاسب سافر ليعود بها من اهلها في الشمال وان الله مع الصابرين . استوضح منه توفيق عن جلية الامر فلم يزد شيئا وارتفع صراخه اكثر وهو يكرر حكايته .

خرج من دائرة البريد منزعجاً ، تتملكه الشكوك والأفكار المتضاربة . كيف يمكن لاحد ان يتوقع هذا الحوادث اللامنطقية ، ام انها امور يتحكم بها منطق سري غير منظور ؟ ولِمَ يصرّ بكر اغا على اعتبار سفر انوار الى اهلها كأنها حكاية هروب من الجحيم ؟ لعله يملك من المعلومات ، نصف الموثوقة كالعادة ، مايشير الى ان تلك المرأة الجميلة المعذبة قد اختارت طريق الخلاص الصعب هذا ، رغما عنها وضد ارادتها... من يدري ، ولعله هو ،

توفيق لام ، الذي لم ينل منها وطره ، كان احد اسباب مأساتها مع ذلك . تخيلها ، تلك المرة حين كانت تغني بصوت انثوي مليء بالحسرات والرغبات الجامحة ، « ياللي هواك شاغل بالي » وفستانها الازرق السماوي ينسدل على جسمها فيبرز علو نهديها واستدارة بطنها وهي تقف ناظرة اليه بعينين سوداوين ضاحكتين وتبتسم بخجل وتردد :

ـ لاأريد هذا ، ارجوك . لااريد هذا .

كانت مشوقة اليه ؛ تخاف ،في نفس الوقت ، من هذا الشوق الذي قد يدفع بها الى احضانه ؛ ولكنها ، لم تستطع الا ان تعلن له انها تميل اليه وتحب ان تقبله وان يقبلها ؛ وكان هناك من يراقب كل هذا ، ومن يحصي عليهما الحركات ومن يتلظى بنار غيرة مستعرة مخفية بأحكام .

ولم تستطع المقاومة ولا الصبر الى النهاية ، ففضلت الهزيمة مع الشرف ، على البقاء مع العار الذي يحيطها ويضغط عليها . ولكن من بمقدوره ان يثبت كل هذه النظريات والافتراضات ؟

اواخر شباط ، حين بدأت نفثات ربيعية تسري مع النسائم ، داخل توفيق لام احساس مرير بأن آديل لن تكتب له هذه المرة ، وان العالم سيخلو عن قريب من كل مايمت للسعادة بصلة . كان بمفرده ضحى في متنزه الزوراء ، محاطا بالاشجار العالية ، والهواء نديا طري الرائحة . لم يدر لماذا احب ذلك الصباح ان يأتي الى هذا المكان .كلا ،انها لن تكتب له ، لن تعيد صلتها به . في أول ليلة معها ، قبل شهرين ، كان خجلاً ، غير مصدق . يالبؤسه! وادركت هي ذلك..اطفأت النور وجلست قربه على السرير . كانا عاريين ؛ حين نظر اليها عن قرب ، في الظلام الشفاف ، ورأى بغموض عينيها ولون جسمها الوردي ، ازداد انكماشا . لم يفارقه ذلك الخاطر اللعين بأنها تشفق عليه . سحبته برفق إليها وشدته الى جسدها الملتهب ؛ ضمت وجهه الى مابين نهديها وابقته هناك مغمض العينين . آنذاك فقط ، سكران بعطر بشرتها ورائحتها وبدفء وجودها هي ، هي آديله العزيزة ، سالت

الدموع خفيفة من عينيه وانفتح قلبه . احس بها ، بعد ثوان ، تقبله في رأسه وتضمه اليها . سرى في عروقه ، مع انبثاق الدموع ، شعور فذ من الطمأنينة المطلقة فاحتضنها بذراعيه المرتجفتين ، زالت وحشته وبرودة فؤاده فقبل حافة نهدها البض ورفع وجهه اليها . كانت تبتسم له في الظلام ، وبعض خصلات من شعرها الذهبي تلامس جبهته . مالت عليه بهدوء ووضعت فمها فوق فمه ، ثم احس بلسانها يداعب شفتيه . انتقلا الى عالم آخر ملؤه الحنان والموسيقى ودفء الحب والفناء في الآخر . تلك الليلة رجعت اليه حبيبته ورجعت اليه الحياة بزينتها وحلاوتها التي لامثيل لها ؛ وكان اتصال جسديهما جميلا بلا حدود ، عذبا ، الهياً ، صافياً . اخذها واخذته ، ولم ينل منهما التعب ولاقلّ نهم احدهما للآخر . واستيقظ قبلها ، شاعراً بثقة الرجولة الغريبة في عودتها سريعا اليه . بقي يتأملها غارقة في نوم هني ؛ ملامح وجهها الجميلة واستدارة كتفيها والشعر الخفيف تحت الابط . لايزال يتذكر تلك الدقائق السحرية التي مرت عليه يتملى من هذا التكوين الرائع . كانت شفتاها المنفرجتان ممتلئتين مقوستين ،وفوقهما زغب اشقر لايبين الا بصعوبة . انتبه الى الانف الرقيق المصبوب باستقامة والى اهداب العينين المسبلة الطويلة السوداء . تملكه ذهول طفولي . سحب الغطاء عن صدرها ففتحت عينها العسليتين ولبثت ، هنيهات ، تتطلع الى السقف بثبات ؛ ثم التفتت اليه .

خلال الأيام القلائل التي قضياها معاً ، كان يحس بنفسه مملوكاً ومالكاً لها ، لهذه المرأة التي منحته ، طوال عمره ، سعادة عظمى لغير سبب مفهوم تماما ؛ وكان يجهد لتبين معنى مايحدث له ، دون جدوى . خرج من المنتزه يتمشى على غير هدى نحو الباب الشرقي .كان خاليا من المشاريع ، مايزال على حيرته في تدبير امور معاشه ، مدركا ، عن يقين ، بإفلاسه القادم ، غير عالم كيف يهتم بنفسه . لاحظ انه ، بعد آديل ، لم يعد قادرا على الاقتراب من فتحية او على اشتهائها . انقلبت صفحته هذه معها دون ان يريد ؛

واستغرب ما يروى عمن يعاشر امرأتين في وقت واحد ؛ تلك عملية لايمكن وصفها بالرقي .

عبر جسر التحرير وأحب ان يزور ثانية تلك المكتبة التي التقى فيها بآديل . انعشته مرة اخرى ،رؤية الكتب المصفوفة في كل مكان ، تملأ الجدران والارض ، وللجو رائحة خاصة لايخطؤها الانف . كان واقفا في هذه البقعة ، متوجها بنظره نحو الرفوف التي تحوي مؤلفات في التاريخ والعلوم الانسانية . ثم تناول الترجمةالعربية لرواية « موبي ديك » وتلبث يتصفحها هكذا . كان قلبه يخفق ببعض السرعة ، منتظراً ، من الخلاء الكوني الشاسع ، صوتا أليفاً لن يرجع صداه ابداً . لكنه ، تلك المرة ، سمعها ، تتراقص انغام صوتها حوله ، فانتفض قلبه برعونة . آنذاك ، لم يستدر اليها في الحال ؛ انتظر ان يتيقن تماما بانه لايحلم ؛ كان ذلك امرا جوهرياً ؛ فلكم اختلطت احلامه بشبهات الواقع ففسد الاثنان! ثم التفت واثقاً ، سعيداً ،يطير به الحبور ؛ وكانت هناك . غادر المكتبة منحني الظهر ، يتطلع الى موضع اقدامه بارتباك . لافائدة من العبث مع الماضي ، فالخسران مؤكدفي كل الاحوال . شيء مؤسف .

أحزنه ، وهو يقف متطلعا الى نصب الحرية الشامخ ، ان يتذكر انه لم يمسك كتابا بين يديه منذ امد طويل ؛ وان كتبه المرصوصة على الصندوق في غرفته ، طالما تراكم عليها التراب ، حتى يخطر لفتحية ان تفتح صندوقها الغريب ذاك ، فتنفض عنها الغبار متذمرة من اهماله .

عاود سيره ، على غير هدى . والموسيقى ايضا ، هجرها عن غير قصد ، وهي التي كانت تواسيه اكثر من اهله واقربائه ؛ لايجب ان يتذمر ، بعد الآن ، اذ تقلقه احداث الحياة وتخيفه ؛ فبم يتسلح ، روحياً ، الانسان المعتزل المسحوق ، ان لم يكن بانتاج اولئك الافراد المجهولين الافذاذ ذوي الحكمة ، الذين شيدوا هذه الاعمال كتابة وانغاماً ؟

ورد لخاطره صديقه عبد القادر . ذلك الذي فتح له ، صدفة ، طريق

القراءة ؛ اين وصلت به ياترى مشاريعه الكهربائية المشبوهة ؟ وماذا قد يعني ان ذلك المخلوق البشري كان يقتني كتبا ثم تحولت به الحال ، بسبب الكتب او بغيرها ، الى سارق ومرتش ؟

هذه مفارقة مفجعة ، لايمكنها ، على كل حال ، ان تمس من سمعة الكتب ، ولكنها بالتأكيد تسيء لسمعة الانسان ولعقله واخلاقياته . ثم تبادر لذهن توفيق ، حوالي منتصف النهار ، وهو يتهادى في شارع الرشيد ، ان يزور هذا الصديق القديم عبد القادر ليرى ماحل به . كانت البناية التي يشتغل فيها اكثر نظافة ، يجلس في مدخلها موظف للاستعلامات بشوش انيق المظهر . اراد ان يمر دون ان يكلمه فاعترضه الموظف البشوش سائلا منه عمن يريد ان يقابل وماهي غايته من المقابلة . شعر ببعض الحرج ، وازعجه ان يجد نفسه وجلا من هذا الموظف ذي الملابس الانيقة .

ذكر اسم صديقه وبين له بانها مقابلة شخصية للسلام فقط ؛ تجلى استنكار واضح على محيا الموظف وسأله :

ـ انت ؟ انت تريد مقابلة السيد المدير العام... للسلام عليه ؟

ـ سيدي الكريم ، تفضل بذكر اسمي له... توفيق لام .

تناول آلة الهاتف امامه وادار رقما ثم تكلم مع شخص يبدو انه السكرتير ، وانتظر لحظات . لمح توفيق مرآة الى جانبه ، فأبعد عينيه عن جهتها ؛ لاشيء يستحق عناء الرؤية . جرت مكالمة بين السكرتير وموظف الاستعلامات فطلب من توفيق ان يتكلم في الهاتف . تناول السماعة باستغراب فسمع صوت صديقه عبد القادر على الجانب الآخر من الخط يحييه ؛ اجابه واشتبكا في حديث سريع .

ـ اسمع توفيق ، والله تذكرتك قبل ايام ، اقول لك والله . جلبوا لي ترجمة « الحرب والسلام » كاملة ومجلدة ، فقلت هذه تليق بتوفيق ، واردت ان ارسلها اليك والله ، اقول لك والله .

ـ اخي عبد القادر ،انت لاعب بوكر محترم ، لماذا تحاول ان تخدعني بهذه الاوراق الضعيفة ؟

فأطلق الصديق القديم ضحكة عالية رنانة :

ـ توفيق ، تعال في وقت آخر ، لااستطيع ان اراك الآن ؛ لدي اجتماعان والله ، اقول لك والله ، اجتماعان . هل تريد الكتب ؟

اجابه بالايجاب . ركض موظف الاستعلامات بعد ان كلمه عبد القادر فدخل المصعد ثم عاد برزمة ملفوفة بعناية سلمها لتوفيق فتناولها وانصرف غير دار أيحزن من سوء تصرف صديقه القديم ام يفرح بما اهداه!

عاد الى حي العامل منهكا جائعا كالعادة ، فوجد آل فتحية على وشك البدء بالغداء . اخبره ابو فتحية بفم محشو بخليط التمن والمرق ، ان شخصا اتصل به تلفونيا على رقم الدائرة طالبا منه ان يخبر توفيق بان اخاه عبد الباري خضع لعملية جراحية في البطن بمستشفى الكرخ والمطلوب حضور توفيق .

ـ أين أحضر ؟

هز ابو فتحية رأسه بغباء :

ـ لاادري . لم افهم . نصف كلامه لم افهمه . كان الخط مشوشا .

اضطر توفيق ان يغض النظر عن القيلولة واخذ طريقه الى بيت اخيه ليستفسر عن جلية الامر . كانوا بحال معنوية عالية ، فقد خرج عبد الباري من المستشفى قبل يومين بعد ان نجحت عملية المرارة واستعاد صحته نسبيا . رحبت به ثريا هذه المرة وبقية افراد العائلة . وجد ابنة اخيه نجية مع ابنتها الجميلة عنبر ، فقبلها وسألها عن زوجها ، فتلعثمت قليلا واجابت انه في احسن حال ، ولم يحضر معها لان الاشغال تمنعه . بدا عليها ، اكثر من المرات السابقة ، القلق والاضطراب ؛ ووجدها تتحاشى مواجهته والكلام معه . كان اخوه شاحباً ، بادي النحول والتعب ، لكنه ظهر له بنفسية جيدة . استغرب ان يلاقي زوج كميلة جاسم الرمضاني جالسا في غرفة اخيه : كان

قد نسي ما حدثه عنه اخوه بان هذا الارمل رفض ان يترك المشتمل الذي سكنه وتزوج فيه وترمل . وعندما خرج جاسم من الغرفة ملبيا نداء احد افراد العائلة ، ذكره اخوه بما قاله له واضاف بأن جاسم ، منذ مدة ، قد صار ذراع وساق عائلة آل قصابي ، فهم لايستطيعون عمل شيء دون مساعدة « جاسمنا » هذا الذي يركض باستمرار من هنا الى هناك يقضي لهم حاجاتهم ومشاغلهم ويخدمهم دون تذمر ، حتى اخذ عميد آل قصابي يناديه ياابني... كان ذلك امرا طريفا حقا يدعو الى التأمل ثم زاد عبد الباري ببعض الانزعاج بأن هذا السيد يحضّر مشروب عمه مع المقتضيات الاخرى ويجلس معه للشراب والمنادمة . ابتسم توفيق اذ وجد الغيرة تطل من عيني اخيه وترتسم على ملامحه المتعبة... هنالك شيء مسل على الاقل في عالم الروتين هذا .

قام بعد اكثر من ساعة يريد الانصراف ؛ فتشبث عبد الباري بيده وتطلع اليه بعينين جاحظتين يغشاهما ود كبير :

ـ لاتقطع زياراتك ، توفيق . أنا ارتاح كثيرا لرؤيتك وتطمئن نفسي .

ابتسم له ابتسامة عريضة ، وضغط على اصابعه مؤكدا له أنه لن يهرب من الدنيا .

رأى عند تقدمه الى الباب الخارجي ، نجية تحمل عنبر بين ذراعيها فأشار اليها فأقبلت نحوه بتردد ، امسك بها ودخلا الى غرفة الاستقبال .

ـ ماذا بينك وبين زوجك يانجية ؟

ـ لاشيء ، عمو

حدق بعينيها فغضّت من بصرها :

ـ متى ستعودين اليه ؟

ـ لاادري .

ـ هل سيأتي لاصطحابك الى خانقين ؟

ـ كلا . لا اظن .

ـ لماذا لم يحضر لرؤية والدك ؟

ـ لديه... لديه اشغال

ـ اعرفها جيدا ؛ وانت تعرفينها ايضا . متى صار هكذا ؟ قولي لي يانجية فأنا عمك مثل والدك ؛ متى انقلب بهذا الشكل ؟

جلست بسكينة على الاريكة وضمت اليها ابنتها ، مخفية وجهها عنه . مكث ينتظر فوق رأسها ؛ كانت تعلم اشياء لايمكن التعبير عنها لاي انسان . سمعها تخفي بكاءها ، فشعر بأنه لايملك حق تعذيبها هكذا . مسح على شعرها بيده عدة مرات .

ـ بودي ان اساعدك يانجية ، فلقد مررت مثلك بمحنة من هذا النوع ولم يساعدني فيها احد ، فكان ثقلها علي لايطاق ، لايطاق .

ـ دعها وشأنها ياتوفيق ، فليس هذا وقت عرض المساعدة عليها .

كانت امها ثريا واقفة في عتبة الباب ، مكتفة الذراعين وعلى وجهها انطباع بالمرارة والخيبة والأسى :

ـ دعها وشأنها فقد رفضت قبلك مساعدة امها ؛ اتركها بسلام فكلنا نعرف ماجرى لها ـ ولك ، ولاادري الى متى سنلبث ساكتين . لابد لي من الذهاب الى خانقين وفضحه ، وسآخذ نجية معي . ابنتي نجية لن تعيش في خانقين ثانية مع ذلك المجرم الفاسق ساعة واحدة اخرى ؛ ولكن... اتركها الآن بسلام ودعها ترتح بعض الوقت بين اهلها وبين اناس طبيعيين .

ادرك توفيق بأن ماكان عنده ظنونا وشبهات ، هو لدي ثريا امور اكيدة بلا شك فيها . اراحه ذلك ورفع عن نفسه ثقلا لايدري له سبباً ؛ عاد يمرر راحته على رأس نجية وهو يأسى لها ويرثي للحال التي وصلتها فجأة . أمضه ، وهو في طريقه الي حي العامل ، ان يتذكر انه اوشك ان يفقد حياته بسبب غيرة عاشق مجنون فقد صوابه . امر لايصدق ! وقد جرى كل شيء ببرودة دم لاتجارى .

جاءته فتحية بعد العشاء حين كان يفتح رزمة الكتب ؛ وكانت متوترة الاعصاب متضايقة ، تخاف ان يلحق ابناء زوجها بها الأذى بشكل من الاشكال .

اخرج الاجزاء الاربعة المجلدة واخذ يتصفحها وقلبه يطفح بالفرح . إنها بالتأكيد الترجمة الحرفية لرواية تولستوي الكبرى (الحرب والسلام) التفت مبتسماً إلى فتحية .كانت تنظر إليه بدهشة ووجوم وانكسار :

ـ ألا تكفيك كتبك هذه ؟

ـ هذه رواية عظيمة لم يسبق لي أن قرأتها .ماذا بك أنت ؟

ـ ألم أحك لك ؟ أخاف من أولئك الجبناء أولاد زوجي وأنت لا تهتم بي ولا بكلامي ، كأنك صرت رجلاً آخرمنذ بعض الوقت .

وضع الكتب جانباً واقترب منها .كانت ، في ضجرها ،تبدو أكثر إغراء ، وشعرها الأسود تبرق عليه ألوان الحناء المائلة للأحمرار . رفعت إليه عينها الخضراوين المكحلتين وبللت شفتيها بلسانها . أمسك بكتفيها شاعراً بشهوة مفاجئة لهذه الفتاة الملول :

ـ أأضجرتك الوحدة ياطيري الجميل ؟

كانت جالسة ،كالعادة ،على صندوقها ، واضعة يديها بتراخٍ مابين فخذيها ؛ أنامت رأسها على وسطه ثم احتضنته بذراعيها .قبلها في قمة رأسها وألصق جسمه بجسمها .رفعت وجهها إليه فانحنى عليهاوقبلها قبلة خفيفة في فمها .

ـ أنتِ بحاجة لزوج ،وبأسرع وقت ممكن .

ـ لاتسخر مني ، ولكن هذه هي الحقيقة . حياتي فارغة رغم المشاكل .

ـ اذن ، نجد لك زوجا مناسباً .

ـ لاتسخر مني قلت لك ؛ انا متعبة وجسمي مهدود .

كان يشعر بنفسه متوتراً ، منحشرا بين ابطها ونهدها ، في منطقة دافئة ناعمة الملمس ، وكانت تحس هي ايضا بحركته وتوتره ، الا انها بقيت تتحدث بصوت خافت متجاهلة ماتحس :

ـ زواجي ، اذا حدث ووجدت زوجا مناسباً ، مشكلة كبيرة لي ولوالديّ . فهما ، اردت ام لم ارد ، مرتبطان بي وعلي ان ارعاهما للنهاية .

ـ وماذا في ذلك ؟ تعيشون كلكم سوية .

ـ تتكلم عن الاحلام!

ـ الم نعش كلنا سوية دون مشاكل ؟

ـ انت شيء آخر... خاص .

ـ دعينا نتزوج اذن .

ـ ياربي !قلت لك لاتسخر مني ، توفيق .

مال عليها مرة اخرى وتناول شفتيها الحارتين بفمه ، ثم اخذ يداعب نهدها ويمس جسمها من خلف قماش البيجاما ، ابعدت وجهها :

ـ لاتلعب معي هكذا ، فلا استطيع ان افعلها معك .

ـ تفرجي علي وانا افعلها معك .

ـ لااستطيع .

كانت متراخية تستند على جسمه كأنها مخدرة . رجعت له رغبته القديمة فيها وتأججت شهوته . انهضها وسحبها الى فراشه .

اخذت تمانع بضعف وتهمس بكلمات غير مفهومة . جلسا على السرير متحاضنين يتبادلان القبل والملامسات دون كلام . غطى نهدها الممتلىء بكفه وصار يعصره بخفة فسمعها تتنهد مرة اخرى . ترك فمها واخذ يقبلها في رقبتها واذنها وصدرها .

ـ لاتعملها معي ، توفيق... حبيبي .

ـ كلا ، لاتخافي ؛ هل تخافين مني ؟

ـ أغلق الباب جيداً .

ـ اغلقته .

ـ أغلقه جيداً .

قام يتأكد من اغلاق الباب ثم ازاح الستارة قليلا عن الشباك فارتمت قطعة من شعاع شاحب على جانب الصندوق . وجدها مستلقية على فراشه وقد غطت نفسها باللحاف ؛ فرفعه عنها واندس مرتميا جوارها . احتضنها وقبل خدها البارد ثم شفتيها ؛ احس بها ترتجف بشكل واضح .

ـ ماذا بك ؟ لاتخافي ، سننام كالأطفال .

لفت ذراعيها حوله والتصقت به ؛ تحسسها فوجدها قد رفعت فستانها إلى مافوق وسطها ، لكنها احتفظت بلباسها . داعب بخفة نهديها وبطنها ، ولما وصلت انامله منطقتها الحساسة بدأت تتنهد وتدخل لسانها في فمه وتهصره الى جسمها . كانت مشتعلة الجسد برغبة مكبوتة منذ زمن . نزع عنه ، وهو يعانقها ، سرواله فتماست بشرتاهما . كانت ناعمة ، حارة ، حريرية ،مال بنفسه عليها واعتلاها . ثم ادخله في ملتقى فخذيها الدافىء . تأوهت وهمست :

ـ لاتفعلها ، توفيق ، حبيبي ، لاتعملها بي .

مد ذراعه فأمسك بلباسها وسحبه الى الاسفل . فقومت من جذعها ورفعته لتسهل له العملية . دس راحته يتلمس موضع انوثتها فأطلقت أنة عالية وعصرت فخذيها . اخذ يداعبها برفق وبطء ؛ يمسح على الاشفار ثم يمتد الى باطن فخذيها والى الموضع الملتهب فترتفع اناتها بتوجع لذيذ . كان رغم هوس الجنس واضطراب ذهنه ، يفكر باستقامة في الامور الواقعية المحيطة بهما . ان يفعل بها ، كما تقول ، فعلا كاملا ، يعني ان يبقى بعد ذلك ينتظر نتائج هذا الفعل بكل قلق الدنيا ؛ اذ لاشيء يمنع المهزلة ان تحدث... فتحمل منه! كانت تتلوى تحته وتغمغم بصوت خفيض وهو يلامسها بين الأشفار ببطء ويوحي لنفسه الا يسرع والا يدخلها والايقذف .

كان لهاثها تعبيرا عن اشتعال داخلي مجنون ؛ وكانت تتشبث بجسمه وتقبله في فمه وتمتص شفتيه كأنها غريقة تتمسك بمنقذها . لم يشارك انثى حمى الجنس هكذا منذ زمن ؛ حتى مع آديل ، كان الجماع معها رقصة هادئة مضبوطة الايقاع ، ترتفع وتيرتها في الوقت المناسب حتى تصل القمة الرائعة . اما مثل هذا الجحيم الذي انفتح عليه بغتة... فلا! شعر بها تفتح فخذيها على سعتهما وترفع وسطها نحوه . كانت مبللة ؛ ورغم ضيقها النسبي فقد اندفع منسابا فيها دون ان يريد ذلك ، فسحب نفسه وحاول ان يتوقف

ويسيطر على حركاته . عصرها اليه بقوة وهمس في اذنها ان تهدأ وترتاح . ولكنه كان يكلم الريح . ازعجها ان ينسحب ويتوقف فأخذت تصرخ به :

ـ يا الله ، ياالله لاتتوقف . افعلها ، افعلها بي . انا امرأتك ، امرأتك

لم يثره صوتها المتقطع اللاهث ، بل اعاد اليه حذره ، فرجع مرة اخرى ، يمسح ببعض الشدة على الاشفار ، فارتفعت حالا تأوهاتها وأناتها المعذبة ، واستمرت ترتفع بوتيرة اخذت تسرع وتسرع حتى انطلقت منها زفزة قوية نفثت فيها كل لهيب جسدها الفتي ، وارتمت مفتوحة الذراعين مغمضة العينين ، تتنهد مثل قطة نائمة . حينذاك فقط اضاع توفيق لام تصاميمه السابقة بالحذر ، فدفع نفسه فيها ودخلها دخولا فجائيا جعلها تشهق متألمة ، فلم يستطع ان يقاوم ، محاطاً بضيقها وحرارتها ، الا لحظات قصاراً ، ارتد بعدها في الوقت المناسب وخرج ليقذف ماءه على بطنها .

تبدل مزاج فتحية وهي مازالت تحته ، فصارت تضحك ضحكات سعيدة متتالية وهي تقبله وتعض برفق اذنه :

ـ ماذا فعلت بي ياملعون ؟ قل لي ، من علمك ان تفعل هكذا بالنساء المحترمات ؟

صباح اليوم التالي ، جالساً في مقهى حمزة ، جاءه الصانع بالشاي وبخبر صغير بأن جنديا شابا مر امس مساء على المقهى وسأل عنه ؛ عرف انه غسان . لعله كان ينتظر نداء تلفونيا منه . كانت الشمس تتوسط سماء زرقاء تنبسط بلا حدود ، والهواء باردا منعشاً . نام نوماً عميقاً ليلة امس ؛ سخنت فتحية لهما ماءفاغتسلا وانتعشا ؛ ولما عاد الى غرفته وجد الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة ، فتناول مجلدات (الحرب والسلام) واخذ ، متغطيا في فراشه باحكام ، يقلب صفحاتهاوشعور بالفرح والارتياح يملأ جوانبه . ثم انغمر بالقراءة انغمارا تاما حتى شارفت الساعة على الواحدة . احس منذ البدء بانه امام كاتب عملاق يسيطر على فنه بامتياز ، واستولى عليه شغف شديد لمتابعة مايجري ، ثم نام ، بارد القلب ، نوما هنياً لم يستيقظ منه الا

بعيد التاسعة . كان ممتلىء النفس بعملية الحب مع فتحية ، ولم يتبادر إلى ذهنه ماقديترتب عن هذا الاتصال من توابع والتزامات ؛ وكان يشعر برغبة في العودة الى غرفته ومتابعة فصول الرواية ، كأن الحياة كانت تنتظره في تلك الزاوية الصغيرة من الكون .

سأل صاحب المقهى ، عما اذا كان في الجوارتلفون عمومي ، فارشده هذا الى دائرة البريد التي كان يجهل وجودها . كانت في ركن لايلفت النظر ، بعد المقهى بشارعين او ثلاثة .

اتصل اول الامر بدار الرسام عبد الاله والد غسان ؛ فجاءت زوجته .

لم تتذكر توفيق للوهلة الأولى ، فاضطر لتذكيرها بشخصه عن طريق سرد بعض التفاصيل التي لاتسر . اخبرته ان غسان موجود في بغداد بأجازة قصيرة وقد خرج من البيت وسيعود بعد ساعة او ساعتين للغداء .استوضح منها عما اذا كان ممكنا ان يزورهم حوالي الساعة الرابعة هذا المساء ، فبان التردد في صوتها واقترحت عليه ، مع ذلك ، ان يتفضل بالمجيء كما يحب ، لانه سيجد غسان ، بالتأكيد ، في انتظاره ، اما زوجها فلا تستطيع ان تضمن وجوده في الدار ذلك الوقت . شكرها بحرارة واخبرها بانه سيمر لزيارتهم .

كانت انسانة من طراز خاص فريد ، ربما ، بين نساء العراق ؛ تدعى سندس ، وهي استاذة للغة الانكليزية ، جاوزت الاربعين من عمرها ولما تزل محتفظة برونق الشباب ، مظهرا وروحا . لم تكن حياتها سهلة مع الرسام عبد الاله ولامع ابنه غسان ذي السنوات الست ؛ فمع الضيق المادي ومسؤولية تربية طفل لايمت لها بصلة وزوج ذي نزوات ، كان عليها التمسك بالصبر والتعقل على الدوام ، ليمكنها الاستمرار في حياة سوية . ولدهشتها ، فإن ذلك الطفل الشاحب الحساس ، خف لمساعدتها اكثر من أبيه ، فبدت عليه ، بعد اشهر من زواجها ، مظاهر شغف كبير بها وهب لخدمتها وتنفيذ رغباتها . ولم تقصر في الاثقال عليه وفي تخديمه ، رغم ادراكها بانها تتجاوز الحد في ذلك .الا انه كان صابرا اكثر منها ، صلدا ، يحب منها ، بصمت ،

كل شيء تبديه له او تطلبه منه ؛ ونشأ مفتوناً بها كمثال المرأة والأم .
وحين حملت بابنتها الأولى شاركها متاعب البيت اكثر من السابق وتلقى قدوم اخت له بسرور حقيقي وكاد ان يكون مربيا لهذه الاخت . رأته مرة يغسل قنينة الحليب على المغسلة ويهز ، في نفس الوقت ، عربة الطفلة كي تنام ، فاحتضنته وهي لاتدري أتبكي أم تضحك من عمل هذا الصبي الطيب السريرة .

وسواء أكانت عواطف غسان المحتدمة والمخلصة تجاه زوجة ابيه هي التي بدلت من موقفها منه ام العكس ، فإن علاقتهما بعد سنوات من المعيشة المشتركة كانت علاقة نادرة ؛ جوهرها الحب الامومي الصافي الذي تغلفه مشاعر متخافية من اعجابه بها كأمرأة وكمثال رائع ، ومن ميل واعتزاز من جانبها نحو مخلوق نقي يكن لها كل هذا الاحترام والتفاني . كانت سندس على ادراك بما تعنيه حادثة هروب والدة غسان له ، ومشاعر الحرج والقلق التي كان يعانيها كلما اتصلت بهم تريد رؤيته او التحدث معه ، فوقفت بتفهم الى جانبه .
حاولت ، على الدوام وضد رأي زوجها ، ان تقنعه بأن عمل والدته لايقتضي منه ان يعاقبها او ان يقطع صلته بها ؛ فهي ، اولا وآخراً ورغم افتراقها عن والده ، امه اراد ام لم يرد ، ويجب ان يتقبل هذه الواقعة . كان ذلك موقفا نبيلا منها تجاه مطلقة زوجها وتجاه هذا الشاب الصغير الحساس ، ولقد وقفته بقناعة تامة فحبّبها اليه اكثر ؛ وماكان منها ، بدون شك ، موقفا ساميا مشرفا ، انعكس بصورة اخرى شبه مأساوية في اعماق غسان اللاواعية .

خابر توفيق لام اخاه عبد الباري ؛ ظنه في المعمل فاذا بجاسم الرمضاني يجيب على التلفون ويخبره بان اباسلوان مازال في دور النقاهة ولم يعد الى المعمل سأله :

ـ وانت ، ياأخ جاسم ، ماذا تصنع هنا ؟

ـ انا وكيل عبد الباري ، الا تعلم ؟ وادير اعمال المعمل منذ ان سقط ابو سلوان مريضاً .

ـ وكيف حال الاعمال ؟
ـ ليست جيدة جداً ، ولكنها مرضية .
ـ الاتزالون على تعاملكم مع كاسب ؟
ـ طبعاً .
ـ هل عاد الى خانقين ؟
ـ منذ اسابيع .
ـ شكراً ، سيدجاسم ، وفقكم الله .

بقي ممسكا بالسماعة ، يتأمل في الفراغ امامه ؛ مايزال يجد صعوبة في الاحتفاظ بهدوء اعصابه ، حين تواجهه بعض المواقف المختلطة ذات المنطق الأفلج ؛ ومايزال لايجد تفسيرا لما يحسه من رفض يوجه نحوه مجاناً . تردد في الاتصال بكاسب لحظات ؛ ثم تغلب على تردده وادار رقم هاتف المعمل في خانقين . جاءه كاسب بصوته المعتاد الذي تغير حالاً بعد ان عرف ان المتكلم هو توفيق . انتابت نبراته برودة شديدة ، وبدا كأنه لايود مواصلة الحديث . لاتزال انوار وطفلهما في الشمال يتمتعان بزيارة الاهل وسيعودان عن قريب . بتر توفيق نداءه التلفوني بعد دقائق وخرج منزعجا من دائرة البريد . سار مخترقاً الشوارع المزدحمة بالناس والسيارات ، قاصدا البيت وهو غارق في حالة انزعاج مما يواجهه .فشل اخر في الفهم ام فشل في تطويع الذات وتليينها كي تلائم مقتضيات البشر وامزجتهم ؟

كانت الشمس في مكانها وسط السماء ، تبدو كأنها تتضاحك بدون اكتراث ؛ خطر له ان هذه المواقف المزعجة تتوالى عليه اكثر من اللازم ويجب ان يتعود عليها والا تجعله ينساق الى تأمل فارغ مؤلم ولاجدوى منه .

وجد القوم في الدار يتهيؤون لتناول الغداء وفي وسطهم ابو فتحية مع ان الساعة لم تجاوز الواحدة والنصف . سأله عن سبب عودته المبكرة ، فاجاب بلهجة المهرجين التي يتقنها :

ـ اليوم ، في هذا اليوم السعيد دوام المدير العام الجديد ووزع الحلويات على الجميع ومنحهم اجازة للانصراف الى بيوتهم قبل نهاية الدوام .

والسيد المدير العام ، اذالم تكن تعلم ياسيد توفيق ، هو بنفسه الاستاذ... الاستاذ سليمان فتح الله .

ـ الاعرج ؟!

ـ ماذا ؟ أعرج! نحن ياسيدي ، نحن هم العرج لاهو ؛ ونحن رغم جوعنا ، اصحاب الكروش المندلقة ، اما الاستاذ المدير العام فكرشه مخفي ببراعة تحت البدلة الجديدة المتقنة الخياطة ؛ وكذلك الساق المشوهة القصيرة ، فقد استورد حذاءً خاصا من ايطاليا ، فردة عالية...

ووقف شامخاً كالعمود :

ـ وفردة منخفضة...

وانحنى فصار قزماً :

ـ وعندما يضعهما الاستاذ ويسير بكبرياء ، لاتلاحظ العيون شيئا مختلفاً . هكذا ياجماعة ، هكذا هكذا والا فلا لا .

كان ابو فتحية يعاني بهزل او يهَزل معاناته ؛ وكان ذلك تسويةعرجاء ، هي الاخرى ، من اجل الاحتفاظ بأدنى قدر من التوازن النفسي .

كانت فتحية منشرحة الصدر ، تبتسم له حين تلتقي نظراتهما ، الا انها ، مع ذلك ، ذكرته بانه لم يدفع لها ايجار الغرفة ولاثمن طعامه للشهر الفائت . ادهشه ذلك وخيل اليه كأنه يستيقظ من حلم اسود . لم يكن يملك من المال مايقتات به حتى موعد قبض الراتب التقاعدي بعد اسبوعين ؛ وتذكر الاشعار الذي وصله من المصرف بأن ماتبقى من رصيده لايتجاوز الخمسة والستين ديناراً .

اكل بعجلة دون ان يحس بطعم ما يأكل ، وكان يتوق الى الانعزال بنفسه في غرفته الجميلة الفقيرة لكي يعاود الانغمار بسحر رواية ليون تولستوي . لبث يقرأ حتى الرابعة ، ولم يقطع عليه احد عزلته الا فتحية ؛

دخلت تعتذر له بأنها كانت تداعبه حين ذكرته بالاجرة وانها ، في الواقع ، لاتحتاج الى هذه النقود الآن . اغلقا الباب وتبادلا قبلا حارة . وعدها ان يسدد لها كل دينها عليه ، فابتسمت وخرجت بخفة .

وصل دار الرسام عبد الاله حوالي الخامسة فوجد غسان ينتظره في الشرفة المطلة على الحديقة . كان في ثياب انيقة ،بلوزة زرقاء على سروال رمادي وسترة جلدية . رحب بتوفيق ترحيبا حارا وادخله غرفة الاستقبال ، حيث الاثاث الجديد المنسجم الالوان واللوحات الزيتية الكبيرة ، لم يشعر بالارتياح وهو يجلس ويتبادل وغسان الاسئلة حول الصحة والاحوال . جاءت سندس ، مشرقة الوجه متزينة ، وفي ثياب محتشمة ، فسلمت عليه واعتذرت له لانها لم تميز صوته في الهاتف لاول وهلة ، كما اعتذرت له بأن زوجها خرج لارتباطه بموعد سابق . جلسوا يشربون الشاي والحليب ، ويأكلون قطع الكيك ويتحدثون حديثا متقطعا لامعنى له . تسلل اليه شعور غامض ، وسندس جالسة معهما ، بانه يفتقد حقا وجود امرأة من هذا النوع في حياته .لم تكن كميلة ذات حظ من الادراك بحيث تبعث في حياتهما الزوجية التوازن والاستمتاع ؛ وكانت آديل حبيبة من الاثير لايمكن ان تستقر مع مخلوق فانٍ مثله ؛ اما فتحية فهي ، رغم ذكائها ، فتاة من العامة لاتملك الا جسدا شابا وحاراً ؛ سندس وحدها ، هذه المرأة الهادئة المبتسمة ، هي القادرة على تضميد جراحه وانقاذه... رآها تقوم وتعتذر بأن عليها ان تغادر لتذهب الى دار جيرانهم حيث تلاقي بنتيها اللتين تشاركان في احتفال عائلي . بادره غسان ، بعد ان انفردا ، بسؤال صريح عن احواله وعما يعمل في الواقع :

ـ اجدك تغيرت كثيرا استاذ توفيق ؛ وانا اتكلم هكذا لاني اعتبرك بمثابة عم لي ،ولن انسى مساعدتك لي اثناء ايام الكلية .

ـ هذه امور تافهة ياغسان ، لادري كيف تتذكرها .

ـ قد تكون تافهة بالنسبة لك ، اما بالنسبة لي... ماذا تعمل الآن استاذ توفيق ؟

ـ اعمال متفرقة ، مع المحامين احيانا ومع بعض اصحاب المعامل .
ـ هل... هل انت مرتاح ؟
ـ بالطبع ، بالطبع .
ـ وددت ان اسمع نصيحتك بشأن قراءة بعض الكتب ، فقد كنت الاحظ بجنبك في السيارة على الدوام كتبا كثيرة ومتنوعة كنت تأخذها معك الى الدائرة كما يبدو .
ـ آه ، لا اتذكر هذا الشيء . هل كنت اضع كتبا في السيارة ؟
ـ نعم ، كنت تفعل ذلك .
ـ وماذا تريد ان تعمل... اعني ان تقرأ ؟
رن جرس الهاتف آنذاك فقام غسان يجيب على النداء .
سمعه يكلم احد اصدقائه ويحدد له موعدا بعد ساعة . رجع الى مكانه وقد تغيرت ملامح وجهه ، فبدت عليه علامات الحيرة ونوع من خيبة الامل . قام توفيق بعد دقائق ، وابدى رغبته بالانصراف ، لزيارة اخيه عبد الباري الناقه من عمليته الجراحية مادام موجودا في الحي . خرج معه غسان حتى الباب الخارجي ، وحين تصافحا متوادعين أمسك غسان بيده :
ـ أرجوك استاذ توفيق ، لاتنزعج من تصرفاتي ودعنا نلتقي مرة اخرى .
ـ بالطبع ، ولم لا ؟
ـ كلا ، هذا ليس كلاما قابلا للتنفيذ ، فأنا ذاهب غداً الى المعسكر وقد لااستطيع العودة قبل شهرين او اكثر ، فهل تسمح لي ان اجيئك الى البيت ؟
ـ لااملك غير حجرة صغيرة ، ولكنها تسعنا على كل حال .
ـ اعلم ذلك ، فقد سألت عنك من يعرفونك .
ـ اخشى ان يكونوا قد بالغوا!
ـ كلا ؛ وليس هذا مهماً ؛ انما ، اذا سمحت ، فسوف أزورك عن قريب ، في اول اجازة احصل عليها .
ـ اتفقنا .

كان محمر الوجه ، منفعلا بشكل أثار استغراب توفيق . ابتسم له شاعرا بأن هذا الواقف امامه الآن ، هو نفسه ذلك الغسان ، الصبي المتوحد ، المثقل بهموم كبيرة . شد على يده واكد له انه ينتظر زيارته بسرور

ـ اعتن بنفسك .

ثم مضى باتجاه دار اخيه . كان الظلام قد ساد على الانحاء ، فبدت له المنازل القديمة تبعث على الكآبة . تساءل مع نفسه عما جعله غير مرتاح في جلسته القصيرة تلك بدار الرسام عبد الاله . كانت الظروف طبيعية لاتثير اي شك ؛ ماذا إذن ؛ اهي حاله المتعبة التي يشعر هو بها اكثر من غيره ؟ ام هو افلاسه الدائم وسوء مظهره اللذان يحبطانه باستمرار ؟

وجد عبد الباري يتمشى في غرفته ومظاهر الصحة بادية عليه ؛ وقرب سريره يجلس جاسم الرمضاني ممسكا بدفتر يقرأ فيه ويسجل بعض مايقوله له عبد الباري . سره ذلك المنظر ، وخطر له ان هذا الرجل ، في الواقع ،هو اصلح من يستطيع خدمة اخيه في كل شؤونه الصغيرة والكبيرة . ما ان استراح توفيق على مقعده حتى طلب عبد الباري من جاسم ان يوصي ثريا ام سلوان لتعمل لهما قهوة تركية ، فقام يلبي الطلب . ابدى توفيق لعبد الباري سروره لاستعادته لياقته البدنية وقابليته للعمل ، ففرك هذا كفيه مرتاحاً :

ـ تصور ياتوفيق ، هذا الصفيق ممتاز يخابرنا ويطلب منا ان نعيد نجية الى خانقين! كأننا خدم له ولاجداده .

ـ ولماذا لايأتي هو لاصطحابها ؟

اخذ عبد الباري يتمشى بعصبية حول السرير :

ـ لانه لايتنازل ويأتي الى بيتنا ؛ كيف يفعل ذلك وسيصير قائمقام خانقين!

ـ ماذا ؟

ـ كما اقول لك ، قيل لنا بأن الأمر صدر قبل يومين . لم يجدوا غير هذا الحقير لينصبوه قائمقاماً ، تصور!

ـ وماذا ستعملون ؟

ـ ماذا سنعمل ؟! نعيدها له بالطبع ، ماذا نعمل غير ذلك ؟ هي زوجته الشرعية وام ابنته وهو... انت تعرفه احسن مني . تتذكر مافعل بك ؟

انصرف من بيت اخيه رغم اصرار ثريا على دعوته للعشاء معهم . كره ذلك الجو القديم الذي اعاد الى ذهنه ذكريات مؤسية ؛ وخطر له ، والباص يهزه ، ان حياته الآنية قد تكون هي الحياة السعيدة الوحيدة التي يمكن له ان يمتلكها ، وعندئذ تصير القناعة كنزاً لايفنى حقا ؛ وكان يحس بهجة حقيقية تملأ قلبه وهو يغذ الخطى الى اسواق الافراح ؛ هناك كتابه الممتع الجميل ونظرات فتحية الحبلى بالوعود .

وجدهم في فوضى عارمة لارأس لها ولاآخر ؛ افراد من الشرطة يقفون تحت ضوء الباب الواسع واناس فضوليون يلتفون حولهم .

اندفع متسائلا عما يجري ، فلم يجبه احد فارتقى السلم مسرعاً . التقاه ابو فتحية بوجه اصفر مروع :

ـ دخلك ياتوفيق ، امر قبض على فتحية . دخلك ، خلصنا .

كانت فتحية في غرفتها تنشج وتصرخ وتلطم على رأسها بين الحين والآخر . هدأها محتضنا جسمها الحار الشهي ، طالبا منها ان ترتاح ولاتخش شيئا فسيدبر الامر مع الشرطة . سكنت بين ذراعيه .

ـ عملوها بي ،اولئك الاوغاد ، عملوها بي .

هبط يقابل عريف الشرطة ، مستفسرا منه عن فحوى الموضوع وهل هنالك امر بالقبض ام طلب استدعاء فقط . اخبره العريف بأنه لايدري وان المفوض ارسله لجلب فتحية الى المركز . اتفق معه بعد أن دس في يده ، خفية ، دينارين ، ان يذهبوا الى المركز لمقابلة المفوض وساروا مبتعدين . كان العريف على علم بوظيفة توفيق السابقة ويكنّ له بقية احترام ؛ ومع المبلغ الذي اعطاه اياه وهذه البقية الباقية من الاحترام امكن لتوفيق ان يقنعه بأن فتحية غير موجودة في الدار وقد سافرت بالفعل الى الصويرة بعد ان علمت بوجود هذا الاستدعاء .

ـ استاذ توفيق ، نعمل هذا من اجل شاربك ؛ انما على فتحية ان تكون غدا في محكمة الصويرة ، لأن الاستدعاء صادر منها . اريدها منك لاني مسؤول امام المفوض .

صافحه توفيق ورجع متنفسا الصعداء الى الاسواق .

لم يصدقوا انه استطاع ان يعمل ماعمل فطلب منهم التمسك بالهدوء وتحضير العشاء والاتصال بالمحامي غدا في الصباح الباكر ليذهب مع فتحية الى الصويرة وقد يذهب هو معها ايضا . تشبثوا بهذه الفكرة واصروا عليه ان يرافق فتحية في سفرتها المأساوية هذه ، فوعدهم بذلك . اقترح ابو فتحية ان يتصل بالمحامي هذا المساء كسبا للوقت ، وخرج دون ان ينتظر جوابا من احد . انفرد توفيق بفتحية في غرفتها ، كانت لاتزال متوترة الاعصاب ، باردة الاطراف ؛ احاطها بذراعيه وشدها الى جسمه ثم قبلها ، فاحس بشفتيها ترتجفان . همست :

ـ ضمني ، ضمني الى صدرك واحمني من الناس . انا خائفة ، خائفة .

ضمها اليه دون كلام ، كانت مثل عصفور مفزوع حار الجسد . تدافعت الشهوة في صدره ووسطه وهو يمسك بكتفيها الناحلين ، فأخذ يلثمها في وجهها ورقبتها لثمات بطيئة . تنهدت بلين واستسلمت لتلك المداعبات شاعرة بالهدوء يعود لها .

رجع ابو فتحية ليعلن لهم انه كلم المحامي واتفق معه على السفر غداً الى الصويرة وسيمر على فتحية في الصباح الباكر ليصحبها معه ؛ وبهذا الاتفاق اصبح ذهاب توفيق معها امراً لازباً وضروريا . تعشوا ، بعد ذلك ، بشهية وارتياح ، واستطاعوا ان يتهكموا مما جرى هذاالمساء ومن بعض التصرفات .

جاءته بعد ساعة من اخلاد والديها للنوم ، تضع شالا طويلا على كتفيها ينزل حتى ركبتيها . فلما أزاحته بدت في فستان نوم قصير شفاف ، يتجلى خلفه جسدها ورديا مذهلا بحناياه . دخلا فراشه . ولما ضمها اليه شعر

بهاتعاود الارتجاف بشكل غريب فسألها عما بها .

ـ لاادري ، لا أدري ؛ مازلت غير مسيطرة على اعصابي .

ـ خذي راحتك . لاتجعلي الامر يهمك هكذا .

قبلها قبلات طويلة في مواضع من وجهها ورقبتها وشعرها ، وراح يداعب برفق نهديها وبطنها واعلى فخذيها ؛ واراد لهما ان يناما ، تلك الليلة ، مرتاحين لاتزعجمها الوساوس ، فأمامهما غدا مهمة صعبة ورحلة شاقة .

اخذت تسأله بقلق عما سيعملونه بها وهل سيسجنونها او يوقفونها او يعذبونها حتى تعترف ؛ فتملكه الضحك وادرك بأية ازمة اعصاب تمر فتحية بحيث صارت تتخيل مثل هذه المواقف الكابوسية ؛ اكد لها بأنهما سيعودان في نفس اليوم ان شاء الله ، ولن يحصل لها ابداً اي شيء مما تتصوره . تملكها نشيج فجائي فاحتضنته والصقت جسمها المهتز بجسمه .

كان منذ حين مسيطرا على نفسه وعلى رغبته فيها بصعوبة ، فجاءت هذه النوبة من التأوهات الانثويةالمثيرة ، فاطلقت العنان ، مرة اخرى ، لشهوته الجنسية . التقط فمها المنفرج وشفتيها بفمه ودفع ثوب نومها الى اعلى وانزل لباسها الصغير ثم عرى نفسه بسرعة . ما كان بوسعه ان يتراجع . كانت تنشج وتزفر وتئن وفمها مغلق بفمه ؛ وكان هياجه يزداد مع استمرار هذه الاصوات المتألمة تصدرمنها . ثم انه هصرها بقوة اليه وانقلب عليها ففتحت له ساقيها . لم يرد ان يلجها ، الا انها احتوته بين فخذيها الدافئتين فالتصقت اعضاؤهما في ذلك المجال الرطب المسحور ، فلم يشعر الا وهو ينساب في احشائها المبللة وقد تملكته لذة عظمى . لفها بين ذراعيه بشدة وسكن متلبثاً بعمق في داخلها . كانت تتمتم بصوت خافت كمن يهذي وتصدر الأنات والزفرات ؛ وكان سكران الحواس ، شبه مخدر بلذته ؛ يحس بارتجافات بسيطة في ظهره وكتفيه . لم يكن يرى وجهها في غبش الغرفة . وكانت رائحة جسدها المتعرق تزيد في اثارته وفي رغبته لضمها وادخالها في ذات جسده .

عاد يتحرك عليه فشعر بها ترفع ساقيها وتضعهما فوق ظهره . وسمعها تهمس ، صارت تتهامس كأنها تناجية :

ـ توفيق ، توفيق حبيبي . انت توفيقي ، انت حبي ، بهدوء ، لاتؤذ طيرك الحلو . بهدوء . توفيق . حاذر ياحبيبي ، حاذر .

وكان ، في عالمه الآخر ، يريد ان يتحاشى الحماقات التي تصنعها الطبيعة مع البشر احيانا ، ولكن لذته الباهرة ، وهذه الفتاة الرائعة الحارة تحته ، تناغيه وتفتح له نفسها وتنيمه على نعومة ذلك الجسد المتوهج ، لم تترك له ان يدبر اموره الاخرى الجانبية ، فكان انفجاره في باطنها كمن يقذف بحمى عمره كله . وارتجفا مع اندفاعة مائه فيها ؛ هو محمولا بقمة شهوته التي لامثيل لها ، وهي شاعرة بالارتطام المذهل داخل احشائها . سعت كي تسحب حوضها من تحته قبل فوات الأوان ، فلم تسعفها قواها ، فاستسلمت لارتمائه لاهثاً بكل ثقله عليها . ثم انها ، بلطف عجيب ، نحته عنها واسرعت دون صوت تضع شالها وتقصد الحمام القريب .

تعاتبا بعد ذلك ؛ هي لاهماله وعدم التزامه الحذر ، وهولهذا الاغراءاللامعقول الذي صبته عليه .

كانت سفرتهم الى الصويرة ذات نكهة خاصة وفريدة ؛ فلا هي سفرة للنزهة او لتبديل الجو والترفيه من جهة ، ولاهي سفرة عمل شاق او قضية ثقيلة من جهة ثانية ؛ فقد جمعت ، بشكل وبآخر ، كل هذه الصفات . كانت فتحية ، ملتفة بعباءتها ، تجلس بجانب المحامي في المقعد الامامي ، بينما اختار توفيق ان يستقر في الخلف من السيارة القديمة ؛ ولقد سهل التفاهم بين الجميع ان المحامي سبق له ان راجع توفيق في قضية تخصه فانجزها فبقي يحمل له المودة . كانا ، توفيق والمحامي ، يدركان مدى سخف القضية التحقيقية المقامة ضد فتحية ، الا ان كلامهما معها طول الطريق لم يقنعها تماما بانها لن توقف ولن تعذب حتى الاعتراف .

عادوا بعد ان تغدوا في الصويرة وبعد ان قرر قاضي التحقيق اطلاق

سراح فتحية بكفالة ضامنة مقدارها مائتا دينار وقعها توفيق متعهدا باحضارها حين الطلب . كان قاضي التحقيق ، لحسن الحظ ، اذكى من ان يورط نفسه باتهامها بقتل زوج نيف على السبعين من عمره وأثبت التقرير الطبي التشريحي ؛ بما لايدع مجالاً للشك ، وفاته بالسكتة القلبية .

اوصلهما المحامي حتى باب الاسواق ؛ وكانا متعبين ، مسرورين مثل زوجين عادا من سفرة جميلة . تعشى الجميع واكلوا كثيرا وناموا دون ان يكملوا السهرة التلفزيونية كالعادة .ابدت له فتحية قلقها من حادثة الامس ، فساوره هو الآخر قلق مماثل ؛ وكان عليهما ان ينتظرا العادة الشهرية . شعر بالموقف المضحك الذي تكرره الطبيعة معه ، حين كان ينتظر بتوجس هذه الدورة اللعينة التي لم تخطىء مرة في مهاجمة زوجته السابقة كميلة . والآن ، هاهو ، مرة اخرى ، ينتظر هذه الدورة اللعينة نفسها ، ويتمنى الا تخطىء في اقبالها على فتحية لتنقذه وتنقذها من ورطة جسيمة لايحسدان عليها .

كان شبه واثق من عقمه ، الا انه خشي مداعبات القدر السوداء المستمرة ضده منذ سنين .

انهى بأسف رواية «الحرب والسلام» ، بعد ايام جميلة من المتعة النفسية والفكرية . كان ذلك في صباح مشرق من احد ايام نيسان الاولى ، في زاوية من مقهى حمزة لايجلس فيها احد عادة .

شرب قدحاً آخر من الشاي ووجد ان الساعة تقارب منتصف النهار ، فأعجبه ان يبقى يسترجع احداث الرواية ويفكر فيها .لم يجد كاتبا وصف السعادة الزوجية ، او ، اذا امكن القول ، سعادة الحياة الممكنة ، مثلما فعل تولستوي في كتابه هذا . ملأت الغبطة نفس توفيق وهو يقرأ صفحات ذلك الفصل التي قاربت المائة صفحة . لم يسعده الفن الروائي الذي كان يجتليه ، بقدر ما هزه الاقتناع الذي ترسب في ذاته بأن ماكان يروى له قابل للتحقق على المستوى الانساني او انه لايتحقق الا اذا كنا بشراً .

بفضل تولستوي نسى توفيق مشاكله المادية المتفاقمة ، وقلقه الخفي

وهو ينتظر مجيء العادة الشهرية لفتاته ، التي بقيت تكرر لومها عليه ووجدت في ذلك عذرا للابتعاد عن الاتصال الجسدي بينهما . تفهم توفيق موقفها رغم رغبته الشديدة المثيرة للدهشة ، لمضاجعتها . كانت نساء «الحرب والسلام» يثرن خياله ، «ناتاشا» على الخصوص ؛ وكان التفكير في التعرف عليهن والارتباط بهن ، بصورة من الصور ، يلهب خياله وعاطفته ، فيحاول ان يجد لهن بديلا في واقعه المجدب ، فلا يلقى غير فتحية ، تلك الشابة ذات الشعر الكثيف الاسود المحنى والعينين الخضراوين ، فتتصاعد رغبته فيها بشدة .

كانت حياته تتشكل من لوحات يومية ذات منحى متشابه مكرور ؛ يقظة صباحية مبكرة واضطرارية يتبرع بها عليه عمال الخضراوات واللحوم حين يجلبون الى الاسواق ، بكل الضجة الممكنة ، بضاعاتهم وسخطهم على الدنيا ؛ مقاومة ضعيفة للبقاء في السرير اطول فترة . ثم القيام ببطء والقعود امام النافذة دون حراك دقائق ، يتحسس فيها نفسه ويتفكر في ليلته واحلامه وماكان قد قرأ قبل ان ينام . تلك وقفة قصيرة في زمن العمر ، تتداخل فيها تراكيب الاحداث التي كان يخوض فيها ؛ ولشد ما كانت مهمة لتوازنه . ثم يقوم ولايجلس ، بعد الحلاقة والاغتسال والفطور والركض وراء فتحية ، الا في مقهى حمزة مع احد اجزاء الحرب والسلام وامامه قدح الشاي الاحمر الصافي . وبسبب اصراره على ممارسة القراءة بحمية وحماس مثل ممارسته لفعل حياتي مشوق ،تباطأت ديمومته النفسية بقدر ماعمقت ؛ وتراجعت مشاكله الى الظل ، خاصة المادية منها ؛ فبعد ان اعطى لفتحية دينها ، لم يبق في رصيده الا ثلاثون ديناراً ، وكان مطوقاً ، مع ذلك ، بسعادة محسوسة . تذكر آديل عدة مرات ، مع تصوره لاحدى بطلات الرواية . كان يضع الكتاب جانبا ويعيد معايشة ذكرياته مع تلك المرأة العجيبة ، فيغتني وجوده الآني بمستوى خاص آخر من الوجود .

في ظهيرة ، بعد ايام من لقائهما الاخير المنفلت من المستحيل ،

اضطجعت متعرية على الفراش واضعة يدها تحت خدها ، تتطلع اليه . اصطبغت الغرفة كلها بصبغة ذهبية وردية من جراء ماكان يشع من الوان جسمها . اقترب منها يتحسس برفق وتعبد ، ذلك التكوين الساحر . كانت تنظر اليه برقة نظرات تفيض منها المحبة والاندفاع ، وشفتاها مفترتان عن بسمة تحيل فمها الى عصفور صغير أحمر . اقترب منها يقبلها قبلات خفيفة في فمها ورقبتها وخديها الموردين وصدرها ونهدها الأيمن وحلمتها المتفتحة ومابين ابطها ونهدها واعلى ذراعها وكفها واصابعها وعظم حوضها وبطنها اللين وماتحته وفخذيها وباطن ساقيها . يتذكر كمن يرى ، مافعله ملتذاً آنذاك ؛ وانقلبت على بطنها ورمت بشعرها الناعم على كتفيها فانساب على ظهرها حتى اعالي ردفيها . اضطجع جوارها . كان يرى الى صفحة وجهها اليسرى واذنها وانفها وفمها وكله بهجة ؛ ثم قبلها في عينيها ؛ رأى فيهما اصداء رؤى ، تستجيب لدلالات الحب الذي يبديه لها . همست ، كأنها لاتريد ان يسمعها احد غيره ، كلاماً متقطعاً :

ـ لانك زوجي منذ الازل ؛ فأنا لاأخون بحبك احداً ولا ارتكب جرما ببقائي معك وباسترجاعي منك ما امنحه لك من لذة وحب . انت تسربلني بعواطفك التي ولَدتُها فيك . انت تعيد لي حبي ، معمقاً بوجودك ومضمخا برائحة حبك . ما اجملك يازوجي! ماأجملني بك!

كانت على الطرف الاقصى من النقاء والصدق والاستقامة ؛ فلم يستطع ، لذلك ، ان يفسر لنفسه كيف يمكن ، مع مشاعر مثل هذه ، ان تفقد الوعود معناها وان يصير ماكان موجودا بغاية الشدة من الاخلاص ، مجرد ذكرى ؟ وهل ستبقى آديل اذن ، جرح حياته النازف ولغزها الأبدي وجنتها المفقودة ؟

ويعود متأبطاً روايته حين ينتصف النهار ويحس بالجوع . يقرأبعد غداء صامت مع ام فتحية ، فالأب والبنت غائبان باستمرار ، ثم ينام مطمئنا . وغالبا ماتوقظه فتحية وهي تكنس ، بلجاجة ، الباحة ، منفرجة الفخذين بارزة القفا ، فتثير غرائزه رغم انفه ، ويقوم يناديها ، مغازلا ، يسألها عن اخبار

العادة الشهرية ، فتضحك وتتطلع اليه بدلال مشيرة اليه ان يصمت ثم تضع يدها تستر مابين فخذيها ؛ ويشرب شاي العصر معهم ويستمع الى اخبار ابي فتحية عما جد في الدائرة من احداث ؛ من جاءومن ذهب ، من يستعد للقفز الى الامام ومن يخطط للايقاع بغيره... الخ

ويخرج ، مرة اخرى ، يتمشى في اطراف الحي ، قرب سبخة لايسكنها احدوتفعم جوها رائحة الاعشاب البرية ؛ يتأمل الغروب ويتملى من الالوان الصارخة الحمرة ، تتوزع على لوحة السماء العريضة المدهشة ، ويفكر في حوادث الرواية وحوادث حياته ؛ لافرق كبير بين تلك التقلبات التي يجسدها الفن ببراعة ويلف بها شخصيات الرواية ، وبين ظروف التغيرات التي نشتبك بها في حياتنا عن غير عمد وبالصدفة احياناً . ثم تذكر ، يوماً ، دفتر مذكراته ، ذاك الذي رافقه بسكون خلال حياته الزوجية ، وشهد منخفضات العيش وقممه والخاتمة ؛ تراه ضاع منه ؟ لكم اودعه جزئيات تلك الفترة الصعبة والمثيرة في آن واحد! واذ يغيب عن الدنيا ، هو ايضا ، مثل رفيقته كميلة ، ستبقى هذه الصفحات تنطق ، او تثرثر ، بما اتياه .

اراد ان يمنح نفسه مهلة من الزمن يزول فيها طعم «الحرب والسلام» من مخيلته ، فلم يستطع وتملكته رغبة القراءة فأخذ ينقب في مجموعة كتبه بما يلهيه ويشغله عن تتبع فتحية وينسيه قلقه من فكرة ان تحمل منه . عثر على عدة روايات قديمة وجيدة ، كان اشتراها ورماها بإهمال في زاوية من الغرفة . قرأ «مسخ» كافكا في أمسية واحدة ، فأثرت فيه كثيرا ؛ لم يسبق له ان قرأ رواية مماثلة ؛ واكربه تعرية الانسان الفرد بهذا الشكل ؛ ضعفه وتشبثه بالآمال وسخف افكاره واهتماماته وعجزه المطلق . بقي ذلك المساء مكتئباً ؛ لم يتعش معهم .

عنّ له ، والليل يتقدم ، ان يخرج يتمشى في شوارع الحي ؛ الا ان فتحية نادته وهو امام مدخل السلم ؛ كانت في غرفتها جالسة على الفراش

تمسك ببطنها ووجهها شاحب متألم . جاءتها العادة الشهرية منذ حوالي الساعة ؛ وتخلص توفيق لام من مشكلة معقدة الحل . أواخر نيسان والربيع يكاد يختفي قبل أن يحس به أحد عثروا على جثة حسن ملقاة على رصيف الشارع العام وعليها آثار طعنات عميقة لاتعد ولاتحصى .كانت صدمة عنيفة لسكان الحي ولمن عرفوا الصبي عن كثب ، ثم كان ان تبيّن للشرطة ، بعد اجراء الكشف والتحقيق ، ان حسن هذا ،كان في الواقع ، فتاة جرى اغتصابها قبل القتل . لم يأت احد من اهله ، او اهلها ، للتعرف على الجثة ، او لاستلامها ؛ فدفنت بعد التشريح واستمر التحقيق دون نتيجة .

بكت فتحية طويلا وبحرقة لهذا الحادث ولم تنسه شهوراً بعد ذلك .

امضها ان تتذكر انها اساءت معاملة تلك المخلوقة المعذبة التي كانت ساقطة في فخ حياتها المزدوجة ، تبحث عن العطف والسلوى . اراد توفيق ان يخفف عنها مداعباً فسألها كيف امكنها ان تعلم ان حسن الفتاة كانت تبحث عن العطف والسلوى ، فضربته على ذراعه ثم احتضنته وأخفت وجهها في صدره مجهشة بالبكاء :

ـ لأني مثلها ؛ اعرف اني مثلها ، مثلها والله .

كانا في غرفتها يتحدثان بهمس ، بعد ان انصرف ابواها . ضمها اليه بقوة ، فلم ترفع رأسها وابقته مخفيا في صدره .

ـ دعينا ننسى ياحبيبتي هذه الاحزان... هيا اعطني فمك ولاتتعبي عينيك الجميلتين هكذا .

هزت رأسهابالرفض :

ـ أنت ياتوفيق فاسد بطبعك ، اعترف بهذا ؛ لاتفكر الا بذلك العمل ، كأن الدنيا خلت من الاحزان والناس المساكين الذين يقتلون ظلماً .

ـ ولكني بالعكس ؛ احب ذلك العمل كما تقولين لأنسى هذه الامور السوداء ، هذا هو كل شيء .

لم تقبل بمنطقه وخشيت ان تعاود مضاجعته وتتكرر المخاطرة :

ـ أنا الآن ألقف من الهواء ، هل تفهم ماأعني ؟يكفي ان تلصقه بي حتى أحبل .

عصر يوم ١٥/ ٥/ ١٩٨٠ قصد توفيق لام دار اخيه عبد الباري وفي نيته ان يستدين منه مبلغاً من النقود يساعده على قضاء حاجاته الضرورية .

لم يكن توقيت الزيارة موفقاً جداً ، فقد كان عميد آل قصابي مريضا والكل مشغولون به جسديا وفكرياً .لم يجد نجية حين سأل عنها ؛ وقص عليه اخوه بأن زوجها ممتاز ، الذي صار قائمقاماً ، عمل معهم مسرحية لاتليق الا بمهرج في سيرك من الدرجة الرابعة ؛ فقد حضر الى بيتهم دون سابق انذار ؛ يسوق سيارة فخمة ويحرسه شرطيان مسلحان ، وبعد ان اوقف السيارة ، ارسل احد الشرطيين يدق جرس الباب فلما خرجنا نستجلي الخبر طلب ، دون ان يتحرك من مكانه ، ان تأتي زوجته بسرعة ومعها ابنته ليعود بهما الى خانقين ، لان وقته ضيق واشغاله كثيرة ؛ وهكذا عادت نجية الى بيتها وكان الله مع الصابرين .

ابدى توفيق اسفه واشمئزازه لهذا الحادث ، ثم سأل عبد الباري عما اذا كان مستحسناً ان يذهب لعيادة عميد آل قصابي ام لا ، فاستمهل هذا منه دقائق غاب خلالها لرؤية زوجته ثم رجع متفتح الوجه واعلن له صحة رأيه في عيادة ذلك القصاب . وفي الطريق القصير بين الدارين ، همس توفيق لاخيه بحاجته الى مبلغ من المال يستعين به على قضاء امور حياته ، فتعاطف عبد الباري معه في الحال واخرج من جيبه خفية خمسين دينارا دسها في يد توفيق :

ـ اعدها وقتما تشاء

شكره وربت على ذراعه وهما يدخلان دار آل قصابي .

وجد والد كميلة متمددا في فراشه ، ملفوف الرأس ، يتطلع الى الداخلين والخارجين بنظرات خائفة ؛ وبجانبه زوجته وجاسم الرمضاني . رحبوا بزيارة توفيق اللامتوقعة وظهر عليهم كأنهم اعتبروها منة عليهم . كان عميد الاسرة الشيخ يشكو ، كما قيل له ، من كبده ، ولقد استغرب الطبيب

ان يسمع منه انه كان يحتسي ربع بطل ويسكي يوميا قبل مرضه وان يسأله هل هذا كثير عليه .

لم يبق طويلا واستأذن بالانصراف داعياً للقصاب طريح الفراش بكل الخير والصحة والعافية . رافقه عبد الباري الى الباب الخارجي . لمح في الظلام ، المشتمل الذي سكنه سنوات مع زوجته كميلة ، يبدومهجورا فسأل عنه اخاه فأعلمه هذا بأن جاسم الرمضاني الذي كان يشغله انتقل للسكن في دار آل قصابي ، في غرفة مجاورة لتلك التي يحتلها المريض ، تسهيلا لمهمته كمشرف على تمريضه واعطائه الدواء في الوقت المحدد .

كان الجو دافئا ، يميل الى برودة ربيعية ، فلبث يسير غير قاصد محلا معيناً ؛ بعثت فيه الدنانير الخمسون راحة في القلب وبدت مخاوفه عن الجوع والعوز غير ذات أساس ؛ لعل من الممكن ، حسبما جرب ، ان يتمتع بهذه الراحة في القلب حتى نهاية حياته ؛ فالناس هنا غير منقطعين عن بعضهم ، وهم يتشاركون المحن بصورة عامة ؛لكنه امر غير موثوق به تماما ، فأغلب المآسي تتأتى من الظن بأن المحنة عامة والمساعدة لابد قادمة .

اشترى بعض الحاجيات والفواكه والخضراوات وكيلو من لحم الغنم ،وعاد محملا بها الى الاسواق ، فوصل في الوقت المناسب ، اذ كانوا يجهدون ، ببؤس ، لتدبير العشاء بمواد فقيرة وغير صالحة .

لذ لهم الطعام الدسم بعد جوع ، فأكلوا ، امام التلفزيون ، كالعميان وضحكوا لنكات يلقيها احدهم بين الحين والآخر . اخبرهم ابو فتحية بأن كرسي المديرالعام بالوكالة انكسر تحته مرة اخرى .

- لم ينكسر كما تنكسر كراسي عباد الله ، بل انفلق فجأة وتشقق كما يقولون من كل الجهات ، فوقع مديرنا العام الجليل بين الانقاض الخشبية وتمزقت ثيابه وخاصة سرواله واصيب بعدة جروح . تعبنا والله بحمله وبنقل قطع الخشب وتنظيف المكان . تأتيك المتاعب احيانا من السماء ؛ لاتعلم كيف ولامتى .

سهر توفيق معهم تلك الليلة لمشاهدة احدالافلام المصرية ، شاعراً بالوئام يسود الجو ؛ كانوا اناسا يختلفون في المزاج عنه وفي المستوى الفكري والتعلم ، لكنه كان يحس بأنهم اجتمعوا ، بصدفة غريبة ، تحت مظلة تفاهم حدسي مباشر .

نام نوما عميقا بدون احلام ، بعد ان اتعب نفسه عبثاً في التفتيش عن دفتر مذكراته . لم يحزنه فقدانه كثيراً ،فقد نسي اغلب ماكتب فيه .

بعد اسبوع قصد دار آل قصابي مرة اخرى ، فوجد عميد الاسرة احسن حالا ، يجلس في فراشه متبدل النظرات ، يتدخل في كل حديث ولايحب ان يقاطعه احد . كان انبعاثه صحيا هكذا مصدرا لمسرة جاسم الرمضاني ، الذي عد ذلك نتيجة لجهوده الشخصية الخارقة للعادة .

حين انصرف توفيق من دار آل قصابي لاحظ الاضوية مشعلة في المشتمل فسأل عبد الباري عن السر في ذلك فأخبره بأن الموضوع يتلخص في ان كاسب التقى بزوجته انوار في دار اهلها في الشمال فاشترطت عليه الا تعود الى دار الزوجية الا اذا نقل محل سكناهم الى بغداد او الى اي مكان آخر بعيد عن خانقين ، فوافق على ذلك واختار السكن في بغداد على ان يبقي على معمله في خانقين ويوازن بين عمله وزوجته رواحا ومجيئا بين بغداد وخانقين ؛ ورجا من عبد الباري مساعدته في ايجاد دار مناسبة لهما ، فعمد الى آل قصابي وعرض عليهم فكرة تأجير المشتمل لكاسب ، فوافقوا على ذلك مستحسنين الفكرة ، خاصة وان كاسب وانوار من الأقرباء ؛ وهكذا جرى تنظيف المشتمل ونقل الاثاث منه لتحضيره لانوار وكاسب . هفا قلب توفيق لهذه الاخبار واثنى على اخيه لترتيبه الامور لمنفعة الطرفين ، فشع وجه عبد الباري بابتسامة عريضة واخذ يهزرأسه .

ـ أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

تلك الليلة هاج به الشوق الى انوار ، وتملكته الرغبة لرؤيتها والاحساس بوجودها قربه ؛ مثل هذه المرأة تمنحك شعوراً ، من بعيد ، بأن الحياة قضية

من نوع خاص ، قضية تستحق المعالجة بتعقل واصرار ؛ وبدا له انها كسبت المعركة الغامضة التي خاضتها بمفردها ، فازداد اعجابا بها وشوقا لرؤيتها مرة اخرى .

وفي صباح مشمس حار ،قبيل نهاية شهر مايس ١٩٨٠ ، حين كان توفيق لام جالسا في مقهى حمزة ،تنتابه الهواجس عن معنى تأجيل انتقال كاسب وانوار الى المشتمل اسبوعا واحدا ، وهل يمكن ان يصيرهذا التأجيل الى اجل غير مسمى ، لاحظ سيارة المارسيدس التي يعرفها جيدا ، تقف قريبا من المقهى ، ورأى غسان يهبط منها بمرح ظاهر ، مرتديا ثيابه العسكرية الانيقة ، واضعانظارات سوداء عريضة على عينيه ، ووجهه يتألق عافية وسروراً .


Twitter: @ketab_n

٤

خلال مسيرة غسان بين سيارته الفخمة والمدخل البائس لمقهى حمزة ، كنت أتساءل عن سبب إحساسي بأن لدى هذاالشاب جوهراً نادراً في تعقده ، قبل أن أتعرف على التفاصيل ؛ وعن سبب تسليمي بحقه في أن يتجه الي ويدعوني لتفهم حاجته الخفية القصوى ولمساعدته كانسان .قلت له ذلك في نفس الصباح المشمس من مايس ،حين جاءني بشوشاً الى المقهى يحمل هموماً غير مرئية لاتقوى جبال الأرض على حملها . صبرت على مداوراته والتفافه وتراكضه بعيداً عما يريد مني ؛ ثم بدأت أنزعج .لم أعد أرى فيه غسان ،ذلك الصبي الخجول الصامت ذا الثياب المتهرئة ؛ وأردت مع هذا ، أن أعيد له وداً بود ، واهتماماً باهتمام ؛ ولم أكن مخطئاً ، لكني ، كذلك لم أكن واسع الصدر كما يجب .رفضت أن أعطيه كتباً كما رغب ، أو تظاهر بأنه يرغب ، وأنكرت أني أقرأ أو قرأت أي شيء منذ فصلت من الوظيفة ، وبأني ، آخر الأمر ، لا أعتقد بفائدة القراءة للبشر ، فهي لا تغيرهم الى الأحسن وهي ، بالأحرى ، عكس ذلك تشقيهم وتعقد حياتهم .ادهشني ، عندئذ ، ان يهتف بلهجة عادية كمن يرمي حجرا في بحيرة :

ـ انا ، يقولون عني ، بأني معقد ؛ مع اني لم اقرأ الا كتبا قليلة .

ـ من يقول عنك هذا ؟ وبأية مناسبة اذا امكن أن اسأل ؟

لم يخطر لي بأني كنت متوتر الاعصاب ، حاد النبرات في كلامي ؛ لذلك دهشت اذ رأيت على وجه غسان ، المنصت إليَّ بتركيز ، نوعا من الارتداد كمن صدمه لوح بارد . اخذ يعبث لحظات بنظارته السوداء الثمينة بسكون ، ثم قام فجأة :

ـ سامحني استاذ توفيق . انا ازعجك ، لاأدري كيف ولا لماذا ؛ وانا لااطيق ذلك . سامحني ، مع السلامة .

هتفت به ان قف ، واستطعت ان اضحك :

ـ ماذا جرى لك ؟ لماذا تظن انك تزعجني ؟

ثم نهضت وامسكت بذراعه واجلسته :

ـ اهدأ ، الآن .

وطلبت شايين آخرين لنا .

ـ دعنا نشرب الشاي بهدوء ونر ماذا حدث .

لاحظت ارتجاف يده الممسكة بالقدح . همني ذلك وآلمني . لعله لايفهم شيئا حين يتكلم عن امور لايفهمها ؛ مثل عقده ومايتقولون عنه ؛ ولعلي على خطأ في اعتقادي انه يتظاهر ويلف ويدور ، ولعل هناك سبباً آخر يجعلني متوترا هكذا...

ـ قل لي حقاً ، لماذا ظننت انك تزعجني ؟

ـ لااعلم .

ـ ولكنك اردت ان تنصرف ؟

ـ صحيح .

انهى شرب الشاي بجرعة واحدة ووضعه على الطاولة المعدنية .

ـ لاأدري في الحق ، لماذا ظننت انك منزعج من وجودي هنا ،ولا أدري ايضا هل كنت سأنصرف ام لا . أترى ؟ هكذا انا ، هذه الايام .

كان يتحدث بصورةآلية وهو يعبث بنظاراته السوداء .

ـ هذه الأيام ؟ ماذا حدث لك هذه الايام ؟

ـ لاشيء بالطبع . ولكن...

ثم تفتحت قسمات وجهه قليلاً وتطلع نحو الافق لحظات عاد بعدها ليَّ :

ـ بودي ، استاذ توفيق ، ان تنصحني بالكتب التي يجب ان اقرأها اولاً ؛ لا اعرف لماذا لم تعد تهمني متابعة دراستي العلمية ؛ هنالك حاجة بي للانغماس في قراءات فكرية وادبية .

ـ لاأظنك جادا في سلوك هذا الاتجاه .

ـ انها حاجة نفسية مستمرة وعنيدة ، ان اطلع على افكار ، اعني آراء البشر المتفوقين عقلياً ؛ آراءهم في الحياة وفي الانسان ومشاكل النفس ، ولادري ماذا ايضاً .

كان جالسا على حافة التخت الخشبي ، يبتسم بخجل وحرج ؛ شعرت بارتياح وانا ارى ابتسامته تلك ، وعلامات خجله وتحرجه .

ـ يسرني ، غسان ، ان اعتقد انك جاد في هذه الامور وان الحاجة هي التي تدفعك اليها وليس شيئا آخر .

ـ اذن ؟

ـ سنرى : لدينا الوقت الكافي ، اليس كذلك ؟

ـ في هذه الحالة ، اسمح لي يااستاذ توفيق ؛ ان ادعوك للغداء معي في مطعم اعرفه ، يجيدون فيه عمل السمك المسقوف . لاترفض ارجوك ؛ فقد نستطيع الحديث كما نشاء ونحن على المائدة .

ـ انت ايضا بحاجة للحديث ؟

ـ الحديث معك ، استاذ توفيق ، له اهمية كبيرة عندي ؛ فأنا اثق بنواياك الطيبة نحوي ، واشعر انك انسان صادق محب للخير وصريح ؛ وانا ، في الحقيقة ولاسباب خاصة ، بحاجة لشخص مثلك يكلمني .

مددت ذراعي وامسكت باحدى كفيه فسحبها بسرعة . لم تهمني حركته ؛ فقد كان على حق ، ذلك الشاب الحزين الذي شعرت انه مصاب خفيةً في موضع من ذاته .

ـ حسناً ، انا اقبل ياصديقي دعوتك المترفة للغداء ، انما على ان احذرك باني لااملك مالا لمشاركتك في المصاريف .

ـ تشاركني في المصاريف! ولكنك تجهل امورا كثيرة

في الطريق الى المطعم ، كلمني بنبرته الآلية تلك ، عما اورثته اياه والدته . قال انها امور لايتحدث عنها البشر فيما بينهم ، ولكن ذلك لايهمه كثيرا ؛ ثم اوجز الموضوع بجمل قصيرة قليلة... الثروة الضخمة التي ورثتها والدته من زوجها الثاني انتقلت برمتها ، تقريباً ، اليه ؛ وهاهو بين ليلة وضحاها ، انسان ثري ذو امكانيات مادية مذهلة .

كان المطعم ، في الواقع ، مركباًكبيراً راسياً بشكل دائم في جهة قصية من شارع ابي نواس ؛ يصله بهذا الشارع درب ضيق ، سلكناه تحت الشمس واتخذنا لنا مكانا على مائدة قرب شباك مفتوح . هبت علينا نسمات رطبة مضخمة برائحة السمك ، وكان اهتزاز ارضية المطعم مدعاة لشعوري بالراحة والمرح .

ـ اسمع غسان ، لم اكن على علم بأي خبرعنك منذ ان بدأت مشاكلي في الدائرة ثم في البيت .

ابتسم مجاملة واخذ يدور بنظره مفتشاً عن الخادم . ادركت ، بغتة ، اني كنت ، طوال الوقت ، متشنجا من هذا الشاب احساسا مني بأن هنالك امرا يحيطه يجب ان اعرفه وانا لااعرفه . كان ذلك التواء في طبيعة الاشياء الطبيعية ، ان امكن القول .

ـ اشعر برغبة خاصة في أن آكل طعاما جيداً ؛ اتظن ان لرفقتك ، استاذ توفيق ، ولهذا الجو الجميل دخلا في الامر ؟

ـ يخيل ليَّ اني يجب ان اقول نعم بتواضع .

وقف الخادم على رؤوسنا مسلما والابتسامة تملأ وجهه الاسمر ، وقدم لنا قائمة الطعام . كان النهار رائعا حقاً ، من بين تلك النهارات التي تشهدها بغداد مرات قليلة خلال هذا الشهر .

تركت لغسان ان يختار لنا الوجبة التي يفضلها ، وركنت اتطلع الى المويجات المقبلة من اقصى النهر ، تهز مركبنا الجميل .

شرب خلال نصف ساعة قنينتي بيرة ، ولم تظهر عليه اية بادرة سكر او انتشاء ؛ وكنا في الاثناء ، نتناول بحديث حيوي شؤون البلد الاقتصادية ومشاكل تأسيس معمل استيراد المكائن وايجاد المهندسين الاكفاء... الخ وكان منسجما غاية الانسجام مع نفسه ومع مايعرضه من افكار وملاحظات . خطر لي بأن من الجائز ان تكون لديه عملية تنقيب داخلية قد تظهرنتائجها بعد وقت خلال جلستنا هذه ، وكنت انتظر اذن وانا اشرب من كأس البيرة بتأن وحذر .

ـ ارجو الا يضجرك حديثي هذا ،استاذ توفيق ؛ لقد مللت ثرثرة اصدقائي الشباب ؛ كلها تدور حول الجنس والفتيات والحرمان ولااعرف ماذا ؛ وكل هذا لاينفع الا في قتل الوقت .

انتبهت ، متأخرا ربما ، الى بعض الحركات العصبية في طريقة تناوله الطعام ومضغه ، وفي التفاتاته المفاجئة وامساكه بالمعلقة والسكين ، وفي طريقه قطعه للخبز ؛ وكانت نظراته تغيم لحظة وتنطفيء ، ثم تعود ثانية الى الحياة والى الالتماع .

ـ الا تفكر ، انت ، في النساء ؟

ـ لادري . ليس كثيراً ، كما اعتقد ، ثم ،كيف يتسنى لي ان اعرف ؟

وانهى شرب كأسه ؛ ولم ار انه تكلف عدم الاكتراث في جوابه .

ـ أأنت في مأزق ياغسان ؟

تظاهربأنه لم يسمع سؤالي وشغل نفسه بمناداة الخادم وبالطلب منه ان يجلب قناني من البيرة .

ـ كلا ، لست في مأزق كما تسميه ؛ فالبشر الذي يملكون ، لامأزق عندهم ؛ وانا املك الكثير ، فلا مأزق عندي ، تحدث المآزق مع الفقراء ياسيدي .

ثم قهقه بخفة وتجلى في حركاته تأثيرالشراب عليه . سرني ذلك بشكل من الاشكال .

ـ انا استمع اليك . حدثني عن افكارك هذه ، فلديك فرصة لمستمع جيد .

ـ يمكن ، يمكن . انت بالحق مستمع جيد ياستاذ توفيق ، ولكنك قد لاتفهم رغم ذكائك . وانا ، بالمناسبة ، احترم معاناتك والمشاق الكثيرة التي سمعت انها احاطت بك . لقد اسفت لكل ذلك وكنت حزينا لفترة طويلة على مانالك من أذى ؛ فأنا مثلك ، انا ايضا ومنذ الصغر ، كنت اتلقى الأذى من الناس دون ان اعرف سبباً لذلك ؛ خذ مثلا... انا اثق بك تماماً ياستاذ توفيق ، ولااريد ان اخفي عنك شيئا مهما... خذ مثلا... مثلا ، ماذا اقول ، خذ مثلا طفلا في الخامسة من عمره ، ولوعا ولعا شديدا بأمه ، امر طبيعي ، اقول يحبها حبا طبيعيا جميلاً ، ما اجمل حب الطفل لامه ، اترى ؟ وهو غير مذنب في ذلك... أأنا على خطأ ؟ غيرمذنب ابداً ، ومع ذلك...

كان يأتي بحركات غريبة من ذراعيه ؛ يفتحهما كجناحي طائر ويضمهما الى صدره ، محتفظاً بهما مضمومتين هنيهة ثم يفرد احداهما مشيرا بها الى الافق حيث النهر وضفته الاخرى البعيدة .

ـ بعد ذلك ياسيدي الكريم ، لااحد يأتي الى هذا الطفل الولوع بأمه ليخبره على الأقل ، اقول على الاقل ، لم اختفت تلك العزيزة عن ناظريه وعن دنياه بين لحظة واخرى ؟ لا احد ابداً ؛ وهو ، فوق ذلك ، اشارة وشاهد مكروه على وجودها السابق . حسناً ، قل لي : ماذا فعل هذا الطفل ليستحق كل هذا ؟ قل لي بالله عليك ، قل لي ارجوك . لاانكر ، ربما ، من حقهم ان يوحّدوا بينه وبين من انجبته ، من منحته الحياة : هذه بديهة ، محض بديهة ، ولكن ، ولكن... ان تحاسبه على اعمالها اللامعقولة واللامستحبة ، قل لي ، هل يصح هذا الموقف ؟ تضع طفلا في الخامسة ، ولوعاً ولعا طبيعيا بأمه ، تضعه موضع الاتهام وتسائله عما ارتكبته هذه الانسانة بحق الآخرين ؟ هل يصح... قل لي هل يصح ؟

كان مستمراً في تناول طعامه بطريقة مختلفة ؛ فقد ترك الشوكة والسكين وانقض بأصابعه على السمكة فغرسها في اللحم الابيض المغطى بقطع البصل والطماطمة وصار يحمل الى فمه ماتمسكه من لحم وغيره . فيبتلعه اثناء الكلام ولايتوقف عن المضغ ولا عن الحديث .

ـ... والطفل ؛ انا ، استاذ توفيق ، أنطلق هكذا اغلب الاحيان ؛ لااعلم كيف ولالماذا ، ولكني أنطلق هكذا ، وأمسح بحديثي ، كما ترى ، كل شيء ، كل مساحات الارض ، اذ اني أعتقد ان هذه هي الوسيلة الوحيدة... يمكن الوحيدة التي لاتفيد في شيء ابداً ، ابداً... لاتنفع ولاتعزي ولاشيء بلا شيء ؛ ولكني أنطلق هكذا وستقول لي... طفل ينسى وينسى...يامانسوا ونسوا ،وهذا كلام حكيم ، في الحق انه كلام حكيم يجب ن أعترف . ولقد نسي مثلما ينسى كل عباد الله على ارض الله ؛ فما جدوى ان تبرز له بعد سنوات تريد ان تراه ؟ وتراه بالطبع ، فما المانع ؟وهي ، هي من عالم آخر ، تنتمي الى... الى شخص آخر ، ومتزينة ومحتشمة ولكنها من عالم آخر ؛ والطفل نسي ، فلم تكرار العذاب والتأليم مرة اخرى ؟ اريد ان اقول ،لنفعل الامور السيئة ، حسناً ، ولكن لنترك الوقت للاخرين كي ينسوا ، اعطهم وقتا لينسوا فيه ، لا ان نكرر الظهور والتذكير والمعاودة .

ثم سكت ؛ توقف فجأة عن اندفاعه الكلامي المنفلت واخذ يأكل بصمت وقد ركز انظاره على مابين يديه . لبثت ساكناً ، اتناول طعامي غير متطلع اليه . لم يخطر لي أن غسان كان ينتظر اشارة بسيطة مني ليتخلص من هذا الجحيم المستقر في صدره ، فيكشف ماكان يجب ان استنتجه . لم ينتبه احد لذلك الطفل ذي الاعوام الخمسة ولمأساته الخفية ، وانشغلوا بمواساة الأب تاركين الضحية الصغيرة لعبث الاقدار .

سمعت غسان ينادي الخادم ؛ كان فمه وشاربه ملوثين بالدهن وببعض بقايا اللحم ، وفي عينيه مظاهر نعاس . طلب قناني اكثر من البيرة ونظر ليَ نظرة خاطفة ثم ابتسم .

ـ انت لم ترني بهذه الحال ، ياأستاذ توفيق ، ايها الصديق الكبير ، ياذا القلب الحساس والنفس الرضية ؛ ولكني دائما هكذا .

اعدت له بسمته :

ـ انا احس بارتياح لانك تكلمني دون قيود ياغسان ، وانا استطيع ان اتخيل ألمك الطفولي ذاك .

ـ انا ؟! كلا ، انا لاعلاقة لي بالأمر . ابداً . انا لااهتم بقضايا من هذا النوع ؛ لدي اهلي... ابي وسندس واخواتي ونسياني... صديقي النسيان ، إلا أن الورطة الأخيرة ، أهي ورطة حقاً ؟ لم تكن تخطر على البال ابداً ، وهي بالتأكيدمن صنع شيطان رجيم . هات من فضلك .

تناول قنينة البيرة فأدارها في كأسه فطفح الزبد فأسرع يرفع الكأس ذات الرغوة ويشرب ويشرب . اعادها مغمض العينين ، يلوث الزبد فمه وشاربه .

ـ آه... هي هكذا دائما ؛ تصير الأمور معها كأننا في مسرح . لذلك... إذن ، تصور ، تصور معي ركحاً مضاء وهوفوقه عاري الجسد ، معلق من ذراعيه وابطيه بحبل الى السقف يسحب ببطء فيرفعه قليلاً قليلاً فتتدلى... المعذرة استاذ توفيق... تتدلى خصيتاه وعضوه ، وهو يجهد ليقف على رؤوس اصابعه ، وفي هذه الحال بالضبط... اعني وهو في هذا الموقف بالذات ، يجري الاعلان على الملأ الجالسين باحترام ، بأن السيدة الوالدة قد اورثته من البيوت ثمانية ومن العمارات واحدة فقط ومن النقد المرصوص في البنوك ربع مليون دينار ، فيصفق الجميع بحماس لامثيل له ثم ينتزعون احذيتهم ويرمونها عليها هاتفين... ايها الحقير ذو الحظ الحسن ، تمتع بنقودك القذرة ؛ فيعود الطفل مرة اخرى ، يتساءل عما عمل لكي يساء اليه هكذا ؟

انا هكذا ، أنطلق هكذا ، لانني لااريد كل هذا ، فقد سرقوا مني... هي التي سرقت مني نسياني واعادتني اليها والى كل ماعملتْ .

الآن ، نحن نواجه الآلام والأحزان ، في ممر الحياة ، أليس كذلك ؟

وهي تصيبنا وتستقر الاصابة في مكان ما لايبتعد عن الجسد كثيراً ، وهنا المصيبة الكبرى . افترض معي ، افترض فقط ، ان يصفعني شخص امام الملأ ، هكذا ، ان أصفع امام الملأ ، فيلهب هذا الفعل خدي وقد يدميه : الا ان هذا الاثر المادي لايبقى طويلاً ، بل يبقى ماهو ادهى وأمر واكثر تخريبا ولكن...اين ؟اين يبقى اثر الصفعة المهلك هذا... افي القلب ، ام العقل ، ام في الشعور ، ام النفس ام الروح ام في الوجود الانساني ؟ وكلها ، قل لي ماهو تكوينها الحقيقي خارج حدود اللحم والدم والعضلات ؟ بعد ذلك... مافائدة التساؤل والاستقصاء ؟ ام يستحسن ، منذ البداية ، ان نستعمل مراهم ومخدرات من نوع خاص تشفي الآلام المخفية في الاعماق وتعيد لنا نظافتنا النفسية ؟ لاتشرد بذهنك وكن معي ، مع فكرتي هذه ، انت يامن تنزف ، مثلي ، في الظلمات .

ـ دع ماجرى ياغسان ، دعه يمضي ولاتعد له سريانه على ذاتك ، فسوف تقتلك هذه العملية ، ان لم تكن قد قتلتك بعد .

ـ هذا صحيح ياسيدي ، هذا صحيح ؛ ولكني لست مقتولا لسوءالحظ ، ولاعلاقة لي بالأمر ، والتشابه هنا محض صدفة سيئة ، وأنا ارجو المعذرة منك ياأستاذ توفيق لتصديع رأسك بهذه الطريقة الفجة .

عدت معه الى حينا القديم بعذر زيارة اخي عبد الباري ، وكانت الساعة قد جاوزت الخامسة وآثار البيرة زالت تقريبا بعد عدة اقداح من الشاي والقهوة التركية ؛ وكنت متعبا يتملكني النعاس . اخبرني انه سيغادر غدا الى المعسكر في الصباح الباكر ، وانه قد سر حقا من هذا اللقاء وأنه لم يرد ان يتصرف على هذه الشاكلة ، غير ان البيرة كانت قوية عليه ؛ كما يقولون . بقي يكرر اعتذاره وهو منزعج بعض الشيء ثم ابدى رغبته في ان أزوده بكتب أعتقد بجودتها او بعناوينها ليشتريها . قلت له بأني أعتقد انه قرأ كثيراً ولكنه يتظاهر بعكس ذلك لسبب اجهله .

اجاب بانه قرأ كتبا كثيرة ولكن بشكل فوضوي ؛ فقد كان يترددعلى

المكتبة العامة آنذاك ويقرأ ويقرأ كمن اصيب بالجنون ؛ الا انه لم يستفد مما قرأ ، ولم يساعده ذلك في شيء ، دون ان يعرف العلة .

هبطت من سيارته امام دار عبد الباري .

ـ لو لم تعنك الكتب التي قرأتها ، لما استطعت ان تتكلم كما تكلمت قبل ساعات .

ثم أشرت له باصبعي منبهاً :

ـ تذكر ، لم ينته اي شيء ، لكن البداية كانت مثمرة كما ارجو . الى اللقاء .اعتن بنفسك ؛ وشكرا للجلسة الجميلة وللغداء الشهي .

خيَّب املي ان ارى الاضواء مطفأة في المشتمل والحياة لم تعد اليه ؛ وكان علي ان اخفي لهفتي لرؤية انوار وانا اسأل ثريا عن صحة والدها وعن اخبار الجماعة ولِمَ لم ينتقلوا حتى الساعة . كانت ، على عادتها ، مهمومة بشؤون عدة في نفس الوقت ؛ فابنتها نجية ، التي تخابرهم كل اسبوع تقريبا ، لم تتصل بهم منذ اسبوعين او اكثر ، وهم يتحرجون من الاتصال بها لئلا يسيء اليها زوجها او يغضب لهذه البادرة منهم ؛ وابوها ، عميد آل قصابي ، لم يستعد كل صحته ، ولكنه ملهوف الى الشراب بشكل مقلق ؛ والجماعة ، انوار وكاسب ، نقلوا اثاثهم كله ثم اغلقوا الباب وسافروا منذ يومين دون ان يتركوا خبرا . كانت ملامح وجهها مغضنة ذاوية ، فوددت ان اسألها بصراحة عما جنته من كل هذا الركض وراء الكسب والتحكم بأمور الآخرين .

كان عبد الباري أصح منظرا منها وقد سمن قليلاً . حدثني بأن قضية ابنته نجية صارت كابوسا بسبب قلق والدتها العظيم عليها ، وهو لايعلم كيف يتصرف مع شخص مثل هذا المحامي الذي صار حاكما بأمره في خانقين . طمأنته بان ابتعاد نجية عنهم هو الذي يثير هذه المخاوف التي لاداعي لها ، وان زوجها مهما بلغ من الحماقة والعجرفة لن يستطيع ان يؤذي زوجته وابنته ؛ فليصبروا قليلا ولينسوا مخاوفهم . افرحني ، بعد ذلك ، بتأكيده ان

كاسب وعائلته سيعودون عن قريب ، بعد يومين او ثلاثة ؛ فقد سافروا الى الشمال لبعض اشغاله ولرؤية عائلة زوجته . ثم دعاني للعشاء فلبيت دعوته ؛ وكان عشاء عائليا مرحا ؛ وحين اوصلني سلوان بسيارة والده الى حي العامل ، كانت الساعة قد شارفت على العاشرة والكل نيام ، فخطر لي بأني لم اصرف اليوم فلسا واحداً على شؤون الاكل والنقل ، وهو امر يجعل الفقراء امثالي سعداء موقتاً .

لم يأتني النوم رغم التعب والمعدة الملأى ؛ واضجرني التقلب على الفراش فقمت اقف في اطار الباب . كانت السماء سوداء ، تبدو عليها النجوم الخافقة كأنها تتنادى . لم يكن الحر قد هجم علينا بضراوته لكن الجو لم يعد بارداً . قصدت المطبخ وشربت كأس ماء ، ثم اتجهت نحو غرفة فتحية فدفعت بابها فلم تستجب وبدا انها مغلقة باحكام من الداخل . اخذت اتمشى في الباحة وانا ارى بصعوبة موضع قدمي تحت الضوء الخافت المنثال من النجوم والسماء . يلعب الحظ لعبات لاتصدق احيانا ؛ هذا الشاب ، الذي يدعي انه معذب ، يجلس فوق كومة كبيرة من الذهب ؛ امسكوه ، بين لحظة واخرى ؛ وأجلسوه فوق تلك الثروة المذهلة وقالوا له : هذا كله لك!! فبدأ يبحث عمن يستمع الى حديثه عن مشاكل طفولته النفسية . انه لامر طريف حقاً! ولم يعثر على من هو اكثر مني فقراً ، ربما ، واكثر خجلا واهتماما بالناس ؛ فقادني معه ودلق كل تلك الكؤوس في جوفه ليمكنه ان يرتاح تماما في تركيب كلامه . لم يكن هو نفسه «غساني» الذي عرفته ، والذي لايقدر على التفوه بكلمتين ليشرح مدى تعاسته العظيمة آنذاك ؛ غسان المنتشي هذا ، الملوث الفم والشارب بالدهن ولحم السمك ، ماعاظم بلاغته في تبيان بؤسه الطفولي! ولم يذكر والدته بخير ، او يحاول ، على الاقل ، معرفة اسبابها لتغيير حياتها الماضية!

كنت مازال اتمشى بسكون مثل شبح ، وانا منزعج مما يخطر لي وما افكر به ؛ لاشأن لي بإدانة هذا الشاب وبالسخرية منه ، وبالأحرى لاحق

يمكنني ان امنحه لنفسي في هذا المجال ،ومن السخف ان تتماوج في اعماقي اسئلة حسودة ، عن الاسباب التي تجعلنا ، نحن الاثنين ، على طرفي نقيض بهذه الدرجة من الشدة .

وقفت قرب فتحة السلم اتطلع الى الباحة ، يضيؤها نور خفي ينبثق من لا مكان . لايمكن ، منطقيا ، محاسبة الظروف وكيف تتحرك وتتلوى وتتراجع ثم تندفع فجأة نحو شخص ما فترفعه ، بأسبابها الخاصة ، الى اعلى او تدفنه تحت الثرى ؛ ومن المستحسن لنا ، مادمنا متفرجين لحسن الحظ ، ان نحكم على النتائج ونفيد منها دون التلوث بغبار الاحداث . دعنا اذن ، باخلاص ، نندس في اذيال معاطف المحظوظين ، فلن نخسر شيئا بالتأكيد ، سوى الابتعاد عن المأزق .

كنت ابتسم في الظلام ، مثلما يفعل الدهاة ، شاعرا بأني لن ارتاح في دخيلتي ، اذا استمررت في عملية الحط من شأن غسان بغير سبب واضح ؛ بل على العكس ، شعرت بأن من الضروري حتما ان اكون في سياقه وان القي نظرة متمعنة قريبة من الصواب ، عليه . كان متظاهراً ، ربما ؛ وكان يهيء لنفسه طرفاً موائماً كي يتكلم بحرية ، فلم يكن معتاداً على مثل هذه المواقف ، خاصة معي ، يجب ان اعترف ؛ وانطلق في كلامه دون عائق واستكمله كما اراد ، وصار بامكاني الآن ان احكم على مجموع ماتفوه به كأنه كتلة متراصة ، كل متكامل ، نص مسرود محدد . هذا صحيح بالفعل ؛ غير انه لم يكن متظاهراً ؛ ولكن امراً غامضاً بقي يفلت من ملاحظتي وانا انصت اليه . كأني به يخفي سرا ويريد في نفس الوقت ان يكشف عنه ؛ ولهذا لبث معلقا في الفراغ على اكثر من مستوى .

عدت اسير ببطء رائحاً غادياً مثل رقاص الساعة . دفعت مرة اخرى باب غرفة فتحية بخفة فلم ينفتح كما توقعت . كان الجنس اللعين ومايبعثه في العقل من مشاريع وافكار حمقاء ، لايزال يعمل عمله فيَّ وباستمرار .

انسللت ، دون ان اريد ، من حلم لذيذ ، لذيذ كنت غارقا فيه ؛

وفتحت عيني على الغرفة تسبح في ضوء حليبي ضعيف يأتي من النافذة ، والدنيا ساكنة . كنا زوجين ، انوار وانا ، عاريين في فراش وثير ؛ وهي ، في عز جمالها وشبابها ، ملونة مشرقة متضاحكة ، تسألني بين القبل ذات المذاق العذب ، كيف امكن ان نتزوج واين مضى الآخرون وماهذا الحظ العجيب الذي جمعنا هكذا! وحركات الحاجب الشبقية ترافق الهمسات والقبلات ، فأزداد رغبة فيها واحتضنها واضمها الى صدري وانا احدث نفسي بأنها تجهل اننا في حلم واننا لم نكن من السعداء الذين يجمعهم الحب والزواج ، وان ليَّ ، رغم ذلك ، ان افيد من هذا الوضع واتصل بها وافرغ شحنة رغبتي فيها وارتاح وارتاح... حينذاك تباعدت جفوني وتبعثر الحلم بعيدا عني . لم اكن متوترا ، وكانت جوانحي تفيض بفرح لايوصف وانا اتطلع بنظرات فارغة الى سقف الغرفة القاتم . ماهذه المعجزات الصغيرة التي تجعل الانسان ، بحيلة غامضة ، يفجر في نفسه سعادة بهذه الدرجة من القوة! كنت فرحاً فَرَحَاً عظيما نادر المثال ، لم اعشه في الحياة من قبل . وباستسلامي لطراوة ذلك الحلم المتألق وبقائي في الفراش ، عدت اغرق في النوم ثانية .

قمت مع العاشرة ، مع الضجيج الآتي من كل الانحاء ؛ الا ان روح الحلم بقيت تتلبسني طوال النهار .

في مقهى حمزة ، ضحى ، لبثت اكبت نزوعا شديدا للذهاب الى دار عبد الباري ، لعل الصدفة تجعل أنوار في بيتهم فأراها . ثم استرجعت علاقتي القصيرة العميقة بهذه المرأة . كدنا نتصل ببعضنا منذ اللقاء الاول ، حين دفعتني عاطفة مجنونة نحوها بشكل لم اعهده في نفسي ؛ فترصدتها في تحركاتها المتوثبة وهي تسعى بقدمين حافيتين وحجل ذهبي يغني ؛ وقبلتها في اول تعرفي عليها ؛ فلم تستأ ولم تعترض ، بل ارجعت لي قبلتي وزادت عليها ؛ وكان ممكناً ، ربما ، ان نكمل اتصالنا الطبيعي لو توفر الوقت والمكان . غير ان الامر لم يكن في الحقيقة هكذا ؛ وهي ، في دخيلتها ،

كانت ابعد ماتكون عن هذه الخفة الظاهرة ؛ ولعلها دهشت من نفسها اذ تقبلت هذه المبادرات البعيدة عن المألوف من شخص غريب ، واذ قامت هي الاخرى بافعال تدعو الى دهشة اقوى . وفي تلك الليلة المشهودة في خانقين ، حين جاءتني وانا طريح الفراش منكسر مرتين ، كانت قريبة مني بصمت ، وكانت لي صديقة وحبيبة واما عطوفاً ؛ وماكان من الممكن البتة ان تخطر لي عنها اية فكرة خبيثة عن الجنس او غيره . ابداً ؛ فهناك حدود لكل شيء .

مساءً ، قلبت كتبي ، مفكرا في العناوين التي يمكن ان انصح غسان باقتنائها ؛ فلم اجد شيئا كثيرا يستحق عناء الشراء ؛ ولعله قرأ اكبر عدداً من الكتب مما لدي . ثم تذكرت ماقاله عن لاجدوى فعل القراءة ؛ ولم افهم بالتحديد ماأراد ان يقول ؛ اذ ان ما تمنحه الكتب للانسان ـ الفرد يتطلب زمنا طويلا ليظهر له أثر ؛ ومن السذاجة ، بالدرجة الاولى ، ان نسعى عن طريق القراءة ، لحل مشاكلنا الآنية المعتادة .

اقبلت فتحية ، بعد العشاء ، وهي في ثوب ازرق خفيف يبرز ثناياها وارتفاع نهديها . لم تكن انيسة خلال الشهر الماضي ولا هي الآن ؛ كانت ملبدة الملامح ، قلقة بسبب دعاوي الدين التي اقامها عليها أولاد زوجها .حسبت ان الحكم ضدهم سيصدر في الجلسة الاولى ، فافهمتها بان الدعاوى المدنية ذات المبالغ الكبيرة يتأخر البت فيها عادة ، وذلك لان المحكمة تكون على حذر وتسعى غالبا لاستكمال جوانب القضية واستماع كل مايريد الطرفان قوله او اظهاره . لذلك ، عليها الا تنتظر حسما سريعا ، رغم تفاهة المستندات وضعفها وسذاجة الدعاوى .

اخبرتني بأن موعد الدعاوى بعد يومين ؛ وهي قلقة منذ اللحظة ؛ فطمأنتها مرة اخرى وتبسطت في الحديث معها أسألها عن مزاجها ولماذا هي منقلبة السحنة هكذا . مكثت ساكنة مقطبة الجبين ، لاتنظر الي .

ـ هل تظن اننا في وضع مريح يااستاذ توفيق ؟

بعث فيَّ الحذر استعمالها للالقاب . اضافت :

ـ هنالك تقولات واحاديث عنا... عنك وعني ، واشاعات مغرضة : انا لااهتم بها ، ولكني يجب ان افكر بمستقبلي .

كنت احس بالسعادة حقاً ، ضحى هذا اليوم ، حين قصدت المقهى لشرب الشاي وقراءة الجرائد . لمِ َلم افكر ، منذ البداية ، بالسعي لتشكيل حياة بسيطة ، مكتفية بذاتها ، مثل هذه التي اعيشها هذه الايام ؟ مجال ضيق وعلاقات عادية واكتفاء بالحاجات الضرورية ومحو المزعجات النفسيةكالطموح ومحاولة الاثراء والتأثير في الناس وتخليد الذات وغير ذلك . اكان من الواجب ان أهان فأعتدي على انسان فأفصل وتلاحقني الخيبات الوظيفية والجهود اللامجدية لجمع المال ، كي ادرك حقيقتي وحقيقة ماأريد وحقيقة مااستطيع القيام به وتحقيقه ؟ وهاهي ، تلك الفتاة الصغيرة التي كادت ان تحمل مني ، تلمّح الى مزعجات مجهولة في طريقها اليَّ .

ـ من يمنعك من التفكير بمستقبلك ؟

ـ وضعنا . وضعنا غير مستقيم ياأستاذ توفيق ، وانت تعلم ذلك خيرا مني .

ـ كلا ياعزيزتي فتحية ، انا ، منذ عدة سنوات ولاازال ، لم اعرف ان وضعنا قد تغير وصار يؤثر على مستقبلك . قولي لي بم تفكرين ؟ لاتقلقي ؛ ساستطيع فهمك بسهولة .

ـ لاادري . لااعلم ؛ ولكنهم يتكلمون كأنهم يعرفون ماجرى بيننا ، أولئك المفسدون .

ـ دعينا نتزوج ونسكتهم .

ـ كيف تقبل ان نتزوج وانت لاتملك ماتعيل به نفسك ؟ لم تدفع لي اي مبلغ منذ شهر ونصف ولايبدو عليك انك تفكر في الدفع ، ام ماذا ؟

لم اكن املك ، في الحقيقة ، مادفعه لها ؛ وتعودت ان انسى مثل هذه المزعجات . الا ان البشر لايتركون اخاً لهم ينسى .

كنت افكر ، قبل جملتها تلك عن الايجار ، بأن اغازلها واحتضنها واحاول ان اريح اعصابها واعصابي بعملية جنسية جميلة رفيعة المستوى ؛ فاذا بها تسكب على افكاري دلوا من الماء البارد . اعتذرت لها ووعدتها ان ادفع لها دينها خلال الاسبوع القادم ، ثم رجوتها ان تنصرف لاني اريد ان اقرأ . تخيلت ، لحظة ، واملت في لحظة اخرى ، انها سترمي بنفسها علي وتقبلني راجية مني الا انزعج من حديثها ذاك ؛ لكنها استدارت عني وقامت من جلستها على الصندوق وخرجت جامدة الوجه ، دون ان تنبس بكلمة .

عزلت نفسي خلال الايام التالية ، مبتعدا عن الاسواق قدر ما استطيع خلال النهار وجزءا من الليل . كنت اجلس في المقهى ساعات وساعات ، ثم اقوم اتمشى طويلا واحاول ان اسكت جوعي بما يمكنني شراؤه بنقودي القليلة . لم يكن لي الحق في الانزعاج ، ففتحية واهلها ، ان لم يكونوا فقراء مثلي ، فليس ذلك سببا في ان اكون عالة عليهم .

بعد اربعة ايام ، كنت راجعا الى الاسواق بعد الساعة العاشرة ، شاعرا بدوار في رأسي وارتخاء في اطرافي ؛ لم اتذكر اين صرفت الخمسين دينارا التي اخذتها من عبد الباري ، ولا اين ذهب راتبي ، وقررت ان اقصد اخي في الصباح الباكرلمعاودة الاستدانة منه . ارتقيت سلم الاسواق بصعوبة ، وخطر لي اني ، بعد اسبوع ، سأبلغ الثامنة والاربعين ؛ ولعلي ، بمعونة هذا القلب المرتجف ، لن اصل الخمسين من عمري .

كانوا نائمين ، والسكون يسود على الشقة ؛ وكنت قد تعشيت صمونة جرداء مع قدح شاي محلى باربع قطع من السكر من اجل ان يكون دسما بشكل من الاشكال . وجدتها نائمة في فراشي ، فبقيت واقفا بهدوء فوق رأسها ، مفكرا في معنى تصرفها وفيما يجب ان افعله . نزعت سترتي ورميتها على الصندوق ثم خرجت فغسلت وجهي وشربت كأس ماء وعدت اليها . جلست قربها على السرير ؛ كنت متعبا مهدود القوى لااكاد اسيطر على نفسي . لمست ذراعها الناعمة فسحبتها وغطت نفسها جيداً . لم يكن

الجو حارا في تلك الساعة من الليل ، وكنت في شوق للارتماء والاستغراق في النوم . هززتها فقعدت بسرعة واطلقت صرخة خافتة وهي تراني جنبها . تبين انها كانت تنتظرني فغلبها النوم ؛ لم تستطع الكلام طويلا واكتفت بالقول بأنهم قلقون عليَّ لغيابي المستطيل ، ورجتني الا اخرج ، واغيب هكذا ، ثم ارادت ان تعاود النوم فدعوتها للنهوض والذهاب الى غرفتها ، فقامت وقبلتني قبل ان تخرج .

وصلت بيت اخي عبد الباري قبيل الظهر ، فأخبرني ابنه عبدالمولى بأن اباه في المعمل ، فلعنت الصدف المشاكسة ؛ كنت رتبت اموري بحيث اصل الى هنا حوالي الظهر فاستدين من عبد الباري ما قسم الله واشاركهم الغداء واستريح قليلا ثم اعود ؛ الا ان العثرات بدأت منذ البداية ؛ وبينما كنت مترددا في الدخول للسلام على ثريا اوفي الذهاب حالا الى المعمل مع كل منغصات النقل في هذا اليوم الحار من حزيران ، اذا بي ارى انوار تبزغ خارجة من دار عبد الباري قاصدة المشتمل ، وهي تحمل طفلها الجميل . كدت اهوي عليها ، أحتضنها هي وطفلها واقبلهما عشرات القبل . سلمت علي بحرارة خجولة وباهتمام خاص . صافحتها رغم ارادتها ولثمت سميي من خديه وابديت لها كم انا سعيد ، بعد كل هذا الوقت ، برؤيتها ثانية ، ثم سألتها عن كاسب . اخبرتني بانه سافر الى خانقين صباح اليوم الباكر ولن يبطىء في العودة . باركت لها بيتهم الجديد فشكرتني ودعتنا ، انا وعبد المولى ، للدخول والاستراحة قليلا فوافقت حالا . نزعت عنها العباءة بعد ان فتحت باب المشتمل ، ودخلت ؛ ثم قادتنا الى غرفة الاستقبال وذهبت هي الى المطبخ ، بقيت مع عبد المولى نلاعب الصغير توفيق ، وانا في شك مما رأيته من انوار ؛ بدت لي باهتة الملامح ، شاحبة صفراء ، كأن مرضا خطيرا يعمل في جسمها . عادت بعد دقائق تحمل ، في صينية ، كؤوس شراب . كانت ناحلة بارزة العظام ، لم يبق من فتنتها السابقة غير عينيها السوداوين الطويلتين ؛ حتى شفاهها ، غار لونهما وذهب اكتنازهما المثير . لاحظت انها

تجملت خلال ذهابها الى الداخل فكحلت طرفي عينيها . ملكني الأسى وانا اتطلع اليها تسير ببطء حاملة الصينية ، وظهرها بادي الانحناء . انشغلنا قليلا مع الصغير واخباره وكلماته التي يلفظها ، ثم استأذن عبد المولى وانصرف ، ولبثنا وحيدين . سألتها ، مرة اخرى ، عن كاسب فأطرقت برأسها ولم تجب الا بكلمة واحدة :

- مريض .

- وانت ياانوار ، ماذا جرى لك ؟

- انا مريضة ، مثله ؛ هو بالسكري وانا... ربما بالسل او بما هو اسوأمنه .

- لماذا... لماذا كل هذا ؟

- وأنت يا توفيق ، ماذا جرى لك ؟

- انا ؟ انا اقل سوءا من الجميع ؛ انا مفلس فقط ، هذا هو كل شيء . جئت لاستدين من اخي فلم اجده ؛ اما صحتي فعلى مايرام . ولكنك... لقد تغيرت كثيراً .

- رأيت الكوارث خلال الأشهر الاخيرة ؛ ورأيت شقاء لم اره من قبل ، وعقوقا وخيانة وقسوة وفساداً ، حتى ذبلت وابتليت بالمرض .

- مابك ؟ ماذا قال الطبيب ؟

- اي طبيب! لم اذهب الى الطبيب ؛ اخشى ان اقول اني مريضة ؛ يكفينا مرض كاسب وبلواه .

- هل ، هل سافرت الى اهلك في الشمال ؟

- نعم ، ذهبت الى الشقاء والفقر المدقع والجوع . هربت ولاأدري لماذا .

ثم حكت لي بأنها ارادت الابتعاد عن خانقين لاسباب تخصها ، وظنت حين تركت البيت ان كاسب سيلبي طلباتها بعد وقت قصير ، لكنه ، ولاسباب غامضة ، تركها تتلظى بشواظ التعاسة لدى اهلها فترة طويلة ، أُنهك فيها جسمها وضعف فتلاحقت عليها الامراض وصارت كما اراها الآن .

ـ ولكنك ماتزالين انواري التي احلم بجمالها دائما ، صدقيني والله .
غضت من نظرها ولم تجب ، قمت وامسكت بيديها فهززتهما :
ـ انت يالنوار... اسمعيني جيداً ؛ لاتضيعي نفسك هكذا وتستسلمي بسرعة ؛ لقد قاومت بشجاعة واصرار ، وانا اعرف كل ما حدث . يجب ان تفخري بنفسك . اقولها مخلصا . لقد كسبت المعركة وستسترجعين صحتك ونشاطك وروحك الصافية ؛ تأكدي ؛ واعملي ذلك من اجلي ؛ ارجوك انوار .
رفعت وجهها الي ؛ كانت محمرة الخدين ، تبرق عيناها المخضلتان بالدموع :
ـ انت انسان عجيب ياتوفيق ؛ وانا لاادري كيف استمد منك القوة والرشاد ، ولااجد غضاضة في اي شيء تريده مني ، لاادري لماذا . سأحمي نفسي وعائلتي حتى النهاية ، وسترى ذلك بنفسك .
ثم قامت بسرعة :
ـ لقد ترك لك كاسب مظروفاً واوصاني ان اسلمه لك حالما تأتي لزيارتنا .
ـ هل توقعتم زيارتي ؟
ـ بالطبع ، بالطبع
وانصرفت خفيفة الحركة ، وتركتني مع الصغير توفيق الاعبه والتقط منه كلماته الجميلة .
رجعت الى الاسواق حوالي الواحدة والنصف ظهرا ؛ لم يعجبني ان اعود لبيت عبد الباري . كنت جائعا منهكاً ، فرأيت فتحية في المطبخ بدل امها ، تعمل على تحضير مالاادري . كانت في فستان خفيف لايكاد يسترها . امسكت باعصابي واعطيتها دينها دون ان امسها .
شكرتني بصوت خفيض وهي تنظر الي من طرف عينيها بخجل :
ـ اردت امس ان اخبرك بأن الدعوى تأجلت ، فغلبني النوم .
ـ لاتعمليها ثانية وتنامي في فراش رجل... غريب .

تضاحكت بغنج والتفتت الي فاحتضنتها وقبلتها ، ثم عصرت بخفة احد نهديها فتأوهت واحتجت ثم عضت شفتي السفلى .

ـ انت... لماذا تعمل هكذا ؟

ـ لكي تقتنعي بأني اصلح ان اكون زوجا مثالياً .

ـ هيهات!

حالما سلمتني انوار مظروفها عرفت ما ارادت ان تعمله لي . مكثت لحظات افكر بسهوم فيما اعمل ؛ لم يكن باستطاعتي رفض معونتها المادية ؛ وكنت آسفا لذلك . اخبرتها بفكرتي وبأني متأثر جدا بما تفعله هي بذاتها من اجل مساعدتي . كانت تقف امامي محرجة كأنها ارتكبت خطأ ، فهونت عليها وابديت لها بأن سخاء النفس النادر هذا ، لايمكن ان يذهب عبثاً ، وسترى وتفهم مااقصد في المستقبل . كنت مملوكا برغبة طائشة في ضمها الى صدري وتقبيلها ، لايصدني عن تحقيقها الا مارأيته من حالها وماروته لي من مرضها ومرض زوجها وماواجهته من مواقف صعبة ؛ قلت لها ذلك مبتسما ؛ وكانت رغبتي الطائشة هذه اصيلة ، تستمد جذوتها من ذلك الحلم الجميل الذي رأيته منذ ايام ، فأخذتها هي ، لحسن الحظ ، على محمل الجد . سكنت هنيهة تفكر ، ثم اعطت طفلها لعبة وتركته في مكان امين على الاريكة وسارت امامي الى الباب الخارجي فتبعتها . هنالك في المجاز الصغير ، ارتكت على الحائط وفتحت ذراعيها مرتجفة الحواجب . كانت قبلة عميقة الأثر ،واتصالا بين روحين اكثر منه بين جسدين . ضممتها بقوة الى صدري ، شاعرا بمحبة تتملكني لهذه الانسانة المخلصة الصافية القلب . كانت ترتجف قليلا وهي تلصق جسدها بجسدي وتحس بتوتري الشديد وباندفاعي نحوها . همست مرتعشة :

ـ لاتطلب الكثير مني ياتوفيق ، فأنا... انا لااستطيع ردك ، وانا زوجة وام ، ولااحب كل شيء تشتهيه نفسي ونفسك . اشفق علي .

زادت كلماتها المهموسة بارتجاف ، من شدة عاطفتي نحوها فهصرتها

الي . احسست بضعفها وشفافيتها ، كأنها تريد ان تندمج بي وتستكين . نظرت ، عن قرب ، الى وجهها وتقاطعيها المعذبةالصفراء النقية ؛ فتجلت لي بجمال خاص ، وعيناها ترنوان الي بشوق وشك . قبلت شفتيها المحمومتين ، فأسدلت اجفانها ببطء .

لايمكن لي ان اسبب اذى لهذه الانسانة الشقية ، رغم مايجيش في نفسي من اشتهاء لها . قطع علينا خلوتنا نداء توفيق الصغير ، فارادت ان تسرع اليه ؛ تشبثت بها . عاد الاحمرار الى وجهها وتبرقع لحظة بطابع جمالها السابق .

ـ كوني سعيدة ياأنوار ، فالسعادة تليق بك حقاً .

ـ انا سعيدة .

وهزت رأسها مبتسمة .

ـ انا سعيدة ، كما تريد .

نمت بعد الظهر ذاك ، نوما ثقيلا طويلا . كنت مستنزف القوى منذ ايام ؛ وبسبب دفعي لدينها علي قامت فتحية بمجهود استثنائي فطبخت لي طعاما خاصا احبه ، واستخرجت لي ، من زاوية سرية ، قنينة بيرة مسحورة شربتها بارتياح واكلت حتى التخمة ، فكان النوم تتمة طبيعية لكل هذه الممارسات البشرية القويمة .

ايقظني ابو فتحية ، حوالي السادسة ، بطريقة فجة . لم اكن مستريحا تماما ؛ اذ لم يكن تعبي جسديا حسب ، بل زادته الاثارات الجنسية المتوالية وغير المشبعة ، ثقلا ونخرا للعضلات والعظام .

ـ مالك توقظني هكذا ؟ ماذا حدث ؟

ـ الاستاذ غسان في الاسفل ينتظر ، هذا هو ماحدث .

ـ الاستاذ... من ؟

ـ غسان... الاستاذ غسان ، والمرسيدس ، وانت ياسيدي تسألني لِمَ لم اوقظك بطريقة اخرى . قم ياخي وتوكل على الله .

ـ صرت اخاك ايضا!

وجدت غسان واقفا يدخن بانزعاج جوار سيارته التي ركنها امام باب الاسواق ، وثيابه العسكرية الانيقة ونظارته السوداء تضفي عليه مظهر ثراء واضح . اقنعته بالدخول والصعود معي لشرب الشاي والاطلاع على مالدي من كتب . لم تكن فتحية في البيت ، فرجوت امها ، هامسا ، ان تعتني بعمل الشاي وتقدمه لنا كما يجب . اعتذر غسان لزيارته هذه دون موعد سابق ، واخبرني بأنه نزل الى بغداد باجازة غير متوقعة امدها اربع وعشرين ساعة تبدأ من صباح الغد ، فجاء الى المقهى لعله يراني فأرشدوه الى محل اقامتي فأسرع الي .

ـ اين الضرر في هذه المبادرة الجميلة ؟اهلا وسهلا بك . هاك ، تطلع الى رف الكتب على الصندوق . لاازال افكر في العناوين التي سأوصيك باقتنائها .

قفز الى جهة الكتب المصفوفة فتناول عددا منها وعاد يجلس ويضعها في حجره . بدا عليه كأنه عثر على كنز لايثمن . اخذ يقلب الصفحات بعناية فائقة ، فتركته وخرجت اغسل وجهي وازيل عني آثار النوم ؛ وحينما وقفت امام باب المطبخ امسح بتكاسل وجهي ويدي ، برزت فتحية من باب السلم تحمل عباءتها على ذراعها . كانت جميلة ، اخاذة بزينتها ، رغم بعض التعب على محياها .

ـ اين كنت في هذا اليوم الحار ؟

ـ لو تعلم ، كم تندمت اذ خرجت اراجع المحامي . يقول لي نفس الشيء كل مرة وكل يوم .

ـ نعم ، نعم ؛ اعرف ذلك .

ثم تفتحت اساريرها وهتفت :

ـ هل رأيتم السيارة المارسيدس الواقفة امام اسواقنا ؟ ماجملها ، ياربي! تقول ، سيارة للامراء!

ضحكت :

ـ تعالي هنا ، اعرفك على صاحبها .

قطبت جبينها واخذت تتلفت بسرعة وتحاول ان تفهم الاشارات المختلطة التي كان ابوها ، من موقفه في المطبخ ، يشيربها اليها .

عدت الى غرفتي فلقيت غسان داخلاً في خضم «الحرب والسلام» ، فارشاً الاجزاء الاربعة حوله على السرير وهو يتصفح احداها كطفل مدهوش :

ـ استاذ توفيق ، هذه رواية «الحرب والسلام» ؛ انا افتش عنها منذ مدة طويلة .

ـ فكرت ان اعطيها لك كي تبدأ القراءة بها هذه الايام . مارأيك ؟

ـ سأكون سعيدا جداً . انها ترجمة كاملة كما اعتقد .

ـ نعم ، حسب الظاهر ؛ وهي ، كما تعلم ، عمل روائي مهم في تاريخ الرواية العالمية ، لابد لك من الاطلاع عليه .

آنذاك ، تبدى ظل رقيق على عتبة غرفتي ؛ وسلمت فتحية بصوت منغم ناعم وبحياءغير مألوف :

ـ مساء الخير .

وما ان رأها غسان حتى قام بعجلة عن السرير ، ووقف ممسكا باحد المجلدات ثم رد عليها التحية بصوت منخفض . وضعت الصينية الفضية المحملة باقداح الشاي ، على الصندوق ، وتراجعت قليلا . عرفتهما على بعضهما فتصافحا ؛لاحظت انها زادت من العناية بزينتها ومشطت شعرها الكث المحنى وارتدت فستانا اخر يكشف عن صدرها وذراعيها .

دعوتها للجلوس معنا فبدت عليها السعادة وتناولت الصينية مرة ثانية وتقدمت بها نحو غسان فأخذ قدح شاي بعد ان رمى المجلد على السرير واخذت انا القدح الثاني فوضعت الصينية على جانب من الصندوق وجلست على الجانب الآخر لاصقة ركبتيها ببعضهما ثم تناولت برشاقة القدح الثالث . ولم تمض لحظة حتى وقفت امها في اطار الباب تحمل صحن الكعك فاعطتني اياه بأدب جم .

تملكتني رغبة في القهقهة لهذا الفيلم الصامت الذي أنتجته وأخرجته سيارة المارسيدس ، لكني فضلت الانتظار ، فغالبا ماتتخفى المآسي وراء أقنعة المهرجين .

كنت اتكلم بحمية لاني وجدته يصغي الي بكل جوارحه ، في زاوية من احد مطاعم فندق المنصور ـ ميليا ، الذي اخذني اليه . اشترطت عليه اول ماجلسنا ان يعتدل في شرابه ، لكي استطيع مجاراته ولكي يمكننا ان نتمتع بجلستنا كما يجب . كان سعيدا ، لايريد ان يخفي سعادته . سألني عمن تكون السيدة الجميلة التي تعرف عليها ؛ فأعطيته تخطيطاً مشوشاً وغير كامل عن حياتها وعن ملكيتها لأسواق الافراح وعن طموحاتها الاخرى . بقي ينصت بشغف لحديثي ، فتوجست شرا من ذلك . سألته :

ـ هل وجدتها جميلة جداً ؟

ـ نعم ، ليس كثيرا بالطبع ، ولكنها جميلة مع ذلك .

ـ هل تسمح لي بالسؤال عن علاقاتك النسائية ؟

سكن لحظة ، ثم اشعل سيجارة بحركات فيها بعض الحدة .

ـ لاعلاقات عندي . هل تظن مجتمعا كهذا يسمح بعلاقات مع النساء ؟

ـ سأحكي لك يوما عن علاقاتي انا بالنساء ؛ وستجد ان كل مجتمع يسمح بها على طريقته الخاصة ؛ اذ لايتجرأ اي مجتمع ، مهما بلغ من الجهل ، على الوقوف امام الغرائز وجريانها الطبيعي .

ـ اعرف ، نعم ولكن... الناس والتقاليد هنا .

ـ صحيح ، صحيح .

اردت ان اغلق الموضوع الذي احسست انه محرج بالنسبة لهذا الشاب ؛ فلقد تهجست في باطنه امورا لاتأخذ مجراها كما يجب وهي ليست بعيدة عن الجنس .

تحدثنا عن الكتب والروايات بصورة خاصة وعن المؤلفين وحياتهم وحياة الانسان وتجاربه ، وكانت عيناه قد احمرتا قليلا واخذ ينفث دخان سيجارته

بقوة . ثم تطرق ، على حين غرة ، لموضوعه الاثير..الطفل الذي هجرته امه فأساءت اليه دون ذنب جناه . ابدى اسفه ، اول الامر ، لانه يتكلم عن موضوع لاعلاقة له به ولايدري لماذا يخطر بباله دائما ؛ فها هو ، مرة اخرى ، يتذكر ذلك الطفل في الخامسة الذي تركت والدته بيتهم فاعتبره الأب مسؤولاً عن ذلك وصار يسيء في معاملته ويقسو عليه والطفل لايعرف السبب .

ظننت ، وانا اراه امامي في حميا حديثه المتدفق ، ان من الافضل ان تكون المحاورة مباشرة ، دون لف او دوران .

ـ اسمع ياغسان ؛ لماذا تعاود نبش هذه المشاكل الماضية وتراكمها على قلبك ونفسك هكذا ؟

بدت عليه الدهشة لكلامي :

ـ ابداً..استاذ توفيق ؛ ابدا . قلت لك ، ام لعلي لم اقل ، اني احكي لك قصة اريد ان اكتبها عن هذا الطفل ، ولاعلاقة لي بها ابداً ، ابداً ، كما ترى .

تظاهرت انا ، هذه المرة ، بأني في غاية الدهشة .

ـ تكتب قصة! ؟ ولكن هذا عمل رائع حقاً . هل جربت الكتابة من قبل ؟

ـ نعم ، احيانا . لست متأكداً .

ـ لاتتردد اذن ياغسان ، واكتب قصتك هذه وسأقراها بكل سعادة .

ـ بالطبع ، بالطبع .

ثم دلق بسرعة كأسا مليئة بالنبيذ الاحمر في جوفه :

ـ انا ، استاذ توفيق ؛ انا عشت طفولة سعيدة ، سعيدة وبريئة ، اذ كانت سندس نعم الام لي والصديقة ايضا ؛ تصور ؛ ام وصديقة في نفس الوقت . في الحق ، كنت ذا حظ عظيم ؛ فلقد احبتني ورعتني كأني ابنها منذ الايام الاولى ، وانا كذلك ؛ وانت ، انت الوحيد الذي تسمح لي حالتي بالكلام معه هكذا بصراحة .

ـ هل ستكتب ايضا هذه القصة... قصة الطفل السعيد الذي احتضنته زوجة ابيه وعطفت عليه ؟

ـ ستكون قصة جميلة ، اليس كذلك ؟ نعم ، قد اكتبها ؛ ولكني يجب ان اكون على شيء من الحذر . فنياً ، اقصد ؛ فلا يمكن ان يقال كل شيء .

ـ انا معك ياغسان ، ويهمني ان تسجل ماتفكر به ؛ وانه لامر مثير ان اقرأ لك . لقد خابت آمالي فيما قرأت من قصص عراقية .

ـ لماذا لاتكتب انت يااستاذ توفيق ، تجارب حياتك ؟ حاول على الاقل . لم لا ؟

ـ لم افكر بذلك ؛ في الحقيقة ، لم افكر بذلك ؛ ولااظنني استطيع القول بأني استفدت من تجارب عمري ؛ اذ لم يبق لدي من كل مامضى سوى افكار فجة مبتورة . بعد هذا ، وببساطة فأني لم اجد أي خير من التأمل والتصميم وارادة التغيير وغير ذلك من الابتكارات اللغوية الفارغة ؛ والاعمال القليلة التي قمت بها من اجل صحتي النفسية ، رمت بي في مهالك هذه الحياة التي تراني فيها . وصدقني ياغسان ، لقد لقيت ، بالصدفة ان اسوأ مافي الانسان يكمن في رأسه ؛ ففي تلك المساحة الصغيرة الهشة ، ترقد كل منغصات الحياة ومفسدات الكائن البشري . صحيح اني لااعرف كيف سنصير ، كيف كنا سنصير بعقل بدهي او بدائي ،عقل يساعد ، ولايعرقل ، على ممارسة الجنس الجميل وعلى التمتع بالطعام وبالجمال وعلى معرفة الخير الطبيعي ؛ ولكننا ، بالتأكيد ، ماكنا سنتعرف على سموم القلق والاحباط والامراض النفسية وخبال السلطة والعظمة وحب السيطرة وابتكارات التقتيل الجماعي وغير ذلك . ثم ان هذا العقل الذي صدعونا بمنجزاته العلمية وبما يمنحه من وعي للفرد البشري ، اليس هو اول اسباب شقائنا وحيرتنا ومحنتنا الحياتية ؟

قطع غسان حديثي بقهقهة عالية مفاجئة ، نابعة من القلب ؛ اسكتتني مدهوشاً ، ثم افرحتني وانتقلت عدواها الي فانطلقت انا الآخر اشاركه ضحكه الغريب الجميل .

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة ، والجو في المطعم المنعزل هادئا

يريح النفوس ، اشعرتني بادرة غسان اللامألوفة بسخف ماادليت به من انطباعات ، فاعتذرت عنها فاحتج علي .

ـ انا معك ياأستاذ توفيق ، واحب ان اسمع منك المزيد اذا سمحت . لقد ملكتني النشوة وانا انصت اليك فانطلقت ضاحكا بسببها دون ارادتي . صدقني ؛ ولكني احب هذه الافكار رغم ان وقتها قد فات كما يبدو لي . الم يقل بها أو بمثلها جان جاك روسو ؟ إلا ان احدا لم يعره اهتماما عمليا جادا . انت ايضا استاذ توفيق ، لن تؤخذ منك هذه الافكار بشكل جاد . قل لي مثلا ، هل اخرجوك من الوظيفة لانك اعلنت افكارك الفلسفية هذه على رؤوس الاشهاد ؟

حينذاك ، جاء دوري لاضحك ملء صدري وروحي .

اوصلني غسان ، بعد عشاء فاخر دفع ثمنه ، الى حي العامل ، شاكرا لي اعارته اجزاء رواية «الحرب والسلام» ، وطالبا مني امهاله اسبوعين لقراءتها واعادتها ؛ ثم رجاني ، بتردد ، ان انقل تحياته الى السيدة الجميلة فتحية ، فوعدته بذلك .

طارت سعادة ، في ضحى اليوم التالي ، حين نقلت اليها تحياته الخجولة ، واحمرت وجنتاها ووقفت ، هنيهة ، تملكها الدهشة وذلك الشعور الغريب بالاعتزاز .

ـ سلمه الله وحفظه .

ثم مضت تخفي انفعالها .

لم يعد لي غسان اجزاء «الحرب والسلام» الا في بداية شهر تموز ؛ وكنت ، خلال هذه الاسابيع ، قد ذهبت مرتين للسؤال عن كاسب . لم اره في المرة الاولى وتبادلت بضع كلمات مع انوار ، التي بدت لي احسن حالا وصحة . رجتني ان اعود بعد ايام وسألقاه بالتأكيد . كانت منزعجة بعض الشيء ومحرجة من اطالتي الوقوف امام باب المشتمل ، فانسحبت وقصدت دار عبد الباري بعد ان تبادلنا الابتسام الودود . كان الوقت حوالي السادسة مساءً والحر ، ذلك اليوم ، ثقيلا يضغط على الاعصاب .

لم اجد اخي وجلست اشرب الشاي والماء البارد مع زوجته ثريا .

اتصلت نجية بهم تلفونيا قبل يومين وتحدثت معها ومع والدها ، وادعت بانها مرتاحة في خانقين ولاشيء يعكر الجو بينها وبين زوجها ، وان عنبر بصحة جيدة وكل شيءعلى مايرام . لكن هذا النداء لم يبدد من قلق الام ولاجعلها تصدق ماقالته لهم ابنتهم ، فألحت عليها ان تأتي الى بغداد لزيارتهم هي وابنتها الصغيرة فوعدتهم بذلك .

ـ هل سيسمح لها بزيارتنا ؟ الله اعلم .

صبّرتها ، دون جدوى .

ـ اترى ياتوفيق الى الغروب هذه الايام ؟

استغربت سؤالها .

ـ كأن الشمس تنثر من حولها وهي تغيب دما احمر قاني الحمرة ؛ فتصطبغ السماء كلها به... يالألوان الشؤم هذه!

تاخر عبد الباري في العودة ، ففضلت الانصراف . خرجت من دارهم منقبض النفس ، تساورني ، لغير سبب ، افكار سوداء . كانت اشعة الشمس الغاربة ، تتوهج بألوان قانية غير مألوفة ، كنار مشتعلة ، فخطر لي وانا اتطلع بصمت اليها من وراء منارة جامع دراغ ، بان اقوال ثريا غيَرت من نظرتي الى الوان الطبيعة ؛ وذلك مالايجب ان يكون ؛ فمن فكرة هي في الاساس وهم من الاوهام ، الى فكرة وهمية اخرى بعدها ، فاذا بالاوهام ؛ المتشكلة على هيئة افكار ، تتكوم فوق بعضها وتصير رأيا عاما وسداً راسخا امام العقل وامام التحرر .

أحببت ، ليلاً ، ان اقترب من فتحية وان اهديء من نزوعي الشهوي بالحديث معها وملامستها قليلا ، فرفضت كل انواع التقارب ، واصرت على المكوث مع والديها حتى انتهت برامج التلفزيون فأغلقت باب غرفتها بعد ذلك باحكام . سهرت حتى ساعة متأخرة اتمشى في الباحة المكشوفة آملا بغموض ان تفتح لي فتحية شيئا منها... غرفتها او باباً من ذاتها ، فلم تفعل .

احتضنني كاسب بشوق وتبادلنا القبل امام انوار ، حين ذهبت ، صباح يوم الجمعة قبل اسبوع ، لزيارتهما ؛ لم يظهر عليه تغيير في الخلقة ، سوى نحول بسيط لايؤبه له . اخبرني انه بصحة جيدة ويشتغل مثل الثور دون كلل . استنتجت انه لم يترك لي مظروفا ولافكربمعونتي خلال فترة ازمته الاخيرة ، وشعرت انه كان على حق .

تغديت معهما ، وسرني ان الاحظ ان انوار استعادت بسرعة ذلك الألق الانثوي الذي كان يحيط بشخصها والذي فتنتني به ولاتزال .

كانت في فستان وردي ضيق ، تعجل في سيرها وقد رفعت شعرها الجزل الى الاعلى ، وعيناها الطويلتان تتأججان وهي تشاركنا الحديث .

لم يرد كاسب ان يفيض في الكلام عن المحامي ممتاز ولاعما حدث له ولا عما صار اليه ، واكتفى بتكرار مايفيد بأنه ، عملياً ، في وضع مستقر والحمد لله وان كل شيء حسن وعلى مايرام . لم تكن لدي رغبة لتصديقه او لتكذيبه ، فبقيت ، لذلك ، ساكتاً .

عرف غسان ، هذه المرة ، طريقه الى الدار ، فارتقى السلم حاملا المجلدات الاربعة ووقف محرجا امام الباب . كانت الساعة قد جاوزت الرابعة بقليل ، وكنت ، فاتحا باب غرفتي ، اغالب النوم على سريري ، فرأيته حالما اطل علينا .لم يهمه ان نجلس في غرفتي الحارة نتحدث ونشرب الشاي ؛ ولبث يتطلع ، بين الفينة والاخرى ، الى جهة ما كأنه يسأل الهواء عن الشخص الغائب الذي لايأتي . كانت فتحية في غرفتها ؛ فلم اجد بداً من المناداة على امها كي تصنع لنا الشاي ، فأسرعت هذه الى المطبخ .

قال ان المتعة التي حصل عليها من قراءة «الحرب والسلام» لامثيل لها اطلاقا ، ويكفي ان الرواية عزلته تماما عن جو المعسكر الكئيب وأدخلته الى صميم مجتمع الطبقة الراقية الروسية في القرن التاسع عشر .

ـ هل يمكن ان يكونوا قبل اكثر من مائة وخمسين عاما ، على هذه الدرجة من العلاقات الرفيعة السامية ؟ لقد احسست انه مجتمع سعيد ،

لايجب ان يفكر افراده بالحروب وبتقتيل الآخرين ؛ ومع ذلك ، فان الحروب تقع باستمرار ولايمنعها رقي المجتمعات ، اليس هذا تناقضاً ؟

ـ الى حد ما ؛ اذ ان الأمر يعني فقط ان افراد هذه المجتمعات ذوو مظهر متحضر لاغير ، المظهر فقط ، اما البواطن فلا تزال متصلة بانسان الغابة .

ـ لاحب هذا . لاحبه ابداً .

ـ ولا أنا ، لنشرب الشاي .

كانت ام فتحية تقف بتردد في المدخل ، حاملة الصينية فقمت آخذها منها .

ـ هل سرتك ، مثلي ، قراءة تلك الفصول عن السعادة الزوجية الممكنة ؟

لم يجبني حالاً . مكث يتظاهر بشرب الشاي .

ـ لابأس بها .

ـ ظننت انها اجمل مافي الرواية .

ـ محتمل . انا لااستطيع تقويم الحياة الزوجية ، فلست متزوجا بعد ، كما تعلم .

ضحكنا ؛ آنذاك ، بدت فتحية تقف على عتبة الباب ، تحيينا بمرح . وضع غسان قدحه على الصندوق وقام يصافحها وعلى وجهه ذلك الانطباع الواضح بالابتهاج . كانت بكامل زينتها كأنها على وشك الذهاب الى حفل ساهر ، متعطرة بعطر قوي اسكرني شذاه ، ويبدو انه اسكر غسان ايضا . اذ سرعان ما تجلت في عينيه نظرات تتلامع بشوق نحو هذه الانثى الجميلة . كانت الوانها متناسقة في تناقض ؛ فالشعر الاسود المحنى يحتضن عينيها الخضراوين المكحلتين بكثافة ، فينبعث من امتزاجهما سحر غامض ؛ وكانت ملامحها الدقيقة قد ازدادت دقة ولطفا مع مايغطيها من مساحيق . جلست على الصندوق بشكل انيق متكلف ؛ أخرج غسان علب سجائره فقدم لنا منها فأخذنا انا وفتحية نشاركه التدخين ونملأ جو الغرفة الصغيرة دخانا كثيفا .

سألتها أتنوي الخروج ؟ فأخبرتني بأن المحامي اتصل بالوالد تلفونيا وطلب حضورها لمقابلته مساء هذا اليوم .

ـ ننزل كلنا سوية ، اليس كذلك ياغسان ؟

ـ طبعاً ، ماالمانع ؟

وهكذا كان .

لفت فتحية عباءتها حالما جلست في المارسيدس قرب غسان ووضعتها في حجرها ثم اخذت تتطلع الى المناظر الخارجية ؛ بينما ارتحت انا في جلستي على احد المقاعد الخلفية ، ورحت انظر اليهما . كانا متقاربين مع بعضهما ، بشكل من الاشكال ، بعلائق لعلها من صنع خيالي . التفتت اليه بعد حين وسألته عن امر ما بصوت خافت ، فاستدار اليها ؛ بقيت صورتهما في ذهني... يتبادلان النظرات الاولى التي ، ربما ، ربطتهما بخفاء بعد ذلك .

اصر ان ننتظرها تنهي مقابلتها مع المحامي ، كي نعود بها الى البيت ، فاضطررت لمرافقتها الى المكتب . اخبرها المحامي بأن دعوى ابناء زوجها المدنيّة تأجلت الى مابعد عطلة المحاكم ، اما القضية التحقيقية فقد اغلقت لعدم توفر الادلة ضدها . سرها ذلك الخبر كثيراً ، فشكرت المحامي بحرارة ووعدته ان تزوره في الاسبوع القادم لدفع ماستحق عليها من نفقات واجور .

نقلت الاخبار المفرحة الى غسان ، فاتفقنا ونحن في السيارة بأن هذه المناسبة لايجوز ان تمر دون الاحتفال بها كما يجب ؛ عند ذاك اقترح غسان ان يدعونا الى ذلك المطعم العائم الذي يقدمون فيه السمك المسقوف اللذيذ ، لكن فتحية ترددت وعرضت علينا ان نعود الى البيت لنحتفل مع اهلها بالخبر السار .

ـ ليس من اللائق ان اكون في مطعم بمفردي مع ، مع اصدقاء مثلكم ، اليس كذلك ؟

ايدتها ، فلم يكن الوضع ملائما وحبذتُ ان نعود الى حي العامل وندبر امورنا في البيت . وافق غسان في الحال ، ولكنه اشترط ان يشتري هو

مستلزمات الحفلة ، فاعترضت فتحية فأصر وتشبث باصراره فلم نستطع ، لافتحية ولا انا خاصة ، ان نمانع .

وكانت جلسة جميلة رغم بعض المثبطات كالجو الحار ووجود والدي فتحية وبؤس المكان . اخذنا نشرب باعتدال ، وكانت فتحية تتظاهر بالشراب اول الامر وتسكب كأسها على الارض خفية ؛ الا انني رأيتها ، بعد ان تقدم الوقت ، تكرع من كأسها حتى الثمالة .

كنا جالسين حول مائدة صغيرة وضعناها وسط الباحة واحطناها باريكة وبضعة كراس ؛ وكنت مستلقيا في جلستي على جانب من الاريكة اتابع بالنظر مايحدث امامي ، وانا اشعر بالارتياح وحتى ببعض السرور . كلمني غسان ، الجالس قربي ، وهو يشرب ببطء :

ـ اردت اليوم ان احدثك جدياً ، استاذ توفيق ، عن مشروع صناعي افكر في تأسيسه بعد انتهاء خدمتي العسكرية ، على ان تشترك انت معي ، فما رأيك ؟

ـ مستعد دائماً .

ـ لن نخاطر كثيراً ؛ سيكون مشروعا صغيرا مدروسا بعناية ولكنه مجزٍ ، وسأشرح لك فكرتي مفصلا في مناسبة اخرى .

ـ مستعد دائما .

ـ انا واثق من ذلك . انظر ماذا تجلب لنا السيدة فتحية!

كانت تحمل صحون السلاطة المتنوعة وهي موردة الخدين وقد تبدت قطرات العرق على جبينها . هتفت بها :

ـ يافتحية ، الاستاذ غسان يجد انكم تتعبون انفسكم كثيراً ، فتفضلي بالجلوس معنا لنتمتع برؤياك ونسمع حديثك .

ـ انا سعيدة جدا هذا اليوم ، ويسرني ان يشاركني الاستاذ غسان سعادتي بهذه المناسبة ؛ فقدكان قدومه بشارة خيرعلى الجميع .

كنت اشتهيها بقوة ملعونة ؛ فإضافة الى زينتها والى الاغراء الذي يضفيه

شعرها وملامحها وعيناها عليها ، فقد بدا جسدها الفتي تحت الفستان الاخضر الرقيق ، ذا منحنيات وتكورات لاتقاوم .

ثم انها استجابت لطلبي وجلست مترددة قرب غسان ، فاعتدل هذا وتصلب قليلا . جلب ابو فتحية الراديو واداره على اغنية لام كلثوم ، وكانت امها في المطبخ تعمل على ارسال رائحة شواء الينا . سألتُ والدها عن بعض شؤون الدائرة ، فانطلق يحدثني بصوت منخفض وبلهجة مؤدبة لاتلائمه ؛ ولم اكن اصغي اليه . كانا يتبادلان الحديث ، متقاربي الرأس ، يغرز احدهما نظراته في عيني الآخر عن شوق وتعمد ؛ وبقدر ماكانت تلك الانثى الرائعة متفتحة الأسارير والنفس ،بدا الشاب مترددا شبه وجل في تقربه منها ؛ وظلا ، مع ذلك ، يتحدثان ويتحدثان . لم يكن هذا ، في نظري ، شيئا خطيرا ، وكنت اتساءل الى اين يمكن ان ينتهي ؟

ولحسن الحظ فقد انتهى كل شيء الى خير حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً ، وكان غسان ، وقبل ذلك بأكثر من ساعة ، قد غامت عيناه قليلا وتجلى عليه كأنه يلاقي صعوبة في فهم ماكانت تقوله له فتحية ، فاستدار الي مستأذنا منها ان تسمح له بأن يسألني سؤالا ادبيا يقلقه وتذكره في هذه اللحظة :

ـ قرأت ، استاذ توفيق ، بأن دستويفسكي قال لاادري اين ، او كتب لاادري اين ، بأن الله اذا كان غير موجود فكل شيء مسموح او يسمح به ، لاادري بالضبط ، فهل هذا صحيح ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اقصد ، ببساطة ، هل هذا صحيح ام لا ؟

ـ هل تقصد ان من الصحيح ان دستويفسكي قال هذا ، ام تقصد ان قوله هذا صحيح ؟

ـ الاثنين ، ببساطة ، الاثنين .

ـ حسنا . حسناً . في الحقيقة لااتذكر بالضبط في اية رواية من رواياته

اورد دستويفسكي مقولته هذه ، فهو غالباً مايجعل ابطاله يتلاسنون حول فكرة الدين ووجود الاله ؛ الا اني اتصور انه قال شيئا من هذا القبيل في «الجريمة والعقاب» او «الاخوة كارامازوف» لست متأكداً .

ـ وماذا كان يقصد بالله عليك استاذ توفيق ؟ اريد ان اعرف ، ببساطة ، المعنى الذي كان يقصده .

ـ المعنى البعيد الذي فهمته هو ان البشر بلا دين ، سيتحولون الى مخلوقات شريرة .

ـ نعم ، ولماذا ؟

ـ لان الاديان تعد البشر بحياة اخرى مثالية لاشائبة فيها ، بعد يوم الحساب .

ـ نعم ، ولماذا ؟

ـ لان دستويفسكي يعتقد ان الانسان في اعماقه مخلوق مترجرج كثير الاسرار والخبايا ولايؤتمن على فعل الخير دائما .

ـ نعم ، ولماذا ؟

ـ وهو مايعني ان الانسان شرير بطبيعته ويجب ردعه والا تجاوز الحدود .

ـ نعم ، ولماذا ؟

ـ تجاوز الحدود هذا ، امر غريب وخطير ياغسان ، لانه قد يقود الانسان الى رفع نفسه الى مرتبة الاله ، وهو مايعني ، على الارجح ، الخراب التام للبشرية ، وذلك ماكان دستويفسكي يخشاه ، لانه كان يرى البشر ، منذ ذلك الحين ، متجهين هذا الاتجاه .

ـ له الحق ، له كل الحق . اريد ان اقرأ روايات دستويفسكي ، اريد ان اقرأ كل ماكتب ، ارجوك استاذ توفيق .

ـ لن يكون ذلك صعبا ؛ سأجلب لك مؤلفاته الكاملة .

ـ آه... كم تجعلني سعيدا!

ثم وقف فجأة :

ـ المعذرة ، يجب ان انصرف ، فقد تأخر ليَ الوقت .

وسلم علينا بسرعة ودون اكتراث كبير ثم مضى ، لخيبة امل فتحية ، نازلا السلم وانا معه .

بعد ذلك ، كان عسيرا علي ان اقنع فتحية بأنه ليس فظاً ينسى الاصول بعد كأسين من الشراب . كانت سعيدة سعادة مبتورة ومنزعجة .

اخذتها الى جهة من الباحة والصقتها على الجدار واخذت اهمس لها ببعض الامور عن غسان وانا اتحسس بخفة ذراعها الناعمة الباردة وكتفيها ورقبتها . اوقفتني بليونة وضجر وهي تبعد عني وجهها وشفتيها .

ـ لااقبل اي عذر من اعذارك هذه ياتوفيق .كلا ، لم يكن لائقا منه ان يمضي هكذا ، كأنه في مطعم او حانة ؛ كلا ، ليس هذا مقبولاً .

قبلتها في رقبتها فشممت رائحة عرقها المثيرة :

ـ ولكنه لايقصد شيئاً ، ابداً ، انه اكثر خجلا من ان يفكر بالاساءة اليكم... اليك خاصة... تأكدي .

التفت ليَ . كانت عيناها تلمعان في الظلام ، وشفتاها متفتحتين بغموض :

ـ لماذا تدافع عنه ؟ الا ترى انه شاب مغرور بماله ، لايهتم بالناس من امثالنا ؟ ولكني لست فقيرة او محتاجة له او لغيره .

انحنيت عليها وقبلتها في شفتيها ، فاستجابت لي وفتحت فمها فصرت امتص باشتهاء شفتها السفلى ، ثم انها ، بعد لحظات ، سحبت وجهها واحتضنتني واضعة رأسها على صدري بحركة مباغتة ؛ ولم تمض ثوان اخرى واذا بي احس بها تختض ناشجة ونهداها يضغطان على جسمي . مسدت على شعرها الكثيف ثم اخذت اربت على ظهرها الناحل بخفة .

ـ لاتأخذي الحياة هكذا يافتحية ؛ واسمعي مني نصيحة لااقولها لكل الناس . لاتتسرعي وتفهمي الامور خطأ وتشيدي قصورا في الهواء ، ثم تبكين لانها غير موجودة لتسكني فيها مع من تحبين!

ومن وضعها ذاك وهي تستند برأسها على صدري اخذت تتكلم :

ـ من قال لك انني اريد ان افهم اية امور ؟ولكني لااريد ان اهان بعد كل هذا الذي عملته في بيتي ؛ هذا هو كل شيء ، فلا تصر عجوزاً مخرفا انت الآخر .

وانفلتت من بين ذراعي ، ولبثت واقفة قربي تعدل من شأن شعرها وتمسح عينيها بسكون . اردت ان اعاود احتضانها فدفعتني :

ـ لن ادعك تعمل شيئا معي ، ويكفي ماجرى لنا .

ـ اذهبي لترتاحي اذن ، وخليني انم فقد تعبت اليوم معك ، ومع امثالك .

ـ انا متعبة اكثر منك ، وسأنام حالا ، ياللرجال من ناكري جميل لامثيل لهم!

خلال الاسبوع الثاني من تموز ، وجدت نفسي مشغولا بزيارات مجانية لافائدة منها لتحسين اموري المالية . زرت اخي عبد الباري في المعمل ثم صديقي القديم عبد القادر . هذا الاخير ادخلني الى مكتبه لمدة خمس دقائق كان يتكلم فيها بالتلفون ولما انتهى من نداءاته اعتذر بأنه على موعد ويجب ان يغادر المكتب في الحال . ثم اني زرت خانقين زيارة خاطفة . كان كاسب في المعمل ولم يفاجىء كثيرا بظهوري امامه .

رحب بي العمال باخلاص وقبلني بكر آغا .كانوا مكتومي الانفاس بشكل خفي وقاسٍ وهم يشيرون الى... ذاك او هو... ويعنون به القائمقام ممتاز ، الذي كان في ذروة طغيانه واستغلاله لمنصبه .

اردت ان ازور محلة الشوادي ، محلة ابي واجدادي ؛ فنصحني كاسب بنسيان هذه الافكار السيئة .اخبرني بانه لايزال على تعامله مع عبد الباري ، وانه يبقى عدة ايام في خانقين ومثلها في بغداد وان كل شيء يسير على مايرام . تهجست منه ، خلال وجودي معه ، انحرافا خفيا عني ؛ كأنه لايريد ان اكون معه او ان اتصل به . لعله خمن بأني محتاج الى مبلغ من المال لايود ان يمنحني اياه ؛ وكان له الحق في ذلك ؛ ولقد حاربت مشاعري وبقية

كبريائي لكي اطلب منه قرضا آخر ففشلت ؛ فشلت ، نفسيا ، في ادراك مدى العوز الذي انا فيه ؛ ورغبت ، مخلصا ، ان اتألم عقابا لي على مالرتكبت من اخطاء .

عدت من خانقين قبل احتفالات تموز ١٩٨٠ ، ولم اكن املك الا بضعة دنانيرقررت ان اقاوم بها العالم والجوع والتنقلات والمصاريف الاخرى ؛ وكان ذلك امرا بطوليا مضحكاً .

بقيت سجين غرفتي والباحة الصغيرة ؛ افكر عما اذا كان للحياة حل آخرغير الموت ؛ واذا كان هذا هو الحل الوحيد ، فلماذا حرمت الاديان الانتحار ، مع انه الطريق الاقصر للوصول الى يوم الحساب ومن ثم الى احدى الدارين... الجنة او النار ؟ وكانت فتحية لاتني تزيد في تعرية جسدها كلما اشتدت ضراوة الحر ، فأزداد هياجا ورغبة فيها ؛ حتى صارت افخاذها وعجزها ونهداها ورقعة لباسها الصغيرة ، تأتيني في الاحلام بين ليلة واخرى . لم ادر ماذا كانت تروم ، اذا ما ابعدنا المضاجعة جانباً ؛ فهي تحوم حولي مباشرة او بصورة غير مباشرة ؛ تسألني عن طعامي وشرابي وذهابي واياي وتعبي وراحتي ،لكنها لاتستجيب لاية رغبة معينة ابديها لها . ثم كان ، بعد الاحتفالات باسبوع ، ان سألتني عنه وهي تتظاهر بعدم الاكتراث :

ـ لايبدو ان السيد غسان قد تمتع باجازة خلال الاحتفالات...

اشفقت عليها آنذاك ، واخبرتها بأني لم اره منذ تعشينا سوية هنا ، ولعله يأتي عن قريب .

سكنت لحظة ، تتطلع الي بقلق وضياع وقد انكشفت دفائنها دون ان تريد :

ـ تعتقد ذلك حقا ياتوفيق ؟

ربَتُّ على خدها البارد :

ـ لاتقلقي ؛ لايليق بك ان تقلقي هكذا ، فلن يطول غيابه .

اسرعت تنصرف ، محاولة اخفاء بقية ماوضح من مشاعرها . كانت قد

جلبت لي قدح شاي اعتدت ان اشربه قبل منتصف النهار ، وكانت قللت من خروجها خلال تلك الايام ، فصارت تتلبث في غرفتها الحارة امام المروحة ، واقفة تارة او مستلقية على السرير ، غير باد عليها انها تهتم بالمناخ او بأي شيء آخر يحيط بها . كانت ، بشكل غير مفهوم ، مأخوذة باحلامها وبما تنتظره ؛ ولم تسمح لي بالدخول عليها في غرفتها . كنت اقف في اطار الباب انظر اليها بجشع الشهوة وهي تضطجع غير مبالية ، ثم تطلب مني بكسل ان ابتعد واغلق الباب .

في ١٩٨٠/٧/٢٧ قبضت راتبي التقاعدي وقررت ان احتفظ به لنفسي والا ادفع اجرة الغرفة لفتحية ؛ ثم قصدت دار عبد الباري اسأل عن احوال العائلة . كان الحر مريعا حوالي الظهر ، فاستكنت الى الدار المبردة واسترجعت انفاسي . اخبرتني ثريا بأن ابنتهم نجية جاءت لزيارتهم قبل اسبوع ومكثت معهم يوما واحدا ثم ارسل لها زوجها سيارة مع شرطيين لاعادتها .

ـ لماذا تراه ، ياتوفيق ، يعمل مثل هذه الاعمال الشاذة ؟

لم اجبها ، وخطر لي ان اسأل عن غسان فقمت اتصل بدار والده تلفونيا . جاءتني زوجته سندس ، وقالت ان غسان لم يأت الى البيت منذ مدة طويلة ، فقد عوقب لانه نزل الى بغداد في المرة الاخيرة دون اجازة ، الا انهم يتوقعون حضوره في بداية الشهر القادم . رجوتها ان تنقل له تحياتي وتخبره بأني انتظر منه الاتصال بي . تغديت مع عائلة اخي واردت الانصراف حالاً ، لكن رؤية الشمس ، من الشباك ، ترسل شواظها وتلهب الدنيا ، ابقتني حتى المساء . تحادثت طويلا مع ابناءاخي ؛ لايبدو عليهم الاهتمام بأي شيء كنت اعتبره في شبابي جدياً وضرورياً ؛ ولان امورهم المادية متيسرة ، فهم ضجرون ، يظنون انفسهم مظلومين من قبل المجتمع لان الافراح والملذات لاتملأ حياتهم كلياً .

انصرفت بعيد الغروب ؛ وحين لاحظت ضوءاً مشعلا في المشتمل ،

اقتربت وضغطت على زر الجرس .كلمتني انوار من وراء الباب تسأل عن هوية الطارق فناديت باسمها سائلا عن الصحة والاحوال .

صمتت هنيهات ثم سمعت ضحكتها وهي تجيب اجابات مختصرة وتدعوني للمجيءفي وقت آخر فهي بمفردها ولايمكن ان تستقبلني في هذا الوقت .

اثارتني ، انا المثار ، موسيقى صوتها ونبراته ، وتخيلتها امامي بوجهها الجميل ، تومىء بحواجبها تلك الايماءة الشهوانية المحببة .

ـ انت على صواب ياانوار ، فمن الخطر انت تفتحي لي الباب ، وانا بهذه الحال .

تغير صوتها قليلاً وهي تسألني عما بي فأجبتها بأني التهب رغبة فيها ولا اكاد انام الليل .

ـ لاتتحدث هكذا ياتوفيق . ارجوك ، الم اخبرك ألاتتحدث بهذه الطريقة ؟

ـ الاتريدين حقا ان اشرح لك كم احبك وكم اشتاق اليه ؟

ـ انت رجل لاينفع معك اي كلام .

ـ هذا صحيح ، فالكلام لايهمني ، بل الافعال .

ـ اية افعال ياتوفيق ؟ انت تدفعني الى القيام بما لااحب ، لماذا كل هذا ؟

ـ لاني ياغبية لااقدر على منع نفسي من اشتهائك ، هذا هو كل شيء . لنتذوق معا تلك الثمرة المحرمة ولنمت بعد ذلك .

خيل اليَّ اني اسمعها تلهث وراء الباب ، فتملكني روح شيطانية عنيفة ، وصرت اهمس مقربا فمي من الخشب :

ـ انوار ، حبيبتي ، لماذا نضيع عمرنا في الحرمان ؟ انت تعلمين مافي قلبي من حب لك منذ رأيتك اول مرة ؛ وانت... الم تقولي لي انك لي متى اردت... متى ماردت ؟ هاأنذا اناديك ياحبيبتي من كل قلبي... اريدك .

ماجدوى الانتظار ؛ ماجدوى الانتظار ؟ ماجدوى الانتظار ؟ دعينا نفرح ونبتهج بالحياة ، حياتنا انت وانا .

ـ اسكت ايها المخبول وانصرف الآن ؛ فهم يراقبوننا .

ـ لن انصرف .اعطني وعدا اوموعداً .

ـ ليس الآن . تعال... لاادري... تعال خلال الليل ، حينما ينتصف ، وسأترك الباب مفتوحا .

كنت على علم بأني مريض ، مضطرب الحواس ؛ وبأن المستويات الذهنية التي اعيشها قد لاتكون واقعية ولاحقيقة ، بل من خلق الحال المرضية التي اعانيها .كنت اتقلب منذ ايام ، كما اتذكر ، على فراش من الحمى العالية والكوابيس والهلوسة ؛ لاتمالك روعي الا في اوقات قصيرة متفرقة ، فأفتح عيني واجدني مطروحا على فراشي في غرفتي الموحشة ، ولااحد معي غير الصمت ؛ وكنتُ أرى الوجوه الغامضة في أحيان أخرى ، تحدثني فلا أسمع كلماتها ولا أفهم الانطباع المرسوم عليها ، فلا هي قلقة ولا هي مطمئنة ، ولا هي ضاحكة متفائلة أو منزعجة متشائمة . وكان عذاب الجسم الذي لم أعثر على سببه ، يهدني ويهز قلبي وروحي . آه... من الآلام!

ورأيتُ فتحية ووالديها ، كنتُ أراهم حولي طوال الوقت ، بدون كلام ، بدون تعبير . ثم جاءت الراحة العميقة العميقة ، حين تعرّقتُ عرقاً بارداً لزجاً ، ألصق ما عليَّ من ثياب على جلدي ، فقمت من سريري مرتعشاً ، في وقت لا حدود له بين طيات الليل البهيم ، وأبدلتُ ملابسي وشربتُ كأسي ماء ، ثم عدت الى فراشي المبلل فقلبته بمشقة وتهاويت عليه . غمرتني راحة لا تُسمى ، حلّت كل عقدة في جسدي وأرخت العضلات وملأت العظام . يا لله... ما أطيب ذلك وأحلاه! لكأنها راحة الشهوة العظمى تأتيك بعد العناء والحرمان فتنتشر في ثناياك دفء البرودة وطمأنينة الانتهاء . نمتُ مائة عام واستيقظت مرتاحاً ، وكان يوماً من أيام آب ، فجلست أراقب الفجر ينبض بسكون . كانت الغرفة مشرعة الباب والنسائم الباردة تتلاعب في

المجال حولي ؛ كأني أطل على الدنيا لأول مرة! وكأن الماضي يتلاشى مثل فقاعة صابون ، وها هو فجر يومي الأول ينبثق . ما أجمل ذلك!

كنتُ أعاني من حمل رأسي علي كتفي ، وقلبي يخفق بضعف . قمت أسعى الي المطبخ . وقفت ملياً في اطار الباب ، أستنشق الهواء الناعم البليل . عثرتُ على نصف قنينة من الحليب وكسرة خبز يابسة . سخنت ماء وصنعت شاياً أضفته على الحليب . غمست الخبز في السائل المحلّى وقضمت بلذة . عدتُ الى غرفتي ، بعد تلك الوجبة ، واستلقيت على السرير ، شاعراً بالحرارة تسري في أوصالي . تطلعت الى الخارج ، الى السماء التي بدت عليها غلالة بيضاء خفيفة . كنتُ مسروراً ، لأن هذا هو يومي الأول في الحياة ، ولأني سأكون قادراً على معاودة العيش السوي ومعاودة البحث اللامجدي ، مرة اخرى ، عن السعادة .

أقول معاودة ، ولكن أكنتُ أفعل ذلك في الواقع ؟ أكنت واعياً بأني كنتُ أسعى وأعاني من أجل هدف معلوم يسمى السعادة ؟

أي تلصيق ملفق للأمور!

لم أشعر يوماً بأن السعادة كانت هدفاً لي . أبداً ؛ بغير وعي ، ربما ؛ أما إدراك ذلك تماماً... فلا .

أمام بابها المغلق باصرار ، واجهتُ نقيض السعادة ؛ حينذاك ، تشخصتْ هذه لي ، فجأة . عرفتُ ذلك لأني كنت ، قبلها ، سعيداً .

عدتُ ذلك المساء الى البيت ، منتشياً بلهاث أنوار من وراء الخشب وبموعدها المثير ، ومحمولاً على أجنحة خفيفة ، فاغتسلتُ وحلقتُ ثانية وجلستُ اقرأ في غرفتي منتظراً اقتراب الليل من منتصفه . كنت ممتلئاً بشعور طاغ بأن الدنيا جميلة ، مكتملة التكوين ؛ وبأن الحياة خالدة جذابة ؛ ولم اكن أدري بأني كنتُ ، ببساطة ، سعيداً فقط . وكان الباب مغلقاً ، آخر الأمر ؛ مغلقاً تماماً وبشكل أكيد . جمدتُ فترة في الظلام ، مخفياً نفسي ، بخجل ، عمن يمكن ان يراقب . تلك لحظات مثل طعنات خنجر . أردتُ أن

أفهم دون ألم ؛ ولم يكن ذلك ممكناً للأسف . ثم إني ، بعد حين ، وبحركات خرقاء ، أخذتُ أطرق الباب بأناملي ، طرقاً خفيفاً لا يكاد يسمعه أحد . كنت مصدوماً ، مرفوضاً ، حائراً فيما أعمل . ترددتُ قليلاً ثم انكفأتُ وسرت مبتعداً بخطوات قصيرة كخطوات اللص . شعرت ، بالفعل ، أني لص أفشلته حقائق لا يعرفها ؛ وكان عليَّ ، مرة اخرى ، أن أحل هذا اللغز . كان الحر قد تناقص كثيراً بعد انتصاف الليل ، وشوارع حي دراغ والمنصور خالية إلا من سيارات مسرعة وبعض المتسكعين ؛ وكنتُ أمضي بخطوات مضطربة ، أتعجل حيناً وأبطىء أحياناً . كان الأمر جديداً ، فللأنوار عندي شأن خاص . لقد دخلتْ حياتي بحادثة سعيدة ، وبقيتْ ، هي نفسها ، حدثاً سعيداً في أطوار أيامي ؛ ومعها كنتُ واثقاً من نفسي كرجل ، وكنتُ أملك أن أزهو . إنها امرأة جميلة متفوقة ، لا يقربها النفاق أو الجبن ؛ وبامكانها بالتأكيد ، ان تريد وأن ترفض ؛ ولعل من سوء الحظ ، ألا يخطر لي أني قد اكون داخلاً ضمن دائرة رفضها .

كنت ، إذن ، متعرقاً وأنا أغذ خطيً مجنونة السرعة ، نحو لا مكان ، في هذا الوقت الخارج من الزمان المعلوم ؛ وكنتُ أكلم نفسي بتعقل في الاثناء ، فلم يكن الخبال ملائماً في سني هذه ، ولا لأسباب من هذا النوع بصورة خاصة . وبالنسبة لي ، أنا بالذات... خبير المصادفات المبهجة والكوارث النسائية اللامتوقعة... لم يكن من حقي ، لا سابقاً ولا الآن ، أن أغضب أو أحزن أو أتألم أو أصدم أو أموت ، بسبب رفض امرأة تسليم نفسها لي . هذا أمرٌ يجب ان يكون مضحكاً ، يجب أن يكون مضحكاً ولا معنى له أخلاقياً . آه... الاخلاق الانسانية! هذه الكلمة التي ابتكرها الانسان كدواء لجروحه النفسية ، فصارت ، بمرور الزمن ، جرح الانسانية الفاغر . ورغم تصديقي لما كنتُ أقوله لنفسي ، إلا أني ، لحنقي الشديد ، لبثتُ محترق الفؤاد تماماً وبالكامل ؛ وكنتُ باخلاص مستغرباً حالي تلك ، غير دارٍ بأية دوامة اشتبكت حبالي . حين وصلتُ الأسواق ودخلتُ غرفتي ، كنتُ

في غاية الارهاق ، مبللاً بعرقي ، أرتجف بشكل غير منظور ، فارتميتُ على فراشي . أدركتُ لحظتئذٍ أني على وشك الانهيار جسدياً ، وقد اسقط مريضاً لغير سبب جدي ؛ وهكذا كان .

كان صمتُ انبثاق النهار ، في ذلك اليوم من شهر آب ، صافياً رقراقاً كأنه صمت الموسيقى أو نقاوة ماء الينابيع ؛ وكنتُ هادىء النفس مستريحاً في استلقائي أراقب الضوء يزداد انتشاراً على ستارة السماء الزرقاء . كنتُ ، منذ زمن ، أحدس بأني سأقع طريح الفراش ، لذلك لم أقلق كثيراً ولم أبالغ في الشكوى خلال أيام الأزمة ؛ وها أنذا أخرج منها ، شبه معافى ، قادراً على التفكير فيما جرى لي . لم تعد تهمني تلك المرأة ؛ سواء كانت صادقة في وعدها ثم نكثت أم دبرت لي ، منذ البداية ، مكيدة لا داعي لها ؛ فلقد نلتُ عقاباً شديداً على اكثر من مستوى ، دون توضيح . ما كان يشغلني ذلك الفجر إدراكي لهشاشة ذاتي الأخلاقية ، إن أمكن القول . لقد تعودتُ أن أجد نفسي مجبولاً ، في مثل هذه المواقف ، على المسايرة والمداهنة والتلاين في التصرفات . لم يدهشني أن تودني آديل وأن تمنحني من تكوينها الجسدي والعاطفي كل ما تقدر عليه ؛ ولم أصدم ، حقاً ، وهي تمضي بعيداً دون همسة وداع . كنتُ مهيأً أن أرضى ، وقد رضيت . ومادت الأرض بنا ، أنا وكميلة ، وتمزقت علاقتنا الزوجية تحت أنظاري ، فتقبلتُ ذلك كأمر يقتضي أن يقع وقد وقع ، وهذا هو كل شيء ؛ ولم أفكر بموتها ، بعد ذلك ، إلا وقتاً قصيراً . ثم هذه الفتاة فتحية وما عشناه من أوقات سعيدة توقفت ، وتركتني أتلظى دون جدوى ؛ لكني لا أفعل شيئاً غير أن أرى نفسي أتلظى . بعد كل هذا... ثم يحدث آخر العمر ، ان يتدخل عنصر مجهول في علاقتي مع أنوار ، فتصير الوقائع التافهة ـ أمرأة ورجل وما بينهما من غرائز ومواعيد وانتظارات وخيانات ـ موقفاً ذا معادلة اخلاقية معقدة وغريبة . هي ، كانت امرأة ذات هالة خاصة فحواها الصدق في العاطفة وقوة الارادة والشرف . حسناً ، الشرف كلمة لا بد لي ان أحشرها هنا ، فقد كانت

شريفة معي حتى في خيانتها ، ولكنها لم تستمر . لعل لديها أسبابها ، وليس هذا مهماً ؛ المهم أني لم أُطق أبداً الا تستمر في أن تكون شريفة معي . وهذا ما يخرج بي ، كما يبدو ، من دائرة المنطق المعروف الى دهاليز اللاوعي الاخلاقي المظلمة . كنتُ ، على فراشي والصبح يتثاءب منجلياً ، أريد أن أصدق أفكاري هذه وأن أستند عليها لأقوم وأبدأ الحياة من جديد .

اضطررتُ أن أدفع لفتحية ما تراكم عليَ من ديون ، كي يمكنها ان تلبي حاجاتي من الطعام ؛ وكنتُ أقضي أيام نقاهتي بالأكل والنوم وقراءة الأشعار والاختباء من الحر . دفعتْ عني المروحة الصغيرة ، خلال النهار ، غائلة القيظ المهلكة ، واستطبتُ النوم ، ليلاً ، تحت السماء في الباحة ، أتقلب على الفراش ، وأراقب ، خفية ، حركات وسكنات تلك الفتاة التي لم تعد ممارسة الجنس معي تغريها . كانت ، بعد أن ينام أبواها ، تتعرى إلا من لباس قصير خفيف ، وتخرج تتمشى بجواري ، تكلمني أو تتحدث دون أن تسمع مني جواباً ؛ وكنتُ أتملى من منحنياتها وما يظهر من أجزاء جسدها المثير ، دون محاولة الاقتراب منها او لمسها ؛ كنتُ أضعف جسماً ورغبة من أن أهاجمها ؛ ولكني ، على مستوى آخر ، كنت أتمتع . كانت رؤيتها بهذا الشكل توقظ فيَّ نشاطاً غريزياً ، وتتوقد في داخلي شعلة تمنحني نشوة من نوع خاص . كانت تلك حالة تتصف ببعض الشذوذ ، او اللانظام ، الاخلاقي ؛ فإن يكون هدف الاخلاق هو السعادة المتأتية عن الاشباع عموماً ، فقد كنتُ ، إذن ، خارج حدود هذا الهدف ، أتمتع بسعادة معينة هي سعادة التوهج الدائم بغير إشباع . أتكون هذه هي السعادة التي يقدمها العقل الاخلاقي في مخلوق يفنى... كما يقولون ؟

لم يأتِ غسان لزيارتنا الا في احدى الامسيات من منتصف شهر آب ، وكنت قد استعدتُ صحتي غير أني لبثتُ متمسكاً بالبقاء في غرفتي . حتى الجرائد التي اعتدتُ قراءتها مجاناً في مقهى حمزة ، تركتها واسترحت .

كنت غارقاً في الشعر وفي نقد الشعر وحياة الشعراء . لم يعجبني أن أثار ، فكرياً أو عاطفياً ، بتراقص الكلمات ؛ تلك حالة لم يتقبلها عقلي تماماً : وماذا يكون الشعر بعد ذلك ؟

جلب معه ، دون سبب واضح ، هدايا كثيرة للجميع ، وكان فرحاً ، سعيداً بنفسه ؛ بدا عليه ، منذ اللحظة الاولى ، أنه خرج منتصراً ربما ، من معركة داخلية . أحب أن نعيد جلستنا تلك التي عملناها منذ زمن ، فلقي كل ترحيب من فتحية ـ التي نسيت انزعاجها منه ـ ومن والديها ، ولم أعارض أنا بالطبع ؛ وخلال دقائق ، صارت الباحة وما حولها خلية عمل نشيط وسريع ؛ وكنت أراهما ، هو وهي ، يتبادلان البسمات والنظرات الخاطفة ذات المعنى ، فتمنيت لو يملكان الحكمة والصبر لاسعاد أحدهما الآخر . ثم جلسنا اخيراً ، تحت ضوء القمر الفضي ، حول مائدة غنية بكل الاطعمة والأشربة والرغبات الدفينة ، وبدأنا ، دون تكلف ، سهرتنا التي لم نخطط لها من قبل .

كنت أحس بنفسي متعقلاً ، منزوياً عن الحياة قليلاً ، مدركاً حقيقة موقعي وراضياً به . ومع كؤوس البيرة المثلجة التي حمل منها غسان معه قناني عدة ، واشتركنا جميعاً بشربها ، حمي الحديث بيننا وتشعّب وتلاقى وافترق ؛ وكانت فتحية ، في رواح ومجيء مستمرين ، تراقبنا وتعمل على خدمتنا وهي محمرة الخدين ، لاتني عيناها المكحلتان ، تبرقان ببهجة متوثبة كلما خاطبها غسان أو داعبها . قلتُ له إني غارق في الشعر ولذلك لا يمكنني التفكير باستقامة تماماً! اعترض على ذلك وأبدى لي اعجابه الشديد الدائم بالشعر والشعراء ، فابتسمتُ له دون تأييد وسألته عما كان يقرأ خلال احتجازه في المعسكر .

ـ لا شيء ؛ ولكني كنتُ اكتب ، ولك وحدك أقول ذلك .

ـ دعنا نرَ إذن ما أنجزت .

ـ نسيته في المعسكر لسوء الحظ ؛ كنت في غاية العجلة .

اقبلت آنذاك فتحية فوقفت قربنا :

ـ لترانا ؟

ـ بالطبع ، بالطبع .

وبدا لي كأنه كان يهم بالامساك بها وتقبيلها .

ـ حدثني باختصار عما كتبت .

ـ ولِمَ باختصار ؟

كان والد فتحية جالساً كالقنفذ على الأريكة ، يشرب بحذر ولا ينبس ببنت شفة ، كأنه يخشى أن يفلت منه سر خطير .

ـ لم أرد أن اكتب كما يكتبون ، أليس هذا من حقي ؟

ـ لا شك في ذلك . من يمكن أن يجادلك في هذا الموضوع ؟

ـ لا أحد ؛ أنا فقط ، كنت أحس بأني يجب أن اكتب كما لم يكتب أحد من قبل .

ـ سيفارقك هذاالوهم بعدئذٍ .

ـ محتمل . لن يهمني ذلك .

ـ دعنا نطلع على ما كتبت ولا تطل في الشرح .

ـ لم أجلبه معي .

ـ لم تجلب النص معك! حسناً ، ما شكله اذا سمحت ؟ أعني أهو قصيدة أم مقال ام قصة ؟

ـ انه أقصوصة فريدة في بابها .

ـ آه... ولماذا ؟

ـ لأنها ، ببساطة ، فريدة في بابها .

عرفتُ ، حين رفع راية البساطة ، أن نشوة البيرة تسربت الى ذهنه!

ـ حدثنا إذن .

جاءت فتحية تحمل صحناً من اللبلبي ، وضعته على المائدة ثم جلست على كرسيها بخجل ، كأنها فتاة جامعية تستمع بأدب الى محاضرة علمية .

ـ في الحقيقة ، أستاذ توفيق ، أردتُ أن أكتب منذ البداية ، ببساطة ، منذ البداية ، أدباً جديداً ، جديداً جداً .

ـ ذق اللبلبي يا استاذ غسان ، فهو لذيذ ما دام ساخناً

ـ نعم ، سأفعل ، وأذوق اللبلبي .

ومدَّ يده ببطء فالتقط بضع حبات من الحمص الأصفر ورفعها الى فمه .

ـ تبدأ اقصوصتي عن شاب في السادسة والعشرين من عمره ، قوي جميل ثري ذو مستقبل مضمون... ينتحر . كلا... كلا ، لا تحتجوا أرجوكم ، لا تحتجوا ، فإن ما هو غير معقول في الواقع ، ليس مستحيلاً دائماً ، كما يقولون .

ـ استمر . مازلنا ننتظر ما تقول دون احتجاج .

ـ جيد جداً ؛ فالانتحار حادث ليس عارضاً في بعض المواقف ، ولكنه مخفي فقط . انظروا الى هذه الاقصوصة التي كتبتها وأنا معاقب ، كما تعلمون ، في المعسكر .

جرع شرابه حتى فرغ كأسه وشهق فأخذ يسعل بشدة . قام واخرج منديلاً فأخفى وجهه وهو لا يتوقف عن السعال . نهضتْ فتحية قلقة فأسرعت تجلب له كأس ماء تناولها ، محمر الوجه والعينين ، فشرب منها ثم أعادها اليها بكل لطف .

ـ شكراً ، شكراً .

ـ تمهل يا غسان في حركاتك... القصصية .

أُعجب بتعليقي فابتسم ثم قهقه قهقهة قصيرة :

ـ نعم . نعم .

سكن جامداً ، لحظات ، وهو يبتسم مثل بوذا :

ـ الشاب مدعو الى حفلة تقام في شقة في الطابق السابع .

ـ هل تبدأ أقصوصتك هكذا ؟

ـ بشكل آخر ، بشكل آخر ؛ فأنا أعطيكم الموجز . هو مدعو الى

الحفلة إذن ، والحفلة هي بمناسبة مرور اربع سنوات على زواج سعيد بين الفتاة التي كان الشاب يحبها فرفضته واختارت زوجاً آخر غيره ؛ وقد دعته هذه الفتاة ، لا ندري لماذا ، لكنه كان مدعواً ، وقد حضر الحفلة الأنيقة ؛ ولعلمكم فالأقصوصة لا تبدأ بالحفلة ولا علاقة قوية لها بها ، إنما الشاب يأتي ليقول كلمتين أو ثلاثاً لتلك الفتاة التي اختارت أن تتزوج بآخر ؛ ثم يتجه نحو الشرفة المطلة على الشارع ليرمي بنفسه منها ، وعند ذاك تبدأ الأقصوصة فعلاً . هل ترون في كل هذا شيئاً معقولاً جرى سرده من قبل ؟

بقينا صامتين ، ننتظر .

ـ وما إن يندفع الشاب ساقطاً بسرعة نحو الارض ، حتى تنثال على ذاكرته بسرعة أكبر ، صفحات من ذكرياته عن تلك الفتاة وما عملت به وعن أبويه وأصدقائه وعالمه ، وعن الفكرة الرئيسية التي دفعته للقيام بما كان يقوم به .

ـ الفكرة التي قتلته ؟

ـ لا أدري ، هذه مسألة غيرمبتوت بها ؛ المهم أن الفكرة هي... تفاهة كل شيء ، والتفاهة هنا ليس العبث . كلا . فكرة التفاهة هنا لا تعني فكرة العبث المتداولة ، فهذه فكرة مزيفة تماماً . قل لي ، كيف يمكن ان تفسر الطبيعة بقوانين أخلاقية ابتكرها الانسان لنفسه ؟ أما التفاهة فتقول... مادام كل شيء سيؤول الى العدم فهو تافه إذن ؛ هو موجود مؤقتاً ؛ ومؤقت يعني لا قيمة أزلية له ، يعني تافهاً .

ـ وماذا قال لها ، اذا سمحت ياغسان ، من أجل ان نحيط بكل جوانب الأقصوصة ؟

رفع ذراعه طالباً ان ننتظر ؛ ثم تناول كأسه وأفرغها في جوفه .

ـ لم أكمل بعد ، دعني أكمل قليلاً ، استاذ توفيق . القضية هي أن التفاهة غير مستقرة في صلب تكوين العالم فحسب ، بل انها تغرق الانسان

ايضاً ، هذا المخلوق الفذ ؛ تغرقه وتمسخه وتجعل منه نتانة صغيرة وعاجزة ؛ فهو ، ببساطة ، تفاهة في تفاهة . والآن ، ماذا قال لها ؟ حسناً جداً ؛ لن أخفي عليكم ذلك . لقد همس في أذنها بكل بساطة وبرود ، ببساطة وبرود شديدين بأنها كانت محقة في رفضه زوجاً ، فهو قد تبين أنه ، مثلها ، تافه تافه ؛ ثم مضى الى الشرفة ، والتتمة تعرفونها .

ورفع كأسه فتبعته فتحية ، وشربا كأسيهما حتى الثمالة . سألته عن الطريقة التي صاغ بها فكرته هذه :

ـ لا أدري ، فلم اكتبها لحد الآن ، أترى ؟

وضحك مربتاً على ذراعي ، وكانت عيناه تنفثان قلقاً .

ـ والتفاهة هذه ، ماذا تعني بها ؟

ـ العجز . الانخذال . الهبوط . الضياع . اللافائدة من أي شيء أبداً .

ـ توصيفات عامة لا حدود لها .

ـ ممكن ؛ أنا كذلك ، لا حدود لي ولا أعرف بالضبط ما هي التفاهة ، ولكني أحسها ، هذا هو كل شيء ، أحسها دائماً ، حولي وفي داخلي .

كان دائم الابتسام ، ولكن بما يوحي أنه لا يريد ان يظهر مشاعره ؛ أزعجني هذا بعض الشيء ؛ إنه الاخفاء المتقصد لأمر غير قابل للكشف ولا للشرح .

ـ إنها قصة حزينة ؛ أليس كذلك يا أستاذ توفيق ؟

تكلمت فتحية بليونة كأنها سكرى ، وكنتُ أعلم أنها ليست كذلك .

ـ كما ترين ؛ أسألي الاستاذ غسان ، لِمَ يكتب قصصاً من هذا النوع ؟

التفتت اليه ، مقتربة منه وهي تكلمه :

ـ في الحق ، استاذ غسان ، لماذا لا تكتب لنا قصصاً مفرحة ، تنسينا أحزان هذه الحياة ؟

ـ إذا أردتِ النسيان فعليك بالشعر يا سيدتي ؛ وأنا غير مختص به ؛ ببساطة ، غير مختص به .

كان الوقت قد تأخر ، فجلبوا العشاء وأكلنا تحت ضوء القمر . عدت أحدّث غسان :

ـ أريد أن أرى أقصوصتك .

ـ لا تنخدع بي يا أستاذ توفيق ، فقد اخترعتها قبل أن أبدأ بالكلام عنها .

ـ يحسن بك ان تكتبها إذن .

ـ هذا شيء بعيد .

كنا بمفردنا ؛ سألته بعد صمت قصير :

ـ أنت لستَ سعيداً ، ولكنك يجب ان تكونه ؛ لا تفسد أيامك بالأوهام الصغيرة وتمتع بما لديك .

ـ ليس لدي شيء مهم .

ـ لا تجعلني أضحك .

ـ اضحك اذا شئت ، ولكني لا أملك غير الحواشي والتفاهات .

ـ لا تبالغ ، ارجوك . انظر الينا ، انظر هنا ؛ يجب ان نكون سعداء بهذه الرفقة الطيبة وبهذا الجو وبكل المواعيد المقبلة الاخرى .

ـ لا أملك أنا أية مواعيد . أنت لا تعرفني جيداً ؛ أنت إنسان سويّ يا أخ توفيق . أعرف أنك جربتَ الحياة ، فسعدتَ فيها وشقيت وتعذبت وعملتَ احياناً ما تحب ؛ أما أنا ، أنا إنسان مستَغلَق ، شبه معوق ؛ لا أدري ما بي ولا ماذا أعمل بهذه الدنيا .

وضرب المائدة بكفه ضربة شديدة فقلب كأسي البيرة الفارغين واوقعهما أرضاً . أفزعه فعله فقام يلاقي فتحية التي أقبلت من المطبخ .

ـ لم يحصل شيء ، لا شيء مهماً يا فتحية . أسقطتُ دون تعمد هذين الكأسين . لا شيء مهماً .

ـ خير إنشاء الله . دعني أرفع الزجاج لئلا يؤذي أحداً ، تفضل بالجلوس . خير انشاء الله . تفضل وارتح ولا تقلق نفسك .

لبث واقفاً ببعض الحيرة ، يستند الى الكرسي وينظر الى الزجاج على الأرض بانزعاج . ثم التفت اليّ :

ـ هل يمكنني أن أرتاح قليلاً ، أن أستلقي قليلاً ؟ أحس أني متعب .

أشرتُ الى فتحية ان تقوده الى غرفتي ؛ لكنها أمسكتْ بذراعه وسحبته بلطف الى غرفتها ، ورأيتها تشير الى فراشها ثم تفتح الشبابيك وتخرج . قصدت المطبخ فأحضرت مكنسة وجريدة واقتربت مني :

ـ أهو مريض ؟

ـ كلا . ألم تسمعيه يقول لنا إنه متعب ؟

ـ متعب ؟ متعب من أي شيء ؟

ـ من نفسه

ـ لا تسخر مني .

ـ لا تتغابي أنتِ أيضاً يا فتحية .

وقفت تنظر اليَّ نظرات تساؤل وحيرة . كان نهداها بارزين واستدارة حوضها وردفيها تبدو ، تحت النور الشاحب ، كبيرة مغرية . انحنتْ دون كلام وأخذت تكنس بقايا الزجاج وتجمعه على الجريدة . كان أبواها في المطبخ يغسلان الصحون ويتحدثان بهمس متقطع . عادت الى المطبخ بحملها ، وبقيتُ جالساً بمفردي ، مع المائدة والكراسي الفارغة .

عمَّ كان يتكلم هذا الشاب الطليق الثري ؟ ولِمَ تظلم رؤياه الى العالم بهذا الشكل ؟ كان حديثه الأدبي ملفتاً للنظر ؛ ولا شك أنه لم يكن وليد الساعة ، كما قال ؛ إن فيه إشارات خفية تجاوز أحداث الأقصوصة وترتد عليه هو ، هو الراوي . إنها تفاهته ، كما سماها ، التي يريد أن يعبر عنها هذا الانسان المستغلق ؛ هكذا وصف نفسه ، ويالها من صفة! وشبه معوق أيضاً! تذكرتُ ما كنتُ عليه وأنا في سنه... موظفاً صغيراً ومقامراً أصغر ، ومعشوقاً محظوظاً ملاحقاً من النساء وانساناً سعيداً ؛ سعيداً دون أن يدري . ولم يهمني ، تلك الأيام ، أن تسرقني أمي أو أخي ، فكل شيء

سينصلح آخر الأمر ، ويالله... كم كنتُ على خطأ! ولعلي كنتُ تافهاً أيضاً ولم أدر ؛ سعيداً وتافهاً في نفسي الوقت . تجرني امرأة من ياقتي حيناً وترفسني اخرى بكعب حذائها ؛ ثم تُغلق عليَّ أبواب معيشتي لحركة بسيطة أتيتها ، وأُمرغ بالتراب وتحت الأقدام ، وأتسول وأجوع وأنافق وأدجل وأدعي الحكمة والأدب ، وأتظاهر بالرجولة ، وألاحق النسوة مدفوعاً برائحة الجنس ، وألهث والهث دون جدوى ؛ ثم أظن نفسي سعيداً دون أن أعلم!

يالشقاء الجهل ، أم يجب ان اقول يالسعادة الجهل ؟

غادروا المطبخ فقصد أبواها غرفتهما بسكون وجاءت فتحية لتجلس علي كرسي قريب مني وتلتزم الصمت . مددت ذراعي أمسك بيدها فالتفتت اليَّ وهمستْ :

ـ قل لي ، توفيق ، أرجوك... أهو مريض ؟

ـ لماذا تريدين أن يكون مريضاً ؟ كلا ، إنه ليس مريضاً ولا عيب فيه ، ولكنه شقي ومصدوم بأمر ما ؛ أتحبينه ؟

سحبت كفها .

ـ أية اسئلة عجيبة تسأل!

ـ لأن بامكانك أن تجعليه عندئذٍ يأنس بالحياة .

ـ وماذا يعمل هوالآن... الشراب والثياب الغالية والسيارات والفلوس... أليست هذه هي متع الحياة ؟

ـ هل تكفيك هذه الأمور فقط لتسعدي ؟

لم تجب ؛ كانت مثل ظل بجانبي ، لا أرى منها الملامح بل انهمار شعرها على كتفيها وظهرها ، وارتفاع النهدين ؛ وكنتُ مسترخي الجسم ، شبه متبلد ، لا أكاد أقوى على القيام . اغمضت عينيَّ . سمعتها تترك مكانها . كان الجو ذا نسمات خفيفة والحر تلاشى والقمر اختفى وراء الجدار . لم تزل آثار المرض تفعل في جسدي فعلها ، فلا شهوة عندي ولا قوة زائدة . رفعتُ ساقيَّ فوضعتهما على الكرسي أمامي وأتكأت برأسي على

راحة يدي . يمضي كل شيء في الحياة مع الزمن ، ويتبقى منه في النفس أثرٌ فيسمونه ذكرى ، وهو في الحقيقة لغز إنساني . ها أنذا الآن ، في هذه اللحظة ، سألتقط صورة العزيزة آديل من بين جفون ذاتي ، من بين أمواج قلبي ، فأضعها أمام بصيرتي ؛ ها هي ذي ، هاهي ذي تندس بنعومة في طيات ديمومتي... في باطن أناي... إنها وأنا نتواجد إذن باستمرار ؛ ليس للأبد بالتأكيد ولكن بدوام الحياة ، وقد يكفي هذا ، يكفيني أنا على الأقل .

كانا يتكلمان في غرفتها ذات الباب المفتوح ، وكنتُ أسمعهما جيداً من وراء سهومي واندفاني في الذكريات ؛ إنه حديث العشاق الأول ، حين ينطلقان في كلام لا نهاية له ويخوضان غماراً دون حدود . لم يهمني ان أميز فحوى ما كانا يتبادلانه ، بل كنت أداور في ذهني سؤالا عما يجب أن أعمل . قمتُ بعد لأي ، فسرت متثاقلاً الى غرفتي وارتميت على السرير ؛ لم يكن لديَّ حل آخر . بقي الصوتان يصلاني بخفوت مثل نغمين منسجمين ، يتداخلان فيما بينهما ويفترقان ويعودان الى التداخل ؛ ثم إن فترة صمت طالت ، وانقطعت بعد هنيهات بالحديث ثم طالت مرة أخرى ؛ وكتُ مسترخياً على ضفة نوم ، بدا لي لذيذاً لا يقاوم . جاءتني اديل في صورتها أول مرة التقينا فيها ، أثناء حفل رأس السنة ذاك المجيد ؛ وكانت زاهية ، مشعة بجمال أخاذ . ورقصنا ، علمتني الرقص واحتضنتني وغمرتني رائحتها الأنثوية ؛ وكانت تنظر في أعماق عينيَّ مبتسمة بسعادة عظمى ، ثم شدتني اليها ومالت على أذني تهمس... ذكريات كلنا ، كلنا ذكريات ، كأنها تغني أغنية تعرفها ، وكنتُ أحاول أن أتذكر اللحن الذي غُنيت به تلك الكلمات... فأحسستُ بلمس الكف الرقيقة على ذراعي تهزني . وبصوت فتحية الناعم :

ـ توفيق ، يا توفيق ، هيا قم يا توفيق . ما هذا النوم!

كانت منحنية عليَّ في ظلام الغرفة الباهت ، فأخذتُ أتطلع إليها بذهول كأنها تتمة حلمي .

ـ توفيق ، اسمع توفيق .

رفعتُ ذراعي ببطء وأمسكتُ بها ، ففزعت وتراجعت :

ـ أنت مستيقظ ؟ قم ، ماذا تعمل ؟ تعال معي .

ثم سحبتني فقمتُ مشوشاً ثقيلاً وسرت وراءها دون كلام . ظننتها ، لحظة ، تريد أن أنام معها ، فبعثتْ فيّ هذه الفكرة المفرحة نشاطاً أفتقده . كان غسان واقفاً أمام الشباك المفتوح في غرفتها المطفأة الضوء . فوجئتُ برؤيته . همستْ :

ـ لا يريد أن ينصرف ، سننفضح كلنا ، ولن نستطيع البقاء في الحي يوماً واحداً . كلمه أرجوك .

ـ ماذا حدث ؟

كانت عيناها الخضراوان تتألقان بأمور عجيبة لا تُحل أسرارها... بالقلق المهلك والغبطة والارتواء ، وكنت أراها على النور الخافت المقبل من النجوم . دفعتني نحوه فسرتُ ببطء ، غير فاهم بالضبط ما أوحت لي به عيناها . وضعتُ يدي على كتفه فبقي جامداً . كان الشباك ضيقاً وضوء الشارع الخابي لا يكاد يصلنا .

ـ ماذا حدث ، غسان ؟

لحظات صمت ثم همسه الفريد :

ـ لا تتوفز يا سيدي ، فأنا ، في قمة سعادتي ، لا أريد أن أغادر هذا المكان المقدس... فردوسي ؛ لا أريد أن أتركها هنا ، لا أريد أن نفترق... هذا هو كل شيء ، فلا تتوفز أيها الصديق الكريم .

ثم استدار اليَّ ، ملء وجهه ابتسامة مشرقة ودموع غامضة تتلامع على خده .

ـ تعالي هنا ، فتحية ، تعالي ؛ لا تخشي شيئاً من وجود هذا الأخ العزيز معنا .

اقتربتْ منه فتحية بسرعة فاحتضنها واحتضنته ، ثم وضعت رأسها على صدره .

ـ لماذا ، إذن ، أقلقتما نومتي الجميلة تلك وأحلامي الحلوة ، لعنة الله عليكما ؟

ضحكا ضحكات خافتة ، ورأيتها ترفع له وجهها فينحني عليها ويغرقان في قبلة طويلة حارة . حككتُ رأسي بحيرة .

ـ ما المشكل ؟ قولا ما المشكل الآن ؟

نبرت هي قبله :

ـ يريد أن يبقى معي ، ألم تسمعه ؟

خطر لي آنذاك أن أنظر الى ساعتي . لم أميز الوقت فاقتربتُ من الشباك . الثالثة وسبع دقائق .

ـ اللعنة . هيا يا غسان ، فالفجر آت بعد وقت وجيز .

ـ أريد أن أبقى معها... مع حبيبتي وزوجتي ، أليس لي الحق في ذلك ؟

ـ سنتكلم عن هذا في وقت آخر ، هيا معي ، اتركيه الآن يا غبية وأذهبي حضري لنا شاياً وشيئاً نأكله ؛ وأنت ، تعال معي بهدوء لنغتسل قليلاً ونستعيد نشاطنا .

لم أسأله وأنا أرافقه الى الخارج عما جرى ، فقد كنتُ أتوقع أمراً من هذا النوع ، ولكن بشكل مغاير وفي وقت آخر . نصحته وأنا أغلق باب سيارته بأن يتأنى ، وأن يركن المرسيدس الفخمة في زاوية من الشارع كي لا تلفت اليه الانظار دون موجب ، كان الظلام يتراجع والسماء تتفتح شيئاً فشيئاً . نظر اليَّ بعينين مشوقتين :

ـ لن تفهم الآن يا صديقي ؛ تحمّلني فقط ، أنا وسعادتي الكبرى .

ثم انطلق بسرعة واختفتْ أضواء سيارته الحمراء في منعطف الشارع .

وجدتُ فتحية قد أغلقت بابها ؛ وكنتُ متعباً ، دائخاً بعض الشيء فقصدتُ فراشي الآمن واستلقيتُ عليه . كان نسيم الفجر بارداً يغري بنوم عميق ؛ يا لها من ليلة لا شبيه لها! وكنتُ أحس هاجساً مقلقاً يساورني ؛ فلا يمكن أن تمر هذه الأحداث وبمثل تلك العوطف الملتهبة ، رخاءً على

الجميع . كان ممسوساً بفكرة واحدة هي أن يبقى الى جوارها للأبد ؛ ولم يبدُ عليه لحظة أنه يفتعل الأمور . وحين أخذتُ كلامه على محمل الخفة ، أمسك بذراعي وراح ينظر في وجهي ، محدقاً بعينيَّ ؛ كان غسان آخر . تكلم بصوت متهدج :

ـ لقد نجوتُ . لقد نجوت . لن أنسى لك رفقتك ، لن أنساها .

أردتُ أن أبعد عنه جديته هذه المرتبطة بعقدة غامضة :

ـ لا تخلط حبورك بالأحزان ، واترك لسعادتك أن تكون صافية كما يجب .

ـ نعم . هذا صحيح . كم أفهمك بعمق!

كانت عبارته عن النجاة تأتيني وأنا أنساب في ضباب النوم ، فتوقف انسيابي وتوقظ فيَّ رغبة لفهم ما كان يعني ، فلا أفهم ، ويعود اليَّ ضباب النعاس فأغرق في ثناياه .

ثم ما لبثتُ أن استيقظتُ كأني لم أنم إلا دقائق معدودة ؛ وكانت الشمس ترمي بشظاياها منعكسة من كل شيء خارج الغرفة... الجدران والمائدة والزجاج ، والساعة جاوزت الحادية عشرة صباحاً من نهار يوم جمعة مليء بالحرائق ؛ وكانت ضجة الأسواق تصل اليَّ كهمهمة عملاق مخنوق ، فقمتُ لأغلق الباب . لمحتُ ، من وراء ألم عينيَّ المبهورتين بالضياء ، أمها تقف وقفة شاذة قرب غرفة فتحية ، منحنية قليلاً كأنها تتصنت لحديث خافت . خرجتُ الى الباحة فالتفتتْ اليَّ وأسرعت نحوي . وقفت أمامي كمن يصيبه مغص في امعائه وأشارت بذراعها إشارة ذات معنى الى غرفة ابنتها .

ـ هناك ، موجود معها ، جاء منذ اكثر من ساعة .

ـ هل رآه أبوها ؟

هزتْ رأسها نفياً .

ـ لا تخافي ؛ سيتزوجان عن قريب .

انفرجت أساريرها بضحكة بلهاء وتلاعب الشك في نظراتها اليَّ .

ـ كما أقول لك ، سيتزوجها عن قريب . انه شاب مخلص يحبها من كل قلبه ، فلا تقلقي واذهبي اكملي عملك .

ثم دخلت غرفتي واستلقيت على الفراش .

كنت متأكداً مما قلته لها ، رغم كل الشكوك العظيمة التي تحيط بالوعود وبخلق المستقبل ؛ وكنت أريد ، بيني وبين نفسي ، ان اتشبث بشيء ، يعطيني يقينا مثل هذا الذي امنحه للآخرين مجانا . لم استطع النوم بالطبع وقمت فاغتسلت وحلقت وفطرت .

كانت أمها تدور حولي اينما توجهت ، حتى اضطررت إلى زجرها رغم اشفاقي عليها . بعيد الظهر طرقت الباب عليهما ، كنت جائعاً منزعجاً وقلقاً . فتحت هي لي الباب بمقدار بوصات لاغير ، الا أني استطعت ان المحها في ثوب داخلي شفاف تبدت من ورائه حلمتا نهديها وسرتها ودكنة ما تحت بطنها . نظرت الي بعينين شبه مغلقتين لحظة ثم اغلقت الباب بسرعة . كلمتها :

ـ اسمعي ياعاقلة ، اذا كان هو مجنوناً ، فماذا حصل لك أنت ؟ هيا أفيقا الى نفسيكما واخرجا . تصرفا مثل بقية البشر ولاتجلبا الفضيحة علينا بالقوة .

سافر الى المعسكر عند الفجر كما قالت ، بعد ان قضى مساء الجمعة وليلة السبت معها ،ووعدها أن يعود قبل نهاية الشهر .كنا في اليوم السادس عشر من آب ١٩٨٠ ، وكان يوما حارا ، ملتهبا حسب التقاليد المناخية ؛ يمثل ، دون ان ندري ، الهدوء الذي يسبق العاصفة . وفي هذا اليوم نفسه ، السبت أخبرني أبو فتحية حين عاد من الدائرة بأن أخي عبد الباري خابره وأعلمه بأن عمه والد زوجته ثريا قد توفي أمس وأن التشييع اليوم عصراً وطلب حضوري . كانت عملية التشييع والدفن والانتظار وتقبل التعازي ، عملية مهلكة دون شك ؛ وتقرر أن نبدأ الفاتحة صباح اليوم التالي . كان كاسب هناك ، وعلمت انهم لم يستطيعوا الاتصال بممتاز في خانقين لذلك لم يحضر .

كانت هنالك مشكلة عويصة ومضحكة ، حدثتني عنها ثريا بعد ان عزيتها وجلسنا نرتاح ؛ رغب المرحوم والدها في ان يتبنى جاسم الرمضاني ، زوج ابنته الراحلة كميلة ، بعد ان رأى منه وفاء وخدمة وإخلاصا لم يشهدها من أحد غيره . اعتقدوا بادىء ذي بدء انه يمازحهم ، لكنه أصر بشكل عجيب وبقي يكرر طلبه ويثار عصبياً اذ يجد ان طلبه يقابل بالاهمال والسخرية ؛ وكان المطلوب تبنيه ، جاسم ، يلعب دور الخروف المسكين الذي لايملك غير الاستكانة والخضوع . ولما لم تجد ثريا ، وهي الوارثة الوحيدة لأبيها تقريبا ، مناصا من حسم الأمر أقنعت أباها بأن يوصي لجاسم بمبلغ من المال يقدره كما يشاء ويستقطع من التركة كدين في ذمته لهذا الابن الجديد ، ووعدته بأنها لن تعترض على ماسيقرر منحه له ، فاقتنع وبات مطمئنا بعد ان كتب لجاسم كمبيالة صدقت من الكاتب العدل بمبلغ عشرين ألف دينار .

وددت ، لو كان الظرف يسمح ، أن أضحك ملء شدقي كما يقولون وأن أهنىء هذا المحتال الصغير على نجاحه في تخريب عقل عميد اسرة آل قصابي ، بحيث أفقده حاسة الحرص على أمواله حتى الموت . قلت لها :

ـ أنه لأمر غريب وغير مألوف . ماذا ستفعلين ؟

ـ هل تظنني أسمح لخادم مخنّث ان ينتزع منا هذا المبلغ الكبير ؟ أريد منك ان تتفاهم معه .

ـ أنا لايمكنني ان اتفاهم مع احد ياثريا ، قومي انت بالتفاهم معه . ماذا تريدين ان تعملي بالتحديد ؟

ـ انت يا توفيق لاتصلح لعمل شيء جدي ، الا تعلم ان بامكاننا ان نقيم دعوى لاسقاط هذه الورقة ؟

ـ ولكنك وعدت اباك بعدم فعل ذلك ؟

ـ سأتفاهم معه حين نلتقي ، لايهمك ذلك

ـ إذن ؟

ـ أريدك ان تذهب لهذا الجاسم وتخبره بأني سأقيم الدعوى واحرمه من كل شيء اذا لم يقبل بثلاثة آلاف وينصرف . إبدأ معه بألف دينار ثم اكتشف قابلياته . انا استعين بك لأن اخاك ، يحفظه الله ، لاينفع لأي شيء من هذا النوع ، وأنت تعرفه جيدا ، وأولادي الشباب أسوأ من الشياطين . ساعدني ياتوفيق وسأساعدك أنا أيضا .

ـ أتركيني افكر حتى تنتهي الفاتحة وسنرى بعد ذلك . كيف هي احوال نجية مع ممتاز ؟

ـ ستأتي غداً ، ولن ادعها ترجع الى خانقين ولو أرسل عشرين شرطياً .

تقرر ان تقام الفاتحة في دار المرحوم وان تستقبل ثريا المعزيات في بيتها ؛ وكان جاسم في حركة دائبة تثير الاعجاب حقا ، فهو مهموم بتحضير معدات الفاتحة وجلب المقرئين ووضع الميكروفون وتحضير الأماكن لصنع القهوة وتدبير خدم لتقديمها للمعزين... الخ وكان اخي عبد الباري يتحول من هنا الى هناك دون ان يعمل شيئا غير سماع اقوال الآخرين والموافقة عليها . اما انا فلم أرها الا مساء ؛ كنت ، صدفة ، اطل من شباك غرفة الاستقبال والمساء تكاثفت ظلماته ، حينما رأيت انوار تخرج من الباب الخلفي وتسير بخفة في ممر الحديقة تحت الضوء الكهربائي . كانت ملفوفة بالسواد عدا وجهها الأبيض الجميل . بدت لي كمخلوق علوي لايزور البشر الا في احلامهم . راقبتها تسير خارجة من الدار قاصدة المشتمل . شاقتني رؤيتها الخاطفة ، وتذكرت ، في لحظة كل شيء .أكان من حقي أن أبث في نفسها الاضطراب ، كما فعلت ؟ ام اني صدقت حقا اقوالها ، حين رجتني الا اطلب منها ان تخون ، لأنها ستخون آنذاك ؟

اوصلني سلوان الى حي العامل وكان الحر قد خفت حدته كثيراً .

وجدتهم نائمين ، فخطر لي ان اطرق باب غرفة فتحية لعلها لاتزال مستيقظة ، فهذه الفتاة تخاطر بكل شيء دفعة واحدة ودون تفكير ؛ وكنت أحس بنفسي ملزما بتحذيرها على الاقل من الطريق الخطر الذي تسلكه .

فتحت لي حالا وسألتني عما أريد ؛ كانت خائفة مني ، تلك الحمقاء .
طمأنتها على كل حال وأبديت لها بأني اود مبادلتها الحديث فقط من اجل مصلحتها .

- اذهب الى غرفتك وسأجيء اليك ؛ ولكن لاتزعجني ياتوفيق بأعمالك تلك ، فلم أعد اطيقها ، ارجوك .

اديت لها التحية ، مبتسماً بمرارة .

- انا التي اردته بكل قلبي وانا التي سعيت اليه ؛ وأنا ، ايضاً ، التي تعرف جيدا ماقد يحصل . لاتوهمني بنصائحك ياتوفيق فقد فات وقتها ؛ وهو ، اذ فوجيء بي أتجه اليه هكذا ، اندفع نحوي بشكل... ياالله... بشكل لايتصوره العقل ؛ كأني فتحت له باب السجن ، كأني أخرجته للدنيا... كأني...كأني ، لاأعرف كيف أقول ، هل يمكن ان يحدث هذا ؟ ولو رأيت فرحته ، ولو رأيت ماعمل بعد... بعد ذلك الشيء ؛ ياربي... كاد يخنقني وهو يضمني الى صدره العاري ويقبلني ويضحك ويرتجف ودموعه تسيل ، ماهذا ياربي ؟ وأنا كيف يمكنني ان اتحسر بعد ذلك او اندم ؟ اترى ؟ وأنت لم تفهم ، ربما ؛ لايمكن لاحد ان يفهم هذا الطائر العجيب الذي رفرف طويلا وحطّ عليَّ... انها ساعات لاتمر على انسان... لاتمر على كل انسان ؛ وعليَّ بالخصوص . ماذا عملت لكي استحق كل هذه السعادة ؟ وتأتي الآن ياتوفيق ، تريد ان تصب نصائحك على رأسي ، وأنا اعلم الناس بها ، اعلم الناس بها تماماً .

كانت جالسة على الصندوق العتيد ، جنب الكتب المصفوفة باهمال ، وضوء الشارع والنجوم يبرز قسمات وجهها الجميل ؛ وكانت تتكلم هامسة ببطء وببعض التعثر ؛ ثم تمسح جبينها وترفع عنه خصلات من شعرها الكثيف الأسود . لم أتوقع هذا الحديث قط منها . وخيل الي اني احس بقلقها العميق المختفي وراء كلماتها العاطفية .

كان وقت النصائح قد فات في الحقيقة ، وكان عليَّ فقط ان ابدي لها وقوفي الى جانبها عند الحاجة ، ولعلها كانت تنتظر ذلك مني .

ـ أنت على حق يافتحية ، فنصائحي عن الحذر والتفكير في المستقبل لافائدة منها الآن ، ولكنني أحب أن توضحي لي بعض الأمور لكي ارتاح ، فأنا أشعر بنوع من المسؤولية نحوك ونحوه... نحوكما انتما الاثنين ، اترين ؟ هل اتفقتما على الزواج... اعني هل اتفقتما على الاستقرار وتنظيم حياتكما المستقبلية ؟

ـ ألم تسمعه ، تلك الليلة ، يريد ان يبقى معي ، يبقى مع زوجته ، الم تسمعه ؟

عرفت أن غليان المشاعر بينهما أحال قضايا التعقل إلى تفاهات لا شأن لها كبيراً ، وأنها لاتملك ان تجيب على اسئلتي بوضوح . امسكت بكفها الباردة الصغيرة .

ـ لاعليك فتحية ؛ انت عزيزة علي فلا تقلقي . سأبذل من اجلك كل جهد كي تسعدي مع هذا الشاب الذي اراه كأبني .

سحبت كفها بسرعة وغطت وجهها بيديها ثم انخرطت ببكاء محرق هز جسدها . كانت سعيدة وشقية وقلقة بشدة ومنهوبة العواطف ومشتتة وخائفة . عدت أحاول بث الاطمئنان في قلبها كاتماً رغبة جنسية لعينة أثارتها فيَّ تنهداتها وشهقاتها . استرجعت في ذهني تلك المضاجعة الفذة ، حين كانت تتأوه وتبكي وتتوجع ، لسبب لاأتذكره ، فأثارتني بشكل جنوني وتغلب عليَّ نزوع سادي لم أجربه من قبل ؛ ولكن هذه امور ماضية ، يتوجب عليَّ ان انساها لكي اتساوق مع ماحصل وارتاح .

مضت ايام الفاتحة الثلاثة المملة كما تقتضي التقاليد ، وكنت أمارس حضورا هامشيا وأتمتع بمراقبة مايجري . كان المعزّى الأول عبد الباري ، يجلس في صدر المكان بقلق بالغ وينظر خفية الى صهره ممتاز ، الذي انتفخ قربه معتبرا نفسه صاحب المقام الأرفع الذي تنازل عنه بطيبة خاطر من اجل مصلحة العائلة ؛ ثم ينكمش بعد ذلك جاسم الرمضاني في مكانه حين يسمح له بالجلوس ، فهذا الشهيد الحي يتراكض دوماً ، يحاول ان يسد الثغرات في الخدمة أو في طريقة اتباع الاصول في الاستقبال والتوديع . كان هناك ايضا

كاسب وبعض الوجوه من قبيلة عبد المولى ، وكذلك الرسام عبد الاله والد غسان الذي مكث فترة قصيرة ثم خرج . لم يرني ولم احاول ان اكلمه ؛ فقد كنت أريد ان احدث غسان ، قبل ذلك ، على انفراد .

لم انتظر انصراف آخر المعزين في اليوم الاول ، وغادرت حوالي الثامنة عائدا الي حي العامل . كنت انا الآخر ، ملفوفا بقلق غير منظور تسببه لي أفكار لاأريد ان افكر فيها أو استعيدها في ذهني ؛ وكنت متشائما مما سيأتي ، تتملكني حالة شبيهة بالسوداوية التي تهاجمني بين وقت وآخر . كنت مأزوماً جنسياً ، وأعني بذلك محروماً ، ولاأعلم كيف أحسم هذه القضية الشائكة وانا في سن حساسة أقترب من الخمسين . تظاهرت طويلا بأن الأمر لا اهمية له ولايجب ان أدخله ضمن مشاكلي الحياتية ؛ كنت أتنفس جنسيا مرة هنا ومرة هناك ، وأتسامى اغلب الأحيان حتى تزهق روحي . والآن ، تتدخل هذه القضية في كل شيء خفية وعلناً .

منعت نفسي بقوة كيلا اهاجم فتحية تلك الليلة وهي عندي جالسة على الصندوق تتباكى ؛ ملعونة كانت رغبتي فيها وشيطانية ، ويبدو انها تهجست مشاعري ، فانطلقت شبه هاربة الى غرفتها وأغلقت عليها الباب . ومع ارتياحي بعد ذلك ، تملكني احباط مزعج آثار استغرابي ؛ فها أنذا كهل مجرب ، يميل جسده الى الخمول اكثر من ميله الى التوهج والاندفاع ، وأجدني مع ذلك حبيس عواطف تنبع من مواضع في هذا الجسد ، لا أكاد أتعرف عليها ، وتستولي بالكامل على وجودي الانساني ونشاطي الفكري فتشلهما وتعطلهما بشكل من الاشكال ؛ فأنا غير قادر على التركيز على ما أقرأ ، وأنا عاجز عن الانطلاق بعيدا عن هذه العواطف .

ثم يحدث بعد ذلك احيانا ، بالصدفة او عن سابق تدبير ؛ ان تسنح فرصة الاتصال بأنثى وتتم العملية كما يجب ؛ وماذا اذن ؟

تنتقل الى حالة الأشباع كما تسمى ، وتغادر جسدك انكماشاته وتشنجاته الداخلية والخارجية ويرتخي وقد يتهاوى ؛ وماذا اذن ؟

تفقد الأنثى هالتها وتصير حركاتها ، المثيرة للجنون سابقاً ، خرقاء مضحكة ، ويتبدى مبلغ غبائها وتتبدى درجة الحماقة التي كنا نسعى لإنجازها إطاعة للغريزة .

في اليوم الثالث للفاتحة قدم العشاء للمعزين في جهة من الحديقة ، أشرف على ترتيبها جاسم تحت أوامر ممتاز اللامي الذي كان يتجنب ، لحسن الحظ ، النظر نحوي أو توجيه الكلام الي . ذهبنا إثر العشاء إلى بيت عبد الباري ، ولاحظت ان ممتاز انصرف بسيارته تاركا زوجته نجية في دار ابيها . جلسنا في غرفة الاستقبال التي فرشت كلها بالسجاجيد والفرش والمساند ، وانتبهت الى أنوار تدخل ، متشحة بالسواد مثل بقية النساء ، وتجلس في زاوية من الغرفة بعد ان رأت كاسب معنا . كانت ثريا تتظاهر بالتعب وهي تسند والدتها التي ارتمت على الفراش مثل خرقة ، وكان جاسم يلاحق الجمع أينما توجه دون حرج ، ولمحته يدخل خلفنا ثم يتخذ له مجلسا قرب الباب بخنوع . سأل ثريا بصوت مرتجف ، بدا لي مغشوشا ،عما اذا كانت تفضل الانتقال بالعزاء الى دار المرحوم ام تفضل البقاء هنا ؟ فنظرت اليه شزراً ولم ترد عليه .

اخجلني تصرفها ، فأجبته بأن من المستحسن ان تبقى النساء مكانهن حتى اليوم السابع ، فهزت ام ثريا رأسها موافقة .

كان في الجو عنصر اضحاك لا يثير الضحك ؛ فهذا الانسان ، عميد آل قصابي المزعوم ، توفي بعد ان جاوز الثمانين من العمر واستوفى كل حقوقه واستولى على حقوق الآخرين احيانا ، وسرق ماستطاع سرقته وتزوج وانجب وغش وزنى وشرب الخمرة وكذب وظلم اخوانه وتظاهر بما ليس لديه... ثم عاد الى التراب الذي جاء منه ؛ لحسن الحظ أو لسوئه ...لاأدري اذ ماذا كنا سنصنع لو انتشر تراب جدثه في الفضاء الخارجي وضاع منا ومن الانسانية ؟ ماذا كنا سنصنع لو كان تراب ارسطو ودافنشي وابن رشد والمتنبي واينشتاين وجوته وستندال وغيرهم قد تناثر في الفراغات الكونية بين النجوم في درب التبانة أو الدروب الأخرى ؟

كانت الأرض ستخلو من الإرث الخفي للانسان الى اخيه الانسان ؛ فالعبقري ، او الشقي ، الذي يموت ، يندثر فعلا ولاينبت له فرع مباشر أو غير مباشر ؛ او ينبع له بديل او متقمص لروحه مثلاً! كنا نندثرحقا ؛ او كنا سنصير على حال ليست مثل هذه التي نحن فيها ؛ لعلنا كنا سنبقى وحوشاً مستأنسة غبية لاتؤذي احداً الا بمقدار ولايملكها هاجس حب السيطرة والتدمير الجماعي . وكل هذا حسن ياربي الطيب ، فلم نبكي اذن عميد أسرة آل قصابي وهو ، بعد زواله ، سيمكث بذرة كامنة تحت التراب ، قد تجد ارضا خصبة في احد الايام المشؤومة ، فتنمو وترفع رأسها ويظهر لنا عميد اسرة آخر يمارس افعال السيد العميد المدفون ؟

تهيأنا للانصراف قبيل منتصف الليل ، وحين خروجي حاذيت كاسب فتبادلت معه الكلام . مايزال مهموماً ، وما يزال لايود ان يطيل في الحديث معي . اكد لي ان اشغاله جيدة وانه بخير ، ولم يخطر لي ان اطالبه بقرض خشية ان اواجه بجواب قاس لاأتحمله .

توقفنا امام باب المشتمل فسمعت هسهسة ثياب ثم رأيت انوار على ضوء مصابيح الشارع ، وهي تلحق بنا . انفردت بها دقائق ثمينة حقا ، حين سعى كاسب لاحضار سيارته التي أوقفها بعيداً عن داره ورجاني انتظاره .

ـ أنت لم تسألي حتى عما جرى لي!

كانت صافية النظرات ووجهها الناصع الملفوف بالسواد ، يكاد يضيء في عتمة الشارع . لم تجبني .

ـ أكنت مبالغا في حبي لك تلك الليلة ياأنوار ؟

رأيتها تبتسم ابتسامة خفيفة ثم تتطلع الى حيث زوجها .همست .

ـ لعلنا نجلس يوما ونتحدث .

ـ معللتي بالوصل والموت دونه .

رجعت الى الحي سيراً على الاقدام ، مرة اخرى . لم اكن املك ماأضيعه

على اجرة التاكسي ؛ ولم يتنازل كاسب ويسألني كيف سأرجع ولا عرض علي ، طبعا ، ان يوصلني بسيارته التي ركنها بعناية أمام المشتمل . هذه المرة ، صممت ان تكون عودتي الميمونة مثل مسيرة سياحية لاكتشاف بغداد وضواحيها ؛ وساعدتني حالة الجو الحسنة وتناقص درجة الحرارة ، الا اني لم استطع ان اتحاشى التعب والانهاك الشديدين . ثم قدرت أني سأنام حالاً بعد كل هذه الوقائع المرة ؛ إلا أني بقيت ساعة وبعض الساعة مسهّداً تعذبني أسئلة جوفاء عن حياتي وعن الأسباب وعن البشر وتصرفاتهم وعن العدالة الكونية والحاجة اليها ، ولماذا .كانت الليلة صافية والنجوم تتلألأ باستمرار في انحاء السماء . جلست مستكينا في ركن من الباحة ، يلفني الظلام . كان العالم اليوم ، بشره واشياؤه ، يدير ظهره لي باشمئزاز ويبدي لي ، بأني زائد ومهمش ؛ وكنت احس بحاجة للرد على هذا العالم ، الا اني كنت خاوي الوفاض ، مفلسا ؛ تسحبني الى الخلف فكرة مضنية ملخصها ان العالم على حق في موقفه . وقبل ان اقوم بتثاقل اقصد فراشي ، استولى علي هاجس غريب بالانتحار بهدوء ودون مقدمات او شروح . آلمني ان يصل بي الأسى والاحباط حدا يبدو فيه الانتحار حلا ناجحا . ثم نمت ، بعد ذلك ، نوما هنيئا بالغ العمق .

بعد عشرة ايام من وفاة عميد آل قصابي ، بلغ الحاح ثريا عليَّ بالحضور لمقابلتها درجة لاتطاق ؛ فخلال يومين اتصلت بي مرتين بواسطة ابي فتحية ، ثم أرسلت لي ابنها سلوان ليأخذني اليها بسيارتهم ان امكن او لأتفق معه على موعد قريب . طلبت منه المجيء في صباح اليوم التالي ليأخذني لقبض راتبي التقاعدي ثم التوجه بعد ذلك لمقابلة والدته .

ذكرتني حالما جلست بفكرتها عن مفاوضة جاسم الرمضاني لاستخلاص الورقة التي بحوزته ، فتعوذت بالله من الشيطان ووعدتها خيراً ؛ الا انها اقترحت علي ان اراه بعد الغذاء ، هذا اليوم .

لم يستغرب جاسم مفاتحتي له بموضوع الورقة ، وردّ علي ببرود انه

يفضل ان يتحدث مع ثريا بهذا الشأن ، ولامانع لديه من حضوري اذا اردت . كان رزيناً ، جاداً ، ولم يبدل رأيه رغم محاولاتي .

وافقت ثريا على اقتراحه ، واجتمعنا ، نحن الثلاثة ، في غرفة الاستقبال في تلك الأمسية بالذات . بقي الاثنان صامتين ، فاضطررت انا لبدء المفاوضات وعرض ما تراه ثريا بخصوص الورقة . اجاب بأن هذا حقه ولن يتنازل عنه ولايدري لماذا نبحث معه هذا الامر الآن بعد ان وعدت السيدة ام سلوان اباها بعدم فعل ذلك . ثم استرسل حين رآها لاتحير جواباً :

ـ لو كان الحاج سلمان والدي لما خطر لي ابداً ، ابداً اقول لك ، ان اخون كلمتي ووعدي وألاحق في المحاكم من كان يتمنى ان يكون له ولداً .

ـ من فضلك ، احترم نفسك ومن معك ، والتزم بالموضوع الذي يشغلنا هذه الساعة . قل لي ، ياسيد جاسم ، هل يرضيك أن تأكل مالاً حراماً ؟

ـ مال والدك... حرام! ؟

ـ أعوذ بالله . كلا وألف كلا ، ولكنك تأخذه بالحرام ، بالتزوير .

ـ أهذا يعني ، ياأم سلوان ، بأننا ، أباك وأنا ، زورنا الورقة دون رضاكم وموافقتكم ؟ كوني منطقية ياسيدتي ، وتذكري وعدكم وكلمة الشرف التي اعطيتموها للوالد . لنحترم موتانا ، على الأقل ، ياجماعة .

ـ لا أطيق هذا النوع من الأحاديث ياتوفيق ؛ أرجوك دعه يسكت .

ـ لماذا أسكت ياأم سلوان ؟ أنت لاتصدقين بأني لا اهتم بهذا المال ، لأن فقداني للرجل كان كارثة بالنسبة لي لم تعادلها اية كارثة اخرى ؛ حتى وفاة زوجتي كميلة وطفلنا ، لم يكن وقعها علي بهذه الشدة .

كانت ثريا تنقل نظرها ، بتعجب لاحدود له ، بيني وبين جاسم وهي تدعك بعصبية منديلا بين يديها ؛ وكنت ، مثلها ، لاأصدق حرفا مما كان يتفوه به هذا الرجل .

ـ هل تظنين اني خدمت والدك كل تلك الخدمة خلال مرضه وبعده حتى وفاته ، طمعاً بماله ؟أي مجنون يفكر مثل هذه الأفكار ؟ أنا ، ياأم سلوان ،

انسان ضائع ، كنت انسانا ضائعا لاأدري لماذا ؛ لاأحس ان لدي اهلا او عائلة انتمي اليها ، حتى هداني الله اليكم ، فتزوجت المرحومة وعشت معها أسعد أيامي ، أقول أسعد أيامي ليس بسبب زواجي فحسب بل لأني شعرت بقوة اني وجدت عائلتي الحقيقية وأهلي ؛ وهكذا بقيت معكم بعد تلك الرزيئة التي انهدت علي ، لأني لو كنت غادرتكم لمت كمدا وحسرة وحزنا .

ـ الآن ، ياسيد جاسم ، من فضلك ، لاحاجة بي لتاريخك القديم ، فأنا لم أنسه ، ولاأدري ، في الحقيقة ، هل حصل في الدنيا شيء مثل الذي حصل لنا معك ؛ المهم ، دعنا نواجه الموضوع دون حواشي ولاتعليقات .

ـ ماذا تريدون مني ياأم سلوان ؟ اشرحي لي طلباتك .

ـ لانريد غير الحق ياسيد جاسم ، فهذا البيت الذي تسكن فيه منذ سنوات ، ليس بيتك ولا كان بيتك في يوم من الايام ، فأنت تتركه بحسن رضاك وبسرعة ، ثم يتبقى هذا المبلغ الذي كتبه لك الوالد ، نعطيك منه ، مساعدة لك ، الف دينار قل ألفين وتعيد الينا الورقة ، فلاحق لك فيها ، وهي قسم من ارثنا ولانريد غرباء معنا .

كان جالسا بهدوء ، يدخن سيكارته وينظر الى ثريا بدون اكتراث .

اثار اعجابي هدوءه هذا ، وكشف عن شخص آخر كان يتخفى وراء جاسم الرمضاني ، ذلك المداهن الخنوع .

ـ فهمت الآن ياأم سلوان نوع البشر الذين كنت أحبهم وأخدمهم باخلاص .

ـ عدنا لهذا الحديث السقيم ، سيد جاسم ، الم أترجاك ان تقطعه ؟

ـ كلا ، لن أعود الى سرد تاريخي ، ولكني فهمت الآن سريرتكم ؛ وانت ياسيدتي تتنازعين معي على مبلغ حقير من المال وتبدين لي الجفوة وتطردينني من الدار التي بذلت دمي في خدمة اصحابها ؛ وكل ذلك بسبب عشرين الف دينار وانت التي سترث مايزيد على نصف مليون دينار . سبحان الله!

ـ لاعلاقة لك بهذه الحسابات يارجل . مادخلك في كل هذا ؟ قل لي مادخلك ؟

كنت ساكتا لأني لم اعرف بم يجب ان اتكلم ولا اي جانب اتخذ ، الا اني وجدتهما قد بدأا يتجاوزان حدود اللياقة فاضطررت للتدخل .

ـ اسمعا ، اسمعا ، لاحاجة بكما لنزاع كلامي غير ذي جدوى ولافائدة منه . نحن هاهنا من أجل التفاهم ، وأريدكما ان تتفاهما بطريقة تليق بكما ، اليس كذلك ؟

ـ شكرا استاذ توفيق . نعم . طبعا ، واجبنا ان نتفاهم ، وأنا على استعداد لذلك .

سكت برهة قصيرة اطفأ فيها سيكارته ثم بدا عليه كأنه يتألم ويخفي ألمه بصعوبة .

ـ نعم ، حانت بالفعل ساعة الرحيل . ولن اسبب لكم ياسيدتي محنة اخرى ، فأنتم اكرمتموني فوق الحد ، وانا لست ناكرا للجميل ، لست ناكرا للجميل قط .

ـ انشاء الله ياسيد جاسم انشاء الله .

رفع اليها عينين صغيرتين تحيطهما الغضون وتغرورقان بالدموع ويملؤهما حزن عميق لايصدق . كان ذلك البطين ذو الرأس المدور الأصلع والملابس المتنافرة الألوان ، مثالاً غير مألوف للنبل والشهامة .

اخرج من جيبه ورقة مطوية قدمها الى ثريا بحركة خرقاء فلم تمسك بها جيداً فسقطت على الأرض . التقطها ، بحكم العادة ، وقدمها لها مرة اخرى :

ـ أتسبب لكم هذه الورقة التافهة كل هذا الانزعاج والاضطراب ياأم سلوان ؟ خذيها اذن ، فلا قيمة كبيرة لها عندي بعد أن افقد اهلي .

ثم التفت اليّ بنظرة :

ـ أليس الأمر هكذا ، ياأستاذ توفيق ، مع البشر الأسوياء ؟

حدثت غسان عن هذا الموقف الذي وقفه شخص إمعة ، لايدعي اية بطولات ولم يكن طموحا ولامستنيراً . جاءنا ، فجأة ، بداية ايلول ظهرا وهو شعلة من فرح وشوق ونار وتفاؤل . قلب البيت على اعقابه ضحكا وركضا ، واخبرنا انه في إجازة لهذه الليلة فقط وعليه ان يعود فجر غد الى المعسكر . ثم اختليا في غرفتها واغلقا الباب عليهما ؛ وبقيت مع امها في المطبخ ننتظر اوبة ابيها وأيدينا على قلوبنا . كانا زوجين ، اردنا ام لم نرد ، مندفعين نحو بعضهما بقوة الرغبة المحرقة والحب والخوف . لم ار تلك الفتاة فتحية بهذه الدرجة القصوى من الابتهاج والجنون .

تركتهما منفردين ساعة وبعض الساعة ثم طرقت الباب عليهما وناديتهما :

ـ أنتما ، هناك ؛ ليست الفضيحة ضرورية لنا ، فاستعينا بما تبقى لديكما من عقل واخرجا لنتغدى مع الوالد الذي سيهل علينا بعد قليل .

وكان الغذاء جميلاً ومثيراً ، فما ان تحلقنا حول المائدة جالسين حتى وجه غسان كلامه الي والدي فتحية مبديا لهما رغبته في طلب يد فتحية وفي ان يقبلا به زوجا لها ؛ وحينذاك ، وبعد ان يسمع كلمتهما سيأتي مع والده حسب الأصول ليتقدم لهما بصورة رسمية . بقيا ساكتين لحظات يتبادلان النظر فيما بينهما ويختلسانه الى فتحية ؛ ثم فاه والدها بصعوبة ببضع كلمات .

ـ خير ان شاء الله .

فهتف غسان وهو يخرج لفافة من جيبه :

ـ اذن ، اسمحا لي ان اقدم لها هدية بسيطة هي عنوان الخطوبة .

سلم اللفافة الى فتحية فتناولتها حائرة ، تتطلع الى امها ثم الى ابيها ، وعيناها الخضراوان متوسعتان لاتستقران على حال . شجعتها قاطعا الصمت والحرج :

ـ هيا ، افتحي وأرينا هدية الخطوبة .

كان الخاتم كبيرا مذهلا يبهر الالباب ، تعلوه جوهرة براقة ، تحيطها أحجار كريمة ملونة . وضعته في أحد أصابعها الرقيقة وعادت تنقل بصرها على وجوهنا بخجل . صفقت فصفقوا بعدي ، فقامت واحتضنت ابويها واحدا اثر الآخر ، ثم تقدمت بتردد فقبلت غسان في وجنته فقبلها في خدها .

كنا نستريح بعد الغذاء وشرب الشاي فحدثت غسان عما حصل لي مع ثريا وجاسم الرمضاني ، هذا المحتال الذي رمى بأوراقه كلها على المائدة قاصدا ان يكسب اللعبة بضربة واحدة ، لكنه لم ينجح واضطر لترك الدار تحت ستر الظلام دون ان يسترد ورقته الثمينة .

ـ هل تظنه محتالا ، استاذ توفيق ؟

ـ بدأت أشك في ذلك ؛ اذ ان تصرفه الاخير يعد خروجا عن المألوف ؛ ولقد اثر بي ان اراه يقوم بسرعة ويخرج دون انتظار لجوابها .

ـ هو اذن ليس محتالاً ؟

ـ لاأظنه .

ـ انه انسان مخلص يحب ان ينتمي ، كما قال ، الى اناس مخلصين مثله ، وان يقدم لهم خدماته .

ـ هذا صحيح .

ـ وهو لذلك انسان محترم ومتفوق ، وانا احب هذا النوع من البشر وابحث عن الالتقاء بهم ومحادثتهم .

ـ ليس لدي عنوانه مع الأسف ؛ لقد أخذ أقل مايمكن من حاجاته وغادر البيت في تلك الليلة بالذات .

ـ ياللرجل... كم هو تعيس!

ثم كان ان صارا ، فتحية وغسان ، يتبادلان العواطف علانية والوالدان يبتسمان ويغضان النظر ، وكان ذلك امرا مسليا الى حد كبير .

اخذها عصرا وخرجا في سيارته ؛ وقالت لنا بعد ان عادا مساء انهما تجولا في انحاء بغداد وانه اشترى لها هدايا عديدة من تلك المخازن

المنتشرة في الكرادة الشرقية . كانت سعيدة ، ياربي ، سعادة تجاوز الوصف ؛ تمنيت لو كنت منحتها ، بدوري ، قسما من هذه المشاعر المتفوقة الرائعة . جلبا معهما الكثير من الطعام والشراب وهدايا من الملابس للوالد والوالدة دوختهما حين اطلعا عليها .

وجلسنا ، سعداء كلنا ، على مائدة العشاء من ذلك اليوم العجيب ؛ كانوا ، فتحية ووالداها ، في دوامة من الأحداث المبهجة اللامعقولة ؛ على وشك ان يفقدوا توازنهم ، كل على طريقته الخاصة ؛ وكنت أريد ان انتهز هذه الفرصة لأنفرد بغسان بعض الوقت ، الا انه كان مثلهم على شكل مغاير ؛ لايشبع من الالتصاق بفتحية واخذها على جهة لتقبيلها ، او الاستغراق في تأملها وهي تسير او تجلس او تقف امامه ؛ ضاحكة حيناً ، متغنجة حينا آخر بثوبها الجديد المثير . الا ان الفرصة سنحت في وقت غاب فيه آل فتحية في المطبخ فقمت اليه وجررته جرا الى غرفتي . سألته أيفقه حقا مايقوم به ، وهل اخبر اباه ، على الأقل ، بعزمه الجديد هذا ؟

- لاأفقه شيئا كثيرا ياأستاذ توفيق ، غير سعادتي ، فاتركني منغمسا فيها بارك الله فيك .

- وأبوك ياغسان ، وأبوك ؟ كيف ومتى ستشرح له الأمور ؟ اني... اني شبه مورط ومسؤول عنك ياصغيري .

- أبي رجل شريف ، ان لم يفهم كل شيء فسيقبل كل شيء آخر الأمر ؛ وأنت ياصديقي لتكن مثله ، لأنك لو عرفت كل الأمور التي اعرفها عن نفسي لدهشت مثلي ولكنت سعيدا اكثر مني .

ثم خرج ينادي طيره الجميل بعد ان ربت على ذراعي مبتسما . شعرت ، فعلاً ، انه في عالم آخر لايصل اليه صوتي ولاصوت المنطق ، وكان من الأجدى ان اتركه لزمن سعادته هذا وان أكتفي بالبقاء على كثب منه .

بدأنا بشرب كؤوس البيرة دون اسراف ولاعجلة ، وكان ابو فتحية فخورا بخجل وهو يروي بعض الحكايات المضحكة عن موظفي الدائرة وخاصة

مناورات المدير العام بالوكالة الأستاذ سليمان فتح الله ، الرزام سابقا ، لنيل حظوة لدى احدى كاتبات الطابعة الجميلات ، وكيف ينتفخ وهو يسير متظاهرا بأنه يراقب سير العمل في قلم التحرير ؛ ويقف رافعا نظره الى السقف امام الفتاة الصغيرة الحلوة ويهمس من طرف انفه طالبا منها موعدا للقاء .

ومع كؤوس البيرة المتتالية والطعام اللذيذ والجو الخريفي بنسماته الباردة المنعشة ، وضحكات فتحية وهي تتلقى مداعبات غسان في غبش الباحة ، تمنيت ان اختلي بهذه الشابة الساحرة التي تتمايل شبقا وسكرا ؛ وكانت المشكلة الآنية التي ترفرف فوق رؤوسنا هي ان غسان لم يكن يحب ، كالعادة ، ان ينصرف ويذهب الى بيت ابيه ، لأن اهله لايعرفون اصلا بوجوده في بغداد ، وهو يريد ان يرجع الى المعسكر قبيل الفجر ، فلا بد له ، إذن ، من البقاء هنا حتى ذلك الوقت ؛ وكان هذا هو لب الموضوع ؛ وقد فهمناه جميعا واتفقنا ان نتظاهر بعدم الفهم ، مما أدى الى فرض الأمر الواقع .

كنا نأكل ونشرب ، ونشرب ونأكل ، وكان غسان مشغولا عن الحديث باحتضان فتحية القابعة جنبه على الدوام وبتقبيلها وبدس يديه تجوسان في انحاء جسدها الفتي ؛ ولما لم يجد الوالدان المنتشيان بالشراب والأكل ، بداً من الانسحاب وتحاشي الاطلاع على ماتعمل ابنتهما ، تظاهرا بالنعاس وسارا الى غرفتهما ؛ ولم تمض دقائق حتى قامت فتحية فجلست في أحضان غسان وغرقا في قبلة ساخنة .

لم أكن موجوداً بالنسبة لهما ، وكنت مسرورا بذلك سرورا خاصا ، تمازجه مرارة خفية لعلها مرارة الغيرة او الحسرة ؛ ومع الحرج البسيط الذي داخلني وأنا أراها تمتص شفتيه بنهم ، أردت ان اتكلم واذكرهما بحضوري ، الا اني احجمت . كانت تتلوى ، فيهتز شعرها الكث الأسود ويتقوس ظهرها فتبرز استدارات ردفيها وفخذيها ؛ وكنت اسند رأسي براحة يدي اليمنى وأتملى بسكون مما يجري تحت عيني المتعبتين . خطر لي ، اذا كانت الحياة تتكون من افعال انسانية مثل هذه وغيرها ، فلايجب ان نتوقع الدوام والخلود لذواتنا ؛

فأنا... أنا ، منذ دقائق او شهور او سنوات ، كنت أقبّل آديل هكذا واجلسها في احضاني ، ظانا بأني بلغت واياها سدرة المنتهى وتجاوزنا حدود يوم القيامة ولم يعد للزمان سلطان علينا ؛ وها أنذا في دكنة موحشة ، اجلس ساهما عن نفسي مفروضا علي ان اتحسر وان استعيد ايامي الذهبية دون جدوى .

وتوجب ، بعد ان تجاوزنا منتصف الليل ، ان اجد حلا لهذا الموقف الملتبس ، فأوقعت ، بهدوء ، صحنا صغيرا فانتبها وتباعدت الأفواه عن بعضها :

ـ صح النوم ياأطفال ، هيا قوما ، فقد تعبت من النظر والتفكير والحسرات ، هيا .

اعتذر غسان دون ان يدعها تترك حضنه ، فقمت :

ـ لاتعتمد علي لتذكيرك بالوقت او ايقاظك ، فأنا في أقصى حالات الانهاك والتراخي . تدبرا امركما اذن ، واذا اردت نصيحة فمن الواجب ان تغادر بعد... بعد ان ترتاح ، حوالي الثانية او قبل ذلك ، هل فهمت ؟

ـ اعتقد ان هذا هو الحل الصحيح ، اليس كذلك يافتحية ؟

قامت بتثاقل وابعدت خصلات الشعر عن وجهها ثم سحبت غسان ليقوم وجرته الى غرفتها .

ـ نعم ، نعم

لاحقتها بنظراتي ، يتمايل خصرها وتتراقص اردافها ، كأنها تتعمد اثارة الدنيا كلها بما تملك من تشكيلات جسدية ؛ وغمرني ، لحظة ، وأنا اراقب كتلتي اللحم المتباعدتين المهتزتين ، شعور بالذل والانسحاق ، بارد واخز للقلب . قصدت غرفتي وأغلقت الباب عليَّ وأضأت المصباح . فتشت في الراديو عن موسيقى او اغنية عاطفية فلم يحالفني الحظ . لم أقرأ كتابا منذ اشهر ، ولعل ذلك يساعدني ، فوضعي ، على كافة المستويات ، بحاجة الى بلادة في الحس لتحمله ، والى خمول في العقل والروح .

لم أجد غسان حين استيقظت حوالي العاشرة صباحا ، وكانت فتحية بوجه متألق ، تساعد امها في المطبخ . ابتسمت لي وحيتني تحية الصباح .

كانت علامات الرضا والاكتفاء تبدو بوضوح على ملامحها الرقيقة المنسجمة ، والفستان الوردي الجديد يزيد في اظهار هذه العلامات . تجلى لي شعرها المحنى اكثر حيوية من المعتاد ، فداعبتها بشد خصلاته فتظاهرت بالألم ثم جلست معي وأنا أتناول فطوري .

- سيخبر اباه في زيارته القادمة ، ونعقد المهر بأسرع وقت ممكن .

هل تعلم ، لقد وعدني ان يكمل بناء العمارة هذه ونجعلها بأربعة طوابق ، كي تكون سندا لنا في حياتنا المقبلة .

كانت سعيدة ، لايساورها القلق :

- هل تساعدنا ياتوفيق ؟ انه يحترمك ويحبك مثل ابيه ، ولكنه...لكنه مايزال صغيرا كم تظن عمره ؟

- انت قلقة لأنه اصغر منك ؟

- أهو أصغر مني ؟ .

- حسب علمي ، فإن عمره لايتجاوز الخامسة والعشرين .

بقيت صامتة ، تضيع نظراتها في الفراغ .

- هذه امور تافهة ياحمقاء ، فلا تجعليها منذ الآن تنغص حياتك معه .

متى سيأتي ؟

- من يدري . لاأحد يدري .

كنا في ايلول ١٩٨٠ ، في اسبوعه الثالث ، وكنت مفلساً ، لم أعط فتحية حقها من الايجار وتكاليف الطعام ، وكان الأمر يؤرقني ويزعجني ، لأنها كانت ملجئي الأخير . ثم تذكرت ان ثريا وعدتني وعدا غامضا بمكافأة فيما لو نجحت مفاوضاتنا مع جاسم الرمضاني . رحبت بي باخلاص واكدت لي انها مرتاحة لما آل اليه الوضع الآن ، خاصة مع وجود ابنتها نجية معها ؛ فلما فاتحتها بالموضوع ، تبدلت تقاطيع وجهها وتنهدت طويلاً .

- انت لم تعمل شيئا ذا اهمية ياتوفيق ، وتركته يترافع ويتفاخر امامي كأنه يتنازل لي عن املاكه الخاصة .

ـ خذي النتائج بالحساب يالم سلوان واتركي فارغ الكلام ، ماضرك من حديثه ؟

كنت ، بالطبع ، يائسا من هذه المرأة الثلجية العواطف ، وكنت اعلم انها انزعجت من ذلك المسكين لأنه فضح رقم ثروتهم امامي . رأيتها تقوم وهي مقطبة الجبين وتمضي خارجة ، فلبثت ، حائرا ، في مكاني . كنت ، في ايام سبقت كدت أنساها ،أتألم وتخدش مشاعري حين أعامل بهذه الطريقة ،ويبدو أني قد بالغت في نسيانها فزالت من كياني ؛ وها أنذا أقتعد كرسياً مريحاً ، منتظراً دون ملل وبغير كبير أمل أيضاً ، أن تعودزوجة أخي ومعها قليل من المال مكافأة لي على حقارة غير متقصدة اشتركت في القيام بها بحسن نية . رجعت ، كما أتذكر جيداً ، قبل أن يرن جرس الهاتف ؛ ذلك امر اكيد ، فلو كان الجرس قد دق ، بعد ان آبت وذهبت لترى من المنادي لما قبضت شيئا . ذلك امر اكيد لاشك فيه . سلمتني مظروفا صغيرا هزيلاً لايبعث على الثقة أو التفاؤل .

ـ هذه لمساعدتك ياتوفيق فقط ، فأنت لم تعمل شينا كثيرا لحسم القضية .

شكرتها وأنا أدس المظروف في جيبي ؛ وكان ذلك لحسن الحظ حقاً ، ومصادفة سعيدة لايجود بها الزمان عليَّ دائماً . فماذا تعني اسبقية استلام مظروف على رنين جرس هاتف ، في طرائق الطبيعة ، بكل جبروتها وطغيانها الكوني الذي لاحدود له ، لترتيب الصدف وتأسيس الحظوظ ؟

لاشيء ، ولابمقدار جناح ذبابة ؛ اما لي فكانت تلك الأسبقية ضربة فائقة الجودة من ضربات الحظ والنصيب . قمت لما رأيت في ملامح وجه ثريا انها تنتظر ان انصرف ، وسلمت كما يجب وأردت ان اجتاز عتبة الباب... حينما رن جرس الهاتف القريب من محل وقوفنا ، فرفعت ثريا السماعة بحركةآلية ؛ وكانت غريبة حقا السرعة التي تبدلت فيها تقاطيع وجهها ، من الجمود والملل الى صورة معبرة من صور الهلع والرعب .

صرخت تنادي ابنتها نجية ، فتوقفت الدماء في عروقي ، وأدركت حالاً كم كان حظي عظيما وكيف ان السيف لم يسبق العذل ولله الحمد . كان ملخص القضية ان القصف المدفعي الأيراني المستمر منذ أيام قد طال مدينة خانقين وأدى الي سقوط قنبلة على بيت القائمقام الأستاذ ممتاز اللامي زوج نجية وأحد ابناء العمومة ، وان المزبور ، لسبب ما ، كان متواجدا ، هذا الصباح ، في داره فقتل حالاً وقتلت معه في الحادث نفسه ، وبالصدفة ، سيدة شابة تدور حول سمعتها بعض الأقاويل .

كانت كارثة كبرى ، خفف منها قليلاً ان أجد ان المظروف النحيل كان يحتوي ، في الواقع ، على مائة دينار كاملة وأن سبب مظهره الخداع هو أن ورقات النقد من ذات الدنانير العشرة كانت جديدة كلها .

نبعت لآل عبد المولى مشاكل عديدة مع وقوع الكارثة ؛ فعدا فقدان من كان يعد رأس العائلة ، كان على العقلاء منهم ان يعملوا على دفن عناصر الفضيحة مع دفن ممتاز وصاحبته الشابة ، وأن يقوموا بواجب الظهور بمظهر من قدم للوطن شهيدا يتوجب ان يكون مجلس فاتحته على المستوى المطلوب ؛ وهكذا كان . أما المشكلة الثانية ، فكانت تخص اخي عبد الباري الذي تملكه الذعر من مجرد التفكير بالذهاب الى خانقين والاشتراك في مجلس الفاتحة وانتظار المعزين وانتظار قنبلة اخرى تنفلق فوق رأسه ، فسقط مريضاً في الحال واعتذرت زوجته ثريا للجميع . اما بالنسبة لي ، فلم يهمني الذهاب الى خانقين ام لا ، فلا شأن لي مع المتوفى ولا مع العائلة ، ولن يشعر أحد بغيابي ، ففضلت الراحة وتصفية اموري المالية .

استولى قلق عظيم على فتحية حالما اعلنت الحرب على ايران ، واخذت الهواجس والخيالات تشط بها من هنا الى هناك دون هوادة ؛ ولما لم اكن احمل معي لها كل الأجوبة الشافية عن أسئلتها المتلاحقة والمستمرة ، صارت تخرج من الدار تخالط من في الأسواق تحتنا من باعة ومشترين ، تكلم هذا وتسأل ذاك ، ولاغاية لها محددة غير تهدئة اعماق نفسها الدفينة الفوارة . وكنت

مستكينا بسعادة في غرفتي ، معتزلاً العالم عن رغبة شخصية في الانزواء ، شجعني عليها هذا الجو الذي اخذ يميل الى البرودة وانتشرت فيه رائحة الخريف الغامضة . ولذَّ لي ، عدة مرات ، ان اخرج اتمشى في ناحية من الحي قرب السبخة ، اتفحص وجوه الناس المنهمكين في نسيان الحياة ، ثم اعود اجلس في مقهى حمزة ، اقرأ احيانا كتابا مترجما عن الفلسفة الفرنسية ولاأفهم منه شيئا كثيراً ، ولكنه كان يثير فيَّ افكار اخرى لاعلاقة لها بالفلسفة . خطر لي ، مرة ، ان السعادة هي شأن شخصي وفردي محض ، بعكس العدالة . السعادة ، اذن ، لايمكن ان تكون مطلقة ، لأنها ممارسة انسانية اولا وآخراً ؛ اما العدالة فبسبب عدم واقعيتها صارت مطلقة واشبه بفكرة ميتافيزيقية لاتنال . وماتعمله القوانين وتنجح فيه ، لايمثل الا جزءا من الف مما يجب ان يكون ؛ ولقد بدهني مايجده الناس من اكتفاء حين يعاقب مجرم ، مع ان هذا العمل عبثي الى حد بعيد ، ولاعلاقة له بماعانته الضحية من ترويع وألم ؛ اننا ، هنا ، نضيف ضحية جديدة الى القائمة ؛ والعقاب لايمنع نفس المجرم من تكرار فعلته ، فكيف نريد من الآخرين ان يتعظوا!؟

أما السعادة فهي مشروع الانسان الفرد ، ويخيل الي ان هنالك مهمة منسية على الدوام ، هي الكشف عن شروط السعادة الشخصية ؛ وهي مهمة كل انسان منذ يبدأ يدرك معنى أنه سيموت ؛ شروط سعادته هو لاغيره . أنا الآن هنا ، صباحاً ، في مقهى حمزة والسماء خريفية الزرقة وكذلك الهواء ، اشرب من قدحي شايا لذيذ الطعم وأحس بدفء داخلي يغمرني . انها حالة معزولة عن الماضي وتمتد ببطء الى المستقبل . وهي وضع وجودي يتلمظ ذاته ، ان صح القول ، ويتراخى في ارتياحه ويتمتع في ظل ادراك نافذ بحدوده . وكنت ، في هذه الأوقات ، ابقى ساكنا مستقلاً بشكل خاص ، لاعلاقة لي بنفسي ولكني اعيش بعمق طاقاتها الشعورية .

فاجأتنا ، اواخر ايلول او اوائل تشرين الأول ، الغارة الجوية الأولى ؛ استيقظنا هلعين ، فجراً ، على صراخ صافرة الانذار فتجمعنا في المطبخ .

انا وفتحية وابواها ؛ كانت ملتصقة بي ؛ ترتجف بشدة وتطلب من امها ان تأتي قربها . روعتنا الانفجارات البعيدة وماتطلقه المدافع المضادة للطائرات ؛ واكتشفنا ، بعد انتهاء الغارة ، ان المكان الذي اختبأنا فيه هو الأسوأ بين الأمكنة من جهة تعرضه المباشر لأية قذيفة من السماء ، واتفقنا ان الجلوس على درجات السلم السفلى يمنحنا حماية معقولة الى حد ما .

ايدنا غسان في ذلك ، حين أقبل ، كالربيع ، في أحد أيام اواسط شهر تشرين الأول ، وهو يشتعل حماسة وحبا لفتاته . تركتهما معا وخرجت الى المقهى ، حيث جلست اتسمع الى الأقاويل والشائعات وأشرب الشاي وأحاول ان استرجع ، دون نجاح ، سعادة الاستقلال الوجودي التي عشتها قبل أيام في هذا المقهى المسحور بالذات . تتواجد امور ، في وقت خاص ، فتدفع بك عاليا نحو قمة لاتنال بسهولة ، وتبقيك مستقرا على مشاعر طاغية من سعادة ذات لون معين ، فتعتقد ان بإمكانك نوال تلك المكانة متى ماشئت . وتكون مخطئا ؛ فبدون تغيير فيّ يمكن ان يلاحظ ، وبالرغم من اعتكافي في نفس زاويتي من الجهة الغربية من مقهى حمزة ذاك ، على ذات التخت الخشبي الكالح ، ومع اتفاق الزمن معي... لم أفلح في الاقتراب من حالة تلك السعادة المفقودة التي أبحث عنها . هنالك انكسار في مكان ما من نفسي او من العالم ، تسربت منه هذه المادة السحرية الغامضة وتركت خلفه الأناء فارغاً .

كانا ، جالسين في سيارة المارسيدس ، متوردي الوجنات ، تستضيء عيونهما ببريق نشوة لم تخمد ، يشيران الي ان تعال .رأيتهما من مكاني فقمت اليهما . ارادا ان آتي معهما للقيام بجولة في بغداد ، احسست ألا مكان لي معهما ، فشكرتهما واخبرتهما بأني سأنتظر في غرفتي كي نتعشى سوياً . عادا ، بعد ساعات ، محملين ، مرة اخرى ، بالهدايا وبالمشروبات والمأكولات ، فتحلقنا حول مائدة العشاء في غرفتها ، حيث كان الفراش لايكتم باضطرابه الواضح ، ماجرى عليه قبل حين . كان غسان مطمئنا الى

غده ، مهموماً بفتحية وبترتيب زواجه منها . سألته عما سيفعل إذن . فبدا عليه الاضطراب .

ـ أريد ان اعيش معها ، لاأفارقها ابداً ، ماذا اعمل ؟

ضحكتُ... ضحكت . اخبرني انها رفضت ، ذلك المساء ، ان يصحبها الى دارهم للتعرف على ابيه ، واستحسنت ان يرافقها والداها وان اكون انا حاضرا ايضاً .

ـ لامشكلة في ذلك . سنحضر كلنا كما يجب

ـ ولكني مسافر غدا عند الفجر .

ارجع بأقرب فرصة ياغبي... خذ اجازة للزواج وارجع ، هذا هو الحل الذي يختاره العقلاء .

ـ وهل انا منهم ؟

غاب عنها قلقها العظيم ، وكانت سعيدة به وبهداياه لها ولأهلها ؛ ولم تهاجم الطائرات تلك الليلة وسافر فجرا مع تناثر الأضواء الأولى واعدا اياها بعودة سريعة .

بعد اسبوعين ، ظهرت عليها بعض علامات الوهن والقلق ؛ وكانت ، باستمرار ، تزداد هلعا من الغارات الجوية والانفجارات وصوت صافرة الانذار المشؤوم ، ولم ألحظ على ملامحها اي تبدل ؛ وكنت مسحوقاً برغبتي الجنسية التي اخنقها منذ حين ؛ وكان عليَّ ان اتوقع حماقات تهبط على رأسي دون سابق انذار .

تلك الليلة ، ايقظتني فتحية وصافرة الانذار في وقت واحد . جاءت الى غرفتي تهزني وتطلب مني النهوض فالغارة قد بدأت . قمت من نوم هنيء فوجدت الليل مازال جاثياً ، فتبعتها ، متعثراً ، وهي تجرني نحو السلم . نزلنا بمفردنا ، فقد آمن ابواها بالقضاء والقدر وصمما منذ وقت الا يزعجا نومهما وان يلبثا في فراشهما وليحدث مايحدث . كان الجو ، داخل السلم المغطى ، دافئا ؛ فانهددت على احدى الدرجات السفلى وركنت ظهري على الحائط .

احسست بها قربي ترتجف وتصطك اسنانها ؛ ولم اكن قد استيقظت بعد تماما . سألتها عما بها فلم تجب واستمر اصطكاك الأسنان . تثاءبتُ ، كما أتذكر ، مرة أو مرتين ثم اعتادت عيناي على الظلمة فرأيت خيالها قابعة على درجة أعلى من تلك التي اجلس عليها . كان الجو خريفياً يميل الى البرودة ، وكان السكون مطبقا علينا بشكل تام ، وكنت اعرف انه السكون القصير الذي يسبق العاصفة . امسكت بذراعها فأحسست بها ترتعش .

ـ لم هذا الخوف يافتحية ؟ ماذا جرى لك ؟ اطمئني ، فلاشيء سيحدث انشاء الله . لاشيء .

ثم أنزلت يدي اتلمس ساقها وفخذها ؛ كانت في ثوب خفيف قصير ، ولم تكترث لما كنت اعمل ، لكنني تراجعت بعد حين وابقيت ذراعي الى جانبي . كنت اشتهيها بقوة ، الا انها كانت في الجانب الآخر ، فتركت كل محاولة للاقتراب منها ، وكنت مخلصاً .

ومع استطالة الهدوء المشبوه ، اخذ الخوف يتسلل الى قلبي ، يخالطه توجس وانتظار لأحداث سيئة ومروعة ؛ فقد مرت علينا خلال هذه الأسابيع ، مع الغارات ، اوقات عصيبة يبعث تذكرها على التوتر العصبي . كنا صامتين ، فتحية وأنا ، نستمع الى صوت تنفسنا الثقيل ، حينما اقتربت فوقنا غمغمة هدير لايشبه ماعهدناه من قبل ، تضخمت بسرعة وتزايدت في عمقها الصوتي فاهتزت الجدران وسقف السلم ، ثم انفلقت ، في مكان ما ، صاعقة أو قنبلة أو صاروخ أو الدنيا كلها ، وصم آذاننا قصف مدمدم هادر كأنه زعيق عملاق مجنون غاضب . جمدت في مكاني مبهوتاً وسمعت صرخة فتحية كأنها آتية من عالم آخر ثم احسست بها تنهار على وتحيط رقبتي بذراعيها ، تكاد تخنقني ، وبجسدها يرتمي داخلا بين ساقي كأني بها تريد أن تندس في أعماقي .كانت تتشنج وتصرخ ، مهتزة متعرقة لاهثة .احطتها بذراعي وبذلت جهدي لتخليص رقبتي من شد اطرافها هاتفا بها ان تهدأ وان تستكين . كان رائحتها نفاذة ، مثقلة بأنوثتها ، يختلط

فيها العرق وبقايا عطر قديم ؛ وكنت مندس الأنف في رقبتها اسفل أذنها اليمنى ، ووجهي يغطيه شعرها الجزل . احطت ظهرها بذراعي وضممتها الي . ثوان ، وانقلب خفقان قلبي الخائف ، الى نبضات الشهوة السريعة . كان نشيجها يتصاعد بطيئا ، على وتيرة واحدة مثيرة ؛ وكنت أشعر بحرارة جسدها على بطني ، فرحت اتلمس جوانبها الملتصقة بي . وجدتها عارية تحت ثوبها الخفيف الذي ترتديه ، ولما جالت يداي اكثر عليها ، لقيتها لاتضع شيئا غير ذلك القماش . جمح بي اشتهاء لها عنيف ، واستولى علي دوار في رأسي محا صورة العالم من حولي . ضممتها إليَّ وقبلتها في رقبتها ، وكنت ، لدهشتي ، متوترا بشدة ؛ وبحركة سريعة وغريزية أزحت سروال بيجامتي فالتصق اسفل جسدينا على بعضهما . كانت ، في الواقع ، مستقرة في احضاني بوضع غريب ؛ فوجهها مستند الى رقبتي وبطنها على بطني وقد تعرى وسطها ، اما ساقاها فلم أعلم أين ذهبت بهما ؛ وكنت ، في سورة رغبة مجنونة ، اتشبث بها وابحث عن الدخول فيها بكل ثمن ، غير مدرك ولاسامع مايدور حولي . لم تبد ، اول الأمر ، مقاومة او تمنعا ، ولا انقطعت عن الأنين المثير ، وكنت أحس بموضع انوثتها المحرق يحتك بعضوي ؛ ثم إني تدبرت ، باضطراب وبيد مرتجفة ، وضعه كما يجب وسحبتها إليَّ . امسكت بردفيها اللحيمين وضممتها بكل قوة الشهوة الى جسدي ، فشهقت شهقة عالية ورفعت رأسها عني وهي تئن . كنت دخلتها وهي فوقي تطلق الآهات وتدفع صدري بيديها . لم يكن لدي مجال للاكتراث ، وكان لهاثي يتصاعد مع استمرار الاتصال ؛ ولم تلبث ، بعد لحظات ، ان أخذت تضربني بيديها في رأسي ووجهي وهي تولول وتهذي بكلام غيرمترابط :

ـ لا . لا . ياويلي ، ماأريد... ماأريد ياويلي ، انت يامجنون ، ياويلي...

وكنت ، منجرحاً في قلبي ومشاعري ، اهيم في ضباب جنسي مخدر واضغط عليها واقبلها بين نهديها ، غير مهتم بضرباتها وبكائها . ماكان ، هنالك في

الكون ، احد آخر غيرها ، وما كان لي ، تلك الهنيهات ، غير هذا الالتحام المدغدغ ورائحة عرقها الفاغمة وجدائل الشعر الكثيف تداعب وجهي . كان الوجود يتعالى ببطء نحو لذة ستنفجر ؛ وكنت ، في انتظار ذلك ، صامداً امام كل شيء . ثم...غابت روحي ، وفارقت جسدي المدمى قروحه القديمة ، وملكني انتعاش لامثيل له ، مع انقذاف قطرات ماء الحياة نحو الأبدية ، نحو اللاعودة .

خلال الأيام العشرة الأولى من تشرين الثاني ١٩٨٠ ، كنت مشغولا بالتجوال في أنحاء بغداد باحثاً ، بين الجد والهزل ، عن مقام لي يحميني من البرد ويوفر لي مكانا للنوم . رفضت ثريا بجزم ان تسمح لي بالسكن في غرفة من غرف دار ابيها . وزعمت انهم يعدونها للإيجار . لم يتدخل اخي ، واكتفى بالنظر الي باشفاق . اخبرتهم ، كذبا ، بأن مقري الحالي لم يعد يليق بي بعد ان توسعت السوق وكثر المراجعون والمشترون وزاد الضجيج عما هو معقول ومقبول ؛ وكنت أرى في نظراتهم ،امارات عدم تصديق واضحة . وقفت فتحية ، بعد الحادثة بيومين ، وهي مصفرة الوجه كابية الملامح ، تشد شعرها وتخفيه بمنديل كبير ، فأخذت تكلمني صباحا بعد أن غادر ابواها الشقة وتركانا بمفردنا . كانت قد نقلت صندوقها العتيد قبل يوم ، وكومت الكتب والأوراق التي كانت فوقه ، على الأرض ، منتهزة فرصة خروجي الى المقهى . لم اكترث لذلك وسررت بعثوري على دفتر مذكراتي الذي يبدو أنه كان مرمياً خلف الصندوق لكنّ هاجساً بعدم التفاؤل مس قلبي مع ذلك ؛ وهاهي أمامي الآن ، تقف كالنمرة الهائجة والشمس متوهجة وراءها في الباحة .

ـ جد لك مكانا آخر ياسيد توفيق واخرج من هنا . لم اعد اطيق رؤيتك ، ولولا بقية من احترام لاأدري سببه لقلبت الدنيا على رأسك وفرّغت نفسي من الهم الثقيل الذي انزلته عليّ .

ولأني بقيت ساكتاً ، لاأدري بأية لغة يحسن بي ان أجيب ، استمرت

ـ انت انسان حقير ، لاأخلاق لديك ، ولاتملك ذرة من الطيبة وحسن التعامل مع من آواك وأحسن اليك . انت حقير وخائن وقذر ، وأنا لاأريد ان أرى وجهك هنا أبداً . احزم اشياءك بالحسنى وارحل قبل ان يعود ؛ لأنك ان بقيت فسأجعله يقتلك ، يقتلك... أتسمعني ؟

ولم تنتظر جواباً ؛ وبدا عليها ، قبل ان تستدير وتمضي ، كأنها تهم بالبصق علي ؛ بعد ذاك ، بدأت رحلة البحث عن مأوى .

لم يأت غسان ذلك الأسبوع لحسن الحظ ، وكنت في حيرة حقيقية . فكرت ان اذهب للسكنى في خانقين ، الا ان حمزة ، صاحب المقهى ، حذرني من ان الوضع هناك خطير وقد يتفاقم في المستقبل ؛ ورفضتني ثريا كما اسلفت ، ولم تفتح لي أنوار ، مرة اخرى ، الباب ؛ واعتذرت بأن كاسب غير موجود ، ولاشيء بيننا يمكن ان نتناقش فيه ، وكانت على حق .

هدَّ في حيلي حاجتي الى الطعام والى النقود . لم يعودوا يحسبون حسابي في الشقة ، واضطررت الى تدبير اموري بشكل أوبآخر كي لاأموت جوعاً ، أو اسقط مريضاً ؛ وكان السير طوال النهار ، تحت الغارات الجوية المتكاثرة ، والبحث عن زاوية محترمة بسعر معقول ، امورا انهكتني حتى الرمق الأخير . كنت اعود مساء ناضب القوى تماما ، جائعا على الاغلب ، فأرتمي على الفراش غير قادر على الحركة ؛ وصرنا ، بغير اتفاق مسبق ، نتلبث كل في غرفته اثناء الغارات الجوية الليلية ؛ وكنت اعلم كم كانت تقاسي من بقائها وحيدة في غرفتها ، ولكن... ما العمل ؟

بلغ بي الجوع مرة اني هرعت الى المطبخ والغارة على اشدها واصوات الانفجارات وازيز الطائرات يصمّ الأسماع ، فأخذت اقلب في كل مكان علني اعثر على شيء يؤكل ؛ ولم أجد ، كالعادة ، غير كسرة خبز عطنة وقطعة طماطمة تالفة .

قصدت يوما ذلك الصديق عبد القادر ، صديق الطفولة والشباب ، لعله يجد لي عملا اجني منه بضعة دنانير ، فلم يستقبلني . انتظرته حتى نهاية

الدوام ، فلما خرج اعترضت طريقه فحياني بعفوية غريبة واخذ يكلمني كأني سكير ، فلما سألته عن سبب عدم استقباله لي لم يجبني .

ـ كأنك مدمن ؛ هل تشرب كثيرا ياتوفيق ؟

ـ كلا ، عليك اللعنة ياعبد القادر . من أين لي ان اصرف على الشراب! جئتك لتجد لي عملا يساعدني على المعيشة ، فاذا بك تكلمني هكذا ؛ ماذا جرى للدنيا ؟

ربت على كتفي ومضى سائرا ،فتبعته ؛أخرج ،قبل أن يفتح له السائق باب السيارة ،عشرة دنانير دسها في يدي .

ـ تعال في وقت آخر . انا مشغول الآن ، اعذرني ياتوفيق ، اعذرني .

لم أستطع الا أن أقبل دنانيره العشرة ، فقد كانت ، بالنسبة لي مبلغا لايستهان به . تغديت في احد المطاعم وعدت الى الحي ، اقبع في غرفتي . قررت ان ارتاح يوما او يومين ؛ ولن يهمني ماستفعله خلال هذه المدة . لفت نظري دفتر المذكرات ، موضوعا فوق كومة من الكتب ، فتناولته . قلبته بمحبة ؛ ولما أردت ان افتحه على الصفحة الأولى انفرجت الصفحات من الوسط ووجدت ، لاستغرابي ، بين طياتها خصلات شعر ذهبي ، ملتفة بحلقات ناعمة ، ومسترخية على الورق .

يالله! كل هذا الوقت وقطعة من آديل تستقر في هذا المكان المهمل!

كانت الخصلات لينة الملمس ، تكاد تتهاوى لشدة رقتها . وخزني قلبي وخزة ثم أخرى . أحياناً ، أو ربما دائما ؛ يصير التساؤل مشروعاً عما اذا جرى لنا حقاً... ماجرى ؟ هكذا امري مع آديل ، على الدوام ؛ حتى حين كانت حرارة جسمها تمنحني دفء السلام وأنا راقد جوارها . أما الآن ، امام هذه الاشارات الذهبية منها ، فالبكاء هو افضل الحلول . لبثت ساهماً فترة غير قصيرة ، لاأفكر بشيء معين ولايخطر في بالي اي امر خاص . كنت غارقاً في حالة جمود حسب ؛ ثم اني اخترت ان اترك بقايا آديل في مكانها واخذت اقرأ مذكراتي قضاء للوقت ، فأنستني هذه القراءة نفسي . صدمتني في تلك

الصفحات لغتي وافكاري وأمزجتي ، ولم تدهشني تقلبات الزمان .كانت مجرد خيالات لاعلاقة لي بها الآن . انها امور ميتة ، مثل الحياة ، تتقدم وتترك الاندثارخلفها .بعد أن قرأت نصف صفحات الدفتر ، شعرت بالملل ينتابني ، ولم يحثني على الاستمرار ، إلا تلك المقاطع الجنسية المضيئة ، المتناثرة هنا وهناك . بدهني أن تحمل هاته الفقرات أقوى الدلالات إلي ، وأن تستطيع إحداث أصداء ذات معنى في نفسي ؛ ثم أثار فضولي عدم فهمي لمقاربتي هذه التجارب وتثبيتي لها على الورق . كانت ، لاشك ، تاريخا شخصيا لايهم احدا ؛ الا انها ، رغم ذلك ، كانت تملك من التفرد ومن محاولة التخلص من القيود ، مايمنحها بعداً استثنائيا يخص البشرية منذ الخليقة .

تبادر الى ذهني ، بعدئذ ، أن الكتابة بهذا الشكل قد تكون مطبا يدفع بها الى حفرة الممنوعات ؛ فهذه الكتابة تبقى مستقلة عني ، معروضة بالكامل لمن يلاحقها وتقع تحت يديه . ولكن ، ماهو العنصر الذي جعلها ويجعلها ، لي وللآخرين ، جذابة هكذا ، لذيذة ، مثيرة ، لاتني تحفز الفضول ؟ أهو ارتباطها بتصوير عملية لها هذه الصفات ؟ أم هو التحامها بعنصر التحريم الذي يغلف العملية ؟

ولكنها ، في كل الأحوال ، إشارات بريئة على الورق ، نمنحها نحن ، نحن القراء ، هذه المعاني والصور والتحريم ؛ فاللغة لاعلاقة لها مباشرة بأشياء العالم ولا بأعمال الانسان . اردت ان اضحك ، فهذه قضايا لا أفهمها جيداً ولكنها تخطر على بالي وتقلقني .

كنت أضم الدفتر الى صدري بحركة طفولية غير مفهومة ، وكان عليَّ ، تذكرت ، ان ارحل من هنا غدا او بعد غد ؛ ولم يبد لي هذا أمراً شاقا او ذا اهمية ؛ فلقد داخلني ، في جلستي على السرير مع دفتري ، شعور بقوة القلب والنفس ، رغم البؤس والجوع والحرمان والغارات الجوية . هذه الأخيرة ، فأجأتنا قبل ان انام ، حوالي الثانية صباحا . توفزت اعصابي وقمت فأطفأت

الضوء وفتحت الباب . كانوا قابعين ، مثلي ، في جحورهم دون نأمة . تمنيت وأنا أتطلع الى بابها المغلق فيتبدى لي بابهام ، ان يملكها خوف عظيم لايقاوم ، فتخرج دون ارادة منها ياربي ، وتركض نحوي فترتمي على صدري وتمنحني نشيجها المثير وحرارة الأنثى الرائعة! لكن الباب بقي مغلقاً بأصرار وكنت اراه ولا اراه ، وألعن نفسي .

اقبلت الطائرات وتعالى الأزيز والدوي والانفجارات وصراخ بعض الناس في جهات قريبة منا ؛ وكانت الأرض تهتز احيانا بفعل قنابل تتفجر او لاسباب اخرى غامضة . عدت اجلس على سريري وقد أخذني البرد ، فقمت أضع اللحاف على ظهري وأتطلع من النافذة .

أدركت ، بعد أيام ، ألا فائدة من التسويف ؛ فهذه الفتاة ، التي اعطتني نفسها عدة مرات ، شعرت بإهانة بالغة وبجرح لايبرأ لانتهازي لحالة فزعها ومجامعتها دون ان تريد . ولأني لم أردّ عليها أو أذكرها بما عملنا معاً رضيت كما يبدو أن تهادنني عدة اسابيع وأن تحفظ لي ماء وجهي بشكل من الأشكال ؛ الا انها تخشى ان يقبل غسان يوما ويراني ، وقد يفسد عليها خطتها لطردي ؛ فعادت ، بعد مضي ايام ، توجه لي الانذار تلو الآخر بوجه متهجم شرير . وفي الحقيقة ، كنت اخشى انا الآخر ان اواجه غسان وأن أراهما معاً ؛ فعزمت ، خلال الأسبوع الثالث من تشرين الثاني وبعد ان قبضت راتبي التقاعدي وصار بامكاني ان ادفع مقدما اجرة شهر او شهرين ؛ ان ابحث جديا عن غرفة مهما تكن حالتها وايجارها ؛ وقادتني صدفة لاأدري أهي حسنة أم هي سيئة ، الى شارع في محلة المربعة أو رأس القرية ، ضيق قذر تملؤه محلات تصليح السيارات ، فصادفت رقعة عن (غرف للايجار) مكتوبة بخط يد مرتعش .

كومت اغراضي في ركن ووضعت سريري الصغير بعيدا عن النافذة والباب تجنبا لتيارات الهواء البارد ، ثم جلست عليه .

كان الصباح مشمساً جميلاً ، والسماء صافية زرقاء ، وكنت حزيناً وأنا

أجلس قرب سائق سيارة الحمل الصغيرة التي استأجرتها لنقل حوائجي . لم أودع احدا ولم يلحظ احد مساري وانا انطلق بعيدا عن الأسواق . كان ذلك افضل ما استطيع ان اعمله لها .

تلك الليلة ، في مقامي الجديد ، لم أنم ؛ قضيت وقتاً طويلاً اتجول في شارع الرشيد قرب السينمات والمقاهي والمخازن ، كأني ريفي غبي يزور بغداد أول مرة ؛ ولما انطفأت كل الأضواء وخلت الشوارع من المارة ، والمقاهي من الجالسين ، قصدت غرفتي الموحشة واغلقت بابي . كنت اسكن في بداية ممر في الدور الأول ، ونافذتي تطل على زقاق خال . شعرت ، مضطجعاً على السرير ، بانقباض في صدري ؛ وقررت ان استبدل هذه الغرفة بأسرع وقت . لم أنم حتى اذن لصلاة الفجر في جامع السيد سلطان علي ؛ حينذاك غفوت ، او فقدت الوعي ربما ، من شدة الانهاك والتعب . كنت شقيا منبوذا ، يزيد في شقائي ان اتذكر ماعملت من سفاهات بليدة ؛ تلك البعيدة في الزمن والأخرى القريبة . وخلال ايام ، عرفت من المشاكل مالا يحصى حقا ؛ كلها تافه ؛ تبدأ معي حين أفتح عيني من نوم قلق متقطع . لاشيء اكثر ازعاجا من ان يوقظك البرد في منتصف الليل ، أو فراغ المعدة ، او الاثنان معا ؛ ولاشيء اكثر مرارة ، بعد ذلك من محاولتك اقناع نفسك بأن الأمر لايستحق الاكتراث او الانزعاج ، وان من المستحسن ان ندع الزمن ينسينا اياهما ، فليس هنالك غطاء اضافي ولاكسرة خبز يابسة تسكت عواء المعدة . كنت ابقى ألوك افكارا ماضية لامعنى محدداً لها اغلب الاحيان ، حتى تأخذني غيبوبة النوم مرة اخرى . ومع الصباح ، تعود لي ذاتي وتنقلب المشاكل على وجهها الآخر... الاغتسال والحلاقة ، ان امكن ، ثم الفطور والشاي ، وكلها اسماء تختفي وراءها ازمات لايواجهها كل انسان ؛ الا الذين تخلت عنهم الدنيا وتركتهم يعيشون آخرتهم هنا .

رحت ، في الأيام الأولى ، أؤجل الذهاب الى بيت الراحة وأؤجل الحلاقة ، واخرج حالاً بعد استيقاظي ، ابحث عما أسد به جوعي .

استدللت على مخبزة غير بعيدة عن المقهى الصغير المنزوي في الزقاق بمواجهة نافذتي ، فصرت اشتري كعكا حارا محلى اذهب به الى المقهى فآكله بشهية مع قدحين من الشاي المخدر باتقان . بعد الفطور اعود الى غرفتي احاول ان اغتسل واريح نفسي واحلق ان تسنى لي ذلك .

كنت أضع عليَّ معطفي القديم منذ عدة ايام ، لا أنزعه لا ليلاً ولا نهاراً ، ومع هذا كان البرد يخزني باستمرار ؛ وكانت خشيتي من المرض تكاد تمرضني ، فلا قيام لي لو سقطت مريضاً . وكان الغداء اسهل من الفطور على التدبير ، فهناك محل لبيع « الفشافيش » وأنواع اللحوم المشوية وقطع من الكباب المشوي ؛ وكنت انتقي ، بحذر شديد ، بعضا من هذه الأنواع المختلفة ، آخذها معي الى غرفتي لآكل باطمئنان . اما العشاء فهو ، اغلب الأحيان ، بيض مسلوق مع قطع من الطماطة والطرشي ، كنت استسهل شراءه من بائع يتجول بعربته في تلك الأنحاء ؛ وكنت ، مع قلة الطعام ، اهيم على وجهي منذ المساء حتى ساعة متأخرة من الليل ؛ وقبل خروجي اخطف كتابا من الكومة العالية في جانب من الغرفة واضعه تحت ابطي ، ثم اسير ببطء حتى اصل الحيدرخانة فأقصد مقهى حسن عجمي واجلس ثم افتح كتابي ؛ وغالبا ماكنت أبقيه بين يدي وارحل بعيدا بأفكاري .

كنت أريد ، بلا وعي صافٍ ، ان اعتقد بأني لاازال غيرمنقطع الصلة بفتحية وبالأسواق ، واني ، حالما احس بالحاجة لرؤيتهم ، اقصدهم دون تعقيدات او مشاكل ؛ وكنت اتذوق مرارة هذه الاحلام اليقظوية حين يداخلني بعد ذلك مايشبه الهلع من فكرة مواجهة فتحية وسؤالها عما آلت حالها مع غسان وكيف رأى غيابي المفاجىء هذا .

مررت ، صباح احد الأيام ، على اخي عبد الباري في المعمل ، فلم أجده .

قال لي مستخدم أراه لأول مرة ، انه لم يأت منذ يومين لوعكة اصابته . خابرتهم وتكلمت مع أحد أبنائه . كان متعباً فقط وليس مريضاً فأبقته

زوجته في البيت . تلك رفاهية الثراء ، ولقد شعرت أن المجتمع المنافق على حق في هذا الموقف ؛ فما دام المال هو القوة العظمى ، داخل الذات وخارجها ، فلم نتسافه إذن ونلقي المواعظ الأخلاقية عن الشرف والحلال والحرام ؟ قلت هذا لجاسم الرمضاني ، حين وقف أمامي ذات مساء وأنا جالس في مقهى حسن عجمي ، في زاوية ملاصقة للزجاج المطل على الشارع . سلم عليَّ مبتسماً ابتسامة رضية عريضة ثم قعد جواري ونادى يطلب الشاي . أراحني وأدهشني أن أراه بحال حسنة ، ينبعث منه الاطمئنان بوضوح . لم تكن ملابسه أحسن كثيراً من ملابسي ، غير أن هيئته كانت بعيدة جداً عن هيئتي القلقة المشتتة . سألني باهتمام لم لا أحلق لحيتي وهل أنا مريض أم أنا في وضع سيء أو أن أعصابي تميل إلى الانفلات ؟ ضحكت ضحكة باهتة ، وأخذت أسئلته غلى محمل الهزل :

ـ كلا ، لست مريضاً ولا ضعيف الأعصاب ؛ ولكني مشرد تعيس وفقير

لم تبد في عينيه أية علامة من علامات التأثر ، كأن هذه هي أمور البشر عامة ولا داعي للاستغراب . سألته :

ـ ألاتزال في الخدمة ؟

ـ نعم ، لا أزال في أمانة العاصمة ؛ أكدّ ثماني ساعات مثل البغل ، كل يوم ؛ ورجعت أسكن في دار شقيقتي وعائلتها ، في غرفة منعزلة . هل تركت أنت محل إقامتك في حي العامل ؟

ـ كيف عرفت ؟

ـ وهل يحزنك ذلك ؟

ـ الى حد ما . نعم ، في الحقيقة ، يحزنني ذلك .كنت أجد المأوى والطعام والرفقة الجميلة .

ـ الرفقة الجميلة ؟طبعاً ، فأنت إنسان محظوظ دائماً .

ـ وأنت ياسيد جاسم ، مازلت غير قادر على نسيان ما عملته أمامي مع ابنه آل قصابي سلمان... أتذكر ؟

زم شفتيه وشرب ماتبقى في قدحه من شاي ثم أعاد وضعه بعناية على المائدة :

ـ هذه حكاية طويلة ياأخ توفيق ، طويلة جداً ولايصدقها احد . هل تدخن ؟

هززت رأسي نفياً . اخذ يتطلع في انحاء المقهى ثم نادى الخادم وناوله ورقة نقدية طالبا منه ان يشتري له علبة سجائر وكبريت :

ـ أستاذ توفيق ، اعتقد اني انسان طبيعي اكثر مما يدل عليه مظهري ؛ لست مثقفا تماما ، مثلك ؛ ولكني ادرك بعض الأمور المهمة واحترمها ؛ ولقد تهيأت لي ظروف حسنة... فتزوجت وسعدت بزواجي وانجبت ولكن... ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى حكمت عليَّ بأن افقد كل أسباب سعادتي ، الا اني بقيت متشبثاً بما كنت ارى انه اهم شيء في الدنيا...الناس وكيف تعيش معهم محباً ومحبوباً .

فتح علبة السيكائر وقدمها لي فشكرته فتناول واحدة اشعلها .

ـ لعلك لم تصدق مارأيته يقع أمام بصرك ؛ وبمستطاعي الآن ، متحرراً من كل ارتباط ، ان اقول لك بأني كنت قادراً في وقت ليس ببعيد ان اتملك اضعاف اضعاف ماأرادوا ان يعطوني ، دون ان يتمكن احد من منعي او استرداد ماآخذه لنفسي ؛ ولكني لم أرد مثل هذه الحياة ، مثل هذا النوع من الحياة . رغبت ان انتمي اليهم بالحق ، بالصدق ؛ ان املك عائلة تحبني وتودني لنفسي ولما استطيع القيام به نحوها ؛ ولذلك ، حينما لم يتمكن الوالد سلمان القصابي رحمة الله عليه ان يضمني الى العائلة ، فقدت كل رغبة حقيقية في البقاء وكنت اعلم ان تلك الورقة البائسة لن تفيدني وانهم لن يحترموا تعهدهم لوالدهم ، ولكني اردت ان... ان اتعامل كي ابقى معهم واتنازل عن المال ، فلم ترض ، لم ترض ؛ وتبين لي انهم يكرهونني ، فكرهت مالهم وزاد كرهي للمال الذي أعرف انه لن يسعدني يوما .

نفث من منخريه خيطي دخان أبيضين :

ـ هل تشرب شاياً آخر ؟ أين تعيش اذن ؟

اخبرته . كنت اتفحص هذا الرجل البطين ، الهادىء ، القبيح الملامح . واتساءل في نفسي عن حقيقته وعن مصداقية كلامه . رأيته ينظر الى كتابي فكشفت له عن عنوانه... « المسخ » لكافكا... لبث صامتاً ، لاهياً عني ، ينقّل نظره من هنا الى هناك :

ـ هل تلعب الدومينو ؟ اعذر لي هذا السؤال ، استاذ توفيق ؛ فأنا وجماعتي الذين انتظرهم ، من هواة هذه اللعبة . سمعت انك تلعب الورق ، ولكننا من هواة الدومينو . إنها لعبة مسلية لامعنى لها ولكنها تجمعنا فنتحدث ونستهزىء بكل شيء ونضحك ؛ أليس هذا وقتا ثمينا من المتعة ، لاتشتريه كل نقود الدنيا أحيانا ؟

عرفت أنه ، بحذق ، يجيب على سؤالي المخفي في ذهني ، عن دلالة عمله الذي شهدته .

تركت مقهى حسن عجمي وجاسم الرمضاني وجماعته اللاهين بلعبتهم ، ساعة ان رأيت البرد سيؤذيني في مسيرة عودتي ، إن أنا تأخرت اكثر . سرتني رؤية جاسم هذا وأقلقتني ؛ لم أرد ان اشغل فكري به ، الا ان حديثه بقي يلاحقني ويدور في أرجاء نفسي وعقلي .

كيف يتسنى لنا ان ندرك بعض القضايا الأساسية في الحياة ، فنتمسك بها عن إيمان حتى اللحظة الأخيرة ؟ أهو أمر يختص به بعض الناس ؟ وكيف تأتى لهذا المسخ ، اهو ممسوخ حقا ؟ ، ان يكون نقيا بهذه الدرجة ؟ وان يقذف بثروة ضخمة في الهواء ، تحديا للممسوخين الآخرين... للممسوخين الحقيقيين ؟

لم أنم تلك الليلة ، كالعادة ؛ واسعدني ان تطلق صفارات الأنذار قبيل الفجر وان اقوم اقف بباب غرفتي رافعا نظري الى السماء اشاهد دخان القنابل المنفجرة . كنت ارتجف قليلا وألف المعطف حول جسمي ، شاعراً بأن البرد لم يكن هو السبب الوحيد لارتجافي . تذكرت ، في وقفتي تلك

مستندا بظهري على حائط الممر اتطلع الى صفحة السماء الواهنة البياض ، ليلة فريدة مع آديل قضيناها معاً في ذلك البيت الغامض ، منتهزين فرصة سفر زوجها خارج العراق . رأت ضوء القمر فجأة فأذهلها فيه امر ما ، فأسرعت عارية الا من لباس وردي لايخفي شيئا من وسطها . خرجت الى الحديقة المحاذية الصغيرة ، المفروشة بالعشب الاخضر الفضي . كانت مأخوذة بشيء مسحور لم اتبين كنهه . وقفت مسربلة بضوء القمر ورفعت وجهها اليه فانثال شعرها بليونة على كتفيها وظهرها . لبثت ، هنيهات ، جامدة كأنها تحدث النجم اللامع ؛ وأنا ، ممسوس بجمالها ، اراقبها واتملى من ذلك الجسد الأبيض المتعبد . ثم استدارت اليَّ واشارت بذراعها ان تعال . كانت مثل تمثال بالغ الروعة ، واقفة بسكون وورع فاقتربت منها واحتضنتها . ضمتني بحنان الى صدرها وهمست : انظر... انظر .

احسست ، مثلما احس الآن ، بالهلع يهز قلبي... يالجمال الحياة التي تمر!واتذكر اني شددتها الي ودفنت وجهي بين نهديها الناعمين وقلبي يرتعش ، كاتما عنها رغبتي في البكاء .

عدت أدخل الى غرفتي والغارة لم تنته . ارتميت على الفراش .

انهكتني لحظات الذكرى ، وشعرت بأن الدموع التي اخفيتها عن تلك العزيزة آديل لئلا افسد عليها نشوتها الروحية آنذاك ، قد تجمعت في عيني مرة اخرى بعد كل هذه السنين .

نمت نوما عميقا بدون احلام حتى ساعة متأخرة من النهار ؛ وحين استيقظت كنت معافى الجسم بشكل من الأشكال فقررت ذلك اليوم ان ابدل من طراز حياتي المميت هذا . دبرت فطورا دسما مع الشاي ثم قصدت حلاقا فحلق لي لحيتي وشعري ، فأعادت لي هذه العملية حيوية ضائعة منذ اسابيع . ورغم دهشتي من الوجه النحيل الأصفر الذي تبدى لي بين الملاءة البيضاء امام المرآة ، فقد أراحني ان اجد وجهي لايزال يحمل سمات وسامة

قديمة ، وأن شعيرات الشيب المتكاثرة على جهتي رأسي منحتني مهابة لاشك فيها . ثم حملت نفسي بعد ذلك على الذهاب الى حمام عمومي للرجال في جهة الكرادة الشرقية ، حيث قضيت ساعات من الغياب الرمزي عما يحيط بي . اعتكفت في حجرة صغيرة وأغرقت جسدي ، وروحي معه ، في بخار جميل أبيض سحري .

كانت مويجات هذا الضباب تتصاعد من الماء الحار الذي كنت أسكبه ، وتلتف حولي كالأفعوان وتحيطني برقة وعطف احسهما عن يقين . كنت اغتسل وانفض عني مشاكلي وذكرياتي ؛ وكنت أظن أني سأبدأ حياة اخرى .

كانت اسواق الافراح ، هذا الصباح المشمس ، تبدو لي بعد غياب شهر عنها ، اقل ضوضاء من المعتاد والناس اكثر هدوءاً . وجدت ام فتحية في المطبخ ؛ تعمل بمفردها في غسل المخضرات استعدادا لطبخها . بهتت اذ رأتني واقبلت نحوي كأنها تروم ان تعانقني . اثّرت بي حركتها تلك وهجس في داخلي هاجس بأن الأمور لاتسير على مايرام . اتى غسان قبل أيام وصعق حين لم يجدني . رمى مايحمله من هدايا وأخذ فتحية الى جانب يكلمها ووجهه احمر مثل الشوندر . سمعته يسألها عن الأسباب وعن محل سكناي وأين يمكن أن يجدني . لم تحر جواباً ؛ وبقي الجو معتكراً ، زاد في اظلامه ان يخبرها بأن فوجه تلقى امراً بالتحرك الى جهة مجهولة ، ربما هي الجبهة ، خلال الأيام أو الأسابيع القادمة . لم يقل لهم احد ذلك ، ولكن الجميع عرفوه بشكل خفي .

آلمتني تلك الحكايات وسألتها عن فتحية وأين هي ، فأجابت بأنها قد تعود ، بين لحظة واخرى فقد أرسل في طلبها المحامي لشأن من شؤون دعوى ابناء زوجها ؛ ثم عادت تحدثني عن غسان ؛ لم يبق معهم ذلك المساء الا ساعات ، ولم يأكل أو يشرب شيئاً ، وبدا ، في انقلاب سحنته ، كأنه فقد اعز الناس إليه ؛ غير انه وعدها ان يزورهم قبل ان يسافر الى الجبهة اذا حصل وصدر الأمر العسكري بذلك كما يتوقعون .

تملكني قلق عظيم لهذا الخبر المشؤوم ، وشعرت بالحاجة لزيارة

الرسام عبد الأله للاستيضاح منه عن جلية الأمر . طلبت من ام فتحية ان تنقل تحياتي لابنتها وبأني سأزور والد غسان وسأكون على اتصال بهم في كل الأحوال . دعت لي بالخير والنجاح وقسمات وجهها شاكية باكية . خرجت مسرعا وكدت اسقط وسط السلم الذي شهد آخر حماقاتي .

رأيتها تقبل ، واضعة عباءتها ، ووجهها كاب حزين . وقفت امامي محرجة بعض الشيء . كانت عيناها تنفثان لوعة وعذابا قديماً .

ـ جئت أطلب عفوك ، فقد أسأت اليك كثيرا . كنت خجلا قبل ذلك ، ولكن الألم غلبني واعادني الى الصواب ، لحسن الحظ .

تمتمت :

ـ هل رأيت أمي ؟

هززت رأسي بالأيجاب .

ـ سأذهب أقابل أباه وأسأله عن صحة الخبر .

تفتحت اساريرها الدقيقة واضاءت عيناها الخضراوان :

ـ أرجوك ، توفيق ، ليرض الله عنك ، افعل ذلك ، فأنا لاأجرؤ عليه .

ثم مدت ذراعها من تحت العباءة السوداء فأمسكت بيدي وضغطت عليها :

ـ أرجوك ، ساعدني في محنتي الكبرى هذه .

لم يعرف الرسام عبد الاله اي شيء عن شكوك ابنه ، وابدى استغرابه لأن غسان لم يخبره ، ثم سألني كيف أمكنني ان اسمع من ابنه اخباراً لم يقلها لعائلته . أبديت له أسفي لتدخلي هذا وتسرعي في المجيءاليهم ، وشرحت له ، في قصة اخترعتها لحظتئذ ، بأني قابلت احد اصدقائه صدفة فنقل لي هذا الخبر المكذوب . نظر الي بشك وعدم ارتياح وهز رأسه دون كلام . انسحبت خجلاً ومنزعجاً ؛ فلم يكن هناك داع لاقلاق راحة هذا الانسان المطمئن .

مررت ببيت اخي عبد الباري فلم أجده ؛ كان الوقت وقت غداء فدعتني

ثريا لمشاركتهم الطعام . اقبلت نجية ، متشحة بالسواد ، تحمل ابنتها ، فسلمت عليَّ فقبلتها وسألتها عن صحتها وأحوالها ؛ أجابت اجابات غامضة ثم خرجت مسرعة . كانت ثريا تنظر الي نظرات متفحصة :

ـ لماذا يبدو عليك النحول هكذا ياتوفيق ؟

ـ لأني ياسيدتي لاآكل كما يجب دائما ، وانت تعلمين هذا ؛ وانا فوق ذلك غير مرتاح في الجحر الذي اقيم فيه ، وانت تعلمين هذا ايضا ، فلم السؤال اذ ن ؟

ـ اعمل واكسب قوتك بعرق جبينك وستجد الطعام والمأوى المناسبين دون ان تتهم الآخرين الأبرياء .

ـ أنت على حق ياثريا ، فلا تزعجي نفسك بحالي وأرجو المعذرة ؛ لم اعد اطيق البحث في شؤوني . ان الحياة بهذه الطريقة مهمة شاقة حقاً .

قالت لي انهم اجروا بيت والدهم بمبلغ ضخم سنوياً ، فخطر لي انها تريد ان تبرر رفضها اعطائي غرفة فيه لسكناي . سألت عن جيرانهم كاسب وأنوار ، فأخبروني بأنهم في أحسن حال ، وان كاسب يذهب الى خانقين يوميا في الصباح ويعود مساء ، وحسب مايقول فإن كل شيء على مايرام ، وليس هنالك اي سبب يدعو الاهالي الى هذا الخوف المستولي عليهم ، رغم ان القصف الايراني لم ينقطع والضحايا يتزايدون يوما بعد يوم .

خرجت حوالي الرابعة مساء ، وخيل الي ان ستارة على نافذة في المشتمل قد تحركت اثناء مروري امام الباب . كنت بشوق لأنوار ، لوجودها الأنثوي الخجول ولملامح الشهوة الخفية في وجهها الجميل ؛ ولعل حديثا صريحا حميما معها يفرج عن بعض همومي .

ترددت بين العودة الى غرفتي او الذهاب لاخبار فتحية بنتيجة مقابلتي لوالد غسان ؛ ثم اني ، سائراً على مهل ، فضلت ان اختلي بنفسي وان افكر بعد ذلك بفتحية . لقد تعكرت علاقتي بها مع الأسف ، ولن تقبل ، بحسن نية ، مجيئي الى الأسواق مرتين في يوم واحد .

جلست في ركني المعهود في مقهى حسن عجمي ، وتمنيت الا يقلق عزلتي فضولي لاأحبه . امطرت السماء مطرا خفيفا ، وكانت المقهى شبه خالية . اراحني ان اتغدى غداء صحيا نظيفا وان آكل بعض الفواكه والخضر ، ولكن قلبي كان مثقلا ، هذا اليوم المشحون ، بأسباب الشؤم . لم انس نظرات نجية المؤسية والمعنى المستتر وراءها والذي ينعي حياة تكسرت في بدايتها ؛ وهذا غسان يمرق كشبح اسود في جو نفسي . أيمكن ان يكون متجها باستقامة نحو آلة الهرس الجماعي ؟

تملكني الفزع اذ خطرت لي فكرة وجوده على خط النار ، معرضا في اية لحظة للهلاك ؛ واخذتني حالة من الذهول والتشتت ،فبقيت ضائع النظرات في الفراغ امامي ثم بزغت في ذهني صورة فتحية ، وتذكرت فجأة كلامها عن المحنة الكبرى التي هي فيها . ماذا كانت تقصد بذلك ياإلهي ؟ ان ذهاب غسان الى الجبهة مشكلة ومأساة ، ولكنه ليس محنة كبرى ، اذا اردنا الدقة في التعبير ؛ ولاح لي وجهها الممصوص الأصفر ، والانطفاء الغريب في هيئتها ؛ انه قد يكون حقاً ، وجه عاشقة جريحة القلب ، ولكن... ولكن ، ياللأفكار المروعة الشاذة!

كان الجو باردا ، مشبعا برائحة المطر والتراب ، وكنت في عجلة من أمري لم أعرف مأتاها . تملكني نزوع لايرحم لرؤية تلك الفتاة والتحدث اليها ، ووجدت في ذلك حلاً لهذا الاضطراب الذي اعيشه منذ ساعات . ضحيت بأكثر من دينار ونصف اجرة التاكسي الذي أوصلني الى الأسواق . كان الظلام قد هبط رغم ان الساعة لم تجاوز السابعة ؛ وكنت احترق قلقاً . اخترقت الفكرة المظلمة ذهني قادمة من مناطق اللاوعي الغامضة ، فاستحوذت عليَّ في الحال وصرت ممسوسا بها . وجدتهم يتناولون العشاء في المطبخ ؛ وكانت بوجه صاف حزين ، هادئة في استسلام . اخذتها الى غرفتها ؛ لم تخف عني شيئاً ، تلك المسكينة العزيزة ؛ وزاد موقفها هذا في ندمي . كانت من نوع المخلوقات التي تعيش بأخلاص حالة بعد اخرى ووقتا

بعد وقت ، وليس في ذلك غش او تلاعب ، فهي ، قبل غسان ، كانت منسجمة ومخلصة ، دون مداورة ، في عواطفها نحوي ؛ ثم انفتح لها أفق آخر مختلف تماماً ، فكرست وجودها كله له ، بلا تصنع او تظاهر ؛ وانقلبت صفحتي انا ، فلم اعد داخلا في حياتها العاطفية ، ولم يعد طبيعيا ان احاول الدخول مرة اخرى . كان ذلك صدمة نفسية لها وكارثة ، وكان عليَّ ان افهمها ، حتى ولو لم تفهم هي نفسها .

اسعدني ، بعد ذلك ،ان اراهاتفرج عن نفسها اثر حديثها معي وافصاحها عن ذاتها . لم استطع البقاء معهم اكثر مما يجب فعدت ألحق بالباص الأخير .

كانت شوارع بغداد ، مع البرد وجو الحرب والغارات ، معتمة خالية ؛ وكنت منشغلا بما يمكن ان يحدث ، اقلب الافتراضات والاحتمالات على بعضها ، دون جدوى . خطر لي بأن المجتمع لايسيطر على الانسان الفرد بما يقدم له من علاقات بشرية ممتعة واشباع لرغباته وغرائزه وحاجاته الأخرى فحسب ، بل انه يستحوذ عليه كليا حين يريد هذا الفرد ، في موقف متعدد الجوانب ، ان يبدل جزئيا بعض الموازين والحدود ، لكي يتحاشى مايحدس به من كوارث مقبلة ؛ وبدون حساب دقيق لما يحوز من قدرات ذاتية ، يندفع ضاربا رأسه بالجدار ، محاولا تغيير امور لاتتغير ، بهذه الطريقة او بغيرها .

جهدت خلال الأيام الأخيرة من سنة ١٩٨٠ في البحث عن شخص اعرفه وله علاقة بالأمور العسكرية او بقضايا تنقلات الجيش ، فاكتشفت عجزي التام وتفاهة موقعي الاجتماعي ؛ لابل نُصحت ، عدة مرات ، بعدم التدخل في مثل هذه المسائل الشائكة التي لايعرف اسرارها احد . وكنت أزور الأسواق مرة كل عدة ايام ، لعلي اصادف غسان هناك او اسمع خبرا منهم عن مجيئه القريب . ارشدت فتحية ووالدها الى المنزل الذي اسكنه ، ورجوتها مرارا ان تحاول اخباري بزيارة غسان أو أن تقنعه برؤيتي . تغيرت طبيعة المودة

بيننا ؛ فصارت ، تلك الأيام ، قائمة على الفهم المتبادل وعلى تقدير ، كل منا ، بأن الآخر ضروري ، عاطفيا ، له ؛ كنا نحب شخصاً واحداً ، ونقلق عليه وننتظر رؤيته ؛ وكان غسان يجمعنا برفق ويوحد رؤانا . كنا نتكلم عنه باستمرار ، حين أزورهم ؛ وكان ابواها يحافظان على صمت ذي معنى في ذلك الوقت .

تأملنا ان يستطيع التمتع باجازة قبيل رأس السنة ، فيكون بمقدورنا ان نحتفل بالسنة الجديدة سويا وان نحل المشاكل العالقة ؛ الا انه لم يأت . وكنت أخشى أو أتجنب بالأصح الذهاب لرؤية والده لئلا يسيء الظن وتأخذه الأفكار السوداء بعيداً . لكنني ، بالمقابل ، اكثرت من زياراتي لدار اخي ، وكانت الأخبار سيئة هناك ايضا ؛ فقد استدعي كاسب للخدمة في الجيش الشعبي في خانقين ، فتعين عليه البقاء فترة طويلة في تلك المدينة وايجاد من يراقب اشغاله في المعمل ؛ ولم تجد انوار بدا من الالتحاق به واعادة ترتيب منزلهم الذي هجروه زمنا غير قصير . وهكذا عرض علي ، بصورة غير مباشرة ، ان اقيم في المشتمل بعد الاتفاق مع كاسب على ذلك ؛ الا ان هذا ، بعد استشارة انوار ، لم يوافق ورغب في البقاء انتظاراً لفرج في الأوضاع قريب . وفي الحقيقة ، لم آخذ العرض جديا ، لأني كنت اسعى من تكرار زياراتي ، وراء بعض المعلومات التي قد تصل صدفة دار اخي عبد الباري او زوجته ثريا عن غسان ، من والده او احد الجيران .

مساء اليوم الأخير من سنة ١٩٨٠ ، وجدت نفسي ، في الأسواق ، متضايقا من البقاء مع الجماعة ننتظر عبثا مجيء غسان ، فتعللت بموعد مع صديق وانسحبت بهدوء نازلا الى بغداد . قصدت مقهى حسن عجمي ، دون سابق تصميم ، وانتحيت زاوية منها ، متحاشياً جاسم الرمضاني وجماعته ، الذين رأيتهم يحتلون مائدة على مبعدة ، منهمكين بلعبة الدومينو ، يتحدثون بصخب ويضحكون . لم تمل نفسي لرفقتهم ، وكنت اريد ان اتأمل قليلاً ، لعلي اصل الى راحة نفسية او فكرية . نسيت حاجاتي المادية وعوزي خلال الأسابيع الماضية ،

وكان ذلك امراً غير معتاد ؛ فالوقت يمضي والجيوب فارغة ؛ ولاشيء يحدث . كنت آكل في أي مكان دون اكتراث... مع فتحية واهلها احيانا او في دار اخي عبد الباري احيانا اخرى او في مطعم شعبي ؛ ولم يخطر لي ان أسأل عن معنى ذلك . كنت احس احساسا داخليا بأني مغمور ، من الجميع ومن غير احد بالذات ، بعاطفة رقيقة متعقلة مسامحة ، ينقلب معها وجه حياتي ، فيصير رضياً لايعوزه الأمل ولا البهجة . كان ذلك بسبب وجودها ، الآن ، في الحياة معي ، هي التي لم اعرفها من قبل كما يجب ، والتي صهرتها تجارب مفاجئة . كانت مشاعري نحو فتحية قد تناولها التغيير منذ رأيتها قبل شهر ، حزينة قصية عني ، فطلبت منها المغفرة . لم تعد موضوعا لشهوتي ، بل هي خدينة قلبي ، وكنت ارى في عينيها انها غيربعيدة عن إدراك ما في نفسي نحوها . ملكها حماس أنثوي جميل قبل أيام ، حين كانت تعيد حديثها عن احاسيس الأمومة ومدى عمقها وشمولها ، فعصرت كفي بحرارة يديها ومنحتني متعة خاصة ما كان احلاها!

ـ لم أرك الا هذه اللحظة ، لماذا انت بهذه الحال من التجهم الحالم ؟

قطع علي جاسم الرمضاني عزلتي كالعادة ، ووقف مبتسما امامي ؛ ضحكت ووقفت اصافحه .

ـ كيف حالك ؟

جلس قربي .

ـ كنا نتجادل في قضية الضحك ، انا والجماعة...

وأشار الى الجالسين الآخرين على المائدة :

ـ...فاتفقنا بأن شاعرنا العظيم المتنبي لم يوفق في قوله... والظلم من شيم النفوس ، وكان الأحرى ان يقول... والضحك من شيم النفوس فإن تجد ذا عبسة فلعلة لايضحك... مثلك أنت ، لماذا لاتشاركنا مجلس الهزل والضحك ؟

أيدته :

ـ لعل تبديل البيت الشعري للمتنبي ألصق بعصرنا ، فلقد مللنا من إثبات أن الظلم هو من شيم النفوس ، أليس كذلك ؟

ـ هذا صحيح ، ويبدو ان علينا ان نبدأ بالكلام عن تغيير هذه الشيمة ؛ لعلنا بعد الف سنة اخرى نفلح في ذلك . كيف انت ياأخ توفيق ؟

ـ لست مرتاحا ،كما ترى .

ـ تسوءك الأخبار ؟

ـ ليس كثيراً ، ولكني قلق ، هنالك من أقلق عليهم ولاأستطيع ان أساعدهم .

ـ كلنا في هذا الشأن سواء .

ـ وكيف يمكنك الضحك ، إذن ، بقلب خلي ؟

ـ هذا مالا أعرف سببه بالضبط ؛ فلعلي واحد من اثنين ، اما سفيه متمرد ، أو موهوب ضحك ، اذا كان لهذه الموهبة وجود ؛ من يدري!

وأطلق قهقهة اهتز لها كيانه وكرشه البارز . آنذاك ارتفع عويل صافرة الانذار فأطفؤوا الأنوار في المقهى واحكموا اغلاق الواجهة سألته :

ـ الى متى ستستمر ، في ظنك ، هذه الحرب ؟

رأيته بغموض ، يرفع يده قليلا عن المائدة بإشارة لامعنى محددا لها :

ـ قد نموت ولانرى نهايتها .

رجعت الى غرفتي الباردة المعتمة ، اقضي فيها الليلة الاخيرة من سنة ١٩٨٠ ، جالسا على سريري ، غير دار ما اعمل بنفسي . كنت حزينا حزنا قاتما لايحتمل ؛ وكان بودي ، اكثر من اي وقت آخر ، ان احيا حياة عادية مع عائلتي الصغيرة التي تحبني وابادلها الحب واحدب عليها . لم تردعني تجربتي الأولى الفاشلة في الزواج ، عن الرغبة مرة أخرى في تكوين أسرة والعيش بهدوء مع امرأة تربطني بها علاقة حب وتفاهم ومستقبل مشترك .

قمت أشغل نفسي بتقليب كومة الكتب وترتيبها على الأرض قرب الحائط ، ثم خطر لي ان اختار بعضا منها اعرضه على غسان في لقائنا القادم واحثه على القراءة . كان القلق يساورني على حياة هذا الشاب لغير سبب ثابت مكين ؛ فقد لايكون ماسمعه حقيقيا او قد تنتهي الحرب وهو مازال بعيدا عن

الجبهة . ثم ان الجيش العراقي يتقدم بقوة ولامقاومة توقفه ؛ ولعلنا خلال وقت قصير نحتفل بالنصر ويعود غسان وتنتهي مشاكل فتحية وأرتاح أنا .

قمت اضطجع على الفراش . انا افكر براحتي الشخصية بدءا وانتهاء ، في حين ان عناصر الموقف الحالي الذي يهصرني بين مخالبه ، تهدد فتحية وغسان اكثر مني ، تهددهما في حياتيهما.. فردين منعزلين وزوجين متحدين . كانت تحدثني في غرفتها الدافئة ؛ قبل ساعات ، حديثا حميما ، حاراً وجميلاً ، لم أسمعه قبلا منها ؛ وكانت تبتسم بخفاء ، وكان صوتها دافئا ذا جرس موسيقي . ملكني الشوق اليها وهي جالسة بارتخاء على سريرها العريض ، وتمنيت لو كنت احببتها بشكل آخر ، ولو استطعت ان انسيها ما أنزلته من سوء عليها . كانت ، مع ذلك ، عبر تصرفاتها ونظراتها وتلمسها لكفي ، تكشف لي كأنها قد عفت وتناست ومحت ماكان .

لففت جسمي بالمعطف جيدا وباللحاف ، وقررت ان اسعى غداً ، مرة اخرى ، افتش عمن يمكن ان يعرف متنفذين أومسؤولين قد يساعدوننا على اعادة غسان الى اهله ؛ ثم ظننت اني ، متدفئا بالذكريات الحلوة والمشاريع الخيرة ، سأنام نوما عميقا يريحني . تلبستني حالة مزعجة اول الأمر ؛ فبين يقظة ناقصة ونوم غير حقيقي ، توالت علي الكوابيس بغير شفقة ؛ لاأتذكر منها سوى صور الموت والدمار والشقاء العام . هببت مرتين ملسوعاً بالبرد في ظهري ، فجلست حائرا منكمشاً ، أدور ببصري في الظلام ؛ كنت أنشد ، عبثاً ، دفء الحياة الذي تمنحه امرأة بحبها وجسدها .

استيقظت صباحا على مفاجأة غير سارة ، حين لم اجد في جيبي غير ثلاثمائة وخمسين فلساً ، تكفي بالكاد اجرة الباص للوصول الى بيت اخي عبد الباري . لم تكن حساباتي المالية مضبوطة دائماً ؛ ولكنها ، هذه المرة ؛ شكلت فضيحة لاتغتفر ؛ اذ كنت اظن نفسي بعيدا عن الإفلاس لعدة ايام .

لم تدهشهم رؤيتي في تلك الساعة المبكرة وقدموا لي فطورا مناسبا مع الشاي .كان الجميع في البيت ، فاليوم كان يوم عطلة رسمية . بدا لي عبد

الباري مهموما بعض الشيء وتبين انه قد سمع بأن أولاده يمكن ان يستدعوا للخدمة العسكرية مرة اخرى ؛ وفي هذه الظروف ، كان الأمر مقلقاً . كانت لحيته البيضاء طويلة ووجهه متهدل اللحم وعيناه الجاحظتان رماديتين غامقتين . ذهل عن نفسه لحظات ثم اخذ يحدثني عن الأشغال وكيف تتعثر باستمرار وعن كاسب وكيف تغير خلال الأشهر الأخيرة فصار لايفي بوعوده ، ويهمل بيته ويغيب عن زوجته اياما دون ابداء سبب ، حتى انها اضطرت لتركه ورجعت الى بغداد لتسكن في المشتمل مع ابنها .

أثار استغرابي كلامه هذا فسألته :

ـ أتعني ان انوار هي في الدار هنا الآن ؟

نظر الي نظرة متأملة ، ثم همس :

ـ ألن تكف ؟

ـ لااقصد شيئا ، ولكن هل تعني انها لم تذهب الى خانقين ؟

ـ ذهبت وعادت ، سبحان الله!

ـ كانت الشمس ، بعد الظهر ، تملأ الدنيا بحرارة جميلة مستحبة ، فجلست في الشرفة المطلة على الحديقة واسترخيت مغمض العينين . منحني عبد الباري ، خفية ، عشرة دنانير ، فأطمأننت على مسيرة الحياة حتى قبض راتبي التقاعدي . كنت ، رغم سوء التغذية المتواصل والقلق والتعب ، احس بفوران جنسي مكتوم ، يخل بتوازني العصبي .

كانت جميع الأبواب مغلقة في وجه أي تنفيس طبيعي ؛ حتى تلك البيوت المشبوهة في المناطق التي عرفتها سنوات شبابي ، ازيلت بعناية ؛ وهذه العزيزة فتحية ، صارت روحا معذبة تطاردها اشباح وهموم كبرى ، لافائدة من زيارتهم اليوم ولا غداً ، فغسان لن يأتي بسهولة او عن قريب . ان المشاكل تنتظره مع الأفراح القليلة التي يجدها ؛ وأنا ، اذ اجد نفسي مسؤولاً عنه وعنها ، اشعر اني سأزيد في تعميق مشاكلهما ؛ فلست غير عاجز مفلس .

تماهلت في الانصراف من بيت اخي ، واطللت من مكوثي غارقا في دفء اشعة الشمس وفي احتضانها السحري لي . قدموا شاي العصر مع قطع «الكليجة» ، تلك الحلوى المحشوة بالسكر والجوز ، فتذكرت رفاهية حالات ماضية وسعادتها المتكررة ؛ واستطعت ان استعيد لحظات وجودي فيها آنذاك ؛ هذه اللحظات المعاد إحياؤها ، إنهاحالة خاصة تشع من كائن ذي مكونات مادية وتعلو عليه بشكل من الأشكال ، فتمنحه وجوداً اضافياً ان صح القول ، أو وجود مضاعفاً .

ودعت عبد الباري وثريا وغادرت دارهم والشمس تميل الى الغروب ، كنت مسوقا برغبة ملحة دفينة لرؤية انوار مهما كان الثمن والتحدث معها ؛ فقمت بجولة قصيرة للتمويه ثم عدت الى المشتمل وطرقت الباب . فتحت شباكا صغيرا على جهة واطلت منه . بهتت اذ رأتني .

ـ مساء الخير .

كانت مضطربة الشعر ممتلئة الوجه بعض الشيء ؛ لكن العينين الطويلتين السوداوين بقيتا تشعان مثل نجمة الصباح .

ـ انت لاتريدين حقا رؤيتي ولا الكلام معي ؟

هزت رأسها بالايجاب وابتسمت .

ـ وكيف يمكنك ذلك ؟ الم يوصنا الرسول الكريم بالصفح عند المقدرة ؟

ـ أنا... لا مقدرة عندي .

كان صوتها رخيما مثيرا مداعباً .

ـ ولكني لم أسيء اليك ياأنوار بهذه الدرجة ، أليس كذلك ؟

ـ كلا .

ـ إذن ؟

ـ أردت ان تسيء .

ـ لعل ذلك صحيح ، فقد عشقتك وأوشكت ان افقد عقلي .

لبثت ساكتة تبتسم .

ـ تلك المرة ، سقطت مريضا حين رفضت ان تفتحي لي الباب .

ـ ذنبك .

ـ كلا ، ليس ذنب احد ، ربما ، لأن الحب أعمى كما تعلمين ، والعميان لاحرج عليهم ولاذنب .

ضحكت كأنها سعيدة .

ـ أأنت بحالة حسنة ياأنوار ؟

تقلصت معالم وجهها بسرعة وابتعدت بنظرها عني هامسة .

ـ لاشأن لك بي ياتوفيق ؛ ابتعد عني ، فلا أريد حتى سؤالك هذا عن حالي . لقد أشقيتني طويلاً .

ـ أنا ؟!

ـ وانت الآن لاتهمني ولاتستطيع ان تؤثر علي .

ـ انا آسف ياأنوار ، أنا آسف والله ؛ فلو تعلمين كم أعزك وأريدك .

بان الغضب على محياها وحركت ضلع الشباك كأنها تريد اغلاقه .

ـ اقوالك هذه مقززة ، هل تعلم ؟ وأنت عجوز قبيح ولاتستحي .

أُلجم علي كمن ضرب على رأسه بعنف ؛ لم أتوقع منها كلمات بهذه الشدة ؛ لكأنها مصدومة منذ القدم ، تفرج عن نفسها بأبشع طريقة تستطيعها . لبثت مترددة في غلق الفجوة الضيقة التي بدت لي منها عيناها المتأججتان ، فخيل إلي ، لحظة ، ان حاجبها الرفيع المعتنى به ، قد تلوى بخفة ، ثم إنها سدت الشباك بحركة سريعة .

ـ لك الحق ياأنوار ، لك كل الحق ان تحقدي علي هكذا ، ان تحقدي على كل رجل احبك واساء التصرف معك ، ولكني لم اعرف طريقا آخر أسلكه ، تأكدي ؛ لست خبيرا في هذه الشؤون رغم تظاهري ؛ وكل ما اعرفه هو عواطفي ونداؤها وما أظنه حيويا او ملائما للحياة . أنت ، أنت لم تجربي مثلي ان تكوني مهجورة جائعة ؛ ولو كنت جربت لعلمت كم هو ثمين لايقدر

بثمن... ان تجدي من يهتم بك حقا ومن يميل اليك ومن يريد ان يأنس اليك بالشرع او بغيره ؛ انا قد اكون تغيرت ، ولكني لست عجوزاً ، وانت قد خدعك مظهري البائس ، مظهر الرجل الفقير الذي لايريده احد لأنه لايرتدي الملابس اللائقة ولم يغتسل منذ اسابيع ولحيته الكثة قبيحة ومنظره منفر ؛ هذا صحيح ، ولكن قلبي ذو صفات نادرة ، ولايملكه امثالك ؛ وكان بودي مخلصا ان اعيش معك وقتا طيبا لن تندمي عليه ؛ اما الآن فلا فائدة من بكائك خلف الجدران ، فكل حياتك ندم وحسرات ، ولاتملكين حتى ذكرى جميلة ، وهذا هو بالضبط سلوك الاغبياء من الناس الذين نعايشهم هنا ، الناس الذين يصوغهم هذا المجتمع الخفي الفساد ؛ ظننت اني استطيع ان احدثك ؛ اشتهيت دائما ان اتحدث معك وان احبك في الحديث ، لاني ظننتك سلواي الأخيرة ، واذا بك تشمتين بي مثل الآخرين وتسخرين مني كأي عنزة جبلية بليدة ، وانا لاأدري في الحق لماذا اتعب لساني بهذا الكلام الثقيل ، وانت لن تفهمي منه شيئا ، ولن تفهمي معنى ان تفوت الحياة ؛ لأنك وامثالك لم تدركي بالأساس معنى الحياة ، معناها الصلب الحقيقي ، ولن تعرفي بالطبع بعد ذلك معنى الحب واللذة والفرص السانحة النادرة والزوال والموت ؛ ماذا يربطني ويجعلني اتشبث بك وبمن يشبهك من البشر ؟ هذا مالا ادريه الآن ، ومالن أدريه غداً بالتأكيد .

ثم ، بحركة خرقاء ، طرقت مرتين على قضبان الشباك المغلوق ومضيت مبتعدا بسرعة . كنت منفعلا انفعالا هادئا ، لم يفقدني القدرة على التفكير ؛ وكان بودي الخروج من هذا الموقف بأقل الأضرار... نفسية وغيرها ؛ لذلك بقيت أمشي حتى وصلت امام جامع دراغ فتوقفت هناك .

كان الظلام قد هبط وحركة السيارات في شارع المنصور كثيفة كالعادة . كنت ، بالطبع ، مضحكاً في كلمتي الارتجالية امام شباكها المغلوق ، غير اني شعرت بارتياح لاريب فيه يساورني ؛ اذ كان عليَّ ان امارس عملا ما ضد ماقامت به تجاهي ؛ ولقد فعلت ذلك بشكل تهريجي

ارضاني لأكثر من سبب ؛ وفي ظني انها لن تسلم الليلة من نوبة بكاء شديد .ولكن ماالفائدة ؟ ومأدراني انها كانت تنصت الي!

النقطة الوحيدة التي اردت ان اخدش بها ذهنها ، هي انها ضيعت على نفسها وعليَّ وقتا طيباً ، وان ذلك كان حماقة منها . كنت احب ان اجعل هذه الفكرة تبدو بسيطة ، لكنها ، في الحقيقة ، كانت قضية معقدة ومتجذرة في أعماق المجتمعات البشرية منذ الأزل ، ولايتدخل القانون لمنع حدوثها فحسب ، بل هناك التقاليد المخيفة والأخلاق والسمعة وبقية المجهولات الأخرى ؛ ولعلها عرفت ، او حدست ، ذلك ؛ او ربما ساءها الا تستطيع الاستجابة لندائي . لم تستطع في الماضي ، وهي غير قادرة على ذلك الآن : وهذا ماصدمها وصيرني امامها عجوزاً قبيحا ؛ اذ في هذه الحال ، كيف يمكن ان تستجيب لاغراء عجوز قبيح ؟

ركبت الباص واخذت استمتع بالنسمات الباردة تهب من زواياه على وجهي ؛ وكنت أريد ان ارضى عن نفسي وعن افكاري ، وان أتوقف عن تحليل ماجرى ؛ إلا ان فكرة شقية عنوداً بقيت مع مسير الحافلة واهتزازها تهاجمني وتستولي ، شيئا فشيئا ، على ذهني . انها تشمئز مني ، كانت مشمئزة مني ، وهذا هو ملخص الموقف . لم تكلمني ابداً من قبل هكذا ؛ كانت تبجلني بحب ، أو ربما تحبني بتبجيل ؛ حتى في رفضها للوصال ،كانت حيية ، محرجة ، تخشى ان تجرح مشاعري . اما ان توشك على البصق في وجهي ، فهذا امر جديد حقا . صرت امثل في عينيها كل دمامة الممنوعات اللاشرعية ، وكل الظلمات اللاشعورية التي تخشاها . هذا هو الحق الصراح ؛ اما ان يخطر لي انها ستبكي بحرقة في زاوية من دارها ، بسبب فراقي او بسبب مافهتُ به من كلام هذياني غير مفهوم ؛ فتلك ، ياإلهي ، مأساة أواخر العمر التعيس .

انتبهت على الباص يتوقف ؛ كنا عبرنا جسر الأحرار وكانت صفارة الانذار ترسل عويلها ؛ رأيت الركاب يقومون بسرعة هابطين من الحافلة ،

فقمت معهم . كنت قريبا من محل سكناي ، لكن فكرة العودة الى غرفتي الباردة وانا بهذه الحال من التردي المعنوي لم ترق لي . اخذت امشي الهوينا باتجاه الحيدر خانة ؛ كانت السيارات مركونة على جهتي شارع الرشيد والناس ملتجئين تحت الأعمدة يتطلعون الى السماء . المزعج في العلاقات مع النساء ، ان المنطق السليم لايفيد في وضع الامور في اماكنها الطبيعية ، فالفكرة الطفولية التي يلثغ بها القلب ، تحتل العقل وتصهره وتسممه فيصير فريسة لها . هاأنذا ، مثلا ، ومنذ حين ، اسير ضارباً الأرض برفق وتكاسل ، امارس قضم ذاتي العاطفية وأتسلى بلوك فكرتي عن تلك السيدة التي رفضت حبي ووصالي وأهانتني ، فوق ذلك ، وذكرتني بأني في أرذل العمر وبأني شخص كريه ؛ وعبثاً ، اكبر العبث ، ان تحاول التملص من هذا الكابوس او ان تخلع رداءه .

شربت قدحي من الشاي الأحمر الغامق ، وانا جالس في موضع شبه سري خلف احد الأعمدة ، في زاوية من مقهى حسن عجمي . نسيت كل الوجوه والأحداث ومسببات القلق واعتكفت مع فكرتي السخيفة التي تركبني منذ بعض الوقت ، فنشرت لها لحمي وتركتها تأكلني على مهل . كان المقهى مليئا بالجالسين والضوء الخافت يضفي على الوجوه كآبة فوق كآبة . بدأ عندي وجع الرأس قبيل انتهاء الغارةالجوية ؛ احسست به يزحف ببطء من الجانب الأيسر ويستولي على جمجمتي كلها خلال وقت قصير ؛ كنت جائعاً ، مستنكفا عن تناول ماتقدمه المطاعم في تلك الأنحاء ، وكنت بالطبع حائراً . وفي هذه الحال الغريبة في تعدد عناصر البؤس المجتمعة فيها ، جاءني جاسم الرمضاني محملاً بابتسامته السمحاء وعارضا عليَّ ان نسكر معا وان نموت سكرا ان امكن . لم استوضح منه عن دوافعه لهذا النداء ولاسألته عن كيفية معرفته لعمق تعاستي الآنية ، بل طلبت منه باختصار ان يحدد النفقات ، فانا لاأملك الصرف بدون حدود ، فزادت ابتسامته نصوعاً وضرب على كتفه اليسرى وأعلن ، لسروري ، انني مدعو عنده الليلة ، وكل

النفقات ستكون على حسابه الخاص . وهكذا لم أعد الى غرفتي الا بعد الساعة الثانية صباحا ، ماشيا بتراخٍ من البار الذي اخذني اليه جاسم في منطقة مجهولة من محلة السنك ، حتى محل اقامتي . قدم لي الويسكي بسخاء لاينكر واكتفى هو بشرب العرق ؛ ومع صداعي الذي لم يخف وحديثه المستمرالطويل ، قضينا ساعات لابهجة فيها ولا أنس .

- لي فلسفة واحدة ، العفو استاذ توفيق ، أقصد طريقة في النظر الى الأمور ، لدي طريقة عاشت معي ونمت وتضخمت دون ان احس بها ، اعني لم انتبه اليها في وقتها ؛ هي ليست الرضا بكل شيء ، بل عدم مقاومة مايسوقه او يسوقني الله اليه ، هل تفهم ؟ زوجتنا مثلاً...

ثم اغرق في ضحكة عالية مرحة لاشائبة فيها :

- اعذر لي هذه التسمية ، فهذا هو ماوقع علينا نحن الاثنين ، ولا فائدة من النكران ، اقول زوجتنا كميلة رحمة الله عليها وعلى آبائها واجدادها ، خاصة على ابيها ، صديقي العزيز ، اقول زوجتنا انا وانت مثلاً كانت مصابة بلوثة اسمها الحمل ، وانت تعرف البداية خيرا مني ، ولكني اعرف كيف تأسست النهاية خيرا منك .

كنت أتأمله بصمت ، مشتبكا مع صداعي ، اتساءل مع نفسي عما عساي أعمل غير ان اجلس هكذا مستسلماً ومدحوراً ؟

- حسناً ، قلت في سري ، هذه لوثة واضحة كل الوضوح ولافائدة من وصفها بوصف آخر ، وكنا في لندن نزعم اننا في شهر العسل ، وهذه الملتاثة ، تركض من طبيب الى آخر ؛ أأنت معي ، ياأخ توفيق ؟ لاتعبس هكذا ، لأن ذلك يسبب عسر الهضم ، ولن يشفي وجعك ، والحكاية غير اعتيادية على كل حال ، فالزوجة لم تكن تحب ان تنتظر هذه المرة ، بل أرادت ان تحبل بسرعة ومهما كلف الأمر ، ولقد تضاحك الأطباء علينا كما يشاؤون وبقيت بينهم وبينها حائراً في وضعي ، اتشبث بما تبقى لي من كرامة كي أسلك كما يسلك البشر الأسوياء ، حتى جاء ذلك الطبيب المحتال

حفظه الله فأقنعها بلمح البصر ان يعمل لها عملية تلقيح بما يأخذه من ماء منوي مني! ووافقت دون ان تفكر بأن عليها ان تأخذ رأيي ولو في اللحظة الأخيرة ؛ ولم أجد ، في الحقيقة ، حلا معقولا يرضينا كلنا آنذاك غير الرضا عن كل مايسوقه خبث الأيام لي ؛ وكان ما كان ؛ وخلال شهرين عدنا الى الوطن ببطنها المنفوخ ، نهتز فخرا وكبرياء ؛ ولكن ، سبحانه وتعالى ، لاحول ولاقوة الا بالله ، اراد لهاغير ماأراد الطبيب المحتال حفظه الله .

ثم رفع كأسه وأفرغ في جوفه ماتحتويه من سائل محلب بارد ، ومسح فمه . كان وجهه كتلة من اللحم الأسمر المصبوب بعدم إتقان على شكل ملامح بشرية ؛ وعيناه السوداوان الصغيرتان مندفنتين في حفرة من شعر الحواجب وانتفاخ الخدود! وكنت أتأمله بهدوء ، ووجع رأسي وما أحس به من ملل واعياء يمنعاني من التعليق أو ابداء الرأي . مضى بعد لحظات .

ـ وصرنا في الموقف الذي أريد أن ، أقول ، أن أعطيه مثلاً ، مثلاً على لاشيء ، اعني لاشيء مهماً ، ولكنه... اعني يتوجب فهمه مع ذلك . كان فقدان الزوجة والطفل امرا مؤلماً ، نزل عليَّ مثل صاعقة أو أشد ، وكنت مهدداً ان أفقد بعده مركزي العائلي ، اعني افقد عائلتي الجديدة ومكاني فيها ، وكنت أخاف حتى من التفكير في ذلك ، فلجأت الى حاستي الطبيعية او مااعتدت ان اسميه طبيعتي الحيوية ، واندفعت كليا في الاقبال على الحياة الثانية التي عرضت عليَّ بعد وفاة كميلة ، واعتبرت هذه الحادثة رابطة جديدة مع والديها ، فقد نكبت مثلما نكبوا فوحدتنا النكبة . فرضتُ على نفسي وعليهم ان توحدنا النكبة ؛ وكنت مخلصا وسعيدا وانا اعتني بهم كأن كميلة ماتزال حية ؛ مبعدا عن ذهني وعن ذهنهم ، فكرة مغادرتي لبيت الزوجية .

كنت ملتصقاً بهم عاطفياً ، فزدت الالتصاق باظهار محبتي لهم وخدمتهم ، مما أعجبهم كثيراً وسرني في نفس الوقت . حسناً ، ماهذا ؟ هل هو وضع يمكن ان يفسر ؟ وبماذا نفسره ؟

هكذا أنا ؛ اريد بسرعة مايراد لي من القدر او البشر ، سواء بسواء ؛

لا اعتراض لي على شيء ، فلا قدرة عندي على ذلك . لدي فقط قابلية للمحبة اللامشروطة والمشاركة الواسعة في الأفراح والأحزان وفي خدمة الناس وترتيب امورهم . اتظن اني لم احبب سلمان القصابي بكل جوارحي ؟ هذا الذي لايعرف كيف يشرب كأسه! يندلق الويسكي الذهبي من أطراف فمه ، ويشرق به أحيانا فيخرج من انفه ، وتعال معي نتفرج على هذه اللوحة... ياالله ، ويالتلك الأيام! كم كنت سعيدا برفقته ورفقة ابي سلوان عبد الباري!

ثم صرنا على صلة اوثق بعد ان سقط مريضا فقمت على خدمته كما يجب ؛ وشفى فظنني منحته حياة جديدة وفتح لي قلبه فأخذ يحكي لي كأنه يعترف حكايات لانهاية لها . لم يكن لديه مايثير الاهتمام بالطبع سوى ثروته التي تجمعت عنده بمحض الصدفة ، فقد توفي ابوه القصاب ، ولم يترك له غير دكان فارغ ، فبقي يعاني الجوع والبطالة حتى خطر له ان يعيد فتح محل أبيه في الهويدر ، فاستدان واشترى بضعة رؤوس من الغنم وجلس يبيع اللحم على باب الله ، فمشت اموره ببطء شديد ولبث فقيراً معوزاً تثقله مسؤولية العائلة والديون ولايدري كيف يدبر معيشته ، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ففارت الأسعار وفار تنور اللصوص والمحتالين ، واعتبر هو هذه الصدفة كأنها من تصميمه وخلقه! وحتى حينما كان ، ذلك الأحمق ، يكلمني بافتخار جنوني عن ثروته الطائلة وبعض ألآعيبه ، كان يظن ان ذلك كله من صنعه وتدبيره! ومنه فهمت لماذا يموت بعض الناس حين يفقدون ثروتهم ، فهي ليست انجازاً من إنجازاتهم ، بل هي حياتهم نفسها ، يموتون كنتيجة منطقية لفقدانها . ياللمسكين الصغيرالمغرور!

كنت أحبه مع ذلك ولم يكن على استعداد للتفريط بفلس واحد لحساب الآخرين . هل صدقت تلك العملية البهلوانية التي قاموا بتمثيلها ؟ كل شيء كان اقوالا تجرفها الريح والاشاعات ؛ وتلك الورقة التي رميتها على ابنته لم تكن ذات قيمة قانونية فلم تُصدَّق من الكاتب العدل ولم يشهد على توقيعه شهود ؛ وفوق ذلك فإنه بصمها ليس بإبهامه بل بأحد اصابعه الأخرى! ثم إني

لم افهم والله ولحد الآن كيف نزلت على دماغه تلك الرغبة المضحكة المبكية ، بتشريفي ان اكون ابنه!

وأطلق ضحكة عالية ثم التفت ينادي الخادم ويطلب كأس ماء وثلجاً :

ـ هل تظن أن أعماله الطفولية تلك أزعجتني ؟ ابداً ، ابداً . اضحكتني ملابسات الموقف الغبية فقط ، أترى ؟ ولقد علمته كيف يستطيع ان يضحك من صميم قلبه ، صدقني والله ؛ صار يضحك على نفسه ايضا عند الحاجة ، حين يسرد لي تاريخه الأسود الغريب ، تاريخ رغباته الجنسية الشاذة وهو شاب متعطل يفور صحة ويقتله الحرمان ؛ ومع أنه كان شاذاً مرتين ، اي انه شاذ بين الشواذ ، فقد سعد بحياته الزوجية بعد ذلك واستكان الى امرأته المسكينة والدة بنتيه ، الا انه بقي ، سبحان الله ، وخاصة في أواخر ايامه ، يجد لذة في استعادة حوادث مراهقته الموغلة في الابتعاد عن المألوف ، وكنا نتمتع بذلك ، انا وهو ، ونتبادل النكات كلما كان الموقف قذرا ولايطاق . ماذا كان في مقدوري ان افعل غير هذا ؟ ورغم أني ، وهو بالطبع ، لم اكن افهم تماما هذه النفس البشرية التي لاعلاقة لها مطلقا بأي مبدأ من المبادىء الأخلاقية او السلوك الاجتماعي الحسن ، الا انني كنت واياه ، مرتاحين في أعماقنا ، واثقين من دخولنا الجنة كأننا من المبشرين بها ، مما يزيد الأمر تعقيداً .

ثم إن جاسم أراد أن يشرب من كأسه فوجدها فارغة فأرجعها الى موضعها ، وفتح ذراعيه بحركة استسلام . كانت الكأس امامي فارغة انا الآخر ، والساعة تجاوزت الواحدة والنصف فقمنا بتثاقل . سرني ان يسرع الى دفع الحساب دون مناقشة .

كان الهواء باردا جدا فاهتز جسدي بقشعريرة إثر أخرى وأنا أودع جاسم الرمضاني شاكراً له دعوته الكريمة ومبتعداً عنه اسير بخطوات سريعة احاول بها أن أبث الحرارة في جسمي .عثرت في جيبي على ورقة الدنانير العشرة لم تمس ، فاطمأن قلبي . كنت بحاجة لقضاء وقت على هذه

الشاكلة ، وقت فيه غياب من نوع خاص عن الذات وعن تعقيدات الحياة . لم يزل رأسي ثقيلاً ، ولكنه مخدر وفارغ . زدت في سرعة سيري واوشكت ان اركض في الأمتار الأخيرة ؛ وحينما وصلت غرفتي لقيتها اكثر برودة مما توقع . دفنت نفسي تحت كل ما املك من اغطية واحكمت من شد المعطف علي فاستطعت ان انام بعد فترة قصيرة نوما عميقاً خاليا من الأحلام والكوابيس .

ايقظتني طرقات على الباب في الصباح الباكر ، طرقات لعينة مزعجة ، اصابت رأسي قبل ان تصل سمعي . كان الطارق شيخاً خشن المظهر ، خشن الصوت ، لم أره من قبل .

ـ الله يساعدك اخي . انت السيد توفيق ، أليس كذلك ؟ لقد جاء شاب يسأل عنك وأراد ان يراك مستعجلاً كما قال ، ولاأدري اين كنت مساء امس ؛ هل انت السيد توفيق ؟

اجبته بالأيجاب وانا استعيد حواسي ببطء .

ـ كانت معه امرأة شابة ، وقد رآني اخرج ، انا اسكن هنا ، الاتعرفني... حاج حسان ؟ اوصاني ان انقل هذا الكلام الذي اقوله لك الآن... ابن عائلة ، كما يبدو . رجع ثلاث مرات ليراك ياسيد ولكنك لم تكن هنا ، ابن عائلة اصيل . واضح جداً . اوصاني وحلفني ان أراك واقول لك ماأقوله الآن ؛ انه مستعجل ويريد ان يراك ؛ وكانت معه امرأة شابة ، هل قلت هذا ؟

أرجعتني كلمات الشيخ الخرقاء الى خضم كل ماكنت نسيته ؛ ذلك المعذب غسان ، حين يسعى ليَّ بهذا الشكل ، فلابد ان يكون في مأزق مغلق .

ـ شكراً ياحاج حسان ؛ قل لي ؛ هل أعطاك رسالة أو اشارة ما ؟

ـ كلا والله ؛ لم يعطني غير الخمسة دنانير ، وحلفني ان اراك هذا الصباح واحكي معك ، وهاأنذا أنفذ ماطلب مني .

شكرته ثانية واسرعت اسابق نفسي لأحلق وأتناول كسرة خبز آكلها مع

الشاي ثم استقل سيارة اجرة الى حي العامل حاملا بصعوبة شوقي الثقيل لرؤية فتحية وسماع اخبارها واخبار غسان . كانت لاتزال تغط في نومها ، على السرير الواسع ، تحفها الأغطية والدفء والعطور . ايقظتها امها ، وانا معها اقف متمتعا بمنظرها المثير . فزعت لغير سبب ظاهر ، اذ رأتني ؛ ثم قفزت تحتضنني وتشكو التعب الذي عانته وغسان امس وهما يسعيان عبثاً للقائي . كان شعرها الأسود المحنى ، مضطرباً يحيط بوجهها ويتناثر بخصلاته على كتفيها وصدرها ، وكانت آثار النعاس تضفي على ملامحها مسحة من البراءة . وجدتها محاطة بما يشبه أسراراً كونية غامضة . اكدت لي مخاوفي ؛ فقد تحولت كتيبته الى جهة ما في الشرق الملتهب ، لكنه طمأنها بأنهم لايزالون بعيدين عن الجبهة ، وان كل شيء قد ينتهي عن قريب . ثم قالت انه اراد ان يراني ، لان لديه حديثاطويلا طويلا معي ، وصار في غاية الحدة حين فشلا في ذلك . اخذتها على جهة من الغرفة .

ـ هل أخبرته ؟

ـ أي سؤال منك هذا! بالطبع . هو يعلم

ـ وهل... وهل...

وسكتّ لاأعرف كيف أكمل سؤالي ، فقد ازدحمت الأفكار في ذهني واستشكل علي التعبير ، وضعت يدها على فمي :

ـ اتقلق اكثر مني... اكثر منه ؟ لاتكن مضحكا ، قال انه اخبر اباه واراد ان نذهب لمقابلته ، الا انه ارادك ان تكون معنا ، فأجلنا الزيارة الى عودته القادمة . لن يتأخر اكثر من اسبوع ، اكد لي ذلك . انا سعيدة ، ولا اشعر بأي قلق الآن .

ـ حسناً ، كل هذا حسن ، ولكنه ، لِمَ لم يبق الا ليلة واحدة ، لماذا لم يأت صباحاً ؟

ـ لأنه جاء سارقا الوقت من الآمر الذي اعطاه اجازة عشر ساعات فقط فصارت ست عشرة ساعة ؛ اترى ؟ ولقد قضينا جلها بالبحث عنك ياسيد

توفيق . ياللمكان الموحش الذي تسكنه ! أأنت بكامل عقلك ؟ كيف يمكنك ان تعيش هكذا ؟

ابتسمت في وجهها :

ـ اعملي لي ، من يدك الحلوة هذه ، شاياً ودعيني أصفي ذهني المشوش هذا .

لبثت ، لحظات ، تتمعن في وجهي ، تغوص في عيني المشوقتين ، ثم افترت شفتاها عن بسمة غامضة :

ـ تحت امرك ياسيدي ، تحت امرك .

قضيت النهار عندها ، تحت شمس جميلة ودافئة ، ونفسي فارقها الاضطراب والقلق . مشطت شعرها الجزل وتزينت فعاد اليها رواؤها القديم . كانت ترتدي فستانا عريضاً يخفي حنايا جسمها ، وكانت بطيئة الحركة ، يبدو عليها تعب خفي مثل الذي يغلف النساء في وضعها . اخذت استوضح منها ، مرة أخرى ، عما حدثها به غسان وماأراده مني ، فتبين لي انهما لم يتكلما ، في الواقع ، كثيراً ؛ ولعل اشواقهما كانت اشد حرارة من ان تدعهما يفيضان في الشرح والتخطيط ؛ لكنني فهمت منها ، مع ذلك ، انهما اتفقا على الزواج قريبا وانه سيقدم طلبا باجازة طويلة كي ينهي المسائل الشكلية المتعلقة بالزواج ، وانه يحب لها ان تعيش مع والده وامه سندس حتى يتم تسريحه من الجيش ، حينذاك سيبدأان ، بهدوء وطمأنينة ، تأسيس حياتهما المستقبلية ؛ وكانت عيناها الخضراوان الصافيتان تعكسان من اغوارهما ، اسئلة سعادة مرتقبة تحيطها الشكوك .

جلسنا نشرب الشاي بعد الغداء ، فشكت لي بأن الخوف لما يزل يستولي عليها اثناء الغارات الجوية وهي تسمع الانفجارات والمدافع ؛ ثم كأنها تذكرت امرا ما ، فاحمر وجهها قليلا وتشاغلت بما في يديها واسرعت بالانصراف .

تركت حي العامل عصراً ، رغم الاحساس المبهم الذي ساورني بأنها لن

تمانع لوطلبت منها البقاء والمبيت عندهم . اخذني الباص في مسيرة لاتنتهي ، الى بغداد ، يهزني ويهز الأفكار فيَ والهواجس .

لم تطمئني اقواله التي نقلتها لي فتحية ، ولعلها مثلي ، تدفن خوفها عليها وتخفيه عن نفسها وعني . بدأت قطرات من المطر الخفيف تتساقط على رأسي وأنا سائر اقصد مأواي ؛ وحالما دخلت غرفتي الموحشة حتى اردت ان اعاود الخروج . كنت ضحية كماشتين أو أكثر ، تقرضني احداهما من جهة وتخزني الاخرى من جهة ثانية ؛ وكان ليَ ، بالضرورة ، ان احمي نفسي ، فقد تكاثرت المزالق حولي . الا اني ، مثل اعمى ، كنت عاجزاً عن الحراك في الاتجاه الصحيح ؛ فكل اسباب القلق تحيطني وتخرج عن نطاق ارادتي ؛ ولذلك فليس سخفاً ،كما يبدو ، كل ماقيل عن المصير المكتوب على الجبين ؛ فمع خفاء اسس الأمور التي تشد الوِثاق حولنا ، ومع غموض اهداف قضايانا ، لايعود بمقدور اي مجهود ارادي وعقلي لفرد واحد ان يحل مشاكله وان ينجيه .

غادرت غرفتي بعد ان غسلت وجهي فشعرت ببعض الانتعاش .

كان الجو بارداً بعد المطرة الخفيفة ، والساعة في المقهى الصغير المجاور تشير الى السابعة والنصف . جلست وطلبت شاياً ؛ كنت الوحيد في المقهى ، وكان صاحبه متجهم الوجه ، يقوم بأشغاله في خدمة الزبائن كمن يعاني من عبودية ابدية . رغبت حقاً ان اسأله عما به ، لكني تكاسلت ولبثت اشرب الشاي بسكون ودون كلام . بعث السائل الحار الدفء في معدتي . كان علي ان اقاوم بالدنانير العشرة طوال اسبوع ، قبل دفع الراتب التقاعدي ؛ ولم يخطر لي ما يجب ان افعله لو اختلت مصروفاتي فجأة . الآن ، مثلاً ، احب ان اتجدد نفسيا وجسديا بحمام تركي ساخن ، ملعون بسخونته بحيث يفقدني الصواب!

هكذا يعجبني ان افعل ؛ غير ان هذا يكلفني مالاً ، ويمثل احدى الاختلالات التي نوهت عنها قبل قليل . كما قد اشتهي ان اشرب صحن

شوربة ساخنا هو الآخر ، ساخنا حتى الجنون ، بحيث يقضي عليَّ في الحال .

غير اني ، مرة اخرى ، لاأملك نقودا زائدة اصرفها لممارسة هذه التجربة الفريدة .

كنت دائخاً ، في الحقيقة ، شبه مريض ، ولا أريد ان اعترف بذلك . قمت تاركا المقهى الصغير ورائي ، فواجهني مطر يتساقط بغزارة . وقفت قرب احد الأعمدة الاسمنتية ، قبالة شركة المخازن العراقية ، أورزدي باك سابقاً ؛ راق لي أن اقف اتطلع الى الناس والسيارات والأنوار والمياه المتساقطة وانا افكر بلا شيء .

ثم إني تذكرت شاعرنا العراقي الذي كتب عن المطر ؛ مطر... مطر... مطر... ربما تكون ممارسة الشعر احسن وسيلة لعدم الانضباط في هذا العالم . تنشد شعرا وترقص تحت المطر ؛ لن يهم ان تكون عاريا أو بكامل ملابسك مع المعطف ، فلن يتفوه احد عنك بأي سوء .

ثم خطر لي ان الحياة لاتستحق ان تعاش حقا وان الانتحار ليس اسوأ منها بكثير ؛ ولعل ألبير كامو ، في دفاعه عن الحياة رغم العبث ، كان جبانا اكثر منه مفكرا مقنعاً ؛ ومات ، بالصدفة ، ميتة عادية جداً . قيل ان تلك الميتة تمثل سخرية القدر ، ولكني لااطيق هذه السخرية . الموت بالصدفة ، فكرة صعبة ولاتحتمل بسهولة ، ولابد للانسان من ايجاد حل واضح لها .

ازداد عليَّ دوار الرأس وأنا أتابع بنظري قطرات المطر ، تتسارع في سقوطها المستمر الآلي ، وتتلامع احيانا في اختلاطها مع اضوية المخازن . يحتمل ان اكون مريضا دون ان ادرك ذلك ، فهذه الفكرة عن إنهاء الحياة في موعد معين ، ماتزال تتردد عليَّ بالحاح . هنالك امور يجلبها لك الزمان ، اردت ام لم ترد . وانت في غنى عن مواجهتها ؛ يكفي ان تكون موجودة ؛ يكفي ان تكون لها القابلية لأن توجد . لتبعث فيك قلقا فتاكاً وانخذالا ورغبة في الموت .

كنت إذن في حال سيئة ، ليس دون اسباب اتلمسها بغموض خارج

ذاتي وداخلها ؛ ويمكن للحكماء ، إن وجدوا ، ان ينصحوني باجتناب الارهاق والاخلاد الى الراحة ؛ اما انا ، ولكثرة ماجربت ، فقد وجدت الحل في النسيان الارادي او مايمكن ان نسمية ايضا دس الرأس بعناد في الرمال . سرت متحاشيا المطر نحو مقهى حسن عجمي ، وكان الليل مايزال باردا موحشاً . رأيت جاسم الرمضاني وجماعته اول مادخلت ، فاتجهت الى دائرتهم السحرية وانضممت اليهم في لعبتهم الرتيبة . كانوا ، بلا شك ، في عالم تحكمه قطع الدومينو وأرقامها المتلاعبة ، وكنت بحاجة لدخول هذا العالم الآخر من اجل نسيان عالمي ؛ اذ مع اللاجدوى الرياضية التي كانت تقودنا اليها تلك القطع البلاستيكية ، صرت لاأتذكر زماني الا نادراً . ضحكت ، في البداية ، مجاملا لهم ، ثم شدني عالم قيمهم الخاص ، فرحت اشاركهم القهقهات العالية . كانوا ثلاثة ، جاوزوا كلهم الخمسين ولايبدو عليهم ان الحياة جنبتهم ويلاتها ومصاعبها ؛ لكن ثلاثتهم ، بشكل أو بآخر ، احتفظوا بتلك القطرة الأخيرة من الأنس الطفولي التي مكنتهم من الضحك ساعات دون توقف .

رجعت ، تلك الليلة ، الى غرفتي في ساعة متأخرة ، قاطعاً شارع الرشيد الممسوح بمياه المطر ، ومحتميا من البرد الشديد . نمت حالاً بملابسي نوما عميقا حتى ساعة متأخرة من الصباح . خابرت بيت اخي عبد الباري وتكلمت مع ثريا سائلاً عن احوالهم وأخبارهم . لاجديد . كنت انتظر مرور الوقت ، ليتسنى لي ان امارس نسيانه .

اردت ونجحت ، خلال اسبوع مضى ، ان ارتبط بهذه الحلقة المفرغة من الساعات والأيام التي تمر دون تغيرات او تعرجات حادة ؛ ولم يخطر لي ان ازور احدا من معارفي او اصدقائي ، فلا حاجة لي بهم الآن . كنت اقضي وقت استقلالي الشخصي براحة بال مفتعلة الى حد ما ، ولكنها ناجعة لتهدئة الأعصاب ؛ وكانت صور فتحية تأتيني ، عادة ، قبيل النوم ، صور مجنونة على الأغلب ومتوحشة ، كأنها نابعة من اللاوعي المظلم ؛ وكنت ،

بلا تردد ، أتمرغ معها في طين الشهوات ، غير شاعر بأي تأنيب ضمير . ثم ، لحظة ، قبل ان اغفو احيانا ، يرد ذكرغسان ، هابطا مثل غراب اسود على رأسي . آنذاك ، اما ان استعين بمخزوني من الذكريات فأنام ، او ان تنالني الهزيمة علي ايدي القلق والانشغال والفرضيات المؤسية ، فأبقى مسهداً حتى يؤذن الفجر . كنت حين افكر فيهما ، تواجهني الأبواب الموصدة من كل جانب ، الا اني اثبت على عنادي وأريد ان اجد حلاً لكل معضلة . كنت افكر ، في تلك الليالي البيضاء بزيارة والده ، وإخباره بكل ماجرى وماوصلت اليه الحال اخيراً ؛ فلسبب ما لم اصدق ان غسان اخبر ذويه عن علاقته بفتحية ، او حتى بوجودها ؛ وكانت هذه الفكرة كابوسا مروعاً ؛ فماذا باستطاعتي ان اعمل بمفردي ؟ ومن سيصدقني ؟ من جهة اخرى ، ماكان من التعقل في شيء ان ابوح لفتحية بما يساورني ، فقد تهلك تلك الفتاة بين ذراعي ، ولست محتاجا لهذا التعقيد الجديد ؛ لذلك لقيت ، بعد طول سهر وتفكير وقلق ، ان من المستحسن الاستمرار في سلوك طريق النسيان الارادي الذي امارسه منذ عشرة ايام ؛ وفي هذه الايام العشرة لم أرد ان أرى فتحية رغم انشغالي بها وبما تصنعه وتفكر فيه ، فقد كان الأسلم لي ألا اواجه اسئلتها وان احتفظ بشوقي اليها بين الجوانح .

ثم خطر لي يوما فذهبت ، ضحى ، الى دار اخي عبد الباري . لم يكن هناك ، والتقيت ثريا التي كانت موزعة النفس بين ولديها اللذين سيجندان عن قريب وبين والدتها طريحة فراش الموت ؛ وكان الجو ثقيلاً رغم محاولات نجية الفاشلة لبث المرح في قلوبنا . اراحني اني لم اكن مضطرا للاستدانة ، فقد استطعت ان اجرجر نفسي بالدنانير العشرة حتى موعد قبض الراتب التقاعدي . تغديت معهم كما يجب ، وكنت في شوق للعودة الى المقهى العتيق عصرا .

رجعت الى غرفتي ونمت على بطن مليء ساعة ونصف الساعة نوما

عميقاً ، ثم خرجت اتمشى عبر شارع الرشيد في جو بارد منعش ، فمررت على المعمل وقابلت اخي عبد الباري . لم يكن مهموما كزوجته ، وكان قدريا في نظرته الى قضية استدعاء ابنيه الى الحرب .

- لامحيص عما كتبه الله عز وجل ، والأجدى ان نصبر بثبات .

سرني ايمانه الصلب المفاجيء هذا ، وشجعته عليه . لم تكن بيننا مناقشات حادة في هذه الشؤون أوفي مجالات قريبة منها لحسن الحظ . لاحظته يتطلع الي كأني سأطلب منه قرضاً . ضحكت في سري وخيبت امله .

وصلت المقهى بعيد الغروب وانحشرت حالا مع الرفاق ؛ واتذكر ان الساعة كانت تقترب من السادسة حينما انغمرنا في اللعب والحديث ، واننا انقطعنا عن اللعب حين توقف على رؤوسنا الاخ ابو الأدب ، وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة بقليل . كان شيخا نحيلا جدا يقترب من الستين ، اصلع رث الثياب ، بشارب اشيب كثيف يلفت النظر وعينين قذرتين حادتين .

- انتم تذكرونني بتلك الأغنية الجميلة killing me softhy with lhis rsong برّقة يقتلني باغنيته ، اذ تقتلون وقتكم الثمين بالدومينو . وما اقبحها من قتلة يابشر!

لم يكترث له أحد سواي ؛ كنت أراه لأول مرة ، مستغرباً كيف لم أصادفه من قبل ، فهو كما قيل لي من الرواد الدائمين .

أجابه جاسم دون أن يرفع بصره :

- شكراً ياابا الادب . هات كرسيا دون ضوضاء واجلس تفرج علينا كيف نتبادل التقتيل ، هذا بجانبي الصديق توفيق لام . انه متقاعد مثلك ، يهتم بالأدب .

- تشرفنا . كان الله في عونك .

ومد ذراعه فصافحت بفضول الكف الباردة الخشنة . لم يجلس واصر ان يبقى واقفا فوق دائرتنا . رفعت نظري اليه مرة او مرتين ، ثم نسيته ؛ وبعد انتهاء جولة اللعب لم نجده قربنا . كان الوقت متأخراً ، لكن احدا منا لم يبد

علامة على الرغبة في الانصراف . كلنا كنا سواء في عدم وجود من ينتظرنا في مكان آخر . ارسلنا في طلب الشاي فجلبه لنا الخادم وكان برفقته ، مرة اخرى ، ابو الأدب ، يحمل قدحه بين أصابعه . رحبنا به ودعوناه للجلوس . حينذاك ارتفع صراخ صافرة الانذار فأسرعوا الى اطفاء الأنوار وإسدال بعض الستائر . اخذنا نشرب الشاي في الظلام ، جالسين بسكون نصغي الى الاصداء البعيدة الغامضة .

ـ انا كاتب خمسيني أخ توفيق ، اعني اذا لم تكن تعرف ، لأن الجماعة هنا يعرفونني جيداً ، وانا افتخر بانتمائي الى هذا الجيل ، مع اني لم اشارك فعليا بمسيرته . انه الجيل الذي وعى نفسه ووعى مايعمل ؛ لكنه ، مع الأسف الشديد ، لم يكن جيلا بعيد النظر ، يعرف كيف يختار اصدقاءه واعداءه . انظروا إلى أولئك الذين كان ذلك الجيل يظنهم أعداء التحرر الفكري . انظروا اليهم كيف يكرمون على كل المستويات وكيف يزارون ويعاد طبع كتبهم المتهاوية الرديئة ؛ اما نحن... الجيل المخلص... فمن يهمه امرنا ؟

ـ انت لم تنشر شينا ياابا الادب ؟

ـ هذا صحيح . نشرت نصوصا قليلة ، هنا وهناك ، عبر الزمان الطويل ، ولكني كنت صديق الجميع ، مطلعا على امورهم الشخصية .

ـ لِمَ تحسب نفسك منهم اذن ؟

ـ لاأدري في الحقيقة . لقد كنت اكتب مثلهم ، ولقد قرؤوا انتاجي فاعجبوا به ؛ إلا اني اتلفت كل شيء... في وقته . كنت اكثر شجاعة من كافكا .

ـ من جاء بكافكا الى هنا ؟

ـ اتدرون بأنه اوصى صديقا له ان يتلف مخطوطاته بعد وفاته ، لأن نفسه لم تطاوعه على القيام بهذا العمل ؛ رق قلبه امام عصارة ذهنه ونفسه . الا ان الصديق لم يلتزم بما وعد ، فنشر اعمال كافكا وذاع صيته فضيّع عليه رغبته في أن يبقى مجهولاً .

ـ لاتراوغ ياأبا الأدب ، ماأنت وهذا ؟

ـ لك الحق ، فأنا مجهول من الأًصل ، وأردت فوق ذلك ان أبقى مجهولاً . غير اني كنت اراقب عن كثب تصرفات هؤلاء... مدعي الثقافة والابداع . كنت اظن الأديب انسانا كاملا على كافة المستويات ، ولاتشوبه الشوائب... لا من الأمام ولامن الخلف .

ارتفع ضحك الزملاء الجالسين .

ـ لاتضحكوا كثيرا ، فالأمر معقد وجدي . الستم معي في نظرتي للكاتب... هذا الانسان الموهوب الذي كرّس نفسه وابداعه لعالم الفكر والمثل العليا والخير والجمال ؟ ماذا دهى هذا وذاك ، اذن ، من رفاقنا ومن تبعهم ، فباعوا انفسهم ووعيهم وعصارة ذهنهم عشرين مرة وتدنوا يقبّلون تراب من يدفع اكثر ؟ بأي دموع نبكي ، نحن محبي الحق والأخلاق ، حين نجد مثالنا الذي انتظرناه سنوات وسنوات يرقص ، آخر الأمر ، ويتلوى ويهز عجزه امام اسياده ، فيدفعنا بقسوة نحو التشتت والاضطراب الفكري والزوال ؟

ـ أنت تتناقض في أقوالك ياأبا الأدب وتقفز بأفكارك واستنتاجاتك ؛ فاذا كان الجيل الخمسيني على خطأ في اختياره ، فإن اصحابك الذين يهزون عجيزتهم كما تقول ، يريدون اصلاح الخطأ ، فلم هذا العتب ياأخينا ؟

هبَّ ابو الأدب من مكانه بحركة سريعة مفاجئة ، فبدا ، على الضوء الشاحب ، بالغ الطول والنحول :

ـ لاتخلطوا بين معاني المصائر ايها الاخوة ، ولاتضعوا الزائف في غير مكانه . حذار ، حذار .

ران علينا ، لحظات ، صمت غير مفهوم ونحن نتطلع الى شبح هذا الواقف على رؤوسنا يتحدث بلغة عجيبة عن امور غامضة مشكوك بصحتها .

ثم كأننا كنا على موعد ، اذا بانفجار عنيف غير بعيد عنا ، يهز المقهى هزاً شديداً فيوقع الأقداح ويقلب بعض الكراسي . قمنا فزعين وأسرعنا الى

مدخل المقهى وواجهته الزجاجية التي قرقعت كأنها على وشك السقوط . كانت المدافع الرشاشة تطلق طلقات متتالية تبعث على الرهبة ، وأزيز طائرة يتلاشى في الأفق . قال بعضهم انها طائرة اخترقت حاجز الصوت فأحدثت هذه الفرقعة ، وقال آخرون انه صاروخ أو قنبلة . كان الجو بارداً في الخارج ، والشارع ممتداً فارغاً والسماء لانجوم فيها . وكنت محتدم العواطف لغير سبب ، اشعر بحاجة الى تفريغ شيء ما من ذاتي لكي يشملني الاطمئنان .

دفعت في الظلمة حسابي وسلمت على الجماعة باختصار ، ولم يكن بينهم ابو الأدب ؛ ثم اسرعت باتجاه الباب الشرقي سائراً على مهل ويداي في جيوب معطفي ، افكر بأن امرأة عزيزة على القلب ، قد يمكنها ، بالمحبة والعطف ، ان تبعد عني وحشتي الأليمة هذه .

اوقفوني عدة مرات قبل ان اصل محل سكني ، وكانت الانفجارات تتوالى بين الحين والآخر . لم تفارقني بقايا الانفعال و الوحشة وأنا احاول النوم ؛ واسترجعت عدة مرات صورة واقوال ابي الأدب ذاك ، الشيخ المحترق ، وفكرت في دلالات اقواله ومعانيها الخفية . صممت ، قبل ان يغلبني النوم ، ان اراه مرة اخرى .

ولم يحصل ماحصل في الصباح التالي ؛ حين استيقظت متوتراً جنسياً وانا ملفوف بمعطفي وغطائي . زارتني في الأحلام صور لنساء كثيرات ، دون جدوى ؛ لم يتركن لي سوى التوتر والحسرة واليقظة المزعجة . كان النهار جميلا مشمسا ، يمثل دعوة الى الحياة لم استجب لها ؛ فلم أحلق ولم اغتسل ، وفضلت التسكع المهلك طوال النهار ، حاملا قذارتي اينما حللت ، لاأتذكر ما أكلت ولا مارأيت ، ولم ادر بم كنت افكر ولا ماكان يشغلني حقاً .

ثم قضيت الليل معهم في المقهى ، دون ان اقابل أبا الأدب ؛ وعدت كالعادة ونمت كالعادة ايضاً .

ولم يحصل ماحصل في هذا الصباح الذي اعقب الصباح التالي ؛ بل كان ذلك ، في الواقع ، بعد حوالي اسبوع او عشرة ايام ؛ فلقد تداخلت مكونات الزمن عندي آنذاك وصارت الأيام يوما واحدا والليالي ليلة مفردة ؛ الا ذلك الصباح المتألق ، حين ايقظتني الشمس بصمت . ففتحت عيني وتلبّثت ساكنا بين حشايا الأغطية . لم يكن للجوع او للقذارة وجود بعد ، وكان بامكاني ان افتتح ذلك النهار من شباط بأغنية سعيدة . ومرت هنيهات طيبة اهتز بعدها الباب برفق اولا ثم انفتح بغتة ووقفت فتحية امام ناظري كأنها انفلتت من احلامي . كانت بعباءتها ، صفراء الوجه تتلامع خضرة عينيها بقلق بالغ . وقفت على رأسي بوجل كمن يظنني ميتاً! افرحني وجودها المشرق هكذا في غرفتي ، فهتفت :

ـ أهلاً بالشمس والقمر!

فزعت :

ـ آه... توفيق ؟

ـ كلا ياسيدتي ، أنا شبحه فقط ، تفضلي بطلباتك .

جثت قربي على الأرض فنزلت العباءة على كتفيها وانتشر الشعر الغزير على جوانب وجهها :

ـ أخفتني . أأنت بخير ؟ ولم هذا الغياب ؟ ماذا تقصد ؟

اعتدلت جالسا اتأملها ، فقامت وجلست على حافة السرير . كانت بجمال خاص شدهت له . سألتها عما بها ، فبقيت تحدق في وجهي :

ـ لمَ لم تأت الينا ؟ ألاتدري بأني محتاجة اليك هذه الأيام أكثر من أي شخص آخر في العالم ؟ أنت الوحيد الذي يمكنني أن احدثه ويحدثني عنه ويعيد لي صورته ؛ألاتعلم ؟ وانت تغيب عني هكذا كأنك تتحاشى رؤيتي . أهذا صحيح ؟ قل لي .

ـ لاتكوني بلهاء .هل حدث شيء جديد ؟ وكيف حالك ؟

ابعدت حافتي العباءة عن بطنها المرتفع :

ـ تحرك لأول مرة منذ يومين ، افزعني قليلاً ، ثم امتلأت حبورا وسعادة . ماذا سأعمل ؟

ـ ستكونين زوجة رائعة .

مددت لها ذراعي وأمسكت بكفيها فضغطت عليهما بشدة ؛ كانتا باردتين ناعمتين . ابتسمتْ بحزن وقلق :

ـ مرَّ اكثر من شهرين على غيابه ولم يعد . هل ذهبت لزيارة أهله ؟

هززت رأسي بالنفي وسحبت ذراعي ثم قمت بتثاقل . كنت منزعجا ، اغالب هياجي الجنسي ورغبتي فيها بصعوبة ، واشعر بحرج من بقائها معي :

ـ اسمعي فتحية ، قومي ارجعي الى بيتكم الآن ، فليس مناسباً بقاؤك هنا ، وسألحق بك بعد ذلك . لاتقلقي نفسك كثيراً . فهذا مضر بالصحة كما تعلمين .

كانت تنظر الي متوقعة امراً مالا اعرفه ، ومندهشة قليلاً .

حلقت واستحممت في حمام قريب بمنطقة «المربعة» وأخذت طريقي الى حي العامل فوصلت الأسواق وضجتها وروائحها ، حوالي الواحدة بعد الظهر . كانتا تنتظراني ، هي ووالدتها . وجدتها تزينت زينة خفيفة راقت لي ؛ وكانت تسير ببطء وبطنها ظاهر ، وجسمها الممتلىء بادي المنحنيات ، يثيرني ويزيد من حرجي ؛ وكانت امها على وشك ان تفقد عقلها قلقا وهلعا مما قد يحدث او لايحدث ، وهي لاتترك فرصة تمر دون ان تستوقفني ، مرتجفة ، تتوسل بي ان انجدهم والا فقدوا كل شيء ؛ فأولاد زوجها هؤلاء ، بعد ان خسروا دعواهم الملفقة ضدها ، صاروا اكثر تشدداً وكرهاً لهم ، وهم يتحفزون ويراقبون الصغيرة والكبيرة ، فما العمل ، ومتى سيتم كل شيء بسلام إن شاء الله ؟ كنت اطمئنهما واعدهما خيراً ، وبقيت افعل ذلك طوال الغداء ومابعده ، حتى ندمت على حضوري او كدت . تمنت عليَّ فتحية ان اراجع اهل غسان باستمرار واتسقط اخباره منهم وعما اذا كان يراسلهم وهل من الممكن لها ان تكتب له هي ايضاً وكيف يكون ذلك...الخ

تبادلت معها ، عصرا ، حديثا طويلا ونحن في غرفتها ، وكانت مستكينة في جلستها على الفراش ، كأنها تشعر ، في الخفاء ، بأن كل شيء سينتهي بسلام آخر الأمر . ثم قمت فقامت معي ، وتوقفنا قرب الباب . كنت أحس بارتجافة لذة تملكني فأطردها فتعاودني . وانا اتملى من النظر الى فتحية ، هذه الفتاة التي أراها كأمرأتي ، وهي تبادلني نظرات العطف والود . اقتربت منها واحتضنتها من جانب . كان نهدها عاليا صلبا ، ضغط على صدري فاجتاحت جسمي حرارة يصعب وصفها ادارت في الحال رأسي .

شددتها برفق الي . كانت تخفض عينيها باستسلام الى الأرض ، لكنها لم تستجب لحركاتي . كررت عليها اقوالي المطمئنة ووعدتها بزيارة اهله ، ونصحتها بالصبر فأنا معها على الدوام . هزت رأسها دون كلام .

تمنيت ، وانا اعود ، ألا أعود وان امكث بجانبها ؛ وحينما دخلت المقهى ، موئلي الأزلي ، ادركت ان النسيان ، هذه الليلة ، لن يكون سهلاً . لم يأت أبو الأدب ؛ وبدا واضحا للجماعة اني لا استطيع التركيز تماما على ما في يدي من قطع الدومينو . صبروا علي ساعة ، ثم نهروني فاستسلمت وقمت اتركهم . كان الليل جميلا بليلاً ، وكنت احب السير في شوارع بغداد الخالية وأنا في هذه الحالة من الاضطراب الفكري والجسدي . استعدت صورتها وهي تقف بانكسار قرب الباب ، تاركة لي ان اضمها الى صدري .

حدست آنذاك انها تدرك مشاعري ولاترفضها ؛ وانها ، بسبب ماحدث بيننا ، تجدني ، بعد غسان ، املها في الحياة .

زرتهم بعد ايام خمسة واغرقتهم بأكاذيبي ؛ لم أدر كيف اتخلص من هذه المسؤولية الكبرى ، فلجأت الى اختلاق الزيارة لأهل غسان واستلامهم لرسائله وانتظارهم لمجيئه القريب الى بغداد . بدا على فتحية كأنها لم تصدق كل هذه الأنباء الطيبة التي أغدقها عليهم دون حساب ؛ فبقيت تنصت مفتوحة الفم دهشة ، غير قادرة على التعليق على كلامي . احزنني ذلك اذ أتذكره ؛ ولم اجبها جوابا شافيا عما اذا كان باستطاعتها ان تراسله ، وكانت

عيناها تتوسلان بي أن أفصح عن سبب عدم كتابته اليها . ثم إنها ووالداها احاطوني بمعزة خاصة وقدموا لي مع شاي العصر الوانا من الكعك اللذيذ . ولم تسمح لي بالاقتراب منها كثيرا ، وساءني وجرح قلبي ان تنحني في ظلام السلم ونحن بمفردنا فتقبل كفي . سحبت يدي كمن لسعته نار ، ووضعتها برقة على شعرها وانا احبس مشاعري .

تشتت لعبي ، تلك الليلة ، مع الرفاق فنهروني مراراً ، ثم تركوني جالسا على المائدة ، اشرب الشاي بسكون واستدين سيجارة من احدهم ، ادخنها دون لذة . لم يأت أبو الأدب ، وقيل لي انه حين يسرف في الكلام ، ليلة ، يغيب عن المقهى اسبوعاً او يزيد . كنت انتظره بشوق ، ظانا ان لدي سؤالا او سؤالين اوجههما إليه .

في صباح يوم جمعة من اواخر شباط ١٩٨١ ، تملكني القلق بشأن صحة والدة ثريا ، فقررت ان اذهب ازورهم واتغدى هناك . كنت طويل اللحية ، فلم احلق منذ ستة ايام ، فقصدت حلاقا حلق لي شعري ولحيتي ، ثم اقترح علي ان يغسل شعري بالشامبو ،فوجدت الفكرة عملية وطريفة .

وصلت الحي قبل الواحدة ، وكانت الشمس تملأ الشوارع ضياءً ودفئاً رائعاً والأفق يردد أصداء خطبة الجمعة في جامع دراغ ، وكنت حزين النفس . وجدت الجميع في الدار ، ووالدة ثريا تعيش ايام مرضها كما يجب ولاتريد ان تموت .

اخبرتني نجية بالأمر . لم يخطر لعبد الباري ولا لزوجته ان يفعلا ذلك .

كنت جالساً في غرفة الاستقبال استوضح من اخي عن قضية تجنيد ولديه حينما دخلت نجية حاملة ابنتها عنبر . كانتاجميلتين ، تشعان حيوية وبراءة . قبلت الاثنتين مرة واخرى ، واخذت الصغيرة بين ذراعي اضاحكها بسرور . جلست نجية بجانبي وسألتني عما اذا كنت ارغب بشرب شيء قبل الغداء ، فشكرتها وانا ما أزال ألاعب تلك المخلوقة الرائعة . ثم اني سمعتها تقول بصوت خفيض :

ـ عفواً عمي ، هل تسنى لك ان تذهب لتعزية جارنا الرسام عبد الأله ؟ لقد مر اسبوع على استشهاد ولده غسان ، ولم يقيموا الفاتحة وتبرعوا بمصاريفها للفقراء .

ـ ماذا! ؟ ماذا! ؟ ولده ؟ غسان... غسان ، قلت ؟

كنت أسير باضطراب ، قاصدا دار عبد الاله كمال القريبة من دار اخي عبد الباري . لم يكن الوقت مناسبا للزيارة ، غير اني لم انتبه لذلك في حينه . شددت على يده حين خرج لي بلحيته الشعثاء المليئة بالشيب وبعينين حمراوين . افهمته بأني عرفت النبأ تواً ، فدعاني للدخول . كنت مختل التوازن اكثر منه ؛ فقد بدا لي محتفظاً بكامل هدوئه . اوجز لي الحادث المروع ؛ فقد سقطت قنبلة معادية قريبا منه وهو يتهيأ للتمتع بأجازته فقتلته حالا . سرد هذه التفاصيل مثلما يحكونها في افلام الرعب... بصوت جامد لا انساني ؛ وكنت احس بنفسي ، جالسا امامه ، على وشك الاختناق وبأنفاسي تتقطع . كان مؤمنا مستسلما لما جرى ، وكنت ارفضه بكل وجودي ، وذلك ماكان يهلكني . واستطعت أن أحبس دموعي وأن أبقى صامتاً إلا من بضع كلمات لا معنى لها ، وجدت بعدها أن من الأفضل لي أن أتركه وانصرف لاختلي بنفسي ، فقمت مودعاً . رجوته ان ينقل تعازي الى زوجته ثم سألته عن حالها . لم يجبني الا بعد لحظات كدنا نصل بعدها الي الباب الخارجي .

ـ انها بأسوأ حال ، كأنها فقدت ابنها الوحيد . يالحسرتها والمها!

صافحته مرة أخرى ، وكنت أحن إلى احتضانه والبكاء على كتفه . استدرت ومضيت مبتعدا . انبثقت دموعي بسكون كما ينبثق الماء من الينابيع ، وانا اخطو اول خطواتي . كنت في وضع بالغ السوء حقاً ، فلم أسمعه جيداً إلا حين ناداني للمرة الثالثة التفت ، غيرمتأكد مما وصل اذني ، فوجدته يقبل نحوي حاملا حقيبة مدرسية خضراء متوسطة الحجم . اخرجت منديلا اجفف دموعي .

ـ انتظر قليلا استاذ توفيق ، انتظر ارجوك . هذه امانة لك كدنا

ننساها ، تركها المرحوم لدى امه واكد عليها ان تسلمها اليك في اقرب اجل تستطيعه . هاهي ، ها هي ذي ، ستجد المفتاح ملصقا عليها . انها لك ، لاندري مافيها . تفضل ، تفضل خذها .

تناولت الحقيبة من يده دون اكتراث :

ـ شكراً ياأستاذ عبد الاله . انها كتب استعارها مني . شكرا جزيلاً . يالأمانته!

هز الأب رأسه المتعب كأنه تخلص من واجب ثقيل ومد ذراعه مرة اخرى يصافحني وهو ينظر بفضول الى وجهي المبلل بالدموع . حييته ومضيت ثانية .

كنت اعلم انهم كانوا ينتظرونني على الغداء في بيت عبد الباري ، لكنني ، كمن ضرب على رأسه ، اخذت طريقي الى مسكني ، شارد الذهن ، ناسيا من كان ينتظرني .

وصلت غرفتي منهكا فرميت الحقيبة بعيدا على كومة الكتب واستلقيت على الفراش بكامل ثيابي . كنت اغلق ، في داخل صدري ، على بحر دموعي الفائض ، واجهد كيلا اصرخ او انتفض محطما تكوينات هذا العالم القاسي . اخفيت عينيّ براحة يدي اليسرى فارتحت وخف الضغط على جانبي رأسي ؛ وخلال لحظات لبثت هكذا ، مضطجعاً على السرير بين الارض والسماء ؛ فاقد الوزن ، وانفاسي تتلاحق وتتلاحق ؛ ثم... اذا بي انطلق باكيا بحرقة حارقة ، وانشج كمن ينزف وانا مازال على وضعي ذاك ؛ مخفيا عيني براحة يدي .

استيقظت ، لدهشتي ، عصرا مع اشعة الشمس الحمراء تختبىء في زوايا الحيطان الرطبة . نمت دون كوابيس ساعة وبعض الساعة كما يبدو ، وانا على حالي تلك لم اتحرك قيد أنملة ولم يمسني البرد . قمت متثاقلاً فآلمتني عظام كتفي وظهري . بقيت جالسا على السرير ، شاعراً بالجوع يقضم معدتي . تذكرت الغداء الذي فاتني في دار عبد الباري ، ثم تذكرت غسان ووالده وأمه سندس المعذبة وفتحية ؛ فملكتني ، انذاك ، ارتعاشة . اية تعاسات لامحيص عنها ، تنتظر هذه الفتاة!

بادرت الى الخروج بعد ان غسلت وجهي مليا بالماء البارد ، فانتعشت قليلا . كان علي ، بعد الأكل ، ان اقرر متى اراها وكيف افتح امامها كتاب الشقاء الآتي . لكأني موكل بهما ، ارعى سعادتهما حين تنبثق وتتألق ، واضمد جراح من يفقد منهما الآخر!

ياللقدر! ياللقدر!

كنت منزويا بين اللاعبين ، لاأشترك معهم ولايلتفتون هم الي . استدين سيكارة بين ساعة واخرى فيزجرونني لهذا التصرف والبخل ويمنحونني واحدة يشعلها لي احدهم فاشكره واعود الى خلوتي . اخبرتهم حينما اقبلت ، وقبل ان اجلس ، بأني الليلة ايضا غير صالح للمشاركة في اللعب ولكني بحاجة الى صحبتهم والى حرارة هرجهم ومرجهم وضحكهم .

كان الجو بارداً حين تركت غرفتي حوالي الخامسة والنصف . لم اجد مايؤكل ؛ ومع الدنانير القليلة المتبقية لدي ، توجب علي ان آخذ الحذر بهذا الشأن . اكتفيت بلفّة ابيض وبيض كما يسمونها ، ودعوت الله ان اخرج سالما من اكلها . شربت عصير برتقال إثر اللفة وتهاديت نحو مقهى حسن عجمي . كنت مستكيناً مثل خروف ، لايملك حتى ان يعلم متى يساق الى المذبحة ، ولم اعرف السر في انهيار قواي هكذا . كنت فارغ النفس ، خاوي الذهن ، لاادري كيف افكر ولا بم ولا في اي اتجاه . هنالك وقائع متباعدة ، شبه متنافرة ، اريد عبثاً ان اربط بينها واسوقها نحو مجرى مفهوم ومعلوم المسيرة . ولم يخطر لي ان ازور فتحية وان اخبرها بما جرى . تعللت ، دون اقتناع ، بأنها لن تنام الليل وستبكي طويلا . ثم قلت لنفسي ، دون اقتناع ، ان من الأفضل ان تواجه الحوادث المظلمة في وضح النهار ، لعل ظلمتها تخف . كنت تعيساً ، اتهلى بأفكار صبيانية ، مبعدا عني ساعة القيامة .

جلست ، اذن ، الى الطاولة السحرية ، اتطلع ببلاهة الى اصحابي ، يملكون ان يلعبوا بصفاء عقل وبراءة روح ، في حين احترق ، خفية ، بأسئلة عن افعال المستقبل . سأقول لها كل شيء ، اذ ، ماذا بامكاني ان اخفي آخر

الأمر ؟ ولعلها ستتصرف مثلي : تبكي كثيرا وتلطم وجهها ، ثم ستتوجه الي بالسؤال عما يمكنها ان تعمل ، ولن املك جوابا ، حتى لو بقيت اعواما افكر واقدح زناد العقل اللين هذا .

نبر جاسم الرمضاني يكلمني بغتة :

ـ مارأيك بسكرة مدمرة اخ توفيق لام ، فأنت الليلة في احدى المتاهات القاتلة ؟

ـ هذا هو الدواء الشافي ، ولكني لاأملك الكثير ، فهل تقرضني ؟

ـ كلا . لن أغامربما لدي .

ـ انت تحكم علي بالموت حسرة وحزناً .

ـ هذا شأنك ياأخي المفلس .

ـ ألعب من فضلك ، ولاتوزع اهتمامنا بالآخرين المفلسين .

ـ اسمع ياجاسم ، سكرني على حسابك مثل تلك المرة وسيغفر الله ذنوبك الأخرى .

ضحكوا ولم اشاركهم الضحك .

كنت معهم وانا افكر بفتحية . انها... لعلها تتدارك نفسها وتتحكم بأعصابها فلاتبكي كثيرا ولاتلطم خدودها او تصرخ ، بل تبحث معي بهدوء عن تسوية الأمور . ثم إنها ، قد يهديها الله فلا تسأل عن التفاصيل . التفاصيل... التفاصيل ، ما اهميتها ؟كيف قتل ومتى ولماذا وهل كان يهم بالمجيء الينا وهل اجيز وهل... وهل ؛ مافائدة كل هذا ؟ أليس من الأفضل للجميع ان نتقبل هذا الحدث المؤسي بما نقدر عليه من صبر وان نتهيأ للمستقبل ؟ ولكن ، عليّ ، قبل كل شيء ، ان اذهب اليها ، ان اواجهها وان اتكلم معهاوهي امامي .

ـ قل لي ياجاسم ، أأنت مصر ، الليلة ، على الا تسكرني على حسابك ولاتقرضني نقودا للقيام بهذه المهمة الشاقة ؟

ـ نعم .

- بئس الجواب القاطع!أنت ، يالعين ، لم تتردد حتى لحظة واحدة في الاجابة . بئس البشر القساة!

ضحكوا ولم اشاركهم الضحك .

ثم اني ، قبيل الساعة العاشرة ، دخنت سيكارة اخيرة وقمت بصحبة جاسم الرمضاني فذهبنا الى تلك الحانة التي يتردد عليها وشربت على حسابه بضعة كؤوس من العرق اللاذع ، ساعدتني بعد منتصف الليل ، على الاستغراق في النوم مثل اي حمار ، حتى ساعة متأخرة من الصباح .

ولأني عملت ، ماعملت في الليلة السابقة ، فقد كان طبيعياً ان استيقظ موجع الرأس وفاقد القوى بشكل تام . تركت فراشي ، ساعياً ان اتغلب على حالتي التعيسة هذه بتذكير نفسي بمايتوجب علي القيام به هذا اليوم . كان النهار ، على عكس التوقع ، رمادياً بارداً ، تتراكض فيه الريح بعصبية وتسفع الوجوه . خطر لي ، وانا اقف بتردد في عتبة غرفتي ، ان ترتيب الديكور المناخي من اجل الافضاء بأنباء محزنة ، هو من اشق الأمور على التنفيذ .

الا اني كنت ملزماً ، شبه مضطر للتصرف هذا اليوم ، رغم كل تلك القوى المجهولة التي كانت تدعوني بخجل لتأخير الذهاب الى حي العامل . لم يعد هنالك مجال للتراجع والاهمال ، فالقضية صارت حدية فجأة .

افطرت في المقهى الصغير ثم ذهبت لأحلق وجهي وابتلع حبة اسبرين . شربت بعد ذلك قدحين من الشاي الثقيل في مقهى حسن عجمي وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة والنصف بقليل والمطر ينزل خفيفا وباستمرار . عثرت في جيوبي على خمسة دنانير وستمائة فلس فقررت ان بامكاني ان استقل سيارة اجرة ، تلافيا لهذا المطر الذي تكاثف سقوطه وانا اخرج من المقهى .

كان الازدحام خفيفا امام اسواق الافراح والناس يتسارعون في السير لقضاء حوائجهم . فتحت لي هي الباب ، وكانت بمفردها ، تعمل في المطبخ ، وقد غطت رأسها بشال ملون . ابتهجت لرؤيتي فأحزنني ابتهاجها الذي لن يطول : واخذتني الى غرفتها . قالت انها ارسلت امها لشراء بعض

جيات من السوق الأخرى ، فقد اخذت تشعر بثقل في جسمها منذ ايام .
جلست على كرسي وثير قرب الشباك واستقرت هي أمامي ، ممسكة ببطنها المنتفخ . كان الضوء خافتاً ، وزوايا الغرفة مظلمة قليلاً .

بقينا صامتين . نظرت في وجهها الممتلىء السمح ، ولبثت لحظات ادوام النظر الساهم دون كلام . لاحظت شحوبا في محياها رغم امتلاء جسمها ؛ وبقينا صامتين راضيين بهذا الصمت الغريب .

رفعت ذراعها وازاحت الشال عن رأسها فانثال شعرها الاسود المحني على كتفيها بغزارة . لاح لي كأن الدموع تتلألأ في العينين الواسعتين الخضراوين سألتني :

ـ أأنت بخير .

وكانت ابصارنا تتحدث بلغة خاصة غير منطوقة فيما بينها . لم اجبها .

التفتُ الى الشباك لحظة ثم عدت الى الوجه المتوتر . همست بصوت مرتجف لايكاد يسمع :

ـ تكلم . هل حدث... هل حدث امر سيء في الدنيا ؟

أطبقت جفوني هنيهة دون كلام . جمدت مثل حجر :

ـ هو ؟

ـ نعم .

ـ غسان ؟

ووضعت يدها على فمها ، كأنها تريد بهذه الاشارة ، ان توقف الزمن وتمحو الماضي وتعيد تشكيل الكون واحداثه :

ـ لاتقل إنه...

ـ قبل عشرة ايام .

تغضن وجهها بشكل غريب والتوت شفتاها ، ثم انطفأ كل نور في ملامحها وعينيها . بذلت جهداً لتتكلم فلم تستطع . كانت مختنقة بكلماتها وعواطفها وافكارها ، وكان ، في تطلعها الي ، جنون هادىء مخيف .

قمت امسك بذراعيها مهدئاً .

ـ هو ؟ هو من دون البشر ! هو!

وحررت ذراعيها من يدي وضربت بهما ساقيها ووجهها ثم اطلقت من اعماقها آهة حرى طويلة انتهت بعويل ودفنت وجهها في يديها .

لم تتوقف عن البكاء الا بعد ساعتين او اكثر ، حين تشبثت بي تسائلني وتستوضح مني وتعيد السؤال والاستيضاح مرات ومرات . كانت فترة حزنها المستديم قد بدأت منذئذ .

ـ كيف عرفت ؟ قل لي . لاتخش علي . هم اخبروك ؟ وهم... أهم متأكدون ؟ أعني ـ أعني هل استلموا ، هل استلموا... وتخنقها العبرات فتتوقف لحظة :

ـ وكيف حصل ذلك ؟ كيف حصل ؟ كلا ، لاتخبرني ، كلا ، لاأقدر ان اسمع ، لاأقدر . ولكن... هل عملوا له اللازم ؟ وماذا قال لك أبوه ؟ ماذا قال ؟ وهل... هل سأل عني ؟ قل لي ، ارجوك . لم يسأل عني! وامه ايضاً ؟ ماذا تقول ؟ لم يخبرهما ؟! لم يخبرهما عني! أهكذا هو الأمر إذن ؟ لم يخبرهما عني ابداً . ابداً ؟ وابنه هذا... ابنه وابنهما... الا يعرفان عنه شيئاً ؟ ايصح هذا ؟ قل لي ، ايصح هذا ؟

كانت صدمتها وأساها اللامحتمل ، محاطين بأمور واقعية عبثية تزيد في حرقتها وتدفع بها الى حدود فقدان العقل . لم ترد ، في نفس الوقت الذي فقدت فيه غسان ، ان تلومه لاخفاء وجودها عن اهله ، ولم تستطع ، من جهة اخرى ، ان تواجه حقيقة عزلتها وانفرادها ، فسقطت ، لذلك ، شبه مغمى عليها .

كانت امها قد حضرت وفتحية في بداية نوبتها ، فساعدتني على حملها الى الفراش وتغطيها . كانت امها تبكي دون ان تنبس بكلمة . ذهبت الى المطبخ بعد حين وجلبت قنينة(فاليوم) وأرتني اياها :

ـ اعتادت منذ مدة ان تأخذ حبة كلما تأزمت الأمور .

استغربت ذلك ، ورجوتها ان تصنع لها قدح زيزيفون فهو خير من هذه الحبوب . تركت قنينة المهدىء جانباً ، فلعل الحاجة تدعو اليه بعد فترة . كانت فتحية مستغرقة في نوم مضطرب . وهي تتلفظ بكلمات مبهمة وتحرك رأسها بعنف من جهة لأخرى . تجمعت حبات العرق على جبهتها وحول عينيها ، وابيضت شفتاها قليلا خطر لي ان استدعي طبيبا من الجوار ، لكني فضلت بعدذلك الانتظار حتى عودة ابيها .

اخذنا ، انا ووالدتها ، نمسح وجهها بمنشفة مبللة وندلك اطرافها وساقيها ، فعادت اليها الحرارة وفتحت عينيها ببطء . ساعدناها على شرب المهديء النباتي الحار ، واخذت اكلمها بهدوء مطمئنا اياها بكلمات واقوال لااعرف كيف حضرتني آنذاك . كانت تطيل النظر الي بسكون وقد غمق لون عينيها واصطبغت تقاطيعها الشفافة بصفرة باهتة . وكنت ، بسبب المي ، قادرا على فهم ماكانت تنشده عيناها بأسى ، وماكان التواء شفتيها يقوله ؛ وكنت احسن باندحاري وانا برفقتها ، وبحاجتي للابتعاد عنها ، فلا طاقة لي ، بعد كل هذا ، على التحمل .

انتظرت ان يعود والدها واعتذرت بان لدي عملاً مهماً اعمله وسأعودعصراً . أشارت لي فتحية فسعيت اليها .

ـ لاتقلق ؛ لاتقلق علي ياتوفيق ، ولكن لاتبتعد عني اتوسل اليك . تحملني هذه الايام فقط ، واسهر علي ، ارجوك .

انحنيت عليها وقبلت جبينها وخدها وعينيها المبللتين . كان والداها في المطبخ يعدان لها حساء . رفعت وجهها بتردد . قبلت ، بشغف شفتيها الناعمتين الباردتين . لمست بأناملها وجهي بحركة رفيقة كرفة جناح الفراشة .

كانت العودة الى المأوى عبثية ، ولاهدف واضحا من ورائها او جدوى ، سوى كونها استجابة لرغبة مبهمة في الابتعاد عن جو المأساة الكئيب . كان الجو قد تحسن وانقطع المطر ، وما أن نزلت من الحافلة حتى شعرت بالحاجة

الى الرجوع اليها . كنت مستبردا وجائعا جوع الذئاب . لم يكن من التعقل ، والساعة جاوزت الثالثة ، ان اكتفي بأكل البيض والطماطمة مما يبيعونه في الشارع ، فحزمت أمري على الاهتمام بتغذية جسدي هذا اليوم . قصدت مطعما اعرفه في الكرادة الشرقية فأكلت بشهية كبيرة صحنا لذيذا من الدجاج المحشي على الرز حتى تخمت . ثم قررت ، وانا اشرب قدحا من الشاي الرديء الصنع ، ان اغتسل جسديا في الحمام العمومي القريب ، لعل هذه العملية ، الطارئة وغير الصحية كما يقولون ، تؤدي الى اغتسال نفسي من الهموم انا بأشد الحاجة اليه . كنت في نقطة تناقض حاد بين النواحي السوداء لهذه الحياة والبيضاء منها ، بين النواحي المظلمة والأخرى المضيئة ، بين النواحي الماضية المؤسية والنواحي المستقبلية .

اختبأت ، بغاية الارتياح ، وسط البخار الكثيف ؛ في زاوية صغيرة جوار حوض الماء الحار جدا . صفيت اولا حساباتي المتعكرة ، فاكتشفت بان دنانير ثلاثة ستتبقى لي بعد كل هذه العمليات الدجاجية والاستحمامية المنعشة ، وكانت التكملة المنطقية لذلك هي البحث عمن يمكن ان يقرضني ما اقتات به حتى موعد الراتب التقاعدي ، ولم يكن ذلك عسيرا على خبير مثلي .

كانت الارضية ساخنة يابسة ، يرتفع منها البخار حالما تُرش بالماء . وضعت منشفة صغيرة تحتي واتكأت بظهري على الحائط الدافىء ثم اخذت ، بكسل شديد ممتع ، اسكب الماء الحار على جسدي الملتم على نفسه ؛ وبهذه الوسيلة البدائية المجربة غادرت عالمي الممطر البارد ، المليء بالكوابيس ، واستكنت الى ذاتي الأخرى التي اعثر عليها احيانا ، فتشابكت الاذرع بمحبة وصرنا نتبادل الهمسات .

اردت ان اقول لفتحية... احبك... وانا اقبلها ، لكني احجمت . اخافني ماضيّ واملاقي ، والخيال الأسود المرفرف علينا . ماذا يمكن ان تجد فيَّ ، هذه الشابة التي ذاقت ، في سويعات ، حلاوة الالتحام بجسد فتي ملتهب!

غير انها ، مع ذلك ، تحس بارتباطها بي ، هذا الارتباط اللامفهوم الذي قد ينقذها آخر الأمر ؛ ولعلها على حق ولعل عليَّ ان ابقى معها كما تريد ، ففيَّ أمور غامضة تبعث الثقة في بعض الناس ، وهي منهم لحسن الحظ .

ثم اني ، من جهة اخرى ، لاأدري كيف يمكنني الاستمرار في هذه المعيشة اللعينة التي احياها دون وعي وبسرور احياناً! خوف من الجوع . خوف من الأفلاس . ثياب رثة . تبطل مستمر ووقت ضائع بين الشوارع والمقهى والدومينو . لاكتب . لاقراءة . لاتفكير مثمرا . لاعلاقات محترمة . لاانثى محبة ؛ والجنس خاصة ، هذه اللعنة المنصبة من السماء ، يمزق اوصالي ويبعثرني كما يجب ؛ ويذلني احيانا بشكل غريب فعلا . هاأنذا أتوتر وانا استعيد لمسة شفتيها ورائحة العرق المنبعثة منها! أتذكر ماجرى بيننا بكل لعناته . كم مضى كل شيء كأن لم يكن! وكم سيمضي كل شيء مرة اخرى كأن لم يكن ! ويقولون ان الانتحار محرم!

كان الجو اقل برودة مما توقعت حين خرجت من الحمام ؛ وكنت متردداً في الذهاب الى حي العامل ورؤيتها ثانية . كنت مثقلا بالأسى والهواجس ولم اكن بحاجة الى البكاء ولا الى سماع الشكاوي والأنين ؛ ولكن...

امسكت بيدي وضغطت عليها . لاحت لي كأنها محمومة مع هذا الشعرالكثيف الذي ازداد تناثره على كتفيها وحول وجهها .

ـ لاتتعب مني سريعا ياتوفيق .

ـ ماهذا الكلام!

ـ حدثني اذن عما قالاه لك... ابوه وامه .

ـ لم ار امه .

ـ اباه فقط ؟

ـ نعم .

ـ أهو متألم مكسور...مثلي ؟

ـ بدا لي متصابراً وراضياً بقضاء الله .

ـ ماأسعده! جازاه الله . وامه... اعني تلك المرأة ؟

ـ انها تتمزق الماً ، كأنها فقدت وحيدها ،كما قال ابوه .تصوري . لاحول ولاقوة الا بالله .

حدقت في عينيَّ هنيهات ، ثم اخفت وجهها بكفيها .

كنا جالسين بمفردنا في غرفتها ؛ هي على فراشها ، مغطاة بلحافها ؛ تستند الى مخدة خلف ظهرها ، وانا علي كرسي قرب السرير . تكلمت من وراء اصابعها :

ـ هو... هو ايضا كان يحمل لها احتراما وحبا . نعم ، كيف اقول ، شعرت انه يحمل لها حباً كبيراً لايوصف . رباه ، كم حكى لي ، كم حدثني عنها... تلك المرأة .

كان ضوء الغرفة شاحبا كالعادة ، والباب مغلقا ، وكل شيء حولنا ساكناً . وصلت الحي وهم يعدون العشاء ؛ فاشتركت معهم فيه .

اخلد ابواها الى غرفتهما وابقتني معها . كنت في نزاع مع نفسي ؛ اريد ان انصرف فتشدني اليها عاطفتي ورغبتي المكبوتة فيها . انزلتْ يديها :

ـ قل لي ، قل لي بصدق ، اتساعدني على الذهاب اليهم... على مقابلة ابيه و... امه تلك ؟

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ لااقصد شيئا معينا ، ولكني افكر ، لعلي اذ اقابلهم فيرونني واكلمهم واحكي لهم عما جرى ، قد يصدقونني . الا تعتقد ؟

ـ وماذا... ماذا تريدين منهم ان يعملوا ؟

ـ لاأدري . ماذا يمكنني ان اريد الآن ؟ لاشيء ممكناً . هكذا هو واقع الأمور ، أليس كذلك ؟ الشفقة ، ربما ، والاهتمام ؟ لست بحاجة إليهما . لاشيء ممكناً اذن .

ثم التفتت الى الجهة الأخرى ، تحاول ان تخفي عني الدموع السائلة من

عينيها بغزارة . كنت متألما مثلها وكنت افهم معنى محاولتها الطفولية اليائسة للتشبث بمن يمت بصلة لغسان ، ولكنني كنت اكثر قدرة منها على ادراك لاجدوى هذه الاعمال . سيظنون بها الظنون ، مهما بلغ بهم حسن النية ؛ وسيكتشفون امورها الأخرى التي لن تدعم وضعها بالتأكيد .

ـ فتحية ، عليك ان ترتاحي بعض الوقت . هذا امر مهم بالنسبة اليك ؛ نستطيع بعد ذلك ان نفكر بهدوء لحل المشاكل . ابكي الآن كما تشائين ، ابكي ؛ ولكن غدا يجب ان تفكري وتتصرفي .

ـ نعم ، هذا صحيح ؛ وانت ، هل تبقى معي لتحل... لتحل المشاكل ؟

ـ بالطبع . ماهذا السؤال!

لمست ذراعها الطرية القريبة مني ، فابتسمت لحظة ثم همست :

ـ كنت اريد ، اعني اذا حدث وقابلت والده ، ان يساعدني للتخلص...

واشارت الى بطنها .

ـ تسألينه عماذا ؟

كانت نظراتها متوسلة ، ذليلة ؛ زمت شفتيها كأنها لاتحب ان تبكي :

ـ لاأدري . لاأدري كم انا حائرة ياربي!

ـ اسمعي يافتحية ، لاأعرف ماذا كنت تقصدين بقولك هذا ، ولكنك اولا وقبل كل شيء ، لايمكنك ان تتخلصي من الطفل الآن ، لقد فات الوقت عليك وقد تقضي العملية على حياتك ، أتفهمين ؟

هزت رأسها بسرعة عدة مرات مثل تلميذة صغيرة . أثّرت بي حركتها تلك فضغطت على ذراعها .

ـ لاتستعجلي الأمور . دعينا نتمسك بالصبر .

ـ نعم ،كما تقول .

ولما هممت بالانصراف بعد ان اقتربت الساعة من العاشرة ، تمنت علي البقاء ، واخذت تحدثني عن انزعاج غسان وقتذاك ، حين وجدني مغادرا غرفتي ، كم أنبها وكرر تأنيبه عليها .

ـ ابق اذن ، توفيق .

ـ ليس الآن سأدبر اموري وارجع الى هنا . ليس الآن .

ـ لقد استوحشتك ، اعترف لك . كنت مخطئة .

ـ لاتتكلمي هكذا . انا المخطىء لا انت ، ارجوك ؛ ولقد طلبت المعذرة منك ، الا تتذكرين ؟

ـ كنت لطيفا جداً .

فاجأتني الغارة وانا اتمشى على غير هدى في شارع الرشيد والساعة جاوزت الحادية عشرة . لم افكر بالاختباء في غرفتي رغم البرد والوقت المتأخر . كنت مشحونابموجات عاطفية تتلاطم في صدري ، يصاحبها نوع من التوجس والحذر لم اعهده قبلاً . كان الشارع خاليا واصوات المدافع البعيدة وازيز الطائرات لاتبعث فيَّ اي اهتمام .

هنالك اكثر من معضلة تقترب مني وتثير فيّ هذا التوجس والحذر . لم ارتح للقائي بفتحية هذا المساء . لاأدري لماذا . ملكتني سوداوية وضيق حالما خرجت من الأسواق . لاأحب ان اقع في فخ ؛ وبغباء ايضاً . كلا . مزاجي لايتحمل مثل هذه الأمور تكفيني تعاستي وفشلي واسباب الضعف والاندحار المحيطة بي . كانت السماء متفتحة ، تمتد بصفاء مضيء فوق الشارع والبنايات المظلمة والأعمدة السوداء وفي الجو برودة منعشة . اجتزت الشورجة وصارت قدماي تقودانني الى مقهى حسن عجمي ، مثل كلب يعرف طريق البيت ؛ قد لايزالون هناك . ما لاأحبه كثيرا ان يساء تقدير قابليتي على التفكير واتخاذ القرار ، وان يُعبث معي بغلاظة زيادة على ماتفعله الحياة . حسنا ، ربما اكون الوحيد الذي بقي يحمل رائحة غسان معه ، ولكن ذلك لايبرر اية مشاريع اخرى طويلة الأجل ؛ فلقد أنهكتني ، روحا وجسداً ، هذه السنوات العجاف من الحاجة والتسول والمذلة والتشرد . ولاأدري كيف يمكن لاحد ان يفكر بالاستعانة بي بعد ذلك!

استحوذ علي فرح طفولي وانا اقترب من المقهى فأجدها ماتزال نصف

مفتوحة نصف مغلقة ، فدخلتها . احاطني الدفء ورائحة السكاير ونتانة الجالسين . وجدتهم متحلقين حول المائدة ، يتضاحكون كالعادة ، تحت نوركالظلام . لشد ما اسعدتني تلك الوجوه الهرمة ، فاندسست بينها . لم يتفوهوا بشيء جديدولا كنت انتظر منهم ذلك ، غير ان هذا التواجد البسيط معهم ، على التخت الخشبي ، منحني حرارة في القلب وبعض الراحة .

انتهت الغارة بعد جلوسي بقليل واضيئت الانوار . رفض جاسم اقراضي بدعوى عدم حمله للنقود ، وكذا فعل الآخرون وهم يضحكون . لم يهمني ذلك ، وخطر لي ان بامكاني تدبير شؤوني ليوم غد بما تبقى لدي من نقود لاتتجاوز الدينارين . لم أرد ان انصرف ، ولكني شعرت بأنهم اخذوا يتغامزون فيما بينهم بالخفية عني ، فأزعجني ذلك .

ـ لن أعود لمجالستكم إلا إذا تأكدتُ بأنكم ، رغم غبائكم ، قد توصلتم الى الاعتقاد بأن الافلاس لا يجب ان يدخل ضمن قائمة الممنوعات الانسانية .

وتركتهم وضحكاتهم المنفلتة تزداد ارتفاعاً . لم أكن مغتاظاً منهم ؛ وفي الحقيقة ، كنتُ أبتسم وأنا أخرج من المقهى مواجهاً الشارع الخالي والبرد وأفكاري المترددة الحائرة .

تذكرتُ وأنا أدخل غرفتي بأني أردت أن أتحدث مع جاسم الرمضاني هذا حديثاً جدياً وحميمياً . كنتُ أود ان اسمع منه عما كان يعنيه عن قبوله الحياة التي تعرض له مهما تكن ؛ وعن رفضه كلياً مشاكل التمرد والمعاناة ، ففي ذلك ، كما قال ، راحة مستديمة لاتنال عن طريق آخر . أيمكن هذا ؟ أن يتصرف مثل خشبة تُرفع وتخفض ، دون احتجاج أو إبداء رأي ؟ أيمكن هذا ؟ وكيف يمكننا التخلص ، إذن ، من ذلك الآخر في ذاتنا ، المتسلط ، العنود ، ذي الكبرياء والشموخ والطموحات التي لا تنتهي ، المجنون في أغلب الأحيان بالخيالات ؟

لم يأتني النوم كما توقعت . اشتعلتْ نار الرغبة في جوانحي وأنا ،

بشكل ملعون ، أستعيد واستعيد لقاءاتي بفتحية وصورها وقبلاتنا ونعمه صوتها ورائحتها ؛ وكنتُ أتقلب على السرير غير عارف ما أعمل بنفسي كانت فكرتها عن مقابلة والد غسان ومفاتحته بحالها وطرح مشروع الاجهاض عليه ، فكرة حمقاء دون ريب ويائسة ؛ إلا أني لم استطع ان ألومها . فالإنسان لا يتكلم أحياناً ، معبراً عن ذاته هو ، بل إن الوضع الذي يعيشه هو الذي يفعل ذلك ؛ فلكل حالة لغة تنطق بها ، ولغة آمرة اذا أردنا الدقة . فتحية ، الضحية القادمة ، تتكلم بلغة بطنها وما تحتويه ، وتدافع عن وجودها .

كنتُ متوتراً إلى درجة الألم ، في الغرفة الجرداء القارسة البرد . قمتُ من رقدتي أجلس في فراشي والحيرة تملكني في هذه الساعة التي سكنت فيها الدنيا سكوناً عميقاً والفجر على الأبواب . خطر لي بأن كتاباً مملاً ، ترجمة مغاربية لكتاب فلسفي مثلاً أو رواية تجريبية ، عربية خاصة ، قد يساعدني على النوم ، ولو ساعات قليلة . وضعتُ اللحاف على كتفيَّ ونهضتُ بتثاقل فأشعلت الضوء . كان ركام الكتب يحتل النصف الآخر من الغرفة ، فمضيت إليه . تثاءبتُ حالما وقع نظري على بعض العناوين ، فاستبشرت خيراً . كنتُ أقلب الكتب بيد وأمسك اللحاف باليد الأخرى وأنا أعاني من قعدة القرفصاء . انتبهت ، فجأة ، الى الحقيبة الخضراء مرمية باهمال في زاوية بعيدة عن الكتب . خامرني إحساس غريب وأنا أتطلع الى ذلك الشيء النادر ، المرسل اليَّ من وراء القبر . لم تكن لدى غسان بالتأكيد كتب تخصني ؛ فلقد أعادها قبل ذلك بمدة طويلة . أتذكر هذا جيداً ؛ كان في غاية الحرص والأمانة فيما يتعلق بشؤون الكتب ، وكتبي على وجه الخصوص . ياالله ، ما هذا إذن ؟

رميتُ مافي يدي وقفزتُ أتناول الحقيبة ، غير مكترث لسقوط اللحاف على الأرض . كنتُ خافق القلب ومنفعلاً غاية الانفعال . أيكون أودعها كتاباته التي حدثني عنها مداعباً ، وخلط بين وجودها الواقعي ووجودها في الخيال ؟ أم أنه كان يحيا حياة سرية منعزلة ، ويكتب مذكراته عنها ، ثم لم

يجد من يعهد له بها ، غيري أنا ؟ أم... أم هي أسراره الأخرى التي كنتُ أحدسها خلف أحاديثه حين يأخذه الشراب ، أو أتهجسها فيما وراء عينيه وأفق نظراته ؟

سحبتُ لحافي وأعدته الى السرير ثم أخذت ابحث عن المفتاح الذي قال أبوه إني سأجده مثبتاً في مكان ما . اقتلعته بسرعة ، ثم توقفت قليلاً . كنتُ مضطرباً لغير سبب معقول ، فأغمضتُ عينيَّ لحظة وتنفستُ بعمق مهدئاً نفسي ؛ ليست هذه هي الحال التي يتوجب عليَّ أن أكون فيها وانا أواجه امور الحياة المثيرة بغرابتها . أدخلت ، مع ذلك ، المفتاح الصغير في قفل الحقيبة الخضراء وأدرته كما يجب ثم رفعت الغطاء .

كان الفجر ، متسعاً ، أخّاذاً بألوانه الحمراء والزرقاء والصفراء ، يتفتح ببطء على رقعة السماء المنبسطة باسترخاء أمام شارع أبي نواس ؛ وكنت أسير على مهل ، واضعاً يديَّ في جيبيَّ معطفي ، أستنشق بعمق نسائم بقايا الليل الباردة . كنتُ بمفردي في غبش الطريق ، والنهر يجري بصمت وأنا أتملى منظر ولادة الصباح ، شاعراً كأن أعماقي تغتسل مثلما تفعل السماء ذلك في الأعالي . لم أتحمل البقاء في غرفتي بعد تلك الليلة البيضاء ، فخرجت أتمشى وأحقق هذه المسيرة العجائبية على ساحل النهر ، مستقبلاً يومي الجديد . أمس ، مع فتحية ، كنتُ أخفي رغبتي فيها وأنا خجل ، أحس بضعفي على أكثر من مستوى . لم تغرّني طلباتها الملحة للمساعدة ؛ فتلك مظاهر لا يُعتد بها . كان عليَّ أن أضع بعض الأمور في نصابها لتستقر بي الحال ولتسكن نفسي ؛ فليس مقبولاً ، بعد هذه السنوات ، أن ألبث مأزوماً ، محشوراً بين ضلفتي الباب ، لا أنفتح على الدنيا ولا أغلق دونها المزلاج . وأمس أيضاً ، كانت توسلاتها تتضمن ، من جانبي ، الوقوع في وهدة مظلمة ، قرارها اتفاق خفي مخزٍ وغير مبرر مطلقاً ؛ فأنا أفهم من هذا النداء الذي يضع قناع التوسلات ، شيئاً واحداً... الارتباط الدائم بكل ما يتبعه من متاعب ومشابكات . ولم أكن ، ولا أنا الآن ، ضده ؛ ولكن هذه الكفّة

المادية اللعينة تميل الى جانبها ميلاً خطيراً لا يحتمل ؛ وما ساعمله اليوم . مما قد يُسمى على أقل تقدير تضحية بالسمعة ، سيُنسى غداً ويبقى علي . في سنوات عمري الاخيرة ، ان اتعثر بمنقصتي المادية التي ستلاحقني أبد الدهر .

وجدتُ مسطبة تشرف على النهر فجلستُ عليها . أنستني حركة الاضواء المتصاعدة من الشرق تعبي . كانت الألوان تتغير بسرعة وتتألق وتندمج فيما بينها فينبعث منها مزيج برّاق مختلف ، يمسح برقةٍ قطيفة السماء الناعمة ويسحب ذراع الصباح اليه . كنتُ مذهولاً ، مغتبطاً . نسيتُ تقلبات نفسي وافكاري واستسلمت لهذا الجمال الذي تصنعه لي الطبيعة مجاناً . كأني بهذه اللوحة الفجرية ، دعوة رائعة للتمتع ببهجة الحياة .

بهجة الحياة... مباهج الحياة! يا للكلمات الموحية بالسعادة!

تذكرتُ غسان وما عمله معي . لم يكن إنساناً عادياً بالمرة ؛ وها أنذا أتأكد من ذلك بعد رحيله الأبدي . كان ، بحياء لا يصدق ، يخترق ببصيرته الحجب ويدرك نوع البشر الذين يعايشهم . ورغم شكي ، فإن معدنه الانساني كان قد صُهر ، كما يبدو ، بتجربة عظمى ، صفَّت ، بشكل ما ، روحه وقلبه وفكره . أكان ، إذن ، على علم بكل شيء... بكل الطوايا ؟ أو أنه ملك القدرة على التنبؤ ، وأدرك نوع الزمن الآتي فتداركه بطريقته الخاصة ؟ وكيف يتأتى لبشر أن يعرف مالم يخلق بعد أو يصير ؟

كنت متداخل العواطف مضطرب الذهن قليلاً بسبب هذه الليلة التي لم أنم خلالها . هنالك أمور تمسني ذات وجهين ملتصقين ، يصعب الفصل بينهما ، وكان عليَّ ، مع ذلك ، أن أفرز الأوجه كي أتميز الطريق .

قوي ضوء النهار وشَعت السماء فزاد تعب عينيَّ . قمتُ عائداً ، أسير ببطء وأنا أشعر بوهنٍ في جسمي كمن أصابته الحمى .

صادفت قرب سينما روكسي مخبزاً يبيع الكعك المحشو باللوز . أنعشتني رائحته المسكرة من بعيد ، فأحسستُ بالجوع .

أشتريتُ كعكة حارة وبدأتُ بأكلها حالاً . ثم أسعدني الحظ فلقيتُ صاحب المقهى الصغير يتهيأ لخدمة بعض الزبائن المبكرين وتقديم الشاي لهم فتوقفت وشربتُ قدحين من شايه الأحمر اللذيذ . كانوا يشربون بصمت من أقداحهم ؛ وكان طعم الشاي في فمي مختلطاً بمذاق الكعك المحشو باللوز والزبيب ، يضفي على صباحي النادر هذا الذي لم أنم ليلته ، صبغة خاصة جداً من الفرح المستتر في انتظار سعادة كبرى آتية .

فتحتُ باب غرفتي المقفل ودخلتُ ثم أغلقتها خلفي بالمفتاح . استخرجت الحقيبة الخضراء بحذر من تحت ركام الكتب حيث أخفيتها قبل خروجي ، ثم جلستُ على فراشي وفتحتها . كانت محتوياتها ما تزال كما تركتها قبل ساعات... نضدٌ من الدنانير منضّدة في لفافات محاطة بشرائط ومصفوفة بإتقان ؛ ملكتُ ، قبلئذٍ ، الوقت لتعدادها فكانت خمسين ألف دينار .

قال لي أبوه إنها لك . تركها غسان وأوصى أمه ان تسلمها إليك ؛ فهي إذن تعود لك وأنت مالكها فخذها . نحن لا نعلم مافيها .

هكذا تمَّ الأمر . دون شرح ؛ دون ايضاح ؛ دون كلمة اخرى ، دون حرف آخر . أفرغتها وقلّبتها عدة مرات وطرقت على جوانبها وفتشت الزوايا ، فلم أعثر على قصاصة الورق التي كنت أحلم بها ؛ وهكذا أنفتح عليَّ فم القدر الواسع دون سابق إنذار ، ووجدت نفسي أمام الوحش ، مُطالباً بأن أتفوه بكلمة السر اللعينة ؛ وصرتُ أنا الذي تملؤه الأسئلة ، مفروضاً عليه استخراج الجواب الصحيح من قعر البحر . يالمهازل هذا الزمن الدامي!

كنتُ ، في جلستي على الفراش ، شبه محموم ، يرنُ رأسي دون انقطاع . لماذا يعمل معي مثل هذه الأعمال ؟ ماذا كان يريد ان يقول لي باشارته الضخمة هذه ؟ هل كان يريد شيئاً معيناً ومحدداً ، أم... أم أراد ان يشير فقط ، ان يصنع لي رمزاً له دلالاته عبر الموت ؟

لقد صنعه حين كان حياً ؛ وحين كان حياً لم تكن هذه رمزاً ؛ كانت

عطيةً ، لا أكثر ولا أقل ؛ هديةً من نوع غير مألوف ؛ لكنها لم تكن رمزاً ، لم تكن إشارة لطريق معين . أما حين اقترن موته بها ، فقد بدّل من طبيعة العمل برمته وأحاله الى رمز ذي دلالة كابوسية ساحقة . أكان ، ذلك الشاب ، قد أحس باقتراب نهايته عن يقين... وتملّك ، بشكل غير طبيعي ، معرفة عميقة بحقائق رئيسية ثابتة ، تدور حولها حياتنا منذ الأزل ، فاستخدمها واستعان بمجرى الحقائق الخفية فضرب ضربته المتقنة هذه ؟

وها أنذا ، محاصر بالذكريات والرموز والرغبات المكبوتة والتهديدات ورؤى الجنة والنار ، أريد أن أقرر عن فهم وادراك ما يجب ان اعمله بشأن هذه الثروة ، ثروته ؛ بشأن تلك الفتاة ، فتاته ؛ بشأن جنينها ؛ بشأن حياتها وموتها ، بشأن سعادتها وشقائها ، بشأنها وشأني .

كنتُ متعباً ، متعباً . نحيتُ الحقيبة الخضراء جانباً وحشرت نفسي معها على السرير ، ملفوفاً بلحافي ومعطفي ، ثم أغمضتُ عينيَّ . أن يقول لي بصراحة... هذه الفتاة ، أنت تحبها مثلي ، فلا تتركها من بعدي تعاني مما فعلته بها ، وخذها زوجة لك ؛ حينذاك سيمكنني أن أجيبه أنا الآخر بمثل صراحته وأرفض رفضاً قاطعاً هذا العرض المشبوه . أما ، يا إلهي ، أن تتداخل أمورنا هكذا وتحتدم وتشتبك بشكل محير ، وتصير النتائج حاسمة بقدر ما هي متناقضة ؛ فذلك وقت يقتضي فيه أن نفهم بأن الهدف الاسمى لنا هو النجاة . تلك هي الكلمة... النجاة مهما ارتفع الثمن .

انقلبتُ على جانبي الايمن وضممتُ الحقيبة الخضراء اليَّ . كنتُ في غاية الانهاك ، أتوقد ، مع ذلك ، بالافكار والأسئلة ، تدور في ذهني وقلبي . لعله أراد شيئاً آخر من عمله ، شيئاً غير مباشر يجب أن أفهمه ، عليَّ أن أفهمه ، لأنه ظن ربما بأني قادر على فهمه . إن كل شيء هو لها مثلاً ، من حقها فقط ؛ وقد رُتبت الأمور لتكريس هذه النتيجة . وما أنا الا واسطة ، واسطة نقل بشكل من الاشكال . حسنٌ كل هذا ، ولكنه ملتوٍ بعض الشيء ؛ وقد يمكنني أن أهضمه ولكن... لكأنه ، بدلاً من التوضيح والاشارة الجلية ،

صار ينشد شعراً سريالياً معداً لكيلا يفهم! وصار عليَّ ، ملتاثاً بهذه الثروة الضخمة وضائعاً بين احتشاد المشاريع الحياتية ، أن أفهم بالضبط هدفه الحقيقي الذي أراده . والخطأ في هذا المجال ، أقل خطأ ، هو كارثة لا محالة ؛ كارثة اخلاقية ، يمكن ان تتحول بقليل من سوء الحظ ، الى كارثة مادية لا يرغب فيها أحد .

استيقظت والشمس تضرب عينيَّ بأشعتها المتوهجة وتملأ الغرفة نوراً . شعرتُ بألم في جنبي فقمت من ضجعتي وأبعدتُ الحقيبة الى جهة من السرير . كنتُ متكسر الاطراف ، تؤلمني عظام جسمي ؛ الا ان خفة في الروح ، كأنها سعادة غامضة ، كانت تساورني . نهضت ببطء ووقفتُ أحرك ذراعيَّ وساقيَّ عدة مرات ، ثم مضيتُ أفتح الباب على سعته . أمتلأت الغرفة بالأشعة البيضاء واندفعت نسمات ربيعية باردة ، فاستنشقتها بعمق ولذة . كان الوقت منتصف النهار كما يبدو ، وهذه الشمس تزغرد في سماء زرقاء صافية ، والشارع يغمغم من بعيد .

أحسستُ ، بمواجهة الشمس والسماء ودنياي ، بخفة روحي تزداد ؛ وخطر لي بأني في نهار رائع كهذا قد استطيع ان أفهم بعمق وان انفذ الى الخفايا التي استغلقت عليَّ ليلة أمس . ولعلي ، إذ أنشد بإخلاص مثال الخير والجمال ، أكون أكثر قدرة على الاختيار الصحيح واكثر صلابة في السير نحو هدفي .

فما دمتُ متأكداً بأني وغسان عشنا زمننا ، الذي أتيح لنا بالصدفة ، متحدين نفساً وعاطفة ورؤى ، فلا بد لي إذن ان أتوصل الى ادراك ما يُفترض أنه تمنى عليَّ أن أعمله ، له ولها ولي . لا بد .

إريانة ـ تونس
١٩٩٥-١٩٩٦

فؤاد التكرلي

الانسان قصبة ، بل هو أضعف قصبة في الطبيعة ؛ إلا أنه قصبة مفكرة ؛ ولا يتطلب سحقه أن يتجند ضده الكون بأسره ، بل تكفي قطرة ماء واحدة للقضاء عليه . لكن ، حتى لو سحقه الكون ، فالانسان يبقى أنبل من قاتله ، لانه يعلم انه يُقتل ، بينما الكون لا يعلم شيئاً من تفوقه عليه .

پاسكال

النبل = الوعي

من الضروري القول بأن هدف الأخلاق هو السعادة ولكنها السعادة التي تقدمها الأخلاق ، أي سعادة العقل في كائن فانٍ . لذا لم تكن السعادة إشباعاً للرغبات ؛ فالسعادة الفلسفية الحقة ليست هي إشباع حاجات حيوانية فينا ، بل هي العيش وفقاً للعقل .

ڤيل

Weil

الأوراق تتعانق
في الأشجار ؛
إنه عالم
خالٍ من الكلمات
لا شخصية له .

وليمز

لا يوجد تفاهم إلا بين الأفراد الحقيقيين .

ڤيل

الرجل الذي لا يملك موسيقى في روحه ، ولا يتأثر بتناغم الأصوات الحلوة ، ملائم للخيانات العظمى وللحيل ولأعمال النهب ؛ ودوافع روحه معتمة كالليل ، وعواطفه مظلمة مثل أريبوس .

شكسبير
(تاجر البندقية)

حلمي المألوف

أحلم غالباً هذا الحلم الغريب والثاقب ،
حلماً بامرأة مجهولة ، أحبها وتحبني ،
إمرأة ليست ، في كل مرة ، هي نفسها تماما ،
ولا امرأة اخرى تماماً ؛ تحبني وتحتويني ،
ولأنها تحتويني ، فقلبي شفيفاً ،
لها وحدها ، واحسرتاه!
يكف عن شغبه ،
لها وحدها ، ونداءات وجهي الشاحب ،
وحدها تعرف كيف تنعشها ببكائها .
سمراء هي أم شقراء أم صهباء ،
أجهل ذلك .
اسمها ؟ أذكر أنه ناعم ورنان ،
مثل سماء العاشقين الذين تنفيهم الحياة ،
نظرتها تماثل نظرة التماثيل ،
ولصوتها النائي والهادي والخفيض ،
انثناء الأصوات الأثيرة التي صمتت .

ڤيرلين

لكي تكون للعالم مرآة ، ينبغي أن يكون له شكل .

امبرتو إيكو

إن المدنية تعلمنا كيف نتعلق بالأشياء ، مع أن واجبها ان تلقننا فن التخلي عن الأشياء ؛ إذ لن توجد حرية ولا حياة حقيقية بدون تعلم التخلي وعدم الامتلاك . إني استولي على الشيء وأحسب نفسي سيداً له ، والواقع اني عبد له ، كما أني عبد أيضاً للالة التي أصنعها وأديرها .

سيوران

كاتب روماني يعيش في فرنسا

بنفسي وأهلي من اذا عرضوا له
ببعض الأذى لم يدرِ كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل
به سكتة حتى يقال مريب

إعرابي مجهول

حينما يغني من يسير في الظلام ، فإنه ينكر قلقه ، لكنه مع ذلك لا يرى بوضوح اكبر .

فرويد
١٩٢٦

وُلد الانسان للذة ؛ إنه يشعر بذلك وهو لا يحتاج الى دليل آخر ؛ وعلى هذا فهو يتبع عقله ويتعاطى اللذة في نفس الوقت .

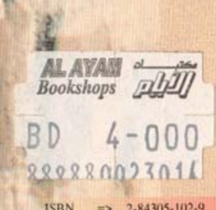
باسكال





الانسان قصبة ، بل هو أضعف قصبة في الطبيعة ؛ إلا أنه قصبة مفكرة ؛ ولا يتطلب سحقه أن يتجند ضده الكون بأسره ، بل تكفي قطرة ماء واحدة للقضاء عليه . لكن ، حتى لو سحقه الكون ، فالانسان يبقى أنبل من قاتله ، لانه يعلم انه يُقتل ، بينما الكون لا يعلم شيئاً من تفوقه عليه .

باسكال



ISBN => 2-84305-102-9
EAN => 9782843051029